

شعر الصعاليك

منهجه وخصائضه

دكتور عبد الحليم حفي



0149563



Bibliotheca Alexandrina

شعر الصَّعَالِيكِ منهجه وخصائصه

دكتور عبد الحليم حنفى



المكتبة الوطنية المصرية - القاهرة

١٩٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
”رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي“
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
قرآن کریم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

تيسيرا على ناقد هذا البحث ، في استيضاحه ما يراه غير واضح ، وفي وقوفه امام ما يراه غير قويم ، او غير واف من جوانب البحث ، ارى ان اخفف عنه بعض هذا الجهد ، وان اصرف عنه بعض التردد والوقوف ، فقد يكون الباحث أقدر من غيره على ادراك ذلك كله في بحثه .

ولناقد هذا البحث أن يشق في صدق عوني له ، فانتى لا ارى بين باحث العلم وناقده خصومه ، بل على العكس ، ارى فيهما رفيقي جهاد واجتهاد ، في أنبل ميدان تعرفه البشرية ، لانه الميدان الذي يقود البشرية الى امام ، وسط معوقات عاتية عنيفة تشدها الى وراء . ولست ارى في باحث العلم وناقده الا جنديين ، يحاول كل منهما بما أتيح له من جهد ، أن يساهم في تقدم البشرية ، ولو قيد شعره ، أو يحميها من القهقري في أهون الفروض .

وليس على باحث العلم بأس في أن يعين ناقده على نقده ، بل إراه واجبا تفرضه أمانة العلم ، ويوجبه شرف الميدان نفسه ، أعنى ميدان العلم .

ولا يستطيع باحث العلم أن يزعم لنفسه ولا للناقد أنه احاط بموضوعه علما ، وأنه سد منه كل ثغرة ، وانما يستطيع أن يقول : هذا جهدي واجتهادي ، لم أدخر منهما شيئا ، وليس يضير باحث العلم ألا يبلغ بجهد واجتهاده غاية الشوط ، فانه العليم الخبير قد وضع للعلماء شعارهم الأسمى في قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ووضع للعالم منهجه الأقوم في قوله سبحانه « وقل رب زدني علما » فلن يضير الباحث اذن الا يبلغ جهده واجتهاده غاية الشوط ، وانما يضيره أن يدخر جهدا استطاعه ، وأن يقصر عن غاية كان يمكنه بلوغها ، واذا كان هذا يضير الباحث ، فان هناك أمرا يملؤه ضيرا من قمة رأسه الى أخمص قدميه وهو التفريط عن عمد ولو ذرة في أمانة العلم ، هذه الأمانة التي رسم النبي صلى الله عليه وسلم منهاجها للعلماء في قوله « رحم الله امرأ سماع مقالتي فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

ويخيل الى أن أول ما يتبادر الى ناقد البحث ، سؤال تقليدي ، هو
لماذا اخترت هذا الموضوع لبحثك ؟

وأفهم من هذا السؤال أن الناقد يشير بسؤاله الى بعض النواحي ، منها
أن موضوع الصعاليك وشعرهم ، لم تحدده البحوث ، بمعنى أن هذا الموضوع
لم تتوفر عليه جهود من الباحثين ، حتى تجعل منه موضوعا واضح المعلومات
نير الطريق ، كشأن غيره من الموضوعات التي أصبحت واضحة مجتمعة الجوانب ،
ولكن موضوع الصعاليك وشعرهم لا زال متناثرا في شتات الكتب ، ومتفرقات
المراجع ، فالباحث فيه لن يجد كتباً عن الصعاليك ، ولا عن شعرهم ، كما
يجد في كثير من الموضوعات ، وإنما عليه أن يجوب كل المراجع العربية القديمة
ليجد خبرا عابرا في هذا الكتاب ، أو ترجمة لشاعر منهم في كتاب آخر ،
أو متناثرات من شعرهم ، وقد يتصفح الباحث كتابا كاملا فلا يجد فيه عنهم
شيئا ، وإن وجد قلن يجد سوى هذه المتفرقات ، ولا أعلم أحدا في القسديم
أفرد الصعاليك ببحث مستقل سوى السكري في كتاب اللصوص ، ولكن هذا
الكتاب لم يصل إلينا فيما نعلم ، وإنما نقل عنه بعض العلماء القدامى ، ومنهم
البغدادي في خزائن الأدب (١) ، كما لا أعلم أن أحدا في الحديث فعل ذلك سوى
الدكتور يوسف خليف في بحثه عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
فحسب ، وأغلب الظن أن تناثر موضوع البحث وصعوبته ، كانا أهم ما صرف
الباحثين عن الاتجاه إليه ، إثارا للعافية ، وتجنباً للخطأ في موضوع لم تتحدد
فيه البحوث ، ولم تتضح حوله الآراء والاتجاهات .

فأفهم من سؤال الناقد كأنه يشير الى هذه الصعوبة التي تكتنف موضوع
البحث ، وإلى هذه الظلال التي تعتم بعض جوانبه ، وكأنه يقول : هل وثقت من
بحثك في موضوع كهذا ، حتى تقدمه في رسالة علمية ؟

وأقول له : إن هذه الصعوبة وهذه الظلال ، لم يكن أحدهما مفاجئا لي
أو غريبا علي . بل لعلهما كانا أهم ما دفعني الى اختيار الموضوع ، فأنني أرى
أنه من العبث أن يبذل الباحث جهده في موضوع فرغ منه الباحثون أو كادوا ،
وأنه من العبث أن يترك الباحث موضوعا يمكن أن يأتي فيه بجديد من الجهد
والموضوع في حاجة الى هذا الجهد ، وإلى هذا الجديد ، الى موضوع يرى حوله
كثيرا من الجهود . ويرى فيه كثيرا من التجديد الذي يستنفد جوانب الموضوع
أو يوشك .

وكون البحث رسالة علمية لا أرى أنه يغير من الأمر شيئا ، فالمفروض في
كل بحث أن يكون علميا ، وكل ما يمكن أن تضيفه صفة الرسالة العلمية

هو اقتضاؤها مزيدا من الجهد ولعل هذا أيضا مما حفزنى الى اختيار صعوبة هذا الموضوع ، مقدرا أن حاجة الرسالة العلمية الى مزيد من الجهد أنسب ما تكون لموضوع هو فى حاجة الى مزيد من الجهد ، كموضوع الصعاليك وشعرهم :

وبالنسبة فإزمنة موضوع البحث ، يخيل الى أن الناقد يستنتج من عموم عنوان البحث أن يسأل السؤال التالى :

لماذا لم نحدد زمنا معيننا لموضوع البحث ؟

وأفهم من سؤال الناقد كان ينبغي تحديد عصر معين لموضوع البحث كالعصر الجاهلى ، أو الاسلامى ، أو نحو ذلك من التحديد الزمنى الذى يعين على حصر البحث وشموله ، والذى يؤلف عادة فى الرسائل العلمية .

وأجيب عن ذلك بأننى التزمت هذا التحديد فى البحث كله ، سواء فى الحديث عن الشعراء الصعاليك ، أو شعرهم ، فقد ميزت الشعراء الجاهليين منهم عن المخضرمين ، وعن الاسلاميين ، كما فعلت ذلك بالنسبة للمخضرمين وللإسلاميين ، حسب ما أتاحت لى الروايات والأخبار ، والروايات والأخبار فى هذا الموضع غير غامضة ولا ملتوية فى جملتها ، وإن لم تخل من ذلك فى تفاصيلها ، فالذى لا تنص الرواية صراحة على أنه جاهلى أو مخضرم أو اسلامى ، تسوق من أخباره ، أو من مضمون شعره ما يكشف عن الظروف المحيطة به فى صلاته وبيئته ، فنعلم من أى عصر هو ، فإن لم تفعل الرواية هذا ولا ذاك ، وجدنا فى رواية أخرى ما يسد ثغرات الرواية الأولى ، وكذلك الأمر فى شعرهم ، فبالإضافة الى التزامى فى الاستشهاد والتمثيل نسبة كل شعر الى صاحبه ، مما نعلم منه من أى عصر هو بالإضافة الى ذلك كان التفريق الأساسى فى الموضوعات ، وفى الخصائص ، فقد أشرت خلال الحديث عن الموضوعات التى طرقها شعرهم ، الى الموضوعات التى خلا منها شعرهم فى عصر من العصور ، أو التى انفرد بالحديث فيها شعر عصر آخر ، وكذلك فى الحديث عن الخصائص ، راعيت الحديث عن الخصائص التى يتسم بها شعر الصعاليك كله فى سائر عصوره ، والتى تميزه عن شعر غير الصعاليك ، وراعت الحديث عن الخصائص التى ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، مشيرا الى انفرادهم فى بعض المواضع عن شعر صعاليك الاسلام خاصة ، أو عن غيرهم عامة من الشعراء سواء أكانوا صعاليك أم لم يكونوا ، وكذلك فعلت فى تمييز خصائص شعر صعاليك الاسلام عن غيرهم على النهج السابق ، والخضمة ليست فترة زمنية حتى تجعل لها خصائص مستقلة ، بمعنى أنه لم تكن بين الجاهلية والاسلام فترة زمنية ، بالنسبة للمتقلبين بعقيدتهم من الجاهلية الى الاسلام فحصر الصعاليك إذن اما جاهلى ، واما اسلامى ، وليست بينهما مرحلة ثالثة

بالنسبة للمخضرمين ، الا فى نقتطين متقاربتين فى المضمون ، هما أثر الاسلام فى شعر المخضرم ، وأثر الاسلام من الناحية الدينية الروحية فى عصر المخضرمين ، وقد اشترت الى هاتين النقتطين ، فى فصلى صراع السلطة ، وخصائص شعر صعاليك الاسلام فى مقارنته بشعر صعاليك الجاهلية .

وحتى فى الحديث عن بيئة الصعلكة ونشأتها واسبابها ، فرقت بين عصرى الجاهلية والاسلام ، فى مقتضيات كل منهما بالنسبة للصعلكة .

ولكننى لم أوضح هذا التفريق بين العصور ، أو شمول البحث لها فى العنوان لأقنى لا أبحث عصرا واحدا أو عصرين مثلا ، حتى أحدد ذلك ، وانما أبحث شعرا لصعاليك كله ، أعنى ما وصل الينا فى كل العصور ، وقد كان العنوان واقيا فى الدلالة على هذا المعنى من حيث شموله لشعر الصعاليك مجملا ، اما التفصيل فمن شأن البحث ، وليس من شأن العنوان .

ولكن هذا السياق فيما أظن قد يجر الناقد الى سؤال اهم من السؤال السابق ، وهو : كيف يسوغ جمع شعر مختلف العصور والبيئات ، لبحثه فى موضوع واحد ، أو لوضعه فى بحث واحد ؟

وأقول له : قد يبدو غريبا حقا جمع شعر لشعراء من قبائل وبيئات كثيرة مختلفة ، ومن عصور كثيرة ومختلفة أيضا ، والمالوف فى البحوث العلمية الادبية بحث نوع واحد من الأدب ، أو أدب واحد ، لبيان ما فيه خصائص ، أو مدى تأثير الظروف المختلفة فيها ، أو بحث نوعين من الأدب ، للمقارنة بين ما يحملان من خصائص ، ولكن شعر الصعاليك متعدد البيئات ، ومتعدد الشعراء ، ومتعدد الصور ، وهذا موضع الغرابة التى قد تبدو من بحثه على هذه الصورة .

ولكننا لا نجد لهذه الغرابة موضعا حين نعلم أن شعر الصعاليك يعتبر وليد بيئة واحدة ، لا نعنى بها تشابه طبيعة شبه الجزيرة ، وانما نعنى أن شعر الصعاليك فى جملته تابع من حياتهم فى الصعلكة ، وحياتهم فى الصعلكة كانت دائما تختار أماكن معينة ، يكاد الصعاليك على اختلاف عصورهم لا يختلفون فى صفات هذه الأماكن وصورتها ، لأن أماكن معينة هى التى تصلح لمزاولة الصعلكة ، هى الجبال وصحراواتها ، فى الصورة التى صورها شعرهم ، ومن هذا نعلم أن بيئتهم واحدة ، لا تختلف من يدو الى حضر ، ولا من ريف الى مدن ، ولا من خصب الى جرد ، ولا غير ذلك مما يؤلف تأثيره فى شعر الشاعر ويختلف به شعر شاعر عن غيره ، فشعرهم كله وليد بيئة واحدة ، هى الجبال والصحراوات بل وليد جبال معينة ، وصحراوات معينة ، تتيح لهم مزاولة مهنتهم ، كما وصفوها فيما سياتى من البحث ، وكذلك بالنسبة للعصور ، فمع أن منهم شعراء فى الجاهلية ، وشعراء فى صدر الاسلام ، وشعراء فى عصر بنى أمية ، وشعراء فى العصر العباسى ، الا أن هذه العصور وإن كانت ذات تأثير كبير فى

شعر غيرهم ، فهي غير ذات تأثير بين في شعرهم ، لأن تأثير هذه العصور ليس من حيث انها أزمنة ، فالزمن لذاته ليس مؤثرا ، ولكن من حيث المجتمعات التي صاحبت هذه العصور ، بمعنى أن مجتمع العصر العباسي مثلا ، يختلف في حضارته وظروفه المختلفة عن مجتمع العصر الأموي ، وعن مجتمع العصر الجاهلي وهكذا نجد الاختلاف في حقيقته بين المجتمعات ، وليس بين العصور .

والصعاليك بحكم حياتهم في الصحراوات والجبال ، وبحكم عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمعات ، لم يتأثروا كثيرا باختلاف المجتمعات وظروفها ، الا من شذ منهم وقد أشرت اليه في البحث ، أما سائر الصعاليك ، فقد جمعتهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ، بيئة واحدة ، ونفسية واحدة ، وحياة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقد لا يكون بينهم من الاختلاف ما يكون في حياة الشخص الواحد من تقلب الأحوال النفسية والمعيشية به ، وقد لا يكون بين شعرهم كله - من حيث اختلاف الروح - ما يكون في شعر شاعر واحد .

وكل ما في شعر الصعاليك من فواصل ، هو ما بين الشعر الاسلامي والجاهلي لهم ، فالاسلام هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يترك في شعرهم أثرا ، ولذلك جعلته فاصلا في المقارنة بين شعرهم الجاهلي والاسلامي ، على أن تأثير الاسلام في شعرهم لم يكن كاملا ، فقد أثر الاسلام من الناحية الروحية فيهم ، فظهر في شعرهم جانب التوبة وجوانب أخرى محددة بسطت حديثها في البحث ، وأهمها روحى أيضا ، وهو الشعور بالذنب ، أما التغيرات الاجتماعية التي أضفاها الاسلام على المجتمع ، فلم يكن تأثيرها في الصعاليك كبيرا ولا بينا .

ومن حيث انه لم يكن في شعر الصعاليك من فواصل تؤثر فيه الا الاسلام ، لذلك لم أجعل غيره فاصلا في الحديث عن شعرهم ، فاختلاف العصور ، من أموى الى عباسى الى غير ذلك ، لم يكن له كما قلت تأثير بين في شعورهم .

والخص للنقاد هذه الاجابة ، بأن شعر الصعاليك من حيث البيئة يعتبر نوعا واحدا ، لا يحتاج بحثه الا الى بيان انعكاس هذه البيئة فيه ، وقد تحدثت عن ذلك وعلى الأخص في فصلى شعر الطبيعة ، وخصائص شعر صعاليك الجاهلية ومن حيث العصور ، يعتبر شعر عصرين ، هما الجاهلية والاسلام ، وقد بينت أثر كل منهما فيه ، مقارنا بينهما ، فى مواضع معنونة بلفظى الجاهلية والاسلام ، وخاصة فى فصلى الصعلكة فى الجاهلية ، والصعلكة فى الاسلام ، وفصلى خصائص شعر الجاهليين ، وخصائص شعر الاسلاميين .

وفيما يتعلق بالاستشهاد بالشعر ، قد يسألنى الناقد : لم أكثر من الاستشهاد بشعرهم فى بعض المواضع ، وقللت منه فى بعض آخر ؟

فأقول له : إن البحث في هذا كان نوعين ، نوعا يقتضى حشد أكبر عدد ممكن من الأمثلة ، للدلالة على شيوع هذا المعنى فى شعرهم ، وأهم ما يتمثل فيه هذا النوع ، الموضوعات ، فحين أقول مثلا أنه يشيع فى شعرهم الحديث عن الفقر ، فلا يبرز هذا الشيوع مثال أو مثالان ، وإنما يبرزه عدد كبير من الأمثلة لشعراء عديدين ، حتى يبدو فعلا أن حديث الفقر شائع فى شعرهم ، وهكذا بقية الموضوعات .

والنوع الآخر هو بقية المعانى التى يكتفى فى التدليل عليها بالمحدود من الأمثلة ، وغاية ما يلزم فى هذا النوع التمثيل لأكثر من شاعر ، أو للجاهلية والإسلام أن كان المقام يدعو أو يدعى اشتراك العصرين فى موضوع الحديث .

وأستبعد أن يكون الناقد قد عنى فيما عنى أننى لم أستشهد كثيرا بشعر غير الصعاليك ، للمقارنة بين شعر الصعاليك وهذا الغير ، أستبعد ذلك لأن موضوع البحث ليس مقارنة مباشرة بين شعر الصعاليك وغيرهم ، وإنما بيان منهج شعر الصعاليك ، والخصائص والسمات الغالبة عليه ، فهو بحث موضوعى ذاتى ، وليس بحث مقارنة ، لذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى كثرة الاستشهاد بشعر غيرهم ، إلا فيما يوجبه سياق معين ، وقد فعلت ذلك ، كما فى الحديث عن التصريح فى مطلع شعرهم ، فإن الحكم على شعر الصعاليك من حيث تصريح المطلع ، يستوجب أن نرى تقاليد غيرهم من الشعراء فى مدى التزامهم التصريح ، لنعلم حينئذ ، هل كان عدم التزام الصعاليك للتصريح أسلوبا خاصا بهم ، أم جريا على شيء مألوف ؟

وهناك سؤال لا أظن أنه يفوت الناقد ، وهو : كيف منهجك فى المراجع ؟ فأقول له : إن « شعر الصعاليك » الذى هو موضوع البحث ليس له قط - فيما أعلم - مراجع محددة مستقلة ، وإنما هى بعض البحوث المعدودة فى بعض جوانب محدودة ، معظمها فى صورة فصل موجز من كتاب ، أو ترجمة لبضعة شعراء من مشهورى الصعاليك كالشـنفرى وتابـط شرا والسليـك بن السـلـكـة ، وقد أشـرت إلى أهمـها فى مـصـادر شعرهم ، وذلك باستثناء البحث الذى أشـرت آفـا إليه (١) وهو جزء من الموضوع ، وحول موضوع هذا البحث ، وليس فى صلبه ، ولا أظننى استفدت منه غير الإرشاد إلى بعض المراجع ، على أننى أعتقد أن أهم مرشد إلى المراجع ، لبشـى وللبـحـث المذكور ، هو تاريخ الأدب العربى (٢) ، وذلك فى سياق حديثه عن ثلاثة من شعراء الصعاليك هم تابـط شرا والشـنفرى وعروـة بن الورد ، ولكنه فى هذا السياق ذكر أهم المراجع التى ورد فيها ما يتعلق هؤلاء ، سواء فى المراجع القديمة أو البحوث الحديثة ، بل

(١) بحث الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى للدكتور يوسف خليف .

(٢) للمستشرق كارل بروكلمان وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ النجار .

كاد يستقصيها ، ان كنت أملك هذا التعبير ، ولكنى أعتقد أن منهجه فى المراجع خير نواة لأى بحث عن الصعاليك وشعرهم .

وأقول « نواة » لان المراجع مهما تعددت ، فليس فيها بحث عن الصعاليك وشعرهم ، وانما فيها نصوص متناثرة ، متفرقة أشد التفرق . يستطيع الباحث مع ذلك بجهد أن يكون منها مادة لبحث علمي .

وأتصور الناقد يقطع على حديثى ليقول : ولكنك لم تستوعب كل المراجع القديمة التى يمكن أن يكون فيها شئ من شعر الصعاليك ، فأذكر الناقد بما قلت فى بدء هذه المناقشة . من انه لا يظن أن مرجعا من المراجع القديمة يخلو من شعر الصعاليك ، ومع ذلك فقليل منها يحوى من شعرهم قدرا مفيدا ، أما الكثير فبعضه يردد متناثرات مكررة فى مراجع أخرى ، وبعضه لا يحوى من شعرهم شيئا ذا غناء ، وعلى سبيل المثال ، فإن يتيمة الدهر للثعالبي بأجزائها الأربعة لا تحوى سوى بضعة أبيات من شعرهم ، قد لا تبلغ الخمسة ، متفرقة غبير مجتمعة (١) ، وزهر الآداب للحصرى كذلك ، مع اختلاف فى نسبة بعض هذا البضع ، ومع لبس فى بعضه الآخر ، كاللبس الذى لم يوضح بين صخر الهذلى وأبى صخر الهذلى (٢) والأول صعلوك جاهل سيأتى حديثه ، الثانى اسلامى أموى غير صعلوك وهذان المرجعان مثال لما يعانى به الباحث عن شعر الصعاليك من جهد فى بعض المراجع ثم يخرج منها بغير طائل ، فضلا عن هذا الجهد فى غير طائل بالنسبة لبعض المراجع ، فأنى أظن أن استقصاء كل ما فى المراجع للقديمة على اختلاف أنواعها ، فوق طاقة أى باحث .

ولكن الذى عنانى ، والذى أعتقد أنه وفى بحاجة البحث ، هو جمع أكبر قدر ممكن من شعرهم ، مراعى فيه تمثيله لأكبر عدد من شعرائهم ، ومن موضوعات شعرهم ، ولكل النواحي التى يعنى البحث بدراستها وإبرازها .

وكما بدأ الناقد حديثه بسؤال تقليدى ، فأننى أتوقع أن يختمه أيضا بسؤال تقليدى ، هو : على أى أساس رتبت أبواب بحثك ؟

وأجيبه بأن الشعر فى حقيقته هو مشاعر صاحبه نحو غيره ، أيا كان هذا الغير أعنى سواء كان هذا الغير من نوع الناس ، أم من نوع البيئة ومشاهدتها ومخلوقاتهما ، أم من أى نوع آخر ، بل حياة الشاعر نفسه وما يعانى فيها ، وشخصه هو بذاته وأحاسيسه يعتبرهما الشاعر من أهداف شعره ، مبينا مشاعره نحوهما ، وأصل هذا المعنى قرره ابن رشيق فى قوله « وانما سعى

(١) أنظر للمحال ج ٤ ص ١٢٣ .

(٢) أنظر للمحال زمر الآداب (هامش المقد الفريد) ص ٢٩٨ .

(٣) أنظر خزائن الآداب للبغدادي ٣٧٧/٢ وحاشية ابن تمام ١٢٠/١ .

الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، (١) ، والبغدادى فى قوله « وسمى الشاعر شاعرا لأنه يشعر لما لا يشعر له غيره » (٢) ، ومعنى ذلك أن الشعر ليس الا تعبيرا عن مشاعر صاحبه نحو موضوع الشعر ، وهذا المعنى يجانب أخرى متصلة به لم يعد موضع خلاف بين النقاد ، وحيث كان الشعر تعبيرا عما حوله ، لزم أن تلقى ضوءا على هذا الذى هو حوله من البيئة والظروف، لنرى مدى تأثير ما حوله فيه ، ومدى تعبيره عما حوله ، وشعراء البحث هم الصعاليك ، وهم طائفة من الناس لم يجمعهم نسب ولا مكان ولا زمان ، وإنما جمعهم وحدة الظروف ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف ، وهذا الذى جمعهم أو اجتمعوا فيه نسميه الصعلكة ، واذن فقد كانت موضوعات البحث فى جوهرها وتلخيصها ، هى شعر الصعاليك من حيث مدى تأثير الظروف المحيطة به فيه ، ومن حيث تصويره لهذه الظروف وتعبيره عنها ، مع مراعاة أن كل الظروف المحيطة بهذا الشعر كانت تدور حول حياة الصعلكة ، نتيجة لتفريغ الصعاليك لهذه الحياة ، واعتزالهم بها عن المجتمعات ، وقد تمثل هذا فى الموضوعات وفى الخصائص ، وقد اقتضى الحديث عن شعر الصعاليك ، بيان الظروف التى أحاطت به ، وقد تمثل هذا فى نشأة الصعلكة وأسبابها فى الجاهلية والإسلام ، وقبل ذلك كله لزم أن نعرف طبيعة الصعلكة نفسها ، وقد تمثل هذا فى البحث اللغوى والاجتماعى عن مدلول الصعلكة ، وقد كان ترتيب هذه الموضوعات فى البحث كما يلى :

١ - المفروض قبل أى حديث عن الصعاليك وشعرهم أن نعرف حقيقة الصعلكة والظروف والأسباب التى سمحت بنشأتها ، وأن نلم بصورة مهما تكن موجزة فينبغى أن تكون كافية لاتارة البيئة التى عاش فيها الصعاليك ، والحياة التى أحاطت بهم ، لأن شعرهم لن يكون - كأي شعر آخر - الا تعبيرا وتصورا لهذه الحياة والبيئة ، وقد جعلت هذا الموضوع الباب الأول لابناء البحث كله على فهم الصعلكة . وعلى تأثير بقية الباب فى موضوعه الذى هو شعر الصعاليك .

٢ - قبل الحديث عن شعر أى شاعر يقتضى الوضع أن نعرف من هذا الشاعر ؟ وما صفاته وما مميزاته أن كان له ميزات ؟ لأن شعره ثمرة مشاعره وعقله ، وهو حكم عليهما أيضا ، لذلك جعلت الحديث عن الشعراء الصعاليك الباب الثانى ، وراعى فيه الاقتصار فى ترجمة كل شاعر على ما يحدد شخصيته ويميزها عن غيرها ، مبينا زمنه من حيث الجاهلية أو الخضمة أو الإسلام ، وراعى أيضا أن العدد الذى ترجمت له ، والذي جعلت شعره موضوع البحث

(١) أنظر المجلد ١/ ١١٦ .

(٢) خزائن الأصب ١/ ١٨٤ الشاعر ٣٨ .

بحيث يكون عددا كافيا في تمثيل صعاليك العصر الذي ينتمى اليه ، وقد بلغ عدد الذين ترجمت لهم من فترات الجاهلية والخضرة والاسلام ثلاثين شاعرا ، كل شعراء فترة على حدة ، وذكرت عددا آخر مشيرا الى بعض مراجع أخباره ، لمن اراد أن يطلب المزيد من تراجهم وأخبارهم وأشعارهم .

٣ - وبعد ذلك كان من الطبيعي الحديث عن شعر هؤلاء الشعراء على ضوء ماسبقه من حديث صعلكتهم وبيئتها وظروفها ، فجعلته الباب الثالث ، وقد بينت فيه مصادرهم ، والاختلاف الذي وقع فيه ، ثم ركزت الحديث على صلب البحث ، وهو منهج شعرهم واتجاهاته الموضوعية ، وقد بدا منه أن شعرهم صورة من حياتهم في الصعلكة بكل ما في هذه الحياة من الآم الفقر وآثاره ، والهموم والشعور بالمطاردة ونحوهم ، وبكل ما فيها من حاجة الى أسلحة حسية وأسلحة نفسية ، وقد جعلت ذلك في فصول محددة ، رتبته حسب ما يقتضيه منطق حياة الصعلوك ، مشيرا الى هذا المنطق حينذاك ، وبالطبع لا تخلو حياة انسان من اجتماعيات ، وقد صور الشعراء الصعاليك اجتماعياتهم في شعرهم ، فتحدثت عن ذلك ، مبينا منهجهم في هذا النحو أيضا ، وقد كان منهجهم فيه حول حياة الصعلكة ومقتضياتها أيضا .

٤ - والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن نرى هل كان شعرهم من الأصالة والشاعرية الصادقة بحيث يمثل حياتهم هذه المنفردة المتميزة عن غيرها في كل شيء ؟ فجعلت هذا الحديث بابا رابعا وأخيرا ، لبيان الخصائص والسمات التي يتسم بها شعرهم في جملته ، والتي تبدو مميزة له عن غيره ، ولما كان الاسلام كما قلت هو الفاصل الوحيد الذي أثر وخاصة الجانب الروحي منه في شعر الصعاليك ، لذلك بينت هذا التأثير في مقارنة بين شعر الجاهليين والاسلاميين منهم . وبعد هذا فلسنت أزعم للناقد أن هذا البحث قد أغلق الباب على الباحثين في الصعاليك وشعرهم ، بل على العكس أرجو أن يكون هذا البحث فتحا للباب أمامهم ، وليس غلقا له ، فان في أشخاص الصعاليك من الصفات المتميزة ، ومن المواهب النفسية والجسدية ، ومن الفضائل أيضا ما يدعو حتى الباحثين فيهم ، الى معاودة البحث في شأنهم مرة أخرى .

ولست أشك في أن الدارس للصعاليك وشعرهم يخرج من دراسته هذه ، بصورة تختلف اختلافا الا يكن كاملا فهو غير يسير عن الصورة التي كانت مرتسمة في ذهنه وذهن كثير غيره عنهم ، وما أظن هذا الدارس الا منتهيا الى أسف غير ضعيف على طائفة جنت عليها بيئتها ، وجنى عليها مجتمعا ، حيث دفعها أو ساعها بالكبر قسط في دفعها الى الشر دفعا ، ثم طمسا ما فيها من خير وفضل بإغلاق السبل في وجهه أو تحويله الى شرور عاتية .

وما أظن هذا الدارس الا موافقا لي على أن هذه الطائفة لو أتيح لها مجتمع

غير مجتمعها لكان لكثير من أفرادها شأن غير هذا الشأن ، ويكفى أن منهم من لو أقصفه الناس لعدوه من رواد الاشتراكية في التاريخ كله ، كعروة بن الورد ، ويكفى أيضا في خلقهم أنهم جميعا كانوا أعف الشعراء لسانا ، سواء حين يرضون وحين يستخطون .

وما أظن هذا الدارس أيضا الا موافقا لي على ما هو أهم من ذلك لموضوع البحث ، وهو أن شعر الصماليك الا يكن جيدا رائعا كله ، فان كثيرا منه ، وخاصة كثيرا من جاهليه يسمو الى قمة في جودة الشعاعية والتصوير تنافس أسمى ما وصل اليه الشعر العربي ان لم تجاوزه في بعض الأحيان ، كما في لامية العرب ، وبعض شعر الهذليين ، وان هذا الشعر ان يره البعض متخلفا بعض الشيء في بعض النواحي غير الموضوعية كعلم وفائه بكل الأغراض التي طرقتها الشعر العربي ، فقد تقدم على غيره في نواح أخرى كان فيها أتم من فضج غيره ، كالأسلوب القصصي ، والتمثيل الواقعي لحياة أصحابه وأشخاصهم وفي ختام هذا الحديث أقول : مع أن في المحاوراة السابقة فيما أظن عونا حقيقيا وصادقا للناقد ، الا أن من الحق ومن أمانة العلم التي تحدثت عنها أن أقول : أنه لم يكن في ذهني فاقد حقا حين لجأت الى هذه المحاوراة ، ولكنني وجدتني أضيق بجفاف كثير من المقدمات ، فأشفقت على قارئ هذه المقدمة أن يحس نعوما بالضيق الذي أحسه نحو كثير من المقدمات ، فلجأت الى هذه المحاوراة ، راجيا أن تخفف بعض ما قد يكون فيها من جفاف ، وقبل ذلك كله ، وبعدة أيضا ، أسأل الله جل علمه التوفيق .

د • عبد الحليم حنفي

الباب الأول

الصلاة

١ - الصعلكة فى اللغة

قال القاموس المحيط « صعلكه أفقره » . . . والصعلوك الفقير ،
وتصعلكت الابل طرحت أوبارها ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد ، لأنه كان
يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يفتنه ، وصعلك الثريدة اذا جعل لها
رأسا ، والصعلك من الأسنة الذى كأنما حدرجت أعلاه حدرجة ، وقال
الأصمعى فى قول أبى ذؤاد يصف خيلا :

قد تصعلكن فى الربيع وقرع جلد الفرائض الأقدام .

قال تصعلكن دققن وطار عفاؤها عنها ، والفريضة موضع قدم الفارس ،
. . . وصعلك البقل الابل أى سمها . . . »

وفى هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر ، وأنها فى استعمالاتها
الأخرى تدور أيضا حول الفقر ، أما بمعناه المباشر وهو التجرد ، فإن الفقر
فى الانسان هو التجرد من الغنى ، وكذلك التصعلك فى الابل بالتجرد من
أوبارها وصعلكة الثريدة تجريدتها من الضخمة ، وهكذا ، وأما بآثاره
كالضمر والهزال مثل تصعلك الأسنة باستدارتها وضمرها بالنسبة
للأسنة الأخرى المتبعجة والضخمة ومن هذا تصعلك الخيل فى الربيع فى
البيت السابق ، كما أشار الأصمعى الى ذلك فى شرحه للبيت السابق بقوله
« دققن ، وطار عفاؤها عنها » وأما كون تصعلكها فى الربيع فقد يكون
ذلك لأن الشاعر أراد اجهاد الخيل وارهاقها بركوبها والتنقل بها وراء الرزق
الذى يرجى نموه فى الربيع ، ويؤيد ذلك قوله « قرع جلد الفرائض الأقدام »
والفريضة موضع قدم الفارس ، أى أن جلود الخيل من كثرة احتكاك الأقدام
بها فى الركوب ، وحشا على السرعة ، قد تقرعت .

فيمكن إذن رد كل هذه الاستعمالات الى معنى الفقر أو آثاره من ضمر

وهزال ونحو ذلك ، ولا يصطلم بهذا مثل قوله « وصعلك البقل الأبل أي سمنها » ومع ذلك يمكن حمله على آثار الفقر أيضا ، فقد يراد أن الأبل حين تسمن تسلك مسلك الصعاليك - بالمعنى العرفي للصعلكة - من النفور والشرد والهياج ، والصعلكة بهذا العرف تعتبر في أهم جوانبها أثرا من آثار الفقر .

وقال في لسان العرب « الصعلوك الفقير الذي لا مال له ، زاد الأزهري ولا اعتماد ، وتصعلك الرجل إذا كان كذلك ، قال حاتم :

غنيما زمانا بالتصعلك والفنى فكلما سقناه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزدى بأحساننا الفقر

وتصعلكت الأبل خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصعلك الرأس مدوره ورجل مصعلك الرأس صغيره ، وقال شمر : المصعلك من الأسنة الذي كأنما حدرجت أعلاه حدرجة كأنما صعلكت أسفله بيدك ثم مطلتها صعدا أي رفعته على تلك الدملكة والاستدارة ، قال الأصمعي يصف خيلا :

قد تصعلكن في الربيع وقرع جلد الفرائض الأقدام

قال : تصعلكن دقن وطار عفاؤها (١) عنها .

ومن هذا نرى أن صاحبى اللسان والقاموس متفقان على أن المعنى الأصلي للصعلكة هو الفقر ، وأن استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد الذي هو معنى الفقر أو أثر من آثاره ، وأن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوي للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفي لها بقوله « وزاد الأزهري ولا اعتماد » فان قوله « ولا اعتماد » يعبر عن معنى دقيق في مفهوم الصعلكة بالمعنى المعروف لها ، وإذا كان الفقر من أهم الدوافع إلى الصعلكة ، فإن ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا حالة على غيرهم أو أن يجعلوا من أحد من الناس عمادا لهم ، في حين رضى بعض الفقراء لأنفسهم عيش الذل ، واستدراج الحسنة ، ويعبر أحد الصعاليك وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسال (٢)

وأما الجوهري فيقول في الصحاح عن الصعلكة الصعلوك الفقير
وصعاليك العرب ذؤبأنها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغمه ، والتصعلك الفقر ، قال الشاعر .

(١) الفاء بكسر العين قال في القاموس هو الشعر الطويل الوافي .

(٢) حساة أي تمام ج ٣ ص ٩٣ .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى .

أى عشنا زمانا ، ويقال تصعلكت الابل اذا طرحت أوبارها . وبهذا نجد أن الصحاح يتفق مع لسان العرب والقاموس المحيط (١) فى أن المعنى الأصلي هو الفقر ، وأن استعمالها تدور أيضا حول التجرد .

ولكننا نلاحظ أن الصحاح بقوله « وذؤبانها » قد تقدم نحو المدلول العرفى للصعلكة خطوة كانت أوسع من خطوة اللسان ، فقد أشار بذلك إلى أن الصعلكة تستعمل فيما تستعمل فيه كلمة « ذؤبان » وحين نذهب إليه أعنى الصحاح ، فى شرحه لكلمة « ذؤبان » نراه يقول « وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون » ، فقد صرح اذن فى شرحه لكلمة « ذؤبان » أن الذؤبان هم الصعاليك ، وأن الصعاليك ليسوا مجرد الفقراء ، وإنما يتلصصون ، فى حين أنه لم يذكر هذا المعنى صراحة فى شرحه للفظ الصعلكة .

ومن العجيب أن المعاجم الأخرى شاركت الصحاح أيضا فى أنها كانت أكثر توضيحا لمدلول الصعلكة الاجتماعى أو العرفى عند شرحها لمادة « ذاب » أما فى مادة الصعلكة نفسها فقد اكتفت بالتركيز على معنى الفقر والاستعمالات التى تدور حوله وحول آثاره ولوازمه .

وكذلك فعلت معظم كتب الادب واللغة ، فمع أننا نجدها تسوق أخبار الصعاليك على أنهم قطاع طرق أو فتاك أو لصوص نجدهم عندما يتعرضون لشرح كلمة صعلوك لا يكادون يتعدون الفقر أو التجرد من المال كما فعل المبرد (٢) والقالى (٣) ، وقليل من هذه الكتب ما يتحدث عن المعنى العرفى للصعلكة ، كما ورد فى جمهرة أشعار العرب حيث يقول « الصعلوك الفقير ، وهو أيضا المتجرد للغارات » (٤) ، وهو - فيما نعلم - أكمل تعريف أوردته الكتب لمعنى الصعلوك أو لشرح الصعلكة أما الكتب الأخرى فلا نملك إلا أن نسجل عليها شيئا من قصور فى شرحها للصعلكة ، وكذلك دوائر المعارف التى أخذت عنها (٥) .

حيث اكتفى معظمها باعتبار أن الصعلكة هى الفقر أو التجرد من المال (٦) وأورد بعضها زيادات وإن كانت تشير إلى المدلول العرفى (٧) ، إلا أنها لا تصرح

(١) مع مراعاة أن القاموس متأخر عن الصحاح وأخذ عنه كما فى خطبة القاموس .

(٢) الكامل ج ١ ص ٣١٠ .

(٣) الامالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ .

(٥) مثل دائرة معارف القرن العشرين .

(٦) كما فى القاموس مادة (صعلك) والكامل ج ١ ص ٣١٠ والامالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٧) كما زاد فى اللسان (ولا اعتماد) وفى الصحاح (وصعاليك العرب ذؤبانها) وكلامها

فى مادة (صعلك) .

به . مع انها جميعا تتفق ولكن فى مواضع اخرى غير موضع لفظ الصعلكة ، على ان الصعلوك ليس هو مجرد الفقير ، فكتب اللغة (١) تشرح الصعلكة على انها اللصوصية والتدؤب ولكن فى مادة اخرى - كما سيأتى - هى مادة ذاب ، وكان اولى بها ان تسوق ذلك فى مادة الصعلكة نفسها .

وكتب التراجم واللغة والأدب تصف أشخاصا بأنهم صعاليك ، وتسوق أخبار صعلكتهم على أنها لصوصية وغارات وفتك ونحو ذلك ولكن معظمها حين يشرح لفظ الصعلكة يعرفها أيضا بأنها الفقر والتجرد من المال (٢) دون أن يعرض لمدلولها العرفى الذى يتحدث عن الصعاليك به .

٢ - الصعلكة والألفاظ أخرى :

والواقع أن هناك ألفاظا أخرى تشارك الصعلكة فى مدلولها ، ولا يسع البحث فى هذا الموضوع أن يتجاهلها ، لأن فى تجاهلها خلافا بجوانب من الموضوع نفسه ، وذلك أن موضوع البحث لا تعنيه الصعلكة بمدلولها اللغوى وهو الفقر ، وإنما يعنيه مدلولها العرفى ، وهو اللصوصية وقطع الطريق ، وباقى أساليبهم العدوانية ، وهذا المدلول تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى تعارفت كتب التاريخ والأدب العربى أن تصنف بها هذه الطائفة التى نحن بطلدها ، دون تحديد فاصل بينها ، بحيث نجد بعضها يتداخل فىؤدى معنى البعض الآخر ، كما فعلت معاجم اللغة فى إحالتها معنى التصعلك على التدؤب واللصوصية .

وهذه الألفاظ كثيرة ، وأشهرها ، لص ، وذئب ، وفاتك ، وخليع ، وشيطان وشاطر ، وبعض هذه الألفاظ الصق بالصعلكة من بعض .

ومن الواضح أن أقرب هذه الألفاظ إلى المدلول العرفى للصعلكة هو اللص ، وذلك بحكم وضعه اللغوى ، وبحكم استعماله .

وقد لقيت كلمة « ذؤبان » اهتماما فى توضيح مدلولها العرفى أكثر من الاهتمام بغيرها ، فى القاموس المحيط « ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » وفى الصحاح « وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون » وفى أساس البلاغة « من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطارهم » وفى لسان العرب « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئب » وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون » (٣) وهكذا تتفق كتب اللغة مع الروايات

(١) كالصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط ، انظر فيها مادة (صعلك) ومادة (ذاب)

(٢) انظر على سبيل المثال الكاتل للبردة ج ١ ص ٣١٠ وشرح التبريزى لحامسة أبى تمام ج ١ ص ١٥٦ والامال للقال ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) انظر مادة (ذاب) فى الكتب السابقة .

الأدبية والأخبار على وصف الصعاليك بأنهم من ذؤبان العرب ، وتفق أيضا على أن لفظي ذؤبان وصعاليك يؤديان معنى واحدا يدور حول السطو واللصوصية .

وأما لفظ « فاتك » فقد تذبذب بين استعمالين ، استعمال في معنى السطو وقطع الطريق ، أى فى معنى الصعلكة ، واستعمال عام يدور حول الجرأة والشجاعة وإن كان فيه شيء من أساليب الصعاليك ، فأما الاستعمال الأول فقد ورد كثيرا فى تراجم الصعاليك كأبى خراش (١) . وسعد بن ناشب (٢) ، وفى أخبار أخرى ، كما يروى الميداني عن فاتكين مجهولين يقول أحدهما للآخر « هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدا من عشيرتك أو عشيرتي الا سليناها ، قال : نعم ، فتعاقدا على ذلك ، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلباه . . النخ »

وأما الاستعمال الثانى وهو الجرأة والشجاعة ، فنجد فى كتب المعاجم يقول : القاموس المحيط « فاتك : جرىء شجاع ، وفتك به انتهز منه فرصة فقتله أو جرحه (٣) » . ونلاحظ أنه يضيف الى الجرأة والشجاعة معنى آخر هو المغافلة والعييلة ، وهذا المعنى هو الذى يربط الفتك بالصعلكة ويجعلهما عند التطبيق فى وصف شخصى ما يلتقيان بحيث يؤدى أحدهما معنى الآخر ، وهذان المعنيان للفتك ، الجرأة والغيلة ساقهما الصحاح حيث يقول : « الفاتك : الجريء ، والجمع فتاك ، والفتك أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله ، وفى الحديث (قيد الايمان الفتك) (٤) » .

وأما صاحب لسان العرب فقد أضاف الى المعنيين السابقين معنى آخر ، هو مضاء العزيمة وغلو الهمة مع الاستقلال بالرأى ، فنجد فى قول « الفتك : ركوب ما هم من الأمور ودعت اليه النفس ، والفتاك : الجريء الصدر ، وفاتك : جرىء وفتك بالرجل انتهز منه غرة فقتله أو جرحه ، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة . وكل من قتل رجلا غارا فهو فاتك ، ومنه الحديث أن رجلا أتى الزبير (بن العوام) فقال له : ألا أقتل لك عليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قيد الايمان الفتك ، لا يفتك مؤمن . قال أبو عبيد الفتك : أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله

(١) خزائن البغدادى ٢٩٩/١ وشرح حساسة أبى تمام ٣٢٦/١ .

(٢) الكامل للمبرد ١٢١/١ .

(٣) أنظر مجمع الأمثال ٣/٢ .

(٤) مهذب الأغاني ٩٩/١ .

(٥) أنظر القاموس المحيط مادة (فتك) .

(٦) أنظر تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (فتك) وفى شرح حساسة أبى تمام للتبريزي ج ١ ص ٢٣ (الفاتك الذى يغاجى غيره بالمكره) وفى مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٠٧ (الفتك يعنى الغيلة وهى القتل مكر) .

وان لم يكن اعطاء امانا قبل ذلك ، ولكن ينبغي له أن يعلمه ذلك قال المخبيل السمدى :

ولذ فتك النعمان بالناس محرما فملى من عوف بن كعب سلاسله
وكان النعمان بعث الى بنى عوف بن كعب جيشا فى الشهر الحرام وهم
آمنون غارون فقتل فيهم وسبى .

وقال الفراء : الرجل يفتك بالرجل : يقتله مجاهرة .

وقال ابن شميل : تفتك فلان بامرء : مضى عليه لا يؤامر احدا .

وقال أبو منصور : أصل الفتك فى اللفة ما ذكر أبو عبيد ، ثم جعلوا
كل من هجم على الأمور العظام فاتكا قال خوات بن جبير .

على سميتها والفتك من فعلتى (١) »

فتجد اللسان يحدد ثلاثة معان للفتك ، أحدها عام ، وهو الجرأة والشجاعة
وهو وإن كان من صفات الصعاليك إلا أنه عام فيهم وفى غيرهم ، فالصلة فيه
بين الفتك والصعلكة غير واضحة ، أما المعنيان الآخران وهما الفيلة واستقلال
العزيمة فهما من شعارات الصعاليك وخصائصهم . لأن الفيلة وانتهاز الغفلة
من لوازم الصعاليك ، الذين يعتمد عيشهم وسلوكهم على السطو والغارات
واللصوصية ، وكذلك استقلال العزيمة ومضاؤها من لوازمهم أيضا بحكم اعتماد
حياتهم على ركوب المخاطر والتعرض للمهالك والتصدى الدائم لمجاهة الأعداء ،
سواء كان هؤلاء الأعداء مهاجمين أو مدافعين ، ولذلك نجد هذا المعنى شائعا
فى شعر الصعاليك ، حيث يفخرون دائما بمضاء عزيمتهم واستقلالها ، وعدم
ركونهم الى المشورة أو التردد كما يقول سعد بن ناشب عن نفسه .

أخى غمرات لا يريد على الذى يهم به من ملطع الأمر صاحباً
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانباً
ولم يستشر فى واه غير نفسه ولم يرض الا قائم السيف صاحباً (٢)
ويقول فى مرة أخرى :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذى الأثر (٣)

وعمر بن براقة يجعل لنفسه عالماً وحده ، فانه حينما يوغل الليل
فى اللجى حتى يكفهر ، وحينما يوغل كل شئ فى النوم حتى يصفو الجو
للיום ، يتحول هو الى قوة مقدمة حازمة فيقول :

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (فتك) .

(٢) حساسة أبى تمام ج ١ ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧١ والسريجي : السيف . الأثر : فرند السيف .

**إذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الأفراط يوم جواثم
ومال بأصحاب الكرى غالباته فاني على أمر القواية حازم (١)**

وهذان المعنيان هما الرابطة بين الفتك والصعلكة ، وهما اللذان جعلنا
لفظ فاتك يطلق في أغلب حالاته مراداً به الصعلكة في معناها العرفي من
الصلوصية وقطع الطريق وما ينحو منحاهما .

ولكننا في حالات قليلة نجد لفظ فاتك يوصف به أشخاص ليسوا من
الصعاليك مراداً به مجرد الجرأة والشجاعة ، كما وصف عمرو بن كثوم
بأنه فاتك ، مع أنه كان سيد تغلب غير منازع بل ساد قومه وهو ابن خمس
عشرة سنة (٢) بل يضربون به المثل في الفتك (٣) فالمراد في وصفه به مجرد
الشجاعة ، وضرب المثل به إشارة إلى قصة فتكه بعمرو بن هند ، وكذلك ضربوا
المثل في الفتك بأشخاص آخرين ، إشارة إلى قصة مشهورة لكل منهم كان فيها
جريئاً ، وإن كان أغلب هذه القصص فيها طابع الغدر والغيلة إلا أنها لا تكفي
لجعلهم من الصعاليك ، وذلك كقولهم أفتك من البراض (بن قيس الكنانى)
وأفتك من الجحاف (بن حكيم السلمي) ، وأفتك من الحارث بن ظالم (٤) .

وبالإضافة إلى ما سبق نستفيد من بحث هذا اللفظ ما يوحيه معناه
وفهم العرب له من معاني الخلسة والغيلة والمغافلة ، وأثر ذلك في حياة الصعاليك
وتأثير مجتمعاتهم به .

خليع :

في الصحاح « تخالغ القوم إذا نقضوا الحلف بينهم .. وغلّام خليع
هو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطلبوا بحنانيته (٥) » ،

وفى لسان العرب « .. وغلّام خليع وهو الذى خلعه أهله فان جنى لم
يطلبوا بحنانيته ، والخلوع الغلام الكثير الجنائيات ، والخليع الرجل يجنى
الجنائيات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرءون منه ومن جنانيته ، ويقولون انا خلعنا فلاناً
فلا نأخذ أحداً بجنانية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجنانياته التى يجنيها ، وكان يسمى
فى الجاهلية الخليع ، وفى الحديث « وقد كانت هذيل خلعوا خليعاً لهم فى
الجاهلية » قال ابن الأثير كانوا يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والإعانة ، وأن

(١) الأمالي ج ٢ ص ١١٩ وفى مذهب الحضرى لأغاني الأصفهاني ج ١ ص ٩٢ مع اختلاف
فى بعض الألفاظ .

(٢) خزائن الأدب للبغدادي ج ٢ ص ٣٢٨ ومذهب الحضرى لأغاني الأصفهاني ج ١ ص ١٩٣

(٣) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٧٨ إلى ص ٩٠ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ إلى ص ٩٠ .

(٥) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (خلغ) .

يؤخذ كل واحد منهم بالآخر فإذا أرادوا أن يتبرعوا من انسان قد حالفوه اظهروا ذلك للناس وسموا ذلك الفعل خلعا ، والمتبرأ منه خليع أى مخلوع ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم فكانهم خلعوا اليمين التى كانوا لبسوها معه (١)

وقال فى القاموس المحيط ٠٠٠ وكان فى الجاهلية اذا قال قائل هذا ابني قد خلعتك كان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع ومخلوع ٠٠ والخلاء جماعتهم ، ويطن من بنى عامر بن صعصعة كانوا لا يعطون أحدا طاعة ٠٠ والخولع للمقامر المجدود الذى يقر أبدا ، والفلام الكثير الجنائيات كالخليع ٠٠٠ (٢) ٠

فالصحيح ساق فما يتعلق بموضوعنا معنيين يشيران الى بعض التقاليد العربية ، التى وضحا اللسان والقاموس ، فمن تقاليدهم الاحلاف ، سواء كانت بين فرد وجماعة أم بين جماعتين ، فيمكن لشخص فى أى ظرف من الظروف التى تحتاج عوناً وسنداً أن يلجأ الى غيره يطلب جواره وحماه ، ويسعى ذلك جواراً أو حلفاً ، كما يمكن أيضاً لجماعة أو قبيلة أن تحالف أخرى ، فإذا احتاج للمجير أو الحليف الى التخلي عن جواره أو حلفه فعليه أن يعلن ذلك للناس ، كما أن الحلف والجوار فى عقدهما يستلزمان ذلك حتى يأخذ الجار أو الحليف كل حقوق جاره أو حليفه ٠ يعلن المجير للناس أننى أجرت فلانا ٠ فيصبح العدوان على الجار ٠ عدواناً على المجير ، ويعلنون أيضاً أننا حالفنا بنى فلان ، فيصبح العدوان على حلفائهم عدواناً عليهم ، وعندما يحتاجون الى فئس الحلف أو الجوار عليهم أيضاً اعلانه للناس ، فيصبح المجير فى حل من جاره ، والحلفاء فى حل من حلفائهم ، ويسمى فئس الحلف بين الجماعات نقضاً كما يسمى تخالفاً ، والى هذا قصد الصحاح ، أما بالنسبة للفرد فيسمى خلعا ، ويسمى للتقوض عهده خليعاً ٠

وهناك عادة تعيننا للموضوع أكثر من غيرها ، وهى خلع القبائل لبعض أبنائها ، وذلك - كما اتفقت كتب اللغة - فى حالة واحدة ، هى أن تكثر جنائيات شخص بحيث يصبح عبثاً ثقيلاً على قومه ، لأن الجنائيات كان يثرتب عليها أحد أمرين ، أما الانتقام بالسيف ، وذلك اذا كانت الجماعة المعتدى عليها ذات عزة وقوة ، فتأبى إلا أن تنتقم بالسيف ، وأما المطالبة بالدية وذلك فى الأحوال العادية ، وكلا الأمرين ، الانتقام والدية مرهق ثقيل ، فحينما تتكرر حوادث شخص وجنائياته بحيث يصبح ضره لأهله أكثر من نفعه ، وعند ما يروونه عبثاً لا تطيقه حياتهم يتبرعون منه ومن جنائياته ، فلا يطالبون أحداً ولا يطالبهم أحد

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) ٠
(٢) القاموس المحيط للفيروزى مادة (خلع) ٠

يجنّاه جنانها أو جنيت عليه ، ولكن بشرط ان يكون ائتبرؤ علنيا مشهورا بحيث يبلغ الجماعات الأخرى وكان ذلك يتم غالبا في الأسواق لأنها كانت تجمع أناسا من مختلف القبائل والأنحاء ، ولكن المعنى الذى يهنا فى هذا الموضوع ، والذى ينبغي أن نقف عنده هو اجماعهم - كما رأينا - على أن هناك سببا معينا من أجله وحده تخلع القبيلة أحد أبنائها وتبترأ منه ، هذا السبب هو كثرة جنائيات هذا الفرد (١) وبالتالي نتساءل : ومن الذى تكثر جنائياته ؟ لا شك أنه شخص فرغ حياته لارتكاب الجنائيات ومزاولة الأعمال التى تترتب عليها الجنائيات . وهذه الصفة لا تتحقق الا فى شخص يتخذ من هذه الحياة مهنة أو عيشا دائما له ، وحينئذ لا نجد طائفة تنطبق عليها هذه الصفة (الا الصعاليك الذين عرفهم صاحب جمهرة أشعار العرب بقوله « الصعلوك : الفقير ، وهو أيضا المتجرد للغارات ، (٢) .

ولذلك نجد معظم الصعاليك موصوفين بهذا الوصف كإبى الطمّحان القينى ، وقيس بن منقذ بن الحداية ، وصخر الغى الهذلى (٣) والأحير السعدى (٤) .

والذين لم يوصفوا بهذا الوصف من الصعاليك نعتقد أن السبب فى عدم خلعم ظروف خاصة تتعلق بارتباطهم بأقوامهم ، كالشغرى الذى لم يرتبط بقومه لأن بنى شبابة بن فهم أسروه منذ صغره فعاش فيهم ثم فى بنى سلمان ابن مفرج بعد قصة المفاداة به (٥) فلم تكن بقومه حاجة الى أن يخلعوه لأنه بعيد عنهم ولا يطالبهم أحد بجنائياته ، وكعروة بن الورد الذى لم يخلع قومه لأنه كان مصدر نفع وقوة لهم ، بل كان من معالم مجدهم التى ظلوا يتناقلونها أجيالا ، كما فى أحاديثهم عنه الى عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان (٦) .

وهناك ألفاظ أخرى كشيطان وتباطر وعبار تدور فى فلك الألفاظ السابقة لم نر ما يدعو الى الاطالة بالحديث فيها .

-
- (١) يراعى ما ذكره القاموس من تسمية بنى عامر بن صعصعة خلعاء لأنهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة وأهمية ذلك فى الصلة بين الخلع والصعلكة .
- (٢) جمهرة أشعار العرب للفرشى ص ١١٥ .
- (٣) أنظر على سبيل المثال تراجم هؤلاء بالأغاني للأصبهاني ١/٢٦ ، ٩٩ ، ١٨٥/٢ .
- (٤) المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .
- (٥) شرح الفضليات عن ابن الأبنارى ج ١ ص ١٠٨ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ج ١ ص ١٠٤ ومهذب الأغاني ١/٩٥ - ٩٩ .
- (٦) أنظر هامش الاصميات ص ٣٥ والتنبيه على أوام القالى للبكرى ص ١٠٣ ومهذب الأغاني ٢/٢٣ .

ونخرج من هذا الحديث اللغوي بأن لدى العرب ألفاظا يكمل مدلول بعضها مدلول البعض الآخر ، وأنها وإن اختلفت مدلولاتها من لصوصية أو فتك أو غارة أو نحوهن إلا أنها تنتهى الى سلوك معين ، هذا السلوك يتميز بأنه سلوك « عدواني » مهما اختلفت صورته وأساليبه ، ويتميز أيضا بأنه سلوك دائم بالنسبة لصاحبه ، بمعنى أنه لا يمثل حادثا أو حوادث محدودة ، وإنما يمثل السلوك الدائم الذى يبلغ درجة الوصف ، بحيث يحقق صفة دائمة يوصف بها صاحب هذا السلوك . ونخرج أيضا بأن هذه الألفاظ أصبحت عنوانها « الصعلكة » وأنها حين تطلق ، فالمجال الطبعى لها هو مجال الصعاليك .

على أن أهم ما نستفيد من اختلاف هذه الألفاظ ، هو تنوع أساليب الصعلكة ، حيث يدل كل لفظ منها على أسلوب معين فى مزاولته صاحبه لسلوكه العدوانى ، فنخرج منها بأن للصعلكة أساليب متنوعة فى مزاولتها ، وأن الروايات حيثما تنسب لفظا منها الى أحد الصعاليك فى ترجمته ، فإنما تعنى أسلوبه وطريقته التى عرف بها فى الصعلكة ، وهذا لا يمنع أن يكون للصعلوك الواحد أكثر من طريقة ، حينما ينسب اليه أكثر من لفظ من هذه الألفاظ فى ترجمته وأخباره .

الصعلكة فى العرف العربى :

انتهينا فى الحديث السابق الى أن رجال اللغة قاربوا بين مدلول عدة الألفاظ كصعلوك وذئب وخليع وفاتك ولص ، وجعلوها فى جملتها تنتهى الى غاية واحدة ، هى التعبير عن « سلوك عدواني » وأن هذه الألفاظ تعتبر صورا واساليب لهذا السلوك ، فأحيانا يكون لصوصية ويسمى صاحبه لصا ، وأحيانا يكون تذوبا أى فيه خلق الذئب ويسمى صاحبه ذئبا ، وأحيانا يكون فتكا فيه طابع المفارة والغيلة ، ويسمى فاعله فاتكا ، وما الى ذلك ، وأن هذه الأساليب تدخل فى مفهوم الصعلكة ، كما رأينا فى المعاجم السابقة مثل قولهم « ذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون (١) » فهذا التعبير يتضمن ثلاثة ألفاظ هى ذئب ، وصعلوك ، ولص ، وقد جعلها كلها مجتمعة تؤدي معنى واحدا هو الصعلكة بالمعنى العرفى الذى هو موضوع هذا الحديث . فالصعلكة إذن عند اللغويين يمكن أن تكون مجموع الصفات التى تؤديها هذه الألفاظ الأخرى كذئب وفاتك وخليع ولص ، كما يفهم من شرحهم لتلك الألفاظ عامة ، وكما رأينا من اتفاقهم جميعا على أن الذؤبان هم الصعاليك .

وقلنا هناك أن اللغويين اهتموا بشرح الصعلكة فى مواد أخرى غير مادتها ، أما فى مادة (الصعلكة) نفسها فقد اهتموا ببيان أصلها وهو الفقر ،

(١) الصحاح للجوهري مادة ذاب .

وقصروا في بيان مدلولها العرفي ، وهو السلوك العدواني المستمر في صورة المختلفة .

ونريد هنا أن نعرض للصعلكة لنرى موضعها من الاستعمال والعرف العربي فنقول :

أما الاستعمال العربي سواء في الجاهلية والإسلام ، فنجد أنه يغاب عليه ربط الصعلكة بمدلول آخر غير الفقر أو مع الفقر .

فحينما يتحدثون عن الصعاليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص ، شعاره الاعتداد بالنفس دون الأهل أو القبيلة ، ووسيلته العدوان في أي صورة تنهيا له ، فيقطع الطريق حينما يتاح له قطعها ، ويسطو ويغزو متى وجد إلى ذلك سبيلا ، ويفتك حينما تمكنه الغرة ، ويتلصص إن لم يجد إلى ما سبق وسيلة ، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال في أغلب الأحيان أو تحقيق مآرب خاصة دائما .

ولننسق بعض الأمثلة استشهدا على ذلك .

ففي قصة النعمان بن المنذر حينما رفض أن يزوج كسرى قائلا لرسول كسرى « أما كان في عين السواد وفارس ما يغنيه عن بناتنا ؟ » فغضب عليه كسرى ، مما اضطر النعمان إلى أن يستجير بالقبائل حتى نزل سرا في بني شيبان عند هانيء بن قبيصة ، ثم قال له هانيء « عندي رأى لست أشير به لأدفعك عما تريد من مجاورتي ، ولكنه الصواب ، فقال : هاتيه ، قال : إن كل أمر يجعل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك . امض إلى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالا ، وألق نفسك بين يديه ، فاما أن يصفحك عنك فعدت ملكا عزيزا ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ، ويختطفك ذئابها (١) » .

فليس من المعقول أن يكون هانيء بن قبيصة قصد بالصعاليك مجرد الفقراء ، فإن الفقراء ليسوا مصدر خطر يخوف به أو منه الناس ، وإنما المعقول أن يكون هانيء خوف النعمان من قطاع الطرق ومحترفي الغارات الذين يمكن أن ينالوه في مخبئه أو أثناء تنقله بين القبائل ، كلما انكشف نزوله لدى قبيلة انتقل إلى غيرها . فمدلول الصعلكة في هذه القصة غير الفقر .

وفي قصة مقتل المتنبي يقول فاتك الأسد للمتنبى قبل رحلته التي قتل

(١) خزائن الأدب للبغدادى ج ١ ص ٢٦١ .

فيها ، والطريق بينك وبين دير قنة خشن قد احتوشته الصعلكة ، وبنو أسد يسرون في خدمتك الى أن تقطع هذه المسافة ، فيقول المتنبي : ما أبقي الله بيدي هذا الأدهم وذباب الجراز الذي أنا متقلده فاني لا أفكر في مخلوق (١) ولكن تشاء الظروف ان يكون مقتل المتنبي على يد هؤلاء الصعاليك الذين خوفه منهم فأتاك .

ومن الواضح أن مدلول الصعلكة هنا قطع الطريق وليس الفقر .
والقصة الأولى كانت في الجاهلية ، والثانية في الاسلام .

ونجد الشعر ، وخاصة شعر الصعاليك أكثر توضيحا لهذه الحقيقة ، مع مراعاة أن الشعراء ليسوا الا جزءا من مجتمعهم ، يتحدثون بلفته ، ويصدرون عن معارفه وأعرافه ، فهذا الشاعر الجاهلي عمرو بن براقة وهو أحد الصعاليك يفسر لنا الصعلكة في حوار مع امرأة .

يبين فيه أنه هو والمرأة يعرفان أن الصعاليك طراز آخر غير الفقراء ، وذلك في قصة غارة أغارها ، انتقاما لغارة أثير عليه بها ، فيقول عن المرأة التي أراحت أن تثبطه عن الغزو بأنه لم يبلغ مبلغ الصعاليك في جراتهم واقدامهم وركوبهم المخاطر .

يقول :

تقول سليمي لا تعرض لتلفة وليك عن ليل الصعاليك قائم
وقد رد عليها منكرا تجاهلها أنه صعلوك ، وتجاهلها صفاته باعتباره فردا من الصعاليك فيقول لها .

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح ابيض صادم
الم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل اذا نام الغل المسالم
اذا الليل ادجى واسجهرت نجومه وصاح من الافراط يوم جوائم (٢)
فالصعلكة هنا أيضا ليست هي الفقر .

كذلك حين نتتبع أخبار الصعاليك المنبثة والمتفرقة في مراجع الأدب والتاريخ العربي نجدها جميعا تحصرهم في صفتين ، اللصوصية وقطع الطريق

(١) خزائن الأدب للشيداعي ج ٢ ص ١٤٧ وانظر معجم ما استعجم للبكري ج ٢ ص ٥٣٠ عن استعماك خليج وفاتك في قصة أبي جندب الهدلي وجمعه لكل خليج وفاتك ليفسر بهم على يني لحيان . وانظر شرح التبريزي لحماسة أبي تمام ج ١ ص ٢٥٠ عن استعمال الصعلكة في الجاهلية ، حيث يقول خلف بن نديبة عن عباس بن مرداس إذا اياه أنه (يكالب الصعاليك على الأسلاب) وهو صريح في أن المقصود بالصعلكة أساليب السلب والغزو .

(٢) الأمال للقال ج ٢ ص ١١٩ . واسجهرت نجومه : أسفت كناية عن توغل الليل .

بما يمكن أن تحتوى عليه هاتان الصفتان من أحداث السطو والاغارة والفتك والسلب وما الى ذلك بما لا يدع مجالا للشك في أن الصعلكة أخذت في العرف والاستعمال العربي صورة غير صورة أصلها اللغوي وهو الفقر ، وأن هذه الصورة ليست حديثة في العرف العربي ، وإنما هي قديمة قدم التاريخ العربي ، فإن بعض الصعاليك الذين تحدثوا عن الصعلكة بهذه الصورة ، وتحدث عنهم العرب بهذه الصورة أيضا كانوا في فجر التاريخ العربي كالشنفري وابن بركة والسليك .

ولكن من الحق أن نقول ان لفظ الصعلكة استعمل أحيانا في أصله اللغوي وهو الفقر كما يقول حاتم :

حيثما زمانا بالتصعلك والفنى فكلا سقانا بكاسيهما الدهر (١)

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين (٢) قال صاحب الأمالي « قال أبو عبيدة معناه يستنصر ، والصعلوك: الفقير في كلام العرب » .

وقد يبدو في ظاهر الأمر ان ذلك يعود بالكلمة الى الغموض والذبذبة في المدلول من حيث استعمالها مرة في الفقر ، ومرة في اللصوصية وقطع الطريق .

ولكن الواقع أنه لا غرابة في ذلك ، حيث يمكن اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التي نقلت من الأصل اللغوي الى مدلول عرفي أو اصطلاحى ، أو غلبة في الاستعمال ، كما نقل لفظ الحج من الأصل اللغوي وهو القصد الى حج بيت الله الحرام وغلب استعماله فيه ، وكما نقل لفظ الزكاة من الأصل اللغوي وهو الطهارة الى الصدقة المفروضة في الاسلام على الأموال .

فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح الى مدلول جديد غير مدلوله اللغوي مع وجود رابطة بين المدلولين ، أو اشتراك في فاحية أساسية يمتها في المعنى .

ومما هو معروف أن المدلول الجديد للفظ لا يمنع استعماله في معناه الأصلي ، فاستعمال الحج مثلا في القصد الى الكعبة بالوصف المحدد لذلك ، لا يمنع من استعمال لفظ الحج في معناه الأصلي وهو القصد الى أى شيء .

وهذا يفسر استعمال الصعلكة في المدلولين ، الأصلي والعرفي ، فقد نقلها

(١) الأمالي للقالى ج ٢ ص ٢٨٣ وقد شرحه القالى بقوله يعنى بالفقر والفنى والبيت في

الصباح ولسان العرب مادة صعلك .

(٢) الأمالي للقالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

العرف من المعنى الأصلي وهو الفقر الى مدلول آخر هو العدوان غير المشروع في صورة اللصوصية أو قطع الطريق وهذا المدلول الجديد لا يمنع من استعمالها في معناها الأصلي وهو الفقر كما وردت فعلا فيما أشرنا اليه .

وهذا أيضا تفسير لما نجده من استعمال بعض الشعراء للفظ الصعلكة في المعنيين في قصيدة واحدة ، فهذا عروة بن الررد العبسي يقارن بين النوعين ، الصعلوك الفقير ، الذي رضى لنفسه عيش الخمول والمسكنة ، متسقطا حسنات الناس وأفضالهم . مهينا نفسه بالذل والحاجة الى الناس ، والصعلوك المتحرك المتحفز ، الذي يضع نفسه فوق الناس ، فارضا رهبته وبأسه عليهم ، وتجد عروة لاثما النوع الأول أشد اللوم ، وإضيا عن الثاني أشد الرضى فيقول عن الأول :

لحي الله صعلوكا اذا جن ليله مضى في المشاش ألفا كل مجزود (١)
بعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (٢)
قليل التماس المال الا لنفسه اذا هو أضحى كالعرش المجور (٣)
ينام عشاء ثم يصبح قاعدا يحث الحمى عن جنبه المتعطر

ويقول عن النوع الثاني مقارنا بينهما :

ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٤)
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر النيج المشهور (٥)
وان بعدوا الا يامنون اقترا به تشوف أهل الغائب التنتظر (٦)
فذلك ان يلقى النية يلقيها حميدا ، وان يستغن يوما فاجنر (٧)

فقد استعمل لفظ صعلوك في النوع الأول في مدلوله اللغوي البحت ، وهو الفقير المجرد من المال ، واستعمله في النوع الثاني في الدلالة العرفية

(١) لحي : لمن . المشاش : دوسر العظام اللينة التي تضم . مجزود : مكان الجزر .
أى يجمع النظام اللينة مكان الدبائح ليقتات بها ، من باب المبالغة الساخرة وفي رواية الأغاني مصافى من المصافاة بمعنى الاصطفاء .

(٢) يقنى غاية ما يتناه أن يتفضل عليه صديق أو محسن بأكلة .
(٣) العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط .
(٤) صفيحة وجهه : بشرته . القابس : الذي يقبس النار . المتنور بضئ .
(٥) مطلا : مفرقا على أعدائه يهدمهم بالقز والسطر . النيج : إشارة الى نوع من الاقتراح كانوا يضربونها . المشهور : المشهور .

(٦) يعنى توقعهم السطر منه يشغلهم شغل الأهل بعودة الغائب المرتقب الاوية .
(٧) الاصمعيات ص ٣٥ وديوان الحماسة ج ١ ص ١٥٩ مع اختلاف يسير في الألفاظ
وهذه الأغاني ٢٣/٢ وفي معاهد التنصيص للعباسي ج ٣ ص ١٢١ . البيت الأول (لحي الله صعلوكا ..) لعروة والتصيدة منها عشرة أبيات في الكامل ج ١ ص ٧٨ م الاستقامة .

للفظ ، وهي الشخص المتحيز دائما للسطو والعدوان وذلك في قصيدة واحدة .

وكذلك فعل السليك بن السليلة ، فقد استعمل اللفظين في قصيدة واحدة ، أحدهما في المدلول اللغوي ، والآخر في المدلول العرفي فيقول مخاطبا امرأة :
فلا تصلي بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال (١)

ولكن الذي يلفت النظر أننا إذا تجاوزنا المعاجم التي تهتم بشرح المفردات كلسان العرب والقاموس المحيط ، إلى الكتب التي تهتم بالأدب والأدباء كخزانة الأدب للبغدادي والأمالى للقال والأغاني للأصبهاني والكامل للمبرد نجد أن أكثر هذه الكتب أيضا تقتصر في شرحها للصعلوك على أنه الفقير أو الذي لا مال له (٢) ، مع أنها في الوقت نفسه تسوق أخبار هذا الصعلوك على أنه من قطاع الطرق واللصوص والفتاك ، دون أن تشير في شرح لفظ الصعلوك إلى هذا المعنى ولعلها في ذلك تلتزم دقة النقل عن المعاجم .

وحين نأتي إلى مناقشة المعاجم في شرحها للفظ صعلوك ، وكيف أن معظمها اقتصر على الأصل اللغوي وهو الفقر ، دون إشارة إلى المعنى العرفي وهو اللصوصية وقطع الطريق .

نستطيع أن نعلل ذلك بأن الفقر الذي كان من أبرز الدوافع للصعاليك في سلوكهم مسلكتهم المعروفة ، والذي لازمهم حتى بعد سلوكهم هذا المسلك حتى أصبح طابعا ظاهرا في حياتهم وفي أشعارهم هو الذي جعل معظم كتب المعاجم تكتفي في شرحها للصعلوك بأنها الفقر .

وكون الفقر من أبرز دوافع الصعاليك إلى الصعلكة ، وكونه من أبرز المعاني التي دار حولها شعرهم حقيقة لا مراء فيها ، كما سبق من وصف ابن بركة لنفسه بأنه « جل ما له حسام » وكما يبين السليك سبب تصعلكه في قوله .

أشاب الرأس أنني كل يوم أوى لي خالة وسط الرجال
يشق على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالي

فقد جعل سبب تصعلكه أمرين ، أحدهما تعرضه لغارات صعاليك ومغيرين آخرين يسبون حرمانه وحرمان أهله ، فهو يريد أن ينشئ قوة يرد بها عنه وعن أهله هذا العدوان ، والأمر الآخر هو فقره وعجزه عن فداء الأسيرات منهم بمال .

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة .

(٢) على سبيل المثال الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ م الاستقامة . والأمالى ج ١ ص ٢٦٢

في وصف عروة والأمالى ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠ .

والشغرى يتفنن في تصوير فقره بل حرمانه في ابلغ صور الحرمان
واشدما تأثرا في النفس فهو يتحدث عن الجوع ، فيقول انه أصبح اليقا له حتى
انه احتدى الى طريقة يعالجه بها هي تجاهله وعدم المبالاة به ، وهي نوع من
الرياضة الروحية والتفسيية تزاوّل في كثير من أنحاء العالم اليوم وخاصة في
الهند احتدى إليها الشغرى بعطرقته وتجربته ، ويقول الشغرى عن جوعه وعن
احتفائه بمنزته وكرامته مع هذا الجوع .

قديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صلحا فاذهل (١)
واستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (٢)

ويرسم الشغرى أيضا صورة من صور الجوع والحرمان القاسيين ، ويطيه
أسماء على جوع شديد ، وعيشه على القوت الزهيد فيقول :

وأطوى على الخصى الحوايا كما انطوت خيوطه ماري تغار وتفتل (٣)
واغص على القوت الزهيد كما غصا ازل تهاداه التناهب اطحل (٤)

وهكذا نكاد لا نجد شعرا لصعلوك يخلو من الحديث عن الفقر والحاجة ، ولعل
هذا ما جعل أكثر كتب اللغة تكتفي في شرحها لفظ صعلوك بأنه الفقير ، على
اعتبار أن الصعاليك مهما يكن مسلكهم فهم فقراء .

ولكن هذا أو غيره ان يكن نوعا من الاعتذار والتبرير عن كتب اللغة
فانه لا يفيها من توجيه تهمة التقصير في أدائها لدلول هذا اللفظ ، فان استعمال
الصعلوك في أساليب المدون بصورة المختلفة أمر مشهور سواء في الجاهلية
والاسلام كما مثلنا له من الروايات ومن الشعر ، وكتب اللغة نفسها لا تجهل
ذلك ولا تنكره ، بل ترويه فيما تروى ، وعلى سبيل المثال فان لسان العرب من
الكتب التي أوردت شعرا كثيرا للصعاليك في سياق شرحه للألفاظ ، حيث حفل
شعرهم ، وخاصة الجاهلي منه بذخيرة واسعة من الألفاظ القليلة التداول والتي
تحتاج الى تفسير .

(١) الأما للقال ج ٣ ص ٢٠٦ . مطال : من الماطلة . اضرب عنه : أعرض . ذهل
عن الشيء : نسيه .

(٢) الطول : لمن .

(٣) الخصى : الجوع . الحوايا : الامعاء . الخيوط : السلوك والخيوط . ماري رجل
مشهور بالقتل وتغار : تحكم .

(٤) ازل : الذئب . التناهب : المفاوز . اطحل : اغبر اللون . والأبلاط من اللامية .
المصدر السابق وشرح الألفاظ عن أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري .

وقد بلغ من شهرة الصعاليك بسلوكهم المذكور ، أنه يكفي في ذكر شخص ، أو الترجمة لشاعر أن يوصف بأنه صعلوك فيعرف أنه من اللصوص وقطاع الطرق كما ورد في الأغاني وخزانة البغدادى وغيرهما .

ومع أن كتب اللغة لا تجهل ذلك ولا تنكره ، فإن معظمها لم يشر في تفسيره لهذا اللفظ إلى ذلك أو حتى إلى أنه يستعمل أحيانا في هذا المعنى ، أو أن هناك طائفة من الفقهاء أو الصعاليك اشتهروا بهذا السلوك ، بل الأكثر غرابة أنها تأتي بلفظ الصعلكة في سياق اللصوصية وقطع الطريق ، ولكن في مادة أخرى غير مادتها ، كما فعل القاموس المحيط في مادة (الذئب) حيث يقول « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » أما في مادة « صعلك » فإنه يقول « والصعلوك كمصفور الفقير ، وتصعلك افتقر » فلم يذكر عن المدلول العرفي للصعلكة شيئا ، مع أنه أتى بها في سياق هذا المدلول في مادة أخرى كما سبق ، ومع أن القاموس تحدث في مواضع مختلفة عن الصعاليك ، كحديثه عن تأبط شرا في مادة (غال) وعنه وعن الشنفرى في مادة (غرب) وأن كان حديثه عنهما غير دقيق ، كعنه إياهما من الإسلاميين ، مع أن الرواة لا يختلفون في أنهما جاهليان ، وكحديثه عن فرس حاجز بن عوف الأزدي في مادة « ذاب » وعن فرس السليك بن السلعة في مادة « نجم » ، وكذلك فعل لسان العرب كما سبق .

وقد كانت كتب اللغة أكثر توضيحا لهذا المدلول في الفاظ أخرى غير لفظ الصعلكة ، كالذؤبان .

٤ - من الصعلوك ؟

الإجابة عن هذا السؤال في غاية الأهمية لكل بحث أو حديث عن الصعاليك ، لأن الحديث عن الصعاليك مبنى أساسا على تحديد : من الصعاليك ؟

أ - مفهوم الصعلكة :

على الرغم من فهم المجتمع لطبيعة طائفة الصعاليك وسلوكهم ، وحديثه عنهم في اتجاه واضح ، وعلى الرغم أيضا من فهم علماء اللغة القدامى لذلك ، فقد

رأينا في تعريفهم للصعلكة قصورا وشيئا من ميوعة أتاح المجال لذبذبة المفهوم وخضوعه للاستنتاج ، فقد كانت هناك جوانب موضع اتفاق بينهم ، حول الألفاظ التي تدور في فلك الصعلكة ، وكانت هناك جوانب أخرى لم تبلغ هذه الدرجة ، ونستطيع أن نجمل هذه الجوانب فيما يأتي :

١ - هناك ألفاظ معينة لم يختلفوا في أنها مترادفة في أداؤها لمفهوم الصعلكة العرفي ، حيث جعلوها تدور في فلك واحد ، وأحالوا بعضها على بعض كما رأينا في أحاديث كتب المعاجم ، فحينما يتكلمون عن الصعاليك يقولون أنهم ذوؤبان العرب ، ونذهب إلى ذوؤبان العرب ، من هم ؟ فيقولون : أنهم صعاليك العرب ، ومن صعاليك العرب ؟ فيقولون : هم الذين يتلصصون ، أو هم لصوص العرب . ولم يرد قط فيما نعلم أنهم اختلفوا في هذه المدلولات .

واذن فلا شك في أن الوصف بكلمة « لص » أو بكلمة « ذئب » يساوى تماما الوصف بكلمة « صعلوك » من حيث الاستعمال العربي أعني بصرف النظر عن الأصل اللغوي الذي أخذت منه كل هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصعاليك واللصوص والذؤبان - من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم - طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذي أخذت منه كل من هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصعاليك واللصوص والذؤبان - من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم - طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعنى شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذي يجمعهم وهو الصعلكة ، بمعنى أن بعضهم يفعل ما يشبه أفعال الذئب ، ولكنه من الطائفة نفسها ، وبعضهم يفعل أفعال اللصوص ، ولكنه أيضا من الطائفة ، والبعض الآخر كأصحاب الفارات ، هو كذلك من الطائفة ، ولكن الطائفة كلها غلب عليها لقب « الصعاليك » .

٢ - هناك لفظ يعتبر بحكم ملابساته ، وبحكم ما ورد حوله من روايات مقصورة على الصعلكة ، وملحقا بالألفاظ السابقة ، وهو لفظ « خليع » فان ملابساته السابقة للخلع من حيث ان سببه كثرة الجنایات ، واللاحقة للخلع ، من حيث ان حياة الخليع ، وتشرده واعتماده على نفسه بعد الخلع ، من شأنه أن يجعله يزداد اصرارا على جنایاته ، ونشاطا في السعى لتحصيل معاشه ، وكل ذلك هو طريق الصعلكة ، مع مراعاة استبعاد احتمال أن تكون جنایاته التي تسببت في خلعه ، جنایات لم يقصد منها ما يقصده الصعاليك ، فان خلع قومه آياه دليل واضح على أن هذه الجنایات لمصلحته الشخصية ،

اعنى أنها جنائيات صعلكة ، وليست لمصلحة قومه ، والا لم يكن من المعقول بمنطق الجاهلية أن يخلعوه . ويؤيد هذا أن كل الذين وصفوا بهذا الوصف من الأشخاص المحددين كانوا فيما نعلم من الصعاليك ، والذين لم تحدد أشخاصهم كما ورد في الحديث الشريف « وقد كانت هذيل خلعوا خليعا لهم في الجاهلية » (١) فلم يكن مثل هذه الرواية من الوضوح بحيث يتاح لنسب تتبع حياة هذا الخليع ، لنعلم من أى نوع كان ، ولكن الروايات لا تنفى أنه من الصعاليك ، بل تشير الى أنه من الصعاليك ، أو تقوى احتمال هذا ، بنسبته الى هذيل ، التي كانت أشهر قبائل العرب بالصعلكة ، وبالعدين الذين كان عدوهم أداة من أهم أدوات الصعلكة ، وفي ديوان الهذليين أورد السكري خمسة من صعاليكهم ، هم خويلد بن مرة المكنى بأبي خراش ، وابنه خراش وأخوه عروة الذي قتل في غزوة صعلكة كان فيها هو وخراش ، وكذلك صخر الغي ، وحبيب الأعمى (٢) والمهم أنه لا توجد لدينا روايات فيما نعلم تنفى أن كل من وصفوا بهذا الوصف كانوا من الصعاليك ، ولا روايات تصف بهذا اللفظ شخصا ليس من الصعاليك ، ونستبعد بالطبع ما شاع منذ أواخر العصر العباسي من إطلاق الخلعة على الصفات الخلقية ، فان حديثنا عن هذا اللفظ محصور كما سبق في حالة واحدة ، هي حالة الذين خلعهم أقوامهم لكثرة جنائياتهم ، وهؤلاء هم الذين نعنى أن الروايات لم تذكر أن أحدا منهم لم يكن صعلوكا . واذن فنستطيع أن نقول انه يمكن الحاق لفظ « خليع » للذي خلعه قومه بالألفاظ السابقة التي تعتبر نصا في الصعلكة .

٣ - الألفاظ الأخرى التي وصف بها الصعاليك ، مثل ، فاتك ، وشيطان ، وشاطر ، وان كان الوصف بها غالبا على الصعاليك كما ورد في تراجم معظمهم ، الا أنها ليست مقصورة عليهم ، فقد وصف بها أشخاص من المؤكد أنهم لم يحترفوا الصعلكة ، وان كانوا زاولوا بعض أساليبها في بعض الأحيان أو لبعض الظروف ، فقد وصف شخصان من أكبر سادات العرب ببعض هذه الألفاظ ، هما عمرو بن كلثوم الذي وصف بأنه فاتك (٣) وعامر بن الطفيل الذي وصف بأنه « من شياطين قومه » (٤) وحقا انهما وصفا بذلك لمزاولتهما بعض أساليب الصعاليك ، ولكننا لا نستطيع أن نعد مثلهما من الصعاليك ، لعدم احتراف الصعلكة .

ولذلك لا نستطيع الاعتماد على هذه الألفاظ وحدها في نسبة شخص

(١) انظر لسان العرب لابن منظور مادة (خلع) .

(٢) انظر شرح ديوان الهذليين للسكري .

(٣) انظر خزائن بغداد ٣٢٨/٢ ومجمع الأمثال للملاني ٨٨/٢ .

(٤) خزائن بغداد ٣٦٤/٢ .

الى الصعلكة الا اذا صاحبته قرائن تؤيد ذلك، وان كنا في كل حال نستفيد من مدلولها في خلق من يوصف بها وسلوكه ، أعني أن كل من يوصف بلفظ منها معناه أنه يزاول عملا من أعمال الصعاليك ، واسلوبا من أساليب صعلكتهم ، ومن هنا نخرج بنتيجة مهمة هي أن مدلولات هذه الالفاظ من صميم الصعلكة واساليبها ، وانما اذا كنا لا نراها كافية في ادخال صاحبها في طائفة الصعاليك ، فليس لقصور هذه الالفاظ في الدلالة على الصعلكة ، بل لمعنى واحد ، هو أنها لا تدل على الاحتراف للصعلكة ، وكان الفارق بينها وبين الفاظ ، صعلوك وذئب ولص ، أن هذه الثلاثة لا تطلق الا على الذين اتخذوا من الصعلكة حرفة أو مهنة دائما ، أما الفاظ فاتك وشيطان ونحوهما ، فتطلق لمزاولة أسلوب من أساليب الصعاليك ، سواء صدر من صعلوك محترف للصعلكة ، أم من غيره .

ب - من الصعلوك ؟

واذن ففي الاجابة المحددة على هذا السؤال لابد من مراعاة امرين احدهما أن كل الالفاظ السابقة تدل على أساليب مختلفة للصعلكة ، والاخر أن هناك فارقا أساسيا في مجرد مزاولة مدلولات هذه الالفاظ ، وبين من يتخذها حرفة دائمة .

وعلى ضوء ذلك ننظر الى محاولة بعض الباحثين أن يضع تعريفا للصعلكة (١) وقد كان تعريفه أن الصعلكة هي « الغزو والاغارة للسلب والنهب » والواقع أنه لو كان هذا المعنى استنتاجا ، أو تحديدا لبعض المواضع لما عاننا كثيرا أن نناقشه ، ولكن وضعه في قالب التعريف ثم تكريره اياه على أنه تعريف للصعلكة ، هو ما يضطرنا الى مناقشته اضطرارا ، فمن بدهيات التعريف كما يقول المنطقة أن يكون جامعا مانعا ، ولكننا لا نرى في هذا التعريف جمعا ولا مانعا .

فهو غير جامع ، لأن لفظي الاغارة والغزو ، لا يشملان كل أساليب الصعلكة ، كاللصوصية مثلا ، والباحث نفسه نقل أحاديث كتب المعاجم ، ومن بينها عدم اختلافهم في أن اللصوصية مرادفة للصعلكة ، فلماذا اقتصر على أسلوبي الغزو والاغارة تاركا اللصوصية وغيرها من أساليب الصعلكة ؟ وقد يقال أن الروايات تجعل بعض هذه الالفاظ متداخلا في بعضها الآخر ، بمعنى أن الروايات أحيانا تكتفى بمدلول أحد هذه الالفاظ بالنسبة للصعلوك ، وتعنى

(١) أعني الدكتور يوسف خليف في بحث الفسحاء الصعاليك في العصر الجاهل انظر ص ٥٨ وما قبلها .

به مدلول غيره من الألفاظ ، كان يوصف صعلوك بأنه فاتك مراداً به كل أساليب صعلكته ، فكذلك فعل الباحث الذي ناقشه ، حيث اكتفى بالفزو والاغارة للدلالة على كل أساليب الصعلكة ، ولكن ذكره أكثر من لفظ ، يلزمه أن يسوق كل الألفاظ التي تدخل في نطاق الموضوع ، والآخر أن هناك أساليب يبعد جداً أن يشملها لفظ الفزو أو لفظ الاغارة ، كقطع الطريق الذي يعتبر من أبرز أساليب الصعلكة ، أن لم يكن أبرزها على الإطلاق ، فمن البعيد جداً أن نتصور قطع الطريق داخلاً في معنى الفزو والاغارة ، بحكم الوضع اللغوي لهذين اللفظين ، وبحكم استعمالهما أيضاً ، فالتعريف اذن غير جامع لانه لا يشمل كل أساليب الصعلكة .

وكذلك هو غير مانع لأنه يسمح بادخال غير الصعاليك في مفهوم الصعلكة ، ومن حيث أن مجرد الفزو والاغارة للسلب والنهب ليس مقصوراً على الصعاليك ، بل كان طابعاً عاماً في الجاهلية - التي هي موضوع بحثه - والأخبار والروايات تفيض بما هو معروف من غارات القبائل بعضها على بعض ، ولم يكن الثار كل أهدافها ، بل كثيراً ما كانت الغارة لا تستهدف إلا السلب والنهب ، اظهاراً لبأس المغيرين ، وارهابهم للقبائل الأخرى كما أن كثيراً من الأفراد والمصائب من غير الصعاليك كانوا يزاولون أحياناً أخص أعمال الصعاليك كقطع الطريق ، وبعض هؤلاء كان من أبرز سادات العرب وسياقته أن كثيراً من سادة العرب ومشهورهم زاولوا أساليب الصعلكة مستهدفين أيضاً السلب والنهب ، كمرو بن معد يكرب ، ودريد بن الصمة ، والناطقة الديباني الشاعرة المشهورة ، وكثير غيرهم (١) ولا شك أن هذا التعريف يشملهم ، لأنهم كانوا يفزون ويفزون للسلب والنهب ، ومع ذلك فلا نستطيع أن نعدهم من الصعاليك ، كما لم يستطيع أحد من الرواة والمؤرخين أن يعدهم منهم ، وقد كان يمكن أن نضيف الى ذلك أن الصعلكة ليست قاصرة على السلب والنهب ، بل مما تحدث عنه الصعاليك كثيراً ، وجعلوه هدفاً أساسياً ، الثار والانتقام كما يقول عمرو ذو الكلب .

وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال (٢)

وكما يجعل أبو خراش طلب الثار قريناً لطلبه المغنم « لأدرك ذحلاً أو أشصف على غنم » (٣) ولكننا نرى أن الغرض الأساسي من الصعلكة هو المغنم ، وأن الأغراض الأخرى عارضة أو هي وايدة الصعلكة .

(١) انظر فصل الصعلكة في الجاهلية من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذلي ١١٥/٣ وأبرح بمعنى لا أبرح ، والنعال اشادة الى عادة نساء الجاهلية

في شربون صدورهن بالنعال في البكاء على الميت .

(٣) انظر ديوانه ص ٨٠ ، ٨٢ .

على أن هناك ملاحظة أخرى في عدم شمول التعريف ، وهي أنه من أهداف الصعاليك وغيرهم في الغنائم سبي النساء ، كما نرى في أخبار كثير منهم كمروة بن الورد (١) والسليك بن السلعة (٢) ولسنا نرى أن لفظي السلب والتهب يشملان سبي النساء ، إلا بتكلف لا نرى ما يدعو إليه .
ولذا فمن الواضح أن هذا التعريف غير جامع للموضوع ، وغير مانع عنه غيره .

ولذا كان لابد من محاولة وضع تعريف للصعلكة ، فنأمل أن يكون التعريف الأقرب هو « احترام السلوك العدواني بقصد المغنم » .

وعلى طريقة المناطقة نقول : نعتى بالاحتراف ملازمة العمل الذى يشبه الحرفة ، من حيث استمراره ، ومن حيث كونه العمل الاساسى فى حياة صاحبه وللوورد الاساسى لمعيشته ورزقه أيضا ، ووضعه فى التعريف ليخرج الذين يزاولون أعمال الصعلكة ولكن فى غير صورة الاحتراف ، كفارات بعض القبائل على بعض ، وكمازولة بعض الافراد لأعمال الصعلكة فى غير احتراف ، كما اشرفنا الى أعمال بعض السادة والمشهورين الذين كانوا يفزون ويفرون ويقطعون الطريق بقصد الغنيمة ، ولكنهم لم يحترفوا هذا السلوك ، وقولنا « السلوك العدواني » نعتى به كل الأساليب التى فيها عدوان على الغير مقصود به الغنيمة ، كاللصوصية وقطع الطريق والفارات ونحو ذلك ، ووضعه فى التعريف ليشمل كل هذه الأساليب ومع أنها لفظان متواصفان يكمل أحدهما معنى الآخر ، إلا أن كل لفظ منهما يخرج ما لا يتفق مع التعريف ، فلفظ « سلوك » يقصد به اخراج مالا يؤصف بأنه سلوك عملى ومع ذلك يكون عدوانا ، ويقصد به أحيانا الكسب ، ويتخذ صاحبه حرفة أيضا ، كالهجاء الذى احترفه بعض الشعراء ليتكسبوا به كالخطبة ، أعنى بالرهب منه ، فلولا لفظ « سلوك » لشمّل التعريف مثل هذا ، لأن الهجاء بالنسبة لمثل هذا الشاعر ، احتراف ، وهو عدوان ، ومقصود به الكسب والمغنم فى رحلاته بهذه الحرفة ، ولفظ « عدواني » يقصد به اخراج مثل التسول ، فانه احترام سلوك معين بقصد الكسب والمغنم ، ويخرج أيضا المدح الذى احترفه بعض الشعراء متنقلين به قاصدين الكسب والمغنم ، ولكن اجتماع اللفظين « سلوك عدواني » يخرج كل ما شابه ذلك من غير أعمال الصعلكة ، مع شموله لكل أساليب الصعلكة وأعمالها . وقولنا « بقصد المغنم » ليشمل الواقع فى حياة الصعاليك ويعبر عنه ، فإن احترامهم للصعلكة مقصود منه التعيش ، ومجاورة الفقر ، وليخرج أيضا احترام سلوك عدواني لغير قصد المغنم ، كاحتراف مهلهل بن ربيعة

(١) المرجع السابق ١٣٠/٢ والصل الثار وإشيف اشرف .

(٢) انظر شرح التبريزى لحامدة ابى تمام ٣٧٨/١ فى شرح رثاء أم السليك اياه .

أخي كليب الحرب ضد قاتلي كليب أربعين سنة . لا يرى لغبر الحرب والشار في حياته موصفا ، ومع ذلك لا يعد مثل ذلك من الصعلكة ، لأنه لا يقصد به المغنم ، ومع أن « قصد المغنم » لفظان متضايقان أيضا يكمل أحدهما معنى الآخر ، إلا أن لكل منهما دلالة مستقلة ، غير دلالة الإضافة في اجتماعهما ، فلفظ « قصد » يخرج به السلوك العدواني الذي تترتب عليه مقائم غير مقصودة لذاتها ، كالحروب ، فليس كل من يحصل على غنيمة من الحرب ، مهما زاول الحرب أو احترفها يعتبر صعلوكا ، لأن سلوكه ليس أساسه « الغنيمة » وإنما جاءت الغنيمة نتيجة وليست قصدا ، ولفظ « المغنم » أثرناه على غيره من التعبيرات مثل « الحصول على المال » أو « السلب والنهب » ليشمل بعض أهداف الصعاليك كسبي النساء ، فإنه يعتبر مغنما ، ولكنه لا يعتبر حصولا على مال ، أو سلبا ونهبا ، إلا بتكلف لا نرى ضرورة تدعو إليه .

ومن ذلك نرى أن تعريف الصعلكة بقولنا هي « احتراف السلوك العدواني يقصد المغنم » شامل لجوانب الصعلكة ، ومائع غيرها من مشاركتها في التعريف

نشأة الصعلكة

١ - أسبابها

من الصعب تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية لأكثر من سبب ، فمن ذلك أن التاريخ العربي نفسه قبل الاسلام غير محدد على وجه الدقة ، والمؤرخون حين يحددون بدء التاريخ في أمة من الأمم يلجأون غالبا إلى أمرين ، أحدهما روايات المؤرخين وكتاباتهم عن هذه الأمة بصورة محددة ، والآخر الآثار التي تركتها أجيال هذه الأمة في توال وتتابع بحيث يمكن مقارنة آثار جيل بجيل آخر ، أو نسبة كل مرحلة من مراحل هذه الآثار إلى جيل معين .

ولكن الجزيرة العربية لظروف كثيرة أهمها عدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتيسر لها أحد الأمرين السابقين بصورة مجددة للتاريخ ، فلم يظهر فيها قبل الاسلام مؤرخ يسجل لنا تاريخها ، ولظروف كثيرة أيضا كمرزلتها وعدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتردد عليها مؤرخون يسجلون لنا تاريخها ، وأيضا لظروف كثيرة لا يقتضى المقام سردهما لم تكن لها آثار

ذات قيمة تاريخية من حيث تحديد التاريخ . فلم يبق لنا من تاريخها قبل الاسلام الا هذه الروايات المتناثرة التي لا تخلو من اضطراب حيناً ، ومن طابع أسطوري خرافي حيناً آخر ، والتي كان أهم مصادر الحفاظ عليها أمريين ، أحدهما اعتزاز العرب بالشعر ، ولذلك نجد أقرب ما رواه الجاهليون من تاريخهم الى الحقيقة هو ما رواه من شعر مجتمعاتهم وأسلافهم ، والثاني تقديس القبيلة لأبجائها وخاصة مظاهر القوة فيها وفي تاريخها ، ولذلك نجد أن كل ما وصل إلينا من تاريخ الجاهلية يكاد ينحصر في هذين ، الشعر والأمجاد . وما لا شك فيه أنه لولا قيام الدولة الإسلامية لذابت هذه الروايات كما ذاب غيرها في ثنايا العصور ، وأقول الدولة لأن الاسلام كمجرد دين ليس من شأنه أن يحقق هذه الغاية التاريخية ، ولكن ميزة الاسلام أن من أهدافه الأساسية تكوين الدولة . وحين قامت هذه الدولة حققت فيما حققت حفظ التاريخ العربي . ولكنها لم تجد من التاريخ السابق لها الا هذه الروايات التي لم تستطع أن توغل في الجاهلية أكثر من نحو قرن ونصف من الزمان ، ثم اعتراها الوهن (١) ثم شوهتها الخرافات والأساطير حتى لم تعد قبل هذا التاريخ صالحة للتاريخ ولا ملائمة للعقول (٢) كأحاديثهم عن بقايا عاد وطسم وجديس .

والصعلة لم تكن حدثاً من الأحداث الطارئة أو العارضة في حياة المجتمع العربي قبل الاسلام ، وإنما كانت ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجزء منه ، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل ، وإنما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه ونتيجة لذلك نجد أن الصعلة لازمت كل العصور الجاهلية التي ورد لنا منها تاريخ وكل أماكن الجزيرة العربية تقريباً ، وفيما يأتي من الأمثلة توضيح لذلك .

وحيث نأتى الى بيان الأسباب التي أدت الى ظهور الصعلة في المجتمع الجاهلي نقول :

قبل الخوض في تفصيل هذه الأسباب ينبغي أن نفرق بين الأحداث سواء كانت عادية أو غير عادية ، وبين الظواهر الاجتماعية ، فالأحداث كالحروب والثورات وما يعرض في حياة الجماعات والأمم تتميز بأنها محدودة بزمان ومكان ، وترتبط بها أسباب مباشرة في أغلب الأحيان ، وغير مباشرة في أقل

(١) أنظر خزنة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٣ عل سبيل المثال وانظر تاريخ الام والملك المطبوع ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٩ عن أصل السهم وشامة القمر حيث يزعمون أن السهم ولدته القوس وشامة القمر أثر من جناح ملك .

الأحيان ، ويرتبط بها الاثنان في كثير الاحيان ، ويكفى لتعليلها أحيانا سبب واحد .

أما الظواهر الاجتماعية - كانتشار عادة الثار مثلا في مجتمع ما - فلا ترتبط غالبا بسبب مباشر ، ولا يحدثها زمن معين ، ولا مكان معين ، ولا يكفي في تعليلها غالبا سبب واحد .

فمثلا في المجتمع الجاهلي نرى حرب البسوس، مع أنها ظلت نحو أربعين عاما تزلزل أماكن كثيرة في الجزيرة العربية (١) إلا أنها لا تعدو أن تكون حدثا من الأحداث العارضة في المجتمع ، ويمكن تحديد الأماكن التي دارت رحاها فيها ، وكذلك زمانها ، ويمكن تحديد السبب المباشر لها ، وهو رمى كليب ناقة البسوس بسهمه ، واستنفار البسوس جريتها ، والسبب غير المباشر هو التنافس والصراع الخفي بين جساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، وذويهما من بكر وتغلب .

أما الصعلكة فلا يمكن أن نعتبرها حدثا عارضا في المجتمع الجاهلي ، ولا يمكن أن نحصرها في زمن أو أزمان ، ولا يمكن أن نحصى الذين دخلوا نطاقها - من الشعراء وغير الشعراء - فقد لازمت التاريخ الجاهلي منذ كان تاريخا ، وشملت كل أماكن الجزيرة تقريبا كما سنتبين من الأمثلة ، وكذلك لا نستطيع أن نقرنها بسبب واحد مباشر أو غير مباشر بحيث يكون هذا السبب وحيدا في نشأتها .

ولئن كان الفقر قد ارتبط بالصعلكة من حيث أن مدلولها اللغوي يعنى الفقر ، ومن حيث أن الصعاليك كان يغلب عليهم الفقر ، فاننا لا نستطيع أن نجعل الفقر سببا وحيدا ولا حتى سببا مباشرا للصعلكة ، وذلك لعدة أسباب، منها أن المجتمع الجاهلي ليس المجتمع الوحيد الذي تعرض للفقر ، فما أكثر ما تعرضت جماعات وأمم في القديم والحديث وفي عصرنا الحاضر (٢) لفقر أشد من فقر العرب ، بل لمجاعات طاحنة ، ومع ذلك لم يلزم أن يترتب عليها ظهور ظاهرة كالصعلكة في المجتمع العربي ، ومنها أننا نجد من أحاديث الرواة عن الصعاليك (٣) ، ومن شعر الصعاليك أنفسهم (٤) أن الفقر وحده لم يكن هو الدافع لهم دائما إلى الصعلكة ، ومنها أن كثيرا من سلوك الصعاليك وخاصة قطع الطريق والفتك والاغارة والسلب ، لم يكن وقفا على الصعاليك ولا

(١) خزائن الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٣ - ٢٩ في قصة طويلة وأحداث كثيرة وكذلك المقدم الفريد ج ٢ ص ٧٧ - ٨١ .
(٢) كما يشاهد في كثير من ولايات الهند منذ بضع سنوات حتى الآن .
(٣) أنظر الأمايل للقال ج ٢ ص ١١٨ .
(٤) أنظر المقدم الفريد ج ١ ص ٣٤ (باب فرسان العرب) .

من يوصفون بالفقر وحدهم ، وإنما زاوله كثير من سادات العرب وزعماء القبائل والإغنياء (١) الذين لا يمكن أن يعدوا من الصماليك ، ولا يمكن أن يوصفوا بأن الفقر هو الذى دفعهم الى سلوك ما يسلكون .

ولسنا بذلك نقول من أهمية الفقر فى كونه من أسباب الصعلة ، فالواقع أنه من الأسباب البارزة والمهمة فى الصعلة ، ولكننا نفى أن يكون هو السبب الوحيد أو المباشر للصعلة ، ولكنها أسباب كثيرة مختلفة ، متفاوتة فى أهميتها بالنسبة للصعلة .

ويمكن أن نحصر أهم هذه الأسباب فيما يأتى :

١ - عدم وجود دولة جامعة

ولسنا نعنى الشكل الظاهرى لمعنى الدولة الجامعة ، وإنما نعنى عدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة ، ويحس أفراد شعب هذه الأمة ، بأنهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعاً يؤثر فى سلوكهم .

وليس من اللازم أن تكون هذه القوة فى شكل دولة بالمعنى المفهوم للدولة. بل قد تكون كذلك ، وقد تكون هذه القوة فى صورة قانون يخضع له أفراد الأمة ويحسون بسلطانه على نفوسهم وسلوكهم ، وقد تكون غير ذلك ، فليس المهم فى الشكل وإنما فى المضمون ، وأن أيا من الأمور السابقة إذا فقد سلطانه على النفوس ليصبح مجرد شكل ظاهرى ، فإنه يفقد اشعاعه ، وبالتالي يفقد كيانته الحقيقى من حيث التأثير والتوجيه .

فالقانون مثلاً إذا فقد صفة الإلزام ، وضعف سلطانه على النفوس ، بحيث لا يشعر الأفراد بأنهم ملزمون بتنفيذه ، فإنه يفقد كيانته الحقيقى كقانون ، ويصبح مجرد اسم وهيكلا لا حياة فيه ولا تأثير له ، وكذلك الشأن بالنسبة للدين والدولة وغيرهما .

فهذه القوة المؤثرة الجامعة هى التى نعنى فقدانها فى العرب قبل الإسلام . فلم تكن لهم دولة جامعة ، ولا قانون جامع ، ولا دين جامع .

فأما عن الدولة ، فمن المعروف أنه لم تقم للعرب قبل الإسلام دولة تجمعهم فى تاريخهم كله ، وأنه لم يكن هناك إلا هذه الدويلات أو الإمارات التى قامت فى جنوب الجزيرة وشمالها .

(١) على سبيل المثال مجمع الأمثال ج ٢ ص ٨٧ - ٩٠ والأمال للقال ج ٢ ص ٢٧١ (من دريد بن النخعة) .

ففى الجنوب قامت دولة معين فى شمال اليمن ، وكانت على جانب لا بأس به من القوة والثروة (١) ، وظل حكمها نحو خمسة قرون ونصف (٢) .

ثم قامت بعدها دولة سبأ (٣) التى تبوأ بحديث القرآن الكريم عنها مكانا رفيعا (٤) ، وكانت جنوب معين ، ثم انتقل سلطان معين اليها ، وظل حكمها نحو ثمانية قرون (٥) ، وخلال حكمها تهدم سد مأرب الذى كان لتهديمه أثر كبير فى حياة العرب الاجتماعية ، حيث ترتبت على انهدامه هجرات كثيرة ، عمت أنحاء الجزيرة تقريبا كمسيرة بنى ثعلبة بن عمرو الى يثرب ، فيتكون منهم فيما بعد الاوس والخزرج ، وكذلك بنو حارثة بن عمرو - وهم خزاعة - الى مكة حيث أجلوا جرهما القحطانية عن الحرم واحتلوه مكانها ، وكذلك سار بنو عمران بن عمرو نحو عمان فأصبحوا فيما بعد أزد عمان ، وسار بنو جفنة ابن عمرو الى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا اليه ، وسار بنو لحم بن عدى الى الحيرة وأقاموا فيها ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المنادرة ، وسارت طيء بعد هجرة الأزد الى الشمال فنزلوا بالجليلين أجأ وسلمى فى الشمال الشرقى من المدينة ، وسارت كليب بن وبرة من قضاة الى بادية السماوة طرف شمال نجد (٦) وهكذا كان لحادثة سيل العرم وانحطام السد أثر كبير فى مجرى الحياة الاجتماعية فى الجزيرة كلها (٧) وهذا مما يعيننا فى موضوع البحث فان القحط والمجاعات التى يخلفها السيل وتهدم السد الذى ترتكز عليه الحياة الاقتصادية ، ثم ما تعانیه القبائل المهاجرة من قسوة العيش أثناء الهجرة ، ثم فى المكان الذى تهاجر اليه فى بدء تكون حياتها الاقتصادية ، واحتكاكها فى خلافات وحروب مع القبائل المقيمة فى هذا المكان نتيجة للصراع على ملكية موارد البيئة ، وعلى تثبيت الكيان الاجتماعى والنفوذ القبلى ، كل ذلك من العوامل التى تلقى ضوءا على نشأة الصعلة بما يمكن أن تساهم به فى نشأتها .

ونعود الى حديث سبأ فنقول انه بعد تفكك المملكة السبئية قامت المملكة الحميرية التى ظل حكمها لليمن من قبل الميلاد المسيحى بنحو قرن حتى غزو

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ .

(٤) سورة النمل الآيات ١٩ - ٤٤ .

(٥) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٤ - ٢٥ .

(٦) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٨ - ١١ .

(٧) انظر معجم ما استعجم للبكرى عن هجرات القبائل العربية وانسابها ج ١ من ص ٥ ص ٩١ . وانظر الزمخشري فى الكشاف تفسير الآية ١٨ من سبأ .

الأجاش لليمن في قصة القيل الشهيرة قبيل الاسلام (١) ، واستمر حكمهم نحو سبعة قرون .

هذه ممالك الجنوب ، وقد كانت في الطرف الجنوبي للجزيرة .
وأما في الطرف الشمالي فقد قامت مملكتان صغيرتان ، وكان نفوذ الملك فيها يكاد يكون محصورا في أبناء قبيلته ، فهو في واقع أمره رئيس قبيلة ، يمتاز عن رؤساء القبائل بأنه ملك متوج ، وبأن سلطانه أثبت ، بما يحوطه من وسائل الملك ، وهاتان المملكتان هما مملكة الحيرة ، وهي من المناذرة الذين جاؤوا الفرس ، وموقعها على بحيرة النجف قرب الكوفة ، ومنهم النعمان ابن المنذر (٢) .

ومملكة غسان ، من قبائل قضاة التي هاجرت من اليمن الى شرق الاردن (حاليا) وهاجر بطن منهم (من الازد) الى الشام على ماء يسمى غسان قسموا به ، واستقروا فيما حول دمشق وتدمر ، متجولين في فلسطين ولبنان (٣) (حاليا) .

أما الحجاز - تهامة وغوره (٤) - ونجد فلم يعرفا في تاريخهما كله قبل الاسلام نظام الملك والدولة انما عاشا على النظام القبلي .

ومن هذا العرض السريع نستنبط أنه لم تكن للعرب دولة تجمعهم بحيث يشعرون معها بالخضوع والالتقياد ، وأن هذه الممالك التي قامت لم تبسط سلطاتها على الجزيرة ، وإنما كان بعضها أشبه بالنظام القبلي كما في ممالك الشمال - الحيرة والفسانية - وبعضها كان أشبه بالامارات المحلية كالمملكة الميعينية والحميرية . على أن هذه الامارات لم يستقر فيها الملك بالمعنى الحقيقي الكامل له ، وإنما غلب عليها نظام العشائر والقبائل في عصور كثيرة ، فالمملكة الميعينية مثلا لم تكن ملكا خالصا ، وإنما كانت خليطا من ملوك متوجين ومن رؤساء عشائر (٥) ، والمملكة الحميرية كانت نهبا في الصراع بين الحميريين والكهلانيين (٦) فلم يكن لاحدهما اذن من السلطان الثابت والهيبة المستقرة ما يبسط أثره على الحياة - الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد ، ومن ثم لا يرى الأفراد حاجرا على سلوكهم ولا حائلا بينهم وبين ما يرتضونه لأنفسهم من سبل السلوك ، سواء كان هذا السلوك صالحة أو غيرها .

(١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٨ - ١١ .

(٢) تاريخ الاسلام السابق ج ١ ص ٣٢ .

(٣) نزلة البشائر ج ٢ ص ٣٠٢ نقلا عن الصحاح والاصمعي ، وفي القاموس المحيط مادة (نجد) جبل القود هو تهامة .

(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن إبراهيم ج ١ ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٣٢ .

ونجد الصعاليك أنفسهم يعتزون بهذا المعنى ، ويتوارثونه ، مفتخرين بأنهم لا يرون لأحد سلطانا على حياتهم وسلوكهم حتى بعد أن أصبحوا في ظل الملك والسلطان فهذا عبد الله بن سبرة الحرشي يقول :

إذا شالت الجوزاء والنجم طالع فكل مخاضات الفرات معابر
وانى إذا ضمن الأمير بأذنه على الأذن من نفسى إذا شئت قادر(١)

ومالك بن الربيع صعلوك بنى مازن ، لا يخضعه سلطان بنى أمية القوى العريض فيتوعدهم وعيد الند المكافئ ، ولا ترهبه سطوة الحجاج الثقفى وبأسه الغنيص ، فيهجوه الهجاء البالغ ، ويسخر منه السخرية المرة الموجهة ، فى تعريضه بتعليم الحجاج الصبيان فى سابق عهده فيقول لبنى مروان وللحجاج -

ان تنصفونا يال مروان تقترب اليكم والا فاذنوا بعباد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صواى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى
فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده اذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد ايباد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويقادى (٢)

ولم يكن هناك حينئذ من يتوقع منه أن يجترئ على الحجاج على الأخص بمثل هذا الهجاء غير مثل مالك بن الربيع ، لا لأنه مالك أو غيره ، وانما لأنه أحد الصعاليك الذين يملكون من سعة الأرض مالا يملكه غيرهم ، حيث يرون - دون غيرهم - أن كل مكان على وجه البسيطة يمكن أن يكون وطناً لهم ، كما يقول مالك فيما سبق « وكل بلاد أوطنت كبلادى » وفوق ذلك فان الهجرة ليست عبثاً ولا مبغضة لهم ، وانما هى أمنية يعبر عنها مالك فى هذا التعبير الجميل عن شوق ناقتة الى ريح الفلاة فيما سبق .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صواى

وهذه النزعة فى صعاليك المجتمع الاسلامى ، أعنى نزعة الشعور بالتححر من السلطة ، لم تكن وليدة البيئة ولا العصر ، فانهما لم يكونا حينذاك يسمحان بذلك ، وانما كانت وليدة « المهنة » وهى الصعلكة ، وميراثا متنقلا بين الصعاليك منذ الجاهلية .

وأما فى الجاهلية فلم تكن هناك سلطة « رسمية » فوق الصعاليك حتى نستشهد لاستهانتهم بها ، فلم تكن هناك الا سلطة المجتمع بعاداته وتقاليده ،

(١) ديوان الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١٨٥ وفى شرح التبريزى أن عبد الله بن سبرة من الفتاك وحرش موضع باليمن .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠١ .

وحى هذه السلطة أباهما الصعاليك ، لأنهم لا يؤمنون بأى سلطان من أى نوع ،
وتجد هذه النزعة شائعة فى شعربهم ، فالشنفري يعبر عن ثورته على المجتمع
البشرى كله بالهجرة عنه الى مجتمع الوحوش ، ساخطا على الأول ، راضيا
عن الثانى فيقول من اللامية الشهيرة •

القيموا بنى لى صلور مطيكم فانى الى قوم سواكم لاميلى
وفى الأرض منى للكرم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
تعمرك هافى الأرض ضيق على امرى سرى راغبا او راهبا وهو يعقل

ثم يتحدث عن القوم الذين يريد أن يهجر الناس جميعا من أجلهم ، فإذا
من ذنب ونمر وضع •

ولى دوتكم اهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال
هم الاهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخلد

وتأبط شرا يابى أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده ، ويصر على أن
يفرض نفسه وسلوكه على المجتمع ، فإذا لم يقبل الناس منه ذلك فإن فى
الأرض متسعا له لا يعبر عنه بالأماكن ، وإنما بالآفاق •

انى زعيم لئن لم تتركوا عدلى أن يسأل الحى عنى اهل آفاق
ان يسأل القوم عنى اهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاقى (١)

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائعة فى شعرب
الصعاليك ، ومعنى ذلك أن الصعلكة والسلطة - الحقيقية المتمكنة - لا يتفقان ،
فقد وجدت أو بمعنى أصح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة ، ومفهوم
ذلك أنه حين توجد هذه السلطة لا توجد الصعلكة ، ولو كظاهرة اجتماعية ،
وهذا لا ينفى وجودها كمحالات فردية ، فإن الشذوذ لا يخلو منه مجتمع •
وهذه الحقيقة هى التى تهدف للوصول إليها ، فإن عدم وجود هذه السلطة
فى المجتمع الجاهلى كان من الأسباب الأساسية فى وجود الصعلكة كظاهرة ،

هذا عن الدولة ، وأما عن القانون كصورة من صور القوى المهيمنة المحددة
لسلوك أفراد المجتمع ، فنقول أنه من الواضح أنه لم يكون هناك قبل الاسلام
قانون عربى ، والواقع أنه بانتفاء وجود الدولة ينتفى وجود القانون ، لأن
القانون أو أى تشريع لابد له من سلطة تنفذه وتحميه ، وإذا انتفت هذه
السلطة ينتفى الوجود الحقيقى للقانون ، ولو افترضنا وجود قانون بدون
سلطة متفذة حامية له يصبح وجوده كلا وجود ، من حيث تأثيره والزامه
للأفراد ، والأدنان - حتى الباطل والبدائى منها - بوصفها تشريعات اجتماعية

(١) الأمالى للقال ج ٣ ص ٢٠٥ •

(٢) المفضليات للضبى ص ٢٧ •

وخلقية روحية ، قوتها ليست في ذاتها وإنما في القوة الإلهية التي يعتقدها أفراد المجتمع كأمّة ورامها ، فاعتناق الفرد لأي دين ، وانقياده له ليس مصدره الدين نفسه ، وإنما القوة الإلهية التي يعتقد أنها مصدر هذا الدين وحماه ، والتزامه الانقياد لهذا الدين إنما مصدره الخوف من هذه القوة الكامنة وراء هذا الدين ، بصرف النظر - في هذا المعنى - عن صحة عقيدته أو بطلانها ، فالمهم هو مجرد اعتقاده ودرجة هذا الاعتقاد ، فإن ذلك هو الذي يحدد انقياده ومدى تأثيره في نفسيته وسلوكه .

وحين نتحدث عن العرب الجاهليين في مجال التشريع بنوعيه الوضعي والديني نقول :

أما من ناحية التشريع والقانون فهو كما نقول أنه من المعروف أنه لم يكن هناك قانون بهذا المعنى ، وكل ما كان هناك هو العرف الاجتماعي ، في صورة أعراف وتقاليد تواضع عليها المجتمع نتيجة لظروفه ومقتضيات حياته ومعيشته كتحرير القتال في الأشهر الحرم ، وحماية الجار ، وخلع الشخص الذي تكثر جنائياته فيعلن قومه أنهم برآء منه ومن جنائياته فلا يأخذهم أحد بعدها بجريرة له (١) .

ألا أن هذه الأعراف كان ينقصها وجود القوة التي تضمن تنفيذها ، فلم يكن لها من قوة أو سلطة إلا العرف الاجتماعي ، ولهذا كان تنفيذها يتأثر بالاعتبارات الذاتية أكثر من القيود الاجتماعية ، بمعنى أن القبيلة تجاه هذه الأعراف ، كانت تنظر إلى ذاتها أولاً ، فإذا وجدت في نفسها الشجاعة والقوة بحيث لا تستطيع القبائل الأخرى أن تجبرها على تنفيذها كانت حينئذ ترى نفسها في حل من التقيد بها ، ما لم يرتبط بها معنى آخر كالاعتزاز بالكرامة والخلق ، حين ترى في التحلل من الموقف الذي يقتضيه العرف ما يسيء إلى سمعتها أو كيانها بين القبائل ، على أن مسألة المجتمع كانت تأخذ أحيانا وضعا نسبيا ، فتستطيع القبيلة إذا كانت ذات كيان قوى أن تجعل من نفسها مجتمعا خاصا يمكن أن يخالف عرف المجتمع العام إذا وجدت في ذلك مصلحة ذاتية لها ، كما كانت تفعل قريش في إحرامها بالحج في الجاهلية ، حيث كانت تحرم بالحج من داخل الحرم ، في حين كان يتعين على سائر العرب أن يحرموا من خارجه .

ولهذا نجد التقيد بهذه الأعراف يأخذ عند العرب طابعا عجيبا من التناقض ، فيتشبثون أحيانا بها إلى حد المبالغة الشديدة ، ويستهيئون بها أحيانا إلى حد التجاهل ، بل قد يتعدون حدودها إلى النقيض .

(١) القاموس المحيط مادة خلع .

فمثلا ابراهيم الضيف ، كان من هذه الاعراف ، حتى ان ما يترتب عليه من الجود والبلل كان من اهم مقومات السيادة ومجالات الفخر ، وقد بلغ من كفايتهم فيه الى حد مثل قصص حاتم الطائي المشهورة في الجود ، والى مثل قصة ابي خراش - احد معاليك بنى هذيل - التي كان حرصه فيها على اكرام ضيوفه سببا في هلاكه ، حينما اخذ يهيئ لهم الطعام والذبيحة ، ثم رجاهم ان يحضروا ماء من مكان قريب فابوا الا ان يحضره فهو ، فنزل على ارادتهم واحضر الماء ، ولكنه اثناء عودته به تلدغه حية ، ولكنه يتحامل على نفسه فيكمل رحلته بالماء اليهم ، ويزداد تحاملا فيابي الا ان يتم لهم الطعام دون ان يخبرهم حتى لا يفسد عليهم شهيتهم للطعام ، وتبلغ الصورة ذروتها حينما يبيت عندهم وهو يعاني سكرات الموت دون ان يخبرهم بامر اللدغة ، حتى لا يفسد على امرجهم التمتع بضيافته وبالتنوم الهنيء ، ثم يصبحون فينظرون فاذا هو يحتضر ويكون ختام ضيافتهم تشييع جنازة ابي خراش ، وقد عقب عمر بن الخطاب بعد ذلك على قصة ابي خراش وضيافته اليميني ، بانه لولا ان تذهب سنة لأمر الا يستضاف يبنى بعدها ابدا ، (١) وجعل الأصمعي هذه القصة سببا في نهى النبي عن لختناك ثم القرية (٢) بل قد تذهب المبالغة ببعضهم الى حد استضافة الوحوش ، كما فعل الفرزدق بن غالب حينما استضاف ذئبا ، وابى الا ان يشاركه الذئب الطعام ليقول بعد ذلك مفتخرا .

| | |
|-------------------------------|----------------------------|
| والمجلس عسال وما كان صاحبنا | رفعت لناى موهنا فأتاني (٣) |
| فلما دنسا قلت ان دونك اننى | واياك فى زادى لمشتركان |
| فبت القدر الزاد بينى وبينه | على ضوء نار مرة ودخان |
| وقلت له لما تكسر ضاحكا | وقائم سيفى من يدى بمكان |
| تش فلان عاهدتني لا تخونني | نكن مثل من يا ذئب يصطحبان |
| وقلت امرؤ يا ذئب والقدر كنتما | أخين كانا ارضعا بلبان |
| ولو غيرنا لبهت تلتمس القري | رماك بسهم او شاة سنان (٤) |

ومع هذه الصور التي ترتفع بالاهتمام بالضيف وبالجود الى هذه الدرجة نجد صورة أخرى تنزل به الى أدنى درجاته بل تتجاوز حدوده الى صور غريبة من البخل والشح تبلغ من كثرتها حد أن يفرد لها الجاحظ كتابا كاملا (٥) .

ومن أعرافهم حفظ الجوار ، فقد كان من حق الخليل والمستضعف والحائف وغيرهم أن يلجأ الواحد منهم الى من يجيره ، ومن الحق على المجير أن يحمي

(١) خزائن الأدب للبغدادى ج ١ ص ٢٩٧ .
 (٢) الخيون للجاحظ ج ٤ ص ٣٦٧ واختناها الشرب من ليها بعد كسره الى الخارج .
 (٣) المجلس الأدب الأمير ، وعسال خليل الشبة : رفعت لناى أى رفعت لناى له أى اطهرتها له ليحضر اليها .
 (٤) اكامل للمبرد ج ١ ص ٢١٦ .
 (٥) اظر كتاب البخله للجاحظ .

جاره مما يحى منه نفسه وأهله ، ونرى فى هذا العرف أيضا صورا من المتناقضات فأحيانا تبلغ صور المحافظة على الجوار الى ذروة الوفاء ، كالسموال ابن حيان الذى يضرب به المثل فى الوفاء (١) والذى بلغ من وفائه أن أمرا القيس الكندى استودعه دروعا له ثم مات ، فأراد ملك كندة أن يستولى على هذه الدروع فأبى السموال أن يسلمها الا الى ورثة امرئ القيس ، فغزاه الملك وحاصره ، فتحصن منه السموال ولكن الملك استطاع أن يأسر ابن السموال ، ثم طلب الملك السموال فأشرف عليه من الحصن ، فقال له الملك متوعدا وابن السموال عنده : سأذبح ابنتك ان لم تسلم الدروع وتحت وطأة البشاعة التى ارتسمت فى نفس السموال لذبح ابنته قال له : أنظرنى الى غد ، ثم جمع قومه وأهل بيته فكلهم أشار بتسليم الدروع ، ولكن الوفاء كان أقوى فى نفس السموال من كل شيء ، فحين أصبح أشرف على الملك مكررا رفضه فى حزم واصرار ، وجاء الملك بابن السموال ليذبحه أمام عينى أبيه ، ثم ذبحه والسموال ينظر اليه ، واحتفظ السموال بالدروع ، ثم قدم بها الموسم فسلمها الى ورثة امرئ القيس ثم قال :

**وفيت بادرع الكندى أنى اذا ما خان اقوام وفيت
وقالوا انه كنز رغب ولا والله اغدر ما مشيت (٢)**

بل بلغ ببعضهم أن يجير بالقبر ، كما كان الفرزدق يجير من استجار بقبر أبيه (٣) كما أجاز المرأة الجعفرية التى استجارت بقبر أبيه وفى ذلك يقول :

عجوز تصلى الخمس عاذا بغالب فلا والى عاذا به لا اضيرها (٤)

بل كان بعضهم يجير الوحوش فتصبح حى له لا يمسه ، كما كان كليب ابن ربيعة يقول :

« وحش ارض كذا فى جوارى ، فلا يهاج » (٥)

ومع ذلك فهناك صور أخرى كان ينزل فيها الحفاظ على الجار الى درجة واهية من الوفاء ، تبلغ أحيانا حد التجاهل والتنكر ، فمن ذلك قصة السليك ابن السلكة مع ابن مويك الحثعمى ، فقد استجار السليك بابن مويك ، وإذا أسد بن مدرك الحثعمى يعدو على السليك وهو قافل من احدى غزواته فيقتله ، وأراد ابن مويك مجيره أن يثار له أو يطلب ديته ، ولكن أسدا يقول :

-
- (١) مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٧٤ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٩١ .
(٤) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٩١ .
(٥) خزنة البهاندى ج ٢ ص ٢٤ والمقد الفريد ج ٢ ص ٧٨ .

والله لا أديه ولا كرامة ، ولو طلب في ديتة عقالا ما أعطيته ويقول :

انى وقتلى سليكا ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر (١)

وهكذا تنتهى حياة السنيك دون نار أو دية ، كما كان ينبغى فى عرف الجاهلية .

ومحرز بن المكبر الضبى يهجو بنى عدى الذين أغير على أبله فلم يحركوا ساكنا وهو جارهم ، حتى اضطر الى أن يستجير بجيران آخرين من بنى مازن (٢) فيقول :

أبلغ عديا حيث صارت بها النوى وليس للنهر الطالين فناء
كسالى اذا لاقيتهم غير منطق يلهى به المتبول وهو عناء
فهلا سعيتم سعى عصبه مازن وهل كفلاى فى الوفاء سواء ؟ (٣)

وهكذا حين نتتبع تقيد المجتمع الجاهلي بأعرافه وتقاليده (٤) ، نجد هذا التقيد يخضع أكثر ما يخضع لعاملين ، القوة والمنفعة الذاتية - لا العامة - فحيثما وجدت القوة خضع لها المنطق والعرف ، وحيثما وجدت المنفعة الذاتية كانت أول الأهداف ، وهذا لا يمنع أن تكون هناك أهداف أخرى من المصلحة العامة والحفاظ على الخلق الاجتماعى والتقاليد المتوارثة ، ولكنها جميعا ناتى بعد ذلك الهدف ، وهو المصلحة الذاتية .

ونخلص من هذا الى أن أحد شقى التشريع ، وهو القانون الوضعى لم يكن معروفا لدى العرب الجاهلين ، وانه كانت هناك أعراف وتقاليد اقتضتها ظروف المجتمع وطبيعته ، ولكن هذه الأعراف لم تأخذ صفة الالتزام بحيث يتقيد الأفراد بالتزامها ، ولعدم وجود سلطة تقوم على تنفيذها .

والصعاليك كانوا أقدر أفراد المجتمع على انتهاك هذه الأعراف والتنكر لها ، لأنهم يملكون أمرين مهمين فى هذا المجال ، أحدهما القوة المتحررة من كل قيد وسلطان ، والتي تسير دفة الحياة فى مجتمعهم ذاك ، والآخر أنهم أكثر أفراد

(١) مهلب الأغاني للخضرى ١٦٧/٢ .

(٢) شرح حاسة أبى تمام للتبريزى ج ٢ ص ١٩١ .

(٣) ديوان الحسانة لأبى تمام ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ . والبرى : البعد .
والشطر الثانى من البيت الأول معناه أن النار لا يذهب مادام صاحبه يطلبه . والمتبول : ذو العداوة والحقد .

(٤) وعن انتهاك تقليد الحرم انظر معجم ما استعجم للبكرى ج ٢ ص ٥٣٠ فى قتل زهير بن هرة محرما وشعر أبى خراش فيه وانظر أيضا لسان العرب مادة فتك عن فتك النعمان وقتله فى بنى عوف بن كعب أثناء الشهر الحرام وشعر المخبل السعدي فى ذلك وانظر هجاء أبى خراش فى الفدر بالجوار ديوان هذيل .

المجتمع وطوائفه تحللا من روابطه وعراه ، بل لا يربطهم بالمجتمع الا ما يرون فيه منفعة لهم ، سواء كانت مادية او أدبية ، لذلك لم يكن المجتمع بما فيه من تقاليد وأعراف حجرا على حريتهم وسلوكهم ، ولذلك نرى الشنفرى يقتل قاتل أبيه وهو محرم بالحج ، مخالفا بذلك عرف المجتمع ، بل مفاخرا بذلك فيقول :

قتلنا قتيلا مهديا بملبد جمار منى وسط الحجيج المصوت
جزينا سلامان بن مفرج قرضها بما قلعت أيديهم وأزلت (١)

وأما عن الشق الآخر من التشريع ، وهو التشريع الدينى فنقول :

الواقع أن الأديان نوع من التشريعات ، سواء أكانت تشريعا روحيا ، وخلقيا اجتماعيا ، كسائر الأديان ، أم كانت تشريعا كاملا ، روحيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، وهو الاسلام بالذات .

وفى كل حال فالدين نوع من التشريع ، والقوة التى تحمى هذا التشريع هى الايمان ، الايمان بأن وراء هذا التشريع قوة تحميه ، وتعاقب وتثيب عليه ، ولذلك نجد سلطان الأديان وتأثيرها محصورا فى المؤمنين بها ، ونمنى بهذه القوة القوة الإلهية لدى المؤمنين بالأديان السماوية ، وحين ننظر الى السدين فى الجزيرة العربية قبل الاسلام ، نجد أن الوثنية هى الدين الغالب ، ان كان للوثنية أن تسمى دينا ، بل تكاد تكون هى الدين الوحيد الذى طغى وسيطر عليها ، فباستثناء الأقليات المنتصرة فى شمال الجزيرة وخاصة فى غسان ، وفى جنوبها وخاصة فى نجران والجماعة التى تهودت فى اليمن بزعامة (أسعد أبو كرب) أحد ملوك حمير (٢) وما انبثق عنها من جماعات محدودة ، وخاصة فى يثرب (المدينة) وما حولها ، باستثناء هذه الأقليات كانت الجزيرة بصفة عامة وثنية .

على أننا نلاحظ أن هذه الأقليات كانت منزوية منطقية على نفسها ، ولم يكن نشر أديانهم والتبشير بها من أهدافهم ، وحتى المتحنفون (٣) لم يكن تنصرهم تأثرا بغيرهم ، وإنما كان هروبا من الوثنية التى لم تسفها عقولهم ، ومرحلة من مراحل سعيهم وراء الحقيقة الكاملة التى أظهرها الاسلام ، فلم تحدثنا الأخبار عن نشاط تبشيري فى الجزيرة ، الا ما كان من (يوسسف ذو نواس) الحميرى الذى حرق المسيحيين فى نجران ليحملهم على اليهودية (٤) ، والذى أثار عمله هذا موجة من النشاط الدينى لأول مرة فى الجزيرة ، حيث

(١) المفضليات للظبي ص ١١١ وبنو سلامان بن مفرج هم قبيلة حرام بن جابر قاتل أبيه وأنظر لسان العرب مادة فلك عن انتهاك هذا العرف .

(٢) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٨ .

(٣) ورقة بن نوفل وزملاؤه .

(٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٩ وكان ذلك سنة ٥٣٤ م .

توقف عليه أن غزت الحبشة اليمن لتنار لشهداء دينها ، ثم حاولوا نشر للمسيحية بهدم الكعبة الذي لم يستطيعوا تحقيقه كما في قصة الفيل المعروفة ، وكانت هذه الموجة قبيل الاسلام ، كما كانت من عوامل التمهيد النفسي له ، حيث سرت في الحجاز لأول مرة موجة حية من الاحساس بالاديان السماوية والصراع حولها ، فالحجاز بالذات كان مركز الوثنية الذي لم تزعزعه هزة دينية قبل الاسلام .

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن هناك دين يوصف المجتمع الجاهلي بالانتماء له ، ولما الوثنية فلا توصف بأنها دين ، وإنما هي مظهر من مظاهر البدائية لا تفرغ له ، وقصارى تأثيرها في المجتمع من الناحية الروحية ارضاء جانب من غريزة التدين في الانسان ، واحساسه الفطري بالقوة الالهية ، ولذلك يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله « وقالوا ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى » على أن عبادتهم للأصنام آلت الى نوع من التنافس والعصبية ، حيث خصنت كل قبيلة نفسها باله (صنم) تعبد وتتعرب اليه .

وأما من الناحية الاجتماعية السلوكية فلم يكن لعبادتهم الأصنام فيها أثر ، فلم تحدثنا الأخبار فيما نعلم أن أحدا منهم امتنع عن سلوك معين خوفا من الأصنام ، أو زاول سلوكا معينا تقربا اليها .

وإذا كانت عبادة الأصنام لم تحمل أحدا من الأفراد العاديين في المجتمع على شيء ، ولم تستطع أن تمنع أحدا منهم عن شيء ، فأولى ألا تحمل ولا تمنع الصعاليك والفتاك ، الذين لا يؤمنون بشيء الا بأشخاصهم ، ضاربين بالمجتمع وما فيه ، وبسخطه ورضاه عرض الحائط ، كما يقول أحدهم :

غلام إذا ما هم بالفتك لم يبسل
الامت قليلا ام كثيرا عواذله (١)

وحتى المشورة التي تواضع المجتمع على أنها سداد وحزم ، يرونها هم ترددا وعجزا ، كما يقول قائلهم :

وما العجز الا أن تشاور عاجزا
وما الحزم الا أن تهتم فتفصلا (٢)

وننتهي من هذا الحديث إلى أنه لم تكن هناك سلطة من دولة أو قانون أو دين ، تمنع وجود طائفة كالصعاليك ، أو تحجر على سلوكهم حين يوجدون .

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق .

٢ - ظهور زعامات غير متزنة :

على أن عدم وجود هذه السلطة ترتبت عليه أمور أخرى نعتقد أنها ساهمت في نشأة الصلابة وفي انتشارها ، وأهم هذه الأمور ظهور زعامات غير متزنة في المجتمع الجاهل ، كانت هذه الزعامات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر ، وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم إلى الرياسة ، وإنما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسودوا من أجلها من يتحلى بها ، وإن اختلفت نظرة القبائل إلى هذه الصفات ، وصاحب الخزانة يسوق لنا طرفاً منها نقلاً عن الجاحظ فيقول « قال الجاحظ في كتاب شرائع المروءة : وكانت العرب تسود على أشياء ، أما مضر فتسود ذراياها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال ، السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وأصبحت في الإسلام سبعة ، وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندي ، وكف الأذى ، ونصرة المولى ، وتعجيل القرى ، وقد يسود الرجل بالعقل والعفة ، والأدب والعلم » (١) .

ولكننا مع ذلك نجد أن هذه الصفات ليست ملتزمة ، والرواة أنفسهم يتحدثون بذلك ، فصاحب الخزانة أيضاً ينقل عن الأصمعي « قال الأصمعي : ذكر أبو عمر بن العلاء عيوب جميع السادة وما كان فيهم من الخلال المدمومة إلى أن قال : ما رأيت شيئاً يمنع من السؤدد إلا قد رأيناه في سيد ، وجدنا الحداثة تمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخل دار الندوة وما استوت لحيته ، وجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلاً عاهراً ، وكان عامر بن الطفيل بخيلاً قاهراً وكان سيدياً ، والظلم يمنع من السؤدد وكان كليب بن وائل ظالماً وكان سيد ربيعة ، وكان حذيفة بن بدر ظالماً وكان سيد غطفان والحق يمنع السؤدد وكان عيينة بن حصن أحق وكان سيدياً ، وقلة العدد تمنع السؤدد وكان السيل بن معبد سيدياً ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلاً والفقر يمنع السؤدد وكان عتبة بن ربيعة مملقاً وكان سيدياً » (٢) .

ومن هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد مقومات الرياسة والسيادة ، وفي انطباق هذه المقومات على الذين تسند إليهم السيادة والرياسة نقول أنه من الواضح أنه لم يكن للزعامة كما قلنا قانون ولو عرفى ينظم الوصول إليها . ومن باب أولى لا يوجد قانون - ولو عرفى أيضاً - يحدد المقومات التي ينبغي التحلى بها أو المحافظة عليها أثناء الزعامة ، وآية ذلك أن الروايات فيما

(١) خزانة الأدب للطهطاوى ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٠ .

نعلم لم تحدثنا عن زعيم خلعه قومه من الزعامة لاختلال مقومات معينة ، أو
اختلاله بصفات محددة ، ومن ذلك هؤلاء الذين عددهم الأصمعي آنفا .

ويمكن أن نستخلص مما تحدثنا به الروايات عن نظرية العرب الى
السيادة ، أنها كانت تحتاج الى دعامين ، أولاهما قوة الشخصية ، ونعني بقوة
الشخصية المدلول الخاص لهذا التعبير ، وليس مجرد القوة أو شدة البأس ،
فقد كان في القبائل كثير من هذا النوع ، وكانوا يوصفون بأنهم شجعان أو
فرسان أو فتاك ، ولكن لم يوصفوا بأنهم سادة . والدعامة الثانية هي الوراثة
ولو غير المباشرة ، بأن يكون طالب الزعامة من بيت ألفت فيه الزعامة ، سواء
كان أبوه زعيما أم غير زعيم .

وليس هذا الحديث مما يعنينا لذاته ، وإنما يعنى الموضوع منه أنه
حينما لم تكن لهؤلاء الرؤساء ضوابط أو أسس تقوم عليها رئاساتهم اندفع
بعضهم في بغي لا يتقبله المجتمع ، وظلم تأباه طبيعة مجتمع لم يالف الذل قط ،
بل ولا مجرد الخضوع ولكن هذا البعض استطاع أن يستغل بعض الظروف
في شخصيته أو عصبيته ، فيطغى ويبغى ، كما فعل كليب حين كان يحمى
المراعى والوحوش ومواقع السحاب (١) وصورا أخرى من البغى والطغيان
وكهؤلاء السادة الذين تحدث عنهم الأصمعي آنفا (٢) ، وهذا البغى والطغيان من
شأنه أن يدفع بعض النفوس الأبية الى التمرد ومحاولة صده والخروج عليه
كما فعل جساس بن مرة في قتله لكليبا ، وكما فعل علقمة بن علاثة في صراعه
مع عامر بن الطفيل الذي عدّه الأصمعي من السادة القاهرين الظالمين كما سبق .

على أنه من مظاهر ظلم بعض هؤلاء السادة احتكارهم موارد الرزق
المحدودة في البيئة ، وتضييقهم بذلك على الناس بما فيهم أقوامهم ، ويدل
على ذلك ما تفيض به الأخبار من ثرائهم الفاحش إذا قورن بالفقر الشديد
الذي يعانيه الناس من حولهم ، ومن أمثلة البغى في مصادر الرزق ما سبق
من احتجاز كليب التغلبى سيد ربيعة للمراعى بل ولمواقع السحاب لنفسه
دون الناس جميعا بما فيهم قومه .

وبذلك يكون هؤلاء السادة قد ساهموا مع الظروف في قسوتها على مجتمع
محدود الموارد ، ومن الطبيعي أيضا أن يكون هذا السلوك من جانب بعض
الرؤساء عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد ، ولجوئهم الى وسائل كالصعلكة .
فانه اذا كان في المجتمع من يأبى الظلم ويتمرد عليه ، ويرفض البغى
ويتصدى له ، واذا كان في المجتمع من يؤله الفقر الذى ساهم السادة في

(١) خزائن البغدادي ج ٢ ص ٢٤ ، والمقد اللريه ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) خزائن البغدادي ج ٢ ص ٢٧٠ .

خلقه ، وإذا كان في المجتمع من تفريه أموال هؤلاء السادة بالتلصص اليها والسطو عليها ، فأولى الناس بذلك هم الصعاليك ، لأنهم أكثر الناس امتلاكاً للوسائل المضادة ، وأقواهم على استخدامها ، سواء أكانت مضادة البغي والظلم ، أم مضادة الاحساس بالفقر ، أم مضادة الثراء والغنى .

٣ - علم التوازن بين الفقر والغنى :

أجمعت كتب اللغة ومعاجمها كما رأينا ، وكذلك دوائر المعارف التي أخذت عنها (١) على أن أصل الصعلكة الفقر ، ولا شك أن هذا يلقي ضوءاً قوياً على نشأة الصعلكة وكذلك على حياة الصعاليك المادية ، حيث يبين من هذا الضوء أن من أبرز ما قامت عليه الصعلكة في نشأتها وفي حياتها الفقر .

وشعر الصعاليك أنفسهم ينطق بهذه الحقيقة ، بل يمكن أن يقال أن الفقر كان أبرز المعاني التي ترددت في شعرهم على الإطلاق ، بل تكاد لا نجد شاعراً منهم لم يتحدث عن الفقر في صورة من صورته ، وصور الفقر عند الصعاليك لم تكن تمثل فقراً عادياً ، وإنما فقراً قاسياً ، وكانت آثاره من الجوع والهزال والحرمان أشد إمعاناً في القوة ، والسليك يرسم لنا صورة بيئة الصديق عن الجوع وآثاره ، فيقول أنه حتى في الصيف الذي تكثر فيه البان البادية وخيراتنا يبلغ منه الجوع أحياناً أن يأخذه الدوار حين يقف فتظلم عيناه ، يقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف حرني إذا قمت تغشاني ظلال لاسدك (٢)

ولحديث الشعر عن الفقر موضعه حين نتحدث عن الشعر ، ولكن الذي يعيننا الآن هو مساهمة الفقر في نشأة الصعلكة وحياتها ، من زاوية اتصاله - أعني الفقر - بالغنى .

والواقع أن الفقر ليس جديداً ولا غريباً على البيئة في الجزيرة العربية ، وخاصة في الحجاز (٣) فهي بيئة أهم مواردها الرعي ، ثم قليل من الخصب الزراعي في مناطق محدودة من اليمن وخاصة بعد تهدم سد مأرب - وفي شمال الجزيرة ، وبقع متناثرة في نجد وحول يثرب (المدينة) يضاف إلى ذلك النشاط

(١) مثل دائرة معارف القرن العشرين ج ٥ مادة (صعلك)

(٢) مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ١٠ ومهذب الألفاني ج ١٦٧/٢ وأسند أي دخل في

السدفة وهي الظلام .

(٣) انظر مقالة ابن خلدون ص ٨٣ للمقدمة الخامسة فصل اختلاف أحوال العمران في الحصب

والجو .

التجارى الذى يعتمد على موارد البيئة من ناحية ، واحتياجاتها من ناحية أخرى .
وكلاهما تبعا لذلك محدود أيضا .

وإذن فالفقر من حيث هو ليس غريبا ولا نادرا فى بيئة كهذه البيئة . ولكن
الفقر من حيث هو لا نعتقد أنه يكفى أن يكون سببا فى الصعلة ، وإنما
نعتقد أن الاحساس بالفقر هو الذى يصلح أن يكون سببا ، والفرق كبير بين
الفقر والاحساس به من حيث ما يترتب عليهما من آثار فى حياة صاحبيهما ،
وليس هذا الفارق فى الفقر وحده ، وإنما فى كل المعانى التى يمكن أن تترتب
عليها آثار اجتماعية ، فالثورات على الظلم مثلا ليس مصدرها الظلم نفسه
وإنما مصدرها الاحساس بالظلم .

ولا نغنى بالاحساس مجرد العلم ، فكثير من الفقراء يعلمون أنهم فقراء
والتقروض أن يعلم الفقير أنه فقير ولكنهم مع ذلك يستكينون لقسطهم وحظهم من
الحياة ، لأن هذا العلم لم يبلغ من نفوسهم مبلغ الانفعال والتأثر ، ولكن بعضا
آخر منهم يس هذا الاحساس نفسه ، ويثير حوافزها فيترتب على ذلك ما يترتب
فى حياته من سلوك وأحداث . وهناك عوامل فى المجتمع من شأنها أن توجد
الفقر نفسه ، وتوجد الاحساس به ، ومن أهم هذه العوامل ما يأتى :

١ - ضعف موارد البيئة جعل ميزان التعادل بين الأفراد والجماعات
خسائيا من الناحية المادية فإذا أثرى فرد كان ثراؤه على حساب الآخرين ، وإذا
غنت جماعة كان غناها يمثل هبوطا أو فقرا فى حياة جماعة أخرى من الناحية
المعيشية والمادية ، كما يمر المعنى عن هذا المعنى فى سياق فلسفى فيقول .

غنى زبد يكسب لفقر عسرو فلا فقير يسوم ولا غنى

ومن الطبيعي ألا يكون هناك توازن أو تقارب فى الثروة بين الأفراد وبين
الجماعات فى بيئة أبرز شرائعها السيف وشدة البأس ، فكلما كان الفرد أشد
بأسا وأمضى سيفا أتبع له أن يحصل على أكبر قدر من كل شيء ، ومن ههنا
الأشياء الثروة ، وكلما كانت الجماعة أو القبيلة أشد بأسا وأرهب جانبها دنت
منها الأهداف والغايات وفى مقدمتها الثراء .

وأخبار الثراء الفاحش الذى وصل اليه بعض العرب دون بعض تفيض بها
الروايات والأخبار وبعضها مشهور كثره عثمان بن عفان وصفوان بن أمية منذ
الجاهلية ، وكآلاف الآلاف التى تركها عبد الرحمن بن عوف عند موته ، بل كان
بعضهم يحتكر لنفسه موارد الطبيعة من المراعى ومواقع الغيث ، كقصص كليب
المشهور ، ومن هؤلاء الأثرياء غالب أبو الفرزدق ، الذى أصاب الناس مجاعة
فكان ينحر لقومه كل يوم ابلا يطعمهم حتى نحر ذات يوم مائة ناقة (١) ، وبلغ

(١) خزنة الجندى ج ٢ ص ٢٤٩ وفى الأمال ج ٣ ص ٥٣ أن الأبل التى نحرها مائتان

من شهرته بكثرة ابله ، أنه حين دخل على بن أبي طالب سألته على : من الشيخ ؟ قال : أنا غالب بن صعصعة ، قال هو الأبل الكثرة ؟ قال : نعم (١) ، ومن هؤلاء أيضا سحيم بن وثيل بن حنظلة الذي نافس غالبا في نحر الأبل ، فنحر لقومه ذات يوم نحو ثلاثمائة ناقة (٢) .

ويتضح هذا الثراء في الديار والمغارات التي كان يلتزمها سادة القبائل وزعماءها في الجنايات التي كانت « تعفى بالثنين (٣) » من الأبل كما يقول زهير بن أبي سلمى في قصيدته المشهورة ، وكما فعل الحارث بن أبي سفيان الذي ألزم نفسه دية قدرها ألف بعير (٤) ، وكما فدى هودة بن علي نفسه من أسر بني سعد بثلاثمائة بعير (٥) ، وكما تحمل حاتم عن قيس بن خفاف ثلاثمائة بعير (٦) ومصادر هذه الثروة كانت الأبل ومراعيها في البادية أما في المدن فكانت بمصادر التجارة ، كتجارة قريش المشهورة ، ورحلتها في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام (٧) كل عام وهما اللتان يتحدث عنهما القرآن الكريم في قوله تعالى « لا يلاف قريش ، أيلافهم رحلة الشتاء والصيف » فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ، وكلطائم النعمان بن المنذر ، التي كانت تشبه القوافل التجارية ، يرسلها إلى الأسواق لتباع فيها ، ومن ذلك أنه كان يرسل إلى سوق عكاظ كل عام بلطيمة تباع له هناك (٨) بالسوق .

ونتيجة لذلك نجد فضلا عن الأفراد جماعات وقبائل اشتهرت في جملتها بالشراء منذ عصور الجاهلية قريش الذين يصفهم الزمخشري بأنهم كانوا كسابين بتجارهم وضربهم في البلاد (٩) وكال المنذر لما لهم من أمانة ولطائم كما سبق .

-
- (١) أمالي القالي ج ١ ص ١٥٣ .
 - (٢) خزائن البغدادي ج ٢ ص ٢٤٩ وفي المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٢ عن ابن دريد أن سحيم عاش في الجاهلية أربعين سنة وفي الإسلام ستين سنة وغالب بن صعصعة معاصر له ففراؤهما يمثل الجاهلية والإسلام والقصة أيضا في الأمالي ج ٣ ص ٥٣ .
 - (٣) خزائن البغدادي ج ٢ ص ٢١٧ وتعفى أي تمحى بالثلاث يقصد الديار .
 - (٤) شرح حساسة أبي تمام للعبري ج ٢ ص ١٧٤ .
 - (٥) معجم ما استعجم للبكري ج ٣ ص ١٠٦٥ .
 - (٦) الأمالي ٢١/٣ .
 - (٧) تفسير الكشاف (سورة قريش) الجزء الرابع ص ٦٣٩ .
 - (٨) معجم الأمثال ج ٢ ص ٨٧ .
 - (٩) تفسير الكشاف (سورة قريش) ج ٤ ص ٦٤٠ .

وهذا الثراء المجاور للفقير ، هو الذى نعينه فى اثاره الاحساس بالفقر ، وفى اثاره التطلع للفنى معا ، فبعض الفقراء الذين وجدوا فى نفوسهم صفات خاصة - هى صفات الصعاليك - من حساسية النفس وقوة العزيمة ، ألم هذه الحساسية فى نفوسهم أن يرتعوا فى البؤس والحرمان ، بينما يلاصقهم أناس آخرون يرتعون فى الثراء والنعيم ، وقد لا يكون كثير من هؤلاء الأغنياء أحق منهم بالفنى ، ثم ينظرون فإذا فى نفوسهم قوة قوية ، واردة ماضية ، ففيم استكانتهم لحرمان لا يرونه حقاً عليهم ؟ وفيم قعودهم عن آمال لا يعجزهم تحقيقها ، أو تحقيق بعضها على أسوأ الظنون ؟ وفيم رضاهم بالهوان بين الناس ؟ والعصاليك أنفسهم يتحدثون عن جولان هذه المعاني فى نفوسهم ، فهذا عروة ابن الورد يخاطب امراته قائلاً :

| | |
|-------------------------|------------------------|
| دوينى للفنى اسمى فانى | رايت الناس شرهم الفقير |
| واحقرهم واهونهم عليهم | وان اسى له كرم وخير |
| يمساعده القريب وتزددية | حليته وينهره الصغير |
| وتلقى ذا الفنى وله جلال | يكاد فؤاد صاحبه يطير |
| قليل ذنبه والذنب حتم | ولكن للفنى رب غفور (١) |

وكما يقول تابل شرا .

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضع ولأسى امره وهو مدير (٢)

٢ - نواحى البيئة نفسها غير متفقة فى خصبها وجودها بالحير ، فمع أن الجزيرة السربية معروفة بأنها منطقة صحراوية جبلية فى جملتها ، تتمثل فى سلاسل من الجبال والصحراوات تتخللها طولاً وعرضاً ، وتعتمد على الامطار التى تتساقط فى فترات متقطعة على أرض غير خصبة ، وعلى قليل من العيون التى تشبه الآبار ، والتى غاية ما يرمى منها أن تكفى الملتفين حولها فى مشربهم وحفظ حياتهم ، نقول مع ذلك نجد فى الجزيرة مناطق محدودة اشتهرت بالخصب والجودة ، وقد يكون هذا الخصب نسبياً ، أعنى بالنسبة للأرض المجربة حولها ، ولكننا لا يعنينا تقويمها لذاتها ، وإنما تعنينا نظرة المجتمع حينذاك اليها واكباره لخصبها وتطلعه الى هذا الحصب ، فمن هذه المناطق المشهورة بالخصب بعض الاماكن فى اليمن وخاصة فيما حول مأرب حين جعل السبائيون منها جنة لياضة بالحيرات ، كما يصف القرآن الكريم ذلك فى قوله « لقد كان لسبا فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى آكل خبط وأثل وشىء

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٢٧ (باب السعى للرزق) .

(٢) ديوان الحماسة لأبى تمام ج ١ ص ١٧ .

من سدر قليل « (١) ويقول ابن عباس عن خصبها « كانت أخصب البلاد وأطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكنل فتعمل بيدها وتعبر بين تلك الشجر فيمتلئ المكنل بما يتساقط فيه من الثمر « (٢) .

ومن هذه المناطق الخصب الطائف وما حولها وشهرتها كمصيف لسادة العرب ، وشهرتها أيضا بكرومها وثمارها قديمة منذ عصور الجاهلية ، ومن كرومها هذا الحائط لذى لجأ اليه النبي صلى الله عليه وسلم في أزمة لجوئه الى ثقيف وتخطى ثقيف عنه وايدأها اياه في القصة المشهورة ومن مناطق الخصب المشهورة أيضا يثرب (المدينة) المعروفة بشمارها وخاصة النخيل ، ومنها أيضا منطقة نجد في بعض نواحيها ، ومنها بعض مناطق السماوة ، مثل بيشة التي وصف جرير بن عبد الله خصبها للنبي صلى الله عليه وسلم (٣) ومنها قطر التي اشتهرت في القديم بكثرة خمورها (٤) لكثرة الكروم فيها ، ومنها اليمامة التي يقول عنها الطبري « واليمامة اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا ، لهم فيها صنوف الثمار ، ومعجبات الحداثق « (٥) والخصب البارز في هذه المناطق كان يجاوره فقر مدقع في المناطق نفسها بتفاوت أفرادها في الثراء وطفيان بعضهم على أنصبه الآخرين فيها ، وكان يجاوره أيضا فقر مدقع في الأحياء والقبائل القريبة منها بطبيعة الحال .

وهنا يثور الاحساس بالفقر عند بعض الفقراء ، حين يجدون جيرانهم وأقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به ، في الوقت الذي يعانون فيه هم ما يعانون ، وهنا أيضا يثور في نفوسهم التطلع للغنى والحصول على المال ، حين يجدونه قريب المال .

وليس من المصادفة أن نجد معظم الصعاليك والفتاك ينتمون الى هذه المناطق الخصب ، فمثلا نجد من منطقة مارب عددا كبيرا ، ومنهم حاجز بن عوف الازدي ، وأبو الطمحات القيني ، ومالك بن حريم الهمداني ، وعبد الله بن سيرة الحرشي ، ومن منطقة الطائف وما حولها صعاليك هذيل وهم كثير ، منهم أبو خراش والأعلم وصخر الغي ، ومن منطقة اليمامة صعاليك بنى تميم وهم كثير أيضا ، ومنهم عبدة ابن الطبيب والسليلك بن السلكة ، وسعد بن ناشب ، ومن منطقة يثرب وما حولها عدد كبير أيضا منهم عروة بن الورد العبسي وتأبط شرا الفهمي ، مع مراعاة أننا لا نتحدث الا عن الشعراء من الصعاليك ، والمفروض أن الذين لم يكونوا شعراء أكثر من الشعراء ، ومع مراعاة أن هؤلاء البارزين من الصعاليك الذين تحدثت

(١) سورة سبأ الآيات من ١٤ الى ٢١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري الآيات السابقة ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٣) انظر معجم ما استعجم للبكري ج ١ ص ٢٩٣ .

(٤) انظر المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٨٢ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٤٥٢ .

عنهم الرويات والاخبار كان معظمهم رؤساء عصابات من الصماليك كما يتحدث السليك عن رفاقه في العصابة فيقول :

ويأتوا يظنون وصحبتى اذا ماعلوا نثزا اهلوا واوجفوا (١)
وكما يقول تابط شرا عن الرفاق .

سجاق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هذا بين ارفاق (٢)
وكعصابات عروة بن الورد المشهورة في اخباره .

بقى في هذا المجال أن نشير الى مصدر من مصادر الثروة في المجتمع العربي القديم ، وهو التجارة وما يرتبط بها من الأسواق والطرق التجارية وما لذلك من أثر في الصلابة .

والتجارة كانت بالنسبة للمدن موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم الاقتصادية ، كما تحدثنا عن قوافل قريش ، وعن لطائم النعمان بن المنذر ، وكذلك كانت لكسرى لطائم تمتد بينه وبين عمالة بالجزيرة في اليمن مدة احتلال الفرس لها - وفي الشمال عند المناذرة ، ومن هذه اللطائم لطيمته التي أرسلها اليه عامله على اليمن فاغار عليها بنو تميم وأخذوها بعد أن قتلوا بعض خفرائها وأسروا البعض الآخر (٣) .

وكان لتجارة القوافل طريقان معروفان منذ القدم ، وكلاهما يبدأ من **حظار** بجنوب اليمن وهي التي كانت تسمى ريدان (٤) في عواصم الممالك اليمنية القديمة ، ويسلك أحدهما في تعاريجه بشرق الجزيرة متجها الى الشمال في محاذة الخليج العربي ، ويسلك الآخر في تعاريجه وانحناءاته أيضا غرب الجزيرة مارا بالمجاز ومحاذا البحر الاحمر (٥) وكان الطريقان يمران بمعظم البلاد والقبائل العربية .

وفضلا عن نشاط القوافل التجارية التي كانت تتردد بين الجزيرة وبين ممالك أخرى كالفرس والروم والحبشة والهند ، وتخترق في تردها هاتين الطريقين مارة بالبلاد والقبائل العربية ، قاصدة في أغلب الأحيان أسواق العرب بائعة ومشتريه ، فضلا عن ذلك كانت هناك التجارات الداخلية المحلية ، بين قبائل العرب وهذه الأسواق ، سالكة إحدى الطريقين أو طرقا فرعية أخرى من

(١) مذهب الخضرى لاغانى الاصمهانى ١٦٧/٢ .

(٢) الفضليات للضبي ص ٢٧ . وهذا أى رافعا صوته بالأمر والنهى .

(٣) أنظر معجم ما استعجم للبكري ج ٣ ص ١٠٥٩ .

(٤) تاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٢٨ .

(٥) أنظر الشعراء الصماليك للدكتور يوسف خلف ص ١٢٤ عن مراجع أخرى .

شأنها أن يهينها أو يبحث عنها المقيمون في مكان لانفسهم حتى توصلهم بالاماكن والمجتمعات الأخرى .

وأما أسواق العرب فكانت كثيرة منبثة حول أهم البلاد والطرق ، وقد عدد صاحب كتاب الشعراء الصعاليك منها نحو ثلاث عشرة سوق متفرقة في أنحاء الجزيرة كلها ومنها الاسواق المشهورة كعكاظ ومجنة وذى المجاز (١) .

ومع ذلك فهناك أسواق أخرى وإن كانت غير مشهورة ، تحدث البكري عن بعضها ، مثل سوق الحربة - بفتح الحاء وسكون الراء - التي يقول عنها « وخربة سوق من أسواق العرب في عمل اليمامة ، وفيه أدركت أم الورد العجلانية بشار ذات النحين الهذلية (٢) » في قصة ساقها تتعلق بالمثل العربي « أشفل من ذات النحين » وقصة هذا المثل (٣) .

والذي يهمنا في حديث التجارة والاسواق أنها كانت من العوامل المهمة في خلق الصعلة ، فهذه القوافل التي كانت توغل في مجاهل الصحراء ، والتجار الذين كانوا يترددون بتجارهم على الاسواق في هذه الطرق والمجاهل ، كل ذلك كان صيدا ثميناً يقرى طوائف الصعاليك من قطاع الطرق وأصحاب الغارات بأن يتعرضوا لها ويستमितوا في الفوز بها ، بل إنها كانت تغري القبائل نفسها وعلى رؤسها سادتها بأن يتعرضوا لها ويقاتلوا دونها ، ولذلك كان من المعروف عندهم أن أصحاب القوافل لا يستطيعون أن يعبروا هذه الطرق بقوافلهم إلا إذا أمنوا القبائل التي يمرّون بها سواء بحلف أو اتاة ، أو خفارة قوية ، كما ورد في أخبار النعمان بن المنذر في لطائفه التي كان يتاجر بها في الاسواق ، حيث قال ذات مرة - وعنده البراض (بن قيس الكنانى) وعروة بن عتبة الرجال - من يجيز لى لطيمتى هذه حتى يقدمها عكاظ ؟ فقال البراض أنا أجبرها على كنانة . قال النعمان : ما أريد إلا رجلاً يجبرها على الحين من قيس وكنانة ، فقال عروة الرجال أنا المجيزها على أهل الشيخ والقيصوم من نجد وتهامة . وفيها قصة فتك البراض وعروة الرجال في هذه الرحلة (٤) . ومن ذلك قصة لطيمة باذام عامل كسرى على اليمن والتي كان خفيها هوذة بن على ، فأغار بنو تميم على اللطيمة وقتلوا خفراءها وأساور كانوا معها وأسرت بنو سعد هوذة بن على (٥) وفي أخبار السليك بن السلكة « أنه كان يعطى عبد الملك بن مويك الخثعمى اتاة من غنائمه على أن يجيزه فيتجاوز بلاد خثعم الى من وراءهم من أهل اليمن » (٦) .

(١) انظر المصدر السابق ص ١٢٧ نقلا عن اليمقوبى وابن حبيب وياقوت ومصادر أخرى .

(٢) مجمع ما استجمع ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٣) أنظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٧٦ .

(٤) انظر المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧ وفيه القصة كاملة .

(٥) انظر مجمع ما استجمع للبكري ج ٢ ص ١٠٥٩ مادة (حو) وفيه القصة كاملة .

(٦) مهذب الخضرى لأغاثى الاصبهائى ج ١٦٧/٢ .

ولم يكن يسلم من هذا الخوف الذى يؤرق التجار والمنتقلين بأموالهم الا قريش كما يقول الزمخشري « وكانت لقريش رحلتان : يرحلون فى الشتاء الى اليمن وفى الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتهم آمنين لانهم أهل حرم الله وولاية بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويقار عليهم (١) »

وننتهى من هذا الحديث الى أن الفقر وان كان من الاسباب البارزة فى الصعلة الا أنه لذاته لم يكن السبب الوحيد ولا الأهم ، وانما الأهم هو احتكاكه بالفنى ، غنى أصحاب الابل فى البادية أو « أرباب المخاض » كما يسميهم الصعاليك فى شعرهم ، وغنى أصحاب التجارة فى المدن والبلاد ، وهذان المجالان ، مجال المخاض ، ومجال التجارة أهم مجالات الصعاليك ، كما كان الصعاليك أهم خطر يهدد هذين المجالين ، ولذلك نرى يزيد بن الصقيل العقيلى أحد الصعاليك يمن على أصحاب المخاض بعد توبته ، ويبشرهم بالأمن والاطمئنان بعد هذه التوبة فيقول :

الا قل لأرباب المخاض اهللسوا فقد تاب ممسا تعلمون يزيد (٢)
والاحيمر السعدى - أحد الصعاليك - يجعل من سيفه سلطانا قاهرا قادرا على أموال التجار فيقول :

تعرئى الاعدام والبدو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم (٣)

ثم تاب الاحيمر أيضا فراح يتحدث عن حزن ومرارة لا يستطيع أن يخفيها كلما مرت قوافل التجار أو عبرت زواجل المتاع ، وكلما عاوده الحنين الى الصعلة ولكنه مع ذلك ينصح زملاءه السابقين فى الصعلة أن يتناسوا خيرات العراق واليمن التى يجوز بها التجار عليهم ، ويتوبوا مثلما تاب فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
قل للمصوص بنى اللغنة يحتسبوا بز العراق وينسو طرفة اليمن (٤)

(١) تفسير الكشاف (سورة قريش) ج ٤ ص ٦٣٩ .

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٦١ .

(٣) الأماالى للقال ج ١ ص ٤٨ :الاعدام الفقر .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٤٩ .والزمالة الناقة عليها حملها والبز الثياب .

٤ - طبيعة الأرض والحياة :

أ - الأرض :

نتيجة لما هو معروف من أن أرض الجزيرة العربية يغلب عليها الطابع الجبلي الصحراوي ، نجد أن هذه الطبيعة تخلق حصونا طبيعية لأبنائها ، تحميهم حينما يلتمسون الحماية ، وتخفيهم حينما يطلبون الحفية ، وأرض هذه طبيعتها من شأنها أن تغرس في أبنائها طبائع خاصة يتوارثونها وتؤكد لها لهم وسائل حياتهم ، وابن خلدون يقول عن هذه الطبيعة التي أوحتها البادية إلى أبنائها وعن حمايتها لهذه الطبيعة يقول عن العرب بالبادية « وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر (١) » وابن خلدون من أول المنادين بأن الإنسان في خلقه وسلوكه ولغته ولونه ونفسيته ابن بيئته ، وأن البيئة بكل ما تحويه من أرض ومناخ وخصب وراء كل اختلاف وتغاير بين البشر (٢) .

والبيئة العربية في الجزيرة كل ما فيها قاس عنيف ، فقرها وجد بها قاس عنيف (٣) ومناخها في كلتا حالتها كذلك ، برد شديد ، وحر أشد منه ، كما يصف خالد بن صفوان لهشام بن عبد الملك برديشة السماء فيقول «حتى إذا كنا ببيشة السماء بعث الله علينا ريحا حرجفا (باردة) انجحرت لها الطير في أوكارها والسباع في أسرابها ، فلم أهد لعلم (جبل) لا مع ، ولا لنجم طالع » (٤) .

ويصف الشنفرى ليلة أشد فيها البرد ، حتى أن صاحب القوس ليضطر إلى تحطيم فوسه - التي تقوم عليها حياته - ليستدفى بها وبأدواتها فيقول .

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللائي بها يتنبل (٥)

ويصف الشنفرى أيضا يوما من أيام الحر الشديد الذي ملأ الجو لوابا يشبه الخيوط حتى أن الافاعي التي درجت وعاشت في الصحراء لم تحتل وطاة هذا الحر فيقول :

ويوم من الشعرى يدوب لوابه أفاعيه في رمضائه تتلمل (٦)

(١) المقدمة ص ١٤١ فصل (العرب لا يتغلبون الا على البساط) .

(٢) أنظر المقدمة من ص ٧٨ إلى ٨٧ المقدمات الثالثة والرابعة والخامسة .

(٣) أنظر المصدر السابق ص ٨٣ .

(٤) معجم ما استعجم للبكري ج ١ ص ٢٩٣ .

(٥) الأما للقال ج ٣ ص ٢٠٥ ونحس : برد شديد ويصطلى يستدفى وربها صاحبها .

(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٦ . الشعرى الحر الشديد الرضاء الرمال الحامية

من الحرارة .

كل شيء في هذه الصحراء اذن قاس عتيق ، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة
أشداء .

وقد كانت بهذه الطبيعة ، وبما تيسره من الاختفاء في مجاهلها وجبالها
ومتاهاتها ، من العوامل البارزة في نشأة الصعلكة وحياتها .

ولذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبة من
الخصب ، إلا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة الصعبة المنال ،
فنجدهم يالفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم إرتيادها ، وحين ننظر إلى
شعرهم نجد حافلا بذكر هذه الأماكن الوحشية البعيدة في الوحشة والامتناع ،
فتأبط شرا يتحدث عن موضع موحي يخافه العرب لا اعتقادهم أنه لا يخلو من
السعال والقوق وهو زحاطان (١) ، ولكن تأبط يالف هذا المكان ولا يخاف
غيلاته وسعاليه ، بل يتحدث عن قتله أحداها فيقول .

إلا من مبلغ فتيسان فهم بما لاقيت يوم رحي بطان
باني قد لقيت القول تهوى بقفر كالصحيفة صحصحان

وليس هناك ما يوجب اعتقادنا بأنه حادث خرافة ، فليس من مانع أن يكون
قتل فعلا نوعا من الحيوانات الوحشية التي تقرب في صفتها من الارصاف
الأسطورية أو الخرافية للقول ، وهناك حقا بعض هذه الأنواع كبعض فصائل
القرود ، ويتحدث تأبط شرا أيضا عن بعض الجبال التي يالفها كجبل اسمه مروان
فيقول :

ولا بالشليل رب مروان قاعدا باحسن عيش والنفائي نوفل (٢)

والشغرى يتحدث عن الأماكن الكثيرة التي يرتادها ويتنقل بينها ، ويصفها
بأنها جميعا أماكن نائية متفورة « هنالك يلقى المتفورا » ومنها عصوص ، الجبل
المداني لبني سلامان الذين كان يعيش فيهم فيقول :

أمشى بأطراف الحماط وتارة تنفض رجلى أسبطا فعصوصا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقى القاصي المتفورا (٣)

ويتحدث عن إبعاده في الفزو حتى يبلغ أماكن موهلة في البعد ، وجميعها
جبال موحشة فيقول :

غزوت من الوادي الذي بين مشعل وبين الحشا هيهات أبعدت غزوتي (٤)

(١) انظر معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٥٧ ولديه القصة وكذلك انظر القاموس المحيط مادة (غال)

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢١٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٩٤٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢٩ ولديه من الحشا : هو جبل ضامخ مرتفع .

- ومن الجبال الاخرى جمدان ، وكان يرتاده مالك بن الريب وعنه بقول :
- سرت في دجى ليل فاصبح دونها مشاوف جمدان الشريف ففرب (١)
- ومنها الفرط وكان يرتاده عمرو بن براقه ويذكره بقوله :
- اذا الليل ادجى واكفهر ظلامه وصاح من الافراط يوم جوائم (٢)
- ومال باصحاب الكرى غالباته فاني على امر الفواية حازم (٣)
- ومنها ثبير وكان يرتاده ابو خراش الهذلي ، ويقول عن قلته التي تسمى غينا :
- لقد علمت هذيل ان جارى لدى اطراف غينا من ثبير (٤)
- ومن الجبال ايضا تعشار ، وكان يرتاده عبدة بن الطبيب وعنه يقول :
- صاحبت قيسا صحبة فومقتنه بتعشار لم اسمع له بعد قاليا (٥)
- واما الفاويز واماكن القفر والوحشة التي اختص الصعاليك بالفتها والتردد عليها فكثيرة ، ومنها كراء وتيمن اللذان يذكرهما عروة بن الورد قائلا :
- تحل بواد من كراء مفضلة تحاول سلمى ان اهلب واحصرا
- وكيف يرجيها وقد حيل دونها وقد جاورت حيا بتيمن منكرا (٦)
- ومنها حلية ، التي يتحدث عنها الهذلي فيقول :
- كانما ابطنت احشاؤها قصبا من بطن حلية لا رطبا ولا نقلا (٧)
- والاحيمر السعدي يحدثنا عن فترة من حياته في هذه الاماكن المقفرة الموحشة فيقول « كنت ممن خلعتني قومي واطل السلطان دمي وهربت وترددت في البوادي حتى ظننت اني قد جزت نخل وثار ، وكنت ارى النوى في رجيع
-
- (١) معجم ما استمعج للبكري ج ٢ ص ٣٦٣ وعن جمدان يقول : هو جبل بالحجازين قديد وعسفان .
- (٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٩٣ وعن الفرط يقول : هو الجبل الصغير وجمعه افراط .
- (٣) الامال للقال ج ٢ ص ١١٩ وفي مذهب الخضرى لاغاني الاصمهاني ج ١ ص ٩٢ وهو تكملة لمعنى البيت الاول وكلاما من قصيدة .
- (٤) معجم ما استمعج للبكري ج ٢ ص ١٠١٢ . ويقول عن غينا : هي قلة ثبير وهي التي في اعلاه .
- (٥) المصدر السابق ج ١ ص ٣١٦ (حرف القاء والعين) وفيه عن تعشار على خلاف : هو جبل في بني ضبة .
- (٦) المصدر السابق ج ٤ ص ١١٢١ وفيه عن كراء : من ارض بيشة كثيرة الاسد وعن تيمن : ارض قبل جراش وكراء في شق اليمن .
- (٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٣ وفيه عن حلية : اجمة باليمن معروفة وهي ماسدة .

الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر
أحدا قبلى ٠٠٠٠ (١) ، وسواء صحت هذه التفاصيل أم لم تصح فإن الرواية على
أى حال تدل على أنه ألف أماكن لم يألّفها غيره : والذي يعنيها من حديث هذه
الأماكن أنها كانت بمثابة حصون للصعاليك حين يلم بهم خطر أو يتعقبهم طالب
أو مطارد ، وما كان أكثر مطالبهم ومطاردتهم ، لكثرة ما كانوا يجنون ويعتدون ،
بل كانت أحيانا مستراحا لهم حتى حينما يشعرون بالضيق بالناس والتنفور
منهم ، وما كان أكثر ما يضيق الناس بهم ويضيقون بالناس ، لما بين حياتهم
وحياة الناس من اختلاف وتصارع . ولذلك نجد هذا المعنى شائعا فى شعر
الصعاليك معبرا عن روح النفور من المجتمع ، والاستعداد ، بل الشوق للهجرة
الى القفار والأماكن الموحشة بالذات ، كما يقول الشنفرى فى اللامية :

اقيموا بنى أمى صنود مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل
ثم بين هؤلاء القوم الذين يهفو اليهم ويتمنى الرحيل نحوهم ، فاذا هم
صنوف من الوحوش فيقول :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يغذل (٢)
ومالك بن الريب يعبر عن هذه المعانى فيقول :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريج الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أو طنت كبلادى (٣)

فحتى ناقتة ألفت الفلاة وريحها فهى صادية إليها ، وقوله « كل بلاد أو طنت
كبلادى » يدل على روح التنقل وحب الهجرة ، بل يوحى معناه فى جملة أنه
لا يربط نفسه بمكان معين ، ولا يرى له وطنا يشده إليه ، ويقيده بالاقامة وإنما
كل الأرض وطنه ، مادامت تحقق له ما يريد ، وتنحى عنه ما لا يريد وهذا
المعنى شائع فى شعر الصعاليك ، ولذلك كان شعرهم أقل حنيناً الى الأماكن ، أو
تعلقاً بمكان معين ، وهذه الروح كانت من عوامل صعلكتهم وأسبابها ، كما كانت من
لوازم الصعلكة أيضا ، لأن المشدود الى مكان معين لا يصلح أن يكون صعلوكا .

(١) المقفد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ (المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٦ هـ) والصحيح نخل وبار
كما فى الشعر والشعراء وغيره .
(٢) الأمانى للقالى ج ٣ ص ٢٠٥ .
(٣) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠٢ .

(ب) طبيعة الحياة :

سيطرت على المجتمع العربي حينذاك ظروف كثيرة كان من شأنها ان تساعد على نشأة الصعلة وعلى استمرارها ، ويمكن أن نجمل أهم هذه الظروف فيما يلي :

١ - طبيعة البيئة - كما قال ابن خلدون آنفا (١) من شأنها أن تخلق القسوة والعنف ، ونعني بطبيعة البيئة ناحيتها الطبيعية - بطبيعة أرضها ومناخها - والاجتماعية بوضع الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات والقبائل والأفراد .

وقد تمثل هذا العنف الذي اقتضته طبيعة البيئة في أكثر من ناحية ، أهمها الصراع الدائم المستميت بين القبائل ، والغزو والاغارة ، وكلاهما كان ينبع في ظاهره من أسباب ملموسة ، ولكنه كان في حقيقة أمره يمثل تشبث كل جماعة بالحياة ، وحرصها على اثبات الكيان .

فأما الصراع فتمثله أيام العرب المشهورة كيوم ذي قار ويوم الفجار ، وقد حولت هذه الأيام حياة العرب الى ربح من الحروب لا تكف عن الدوران ، لا يتوقف سيل طحنها من الأدميين ، حتى أن بعضها كون سلسلة من الأيام المتلاحقة التي ظلت عشرات السنين ، حتى أصبحت تهدد طرفيها بالفناء كحرب اليموس (٢) وداحس والغبراء (٣) وقد تتبع العلماء هذه الأيام احصاء وتاريخا ، ولكن الذي يهمنا من هذه الأيام الآن انها طغت حتى شملت كل الجزيرة واستوعبت كل الأجيال التي بلغنا تاريخها من الجاهلية ، وان الاشتراك فيها كان ضريبة عينية على كل فرد من أفراد القبيلة طالما يستطيع حمل السلاح بل كان الأطفال يشتركون فيها من باب تدريبهم على القتال وفنونه ، والاستعانة بكل قوة في القبيلة ، كما يروى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان ينبل على أعمامه في حرب الفجار وهو صبي صغير . وأما الغزو والاغارة فكانت وجهها آخر للصراع بين الجماعات والقبائل ، هذا الصراع الذي كانت أهدافه غير المباشرة من التشبث بالحياة واثبات الكيان أهم وأعرق من أسبابه المباشرة ، سواء كانت هذه الأسباب انتقاما وقصاصا ، أم كانت طمعا ورغبة ، أم كانت ارهابا وتهديدا ، فنجد أخبارهم حافلة بالغارات التي تبدأ غالبا بالطمع في المال

(١) المقدمة ص ١٤١

(٢) انظر خزنة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ٢٢ - ٢٩ وما كان بين بكر وتغلب من أيام مثل شيبان والذئاب وواردات وهبابة وعنيزة ٠٠ الخ وظلت هذه الحروب بينهم أربعين سنة . انظر مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٧ .

(٣) انظر خزنة البغدادى ج ١ ص ٨٩ و ج ٢ ص ٣٦١ من أيام أخرى وكذلك الأمالي ج ٣ ص ٥٣ عن بعض أيامهم .

ثم نأخذ طابع الدور والتسلسل كما يقول المناطقة ، تغير جماعة على أخرى رغبة في مالها ، فتضطرب الجماعة الأخرى للانتقام بغارة ترد بها على الجماعة المعتدية ، وتعود هذه إلى غارة انتقامية وهكذا (١) ، وهذا الوضع نجده شائعا عاما بين سائر القبائل ، حتى أن أسلوب الغارات من حيث هو لم يكن وفقا على طائفة معينة بل كانت تزاوله كل طبقات المجتمع (٢) وفي مقدمتهم زعماء القبائل وساداتها ، بل تحول أسلوب الغارات عندهم إلى نوع من قطع الطريق كما رأينا في أخبار القوافل واللطائم وحتى هذا النوع الذي يبدو لنا انحرافا في السلوك الاجتماعي ، لم يكن في نظرهم كذلك ، بل كان مظهرا من مظاهر القوة والمنعة ، ولذلك نجد أخبار قطع الطريق تتردد كثيرا في تراجم سادة القبائل ورؤسائها ، على أنهم كانوا يقطعون الطريق ، لا على القوافل واللطائم فحسب ، وإنما على الأفراد أيضا ، ومن هؤلاء دريد بن الصمة سيد بني جشم الذي ورد في أخباره أنه بينما كان خارجا في فوارس من بني جشم إذ رأى رجلا معه ظئنة - امرأة في هودج - فأمر فرسانه أن يسلبوا الرجل ظئنته ، في قصة طويلة (٣) ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي في حوادث قطعه للطريق (٤) ومنهم عامر بن الطفيل الذي بلغ من سيادته في بني عامر أنهم حين مات نصبوا حول قبره نصبا ميلا في ميل ، وجعلوها حتى لا تنتشر فيه راعية ، ولا يسلكه راكب ولا راجل ، بل أن بعضهم استصيق هذا الميل قائلا : ضيقتم على أبي علي ، ومع ذلك كان عامر بن الطفيل يوصف بأنه من شياطين العرب (٥) وقطاع طرقها ، ومنهم الحارث بن بدر أحد سادة بني تميم المشهورين الذي جعلوا قطعه للطريق ثم توبته من أسباب نزول حكم قطاع الطرق في قوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعملوا إن الله غفور رحيم » (٦) ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور ، الذي ورد أنه كان يغزو للسلب والغنيمة مع رفيقه زبان بن منظور أو زياد بن سيار (٧)

-
- (١) أنظر على سبيل المثال معجم ما استمعتم للبكرى ج١ ص ١٩٦ وج٢ ص ٥٣٠ عن هذيل وقبائل أخرى وخزانة البغدادي ج١ ص ٨٩ عن عيس وقبائل أخرى .
 (٢) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري آية ٣٣ المائة عن قطع قوم حلال بن عويمر الطريق وخزانة البغدادي ج٢ ص ٣٦٨ عن قصص أخرى .
 (٣) أنظر الأمالي للقال ج٢ ص ٢٧١ .
 (٤) أنظر خزانة البغدادي ج٢ ص ٢٦٧ ونهاية العرب للنويري ١٩١/٢ - ١٩٦ .
 (٥) أنظر خزانة البغدادي ج٢ ص ٢٦٤ وأنظر شرح الفضليات عن ابن الأنباري ص ٣٦٠ وعن سيادته معجم الأمثال ج٢ ص ٨٦ .
 (٦) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري في الآيتين ٣٣ ، ٢٤ سورة المائة .
 (٧) أنظر المصلة لابن رشيقي ٣٦١/٢ .

فلم يكن السطو والغزو وقطع الطريق اذن شذوذاً أو انحرافاً في عرف المجتمع الجاهلي وانما كان ميداناً مرموقاً ، يتنافسون فيه ، ولكنه لم يكن يبرز فيه الا ذوو القوة والبأس الشديد وكان هذا البأس هو كل ما يحتاجه شخص أو جماعة ليفتحوا لأنفسهم هذا الميدان على مصراعيه ثم لا يلقون من المجتمع بعد ذلك الا كل تهيب واكبار .

والصعاليك كانوا يملكون هذه القوة وهذا البأس ما في ذلك شك ، كما يبدو ذلك واضحاً في أخبارهم وأشعارهم ، بل كان معظمهم يملك قوة كادوا ينفردون بها عن المجتمع ، هي سرعة العدو الذي يصفونه بأنه يسبق الخيل كما في أخبار كثير منهم مثل الشنفرى والسلوك وأبى خراش وتأبط شراً وابن براق (١) هذه القوة كانت تمثل حصناً دائماً متنقلاً مع كل منهم ، يتيح لهم حرية الحركة والتنقل ، ويتيح لهم الأمن من المخاطر ، وفي الوقت نفسه لا يلقى سلوكهم انكاراً من المجتمع من حيث أنه سلوك شائع حتى بين السادة الزعماء .

على أن هذه الحروب والغارات ، وما تبعها من فتن وجنايات ، قد غيرت مجرى حياة كثير من أفراد القبائل ، فبعضهم كثرت جنائياته وثقلت آثارها على قومه حتى اضطروا الى خلعه فلم يجد أمامه الا طريق التصعلك (٢) ، وبعضهم اكتشف في نفسه صفات معينة من الجرأة أو سرعة العدو أو حسن التسلسل فشجعه ذلك على الاتجاه للصعلكة ، كهذيل التي اشتهرت بكثرة غاراتها (٣) وكثرة هجماتها حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداً لا تسبقه الحيل (٤) وقد كانت هذه القوة والسرعة في العدو لذاتها من العوامل الهامة في الصعلكة كما كانت من أهم أسلحة الصعاليك .

٢ - كانت في البيئة التي يعيش فيها الصعاليك عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع الى الصعلكة وتيسر السبيل أمام اللاجئين اليها ، ومن هذه العوامل الفراغ الكبير الذي يتخلل حياة الأفراد في بيئة لا عمل فيها الا الرعى للذين يملكون ما يرعونه أو يجدون من يرعيهم ، وكثير من الأفراد لا يجدون هذا ولا ذاك فماذا يفعلون ليجدوا ما يقتاتون به ؟ وماذا يفعلون ليشغلوا فراغهم الدائم ويملاؤا به حياتهم الفارغة ؟ وماذا يفعلون ليثبتوا لأنفسهم وللناس مجرد وجودهم في الحياة ؟ لاشئ الا الصعلكة ، فان فيها متسعاً للجميع ، وجواباً لكل ما سبق من سؤال . والصعاليك أنفسهم يتحدثون عن هذا المعنى كثيراً ، حامدين

-
- (١) انظر شرح الفضليات عن ابن الانباري ص ٢٧ و ١٠٨ ومعجم البكري ج ٤ ص ٣٥١
والأغاني في تراجم هؤلاء وغيرهم من المدائين من الصعاليك .
(٢) انظر على سبيل المثال المقعد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .
(٣) انظر معجم ما استعجم للبكري على سبيل المثال ج ١ ص ١٩٦ وج ٢ ص ٥٣٠ .
(٤) معجم البكري ج ٤ ص ٣٥١ .

خروجهم من هذا الفراغ ، لاثنين في شدة على من ارتضى لنفسه أن يكون فارغ
الحياة نؤوما ، مضيقا بين الناس ، كما يقول تأبط شرا :

فلا تملئ بصعلوك نؤوم إذا أمسى يعد من العيسال (١)

وكما يقول عروة بن الورد :

لما الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش ألفا كل مجزر

ويسخر عروة سخرية مرة من فراغ هذا الفراغ فيقول :

ينام عشاء ثم يصبح ناعسا يبحث الحصى عن جنبه المتعسر
يعين نساء الحى ما استعنه ويمسى طليعا كالبعير المحسر (٢)

ويقول الأجير السعدى أيضا مستخفا بنؤوم الضحى كناية عن الفراغ :

وقالت أرى ربيع القوام وشاقها طويل القنساء بالضحاء نؤوم
فإن أك قصدا فى الرجال فأنى إذا حل أمر ساحتى لجسيم (٣)

ومن هذه الظروف والعوامل التى كانت بارزة فى البيئة ، والتى كانت من
شأنها أن تدفع إلى الصعلكة وتحببها سهولة الهجرة ، وتيسر الاختفاء ، وكلاهما
من الأمور الهامة بل اللازمة لحياة الصعاليك . فالصعاليك خفيو الحركة لا يقيدهم
حركاتهم شيء ، ولا يثقلهم متاع . ليس لهم ما يشد الناس إلى الأرض شيء .
فليست لهم حرفة ثابتة ، من زراعة أو صناعة ، وليس لهم ما يملكه الناس
من عقار أو شيء ثابت ، فالصعلوك « جل ماله حسام » (٤) كما يقول عمرو بن
براقة ، وهذا مما يجعل ارتباطهم بالأماكن ضعيفا ، وبحكم مسلكهم واتجاههم
الذى يزداد ارتباطهم بالأماكن ضعفا ، فكل الأمكنة مادامت تحقق لهم مآربهم
سواء ، كما يقول مالك بن الريب « كل بلاد أوطنت كبلادى » (٥) .

والواقع أن طابع الهجرة والتنقل صفة عامة فى بوادى العرب لضعف
ارتباط مصالحهم بالأرض نفسها ، ولذلك نجد الفرق واضحا بينهم وبين أصحاب
الأرض المنزرعة .

ولكن الصورة بالنسبة للصعاليك أوضح ، فلئن كانت الهجرة فى حياة
مجتمعهم ظاهرة أو أحداثا متكررة ، فإنها بالنسبة إليهم قوام حياتهم وصفتهم

(١) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣١٠

(٢) ديوان الحسانة لأبى تمام ج ١ ص ١٥٩ ومصافى من المصافاة والمشاش العظيم اللين
والمجزر مكان الذبح أى كل منه جمع العظام من المجازر ليأكلها والطيح المحسر الكل المتعب .

(٣) الأمالى للقاتل ج ١ ص ٤٨ وربع القوام وقصدا كلاهما معناه متوسط الطول .

(٤) الأمالى ج ٢ ص ١١٨ .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠١ .

الدائمة وقد تبعد بهم الهجرة أو تدنو ، ولكنها تنقل دائم على أى حال ، والشنفري
يصور فى بيتين اثنين تنقله بين خمسة أماكن فيها الجبال والقفار والمتاهات
فيقول :

أمشى بأطراف الحماط وتارة تنفض رجلى أسبطا فعصورا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقي القاصى المتفورا (١)

على أننا نجد ألفاظه تنبئ عن عمق احساسه بالتنقل ، فهو لم يقل اننى
أرتاد هذه الأماكن لأستقر فيها ، وانما قال أنه كأنه يمر بها مروراً ، ولذلك
اختار هذا التعبير البليغ وهو « تنفض رجلى » .

وهدفهم من هذا التنقل بطبيعة الحال هو ما تقتضيه حياتهم فى الصعلكة
من حاجتهم الى الأماكن التى يزاولون فيها صعلكتهم ، التى يحتمون فيها من
نتائج هذه الصعلكة ، وذلك ان مجالات الصعلكة بما فيها من لصوصية وسطو
وسلب ليس لمزاوتها مكان معين ، بل غالباً ما يكون نشاط الصعلوك بعيداً
عن متاع أهله وقومه ، فيركز نشاطه على القبائل الأخرى وخاصة الذين بين
قوما وبينهم عداوات حتى يجد من قومه عوناً اذا دعت الحاجة ، والمسافات بين
القبائل بعيدة مترامية ، مما يضطر الصعلوك الى اجتياز أماكن كثيرة قبل أن
يصل الى أدنى مكان يحقق له غرضه من غارته ، على أنهم كانوا كثيراً ما يبعدون
فى غزواتهم ، حتى ان بعض صعاليك السراة ويشرب واليمامة كان يبعد فى
غارته حتى يبلغ اليمن ، كما كان بعض اليمنيين يعكسون الأمر ، كما ورد
كثيراً فى أخبارهم المتناثرة مما لا نرى حاجة الى الإفاضة فيه الآن (٢) .

ولكن الذى يعيننا من هذا الحديث ان ظروف الصعاليك الشخصية
والاجتماعية كانت تيسر لهم التنقل الى أوسع مداه ، وان طبيعة الأرض بجبالها
وقفارها كانت تتيح لهم الحصانة والحماية الى أوسع مدى أيضاً ، ومن أمثلة
ذلك أخبار الاحيمر السعدى وان ذلك كله كان من العوامل البارزة فى
الصعلكة .

(١) معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٩٤٦ والحماط وأسبطا وعصور وذات الرس وبطن
منجل كلها أماكن .

(٢) وانظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٧٥ - ٨٦ وكما فى أخبار
السليك أنه كان يفر على اليمن مع أنه من بنى تميم باليمامة ومنازلهم باليمامة وما حولها قرب
شمال الجزيرة . انظر ترجمة السليك وأخباره بمهذب الأغاني (بالهرس)

٥ - عوامل أخرى :

وهناك من عوامل الصعلكة عوامل أخرى غير ما سبق ، وإن كنا لا نسلکہا
فى العوامل العامة لكونها يغلب عليها الطابع الفردى ، إلا أننا لا نستطيع أن
نتجاهل تأثيرها مهما قل فى ظاهرة الصعلكة

ويمكن أن نلخص أهم هذه العوامل فيما يأتى :

(أ) عوامل فردية :

وأعنى بها العوامل التى من شأنها أن تتعلق بالفرد وحده ، وتنصب عليه
آثارها دون أن يشاركه المجتمع أو الجماعة فيها ، وهى ظروف كثيرة منها ظرف
الأغربة والأغربة عند العرب تعبير يقصدون به نوعاً من أبنائهم ، وهو النوع
الذى يولد أسود ، لأن أمه من الاماء السود ، وفى وصفهم بالأغربة ما يشير
الى لونهم لأنه تشبيه بلون الغراب ، وهؤلاء الأغربة كانوا يشقون أيضاً شقاء
لا بلونهم الأسود - وإن كان اللون من مفاخر العرب - ولكن بنسبهم غير
الخالص حيث أن أمهاتهم غير حرائر ، والعرب فى الجاهلية لم يكونوا - فى
أغلب الأحيان - يعترفون بأبنائهم من الاماء ، اعتزازاً بخلوص أنسابهم
وتنقيتها من أى دم غير عربى ، وخاصة إذا كان هذا المولود أسود ، فانه يجمع
فى نظرهم بين خستين لا يرتضونه نسبتهما اليهم ، هما عدم خلوص النسب
والسواد فيبقى هذا الوليد ومن يخرج من نسله عبيدا كسائر العبيد ، مع علم
أبيه بل والقبيلة كلها أحيانا بأنه ابنه ، كما حدث لعنترة بن شداد الذى قضى
شطراً كبيراً من عمره عبداً ، لا يملك الا أن يرعى مع زملائه العبيد ، ولم يكن
اعتراف شداد بعنترة ابناً له خروجاً على هذه العادة ، وإنما كان اضطراراً أملاه
ظرف كان يهدد كيان القبيلة وحياتها (١) .

فكان هؤلاء الأغربة ينشأون فى ظروف قاسية على نفوسهم أشد القسوة
متناقضة فى نفوسهم أشد التناقض ، كانوا يخرجون الى الحياة فيجدون أنفسهم
عبيداً يلقون كل ما يلقى العبيد من ضياع ومذلة وهوان ، ومع ذلك فهم موقنون
فيما بينهم وبين أنفسهم كل اليقين بأنهم مظلومون عن عمد واصرار ، فهم فى
حقيقة أمرهم أحرار لا عبيد ومن حقهم أن يكونوا من طبقة السادة ، لا من طبقة
الأرقاء ، وكان أشد ما يؤلمهم بطبيعة الحال أن يجدوا هؤلاء الذين يرونهم - فى
الواقع - أخوة لهم متسلطين عليهم ، مستعبدين إياهم .

(١) انظر القصة فى خزنة البغدادى ج ١ ص ٨٧ - ٨٩ .

فأما العاجزون منهم وذوو الهمم الضعيفة فكانوا يبتلعون أحزانهم ، ثم يظلون يجترونها حتى يدركهم الموت أو يدركوه ، وأما الذين يجدون في نفوسهم قدرة على كسر هذا القيد ، ومهربا من هذا السجن الاجتماعي ، فانهم كانوا لا يترددون .

وأقرب طريق - وان لم يكن أسره - لديهم ، لكسر هذا القيد هو القوة في أى صورة من صورها ، فان اعترفت القبيلة بهذه القوة ورغبت في الاستفادة منها - كما فعل قوم عنتر بن شداد - أصبح هذا الغراب فردا من القبيلة والا فإوسع مجال أمامه هو مجال الصعلكة الفسيح ، كما فعل السليك بن السلعة (١) ، على اننا نلاحظ انه ليس من اللازم أن تكون الأم أمة كام خفاف ابن ندبة (٢) الحرة والأخبار تحدثنا عن أن أغربة العرب في الجاهلية ثلاثة عنتر ابن شداد وخفاف بن ندبة ، والسليك بن السلعة (٣) ، الا أن خفافا لم يكن يشارك صاحبيه هذه الأزمة فقد كانت أمه حرة وليست أمه .

ومهما يكن من شيء فاننا نعتقد ان الاغربة في الجاهلية كانوا أكثر من ذلك بكثير وانهم انما تحدثوا عن هؤلاء باعتبار انهم من الأشخاص البارزين الذين عنى العرب جميعا بأخبارهم ، وأعجبوا بما أوتوا من بسالة وقوة وشدة بأس .

والذي نريد أن نصل اليه من ذلك هو أن هذا الوضع - وضع الاغربة - الاجتماعي ، من شأنه - وان كان من الحالات الفردية - أن يكون من عوامل الصعلكة وأسبابها ، كما كان السليك بن السلعة الذي يقول عن احساسه بهذا المعنى « انى لو كنت ضعيفا لكنت عبدا ولو كنت امرأة لكنت أمة » اللهم أعوذ بك من الحيبة ، اما الهيبة فلا أهاب أحدا (٤) ، وقد كان يمكن أن نتحدث هنا عن وضع الخلعاء ، ولكن الخلع - كما قلنا - نتيجة للجنايات والصعلكة ، وليس سببا لها ، ونحن نتحدث عن أسباب الصعلكة .

ومن هذه العوامل الفردية حالات الأسر ، ومما سبق علمنا ان الغارات كانت أمرا شائعا متداولاً في أنحاء الجزيرة كلها ، وإن القبائل وعلى رأسها ساداتها وزعمائها كانت تزاوّل هذه الغارات ، أحيانا للانتقام ، وأحيانا للسلب بادئ ذي بدء ، وحتى في حال الانتقام لم يكن القتل وحده هدفا لها ، وانما كان السلب والأسر من أهم أهدافها ، لأنه مغنم مادي ، سواء كان سلبا أو أسرا

(١) أنظر ترجمته في شرح التبريزي لحسانة أبي تمام ج١ ص ٣٧٨ وفيه أن أمه السلعة وهى سوداء وأنه أحد العدائين الذين لا تلحقهم الخيل وترجة أخرى وقصة طويلة وأنظر مذهب النضري لأغاني الأصفهاني ج٢/١٦٧ وبها ما سبق وترجة طويلة .

(٢) أنظر شرح الاصمعيات عن ابن الألباري ص ٨ وفيه أن أمه ندبة وكانت سوداء وهى بنت شيطان بن قنن من بني الحارث بن كعب .

(٣) فى القاموس المحيط مادة (غرب) أضاف اليهم رابعا هو أبو عمير بن الحباب .

(٤) مجمع الأمثال ج٢ ص ٩ .

فان الأسير كان يفدى نفسه أو يفديه قومه بالمال وأهم ما كانوا يحرصون على أسر النساء في غاراتهم ، والظعائن (١) في قطعهم للطريق ، كما سبق في قصة دريد بن الصمة وظعينة ربيعة بن مكرم (٢) ، وفي أخبار السليك انه خرج في تيم الرباب يتتبع الأريا فويغير على الاحياء والأموال حتى مر بأرض بين ديار بني عقيل وسعد بن تميم فلقى رجلا من خثعم ٠٠ ومعه امرأة ، فأخذه هو والمرأة ، ثم أطلقه وبقيت المرأة (٣) . ومثل هذا كثير في أشعارهم .

وفي الحرص على أسر النساء - بالاصافة الى معنى الاهانة للأعداء والمنافسين - معنى مادي ، فان قومها سيكونون أحرص على فدائها غيرة على الحرمات ، فان لم يفدوها تصبح هي ومن تلده عبيدا لأسرها ، وهذا كسب بالنسبة اليهم كبير .

والذي يعنيننا من هذا هم الأسرى ، فانه وان كان كثير منهم كان يفدى نفسه أو يفديه قومه ، الا أن بعضهم كان يظل عبدا ، اما لجهل قومه بمكانه أو بأسريه كما حدث في قصة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وهبته اياه خديجة زوجها ، وكان زيد قد سبي وهو صغير من قومه بنى كلب ، ثم اشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ثم قدم حجاج من كلب الى مكة فعرفهم وعرفوه ، فأخبروا أباه حارثة وعمه كعبا ، فقدموا مكة وعرضا على محمد فداءه ، فقال ان اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني أحدا ، فاختار زيد محمدا ورفض الذهاب مع أبيه ، فقام محمد الى الحجر فأعلن أن زيدا منذ اليوم ابني يرثني وارثه وهي مرتبة فوق مجرد الحرية ، فطابت نفس أبيه وانصرف راضيا (٤) ، وأما لرفض الأسيرين الفداء ، وذلك غالبا ما يكون في حالات أسر النساء حرصا على امساكنهن ، وفي حالات استحكام العداء بين الأسيرين والمأسور منهم اهانة وتشفيا ، واما لعجز الأسير عن الفداء .

وهنا نجد هذا الأسير يمر بالحالة النفسية التي يمر بها الأغربة ، يشعر في قرارة نفسه بأنه عربي حر ، وانه كان ينبغي أن ينال من الحقوق ما يناله السادة ، بل أن يكون سييدا منهم ، ولكنه يجد الواقع عكس ما تحدثه به نفسه كما حدث للشنفرى الذي أسره بنو شبابة بن فهم من قومه وهم بنو الأواس ابن الحجر ، فمكث فترة في بنى شبابة حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من بنى شبابة ففدوه بالشنفرى ، وهكذا انتقل الشنفرى الى بنى سلامان وعاش فيهم عيش العبيد يرعى ابلهم ، وقد شغله العمل والرعى وعدم الاحتكاك الكثير

(١) في القاموس مادة (ظعن) : الظعينة : المرأة مادامت في هودج (وهذا يكون اثناء السفر)

(٢) الامالى للقالى ج ٢ ص ٢٧١ .

(٣) انظر القصة في شرح التبريزي لحماسة أبى تمام ج ١ ص ٣٧٨ .

(٤) انظر خزائن البغدادي ج ٢ ص ١١٠ .

بالناس عن الاحساس المثير بوضعه الاجتماعى ، ولكنه حينما بدأ يحتك هاجت فى نفسه كل الاحاسيس بالأوضاع التى فرضها عليه هذا الظلم الاجتماعى فثار ثورته العارمة ، وصب هذه الثورة على بنى سلامان فى نقمة عجيبة ، بدأت باندفاعه الى الصعلكة ، وانتهت بقتله من بنى سلامان تسعة وتسعين رجلا فيما تتواتر به الروايات . وكان بدء ثورته حينما صفعته ابنة الرجل الذى يعيش فى كنفه ، احتقارا له ، ونفورا من ندائه اياها بقوله « يا أخيه مترفعة عن أن يكون أخاها ، أو اهانة له على التفكير فى الزواج منها - على اختلاف الروايات ، وأغلب الظن ان وراء هذه القصة المبتورة قصة حب خالج قلب الشنفرى وأضاءه بآمال مشرقة براقة أسكرته حينما من الدهر ، فتناسى نفسه وتناسى الوضع الاجتماعى فى غيبوبة هذا الحب العميق ، ولم توقظه من هذه الغيبوبة الا لظمة قعسوس ابنة الرجل الذى يعيش فى كنفه - فاذا هو يقظ كاقوى ما تكون اليقظة ، حازم أمره كأشد ما يكون الحزم ، واذا هو منطلق الى الصعلكة بأقصى ما يملك من ارادة - وما كان أقوى ارادته - وبأسرع ما يملك من عدو - وما كان أسرع عدوه (١) - ليصبح من أبرز أعلام الصعاليك ، وأشعر شعرائهم (٢) .

فقد كانت الظروف الشخصية التى احاطت بالشنفرى من أسره وشعوره بالهوان بين أناس لا تربطه بهم رابطة ، ولا يرى لهم عليه حقا بل ولا يراهم خيرا منه شخصا أو نسبا ، كل ذلك كان سببا قويا وأصيلا فى اتجاه الشنفرى الى الصعلكة ، ومن يدري لو كانت قد تهيأت له ظروف أخرى مستقيمة وادعة كيف كان يكون ؟ أغلب الظن انه كان يصبح سيدا مرموقا وزعيما قائدا لا فى الأزد وحدها ، فان عقليته الفذة التى تبين من خلال شعره ، وارادته الفذة أيضا كما تحدثنا عنها أخباره ليسا من طراز عادى فى الناس ، وانما من طراز تبخل الحياة بمثله أن يكون كثير التكرار ، والتبريزى يلخص رأى العرب فى عقلية الشنفرى فيقول « يضرب به المثل فى الحذق والدهاء (٣) » فلننظر الى ما كان يعانيه فى صعلكته وتنقله الدائم ، من صور عجيبة غاية العجب

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى شرح المفضليات عن ابن الانبارى ص ١٠٨ وشرح ديوان الحماسة للتبريزى ج١ ص ١٨٧ ومهذب الخضرى لأغاثى الأصبهانى ج١ ص ٩٥ ومجمع الأمثال ج٢ ص ٤٦ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ج١ ص ١٠٤ ثم أمال القالى ج٢ ص ٢٠٥ ، وأعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري والكمال للمبرد ج٢ ص ٧٩ والمقد الفريد ج١ ص ٣٠ وأخطا صاحب القاموس المحيط فى عده من الاسلاميين الأفرجة (مادة غرب) مع أنه جاهل وله فى معجم البكرى ج٢ ص ٤٢٩ ، ج٣ ص ٩٤٦ وفى الحيوان للجاحظ (بالفهرس) .

(٢) أنظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ص ١٢٥ والحياة المريية من الشعر الجاهل للدكتور الحوفى ص ٢٣٤ .

(٣) شرح الحماسة ج١ ص ١٨٧ .

قاسية أشد القسوة ، فى احتمال الجهد والجوع والبرد والحر والمخاطر ، وقدرته الأشد عجباً على تصوير هذا كله (١) فى صور حية ناطقة ، بل انه ليخيل الى من يدرس شعره أن الصور نفسها تشارك الشنفرى فى احساسه وانفعاله ، فتتلوى من الجوع حينما يتحدث عن الجوع ، وترتعش من وقع البرد حينما يتحدث عنه ، وتتأفف من وهج القيظ حينما يتحدث عن الحر . وهكذا ، وحين ننظر الى صلابته فى قوة ارادته ، وتصميمه على انفاذ عزمه كما الى على نفسه أن يقتل من بنى سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين ، ثم حال الموت بينه وبين اكمال المائة ، ومن طريف ما يروى ان أحد بنى سلامان مر بقبر الشنفرى فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فقمرت رجله فمات ، فكملت بهذا السلامى المائة التى كان الشنفرى يتمنى أن يبلغها من بنى سلامان وهو حى (٢) ومع ان مثل هذا الخبر يبدو غريباً غير مصدق ، الا أن علماء الروح اليوم لا يرون فى مثله غرابة ، بل ينسبون للأرواح ما هو أبعد من ذلك وأشد غرابة ، فليس بغريب فى منطقهم صدور مثل ذلك من روحه بعد موته (٣) .

وننتهى من هذا الحديث الى انه كانت هناك ظروف كنظرة المجتمع الى الأغربة ، وظروف الأسرى وما يلقونه فى حياتهم كانت تدفع أصحابها الى أى مسلك يحرمهم من هذا الظلم الاجتماعى وكانت الصعلة أقرب هذه السبل اليهم ، كما حدث للسليك والشنفرى ، ومما لاشك فيه ان كثيرين كانت ظروفهم مثل ظروف هذين ، وان بعضاً غير قليل منهم سلك ما سلكه ، غير انه لم يحظ بعناية التاريخ منهم الا أولئك الذين كانوا مثار إعجاب المجتمع ، والذين فرضوا أنفسهم على التاريخ بما أوتوا من مواهب ومقومات حية متحركة ، وأغلب الظن ان شخصاً كعترة بن شداد كان الحاجز بينه وبين الصعلة اعتراف أبيه بنسبه ، فان عترة كان يملك من القوة والاباء والنفور من الهوان ما يملكه أقوياء الصعاليك ، وقد مو عترة قبل تحريره بالظروف النفسية التى يمر بها الأغربة والأسرى الذين نحولوا الى صعاليك ، فلو لم يعترف أبوه بنسبه ، فمن المرجح أنه لم يكن ليستسيخ الذل والهوان مع ما فى نفسه من مقومات العزة والأنفة ، ولم يكن حينئذ أمامه للهروب من وضعه الاجتماعى والخروج عليه الا الصعلة .

(١) انظر للمثال لامية العرب فى الامال ج ٣/٢٠٥ وأعجب العجب فى شرح لامية العرب.

للمختصرى .

(٢) انظر ترجمته فى المصادر السابقة .

(٣) انظر العالم غير المنظور للأستاذ على عبد الجليل راضى .

(ب) الوراثة :

الوراثة من العوامل الانسانية الموجهة لحياة البشر جميعا ، بل هى عنصر الحياة الأول ، أعنى انها عنصر الامتداد لحياة الكائنات الحية جميعا بما فيها النبات .

وعلماء الوراثة اليوم يسلمون بسيطرتها حتى على نزعات السلوك المختلفة كالشدوذ فى أى ناحية من نواحي النزعات السلوكية ، وكادمان الحمر . وان كان كثير منهم مع تسليمه بأثر الوراثة لا يرى فيها تعارضا مع أهمية تأثير البيئة وليست التفاصيل مما يعنى موضوعنا ، وانما يعنينا هذا الحديث عن نزعات السلوك وأثر الوراثة فيه .

والعرب كانوا يعرفون الوراثة ويقدرّون آثارها . بل كانوا يعتزون بها الى حد المبالغة والافراط فى كثير من الأحيان ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من عاداتهم الاجتماعية الحيوية الى تقديرهم للوراثة ، وذلك ، كنفورهم أحيانا من التزوج بغير العربيات حفاظا على توارث الدم العربى فيما يلد لهم من أولاد ، وبالتالي ازديادهم لمن يولدون بينهم من أمهات غير عربيات ، وقد ظلت هذه النظرة فيهم حتى بعد الاسلام ، وأحبارها أوضح وأكثر من أن تحتاج الى بيان .

ومن الزاوية التى تعنينا وهى زاوية السلوك ، فإن العرب كانوا يدركون أثر الوراثة فيها ، ولهم أخبار وأمثلة فى ذلك كثيرة مشهورة ، منها قولهم « شنشنة أعرفها من أخزم » (١) ومنها « من أشبه أباه فما ظلم » (٢) وفى الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » على أنهم بلغوا بالوراثة فى فهمهم لها حد النزعات النفسية ومن ذلك قصة المناقرة التى قامت بين سيدى عشرين من العرب ، حتى انتهت الى أن قال أحدهما :

أبذلك العداوة ما حيننا

فرد عليه الآخر بقوله :

ونحن اذا متنا نورثها البينا

ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون سلوك الصعلكة النابع من النزعة النفسية موروثا ، وحيث ان الصعلكة كما قلنا كانت ظاهرة اجتماعية غير محدودة

(١) مجمع الأمثال ج١ ص ١٣٦ وملخصه ان أبا أخزم الطائى كان له ابن يسمى أخزم ، وكان عاقا له ، ثم مات وترك بنتين له ، فوثبوا يوما على جدهم يضربونه حتى أدموه ، فقال : ان بنى ضربونى بالدم شنشنة أعرفها من أخزم
فذهب الشطر الأخير مثلا ، وتشمل به عمر بن الخطاب اعجابا بعبد الله بن عباس وإشارة الى انه ورث مداد الراى من أبيه ، ومن أمثلتهم فى هذا «الصبا من الصبية» .
(٢) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠ .

العدد بالنسبة الى مزاويلها ، فان الوراثة من شأنها أن تحافظ على بقائها ما دامت الظروف مهية لها ، وان تنمى عدد روادها ومزاويلها ، وحين نتتبع بعض أخبار القبائل نجد ان منها ما اشتهر بصفات معينة ظل أفرادها يتوارثونها حتى أصبحت صفة لهم يعرفون بها ومن ذلك تسمية بعض بنى عامر بن صعصعة بالحلعاء لانهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة ، (١) فقد اتفق هذا البطن أن من بنى عامر فى صفة واحدة مشتركة بينهم هى الصفة السابقة ، وسموا من أجلها باسم معين ولاشك ان للوراثة أثرا ظاهرا فى شيوع صفة معينة بين جماعة دون مجتمعهم الذى يعيشون فيه ، وكذلك نجد بطنا من عبد القيس يسمون الرواطي كانوا يوصفون بأنهم لصوص (٢) ويسرى هذا الوصف عليهم .

وحين نضى فى تتبعنا لأخبار القبائل وأخبار الصعاليك ، نجد أن بعضها اشتهر بتخريج عدد كبير من الصعاليك ، بالإضافة الى شهرتها بكثرة غاراتها واشتراكها فى صراعات متوالية حتى أصبح طابع الغارات والسطو والقتك والصعلكة صفة غالبية عليها ، ومن هؤلاء بنو سعد ، من بنى تميم ومن صعاليكهم السليك بن السلكة ، وعبيد بن أيوب ، وعبد بن الطبيب والأحيمر السعدى (٣) ومن هذه الجماعات التى كانت بهذه الصفة بنو مازن وهم أيضا بطن من بنى تميم ومن صعاليكهم سعد بن ناشب (٤) ومنهم مالك بن الريب وأبو حردبة اللذان يقول عنهما الراجز :

الله نجاك من القصيم
وبطن فلج وبنى تميم
ومن غويث فاتح العكوم
ومن أبى حردبة الأثيم
ومالك وسيفه المسموم (٥)

ومن هذه الجماعات أيضا هذيل ، وهى مشهورة بكثرة الغارات (٦) ، وكثرة الحلعاء (٧) والصعاليك ومنهم أبو خراش وصخر الغي والاعلم ، ومن

(١) القاموس المحيط مادة (خلع) .

(٢) أنظر معجم ما استعجم للبكرى ج٣ ص ١٠٨٢ .

(٣) تراجعهم وأخبارهم متفرقة فى مصادر كثيرة منها العقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ عن الأحيمر وعن السليك شرح التبريزى لديوان الحماسة ج١ ص ٣٧٨ وعن عبيد بن أيوب الكامل ج١ ص ٢٠٠ وعن عبد بن الطبيب عن شرح ابن الانبارى للمفضليات ص ١٣٤ وغاراتهم كثيرة خلال هذه التراجع وغيرها وأنظر على سبيل المثال معجم البكرى ج٣ ص ١٠٨٢ .

(٤) أنظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج١ ص ١٤ .

(٥) أنظر معجم البكرى ج٣ ص ١٠٢٧ وفيه أن أبا حردبة ومالك بن الريب لصان مازنيان ومالك ترجمات فى مصادر أخرى .

(٦) أنظر للمثال معجم البكرى ج١ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، ج٢ ص ٥٣٠ .

(٧) أنظر مثلا لسان العرب مادة (خلع) ومهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٥ .

توارث مقومات الصعلكة في هذيل شهرتها بكثرة العدائين الذين لا تلحقهم الحيل ، حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة أخوة كلهم عداء لا تسبقه الحيل (١) وسرعة العدو كانت من أهم أسلحة الصعاليك .

ومع ذلك فلسنا نقول ان هذه الوراثة مجردة من أثر البيئة ، فان الوراثة وخاصة اذا كانت جماعية تتحول نفسها الى بيئة ، بمعنى ان الصلوك حين يرث نزعة الصعلكة ، ثم ينشأ فاذا هو في بيئة تظللها هذه النزعة ، تصبح الصعلكة المنتشرة من حوله بيئة في ذاتها تهيم المجال لايراز عنصر الوراثة واستغلاله ، وكثيرا ما تختلط الوراثة بالبيئة ، في مثل هذه الحال التي يورث فيها الوليد ميراثا ثم ينشأ في بيئة يشيع فيها سلوك هذا الميراث ، وقد عبر الشاعر العربي عن ذلك بقوله :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

وانما يتميز عامل الوراثة عن عامل البيئة حينما ينفرد صاحبه بصفة أو سلوك غير مألوفين في مجتمعه ، ويمكن أن ينطبق هذا على تلك الجماعات التي تميزت بسلوكها المعين كالرواطي ومع تكرارنا للملاحظة ان أسلوب الغارات والسطو والصعلكة كان ظاهرة مألوفة في المجتمع الجاهلي كله ، الا اننا نلاحظ ان هذه الجماعات سيطر عليها هذا الأسلوب ، حتى لصق بها كصفة غالبية على أفرادها ومتعاقبة فيهم ، بصورة تميزهم عن الجماعات الأخرى .

وهنا نتساءل : ما الذي جعل هذه الجماعات تتميز بهذا السلوك على هذا الوضع الشائع ، وحين نجيب عن ذلك ، ننظر فاذا جماعات أخرى تشارك هذه الجماعات في ظروفها وموقعها من البيئة ولكنها لا تتصف بما اتصفت به الجماعات الأخرى ، ومثال ذلك هذيل ، فان شهرتها بالغارات والخلعاء والصعاليك لا تشاركها فيها قبائل أخرى تشاركها الظروف والبيئة ومن هذه القبائل هوازن وسليم وغفار (٢) ، وكلهم في ظروف هذيل الجغرافية والاجتماعية ، وكذلك الاقتصادية ، وأهم ما في هذا الموقع من عوامل الصعلكة ومقتضياتها من الغارات والخلع والفتك وغير ذلك وقوعه حول طريق القوافل الأساسية الموصلة بين اليمن والشام ، وحول الطرق الفرعية الموصلة بين مكة وقبائل الشمال في اتصالهم بمواسم الحج ، ووقوع هذا الموقع أيضا قريبا من أهم أسواق العرب وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وهذه العوامل وان كانت من أهم ما أشاع الصعلكة في هذيل الا أن نقطة التساؤل هي : ولماذا لم تكن هذه القبائل المذكورة مثل هذيل في صفتها هذه ، مع انها تشارك هذيل في هذه الظروف ؟

(١) معجم البكري ج٤ ص ٣٥١ .

(٢) انظر الخريطة بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج١ ص ٩ ومعجم البلدان

ومعجم ما استعجم عن أماكن هذه القبائل .

وحينئذ لا نجد ما تستريح اليه النفس في الاجابة سوى ادخال عامل الوراثة الذى تدل عليه شهرة هذيل بتوارث أهم أسلحة الصعاليك وهو سرعة العدو حتى أن أبا خراش الهذلي كما قلنا كان أحد عشرة اخوة كلهم لا تسبقه الخيل .

وكذلك الجماعات الأخرى مثل بنى مازن وبنى سعد ، وكلاهما من بنى تميم فانه وإن كانت بعض القبائل قد شاركتهم شهرتهم بالصعلكة كبنى عبد القيس الذين اشتهر منهم الرواطي بأنهم لصوص (١) إلا ان هناك قبائل أخرى تقع فى مثل موقعهم من البيئة وتشاركهم ظروف الحياة ومع ذلك لم يشع فيها أسلوب الصعلكة ، كبنى بكر وبنى تغلب ، وطبيء وغطفان (٢) وأهم ما تشترك فيه هذه القبائل من عوامل الصعلكة هو وفوعها حول أحد الطريقين الرئيسيين للتجارة ، وهو الطريق الشرقى الذى يحاذى الخليج العربى ويصل ما بين ظفار فى جنوب اليمن الى شمال الجزيرة ، ثم العراق والشام ، وكذلك قربها من الطرق المؤدية الى الموانئ الواقعة قديما على الخليج العربى . وقربها أيضا من اليمامة التى اشتهرت ببعض الحصب بالنسبة الى غيرها من الأماكن واختلاف جماعتين فى الصفات والسلوك مع تساويهما فى الموقع والظروف ، لا يبدو له من مبرر غير عامل الوراثة ، وإن كانت هذه الوراثة فى أغلب أحيائها ممتزجة بظروف البيئة ودوافعها .

وهذا عبيد بن أيوب العنبرى يقرر ان صعلكته انما هى وراثة عن آبائه فيقول :

وأت خلق الأكدراس أشعث شاحبا على الجذب بساما كريم الشمال
تعود من آبائه فتكاتهمهم وأطاعهم فى كل غبراء شامل (٣)

واذن فالوراثة فى صورها السابقة كانت من الأسباب التى ساهمت فى نشأة الصعلكة وفى حياتها ، سواء أكان أثر الوراثة من حيث النزعة النفسية الى العدوان وما يلابسه من نواحي الصعلكة أم من حيث الدوافع المباشرة التى كانت تشجع على الصعلكة وتدفع اليها ، كتوارث صفة العدو ونحوها من الأدوات المباشرة فى مراولة الصعلكة والتهيؤ لها ، وهذا النوع الأخير وإن كان يعتبر من قبيل الاستعداد الشخصى إلا أن إقترانه بالوراثة يزيد من فاعليته ومن توجيئه فى مجال معين من السلوك .

(١) انظر مجم ما استجم للبكرى ١٠٨٢/٣ .

(٢) انظر خريطة بلاد العرب قبل الاسلام بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٦

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

(ج) الاستعداد والشذوذ :

قلنا اننا فى هذا الفصل من فصول اسباب الصعلكة نحاول أن نعرض لبعض العوامل والأسباب التى وإن لم تكن ذات طابع عام فاننا لا نستطيع تجاهلها فى مقام حصر الأسباب التى من شأنها أن تكون دافعا من الدوافع الى الصعلكة .

ونعنى بالاستعداد التهيؤ الفطرى فى الشخص للاتجاه الى الصعلكة ، سواء أكان تهيؤا من الناحية النفسية كالميل الغريزى للعدوان ، أو امتلاك قوى نفسيه معينة تستلزمها حياة الصعلكة كالجرأة وقوة العزيمة ، وشدة التحمل أم كان تهيؤا جسيما كامتلاك صفات معينة تحتاجها حياة الصعايك احتياجا أساسيا كخفة الحركة وسرعة العدو ، وحسن التسلل والمراوغة ونحو ذلك .

ونعنى بالشذوذ وجود صفة أو تهيؤ فطرى معين ، فى فرد أو أفراد ينفردون به عن سائر أفراد مجتمعهم فيصبحون بهذا الانفراد شاذين عن الوضع العام فى المجتمع .

وقد شاعت مشيئة الله القدير الحكيم ، أن يبدع الكون وما فيه فى نظام عجيب ، ظل وسيظل فهمه فوق مستوى العقول ، فلا يتاح للعقول من نظام هذا الكون إلا أهونه وإيسره ، أما أجله وأعظمه فهو فى منأى عن عقول البشر مهما عظمت هذه العقول .

ومن نظام الله العجيب فى كونه ، أن نرى النقيضين فى كل شيء ، لا يوجد مطلق قط فى الحياة ، وانما تقيده مجاورة نقيضه له ، الخير معه الشر ، والظلام معه النور ، والذكاء معه الغباء ، والحياة معها الموت وهكذا .

وفى حياة الناس الشجاعة يجاورها الجبن ، والجود يجاوره البخل ، والصدق يجاوره الكذب ، والكرم يجاوره اللؤم وهكذا .

على أن النقيضين لا يسيران فى خط واحد ، وانما يتدرجان الى قمتين متناقضتين ، ينتهى كل منهما الى احدها ، فالذكاء والغباء مثلا ، نجد عامة الناس يتفاوتون فيهما ، ولكن فى مجال متقارب ، بينما يشذ بعض الناس فيرتفعون الى درجات عليا من الذكاء ، يتفاوتون فيها أيضا ويتدرجون حتى يكون بعضهم فى القمة العليا ، بينما يشذ بعض آخرون فيتدرجون الى أسفل متفاوتين فى الغباء ، ويظلون فى التدرج ، حتى ينتهى بعضهم الى القمة السفلى وهى الجنون .

ومن يدرى ، فلعله لو اطلع مطلع فى مثل هذا المجال ، لوجد الناس يكونون ما يشبه الهرمين ، أحدهما الى أعلى ، والآخر الى أسفل ، وأن التدرج فى كلا الهرمين متساو ، وأن حجم الهرمين نفسه متساو ، وتكون النتيجة أن يكون

عدد الأذكياء في كل درجة من درجات هوم الذكاء يقابله ويساويه عدد الأغبياء في الدرجة نفسها من هوم الغباء .

ومن يدري أيضا فلعل هناك أشياء كثيرة في الحياة بنظام كهذا النظام .
ومن يدري أيضا فلعل كل ما في الناس من صفات الخير والشر يتدرج في هرمين متضادين أيضا كهذا النظام ، بحيث يتساوى عدد الخيرين ، وعدد الشريرين في كل درجتين متقابلتين من هذين الهرمين .

ومن الحق ان التاريخ لم يعرف جيلا كاملا في أمة كاملة من الناس حطم هرم الشر - ان كان حقا حرما - وخرق التوازن بين قوتي الخير والشر ، بحيث ذابت قوة الشر في جميع صورها التي يتصف بها الناس من صفات وسلوك فلم يبق منها الا الشذوذ الفردى الذي تأبى سنة الحياة الا أن تتشبه به في كل شيء . من المحقق ان التاريخ لم يعرف هذا الجيل الكامل في الأمة الكاملة الا جيل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهذه حقيقة لا نظن ان هناك من يمارى فيها ولو كان من أعداء الاسلام . ولعل في هذا تفسيراً لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولقول النبي « خير القرون قرني » .

ومهما يكن من شيء بالنسبة لموضوعنا ، فان الخير والشر كل منهما يمثل استعدادا فطريا عند بعض الناس ، واذا كان في الناس من هم مهيتون بطبعهم للخير فان فيهم أيضا من هم مهيتون بطبعهم للشر ، بل ان من الناس من يرى ان بعض نوازع الشر كالظلم هي الأصل في الانسان ، وان الامتناع عنها انما يكون لظروف تمنعه من مزاولتها : كما يقول الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة قلعة لا يظلم

وحين نعرض هذا المعنى - على غرابته عن العرف - على التحليل لا نجد فيه بعدا كبيرا عن الحقيقة ، فان الظلم بمعنى الجور على حقوق الآخرين يمثل إحدى الفرائض الفطرية في الانسان ، وهي غريزة الأنانية ، التي يسلم علماء النفس بأنها إحدى الفرائض في الانسان وهكذا كل صفات الشر التي تتصل بالفرائض البشرية يمكن اعتبارها هي الأصل في سلوك الفرد ، وان الظروف الخارجية هي التي تحول بينه وبين مزاولتها ، وهي ظروف كثيرة تختلف من مجتمع الى آخر ، فأحيانا تمثل هذه الموانع فيما يسميه علماء الاجتماع « سلطة المجتمع » بمعنى شعور الفرد بأن المجتمع ينكر هذا السلوك ويسخط عليه وأحيانا تتمثل في التشريع الذي يحرم هذا السلوك ويحدد له عقابا ، سواء أكان التشريع دينيا أم دنيويا ، وسواء أكان العقاب أيضا بشريا أم الهيا ، وأحيانا تتمثل هذه الموانع في سلطة العقل ، بمعنى أن يدرك الفرد قبح هذا السلوك فيكف عنه .

(١) الآية ١٠٩ من سورة آل عمران .

والصعلكة فى جملة مضمونها نوع من الظلم ، بمعنى الجور على حقوق الآخرين ، فى أى صورة من صور الجور ، فالاستعداد الفطرى لها فى طبيعة الافراد ليس غريبا على الفرائز البشرية ، مالم تتجمع حول هذا الاستعداد الموانع التى أشرنا اليها لتحول بين الفرد وبين إبراز هذا الاستعداد . وقد رأينا ان الموانع السابقة قد ضعفت فى المجتمع الجاهلى ، حتى أفلت منها زمام السلوك فى المجتمع كله ، لا فى مجتمع الصعاليك وحدهم ، حتى جعلوا الظلم - الذى تعتبر الصعلكة نوعا منه - شعارا لهم يعبر عنه شاعرهم بقوله :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهزم ومن لا يظلم الناس يظلم

حتى أصبح كثير من أفراد المجتمع - غير الصعاليك - يزالون كثيرا من أساليب الصعلكة كالفارات والسطو وقطع الطريق ، وفى مقدمتهم بعض سادة القبائل الذين كانوا يزالون هذه الأساليب اما بأنفسهم ، كما مثلنا بصمر بن معد يكرب وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة والحارث بن بدر ، وأما بمقاسمتهم الصعاليك غنائمهم التى يغمونها ، كما كان يفعل عبد الملك بن مويك الخزاعى (١) ، والعباس بن مرداس السلمى (٢) .

على انه مهما وجدت الموانع ، ومهما بلغت هذه الموانع من القوة ، فهناك الشذوذ الفردى الذى يعتبر أقوى من الموانع جميعا ، والذى نعتقد انه سنة الحياة التى لا تتخلف فى كل شئ ، حتى فى القواعد العلمية ، ولذلك حكم العلماء مطمئنين بأنه « لكل قاعدة شواذ » وحتى هذا المجتمع الاسلامى الذى كان خير أمة أخرجت للناس ، لم يخل من الشذوذ الفردى ، ولذلك أقيمت كل الحدود الشرعية فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أفراد مثلوا هذا الشذوذ فى سلوكهم (٣) .

وكذلك اليوم نرى الدول التى بلغت فيها موانع الانحراف درجة عالية من سيادة السلطة والقانون كما فى أوروبا وأمريكا ، لم تخل ولن تخلو دولة منها قط عن الشذوذ الفردى ، بل ان بعضها تجاوز فيه الانحراف حالة الفردية الى ما يشبه الظاهرة الاجتماعية ، وفيما يتعلق بالصعلكة ، نجد صورة منها فى هذه الأمم فيما يسمونهم هناك «رجال العصابات» الذين يسلكون مسلك صعاليك العرب نفسه ، ويهدفون الى ذات الغاية التى استهدفها الصعاليك ، وهى الحصول على المال . بل اننا لو حاولنا أن ندرس موقف هذه الأمم من صعاليكها ، أعنى

(١) أنظر مذهب الأغاني فى اخبار السليك ١٦٧/٢ .

(٢) أنظر شرح التبريزى لماسة ابي تمام ج١ ص ٢٥٠ فى حديث خفاف بن ثدية عن

العباس بن مرداس .

(٣) كما أقيم حد الزنا بالرجم على المرأة الفامدية ، وحد السرقة على المرأة التى ورد فى

قصتها حديث «والله لو سرت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها» وحد القذف على قاذفى الخيرة

ابن شعبة ، وحد الشرب على ابي محجن الثقفى وآخرين .

من يسمونهم رجال المصائب لرأينا ان موقفها يتضمن الاعتراف بأن السلوك العدواني ، الذى يمكن أن يسمى بالظلم - باعتباره السابق - الذى يمثل سلوك الصعاليك يتضمن الاعتراف بأن هذا السلوك يمثل استعدادا فطريا غريزيا ، وذلك بتركيزها فى وسائل الاعلام والترفيه على تجسيم سلوك الصعاليك - المصائب - وابراز أحداثه وأهدافه ، والتفنن فى تصويرها ونشرها ، ومعنى هذا ، ان ذلك من حاجات المجتمع النفسية ، لأن وسائل الاعلام والترفيه إنما تستهدف ارضاء الاستعداد والحاجات النفسية والعقلية لدى الأفراد .

وليس من شأن موضوعنا أن يفيض فى مثل هذا الحديث ، ولكن الذى يعنينا هو أن الاتجاه الى الصعلكة فى جذوره النفسية العميقة يمثل استعدادا فطريا يتعلق ببعض غرائز الأنانية والذاتية ، وأن هذا الاستعداد ان لم تكبح جماحه موانع خارجية يبرز ممثلا فى سلوك يعبر عن هذا الاستعداد ، وانه حتى مع وجود الموانع وقونها فان الشذوذ الفردى حتم فى كل حال . ونفصل من هذا الى أن الاستعداد الفطرى سواء تمثل فى اتجاه شائع أو فى شذوذ فردى يعتبر من الدوافع الى الصعلكة ، واننا لا نستطيع اغفال الحديث عنه فى مقام حصر أسباب الصعلكة والدوافع اليها .

وفى ختام الحديث عن أسباب الصعلكة ونشأتها ، نقول ان ما سقناه من أسباب ودوافع وان كان لا يمثل الاستقصاء الكامل للأسباب ، الا انه يمثل فيما نعتقد الأسباب المباشرة والقريبة من المباشرة ، وانه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كالشعور بالقراة بين العرب ، فان شعور القبائل العربية بأنها جميعا تنتمى الى أصل واحد ، هذا الشعور يغرس فى نفوسهم معنى التكافؤ ويجعلهم لا يتقبلون البغى أو الظلم من أحد ممن تجمعهم به هذه القراة ، ويرون من حقهم أن يكونوا أكفاء له ، ويجعل وقع البغى والظلم فى هذه الحالة ثقيل على النفوس مثيرا لها أكثر من إثارة ظلم الأجنبى وبغيه ، وشاعرهم يعبر عن هذا المعنى بقوله :

فظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند(١)

وقد يكون هذا المعنى من الأسباب التى زادت نيران الحروب والصراع بينهم اشتعالا ، وهذه الحروب تخلف فيما تخلف ظروفا تهيم بالرجال للصعلكة ، وأشخاصا ألغوا حياة الغارات والسطو يستطيعون أن يستغلوا هذا الألف فى مجال الصعلكة ، نقول انه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كهذا السبب الا انها أسباب تعتبر بعيدة ، ويبدو الارتباط بينها وبين الصعلكة واهيا ،

(١) من شعر طرفة بن العبد .

مما يجعل في تتبعها شيئا من الشطط والغلو ، والحديث الشريف يشير الى معنى الاستعداد الفطرى ، أو اليه والى الوراثية معا فى قوله « الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام » (١) .

الصُّعْلُكَةُ فى الجَاهِلِيَّةِ

١ - الصُّعْلُكَةُ والمجتمع :

رأينا فى حديث كتب اللغة وفى أحاديث الروايات انهم لم يصفوا للصُّعْلُكَةِ صفة محددة ، ولا نوعا معينا من السلوك ، فأحيانا يصفونهم بالذئاب لأن سلوكهم يشبه أسلوب الذئاب (٢) وأحيانا يصفونهم بأنهم لصوص (٣) . وأحيانا يصفون الصُّعْلُوكَ بأنه المتجرد للغارات (٤) ، وبأنهم ذوو الأسلاب أى الذين يغنمون من غاراتهم اسلابا (٥) ، وأحيانا يصفون بعضهم بأنهم فتاك (٦) أو بأنهم خلعاء من الذين خضعهم ذووهم لكثرة جنائياتهم (٧) ، وبأوصاف أخرى فى هذا المحيط (٨) ونخرج من هذا كله بأن الصُّعْلُكَةَ ليس لها فى عرفهم صفة أو سلوك محدد ، وان هذه الصفات التى ساقوها متفرقة فى جملتها تكون مفهوم الصُّعْلُكَةِ ، وصفات الصُّعْلُكِيِّ ، واننا يمكن أن نجمل ذلك فى أن الصُّعْلُكَةَ هى « احتراف السلوك العدوانى بقصد المغنم » سواء كانت فى صورة لصوصية أو قطع طريق أو سطو أو غارات أو اغتيال .

وعلى ضوء ما سبقنا من أسباب الصُّعْلُكَةِ ونشأتها فى الجاهلية ، ومن علاقتها بالمجتمع ، نرى ان الصُّعْلُكَةَ كانت جزءا من ظاهرة عامة حينذاك ، من حيث أن معظم أساليب الصُّعْلُكَةِ كان يزاولها كثيرون غيرهم كالفتك وقطع الطريق ، بل بعضها كان مظهرا شائعا تقوم عليه حياة القبائل كالغارات ، والفارق بين

(١) أنظر صحيح البخارى .

(٢) أنظر لسان العرب مادة (ذأب) والمصباح مادة صعلك .

(٣) المصدر السابق مادة (ذأب) .

(٤) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ١١٥ .

(٥) أنظر حديث خفاف بن ثدبة عن عباس بن مرداس شرح التبريزى للحسانة ج ١ ص ٢٥٠ .

(٦) أنظر مثلا مذهب الأغاني عن فضالة بن شريك ٢/٢١٠ وعن قيس بن منفلد ١/٩٩ .

(٧) أنظر مثلا العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ عن الاحبير السعدي ومذهب الأغاني ج ٢ ص ١٨٥ .

عن صخر الغي .

(٨) مثل شيطان وخارب . أنظر مذهب الأغاني .

الصعاليك وغيرهم في هذا ، انهم كانوا يتخذون من هذه الحياة ما يشبه الحرفة في التفرغ لها والمداومة عليها والانتقطاع لها ، وان غيرهم كان يتخذ منها ما يشبه الهواية التي تزول في ظروف نفسية واجتماعية معينة . غير ان شيوع اساليب الصعلكة في المجتمع ، لم يجعل الصعلكة من حيث هي شذوذا ينكره المجتمع بل كانت تمثل غاية ما يتنافس فيه الافراد وهو القوة ، بل يرى بعض الباحثين انها كانت مفخرة (١) .

ومما لاشك فيه ان الصعلكة لم تكن تلقى في الجاهلية انكارا ، وان الصعاليك لم يكونوا موضع النفور أو الازدراء أو البغض ، فلم تحدثنا أخبارهم فيما نعلم قط عن انكار أو ما يشبه الانكار لهم أو نصعلكتهم ، مع أنه كانت لهم مجامع عامة للشورى ، كدار الندوة في مكة ، والجامع المشهورة في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، وكانوا يتباحثون في هذه المجامع في أمورهم العامة ويعالجون مشاكلهم المشتركة ، ويعلنون قراراتهم وما يستحدثونه من عرف أو اتفاق أو حكم ، ومع ذلك فلم يثر موضوع الصعلكة ولم يناقش فيها ، ولم يرو الرواة ان قبيلة من القبائل حالت بين أبنائها وبين سلوك الصعلكة ، وأما موضوع الخلع الذي كانوا يخلعون به أحدهم ، فم يكن لسلوك الصعلكة من حيث هو وانما تفاديا للمغامر التي يجرها ، ولذلك أجمعت كل الروايات على ان سبب الخلع هو كثرة الجنائيات من حيث مطالبة أهل الخلع بها ، أعنى من حيث كونهم مطلوبين للاعداء بها ، فكان خلعهم للشخص تفاديا للمغامر ، وليس انكارا للسلوك من حيث هو .

بل على العكس كانوا ينظرون الى الصعلكة على انها مظهر من مظاهر القوة والمنعة ، وان أفرادها كسب كبير لقبائلهم ، وسلاح قوى يذود عنهم قوى كثيرة مماثلة ، ويحصهم من عداوات كثيرة متربصة ، ويحتاجون اليه حين تدعو الحاجة ، ففي أخبار هذيل ان أبا جندب الهذلي حينما أراد أن يثار لأخيه الأسود مر بنى لحيان جمع الخلاء والفتاك ليغير بهم على بنى لحيسان (٢) في أخبار امرئ القيس انه حينما أراد أن يثار لأبيه جمع جموعا من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكهم (٣) بل كانوا يصرحون بالفخر بهؤلاء الصعاليك فمن الأخبار ان عمر بن الخطاب سأل الخطيئة الشاعر العبسي : كيف كنتم في حربكم ؟ قال كنا ألف حازم ، قال وكيف ؟ قال « كان فينا قيس بن زهير حازما لا نصفيه ، وكنا نقدم أقدام عنتره ، وناتم بشعر عروة بن الورد » (٤) وعروة هذا من أعلام الصعاليك .

(١) أنظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ص ٢٣١ .

(٢) أنظر مجمل البكري ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٣) أنظر الشعراء الصعاليك ص ٢٣ نقلا عن الخزائن للبغدادي .

(٤) التنبيه على أوهام القائل للبكري ص ١١٣ ومهذب الأغاني ج ٢٣/٢ .

والواقع ان الصعاليك أثاروا في المجتمع الجاهلي موجة عاتية من الرعب والفرع ، كما تحدثنا بذلك أخبارهم واحاديث المجتمع عنهم ، فأرهبوا أصحاب الأبل على مراعيهم وحظائرهم ، وأرهبوا التجار في طرقهم ومسالكهم ، وأرهبوا المارة في سبلهم ومعاربهم (١) ، ولكن ذلك لم يكن ليحظ من قدرهم في المجتمع الجاهلي بالذات ، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والاعجاب والاكبار ، وأصبحوا أمنية القبائل ، تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الأقوياء العناة ، الذين ترتعد منهم فرائص البادية ، ويرن صدى ذكرهم وأحاديثهم في طول الجزيرة وعرضها . وحتى حكماء العرب ، كانوا يرون مجد القبيلة وقوتها وحمايتها غاية تبورها كل الوسائل ومن حكمهم المشهورة في ذلك قولهم « ما خلا قوم من السفهاء الا ذلوا » ، فما دام الأمر يتعلق بمجد القبيلة فهم يتمنون حتى السفهاء ، فضلا عن الصعاليك الذين لم يكونوا سفهاء ، وإنما كان الكثير منهم من الشخصيات اللامعة التي أوتيت من المواهب العقلية والبدنية حظا مرموقا ، وأوتيت أيضا من بريق اسمها ودويه في الأذان حظا أكبر واعظم وهذا السليك بن السلكة يجعله عمرو بن معد يكرب فارس اليمن أحد أربعة لا يخشى غيرهم في الجزيرة كلها فيقول عمرو : ما أبالي أى طعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقني دونها عبداها أو حراها وعني بالعبدین غنتره العبسي والسليك بن السلكة ، وبالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث اليربوعي (٢) وقد عبر المجتمع عن اكباره للصعاليك في المراثي التي رثي بها كثير منهم (٣) وكانت مواهب الصعاليك من أشد ما تحتاج اليه البيئة حينذاك ، ومن أهم ما يحرص أبناء البيئة على التنافس فيه .

ومن ذلك القوة والشراسة وصعوبة المراس التي يدرك سعد بن ناشب اثرها في نظرة المجتمع الى صاحبها فيقول :

وفي اللين ضعف والشراسة هيبه ومن لا يهب يحمل على مركب وعر (٤)

وكون الصعاليك يمثلون غاية القوة الفردية في المجتمع الذين يعيشون فيه أمر واقع كما سيأتى خلال الحديث عن شعرهم ، وكانت هذه القوة من مقومات مركزهم في المجتمع .

ومن ذلك ميزة كادوا ينفردون بها عن مجتمعاتهم وهى ميزة العدو الحارق

(١) من الأدلة على ذلك نزول حكم خاص بقطاع الطرق في القرآن الكريم وهو في الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة في قوله تعالى (إنما جزء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)

(٢) خزائن البغدادى ج٢ ص ٣٦٣ .

(٣) أنظر للتمثيل مهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ج١ ص ٢٢٤ وحساسة ابى تمام

ج١ ص ٣٧٨ .

(٤) أمال القائل ج٢ ص ١٧١ .

للعادة ، وهو ما يصورونه بأنه لا تسبقه أو لا تلحقه الخيل ، وقد اشتهر كثير من الصعاليك بهذه الميزة ، منهم الشنفرى والسليك وتابط شرا وابن براقعة واكثر ما كانت سرعة العدو شهرة في هذيل الذين كان أبو خراش فيهم أحد عشرة أخوة كلهم عدا لا تسبقه الخيل كما قلنا ، وأبو خراش هذا هو الذى رأى الوليد بن المغيرة ذات مرة يريد أن يرسل فرسين له فى سباق فقال له : ما تجعل لى ان سبقتهما عدوا ؟ قال ان سبقتهما فهما لك ، وسابق أبو خراش الفرسين فسبقهما وأحدهما (١) وكان هذا العمل من جانب الوليد بن المغيرة تعبيرا ومثالا لاجاب المجتمع بهذه الميزة واكباره لها . والأخبار عن مطاردات الخيل لكثير من العدائين كالسليك وتابط شرا والشنفرى وابن براقعة وانتصارهم فيها تثير العجب والاعجاب معا ، حتى ضرب ببعضهم المثل فى العدو (٢) ومن المواهب التى أعلنت من شأن الصعاليك فى المجتمع الجاهلى الشعر ، والشعر من أهم أسلحة العرب فى السلم وفى الحرب على السواء ، ولذلك كان أبرز مفخرة لهم ، وحتى أنه كان من عاداتهم المشهورة ان القبيلة التى يظهر فيها شاعر تقد القبائل الأخرى لتهنئتها بهذا السلاح الذى وهبت اياه ، وحتى ان النبى صلوات الله وسلامه عليه لاحتساسة بخطورة هذا السلاح فى هذا المجتمع ، ضاق فى أول الأمر بأن المسلمين لا يملكون من هذا السلاح ما يكفى للذود عنهم ، حتى هيا الله لهم حسان بن ثابت فطابت به نفس النبى وكان يدعو الله ليه أن يؤيده بروح القدس ، وقد حدث ذات مرة أن بلغ النبى أن أبا سفيان يهجو ، فقال : اللهم انه هجاني . واني لا أقول الشعر ، فاهجه عنى ، فقام عبد الله بن رواحة يعرض على النبى أن يهجو أبا سفيان ، فقال له النسي : لست له ، ثم قام حسان ابن ثابت ، فقال له النبى : أنت له ، وهجا حسان أبا سفيان (٣) .

وصعاليك الجاهلية كان فيهم الشعراء الذين يفرض شعرهم نفسه على المجتمع بل وعلى التاريخ والذين يعدون فى الصفوة المجيدة والممتازة فى شعواء المجتمع الجاهلى ، كالشنفرى وابن الورد وتابط شرا والهذيلين وهذا الشعر كان ولاشك من مدعيات اكابر المجتمع لهم ، بل نستطيع أن نقول ان مركزهم الشعرى كان من أهم ما أضفى على الصعلكة نفسها ثوب الجلال والتقدير فى المجتمع الجاهلى ، كما يقول الخطيب لعمر بن الخطاب ، كنا نأتم بشعر عروة بل ان الشعر من أبرز العوامل التى حفظت لهم كثيرا من تقدير المجتمع لهم بعد الاسلام ، كما رأينا من اقرار عمر بن الخطاب للخطيب فى كلامه عن شعر عروة بن الورد ، وكقول معاوية بن أبى سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد

(١) خزائن البغدادى ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) أنظر مجمع الأمثال ج ٢ ص ٤٧ ، ٣٢٣ .

(٣) المقد الفريد ج ٣ ص ١٠٨ .

لأحييت أن أتزوج اليهم (١) وقول عبد الملك بن مروان : ما يسرنى أن أحدا من العرب لم يلدنى ولدنى الا عروة بن الورد لقوله :

واني امرؤ عافى انانى شركة وانت امرؤ عافى اناءك واحد
اتهزا منى أن سمئت وان ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بسارد (٢)

وانه وان كان من نواحي اعجاب هؤلاء الخلفاء بعروة الناحية الخلقية الاشتراكية التى عرف بها الا اننا لا نغفل أثر الشعر فى هذه التزكية ، وكونه كان الأداة التى حملت أخلاقه الى الناس ، وعلماء النقد العربى لا يتجاهلون قدرهم الشعرى ، كما ذهب أبو عبيدة مثلا فى وضع شعر عروة فى الطبقة الثالثة (٣) بالنسبة لسائر شعراء العرب ، وكما عد صاحب الأغاني السليك « من شعر شعراء العرب » (٤) على أنه ينبغي أن نلاحظ فى مقام حديثنا عن صعلكة الجاهلية ، ان ما وصل إلينا من صعاليكها وأخبارهم دون ما كان يتوقع بكثير ، ففى مجتمع كالجاهلية يبلغ فيه شيوع الصعلكة وخطورها حدا يجعل التسريع الاسلامى يفرض لها عقوبات صارمة تتمثل فى حد قطع الطريق الذى ورد فى قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » (٥) وفى حد السرقة الذى ورد فى قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » (٦) ومن المنطقى فى أى قانون أو تشريع أن تكون العقوبة تخفيفا وتشديدا على قدر الجريمة ، ومن الواضح فى هذين الحدين الاتجاه الى أقصى الشدة فى العقاب ، وهذا يعنى خطورة الجريمة المشرع لهما ، ويتضمن انتشارهما بصورة تهدد أمن المجتمع كله واستقراره ، ويؤيد هذا ان النبى صلى الله عليه وسلم فى بدء دعوته ، حرص على أن يجعل من أهم ما يغرى به الناس ليقبلوا على الاسلام هو تبشيرهم بأن الاسلام سيحقق لهم الأمن فى طرقهم ومسالكهم حيث يقول : والله ليؤمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، وأخطر من كانوا يهددون

(١) أنظر مذهب الأغاني عن عروة بن الورد ٢٣/٢ .

(٢) المصدر السابق عن عروة ج ٢٣/٢ .

(٣) جمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٣٤ .

(٤) مذهب الأغاني عن السليك ١٦٧/٢ .

(٥) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المائدة .

(٦) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المائدة .

هذه الطرق هم الصعاليك ، وهم أيضا أخطر من تنطبق عليهم أحكام الحدين السابقين في القرآن الكريم :

ومع ذلك فلم يبلغنا من هؤلاء الصعاليك إلا العدد المحدود ، ومن الواضح في تحليل ذلك أن التاريخ العربي قبل الإسلام لأسباب كثيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق لم يصلنا منه إلا ما يتعلق بالأمجاد القبلية لحرص أبنائها على تناقلها وبالطرائف ليل الناس بطبيعتهم إليها ، وبالشعر لتمجيد العرب أياهم وخاصة جيده ، ولذلك نلاحظ أن كل ما ورد إلينا من أخبار الصعاليك في الجاهلية يمكن رده إلى هذه الأسباب ، أما الأخبار التي لا تحمل طابعا من هذه الطوايع فلم يصل إلينا منها شيء ذو غناء .

وفي ختام هذا الحديث عن موقف المجتمع من الصعاليك نحسب أن نشير إلى أن ما ورد مما يوحى ببهانة أو تحقير لبعضهم كان لا يمثل رأى المجتمع ، كما ورد في أخبار قيس بن الحداية (بن منقذ) أنه قال لجماعة طلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا لهم : أن قومي لن يقدوني ولو طلبتم بي عنزا جرياء ما أعطيتموها (١) فأما قال ذلك لأن قومه كانوا قد خلعوه ، فهو يعبر عن حقيقة صلته بقومه لا عن قيمته ، ولا عن تقويم قومه أياهم ، كذلك قصة المفاداة بالشنفرى إنما كانت إبان أسره قبل أن يصبح صعلوكا (٢) .

٢ - أساليب الصعلكة :

واذن - كما قلنا آنفا - فلم يكن للصعلكة أسلوب واحد معين ، وإن كان يجمعه جميعا أنه سوك عدواني يستهدف الغنيمة ، ولذلك تعددت وسائل مزاولتها واختلفت باختلاف استعداد الصعلوك وامكانياته الذاتية ، فإن كل صعلوك إنما يزاوّل ما يناسب امكانيات القوة والاستعداد فيه ، واختلفت أيضا باختلاف الظروف التي تتيح للصعلوك مزاوله صعلكته ، وعلى ضوء ما آتينا به نستطيع أن نتصور أن أهم مجالات الصعلكة ، الطرق التجارية سواء أكانت أساسية أم فرعية وخاصة في مواسم عبور القوافل ، ومواسم الأسواق والمراعى وخاصة مراعى الابل ، والحظائر الخاصة بها ، ثم ما يعرض من ظروف طارئة غير منتظمة .

ولسنا نريد من هذا الحديث استقصاء حوادث الصعلكة في الجاهلية وإنما نريد أن نعرض للنماذج تمثل أنواع الصعلكة من لصوصية أو سطو وغارة أو قطع طريق .

(١) مذهب الأغاني ١٩/١ - ١٠٥ .

(٢) شرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ج ١ ص ١٨٧ .

فمن ذلك ما ورد في أخبار السليك ، انه خرج ذات ليلة يريد الغسرو
ومعه رجلان كمال يقول صاحب الأغاني أو جماعة كما يقول مجمع الأمثال
وكانت ليلة ذات مطر وبرد ، فعرض له بيت منفرد من البيوت ، فواعد أصحابه
أن ينتظروه في مكان قريب معين ، ليستطلع لهم ، ثم تسلل الى مؤخرة البيت
وكان البيت ليزيد بن رويم الشيباني وكان شيخا ، واذا الشيخ وامراته بفناء
البيت ، وظل السليك في مؤخرته منتظرا يفحص البيت بعينه الحاذقة ، فاذا
ابن الشيخ يأتي بالابل من مراتعها ، فيقول له أبوه غاضبا منكرا عودته :
هلا انتظرت بها وعشيتها ساعة من الليل ؟ قال ابنه : انها أبت العشاء ، قال
الشيخ : العاشية تهيج الآبية ، فذهبت في مثالهم ، ثم قام الشيخ مغضبا
فنفض ثوبه في وجوه الابل لترجع ، وعاد بها الى مراتعها ، ثم جلس الشيخ
قريبا من ابله وقد غطى وجهه من البرد ، واذا السليك الذي كان متتبعا حركاته
يسلمه من ثوبه ويعلوه بالسيف فيطير رأسه ، ثم يطرد الابل حتى يأتي بها
أصحابه ويقول بعد ذلك واصفا الابل وتمكنه منها :

وعاشية رج بطنان ذعرتها
بسوط قتيل وسطها يتسيف
وواصفا قتله الشيخ ومنظر طرائق الدم عليه كأنه لون نسيج مخطط :

كان عليه لون برد محبر اذا ما آتاه صارخ متلف
وواصفا لهفة أصحابه في انتظاره ، وظنهم الظنون بإبطائه :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ما علوا نشزا أهلوا وأوجفوا
ومتحدثا عما يلاقيه في مثل عمله هذا من مخاطر ، وعن السبب الذي
يضطره الى هذه المخاطر ،

وما نلتها حتى تصعلكت حبة وكنت لأسباب المنية أعرف
وحتى رايت الجوع بالصيف ضرني اذا قمت تغشاني ظلال فاسد (١)

وفي أخبار السليك أيضا انه خرج في رفقة حتى أتوا جوف مراد باليمن
فاذا ابل كثيرة بالوادي فقال لصاحبيه : انتظرا قريبا حتى آتى الرعاء ، فأعلم
لكما علم الحى ، أقریب هم أم بعيد فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا
بعيدا قلت لكما قولاً الحى به لكما فأغيرا ، فانطلق حتى آتى الرعاء ، فلم يزل
يسنדרجهم فى الحديث حتى علم ان الحى بعيد لا يلحقوه ان طلبوه فقال للرعاء :
الا أغنيكم ؟ قالوا بلى فتغنى بأعلى صوته :

(١) انظر مجمع الأمثال ج ٢ ص ٩ ومهذب الأغاني ج ١٦٧/٢ مع اختلاف بينهما في الفاظ

يا صاحبي الا لاحي بالسوادى الا عيسد وآم بين اذواد
انتظران قليلا ريث غفلتهم أم تغفوان فان الريح للغادى (١)

فلما سمع صاحبه ذلك أتياه فأخذوا الابل وذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريح
الحى حتى كانوا قد مضوا بالابل (٢) .

ومن اساليب السليك فى الصعلكة أنه كان أثناء رحلاته وغاراته يجمع
من يعترضه من الصعاليك فيضمهم اليه حتى يكون منهم عصاباتة (٣) وان
كانت عصاباتة فى أغلب الأحيان كما يبدو من أخباره لا تتجاوز نفرا قليلا .

على أن السليك لم تقتصر صعلكته على الابل ، بل تعدتها الى خطف الناس
وأسرهم بغية الحصول على الفداء ، ففي أخباره أنه أثناء خروجه للغارات ذات
مرة لقي رجلا من خشم ومعه امرأة فأخذهما ، ثم قاض الخشم على الفداء (٤) .

وأما تأبط شرا فكان يؤثر أن يغزو وحده على رجليه (٥) لثقلته فى سرعة
عدوه ، حيث كان أحد ثلاثة هم أعدى العدائين فى العرب (٦) هو والشنفرى
وعمر بن براق وكلهم من الصعاليك وفى أخباره قصته مع زوج أمه - أبى كبير
الهالى - الذى أراد أن يستدرجه ليقتله بتواطؤ مع أمه ، حينما أحس أبو كبير
غيرة تأبط على أمه ، قال أبو كبير لتأبط شرا « هل لك فى أن تغزو ؟ قال : ذلك
من أمرى ، فخرجا ليلا حتى إذا أدركهما مساء اليوم الثانى أبصرا نارا .
يعرف أبو كبير أنها نار أعداء لتأبط شرا ، فوجه اليها فرأى عليها رجلين
من الص العرب فوثبا اليه يريدان قتله ، فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر
عطف عليه فقتله ، ورجع الى الآخر فرماه أيضا فقتله ، ثم جاء الى نارهما فأخذ
الخبز وجاء الى أبى كبير ، فالح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه
فلما رجعا قال أبو كبير : ان أم هذا الغلام لا أقربها أبدا ، (٧) وأما عروة بن الورد
فكانت عصابته كثيرة العدد ، لأنه كان بمثابة مدرسة يتخرج فيها الصعاليك
واشتهر بأنه كان مأوى خيرا لهم ، ولذلك لقب بعروة الصعاليك . وصاحب
الأنانى يبسط صورة من ذلك فيقول « وكان عروة اذا أصابت الناس سنة
شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه

(١) أم فى البيت الأول جمع أمة واذواد جماعات الابل الذكور والريح القوة والصر .

(٢) مجمع الأمثال ج٢ ص ١١ .

(٣) أنظر المصدر السابق ج٢ ص ١١ .

(٤) أنظر شرح التبريزى لحسانة أبى تمام ج١ ص ٣٧٨ .

(٥) أنظر خزائن البغدادي ج١ ص ٩٥ ، ٩٦ ترجمته وسبب تسميته تأبط شرا والخلاف

فى ذلك .

(٦) أنظر شرح المفضليات عن ابن الأبنارى ص ٢٧ .

(٧) أنظر شرح الحسانة عن التبريزى ج١ ص ١٩ .

هؤلاء من دون عشيرته ثم يحفر لهم الأسراب ويكتف عليهم الكنف ويكسبهم ومن قوى منهم اما مريض ييرا من مرضه ، أو ضعيف تثوب اليه قوته خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباقي في ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان أهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان أهله وقد استغنى ، (١) وهذه الشهرة عنه من شأنها ان تجذب اليه الراغبين في التصعلك والذين يأنسون في انفسهم استعدادا له ، وكان هذا الخير الذي يفيضه عليهم مصدره بطبيعة الحال الصعلكة ، لأن عروة لم يكن غنيا ، بل لم يكن له مال ، وكان أكثر المتحدثين عن الفقر والحاجة (٢) ، وهذه النفقات للكثرة التي كان يحتاج اليها لاعالة هذا العدد الكبير كانت تقتضي منه بطبيعة الحال أيضا كثرة الغارات ، وكثرة المشتركين فيها ليحصلوا على أكبر مغنم مستطاع ، ومن غزواته هذه الغزوة التي تعتبر مثلا من أمثلة اشتراكية الصعاليك ، حينما غنم من غزواته تلك مائة من الابل وامراة وقسم الابل بين أصحابه بالسواء وكان نصيبه كواحد منهم ، غير انه أخذ المرأة ، فأبى صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل في مقابل المرأة (٣) .

وكان من أصحاب هذه الغارات التي تستهدف القبائل قيس بن منقذ المعروف بابن المدادية والذي يقول عنه صاحب الأغاني انه « أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب ، ومن كان يعدو على رجله عدوا يسبق الخيل » (٤) ومن هؤلاء المغيرين على القبائل عمرو بن براق ، ومن أخباره قصة غزوته لحريم الهمداني التي استاق فيها كل شيء لحريم والتي يخاطب همدان بعدها قائلا :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا يالهمدان ظالم (٥)

ومنهم عمرو بن العجلان المعروف بذي الكلب والذي يقول عنه صاحب الأغاني « كان يفرو بنى فهم غزوا متصلا » (٦) ، والتي تصف أخته ريطة سبيه للعداوى فتقول :

والمخرج العاتق العلوة ملعنه في السبي ينفج من أرحانها الطيب (٧)

(١) مهذب الأغاني ج٢/ ٢٣ .

(٢) أنظر ديوانه .

(٣) أنظر مهذب الأغاني ج٢/ ٢٣ .

(٤) أنظر ترجمته بمهذب الأغاني ج١ ص ٩٣ .

(٥) القصة والقصيدة في الامالي ج٢ ص ١١٨ ومهذب الأغاني ج١ ص ٩٢ وثلاثة أبيات

منها في المقد الفريد ج١ ص ٣٤ .

(٦) أنظر ترجمته في مهذب الأغاني ج٢ ص ١٨٨ .

(٧) المصدر السابق ج٢ ص ١٨٨ وفيه بقية القصيدة .

والشغرى يصور لنا بالشعر غزوة من غزواته يبدو انه كان فيها وحده فيقول انه في ليلة شديدة البرد مطرة خرجت غازيا - بمكان يسمى الضميصاء - وعدت ومازال الليل حالكا ، ولكنى فى غزوتى هذه « أيمت نسوانا وأيتمت اللة » وأصبح أهل الحى يتساءلون منقسمين فى رأيهم عن أحدث هذه الآثار - التى يبدو انها كانت قتلا وليس حصولا على مال - فبعضهم يقول ان الذى سطا بالليل انما هو ذئب أو وحش ، ويرد البعض الآخر مؤكدا أنه سطو عفريت من الجن ، وليس من الناس (١) ، وفى أخباره الأخرى انه كان يغير على الأزدي.

على ان أساليب الصعلكة فى الجاهلية لم تكن تغلو من طرافة فى مزاولتها كما يروى الملاحظ عن أسلوب جحدر بن ضبيعة فى سرقة الإبل فيقول : « كان جحدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة فجعل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الإبل ، فاذا وجدت الإبل مسها نهضت ، وشد الشنة فى ذئب بعض الإبل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم كان يشب فى ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان . قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا (٢) »

وعروة بن الورد مع كثرة رفاقته وأتباعه من الصعاليك واللائذين به فى أحيان كثيرة ، الا أنه كان يبدو من أخباره يعتمد على نفسه فى الهجوم وكانت أساليبه تدور حول التسلل بمفرده الى حظائر الماشية كما فى قصته مع الرجل الذى كانت امرأته تجوئه مع عبده . أو السطو كما فى قصته مع أصحاب الكنيف (٣) .

الصَّعْلُكَةُ فِي الْإِسْلَامِ

أشرقت الأرض بتور ربها حينما أهل عليها نور الاسلام ، فأضاء القلوب وأضاء الأرض وما عليها ، وأحست الصعلكة بعشى شديد أمام هذين التورين نور القلوب الذى لا يتيح لأصحابه أن ينحرفوا الى متاهات الظلمة والتواء

(١) أنظر اللامية فى الأمال ج ٣ ص ٢٠٥ من البيت ٥٠ الى ٥٧ وأول الايات (وليلة تحس ٠٠)

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٤٢٣ مع أن التبريزى فى شرح الحاشية ج ١ ص ١٩٥ يصفه بقوله من القرسلان للمندوين ، والشنة القرية .

(٣) انظر أخباره فى شرح ديوانه لابن السكيت .

السلوك ، ونور الحياة الذى لا يترك فيها كهوفا للعبث ، ولا منعرجات يأوى اليها أولئك الذين لا تطيب لهم الحياة الا فى الظلام ، ولا يحلو لهم العيش الا فى التاهات والسبيل الملتوية ، من أمثال الصعاليك وقد كانت اليد التى تحمل هذه الشعلة المشرقة يداً قوية حازمة ، وأعنى بها التشريع الإسلامى نفسه .

هذا التشريع الذى راعى فيما راعاه - فضلا عن عمومته وصلاحيته لكل العصور والبيئات - ظروف البيئة التى نزل بها هذا التشريع ، وقد كانت أساليب الصعلكة من أبرز مشاكل البيئة حينئذ وأكثرها اقلاقا لطمانينة المجتمع وازعاجا لآمنه ، وتهديداً لحياة الأفراد وأموالهم ، حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل فى مقدمة ما يبشر به من هذا الدين الجديد انه يحقق لهم الأمن حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ، وحتى ان الله سبحانه يمن على قريش أن جعل لهم حرماً آمناً بينما يتخطف الناس من حولهم فيقول « أو لم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم اقبال باطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » (١) فما كان أحوجهم حينئذ الى تشريع يعالج لهم فيما يعالج هذا المشكل من حياتهم ، وقد عالج التشريع الإسلامى بأحزم ما يكون الحزم ، وأحكم ما تكون الحكمة . ممثلاً فى حدى السرقة وقطع الطريق المشار اليهما آنفاً ، ومن هذه الزاوية يعلم الذين يتهمون بعض الحدود والعقوبات فى الاسلام بالشدة والقسوة الا قسوة فيها ولا شدة اذا نظروا الى مدى فظاعة الجرائم التى استوجبت هذه العقوبات ، وأثر هذه الجرائم فى أمن المجتمع واستقراره وطمانينته ، وأذكر نقاشاً دار بينى وبين أحد أساتذة علم الاجتماع فى هذا الموضوع (٢) حينما كان مشرفاً على بحث أعده فى موضوع عادة الثأر (٣) ، حيث سألتى : وما الذى تراه لعلاج عادة الثأر ؟ قلت : وسائل كثيرة ، ولكن فى مقدمتها شريعة القصاص فتولاه ما يشبه الدهشة ، ثم دار بينى وبينه حوار قصير ، كنت فيه أمثل وجهة نظر التشريع الإسلامى ، وكان هو يمثل جلال العلماء ، فى سعيهم وراء الحقيقة ، وتسليمهم للحق فور انبلاجه ، قال بعد أن أفاق من دهشته : ولكنه تشريع بدائى ، ونحن فى القرن العشرين فهل تريد أن نعود الى البدائية الأولى ؟

قلت : لنسلم جدلاً بأن شريعة القصاص بدائية ، ولكنى أسألك اليس شيوع عادة الثأر فى مجتمع ما مظهراً من مظاهر البدائية ؟

قال : بلى .

قلت : وعلماء الاجتماع فى العالم وفى مقدمتهم « سافينى » متفقون على أن

(١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

(٢) هو الدكتور على فؤاد .

(٣) هو بحث (بركان الدماء : الثأر) بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٣٣٥ الى ٢٩٣٣٩ لصاحب

هذا البحث .

أى تشريع فى أى أمة وفى أى بيئة لن ينجح إلا إذا كان نابعا من عادات الأمة وتقاليدها وتاريخها مراعى ذلك كله فيما يصدر عنه من بنود ، أليس كذلك ؟

قال . بلى .

قلت . والتشريع الإسلامى هو التشريع الوحيد النابع من عادات أمتنا وتقاليدنا وتاريخها والمراعى لذلك كله ، ومن أوضح ما يكون ذلك فيه القصاص أليس كذلك ؟

قال : بلى .

قلت : واذن فهل من الحكمة أن نعالج عادة الثار بتشريع القرن العشرين النابع من أمة تختلف عن أمتنا فى عاداتها وتقاليدنا وتاريخها ؟ قال بعد لحظة من التفكير : لا ، وأنا أؤيدك فيما تقول .

وكانت النقطة التى تدور حولها حكمة التشريع الإسلامى فى القصاص فى ذلك البحث ، هى أن الحكمة البالغة ليست فى القصاص ذاته ، وإنما فى مراعاة عادات الأمة وتقاليدنا فى تطبيق القصاص ، ويتركز هذا فى اعتبار القصاص حقا مدنيا لا جنائيا ، بمعنى اشعار أولياء الدم أن القصاص حق لهم يملكون فيه التنفيذ ، والتعويض (الدية) والعفو ، وشعورهم بملكية هذا الحق فيه مفتاح الاشكال ، كما أن الفارق بين التشريع الإسلامى وغيره فى اعتبار القصاص حقا مدنيا أو جنائيا فيه أيضا كل الاشكال بالنسبة للتشريعات الأخرى حيث تجاهلت عادات المجتمع وتقاليدنا فى اعتباره أن كل تعدد على فرد من الجماعة تعدد على الجماعة كلها ، وفيه كل النجاح بالنسبة لشريعة القصاص حيث راعت هذه العادات والتقاليد (١) وكان من حكمة تشريع الحدود والقصاص فى الإسلام أنها تبدو فى ظاهرها رهيبة عنيفة لتحث أثرها فى الزجر والردع ، ولكنها حينما تصل إلى التطبيق والتنفيذ تكون قد انتهت إلى درجة كبيرة من الرفق واللين ، تكاد تكون عكس صورتها الظاهرية (٢) ، ومن أمثلة ذلك القصاص الذى يبدو مصبوغا بحمرة قانية من الدم ، ولكنه فى طريقه إلى التنفيذ يمر بمراحل من عرض الدية والعفو حتى أنه لو عفا واحد فقط من الورثة أو قبل الدية سقط القصاص ، والزم الباقيون قبول الدية أو العفو وهكذا حين ينتهى إلى التنفيذ نجده فى أغلب الأحيان أبيض ناصعا بدل الحمر القانية ، مع نجاحه فى حسم الاشكال ، وهكذا الحدود ، تبدو أيضا رهيبة عنيفة ، ولكنها فى طريقها إلى التنفيذ يكفى لترقيقها وتلطيفها ، أن تمر بالحديث الشريف « ادروا الحدود بالشبهات » ، لأن الحدود والقصاص ، وإى عقوبة فى أى تشريع ليست مقصودة لذاتها ، وإنما لآحداث أثرها فى الردع والزجر .

(١) انظر المصدر السابق (بركان الدماء : الثار) ص ٨٠ وما بعدها

(٢) انظر من هنا تبدأ لمحمد خالد .

والحدود والقصاص قد أدت أثرها على اكمل وجه مستطاع ، وآية ذلك ان المجتمع العربي الذى طغت فيه أساليب الصعلكة والفتك والغارات ، سواء أكان مزاولوها من المحترفين وهم الصعاليك ، أم من الهواة وهم غير الصعاليك حتى أصبحت هذه الأحداث أبرز ما يلمسه الناظر الى المجتمع الجاهل ، هذا المجتمع ننظر اليه منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة فنجد هذه الظاهرة قد اختفت ، سواء منها ما ظهر من قطع الطريق والغارات ، وما بطن من أساليب الفتك واللصوصية ، بل من العجيب انه حتى الشذوذ الفردى - الذى يفترض انه لا يخلو منه مجتمع - أوشك على الانحفاء حين جاء الاسلام ، فاننا لو أحصينا ما بلغنا من حالات الشذوذ التى استوجبت تنفيذ الحدود ، وخاصة حد السرقة وقطع الطريق منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة حتى نهاية خلافة عمر بن الخطاب لما وجدنا هذه الحالات تتجاوز أصابع اليد الواحدة فيما نعلم .

ومن أثر الاسلام فى الصعاليك اننا نجد التوبة شائعة فيمن بلغتنا أخبارهم ، زمن هؤلاء التائبين الاحير السعدى الذى كان سيفه يهدد التجار وقرانهم كما يقول :

تعرئى الاعدام والبدو معرض وسيفى باموال التجار زعيم

ثم تاب فلم يخف حنينه الى عادة سيطرت على حياته وهى الصعلكة ، ولكنه مع هذا الحنين مصر على التوبة ، بل ناصح للصعاليك أن يسلكوا طريق التوبة فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
قل للصوى بنى اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (١)

ومن هؤلاء التائبين يزيد بن الصقيل العقيل ، الذى يقارن بين حال أصحاب المخائض قبل توبته وبعدها ثم اطمئنانه الى التوبة فيقول :

الا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وان امراء ينجو من النار بعدما تزود من أعمالها لسعيد (٢)

وليس معنى ذلك كله موت الصعلكة ، فان من عواملها ما هو طبعى ملازم للحياة ، كالاستعداد الفطرى والشذوذ الفردى فى المجتمعات م وبالنسبة لشبه الجزيرة العربية هناك عامل هام طبعى وهو طبيعة الأرض وما تيسره لأبنائها من الاختفاء والاحتماء ، يضاف الى ذلك ان سلطة الدولة بدأت تضعف ، وقبضتها بدأت تتراخى عن الافرد حينما بدأت الفتن والخلافات تثور فى معظم أنحاء الدولة فى سلسلة طويلة متشعبة ، بدأت هذه السلسلة بالخلافات بين على

(١) أمالى القالى ج ١ ص ٤٨

(٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ٦١

وصلوة ، ثم اعتدت حلقاتها ممثلة في الجروب بين العلويين والأمويين ، وبين الأمويين والعباسيين ، وبين العباسيين والعلويين ، بالإضافة الى ما تخلل ذلك من فتن الخوارج والمذاهب المنحرفة ، والمتبردين ثم توالى الفتن بين بعض طوائف الأمة والبعض الآخر ، وبينهم جميعا وبين الأمم الطامعة ، والطوائف المتمردة في دوامة عاتية هيات مجالا واسعا للصعلة أن تعيد نشاطها ، فتوالى ظهور مجموعات من الصعاليك لم تكف تخلق منهم الأمة في فترة من الفترات بل هيات هذه الظروف للصعلة أن تستعيد كثيرا من مكائنها ، وأن تخفف نظرة السخط التي كانت تواجه بها أيام عنقوان الدعوة الإسلامية حتى أن صعلوكا كعبيد الله بن الحر استطاع بقوة شخصيته وبما جمعه حوله من صعاليك وأعوان أن يفرض نفسه في المجتمع كقوة تستعصى على الأمراء ومنهم ابن زياد والمختار ومصعب بن الزبير ، بل تفرض التودد إليها على بعض الخلفاء كعواوية وعبد الملك ابن مروان (١) ، وحتى استطاع أحد فتاكهم كعبد الله بن سبرة الحرشي أن يفرض قوته أيضا حتى يستعين به الأمراء في طلائعهم لغزو الروم (٢) ونستطيع أن نجمل أهم ما يميز حياة الصعاليك الإسلاميين بعد الفترة الأولى من الإسلام فيما يأتي :

١ - تغيرت النظرة الى الصعلة بعد الإسلام ، فبعد أن كانت مجالا للفخر وميدانا للتنافس ، وموضعا للعجاب ، أصبحت موضعا للسخط والانتكار ، وإن كانت في أغلب العصور لم تكن موضعا للاحتقار ، وفرق بين السخط والاحتقار وكان أهم مصادر هذا السخط الانتكار الشديد الذي صبه الإسلام عليها ثم زوال معظم الأسباب والظروف التي تهيب لها الحياة المظلمة الراضية ونتج عن ذلك تبدل كبير في وضعها بالنسبة للجاهلية ، فبعد أن كانت مظهرا شائما أصبحت مزاولتها - مهما كثر مزاولوها - شذوذا ، وأصبح مزاولوها مهما كثروا قلة يمكن اعتبارها حالات فردية في النسبة العامة للمجتمع وأصبحت نظرة المجتمع في جملته إليها نظرة السخط والانتكار والاضطهاد ولذلك نرى اضطهادهم شائما في أخبارهم ، فمن أخبار الإخيمر السعدي أن السلطان أهدد دمه وإن قومه خلعه ، وأنه أصبح طريدا شريدا لا ملجأ له إلا القياقي والغار ، ولا أنيس له إلا الوحوش وأصواتها (٣) ، وهو القائل فيما قال عن حاله هذه :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت أنسان فكنت أظير

(١) خزائن البغداد ج٢ ص ١٦ - ٢٢ نقل عن كتاب المصوم للسكري في ترجمة طويلة وتصيل لهذه الأحداث .

(٢) عن شرح التبريزي لديوان الحملة ج١ ص ١٨٥ .

(٣) العقد المفرد ج٢ ص ٢٩٠ .

ومن أخبار سعد بن ناشب المازني ان السلطان عدم داره (١) فاضطر الى التشرد وهو القائل :

عليكم بدارى فاهدموها فانها تراث كريم لا يخاف العواقب (٢)

ومن أخبار مالك بن الرب انه اضطر الى أن يهرب من مطاردة الججاج ابن يوسف وانه ما قال فى ذلك :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ربح الفلاة صواى
ففى الأوض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلاى (٣)

ومن أخبار شبيب بن عمرو ان على بن أبى طالب وجه اليه شخصين يدعيان ابني شميظ ليقبضا عليه فتجا منهما بفرسه التى سماها العصا ، وفى ذلك يقول :

ولما ان رايت ابني شميظ بسكة طيىء والباب دونى
تجللت العصا وعلمت - انى رهين مخيس ان أدركونى (٤)
ولو انى لبثت لهم قليلا لجرونى الى شيخ بطين (٥)
شديد مجامع الكتفين باق على الحدائى مختلف الشئون

وقد قال على تعقيبا على قول شبيب :

تجللت العصا وعلمت انى رهين مخيس ان أدركونى

« والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى لأودعته السجن وكان نتيجة لاحتساسهم بسخط المجتمع ان ضعفت نزعة الفخر فى شعرهم ، وخاصة الفخر بالصعلكة نفثها ، بعكس ما كان شائعا فى شعر الصعاليك الجاهلية ، بل ظهر حديثهم عن السجن وما يعانونه . كما نجد فى شعر جحدر بن معاوية (٧) ، وشعر الجرنفس (٨) وشعر مالك بن الرب (٩) .

٢ - كان الصعاليك الاسلاميون فى جملتهم أكثر اختلاطا بالمجتمعات من الصعاليك الجاهليين ، وقد يبدو هذا متعارضا مع قولنا انهم كانوا يواجهون

(١) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج١ ص ١٤

(٢) الكامل للمبرد ج١ ص ١٢١ .

(٣) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .

(٤) تجللت : ركبت . مخيس اسم سجن بناه على بن أبى طالب .

(٥) بطين : عظيم البطن يبنى عليا كرم الله وجهه .

(٦) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ج١ ص ٢٥٢ .

(٧) أنظر معجم البكرى ج٤ ص ١١٤١ .

(٨) الحيوان للجاحظ ج٧ ص ١٥٨ .

(٩) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

موجة من سخط المجتمع ، والواقع أنه كانت هناك ظروف جانبية أو فرعية كانت تعترض هذا السخط أو تتخلله في كثير من الأحيان ، ومن هذه الظروف ، أن عددا من الصعاليك كانت لهم من القوة والمنعة ما جعل الأطراف المتطاحنة في صراع الخلافات والفتن التي أشرنا إليها تحرص على أن تتقي شر انضمامهم إلى عدائهم ، وتحرص على أن تكسبهم في قواها ، كما في أخبار عبد الله بن الحر الذي تودد إليه كل من معاوية وعبد الملك بن مروان وعماليهما ، ولكنه ظل حصنا مستقلا عن الانطواء تحت أي سلطان ، وكذلك طلب منه الحسين بن علي العون في القتال فابى وظل معتمدا بقوة واستقلاله (١) .

وكان منهم الشعراء البارزون الذين حرص الولاة والأمراء على الاستفادة بشعرهم فقبوهم إليهم ، متجاهلين سلوكهم حيناً ، وناصحين لهم بالتوبة أحيانا كما في أخبار بكر بن النطاح الحنفي مع أبي دلف وقرة بن محرز وما كانا يفيضان عليه من العطاء ويجريان عليه من الأرزاق ويهبانه من الهبات مقابل مدحه لهما واشادته بمكانتهما ، وقد صنع صنيعهما أمراء آخرون توددوا إلى بكر وانتفاعا بشعره (٢) .

وكما في أخبار مالك بن الربيع وسعيد بن عثمان وإلى خرسان (٣) وكما في أخبار فضالة بن شريك مع يزيد بن معاوية (٤) .

وكان من هذه الظروف التوبة المستمرة أو المتقطعة التي تعترض حياة بعض الصعاليك فيهجرون صعلكتهم ليندمجوا في المجتمع ، ومن هذه الظروف أيضا أن الفقر والحاجة التي كانت تفرض على صعاليك الجاهلية قضاء كل أوقاتهم أو معظمها في الصعلكة طلبا للقوت قد خفت حدتها بعد الإسلام بتيسر الرزق وبسطة العيش فلم يكن الصعلوك الإسلامي في مثل حاجة الجاهلي إلى قضاء حياته متجولا متنقلا وراء لقمة يسيرة من العيش ، بل كان خيرا منه حالا مما لا يضطره إلى التنقل الدائم ، على أن المفانم بعد الإسلام كانت أجدى على الصعاليك منها في الجاهلية ، فقد يقنم الصعلوك غنيمة تكفيه أمدا ليس بالقصير على أننا لا ننسى أن الأخبار في الإسلام كانت في وصولها إلينا أوضح منها في الجاهلية ، وخاصة فيما يحيط بالخلفاء والأمراء ، وهو مجال كانت تفتقده الحياة في الجاهلية ، ونتيجة لهذا الجانب من الألفة بين معظمهم وبين المجتمع ظهر في شعرهم جانب لم يكن ملموسا في شعر صعاليك الجاهلية ، وهو جانب

(١) أنظر خزائن البغدادي ج ٢ ص ١٩ - ٢٢ نقلا عن كتاب اللصوص للسركي .

(٢) أنظر مذهب الخضرى لأغاني الاسفهانى ج ٨ ص ٨٤ والأمالى ج ١ ص ٢٣٦ والمقد القرين ج ١ ص ٦٦ والكامل ج ٢ ص ٨٧ .

(٣) أنظر الأمالى ج ٢ ص ١٣٥ وخزائن البغدادي ج ٢ ص ٤٣ - ٥٢ ومذهب الأغاني ج ١ ص ١٠ - ١١ .

(٤) أنظر مذهب الخضرى لأغاني الاسفهانى ج ٢ ص ٢١٠ .

المدح والهجاء والرثاء ، كما فى مدائح بكر بن النطاح لأبى دلف ومالك بن على الخزاعى وخريز بن عيسى (١) وكما فى مدائح ومراثى أبى الطمجان القينى ممالك بن سعد وبجير بن أوس بن حارثة (٢) وفضالة بن شريك لعاصم بن عمرو يهجو (٣) ، وان كان هذا الجانب يعتبر وهنا فى صلافة الصعلكة وعتوها وتمردا هذه الصلافة وهذا التمرد للذان قامت عليهما الصعلكة وحفظا لها كيانهما وحصناها من الضياع ، كما أنهما كانا من أهم مدعيات مركزهم سواء فى الجاهلية والاسلام ، على أن الذين ظهر فى شعرهم هذا الجانب الاجتماعى من الهجاء والمدح والرثاء عدد محدود ، ومع أن ما ورد منه غير قليل ، الا أنه يبلغ من الكثرة بحيث نعتبره من الطوايع المميزة ، أو المثلة لشعرهم .

٣ ، مما يلاحظ فى وضع الصعاليك الاسلاميين أنهم احتفظوا بالطابع العام لشخصية الصعاليك ، وهو ما أشرنا اليه من الصلافة والتمرد والاعتداد بالذات الى حد الاستهانة بكل شئ فى سبيل هذا الاعتداد ، حتى الموت ، ولذلك تجد من أبرز ما يتردد فى شعرهم جاهلية واسلامية استصغار الموت ، والتحفز دائما لاستقباله كشيء عادى مرتقب ، هذه الصفات المتنوعة من القوة فى أشخاص الصعاليك ، يجمعها اعتبار الصعلوك نفسه قوة مستقلة تآبى على الخضوع والانقياد ، حتى ولو كان شخصا مفردا ليس ذا اتباع أو أنصار ، وحتى لو كانت القوة التى تريد أن تسيطر عليه قوة غالبية فى المجتمع أو متسلطة عليه ، فاذا أحس الصعلوك أنه لن يستطيع الصمود أمام « هذه القوة أو مقاومتها » ، فإنه لن يتردد فى الهجرة الى أى مكان يحتفظ فيه بقوته واستقلاله وعزته ، كما يقول الشنفرى فى الجاهلية « وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى (٤) » ، وكما يقول مالك بن الريب فى الاسلام « وفى الأرض عن دار المذلة مذهب (٥) » ، وليس للصعلوك مكان خاص يميل اليه ، وليس له مجتمع معين يهوى العيش فيه ، فإن هدفه الوحيد هو الاحتفاظ بحريته كما يريد ما هو ، وبقوته كما يصرفها هو ، وبعد ذلك تتساوى لديه الأماكن والمجتمعات ، كما يقول مالك بن الريب قاصدا هذا المعنى نفسه « وكل بلاد أوطنت كبلادى (٦) » ، بل أنه يؤثر الغيافى والقفار اذا جارت مجتمعات البشر على حريته وقوته واستقلاله كما رسمهن لنفسه ومالك ابن الريب يقول فى ذلك :

أن تنصفونا يال مروان نقرب اليكم والا فاذنوا بعباد

- (١) أنظر أمال القال ج١ ص ٢٣٦ ومهذب الأغاني ج٨ ص ٨٤ وما بعدها .
- (٢) أنظر أمال القال ج١ ص ١٠١ ، ج٢ ص ٣٢٥ ومهذب الأغاني ج٢٦ - ٢٨ .
- (٣) أنظر مهذب الأغاني ج٢١٠/٢ .
- (٤) أمال القال ج٣ ص ٢٠٥ اللامية .
- (٥) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .
- (٦) الكامل للمبرد ج١ ص ٣٠١ .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعبس الى ربيع الفلاة صواى (١)
وكما فعل الاخيمر السعدى فى هجرته الى الفيافى المقررة الا من الوحوش (٢)
وان الصعلوك ليؤثر الوحوش (على اختلاف أنواعها وعلى خطورة جريتها) على
بنى آدم اذا ضيقوا على حريته أو حاولوا المساس بعزته كما يقول الاخيمر صعلوك
الاسلام :

عوى الذئب فاستانست بالذئب اذ عوى
وصوت انسان فكسدت اطير (٣)

وقد قال قبله صعلوك الجاهلية الشنفرى :

ولى دوتكم اهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جبال (٤)
والذى يعنيننا من هذا ان صعاليك الاسلام احتفظوا بطابع القوة والاستقلال
الذى تقوم عليه الصلعة وتعزز به ، ولم تستطع قوة أن تخضعهم أو تسيطر
عليهم ، بل فرض بعضهم على كل القوى أن تتردد اليه بعد أن أعياها كعبيد الله
ابن الحر الجعفى الذى أعيا الأمراء والولاة من مثل ابن زياد والمختار والمصعب
ابن الزبير ، واضطر كلا من معاوية وعبد الملك بن مروان والحسين بن على أن
يتوددوا اليه كما أشرنا ، وكما استطاع عبد الله بن سبرة الحرشى أن يجعل
الولاة يستعينون به فى غزواتهم ومناوشاتهم كما قلنا ، فأمثال هذين استطاعوا
أن يفرضوا قوتهم على المجتمع وعلى القوى المتعادلة فى المجتمع ، والذين لم
يستطيعوا أن يفرضوا قوتهم فروا بها الى حيث يكونون فى مأمن ، وإلى حيث
يستطيعون أن يزاووا حريتهم كما يحلو لهم ، كما فعل مالك بن الربيع فى
هروبه من الحجاج (٥) وشبيب بن عمرو فى هروبه من على بن أبى طالب (٦)
وكما فعل سعد بن ناسب الذى ترك داره للوالى يهدمها (٧) وأثر الفرار بقوته
وحريته ، وكما فعل الاخيمر السعدى فى اختياريه حياة الفيافى ومصاحبة
الوحوش على الاستسلام للسلطان (٨) .

وهذه الصلابة التى احتفظ بها الصعاليك واشتهروا بها فى مجتمعاتهم ،
دعمت مكائنتهم فى المجتمع ، واضفت على صعلكتهم كثيرا من الهيبة ، وشيئا

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ وأنظر الكامل للمبرد ج ١ ص ٢٠٠ والاصمعيات
ص ١٢٥ عن صعاليك آخرين .

(٢) أنظر المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) معجم الشعراء ص ٣٧ .

(٤) أمالي القائل ج ٣ ص ٢٠٥ والسند : الذئب والأرقط والنسر والعرفاء الضبع .

(٥) الكامل للمبرد ج ١ ص ٣٠١ .

(٦) شرح الخطيب لمحاسة أبى تمام ج ١ ص ٢٥٢ .

(٧) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٢١ وشرح التبريزي لمحاسة ج ١ ص ١٤ .

(٨) المقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٠ .

غير يسير من التقدير ، بالإضافة الى أن النظرة الدينية التي وصمتهم بالانحراف والشذوذ والتأنيب الشديد ، وإن كانت لم تنجح ، إلا أنها بعد عصر الخلفاء ، وبعد تحذر الفتن في الأمة من كل صوب ، وبعد أن أصبح الصعاليك مجرد جزء من هذه الفتن ، خف لهيب النظرة الدينية اليهم ، لأن هذه النظرة لم تعد مركزة عليهم وحدهم ، بل كانت موزعة على فتن كثيرة ، لم تكن الصعلكة أهمها ولا أخطرهما .

ومن هذه القوة العنيدة التي استطاعوا أن يحافظوا عليها ، والتي كان من أهم وسائل احتفاظهم بها تهيؤ ظروف كثيرة لذلك ، أبرز هذه الظروف أن لم يكن أهمها شيوع الفتن المثلة في قوى كثيرة متصارعة متطاحنة ، من هذه القوة العنيدة انساب شعر كثير لهم ، لا يمثل الشعور بالشذوذ والانحراف ، وإنما يمثل القوة والاعتداد بالنفس ، والشماذي فيهما الى درجة واضحة متميزة .

على أننا في خلال هذا لا ننسى الفارق بين الفترة الأولى من الاسلام ، وما وليها من العصور وبين العصور نفسها في موقفها من الصعلكة ، وتأثر الصعلكة بهذا الموقف ، وإن كانت الروايات غير واضحة كل الوضوح في التحديد الزمني لما ناقته من شعر ، إلا أننا نحس أثر الفترة الأولى من الاسلام في شيوع التوبة بين الصعاليك ، وفي تحدث شعرهم بهذه التوبة وفي ظهور معنى يظهر لأول مرة في شعر الصعاليك وهو الحديث عن السجن والقيود ، حيث أن الذين لم يستطيعوا الهرب وقعوا في طائلة السلطان والشرعية ، فإذا هم في السجون والقيود .

وفي الآية الكريمة التي تقارن بين حال أهل الحرم في أمنهم ، وحال المجتمع الجاهلي فيما عدا الحرم نرى التصوير العميق في قوله تعالى « أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أقبالباطل يؤمنون بوعده الله يكفرون (١) فهذا التعبير « يتخطف الناس من حولهم » يصور لنا حال المجتمع الجاهلي ، ويشير الى أثر الصعلكة فيه . ولذلك يتول الزمخشري في تفسير الآية « كانت العرب حول مكة يفزوا بعضهم بعضاً ، ويتفاوون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون آمنون فيها ، لا يفزون ولا يفار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب (٢) » ومن هذا يمكن أن نتصور الفارق بين الجاهلية والاسلام في حالتهما ، وفي أثر الصعلكة في كل منهما .

أساليبها :

أساليب الصعلكة تتحكم في تحديدها وتوجيهها عدة ظروف ، منها طبيعة الأرض ، وطبيعة المجتمع وحياته . ومنها استعداد الصعلوك نفسه ، ومن هذه

(١) الآية ٦٧ سورة النكبات .

(٢) تفسير الكشاف في الآية السابقة ٣٦٥/٢ .

الظروف ما ظل ثابتا لم يتغير كطبيعة الأرض واستعداد الصعاليك ، ومنها ما طرا عليه كثير من التغيير كحياة المجتمع بجوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا التغيير بدوره لم يكن ثابتا ، وانما اختلف باختلاف العصور والحكام ، وما يسود المجتمع من أحداث .

وحين ننظر الى أساليب الصعاليك الاسلاميين نجد أساليب صعلكتهم تبعا لذلك مختلفة أيضا ، ولكن التغيير الملموس الذي نحسه في الفارق بين أساليب الجاهليين والاسلاميين هو ضعف أسلوب الفارات الى حد الاختفاء في معظم العصور ، وتبعه لذلك اختفاء نقمة الفارات والتمدح بها في الشعر ، فبينما نجد الفارات أبرز ما يتحدث عنه صعاليك الجاهلية ويفخرون به في شعرهم ، وبينما يشيع في الروايات أيضا عنهم حديث الفارة ووصفهم بها ، نجد شعر الاسلاميين يكاد يخلو منها ، ونجد الروايات أيضا تتحاشى وصفهم بالفارات ، وهذا أثر مباشر لما طرا على الحياة الاجتماعية من تغيير ، فبينما كانت حياة القبائل في الجاهلية تقوم على غارات بعضها على بعض بصفة دورية متصلة لا تكف ولا تكاد تنقطع وقد اتخذ الصعاليك من هذه الحياة أسلوبا من أساليب صعلكتهم ، بينما الوضع كذلك في الجاهلية نجد طريقة الفارات تكاد تختفي في الحياة الاجتماعية بعد الاسلام ، ولم تعد الظروف تسمح بانتهاجها فتختفي تبعا لذلك من أساليب الصعاليك ، الا في الظروف الشخصية أو السياسية الشاذة حينذاك ، كما ورد في أخبار عبيد الله بن الحر حينما أحس نقمة معاوية عليه « ثم خرج عبيد الله مغضبا وارتحل الى الكوفة في خمسين فارسا وسار يومه ذلك ، حتى اذا أمسى بلغ مسالح معاوية ، فمنعوه من السير فشدد عليهم وقتل منهم نفرا وهرب الباقيون ، وأخذ دوابهم وما احتاج اليه ، ومضى لا يمر بقرية من قرى الشام الا اغار عليها حتى قدم الكوفة (١) فقد كان هذا الظرف السياسي حينذاك في الصراع العنيف بين معاوية وعلى ، وما استتبعه من ظهور الخوارج والطوائف المنشقة ، والمذاهب المنحلة وما الى ذلك من الظروف الشاذة ، كما أن شخصية عبيد الله بن الحر في شهرته بالقوة ، وانقياد اتباع طيعين له من الظروف غير العادية أيضا ، فقد كان وضع عبيد الله بن الحر في صعاليك الاسلام أقرب الى وضع عروة بن الورد في صعاليك الجاهلية .

والذي يشيع في أساليب صعاليك الاسلام كثيرا قطع الطريق ، كما تحدثوا بذلك في شعرهم ، وكما ورد في وصف كثير منهم بأنه « يصيب الطريق (٢) » سواء أكان الطريق طريق القوافل أم طريق الأفراد ، وسواء أكان المقسم مالا ، أم بضاعة مما تحمل القوافل كما يقول الاحيمر السعدي :

(١) خزنة البغدادى ج٢ ص ١٩ .

(٢) انظر للمثال شرح التبريزى لحسانة ابن تمام ج١ ص ٢٥٢ ومهذب الأغاني ج٨ ص ٨٤

أشكو الى الله صبرى عن زوملهم وما الاقى اذا مسروا من الحزن
قل للصوص بنى اللغناء يحسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليم
قرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

فهو يتحدث عما تحمله الابل من بز وثياب وطرف ، وفى أخبار أبى
النشاش النهشلى أنه كان يعترض القوافل فى شذاذ من العرب بين الحجاز
والشام فى عصر مروان بن الحكم (٣) ، ويتحدث أبو النشاش عن مغامره فيقول
انه يستهدف الجزيل من المفانم ، أى أنه يربأ بصعلكته عن اليسير منها كما
يقول :

وداوية يهماء يغشى بها الردى سرت بابى النشاش فيها ركاثه
ليدرك ثارا أو ليدرك مغنما جزىلا وهذا الدهر جم عجائبه (٣)

وكذلك يبرز من أساليبهم الحديث عن سرقة الابل أيا كان أسلوب سرقتها،
كما يتحدث عن ذلك يزيد بن الصقيل بعد توبته فيقول :

ألا قل لأرباب الخائف أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد (٤)

وكما يقول الاحيمر السعدى فى شعار جعله لنفسه :

وانى لأستحيى من الله ان أرى أجسر حبالا ليس فيه بعير
وان أسال الجبس اللثيم بعيره وبعران دوى فى البلاد كثير (٥)

ومن أساليبهم الفتك بما يوحيه الفتك من فهمهم له وحديثهم عنه ، من
أساليب التفرير والغدر التى تنتهى بحياة المفر بهم فى أغلب الأحيان كما سبق
فى شرح اللفظ ، ومن أساليب الفتك أيضا أعمال المجازفة وركوب المخاطر ، كما
يقول المبرد « والاقدام على الفرر وركوب الخطر ، قد يتحسن عند الفتاك (٦) » ،
وقد وصف كثير من صعاليك الاسلام بأنهم فتاك كسعد بن ناشب (٧) وعبدالله
ابن سبره (٨) وفضالة بن شريك (٩) .

(١) الأمالى للقال ج١ ص ٤٨ والزوامل الابل اذا كانت محملة ، والقطار الابل للقطورة

وراء بعض .

(٢) الأغانى للأصمغاني ج ١١ ص ٤٢ .

(٣) الاصمغانيات ص ١٢٥ وانظر مالك بن الربيع بغزاة البغدادي ج٢ ص ٥١ .

(٤) الكامل للمبرد ج١ ص ٦١ .

(٥) معجم الشعراء ص ٢٧ .

(٦) الكامل ج١ ص ١٢٠ .

(٧) المصدر السابق ج١ ص ١٢١ .

(٨) عن شرح التبريزى للحاسة ج١ ص ١٨٥ .

(٩) مذهب الأغانى ج٢/٣١٠ .

الباب الثاني

الشعراء الصعاليك

من الواضح أننا لا نعتنى من حديث الصعاليك إلا بالشعراء منهم ، وأن الشعراء ليسوا كل الصعاليك ، بل المفروض في غير شك أن الشعراء منهم قلة قليلة بالنسبة لغير الشعراء ، ومن فضل الشعر على التاريخ الأدبي العربي أنه حفظ جانباً كبيراً من حياة الأمة العربية وتاريخها لولا لم يكن ليبلغنا عنه شيء يفتنى ، كما لم يبلغنا عن مجالات كثيرة شيء يفتنى .

أما غير الشعراء من الصعاليك ، فلم يكن هناك ما يدعو الروايات إلى العناية بهم وخاصة بعد الإسلام ، فإن الإسلام يتكر الصعلكة أشد التكرار ، فلم يكن يسع الرواة أن يجعلوا من حديثها لذاته موضوعاً يتناقلونه ويضعونه موضع العلم الذي يتناقلونه تعليماً وأخباراً ، ولكنهم وجدوا من جلال الشعر وتعظيم العرب له مبرراً للعناية بشعر الصعاليك وبعض أخبارهم .

ومن أمثلة ذلك أن مالك بن الريب اقترنت أخبار صعلكته بزميلين له ، أحدهما شظاظ الضبي (١) الذي ضرب به المثل في اللصوصية ، فقبل الص من شظاظ (٢) ، والآخر أبو حردبة المازني (٣) وأبو حردبة هو الذي يقول عنه الراجز وعن مالك :

الله نجاك من القصيم

ثم ومن أبي حردبة الأثيم

ومالك وسيفه السموم (٤)

ولكن مالك بن الريب كان شاعراً ، فعنيت به الروايات ، أما أصحابه فلم يكونوا شاعرين ولذلك ، لم يبلغنا عنهما شيء مفيد ، وهناك صعاليك من غير

(١) خزاعة البغدادي ج٢ ص ٤٢ .

(٢) مجمع الأمثال ج٢ ص ٢٥٧ .

(٣) أنظر مجمع ما استعجم للبكري ج٢ ص ١٠٢٧ .

(٤) المصدر السابق .

الشعراء سالت الروايات عنهم ذكرا خاطفا لارتباطهم أو ارتباط أسماهم بشئ آخر ، كثنى الشنة وهب بن خالد قاطع الطريق ، فملازمة الشنة وهى القرية له كانت فى ذاتها حديثا ، وسببا فى تعرض معاجم اللغة لذكره فى سياق شرح الشنة (١) ومن الأدلة على أن الصعاليك غير الشعراء كانوا أكثر بكثير من شعرائهم ما ورد من أن أبا جندب الهذلى حين أراد أن يثار لأخيه الأسود بن مرة من بنى لحيان ، وعاد كل خليع وفاتك أن يأتوه فى موعد ومكان معينين ليغير بهم على بنى لحيان (٢) ومعنى ذلك أن هؤلاء الصعاليك من الخلفاء والفتاك الهذليين كانوا عددا كبيرا ، فى حين أنه لم يبلغنا من أخبارهم إلا أخبار أبى خراش والأعلم وصخر الفنى ونفر قليل ، وذلك لأن هؤلاء كانوا شعراء .

وسياق الحديث عن الشعر يجعلنا مضطرين إلى التمييز بين الشعراء الجاهليين ، وللخضرمين والاسلاميين منهم ، لما لهذا التحديد الزمنى ، وما يرتبط به من نظام الحياة والمجتمع من أثر فى الشعر .

والواقع أن الحديث عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم يحيط به كثير من الالتواء والتبشتر ، والباحث فى هذا المجال يجد مشقة أى مشقة فى الوصول إلى صور واضحة عن هؤلاء الشعراء وعن أشعارهم نتيجة لضعف التاريخ العربى القديم واضطرابه فيما يتعلق بالأفراد وبخاصة إذا لم يكن لهم وضع بارز فى الدين أو السياسة ، وعلى الأخص هؤلاء الصعاليك ، فلولا ما تميز به الاسلام من سيطرة وبسطة وسعة فى الأفق والفهم للأمور ، لكان الحديث عن الصعاليك فى ذاته جريمة ، لأن الصعلكة نفسها جريمة أى جريمة فى الاسلام . ولكن سلاحين قدّرع بهما العلماء فى تداول رواياتهم ، أحدهما هذه البسطة والسعة فى فهم الاسلام للأمور مما لا نرى ما يدعو للإفادة فى حديثه ، ولكن يجعله مثل شعار العلماء فى هذا المقام من قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر ، فالمتمكر شئ » ، والحديث عنه وروايته شئ آخر ، والسلاح الثانى هو تعظيم العرب للشعر وجعله ميدانا للتنافس بينهم ، ثم اقرار الاسلام للشعر واعترافه بهذه المكانة له ، هذان العاملان كان لهما الفضل فيما نعتقد فى مجرد وصول أخبار الصعاليك إلينا .

ولكن هذه الأخبار لكونها معتمدة على الروايات ، ولما يفرض فى الروايات من اختلاف الرواء فى قوة ذاكرتهم ، وفى دقتهم فى النقل تعرضت لاضطراب وتعارض واضحين فى شعر الصعاليك ولذلك نجد معظم شعرهم تختلف فيه الروايات ، ومما يلفت من هذا الاختلاف أن معظم الخلاف منصب على الألفاظ ، وأقله ما يصيب المعانى كما سيأتى .

والذى يعيننا هنا هو أن نقول أننا حين نتحدث عن الشعراء الصعاليك لانزعم أننا نستطيع الحصر على وجه اليقين ، لأن هؤلاء الشعراء وأخبارهم متفرقة بل

(١) انظر القاموس المحيط مادة شنة ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) سجع البكرى ج ٢ ص ٥٣٠ .

متناثرة في كل الكتب القديمة تقوياً ، سواء أكانت كتب تاريخ ، أم كتب ادب ولغة ، أم كتب معاجم ، ولا نستطيع أن نزع ، ولا نعتقد أيضاً أن هناك من يستطيع أن يزعم أن في وسعه أن يلم بجميع الكتب العربية ليستقصى كل ما فيها عن الصعاليك .

ومما يزيد موضوع الصعاليك صعوبة أنه موضوع لا زال بكراً ، وأول من أفرد الصعاليك ببحث خاص هو أبو سعيد السكري في كتاب اللصوص ، وقد أخذ عنه كثير من العلماء كالبغدادي في خزائنه ولكن منهج السكري لم يتصل ، ولم يجد من العلماء من يواليه ، واقتصر الحديث عنهم على الاستشهاد بابيات أو أخبار متفرقة في معظم الأحيان ، يتبين منها أنها غير مقصودة لذاتها ، وإنما لتأييد ما هي مسوقة من أجله ، ولو قد وجد السكري من يواليه لكان في تضافر العلماء والباحثين ما يبرز لنا صورة واضحة أو قريية من الوضوح محددة أو قريية من التحديد فيما يتعلق بأشخاص الصعاليك وشعرائهم ، فيما يتعلق بأخبارهم وأشعارهم وفي برد كل ذلك إلى الوضع الصحيح من التحديد الزمني ، ونسبة كل شاعر وشعره وأخباره إلى عصر معين وزمن معين ، ولكننا نتيجة لعدم تحقق ذلك نجد عناء في نسبة شعراء الصعاليك إلى عصورهم وأزمانهم التي عاشوا فيها ، ولئن كنا نستطيع أن ننسب كلا منهم إلى الفواصل الرئيسية في التاريخ العربي من الجاهلية والحضرة والإسلام ، فإننا نعني بما هو أبعد من ذلك في الدقة ، من نسبة الجاهلي إلى عصر أو جيل معين في الجاهلية ، ومن الفصل الدقيق بين الشعر الجاهلي والإسلامي بالنسبة للمخضرمين ، بمعنى أننا حين ندرس شعر المخضرمين لا نجد الوسيلة الدقيقة أو الروايات التي ترشدنا إلى فصل الشعر الذي قالوه في الجاهلية عن الشعر الذي قالوه في الإسلام ، إلا إذا كان الشعر نفسه يتضمن ما يوحي بذلك ، أو كان يرتبط بحادث عرفت نسبته إلى الجاهلية أو الإسلام ، ومع ذلك فقلما نجد هذه الاعتبارات ، ومن نسبة الصعلوك الإسلامي إلى عصر أو جيل معين في الإسلام وإن كان هذا الجانب أوضح الجوانب في موضوع الصعاليك ، أو بمعنى أدق ، أقلها في الغموض .

ولهذا كله لم يلق موضوع الصعاليك إقبالا من الباحثين المحدثين ، مع سعة البحوث الأدبية وتشعبها في العصر الحديث ، فبصرف النظر عن المقالات على تدرجها ، والفصول الموجزة العجلى والمسوقة ضمن موضوعات أخرى (٢) . لا نعلم بحثاً أخرجه المطابع إلا بحث « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » للدكتور يوسف خليف عن جانب واحد من الموضوع كما يبين من عنوانه ، هو الجانب الجاهلي .

(١) للمثال انظر خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ ص ١٩ ، ٢١ .

(٢) مثل ما جاء في فصل الفن والفقر بكتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ص ٢٢١ - ٢٣٤ وبضى للقرات بكلية اللغة العربية وحديث كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي عن بضى الصعاليك كالشعري وتابط شراً وعروة بن الورد .

فحين نتحدث اذن عن الصعاليك لا نجد مفرا من الاعتماد الكامل على
التراجم العربية القديمة ، متنقلين بين اشتاتها ومتناثراتها ، بل وكلماتها الخاطفة
التي لا عن الصعاليك ما وسعنا التنقل ، راجين الا يكون القصور - ان كان -
شديدا .

وحيث ان تراجم الشعراء لا تعيننا لذاتها في هذا الموضوع ، لذلك نكتفي
منها بما يميز الشاعر عن غيره ، او يحدد مسافات ، في أقصى ما يستطيع من
اليجاز ، تاركين التفاصيل بعد الاشارة الى أهم مصادرها ومراجعتها لمن أراد
الرجوع .

الجاهليون

١ - الشنفرى :

نشأ في أزد اليمن ، ولكن بنى شبابه بن فهم أسروه صغيرا ، قتل فيهم
حتى أسر بنو سلامان بن مقرج رجلا من بنى شبابة ففدوه بالشنفرى ، فعاش في
بنى سلامان بتجد أسيرا كالعبد ، أو عبدا كالأسير ، حتى تعلق بفتاة هى بنت
الرجل الذى يعيش عنده ، وأراد أن يتزوجها فأققت من ذلك ، وأذنه ، وأحسن
المعاملة فى مقامه بين بنى سلامان فلجأ الى الصعلكة ، واستغل معظم نشاطه فيها
فى الانتقام من بنى سلامان ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، والشنفرى
هو الذى يضرب به اللثل فى سرعة العدو الذى يسبق الخيل ويضرب به المثل فى
اللفق والدهاء ، وهو ابن أخت تأبط شرا رغم أنه أكبر منه سنا ، وكان أحد
رفقة ثلاثة ، اشتهروا بأنهم من أقوى الناس وأعداهم ، هو وتأبط شرا وعمرو بن
برلفة وهو أحد شخصين لكل منهما ديوان شعر ، هو وعروة بن الورد ، وإن
كان ديوانه هو لم يصل إلينا منه الا أقله ، وهو صاحب لامية العرب ، التى يعتز
الشعر العربى كله باحتوائه على مثلها ، والتى فتنت المستشرقين فأولعوا بها
وترجمتها ، حتى ترجمت الى نحو خمس لغات أجنبية ، والتى حظيت منذ القديم
بأعجاب الأدباء والنقاد ، حتى أفرد الزمخشري لها كتابا لشرحها هو « أعجب
العجب فى شرح لامية العرب (١) » ويجعل بعض الباحثين شعره فى المرتبة الأولى
من حيث التمثيل والتصوير .

(١) انظر هذه الأخبار وغيرها عنه وعن شعره متفرقة فى المصادر الآتية : جميع الأمثال
١٦/٣ والحدائق الفريدة ٢٠/١ وأمال الغلال ٢٠٥/٣ و ١٥٥/١ وشرح القصصيات ص ١٠٨ وشرح
حاسة ابن تيمية للشمس ١٨٧/١ والكامل للمبرد ٧٩/٢ وتاريخ الأدب العربى لكارول بروكلمان

٢ - تابط شرا :

هو ثابت بن جابر الفهسي ، خال الشنفرى ، واحد الثلاثة السابقين الذين اشتهروا بأنهم أقوى وأعدى من عرفهم زمانهم ، وقد بلغ من اعتداده بنفسه وبقوته وعدوه أنه كان يغير وحده على رجله ولا يهاب أحدا ، والذي عدوه من أبطال البدو المعدودين ، حتى أن قصص مغامراته وأقدامه تشبه الأساطير ، وإن كان معظمها موضع اتفاق بين الروايات مما يحل على تصديقها ، والذي عرف مع شدة بأسه وصرامته ، بالمهارة البارة فى التخلص من المآزق البالغة الخطورة ، والتي لا يتاح الخلوص منها الا لشخص وهب حظا عظيما من الذكاء وسرعة البديهة والعدو المحارق للعادة فى قصص كثيرة لا تكاد تختلف عليها الروايات ، وقد سجل معظمها فى شعره ، وكان مع ذلك من مشاهير الشعراء المجيدين (١) ، وأمه تصف للناس طريقة تربيته إياه وكأنها أحست تساؤلهم عن سر ما أوتيته من صفات لم يألّفوها فى غيره ، فهي تسوق لهم جانبا من تحليل ذلك كما روى الجاحظ فى قوله « رويوا جميعا أن أم تابط شرا قالت : والله ما ولدته يتنا ، ولا سقيته غيلا ، ولا أبته على مآفة ، وقد شرح الجاحظ هذه الألفاظ بأن اليتن خروج المولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ، وأن الغيل ارتضاع لبن الحبل وذلك فساد شديد ، وأن المآفة هي مضمون العنف والحق من الأم فى ترقيص إبتها واعداده للنوم بطريقة مفزعة لا رفق فيها (٢) ، مع أن بعض الروايات تنهم أمه بالتواطؤ مع زوجها أبى كبير الهذلى على قتل تابط شرا ، وهو غلام ناشئ ، حينما توقع أبو كبير الشر من تابط شرا ، وأحس بالحق فى نظراته نتيجة لكثرة دخوله على أمه ، وقد استدرجه أبو كبير الى حيث يلقي هلاكه فى إحدى الغارات حتى انتهى

١٠٤/١ وما بعدها وأعجب العجب فى شرح لأمية العرب للزمخشري وأمال القالى ٣٦/٢ والشوامخ لمحمد صبرى ص ١٢٥ ومهذب الأغاني الأصفهاني ٩٥/١ ومعجم ما استعجم للبكرى ٤٢٩/٢ ، ٥٥٩ ، ٢٤٩/١ و ٩٤٦/٣ و ١٣٩٢/٤ والحيوان للجاحظ فى سبعة مواضع (بالفهرس المجمع) وخالف صاحب القاموس فعده فى الاسلاميين مادة (غرب) والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥/١ .

(١) انظر تفصيل ما سبق وأحداثا وأخبارا عنه وعن شعره فى المصادر الآتية : مهذب الأغاني للأصفهاني ٢٢٤/١ وأمال القالى ٣٨/١ ، ١٣٤/٢ ، ٢٧٨ ، وتنبيه البكرى على أوهام القالى ص ١٠٨ ومعجم الأمثال ٤٦/٢ وخزانة البغدادى ٩٣/١ ، ١٣٩/٩٥ ، والمفضليات للضبي ص ٢٧ والاصمعيات ص ١٣٥ وحساسة أبى تمام ١٦/١ ، ١٩ ، ٢١ ، ١٨٩ ، ٣٤٢ ، وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١٠٤/١ والعقد الفريد ٣٤/١ ، ١٢٧/٣ ، ومعجم ما استعجم للبكرى ١٨٧/١ ، ٢٣٠ ، ٢٥٧ وبه قصة قتله الغول وشعره فى ذلك و ٣١٨/١ ، ٤٠٠/٢ ، ٤٢٤/٢ وبه قصة مقتله ، ٥٠٨/٢ ، ٦٣٨/٢ ، ٦٤٦ واحد عشر موضعا آخر (بالفهرس المجمع) والحيوان للجاحظ ٦٣/١ ، ١٨٢ ، ٦٨/٣ ، ٢٥٥/٦ على شك فى نسبة شعر له فى هذا الموضع ، ٤٥٠/٦ (على شك أيضا) ، ٢٨٦/١ رثاء أمه إياه وعده القاموس المحيط اسلميا مادة (غرب) وهو غير صحيح والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٨٦/١ وشرح القصائد السبع لابن الانبارى ص ٤١ مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

به الى عدوين له ، ولكن أبا كبير رجع أكثر خوفا من تابط شرا وأشد فرقا حينما وجده قتل عدويه وعاد بطماهما (١) ، وليس من اللازم أن نعتقد أن أمه توطأت مع زوجها في هذه المؤامرة ، فيجوز أن يكون أبو كبير منفردا بها ، أو أنه نسب الى أمه الاشتراك ليخفف من جرمه ، وعلى فرض صحة الرواية كلها ، فليس من اللازم أن تكون متعارضة مع حديث أمه عنه ، ووصفها لتربيتها إياه .

٣ - السليك بن عمر السعدى :

وهو المشهور بالنسب الى أمه السلركة ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه كانت أمة سوداء فورث عنها لونها ، وكان لذكره وشهرته دوى في أنحاء الجزيرة كلها ، حتى أن عمرو بن معد يكرب يقول (ما أبالي أى طعينة لقيت على ماء من أمواء معد ما لم يلقتنى دونها عبداها أو حراها) وتعنى بأحد العبيدين السليك ، وقد ضربت به الأمثال التى بلغت من الشهرة فى أنحاء الجزيرة كلها حدا بارزا فلا يعد بضعة نفرا ولا ويكون السليك أحدهم سواء فى سرعة العدو أو فى مضاء العزيمة وشدة البطش أو فى الشجاعة والفروسية ، فالروايات تصفه بأنه أحد العدائين الأربعة فى العرب ، وأحد الغربان الثلاثة ، وأحد خمسة يصفهم الجاحظ بقوله : « فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلبا وأشجعهم بأسا ، وبهم يضرب المثل (٢) ، حتى فى الخيل المشهورة عند العرب كان يسهم فيها بفرسه المشهورة بالنحام » .

وقد شمل نشاطه فى الصعلكة أرجاء واسعة من الجزيرة حتى أنه كثيرا ما كان يغير فى أنحاء اليمن مع أن موطنه فى تميم باليمامة ، ولكثرة غاراته اشتهر بأنه « سليك المقائب ، والمقائب جماعات الخيل ، وقد استطاع بهذه المقومات التى اقترنت بشخصيته الفذة فى مجالها أن يرفع من خسيسته التى ورثها من سواد أمه ورقها ، فبدل ان كان موضع المرتقب بين العبيد ، أصبح فى موضع الهيبة والتقدير والاعجاب اللاتى لم يحظ بهن فى جيلة سوى النفر المحدود ، وكان من أبرز مواهبه قوة شاعريته التى جعلته من الشعراء البارزين المجيدين فى عدة مجالات ، والذين يتردد شعرهم فى سائر أنحاء شبه الجزيرة (٣) .

(١) شرح التبريزى لحاسة أبى تمام ج١/ ١٩ .

(٢) رسائل الجاحظ ١٩٢/١ .

(٣) أنظر ترجمته وتفاصيل أخباره وأشعاره فى مجمع الأمثال ١/٢ ، والمقد الفريد ٧١ ، ٢٥٠ وأمال القاتل ١٨٦/٣ ، وشرح التبريزى لحاسة أبى تمام ٣٧٨/١ وخزانة البغدادى ٨٩/١ والكمال للمبرد ٣١٠/١ وشرح المنطليات لابن الأنبارى ٧٠٤ ، ٧٠٥ والكمال للمبرد ٥٧/٢ ودائرة معارف البستاني مادة (سلك) ومجمع الأمثال ٣٠/١ ، ١١/٢ ، ٤٧ ومصادر التخصيص ٣٠/٤ ونبذة الدمر للشعالي ١٢٣/٤ والحيوان للجاحظ ١٨/١ ورسائل الجاحظ ١٩٢/١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ ومجمع ما استعجم للبكري فى مواضع كثيرة منها ١٠٨٠/٣ ، ١١٧٠/٤ ، ١٣٣٩ والقاموس المحيط مادة (نعم) ومادة (غرب) .

٤ - عروة بن الورد العبسي :

أمتاز عروة بأنه أضفى على الصعلكة كثيرا من الاحترام والتقدير سواء أكان في عصره الجاهلي أم فيما يليه من بعض عصور الاسلام ، وذلك بما تحلى به عروة من خلق فريد في السخاء والعطف الشديد على الفقراء ، واعتبار نفسه مستثلا عن تفريغ كرباتهم وضوائق العيش عنهم ، ثم في تواضعه الشديد معهم ، وتطبيق أكرم صور الاشتراكية معهم سواء في بذله ما عنده لهم ، أو في مقاسمتهم أيام غنائه في عزواته وغاراته من أجلهم في قصص وأخبار كثيرة أفاضت فيها الرواة وكتب القدامى ، ولذلك لقب « عروة الصعاليك » ، ويريدون بالصعاليك في هذا اللقب الفقراء ويعملون دائما سبب هذا اللقب بأن عروة كان يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم ، ثم يسوقون أخباره في ذلك . ولذلك يقول عنه عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد ، ويقول أيضا : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني ولدني الا عروة ابن الورد لقوله :

واني امرؤ عافى انانى شركة وانت امرؤ عافى اناءك واحد

ولذلك يقول معاوية بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ومن أخباره أيضا أن ابنا للحصين بن الحمام أتى باب معاوية ابن أبي سفيان ، فقال لحاجبه استأذن لي على أمير المؤمنين ، وقال : ابن مانع الضسيم ، فاستأذن له فقال له معاوية : ويحك ، لا يكون هذا الا ابن عروة ابن الورد العبسي أو الحصين بن الحمام المرى ، أدخله .

وقد اقتضت منه هذه السباحة في خلقه ، وهذا التزام من الفقراء والصعاليك على بابه أن يكثر من غاراته وأن يبعد في أرجاء الأرض طلبا للغنائم والأسلاب .

وهو الوحيد من بين شعراء الصعاليك الذي وصلنا ديوان مطبوع له (١) جمعه ابن السكيت وكان من الشعراء الكثرين ، ويمكن أن يعد أكثر شعراء الصعاليك تناولا لأغراض مختلفة وقد عده أبو عبيدة في الطبقة الثالثة من الشعراء وعده صاحب جمهرة أشعار العرب من الشعراء ذوي القصائد المنتقيات وهو من الشعراء القليلين الذين كان لشعرهم تأثير في حياة الاجتماعية ، ولذلك يقول الخطيب لعمر بن الخطاب حينما سأله عن قومه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف حازم ، قال : وكيف ؟ ، قال : كان منا قيس بن زهير وكان حازما لا نعصيه ، وكنا تأتم بشعر عروة بن الورد ، وقدم بأقدام عنترة . وكان عبد الله ابن جعفر يوصي معلم ولده ألا يعلمهم قول عروة :

(١) للشنفرى ديوان مخطوط بدار الكتب المصرية وينقل بعض الباحثين أنه مطبوع انظر

الشعراء الصعاليك د. يوسف خليف .

فونى للفتى اسعى فانى رايت الناس شرهم الفقير

ويقول : ان ذلك يدعوهم الى الاغتراب عن اوطانهم (١) .

٥ - قيس بن مقلد السلولى الخزاعى :

وهو المشهور بابن الحدادية ، وهى أمه ، وكان ذا بأس شديد ، وكان من الفتاك ومن شجبان الصعاليك ، وقد كثرت غاراته ، وثقلت جناياته على قومه فخلعوه ، وأشهدوا على خلعه بسوق عكاظ على ألا يحتلوا جريرة له ، ولا بطلون أحدا بجريرة يجرها على قيس ، ولكن ذلك لم يفت فى عزمه ، ولم يصرقه عن غاراته وجناياته ، بل ازداد ضراوة وشراسة ، وجعل قومه هدفا من أهداف غاراته . وأصبح مأوى للصعاليك والشذاذ والخلعاء ، يغير بهم ويعتمد على بأسهم ، وكانت له مواقف يمثل فيها خلق السيد الكريم ، لا الصعلوك الخليع ، كقصه الفنائم التى استاقها فى غارته على بنى قمين من قومه خزاعة ، حينما ناشده ابن محرف أن يرد ما استاقه من غنائم ، فقال له قيس : أما ما كان لى ولقومي فقد أبررت فسمك فيه ، وأما ما اعتورته أيدى هذه الصعاليك فلا حيلة لى فيه .

وله شعر كثير ، يبرز فيه جانب الغزل وجانب الفخر بقومه قبل أن يخلعوه ، بالإضافة الى شعره فى محيط الصعلكة (٢) .

٦ - مالك بن حريم الهمداني (٣) :

مع ان الروايات تصفه بأنه من لصوص همدان ، الا أن أخباره تنبئ عن أن أسوبه فى الصعلكة كان يعتمد على الغارات أكثر من التلصص ، ومع ذلك

(١) انظر ترجمته واخباره وشعره فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٩ - ١٦٠ ، وشرح ابن السكيت لديوان عروة ، وديوانه ، وأمالى القائل ٢/٢٣١ ، ١٨/٣ ، ٥٩ ، ٢٠٠/٢ .
(٢) ٣٨ - ٣٥ وحماة أبى تمام ١/١٥٩ ، ١٧٧ ، ٣٠/٢ ، ٢٥٨ ، ٣٠١ وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١/١٥٩ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ١/١٠٩ والكامل للمبرد ١/٧٨ ، ٣٦٢ والقاموس المحيط مادة (صعلك) ومعاهد التنصيص ٣/١٢١ والكامل ١/٣٦١ وجمهرة أشعار العرب للقرشى ص ٣٤ والعمدة لابن رشيقي ٢/٣٥ والجوهر للجاحظ ٢/٢٧٢ ، ٣٥٦/٤ ، ٢٠٩/٦ ولبيان والتبيين للجاحظ ١/٢٢٤ والأغانى للأصفهاني ٢/١٤ ، ٦٦/١٣ ، ٣٧/٣ - ٣٨ ٢٢ - ٨٨ ومعجم البكرى ٣/٧٣٧ ، ٨٩٢ ، ٩٩٩ ومواضع أخرى .
(٣) انظر ترجمته وشعره واخباره فى الأغانى للأصفهاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٣) اختلف فى ضبط حريم والأدراج أنه يفتح الحاء المهملة وكسر الراء ، وروى حريم بالحاء وحزيم بالزاي وسماء البحتري فى حماسته خطأ ملك بن حريم .

فان شعره ينبىء عن شخصية قوية كريمة تلتزم منهج الخلق الحميد فيما تقتضيه الصلات الاجتماعية ، حيث نجد شعره يركز على الحديث عن الخلق والعفة والدعوة اليهما ، ويعد النقاد من فحول الشعراء ، وهو من القليلين الذين رويت لهم قصائد طويلة من شعراء الصعاليك وقد روى له الأصمعي في أصمعياته احداها وتبلغ أربعين بيتا ، وكانت بينه وبين عمرو بن معد يكرب مناسفات شعرية (١) .

٧ - صخر الغي الهذلي :

هو صخر بن عبد الله الحيثمي من هذيل ، كان مع اخوته صخير والأعلم وأبى عمر يكونون عصابة عتية عنيدة ، دائبة النشاط والغزو ، وقد ساقط لهم الأخبار قصصا طريفة في حسن التخلص والتمويه على الأعداء ، وكانوا من العدائين .

ويغلل الأصفهاني سبب تلقيب صخر بالغي بقوله « ولقب بالغي لخلاعه وشدة بأسه ، وكثرة شره » ، وبلغ من شدة بأسه واعتزازه بشجاعته انه حينما أحاط به أعداؤه من بني المصطلق أبى أن يسام نفسه اليهم ، أو أن يحاول النجاة منهم ، بل ظل يقاتلهم ، ويرتجز بشعر مؤثر ، حتى قتل .

وكان شاعرا قويا عميقا ، أبرز شعره شعر الصراع مع أعدائه ، ومنافراته مع عدوه أبى المثلث ، وشعر الطبيعة الذي يعكس حياته في الصعلة .

ولئن كانوا يقولون في أمثالهم « الفضل ما شهدت به الأعداء » فان في شهادة أبى المثلث لعدوه صخر ما ينبىء عن خلق صخر وشخصيته ومركزه في المجتمع ، فحينما قتل صخر رثاه أبو المثلث بقوله :

| | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| لو كان للدهر مال عند مثله | لكان للدهر صخر مال كنيان |
| أبى الهضيمة ناب بالعظيمة | متلافى الكريمة لا سقط ولا وان |
| حامى الحقيقة نسال الوديقة معتاق | الوسيقة جلد غير ثيان (٢) |
| ربد مرقبة مناع مقلبة | ركاب سلهة قطاع أقران (٣) |

(١) انظر ترجمته واخباره وشعره في الاغانى للأصفهاني ٢٥/١٤ وأمال القالي ١٢٠/٢ ، وساسة ابى تمام ٣/٢ والميوان للجاحظ ٢١٠/٢ وشرح الاصمعيات عن ابن الاثير ص ٥٦ - ٦٣ وشرح التبريزي للحماسة ٣١/٢ ، ٣٢ ، والاصمعيات ٥٦ - ٦٢ والعمدة لابن رشيق ٢٠/١ ،

(٢) الحقيقة : الراية والحرمت والوديقة الحر الشديد أى يسرع المسير في الحر الشديد والوسيقة الايل .

(٣) الرياء المشرف من مرتفع والرقبة للنظرة في رأس الجبل والمسلهية الفرس الذكر العظيم . والابيات في العمدة لابن رشيق ٣٦/٢ والبيان والبيان للجاحظ (هامش) ٣٢٦/٣ .

هباط أودية جمال الوية شهاد أندية سرحان فتيان
يعطيك ما لا تكاد النفس تسلمه من التلاد وهوب غير متان

وزاد الاصغفاني عليها البيتين التاليين :

يعنى الصحاب اذا جد الضراب ويكفى القائلين اذا ما كبل العاني
وينرك القرن مصفرا انامله كان في ريطيه نضغ ارقسان (١)
وفي هذه الابيات من اوصاف القوة والشجاعة ، والخلق والمروءة والسماحة
ما يكفي لرفع صخر الى صفوة البارزين في مجتمعه (٢) .

٨ - عمرو بن بركة الهمداني :

غلبت عليه نسبته الى أمه بركة ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني
وكان رفيقا للشنفرى وتأبط شرا في الصعلكة وعمرو يعتبر من الأشخاص
القليلين الذين يعتبرون نموذجا لشخصية الصعلوك القوى العنيد ، الذي
لا يصدم عن عزمه شيء ، ولا تقف في طريق أهدافه عقبة ، وقصته مع حريم
الهمداني مثال لذلك ، حيث أغار حريم فسطا على ابل لعمرو ، وكان حريم
مخوفاً رهيباً ، فصمم عمرو على أن يغير عليه وقد حذر بعض الناس بقولهم
« لا تعرض لتلفات حريم » ولكنه أنفذ عزمه ، وأغار على حريم فاستاق كل شيء
يمتلكه حريم ، وقد أخذته نشوة النصر ، فأنشأ قصيدة رائعة ، بل كل بيت
قيها رائع . ومنها هذه الحكمة التي كان العرب يعتبرون مضمونها شعاعاً لهم
وهذا ، والتي لم تزدها العصور حتى اليوم الا اجلالاً لها وإيماناً بها وهى :

متى تجمع القلب الالكى وصاروما وانما حميا تجتنبك المظالم (٣)
ومنها هذا البيت الذي يعتبر الصعاليك مضمونه شعاعاً وهذا لهم ، وهو :
ومن يطلب المال للمنع بالقنا يعيش ذا غنى او تخترمه المخارم (٤)

(١) الأرقان اليرقان يعنى نصفرة والبيتان والأبيات السابقة في الأغاني ٢٠/٢٠ مع اختلاف
يسير في الاطلاق .

(٢) أنظر ترجمة صخر وأخباره وشعره في الأغاني ٢٠/٢٠ ، ومهذب الأغاني ١٨٥/٢
وغزاة البشعلى ٤٢/١ وأمال القنالى ٢٠٤/١ ، ٢١٠ وزهر الآداب للمصرى ٢٢٩/١ ترجيحاً
وعيون الهذيلين ٥١/٢ والبيان ٢٧٥/٢ والعمدة ٣٦/٢ ونهاية الأرب للنويرى ٢٠٥/٦

(٣) أنظر عبد السلام هارون وأحمد شاکر محققا الاصمعيات في نسبة هذا البيت الى مالك
بن حريم في شرح الاصمعيات ٥٦ حيث قال « ومالك هذا هو صاحب البيت السائر الحكيم :
متى تجمع اللاب .. الخ » والبيت من قصيدة ١٩ بيتاً ذكرهما القنالى في الأمالى ١١٩/٢ والاصغفاني
أنظر الأغاني (بالقهرس) ومهذب الأغاني ٩٢/١ وفي المقد الفريد ٣٤/١ هذا البيت وبيتان معه
ومعهم البكرى ٣٦٣/٢ وكل المصادر تنسبها لعمرو بن بركة .

(٤) القنا جمع قنات والمخارم سبل للوت .

وقد تمثل الحجاج ببعض القصيدة في خطبته التي توعده فيها أهل العراق (١) وكان ابن بركة من العدائين المشهورين بأنهم لا تلحقهم الخيل ، وفيما تسوقه الأخبار من قصص عدوه مع الشنفرى وتابط شرا ، وفي صراع هذا العدو مع الأعداء والمغار عليهم كثير من العجب والطرافة (٢) ، وقد عده صاحب العقد الفريد من فرسان العرب المعدودين في الجاهلية (٣) .

٩ - الأعلام الهدلى :

اسمه حبيب بن عبد الله من هذيل ، وهو أخو صخر الغي ، ولئن كان صخر أقوى منه في الشاعرية ، فإن الأعلام كان أقوى من صخر في الصلابة وبدو من أخباره أنه كان يتزعم العصاة التي كانت تعتمد من حيث أفرادها على صخر وصخر وأبي عمرو ، وكان الأعلام من العدائين البارزين ، ويبدو اعتزازه بهذه الميزة في شعره ، كما أن حياة الصلابة وما تقتضيه من ارتياد القفار جعلت منه وصافا مجيدا لحيوانات الصحراء ووحوشها ، ويمتاز شعره بصفة عامة بالجودة البارزة في تصوير البيئة ومشاهداتها .

١٠ - عمرو بن عجلان :

اسمه عمرو بن عجلان بن عامر جار هذيل ، واشتهر بعمرو ذى الكلب لأنه كان يصطحب دائما كلبا له ، كما يقول ابن الأعرابي ، أو لأنه اصطحب كلبا للصيد فتودى إذا الكلب فغلب عليه واقترون به ، كما يقول أبو عبيدة ، وكان كثير الغزو والغارة وخاصة على بني فهم ، وشعره القليل الذي بلغنا ينبىء عن سيطرة حب الغزو والتنقل عليه ، ويروون في سبب موته أنه نام ذات ليلة في غزوة لبني فهم ، فوثب عليه نمران فافترساه ، فادعت فهم قتله ، وأخته جنوب تصفه لنا في رثائها إياه في شعر كثير (٤) ، منه قولها :

(١) البيان والتبيين ١٢٨/٢ وتمثل بالبيت الأول (متى تجمع القلب .. وبيت آخر هو : إذا قوم غزوني غزوتهم .. فهل أنا في ذا يالهمدان طالم ؟ وفي الامال ١١٨/٢ حريم المرادى وليس الهمداني .

(٢) أنظر مجمع الأمثال ٤٦/٢ والمصادر السابقة ، وسماء صاحب مجمع الأمثال ابن براق وهو غير دقيق لأن بركة أم عمرو .

(٣) أنظر العقد الفريد ٣٤/١ (باب فرسان العرب في الجاهلية والاسلام) .

(٤) أنظر ترجمته وشعره وأخباره في شرح السكري لديوان الهذليين ٧٧/٢ وديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٨٨ ومهذب الأعاني ١٨٥/٢ والحيوان للجاحظ ٣٣٦/٤ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٧٥/١

فاقسم يا عمرو لو نبهاك اذا نبها منك داء عضالا
اذا نبها ليث عريسه مفتا مفيدا نفوسا ومالا
وخرق تجاوزت مجهوله بوجنه حرف تشكي الكلالا
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا (١)
وفى شعر آخر لها تقول منه :

الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها مشعجر من نجيع الجوف اسكوب
والتارك القرن مصفرا انامله كانه من رجيع الجوف مخضوب (٢)

وصاحب الأمالي يسوق ما يفهم منه ان عمرو بن عجلان كان من صرعى الغرام ، وانه ضرب به المثل في كونه قتيل الحب (٣) ، وما ذكره السكري في سبب موته من أن بنى فهم أرصدوا له على ماء حتى قتلوه (٤) انسب من الروايات الأخرى ، ويؤيده شعر أخته في ديوان الهذليين ، ولعل الذى أدخل اللبس قول أخته قبل الأبيات السابقة الأولى « أتيج له نمرأ أجبل » (٥) ويمكن حمله على تشبيه القاتلين بالنمرين .

١١ - حاجز بن عوف الأزدي :

من العدائين الذين اشتهروا بأنهم يسبقون الخيل ، ومن الصعاليك الذين سلكوا أسلوب الغارات فلاخبار تصفه بأنه كان من المغيرين على قبائل العرب وشعره يظهر فيه الاعتداد بسرعة العدو على رجله ، ومع ذلك كان من أصحاب الخيل التى نالت شهرة فى العرب فقد كانت له فرس اسمها ذئبة ، وكان حليفا لبني مخزوم ، وله شعر يعتز فيه بحلفهم ، وكان موته مجهول الموضع والسبب حيث خرج فى بعض غزواته فلم يعد ، ولم يظهر له أثر ، ولاخته شعر فى رثائه ، ويصفه صاحب الأغاني بأنه « شاعر جاهل مقل ليس من مشهورى الشعراء » ويصفه أيضا بقوله « وكان حاجز مع غاراته كثير الفراء » وقد وصفته عمته فى رثائها اياه بقولها « كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف ، ولا ينام ليلة يخاف » (٦) .

(١) العمدة لابن رشيقي ٣١/٢ والعريسة الشجر للتلث والخرق للكان الراسع ذو الرياح والوجناء النافذة والحرف المهزولة .

(٢) الأغاني ٢٢/٢٠ - ٢٣ من قصيدة .

(٣) الامال ٢١٦/٢ فى شعر قيس بن ذريح ، وانظر ترجمته وأخباره وشعره ورثاء أخته فى العمدة لابن رشيقي ٣١/٢ والأغاني ٢٢/٢٠ - ٢٣ ومهذب الأغاني ١٨٨/٢ والحيوان للجاحظ ١٨٥/٢ ومعجم البكرى ٩٩٥/٣ ، ١٢١٦/٤ وديوان الهذليين ١١٣/٣ - ١٣٦ .

(٤) ديوان الهذليين ١٢٠/٣ .

(٥) ديوان الهذليين ١٢١/٣ .

(٦) انظر ترجمته وأخباره وشعره ورثاء أخته وعمته فى الأغاني للأصفهاني ٤٧/١٢ - ٥٠ .

والبيان والتبيين للجاحظ ٢٩٩/١ والقوس المحيط (مادة ذاب) ومهذب الأغاني ٩٣/١ .

١٢ - جحدر بن ضبيعة بن قيس :

اسمه ريبة ولقب جحدرا لقصره ، وهو من فرسان بكر الذين أبلوا في حرب البسوس ضد تغلب ، واشتهر جحدر بيوم التحاليق ، حينما اتفقت بكر كلها على حلق رعوسها في هذا اليوم لتكون علامة يتميزون بها ، ويعرف بها بعضهم بعضا ، ولم ينفرد منهم الا جحدر ، فقد كان دميم الوجه والجسم ، وأشفق أن تكتمل دمامته حينما يحلق رأسه ، فناشدهم أن يبقوا على لثته لأول فارس يطلق من الثانية حينما يبدأ القتال (١) ، وقال لهم في ذلك شعرا يعاهدكم فيه على أن يجزوا لثته ان نجا منه أول فارس يلقاه من تغلب (٢) وكانت له مواقف شجاعة بارزة في أيام أخرى من أيام حرب البسوس ، فمن ذلك ما ورد من أن أحد خلفاء بنى أمية أرسل ابنه الى قتادة يسأله سؤال الممتحن ، من قتل عمرا وعامرا التغلبيين يوم قضة ؟ قال قتادة : قتلها جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، فشخص بها السائل ثم عاد الى قتادة ، فقال : أجل قتلها جحدر ، ولكن قتلها جميعا ؟ قال قتادة : اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزج فعاض بينهما (٣) ، ويصفه التبريزي بأنه من الفرسان المعدودين (٤) ولكن جحدرا مع فروسيته كان فيما يبدو من أخباره ضعيف الهمة في الصعلكة ، وكان يعتمد على أسلوب التلصص وليس الغارة ، وكانت له حيل طريفة في التلصص فمن ذلك ما رواه الجاحظ « كان جحدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة (٥) فجعل فيها قردا ثم نثرها بقرب الابل ، فاذا وجدت الابل مسها نهضت وشد الشنة في ذنب بعض الابل ، فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ، ثم كان يشب في ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان ، قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا » (٦) .

المختصر

١ - عبلة بن الطيب :

والطيب اسمه يزيد بن عمرو بن بنى تميم ، وعاش عبلة في الاسلام زمنا ليس بالقصير ، وساهم في بعض الوقائع والحروب ، وله قصيدة طويلة

- (١) شرح التبريزي لحاسة أبي تمام ١٩٥/١ .
- (٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ١٩٥/١ .
- (٣) مصادر الشعر الجاهل نقلا عن مصادر أخرى .
- (٤) شرح الحماسة ١٩٥/١ .
- (٥) اللثة القربة من الجلد الجاف اللد .
- (٦) الحيوان للجاحظ ٤٣٣/٥ .

قالها على أثر موقعة القادسية ، وكان أسود اللون وتصفه الروايات بأنه من
لصوص الرباب :

وشعره من أجود ما جادت به القرائح العربية ، وقد احتل شعره مكانا مرموقا
ونال شهرة واسعة ، ونكاد لا نجد مؤلفا من القدامى الا ويشيع في إجادته
الاستشهاد بشعر عبدة ، وهو صاحب البيت المشهور في رثاء قيس بن عاصم
المنقرى :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

والذى يرى أبو عمرو بن العلاء والأصمعي أنه أرثى بيت قالته العرب ،
والذى يقول عنه ابن الأعرابي هو قائم بنفسه ، ماله نظير في الجاهلية ولا
الاسلام ، وأنشدوا أمام عمر بن الخطاب قصيدته التى أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١)
فلما بلغوا قوله :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

قال عمر مرددا « والعيش شح واشفاق وتأميل » ثم كان يردد هذا الشطر
متعجبا من حسن تقسيمه وتفصيله وما يتضمنه من حكمة ، ومع أنهم يصفونه
بأنه من الشعراء المجيدين المقلين ، الا أننا حين نتتبع بعض المصادر نجدها
تسوق شعرا كثيرا له ، يدل على أنه مبتور من قصائد كثيرة لم تصل إلينا (٢) .
وقد أجاد عبدة فى كل ما تعرض له من أغراض ، وعبد الملك بن مروان يرى
أن أجود ما وصفت به مناديل الخيل أوصاف عبدة بن الطبيب لها ، (٣) وقد عدد
عبدة لبنيه حصيلة ما جمعه من حياته الطويلة فى أربع مآثر ، فمما قاله فى
قصيدة جامعة فى الحكم :

أبنى انى قد كبرت وربنى بصرى وفى لمصلح مستمتع
فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا تبقى لكم منها مآثر أربع
ذكر اذا ذكر الكرام يزينكم ووراثه الحسب المقدم تنفع

(١) القصيدة بالفضليات ص ١٣٥ وتبلغ ٨١ بيتا وهى التى قالها بعد القادسية .

(٢) من هذه المصادر معجم ما استعجم للبكرى أنظر ٤٠٢/٢ ، ٦٥٥/٢ ، ١٠٨٢/٣ ، ٣٧١/٤ ومواضع أخرى والحيوان للجاحظ .

(٣) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى الفضليات ١٣٤ - ١٤٩ وشرح الفضليات ١٣٤ نقل
عن الطبرى ٤٣/٤ ، ١١٥ ، وأمال القال ٤٦/١ ، ٢٧٠ ، ١٣٨/٣ وحسان أبى تمام ٣٢٨/١ ،
ومعاهد التنصيص للعباسى ١٠٢/١ وشرح التبريزى للحماسة ٣٢٨/١ والحيوان للجاحظ
٤٠/١ ، ٢٥٤/٤ ، ٤٦/٣ ، ١٦٦/٤ ، ٥١٣/٥ ، ٦٧/٦ ، ٧٢ ، ٤٦٢ والبيان والتبيين ١٢٢/١
٢٤٠ ، ٢٥٣/٢ ومجالس ثعلب ٢٤٣/١ .

ومقام أيام لهن فضيلة
ولهي من الكسب الذي يفتكم
عند الحفيظة والمجامع تجمع
يوما اذا احتضر النفوس المطعم
ونصيحة في الصدر صادرة لكم
ما دمت أبصر في الرجال واسمع (١)

٢ - أبو خراش الهذلي :

اسمه خويلد بن مرة من بني هذيل ، وكان أحد عشرة أخوة كلهم عدا
لا تسبقه الخيل وكان أبو خراش أبرزهم موضعا وأشهرهم ذكرا ، وهو أحد
فرسان العرب وفتاكهم ، أسلم وهو شيخ كبير ، ولم تثبت له صحبة بالنبي
صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من شهرته بسرعة العدو ، وثقته بنفسه فيها
أنه دخل مكة يوما فرأى الوليد بن المغيرة يهيئ فرسين له للسباق ، فقال له
أبو خراش : ما تجعل لي أن أنا سبقتهما ، قال : أن سبقتهما فها لك ،
وسابقتهما فسبقتهما ، وأخذ الفرسين ، والروايات تسوق أخبارا كثيرة عن
مطاردة أعدائه أيام وعدم استطاعتهم اللحاق به ، ويبدو من أخباره أنه كان
كريما سمحا الى حد بعيد ، وأن هذه الساحة كانت طبعيا غالبا عليه ، حتى
أنها كانت سببا في هلاكه ، كما ورد في قصة ضيوفه اليمانيين ، الذين
نزلوا عليه ، فهيا شاة يذبحها لهم ، ولم يكن لديه ماء ، فسألهم أن يحضروا
ماء من مكان قريب ، فأبوا إلا أن يحضروه هو ، فخرج بقربته تحت الظلام
ليحضر الماء ، وفي عودته لدغته حية ، فتحامل على نفسه وأسرع الى ضيوفه
فأعطاهم الماء ، وظل متحاملا على نفسه فلم يخبرهم حتى لا يفسد عليهم أقامتهم
عنده ، وأصبح ضيوفه فاذا أبو خراش في الموت ، فأقاموا حتى دفنوه وحين
بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، قال : والله لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف
يماني بعدها .

ثم كتب الى عامله باليمن أن يأخذ النفر الذين نزلوا به فيقرمهم ديتة .
وكان أبو خراش من الشعراء المجيدين ، والذين بلغنا من شعرهم قدر
كبير ، وقد تمثل النبي صلى الله عليه وسلم ببعض شعره ، فقد كان أبو خراش
يقول وهو يسعى بين الصفا والمروة .

لا هم هذا خامس أن تما
أن تغفر اللهم تغفر جما ٠٠ الخ (٢)

(١) القصيدة في المضليات للضيبي ص ١٤٥ وهي ثلاثون بيتا ، وانظر شعره في الصلابة
في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧١ م القافى .
(٢) يقول البهتدي في الخزائن أن البيت الأول لامية بن أبي الصلت اخذ أبو خراش
وضم اليه آخر وتمثل بهما النبي .

وقد تمثل به النبي وصار من الأحاديث النبوية التي تتداولها كتب الحديث .

وقد أجاد أبو خراش في وصف الصحراء وحيوانها ، وفي حديثه عن سرعة العدو ، وفي رثائه لأخوية مرة وعروة (١) ، ومات مسلما في خلافة عمر بن الخطاب ، وفي شيخوخته ، غزا ابنه خراش في جيش عمر بن الخطاب فتوسل أبو خراش الى عمر بقصيدة ، فاصدر عمر قرارا بالآل يغزو وحيد أبويه الا بعد اذنهما .

٣ - فضالة بن شريك الأسدي :

يصفه صاحب الأغاني بقوله « كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرمًا أدرك الجاهلية والاسلام » ، وفضالة من القلة بين شعراء الصعاليك الذين احتسروا بالمجتمعات وخاصة الأمراء ، فاضطروهم هذا الى أن يخوضوا في المدح والذم ، ولكن فضالة مع جرأته في الهجاء حتى على الأمراء وجوه الناس كان عفيف الهجاء غير مقذع فيه ، ولكنه مع ذلك كان يبلغ من مدحومه مبلغا اليماء ، ومن ذلك قصته مع عاصم بن عمر بن الخطاب حينما أبى عاصم أن يقريه فكان مما قاله فضالة في هجائه :

الا ايها الباغى القرى لست واجدا فسراك اذا ما بت في دار عاصم
اذا جئتته تبغى القرى بات نائما بطينا وأمسى ضيفه غير نائم

ففرع عاصم من هجائه واستغاث بأمر المدينة ، فهرب فضالة الى الشام مستعيذا بيزيد بن معاوية مادحا إياه ، وفضالة أو ابنه عبد الله - على اختلاف الروايات - صاحب القصة المشهورة مع عبد الله بن الزبير ، حينما وفد فضالة - أو ابنه - على عبد الله بن الزبير ملتصقا العطاء بقوله : ان ناقتي قد تعبت ودبرت ، فقال ابن الزبير : أرقعها بجلده ، وأخضفها بهلب ، وسر بها البردين ، فقال : انى جئتك مستحلا لا مستشيرا ، قلن الله ناقة حملتنى اليك ، قال له ابن الزبير : ان وراكبها (٢) .

(١) انظر ترجمته واخباره وشعره في خزنة الأدب البغدادي ٢٩٧/١ ، والمقد الفريد ٥٣/١ ، وصلة أبي تمام ٣٢٦/١ وأمال القائل ٢٦٧/١ وشرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ٣٢٦/١ والكمال للمبرد ٣٦٧/١ ، ٣٤٧ ، ٤٦/٢ ، والحيوان للجاحظ ٢٦٧/٤ والبيان والبيان للجاحظ ١٥٤/١ ومعجم ما استمع للبركي ٢٥٥/١ ، ٧٤١/٣ ومواضع أخرى . وديوان الهذليين ١١٦/٢ - ١٧٢ وشرح ديوان الهذليين للسكري ١١٦/٢ وما بعدها والأغاني للأسفهاني ٦٣/٢١ وما بعدها . وخرأش ابنه وعامش الحيوان ٣٥١/٤ .
(٢) أى تم وراكبها دعاء على الناقة وصاحبها .

ومن ذلك أيضا قصة هجائه لابن مطيع أمير الكوفة ، حيث بلغ من عفة هجاء فضالة أياه ، أنه لم يهج من ابن مطيع الا كفه ، ومع ذلك بلغ منه ما لا يبلغه هجاء آخر حيث قال عن بيعة ابن مطيع :

دعا ابن مطيع للبياع فجثته الى بيعة قلبي بها غير عارف
فقرب لي شمساء لما لستها بكفى لم تشبه أكف الخلائف
معوذة حمل الهراوى لقومها فرودا اذا ما كان يوم التسايف
من التسنات الكزم انكرت لساها وليست من البيض السباط للطائف

ومات فضاله قبل خلافة عبد الملك بن مروان (١) .

٤ - أبو الطمحان القينى :

هو حنظلة بن الشرقى القينى القضاعى ، يصفه الأصفهاني بقوله :
« شاعر فارس خارب صعلوك من المخضمين أدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيث الدين فيهما » ، وقد روت له الأخبار قصصا كثيرة فى صعلكته ، وركوبه المخاطر ، وتنقله فى أنحاء كثيرة من الجزيرة ، ومن ذلك قصته مع قيسبة بن كلثوم أحد ملوك اليمن ، وكان قد أسره بنو عامر أثناء قصده الى الحج بمكة ، فمر به أبو الطمحان وهو فى القيد ، فاتفق قيسبة مع أبى الطمحان على أن يكتب قيسبة رسالة شعرية على رجل أبى الطمحان ، وعلى أبى الطمحان أن يشخص بها الى اليمن حتى يبلقها الى قومه مقابل مائة ناقة ، وقد أنفذ أبو الطمحان الاتفاق .

ولكننا من خلال أخبار أبى الطمحان نلاحظ عليه ملاحظتين شذبهما عن أخص ما يميز الصعاليك ، احدهما اسفاهه وتنزله الى أعمال ينفر منها خلق الصعاليك ، فالصعاليك على أن حياتهم كانت تعتمد على السلب والنهب والتلصص الا أنهم كانوا يتعففون دائما عما ينافى المروءة والخلق الكريم ، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك ، ومن هذا قصته مع المرأة التى آوته وأكرمته ، فسطا على شرفها ومالها ثم هرب ، وأكثر من ذلك أنه كان يفخر بهذه القصة وهى المعروفة بقصة الدير ، والأخرى أن شعره على كثرته وإن لم يخل من جودة يخلو دائما من روح العزة والاباء ، والاعتداد بالذات ، وهى الروح التى تعتبر أهم ما يميز شعر الصعاليك وأحاديثهم عن أنفسهم (٢) .

(١) أنظر مذهب أغاني الأصفهاني للخضرى ٢/٢١٠ والبيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٧٩ .

١٥/٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره فى الأغاني للأصفهاني ٢/١٣ - ١٤ وأمالى القال ١/١٠٩ ، ٢/٣٢٥ وحماسة أبى تمام ٢/٨٣ ، ٢٧٠ ، ٤١٢ والكامل للمبرد ١/٣٠ والحيوان للجاحظ ٣/١٠٥ ، ١١٣ والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٨٧ ، ٢/٢٣٥ والفسر والشمراء لابن قتيبة ١/٣٤٨ ومصادر الشعر الجاهل لناصر الدين الأسه ٢٣١ .

الإسلاميون

١ - مالك بن الربيع :

من بني مازن بطن من تميم ، عاش في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وكان يقطع الطريق مع رفقة اشتهر منهم شظاظ الضبي الذي ضرب به المثل فقالوا « ألس من شظاظ » وأبو حردبة المازني الذي قال أحد الراجزين في الحوف منه :

الله نجباك من القصيم ٠٠٠٠

ومن أبي حردبة الأثيم ومالك وسيفه المسموم (١)

ويعتبر مالك بن الربيع أشهر الشعراء الصعاليك في الإسلام لعدة أسباب ، منها شدة بطشه في قطع الطريق كما يقول الراجز السابق ، وكما ورد في أخباره الكثيرة ، ومنها ما يدل على أنه كان يتحدى حتى منافسيه في قطع الطريق ، ومن شهرة قوته أنه قتل أفلح الذي ظل يقطع الطريق على القوافل وحده بخراسان عشرين سنة ، ومن تلك الأسباب أنه يعتبر من الشعراء البارزين في إجادتهم وكثرة ما جادوا به من شعر وشعره يعتبر في رفته وتعبيره الصادق السمع عن النفس لو أنها جديدا إلى حد ما في الشعر العربي آنذاك ، وقد اكتسبت مرتبته التي رثى بها نفسه حين أحس الموت شهرة وذيوها ، سواء من حيث إعجاب مجتمعه بها ، أم من حيث ولوع الرواة والمؤلفين بتناقلهما وهي التي أولها :

ألا ليت شعري هل أبين ليلة بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا (٢)

وقد علما صاحب جهرة أشعار العرب من عيون المرائي (٣) . وله شعر عده النقاد في القمة التي حاول شعراء كثيرون أن يبلغوها أو يقلدوها فلم يوفقوا (٤) .

ومن تلك الأسباب ما عرف عنه من صفات تميز بها سواء في خلقه أو خلقه ، فيصفونه بأنه كان من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، وبأنه كان من ذوى السماحة والروعة ، حتى أنه حينما سأله سعيد بن عثمان وإلى خراسان عن سبب قطعه للطريق مع ما فيه من جمال وحسن بيان أجابه بأن

(١) معجم ما استعجم للبكري ١٠٢٧/٣ .

(٢) خزائن البغدادي ٤٧/٢ - ٤٩ وأمال القال ١٣٥/٣ والشعر والشعراء ٣١٢/١ والأعالي ٤٨/١٢ .

(٣) انظر خزائن البغدادي ٥٢/٢ والشعر والشعراء ٣١٢/١ .

(٤) جهرة أشعار العرب للقرشي ص ١٤٣ وساق القصيدة كاملة .

السبب عجزه عن مكافأة الاخوان ، وبأنه كان من الجرأة والتمرد بحيث تواعد بنى مروان ، وهجا الحجاج بن يوسف هجاء موجما بعد أن تمرد على الحجاج واستعصى عليه (١) .

٢ - بكر بن النطاح :

عاش في صدر العصر العباسي وعاصر الرشيد والمأمون ، يصفونه بأنه « كان شجاعا بطلا ، فارسا شاعرا ، وبأنه » كان صعلوكا يصيب الطريق ثم أقصر ، وشهرته بالشعر أكثر من شهرته بالصعلكة ، حيث أن الروايات لم تذكر من أخبار تصعلكه ، بينما ساقته له شعرا كثيرا في عدة أغراض ، ويعدونه من الشعراء المجيدين كما يقول التبريزي « حسن الشعر جيد التصرف فيه » ولكننا حين نعرض شعره على الطابع المميز لشعر الصعاليك نجده يفقد جانبا كبيرا من روح العزة والاباء والصلابة التي يمتاز بها شعرهم ، هذا على الرغم من أن بكرا كان كثير الفخر بشجاعته في شعره ، ولكن روح العزة التي نتحدث عنها في شعر الصعاليك شيء غير مجرد الفخر ، بل قد تكون شيئا غير الفخر ، فقد يتحدث الصعلوك عن فقره أو جوعه أو تشرده أو اضطهاده أو أي معنى من المعاني التي تقترب عادة بالمهانة والضعف واستصغار النفس ، ولكن الصعلوك يجعل من هذا الهوان عزة وإباء ، كما يقول الشنفرى « وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى » وكما يقول مالك بن الريب « ففى الأرض عن دار المذلة هجرة » وكما يقول الشنفرى عن الجوع فى لاميته :

واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول

ويمكن تحليل فقدان بكر بن النطاح لهذه الروح فى كثير من شعره بأنه يمكن تقسيم حياته الى قسمين ، قسم زاول فيه الصعلكة وتجاوب مع حياتها وأحداثها ومشاعرها ، وقسم ألقم فيه عن الصعلكة ، وهو الذى يصفونه فيه بأنه « أقصر » فيه عن التصعلك ، ثم ركن الى أبى دلف الأمير متمتعا بعبائمه ، مفيضا فى مدحه ومدح أخيه معقل ، ولذلك نجد شعر بكر بن النطاح لا يسير على نغمة واحدة من حيث الروح الصعلوكية ، ولكن الروايات لم تحدد لنا أى شعره قاله فى القسم الأول من حياته ، وأيه قاله فى القسم الثانى ، ولكننا نرى أثر القسمين واضحا فى مثل ما بين البيتين الآتيين من فرق ، فبينما نجد فى شعره مثل قوله :

(١) أنظر ترجمته وشعره وأخباره فى خزنة البغدادى ٤٧/٢ - ٥٢ والأغاني للأصفهاني ١٣/٤٨ ومواضع أخرى وأمالى القالى ١٥٨/١ ، ١٣٥/٢ والكامل للمبرد ٣٠١/١ وجهرة القرشى ١٤٣ - ١٤٦ والشعر والشعر ١٤٦ لابن قتيبة ٣١٢/١ ورسائل الجاحظ ١٩٣/١ والبيان والبيان للجاحظ ٣٧/٣ .

وصن يفتقر منا يعيش بحسامه
ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (١)
تجد في شعره مثل قوله مستجديا أبادلف :

له راحة لو ان معشار جودها
على البركان البر أنلى من البحر (٢)
فبينما البيت الأول ينطق بأنه من صميم شعر الصعاليك وتعاليمهم على
السؤال في أى صورة من صوره ، مؤثرين الغضب والسلب عليه كما يقول
الأخير السعدى :

وأنى لاستحى أن أسأل العبد اللثيم بعيره
وبعيران ربي في البلاد كثير (٣)

بينما البيت الأول كذلك ، نجد البيت الثاني بعيد كل البعد عن روح
الصعاليك وطابع شعرهم ، ونلاحظ أن النوع الأول قليل في شعر بكر ،
بينما الثاني كثير متعدد الأغراض وخاصة في المدح والغزل والوصف (٤) .

٣ - عبيد بن أيوب العنبري

والعنبري نسبة الى بنى العنبر من بنى سعد ، ويصفونه بأنه « من
اللصوص » وله في اتجاهه الشعرى طابع غريب من حيث الغرض ، فقد
أولع بالحديث عن الحرافات ، وشاع في شعره وصف مخلوقات وأوهام
غريبة ، كالغيلان والسعالى والجن ، حتى أصبح هذا الاتجاه طابعا مميزا
لشعره ، ويبدو أن هروبه من السلطان وتشرده وحيدا ، وخوفه الشديد فى
متاهات الصحراء ، وقفارها ، قد خيل إليه هذه الأوهام ، وشعره نفسه
ينحدث كثيرا عن هذه المخاوف التى زلزلت ثباته ، وصورت له كل شيء
يراه أمامه أو يتخيله عدوا مخيفا ، وهو يصور مبلغ الخوف منه بمثل قوله :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة
فان قيل أمن قلت هذى خديعة
وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٥)

(١) مهذب الأغاني ٨/ ٨٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الشعر والصحراء لابن قتيبة ص ١٨٣ م الغانجى .

(٤) أنظر لترجمته وشعره وأخياره فى مهذب الأغاني ٨/ ٨٤ وأمال القالى ١/ ٢٢٤ ، ٢٣٦ ،
٢٤٤ والعقد الفريد ١/ ٦٦ والتنبيه على أوهام البكرى ص ٧٧ ، ودويوان الحاسة لأبى تمام
٢/ ٦٣ - ٩٥ ، ومعاهد التنصيص المعين ٣/ ٩٠ ، ٦١/ ٩٩ ، وشرح التبريزى للحماسة
٢/ ١٧ .

(٥) البهوان للجاحظ ١/ ٦٥ .

ونحس مبلغ سيطرة الفزع والخوف على نفسه في هذه اللهفة التي يديها
في طلبه للامن كما يقول :

لأخفى ظم الامن توصل حقيقة على فان قامت ففصل بتانيا
خلعت فؤادى فاستطير فاصبحت ترامى بي البيد القفار ترامية (١)

ولكنه لم يجد هذا الامن الذي تتمطش اليه نفسه ، فسيطر عليه فزع
رهيب جعله يفرق من كل شيء في قرارة نفسه ، ثم يصور هذا الرعب والفرق
في صورة بطولة وشجاعة يمتاز بها عن سائر الناس ، فيتحدث عن أنه يخاطب
الفيلان والجن والوحوش ولا يخافها ، بل يصف أحاديثه معها ، ومخاطبته
ومعاشرته إياها ، كما فصل الجاحظ هذا الحديث في سرد ما تحدث عنه شعر
عبيد من الفيلان ، وأساطير الضب والصفدع ، والسملعة ، ومناكة الجن
ومحالفتهم ، واليربوع ، وقد علل الجاحظ هذه النزعة باستغلال الشاعر
لسداجة محيطه ويبدو أن عبيدا عرف أخيرا جدا طريقه إلى الامن حينما عرف
طريق الرجوع إلى الله ، والتوبة إليه ، ولذلك نراه يتحدث عن توبته حديثا
يظهر فيه إنكاره لما أسلف من أعمال ، ويظهر أيضا استخفافه بما أسلف مما
لا يتفق مع « العقل » الذي يتحدث عنه فيما يتحدث من قوله :

يارب عفوك عن ذى توبة وجعل كأنه من حذر الناس مجنون
قد كان قلم أعمالا مقاربة أيام ليس له عقل ولا دين (٢)

وقد سبقه إلى الحديث عن مخالطة الوحوش من الصعاليك الأحيير السعدى
في حديث نثرى له (٣) ولكنه لم يسرف اسراف عبيد ، بل كان أقرب إلى
التحفظ منه ، وتحدث تأبط شرا في شعره عن أنه قتل الغول (٤) ، وقلنا
فيما سبق أنه ليس من اللازم تكذيبه ، وليس من اللازم القول بأن فيه الاتجاه
إلى نزعة الوهم أو استقلال سداجة مجتمعه البدوى ، وإنما كان حديثا عن
حادثة فردية ، يمكن حمل الأمر فيها على أنه قتل حيوانا غريبا عليه يظنه
الغول كما تصورها أساطيرهم (٥) وستأتى مناقشة لهذا الموضوع في فصل
الوهم .

(١) المصدر السابق .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ .

(٣) انظر المقد الفريد ٢٩٠/٣ والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ .

(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ والقاموس المحيط مادة (غال) .

(٥) انظر أخبار عبيد وشعره وترجمته في الكامل للمبرد ٢٠٠/١ والحيوان للجاحظ ٤٨٢/٤
١٣٨/٥ ، ٢٤١ ، ١٢٨/٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٥ ، ٢٥١ ، ٢٩٥ والبيان والتبيين للجاحظ
٦٢/٤ .

٤ - عبيد الله بن الحر الجعفي

كان عبيد الله من الشخصيات اللامعة في المجتمع ، بل في الدولة حينذاك ، وله تاريخ بارز ، منه أنه شهد القادسية وأبلى فيها ، وقد أحس في نفسه قوة ومنعة ، فاستعصم بقوته ومنعته وأبى أن يسلم قياده لأحد حتى الأمراء والخلفاء ، وأصبح من أوصافه أنه لا يعطى للأمراء طاعة ، وقد جمع حوله صفوة من ذوى القوة والفروسية ، يقدرون في بعض الأخبار بخمسين فارساً ، لم يكونوا من قومه . أو من جماعة معينة ، ومعنى ذلك أنهم من المتمردين في أى صورة من صور التمرد كقطاع الطرق واللصوص ومن على شاكلتهم ، وأخذ يعيش بهم في البلاد ، ويغير على القرى والقوافل ، وبلغ من قوته أن حاول جميع أطراف الحصومات في زمنه أن يستميلوه إليهم ، ومنهم معاوية بن أبى سفيان ، وعلى بن أبى طالب ، والحسين بن على ، وأمراء الأمصار ، ولكنه أبى ، وظل معتصماً بقوته ، راسماً حياته وسلوكه ، كما يريد هو ، لا كما يريد له الخلفاء والأمراء ، وبلغ من شهرة قوته وأخباره أن التبس أمره على بعض المتأخرين من العلماء كابن الأثير ، فعده من القواد (١) مع أن السكري ترجم له في كتاب اللصوص ونقل عنه ذلك البغدادي في الخزانة (٢) والجاحظ في رسائله يذكر بعض رفاقه في قطع الطريق ، كما يقول في مفاخر السودان والزنج والجيش قالوا : « ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر ، لم يكن في الأرض أشد منه ، كان يقطع على القافلة وحده ، بما فيها من الحماية والخفراء » (٣) ، وزاد الجاحظ فذكره (بعد أن تحدث عن فروسيته) في سياق الحمقى حيث قال « ومن النوكى عبيد الله بن الحر وكنيته أبو الأشوس » (٤) ، ويبدو أن عبيد الله كان من الذين مستهم عقدة الشعور برق الأمهات ، كما كان السليك وأضرابه من أبناء الأماة والأسيرات ، فأراد بالتمادى في مظهر القوة أن يعوض شعوره بهذا النقص الاجتماعى وبصعكلته وتمرده الانتقام من المجتمع لوضعه هذه الفواصل غير المنطقية بينه وبين أبناء الحرائر ، وعبيد الله نفسه يحدثنا بذلك فيقول :

أن تك أمى من نساء أصابها سباء القنا والمرفعات الصفائح
فتبا للفصل الحر أن لم أقل به كرائم أبناء النساء الصرائح (٥)

ومات عبيد الله بن الحر طريد الأمراء ، وبروون في موته قصة تدل على

(١) ابن الأثير حوادث سنة ٦٨ ونقل عنه ذلك مؤيداً له عبد السلام هارون هاشم الحيوان للجاحظ ١٣٤/١ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١٩/٢ ، ٢٢ .

(٣) رسائل الجاحظ ١٩٣/١ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢١/١ .

(٥) الأمالى للنقلى ٢٢٠/٣ .

مبلغ خطورته ، حيث وجه اليه امير الكوفة ستمائة فارس بينما لم يكن معه من أصحابه حينئذ الا عشرة ، ومع ذلك قاتلهم ، فلما تساقط أصحابه ، وبلغت منه الجروح ، انحاز الى معبر (١) فوثب اليه رجل نبطي قوى يريد أن يقبض عليه ، فلما يئس عبيد الله ، قبض على النبطي ، وألقى بنفسه وبالنبطي في النهر فماتا معا ، فرأى الناس شيئا يتوجع ، وكان أب النبطي ، قائلا : كان ابني يقتل الأسد ، وكان يخرج هذا المعبر من الماء فيقره ثم يعيده وحده ، حتى ابتلى بهذا الشيطان - يعنى عبيد الله بن الحر الذي أغرقه معه - وجعلوا يسكتونه وهو يردد : ما كان ليفرق ابني الا شيطان (٢) ، وكان عبيد الله من الشعراء المجيدين ، وله مدائح في الحسين بن علي .

٥ - الأجير السعوى

من لصوص بنى سعد ، وأجمعت الروايات على أنه من الخلاء ، حيث خلعه قومه بعد جنائاته ، وطارده السلطان ، فهام على وجهه ، فى مجاهل الصحراء ومكائنها ، ثم كان يحدث الناس بغرائب وحدته وتشرده ، وما يلقاه خلال ذلك ، وأنه لطول ألف الوحوش له أنست اليه ، فلم تكن تنفر منه ، ومثل هذه الأخبار وان لم تكن تدعو الى التصديق الا أنها على أى حال تصور حياة صاحبها فى تشرده وحيدا وتعرضه للأخطار ، وقد صور الأجير حياته هذه فى شعره ، وهو صاحب البيت المشهور :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذعوى وصوت انسان فكنت اظير

كما صور فى شعره صعلكته وتهديده لامن التجار وقوافلهم بمثل قوله :

تعيرنى الاعلام والبلو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم

وقد عده صاحب العقد الفريد من الفرسان القلائل فى العرب ، وان صح ذلك يحمل على حياته قبل خلعه وتشرده .

والأجير تاب ، وتحدث عن توبته فى شعره ، ولكن حديثه يوحى بتأصل نزعة التصعلك فى نفسه ، ولذلك نراه مترددا بين الرجوع الى الله ، والحنين الى أموال التجار ، ونصيحة الصعاليك بالتوبة فمن ذلك قوله :

**اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللخاء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرقه اليمين
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن**

(١) ما يسمى بالعامية « الكوبرى » فوق النهر .

(٢) خزانة البغدادى ٢٢٧٢ وهامش الحيوان للجاحظ ١٣٤/١ .

وقد تحدث في شعره عن عدة أغراض أهمها ما يتعلق بعبادة خلقه
وصصلته (١) وهو القائل :

واني لأستحي نفسي أن أرى امرءاً جعل ليس فيه بحر

٦ - يزيد بن العقيل الثقيل

أما يزيد العقيل فقد كان كما يبدو من حديثه صادق التوبة عن الصلوة ،
مطمئن النفس في رجوعه عنها ، فقد كان يسرق الإبل ثم تاب ، ويبدو من
شعره ما كان له من رهبة وخطورة عند أصحاب المخاض من الإبل ، ولذلك
يطمئنهم يزيد بتوبته حين يقول :

ألا قل لأرباب المخاض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
ويبدو صدق توبته في مثل قوله :

وان امرءاً ينجو من النار بعدما تزود من أعمالها لسعيد
ولكن ما بلغنا من أخباره وشعره قليل (٢)

٧ - أبو النشاش النهملي

غلبت هذه الكنية عليه حتى طمست اسمه فلم تتحدث به الروايات ،
وكان من لصوص بني تميم ، واسع النشاط في لصوصيته حتى أنهم يصفونه
بأنه كان يقطع طريق القوافل بين الحجاز والشام ، وكان يجمع حوله رفقة
من الشذاذ والصلاليك ، وأبو النشاش يجيد تصوير نفسيّة الصعاليك
وحياتهم ومن ذلك قوله :

وداوية يهملها يغشى بها الردى سرت بأبي النشاش فيها ركايبه
ليلدك ثارا أو ليلدك مقنما جزىلا ، وهلا الدهر جم عجائبه

ويصور شعاع الصعاليك وآمالهم في مثل قوله :

فللموت خير للفتى من قعوده فقيرا ومن مولى تلب عقاربته

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره في الأمل للقال ٤٨/١ ، ٤٩ والعقد الفريد ٣٤/١
(باب غرسان العرب) و ٣٩٠/٣ والحياة العربية من الشعر الجاهل للدكتور الحوفي والشعر
والشعر لابن قتيبة من ١٨٣ م الخاتمي والحيوان للجاحظ ١٣٣/١ والبيان والتبيين للجاحظ
٣٠٠/٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥

(٢) انظر الكامل للبرد ٦١/١ وأمال للقال ٢٠٢/٢ ، حاشي على شك ()

ولم أر مثل الهم ضاحجه القى
فمت معما أو غنى كريمها فأننى
ولا كسواد الليل اخفق طالبه
أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه (١)
والنهشل نسبة الى بنى نهشل .

٨ - سعد بن ناشب المازنى

من بنى مازن من تميم ، اتخذ من البصرة موطنها ، وزاول صعلكته
وجنباياته ، فهزم بلال بن أبى بردة والى بنى مروان داره وتوعده ، ولكن ذلك
لم يشنه عن عزمه الشديد ، واندفاعه بأساليب الصعلكة نحو غاياته ، بل سخر
بشعره من هدم داره واستصغر أن يكون هدم الدار صارفا لمن كان فى مثل
عزمه وقوته عما يريد .

ويبدو من خلال شعره أنه كان يتمتع بإرادة قوية وعزم عنيد ، ويعتبر
شعر سعد من خير ما يمثل شخصية الصعلوك الواصل من عزمه ، المتكمن من
قوة إرادته ، وله أبيات كثيرة شائعة التردد مشهورة ، تصور قمة العزم
العنيد كقوله :

إذا هم لم تسردع عزيمة همه
فبالرزام رشحوا بى مقمما
ولم يات ما يأتى من الأمر هائبا
الى الموت خواصا اليه الكتائبا
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يرض الا قائم السيف صاحبا
ولم يستشر فى رايه غير نفسه

ولسيطرة هذه المعانى على نفسه نراها تتردد كثيرا فى شعره ، فمن
ذلك قوله :

وفى اللين ضعف والشراسة هيبة
وما بى على من لأن لى من فظاظة
ومن لم يهب يحتمل على مركب وعر
ولكننى فظ أبى على القسر
أقيم صفا ذى الميل حتى أوده
وأخطمه حتى يعود الى القدر
إذا هم القى بين عينيه عزمه
وصمم تصميم السريجي ذى الأثر

ولم يخل شعره من الحديث عن خلقه ، فهو يقول انه كريم فى فقره وغناه ،
ان أعسر وافقر فهو خير كريم ، وان غنى وأيسر فيساره شركة بينه وبين
الناس .

ان تعذلبنى تعذل بى مرؤءا
كريم ثنا الأعصار مشترك اليسر

(١) انظر ترجمته وشعره فى الاصمعيات ١٢٤ والخزانة للبيهادى ٢٦٢/١ وديوان الحماصة
لأبى تمام ١١٥/١ وشرح الاصمعيات (هامش ص ١٢٤) وشرح التبريزى لحماصة أبى تمام
(هامش ١١٥/١) والقاموس المحيط مادة (نش) .

ويصفونه بأنه من الفتاك ، وأنه من مرده العرب ، وقد ورث الصعلكة عن أبيه كما يصفه ابن قتيبة بقوله « وكان أبوه ناشب أعور ، وكان من شياطين العرب ، (١) وهو مازنى من عشيرة مالك بن الرب » .

٩ - توبة بن الحمير

أبوه الحمير بن حزم من بنى عقيل ، وكان توبة من اللصوص البارزين ، ولكن شهرته بعشق ليلي بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية غلبت عليه ، حتى أصبح هذا العشق قرين اسمه ، وكاد يطفى على صفته الأصلية وهى اللصوصية وزاد من هذه الشهرة أن ليلي كانت شاعرة ، بل لم يقدم عليها من شاعرات العرب سوى الحنساء ، وقد رثته ليلي بأشعار كثيرة ، وليلى هى التى يقول توبة فى حبها :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت علي ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح

وقد وفدت ليلي على عبد الملك بن مروان وهى كبيرة ، فقال لها : ما رأى توبة فيك حين عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفة ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .

وكان توبة واسع المجال فى صعلكته ، ويبدو من أخباره أنه كان يركز غاراته على همدان وبنى الحارث بن كعب مع أن بينهما وبين موطنه مفاوز ، ومن أخبار لصوصيته تلك الغارة التى أودت بحياته حين أغار على بنى الحارث فلم يتمكن من الغنيمة فأغار فى عودته على بنى عوف فاستاق إبلالهم بعد أن قتل منهم رجلا ، فلاحقوه ومعه أخوه وابن عم له أو مولى له يدعى قابض ، على اختلاف الرواية فقتلوه وأعرجوا أخاه وتحدثت الروايات عن أن توبة - لابعاده فى غاراته - كان يحمل معه الماء . وقد يبدو غريبا بعض الغرابة أن تجتمع فى توبة صفتان غير متآلفتين ، هما عاطفة الحب العميق بما توحى به من رقة وسماحة نفس ، والصعلكة بما توحى من صفات الجفوة والعنف ، ولكننا حين ننظر الى عوامل الصعلكة ودواعيها فى المجتمع العربى كما أسلفنا نجد أنها لم تكن مجرد نزعة شريرة فى نفس مزاوليها ، بل أحيانا لم تكن من النزعة الشريرة فى شئ ، وإنما كانت مظهرا اجتماعيا تولد من عوامل عديدة متشعبة ، وليلى حبيبة توبة تحدثنا عن هاتين الصفتين فى رثائها أيام فتقول عن توبة :

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره فى أمالي القفال ١٧٠/٢ ، ١٧١ ، والكامل للمبرد ١٢١/١ وديوان الحسانة لأبى تمام ١٤/١ ، ٢٧٠ والعقد الفريد ٢٣٠/١ وشرح التبريزى لحسانة أبى تمام ١٤/١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٦٣ م الغامض .

فتى كان أحى من فتاة حبية وأشجع من ليث بخفان خادر
فنعهم الفتى ان كان توبة فاجرا وفوق الفتى ان كان ليس بفاجر (١)

١٠ - عبد الله بن سبرة الحرشي

منسوب الى حرش وهو موضع باليمن ، وكان عبد الله كما يبدو من أخباره من الأشخاص المعروفين في المجتمع بالقوة والبأس الشديد ، وتصفه الروايات بأنه من فتاك العرب ، ولكن حادثة له مع الروم طغت على أخباره في الصعلكة والفتك ، ذلك أنه في فترات المناوشات التي كانت تحدث بين المسلمين والروم على الحدود مما يشبه ما يسمى اليوم بحرب العصابات ، استعان أحد السلاة بعبد الله بن سبرة ليغير في عصابة على بعض الروم ، وتختلف الروايات في تفاصيل هذه القارة ، ولكنها تتفق على أن عبد الله بن سبرة قاتل في هذه القارة بطريقا روميا فقتله عبد الله بعد أن قطع الرومي يد عبد الله أو أصبعيه على اختلاف الرواية ، وقد قال عبد الله في قطع يده شعرا كثيرا معتزا بأن قطعها اقترن بنصر له كبير (٢) .

١١ - شبيب بن عمرو بن كريب :

أحد لصوص طيء ، وكان يقطع الطريق في خلافة على بن أبي طالب ، فبعث اليه على أحمر بن شبيب وأخاه في فوارس ، فهرب شبيب ، واستطاع النجاة منهم ومن على بن أبي طالب وحين اطمأن الى نجاته قال في ذلك شعرا منه :

ولما رايت ابني شبيب بسكة طيء والباب دوني (٣)
تجللت العصا وعلمت اني رهين مخيس ان يثقفوني (٤)
ويتابع شعره واصفا على بن أبي طالب بقوله :

ولو اني لبثت لهم قليلا لجروني الى شيخ بطن (٥)
شديد مجامع الكتفين باق على الحدان مختلف الشئون

(١) انظر ترجمته وأخباره وشعره وأخبار ليل وشعرها معه في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠ م الخانجي وحماسة أبي تمام ١٠٨/٢ والكامل للمبرد ٢٧٥/٢ ، ٣٠٧ والأعاني للأسقفاني ٢٨٠/٣ والحيوان للجاحظ ٢٩٩/٢ ومعجم البكري ٨٨٥/٣ ، ١٣٤٠/٤ ، ٥٣/٢ وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام ١٠٨/٢ والعدة لابن رشيق ٢٨/٢ .
(٢) انظر ترجمته وشعره وأخباره في التنبيه على أوام القائل للبكري ص ٣٢ ، ٣٣ ، وأمال القائل ٤٧/١ وديوان الحماسة لأبي تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام ١٨٥/١ ، ١٨٦ .

(٣) السكة السطر من الشعر .

(٤) العصا فرس شبيب مشهورة ، ومخيس بضم الميم وتشديد الياء المكسورة سجن على ابن أبي طالب ويشقوني رواية الجاحظ وفي ديوان الحماسة أن يدركوني .
(٥) بطن أي عظيم البطن وهي سلة الامام على .

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بلغه هذا الشعر : والذي
فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصدقت ظنه ، يعني وضحه في
السجين (١) .

١٢ - فرغان بن الأعرج المري :

تختلف الروايات في ضبط اسم ، فيرويه أبو تمام في حماسته فرعان
بالعين ، ويرويه ابن قتيبة بالعين المجبة ، وهو مناسب لما ورد من شعره كما
ضبطه ابن قتيبة ، وهو من بني مرة بن عبيد وكان شاعرا لصا ، وكان يثير على
الأبل ، ويروي ابن قتيبة أن فرغان أخذ جملا لرجل فجاء الرجل فأخذ بشعر
فرغان وجذبه فبرك ، فقال الناس : كبرت والله يا فرغان ، قال كلا ، ولكنه
جذبني جذبة محق . وقد اعتمد فرغان في فخره على قوته ببنيه كما
يقول :

يقول رجال ان فرغان طاجر ولا الله اعطاني بني وماليا
ثمانية مثل الصقور وأربعا مراضيع قد وفين شعنا ثمانية

ويشاه له حظه السى أن يرى بنيه هؤلاء الذين يفخر بأن فجوره قائم على
قوتهم وقد أذاقوه الهوان ، وهذا ابنه منازل أحد الثمانية الصقور كما يقول
فرغان يعق أباه ويؤذيه ويضربه كما يقول فرغان نفسه :

جزت رحم بيني وبين منازل جزاء كما يستنزل الدين طالبه
ثم يقول في ذلك واصفا شيخوخته وضعف بصره وصفا مؤثرا :

فلما رأني أبصر الشخص شخصا قريبا وذا الشخص البعيد اقارب
تعمد حتى ظلالا ولوى لوى لوى لوى يده الله الذى هو غالبه
ثم يقول أيضا :

أ ان رعشت كفا أبك واصبحت يداك يدي ليث فانك ضاربه ؟
وتوارث أباءه هذا العقوق ، فيروي التبريزي أن ابنه منازل هذا كان له
ابن يدعى خليج فعق خليج أباه فمنازلا فقدمه الى ابراهيم بن عريب مستعديا عليه
قائلا :

تظلمنى حتى خليج وعقنى على حين كانت كالحنى عظامى
في أبيات أخرى ، فأراد ابراهيم بن عريب ضربه ، فقال خليج أصلح الله
الأمير ، لا تعجل ، أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا منازل بن فرغان الذى

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في حسانة أبي تمام ٢٥٢/١ والبيان والتبيين للجاحظ
٨٥/٣ وشرح التبريزي للحسانة ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ .

عن أبيه ، وفيه يقول « جزت رحم بيني وبينه منازل » الايات . فقال : ابراهيم :
يا هذا ، عقلت فمعتت ، فما أعلم لك مثلاً الا قول خالد لأبي ذؤيب .

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فلولا راضي سيرة من يسرها (١)

١٣ - جحدر بن معاوية العكل :

غلب عليه في معظم الروايات لقب جحدر اللص ، مما يدل على شهرته
باللصوصية ، وخطورته فيها ، ويصفه القائل بقوله « وكان لصاً مبراً » ثم يفسر
المبر بالغالب ، وينسب جحدر نفسه في شعره الى بني كعب بن عمرو وقد تردد
اسم جحدر كثيراً في المنافسات الشعرية المشهورة بين غالب أبي الفرزدق
وسحيم التميمي على أن جحدرا رفيق سحيم ومن أشد أعوانه على غالب ،
واتفقت الروايات على أن جحدرا وقع في طائلة الحجاج وأودعه الحجاج سجنه ،
ومن بين جدران سجن الحجاج جادت شاعرية جحدر بقصائد غراء ، تعتبر من
أجود الشعر في موضوعها ، من حيث تصوير الهموم ، والحنين إلى الأهل والوطن ،
والشعور بالحجر على الحرية ، وقد ساق القائل إحدى هذه القصائد في واحد
وعشرين بيتاً ، ونحن ندرس هذه القصيدة نرى أن المتنبي في قصيدته
المشهورة عن الحسي لم يكن مبتدعاً ، وإنما كان متأثراً بقول جحدر :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| تاويني فبت لها كنيما | هموم ما تفرقتني حسواني |
| هي العواد لا عواد قومي | أظن عيادتني في ذا المكان |
| إذا ما قلت قد أجلين عني | تني ريعانهم على ثاني |
| وكان مقر منزلهم قلبي | فقد أنفنه والهم أني |

ويقول منها في الحنين إلى الأهل والأحبة :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| ليس الليل يجمع أم عمرو | وايانا فذاك لنا تلاني |
| نعم وترى الهلال كما أراه | ويعلوها النهار كما علاني |

ويقول عن سجنه :

| | |
|------------------------|------------------------|
| إذا جاوزت ما سعفات حجر | وأودية اليمامة فأنعاني |
| وقولا جحدر امس رهننا | يحاذر وقع مصقول يمانى |

ويقول من قصيدة أخرى عن هذا السجن بالكوفة :

يارب ابفض بيت أنت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سفر (٢)

(١) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في الشعر والقراء لابن قتيبة ص ١٨٠ وحماسة أبي تمام

١٨٢/٢ وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام ١٨٢/٢ ، ١٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في أمالي القائل ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ ، ٥٣/٣ ، ٥٥ والحيوان

للجاحظ ٤٣٥/٥ ومعجم ما استعجم للبكري ١١٤١/٤ .

١٤ - الجبر نفس النص :

لم تفصح الروايات فيما نعلم عن أكثر من هذا اللقب في ترجمته ، وإن كان ينسب نفسه في شعره إلى بنى ثعل ، وهو ممن وقع في قبضة السلطان من الصعاليك ، وذاق مرارة القيد والسجن ، وفي ذلك يقول :

أبلغ بنى ثعل غنى مفقولة فقد أنى لك من نى بانفجاج
لما النهار فى قيد وسلسلة والليل فى جوف منحوت من الساج (١)

وبعد هذه النبذ السريعة عن هؤلاء الشعراء ، والتي لم نقصد بها الترجمة الكاملة المفصلة لكل شاعر حيث أن ذلك ليس هدفا أساسيا للموضوع ، وإنما قصدنا تمييز شخصية كل شاعر عن الآخر ، وتحديد الخطوط العامة فى حياة كل شاعر وشخصيته حتى نستطيع منها فهم اتجاهه الشعرى ، والحكم على هذا الاتجاه على ضوء ظروفه الشخصية والاجتماعية ، بعد ذلك نقول أن هناك عددا من شعراء الصعاليك لم يرد استشهاد بشعر أحد منهم فى هذا البحث ، ولذلك نكتفى بمجرد ذكر أسمائهم وهم :

- ١ - جعفر بن عتبة الحارثي (٢) ٢ - إبراهيم بن هاني (٣)
- ٣ - أبو مازد الشيباني (٤) ٤ - حاجز بن الجعد (٥)
- ٥ - قواد بن عباد (٦) ٦ - عروة بن مرة الهذلي (٧)

ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع بأن من سبق ذكرهم هم كل شعراء الصعاليك ، ولكن الذى نؤكد أنه ليس هناك مرجع معين لشعراء الصعاليك ، وأن المرجع الوحيد الذى خصص للصعاليك تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم فيما نعلم هو كتاب اللصوص للسكري ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وإنما نقل عنه بعض العلماء كالبغدادي (٨) فجمع هؤلاء الشعراء الذين سبق ذكرهم وجمع تراجمهم وأشعارهم وأخبارهم مجرد اجتهاد فى التنقل بين متناثرات المراجع واشتاتها .

-
- (١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ وفي الهامش أنه ذكر فى الاشتقاق ٢٣٣ لابن دريد .
 - (٢) أنظر خزنة البغدادى ٤٦/٢ الشاهد ١١٥ وأغانى الأسفهانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بفهارس الأغانى وهو مخترم .
 - (٣) أنظر الحيوان للجاحظ ١١٠/٣ ورسائل الجاحظ ١١٢/١ .
 - (٤) أنظر شرح القصائد السبع الجاهليات لابن الأثيرى ص ١٢٥ .
 - (٥) أنظر معجم ما استمع للجبرى ١٣٨/٢ .
 - (٦) أنظر حنيفة أبى تمام ٣٧٣/١ .
 - (٧) أنظر الحيوان للجاحظ ٣٥١/٤ وديوان الهذليين ١٥٧/٢ فى رثاء أبى خراش أخيه
 - (٨) أغانى الأسفهانى ٦٣/٢١ وقتل عروة ضحية الهوى لغارته .
 - (٨) أنظر خزنة الأدب ١٨/٢ - ٢٢ .

وأعود فأكرر القول بأن الروايات في بعض حديثها عنهم لم تكن موضحة ولا محددة كل التحديد ، وخاصة فيما يتعلق بالفواصل الزمنية ، كشعر المخضرمين ، حيث لا نعلم أى شعرهم قالوه في الجاهلية ، وأيه قالوه في الاسلام ، الا ما ارتبط بحادث معروف الزمن ، أو ما دل عليه موضوع الشعر نفسه ومعانيه ، ونواحى أخرى من الغموض والاختلاف والتجاهل لبعض النواحى المهمة في الحديث عنهم ، ونعتقد أن هذا هو ما يدفع الباحثين في الشعراء الصعاليك الى الاتجاه الى التعميم ، وتحاشى التخصيص والحصر ، ايثارا لتجنب الخطأ أو القصور ، ولكننا نؤثر القول بأن المجتهد اذا أصاب فله أجران ، واذا أخطأ لم يحرم من أجر ، وقبل أن أفرغ من هذا الحديث أضيف أن الستة الآخرين الذين لم أترجم لهم ، بالاضافة الى عدم الاستشهاد بشعرهم فاننى لم أصل الى تراجم وافية لهم فيما استطعت الوصول اليه في فترة البحث غير أنهم شعراء صعاليك مع اضافات غير كافية الا جعفر بن علبة الذي ذكر البغدادي له ترجمة وشعرا في باب ان المشددة بالاضافة الى المواضع المشار اليها بالهامش .

الباب الثالث

شعر الصعاليك

مصادره:

لم يكن من قبيل المصادفة أن يتجنب الباحثون موضوع الصعاليك ، فلا يجعلونه هدفا لبحوثهم ودراساتهم ، فالواقع أن جانب الصعاليك وأشعارهم يكاد يكون أشد موضوعات الأدب العربي صعوبة واستعصاء على اليسر في البحث والدراسة ، من حيث أنه الموضوع الوحيد تقريبا الذي لم تصل إلينا عنه دراسة أو بحث متكامل ، مع أن الصعاليك سواء في الجاهلية والإسلام يمثلون طائفة بارزة مميزة في المجتمع العربي ، سواء أكان بروزها وتميزها موضع رضى أم سخط وكلا الحالين كان المفروض أن يدعو إلى الدراسة والاهتمام ، فإن التميز من شأنه لذاته أن يحظى بالاهتمام والتتبع والرغبة في الاستطلاع ، فكنا نتوقع أن نجد من الدراسة المستقلة ولو القدر الذي يعين الباحثين .

ولكن الواقع أننا حين نرجع إلى الأقدمين في بحوثهم ، نجد أنه لم يكن بدراسة مستقلة عن الصعاليك إلا أبو سعيد السكري في كتابه اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، وإنما نقل عنه بعض العلماء مقتطفات مبتورة ، كما نقل البغدادى عنه بعض حديثه عن عبيد الله بن الحر (١) وقد تتبع بعض الباحثين مصادر شعر الصعاليك (٢) ولكن نتيجة واحدة ينتهي إليها كل باحث في مصادر شعرهم ، وهي أنه بعد فقد كتاب اللصوص للسكري لم يعد هناك مصدر جامع لشعرهم ، وعلى كل باحث إذا أراد أو حاول الاستقصاء - مع تعذر إمكانه - لشعرهم أن ينتقل بين كل ما كتبه القدامى ، سواء من كتب منهم عن اللغة ، أو الأدب ، أو التاريخ ، أو المعاجم ، أو التراجم .

(١) خزنة الأدب ١٩/٢ ، ٢٢

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لكادول بروكلمان عن الشنفرى وثابت شرا وعروة بن الودد

وانظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ١٥١ - ١٦٧ .

وتفاديا للاطالة في تتبع مصادر شعر الصعاليك ، والتي نعلم مقدما أنها
مستنتهى الى النتيجة السابقة ، فلم في حديث موجز عن هذه المصادر فنقول :

بعد فقد كتاب اللصوص للسكري لم يعد في المراجع القديمة حديث مستقل عن
الصعاليك ولا عن شعرهم ، وانما سبقت تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم متفرقة
لا قصدا الى موضوعها لذاته وانما في سياق موضوع الحديث أو الكتاب ، أعني
ضمن الموضوع الذي يتعرض له المؤلف فمثلا معاجم اللغة كالصاح للجوهري
والقاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور هدفها شرح الألفاظ
وبيان معانيها في استعمالاتها المختلفة ، وفي هذا السياق قد يورد بعض
ما يتعلق بأحد الصعاليك ، فمثلا في مادة غرب يتحدث عن أغربه العرب هم فلان
وفلان والسليك بن السلكة ، وفي مادة نعم والنحام فرس السليك بن السلكة ،
وفي مادة صعلك ، وعروة الصعاليك ، هو عروة بن الورد كان يجمع الفقراء في
حظيرة فيرزقهم مما عنده ، وفي مادة ذاب ، وذؤبان العرب لصوصهم ، وذئبة
فرس حاجز بن عوف وهكذا ، وقد حفلت هذه المعاجم بمجموعة لا بأس بها من
شعر الصعاليك نظرا لان شعرهم يحتوي على كثير من أسماء الأماكن ، ومن
الألفاظ القريبة التي تحتاج الى شرح .

وفي كتب القواعد اللغوية ، كخزانة الأدب للبغدادى ، تحتاج هذه القواعد
الى شواهد عليها ، وفي سياق الشاهد تذكر القصيدة التي أخذ منها هذا
الشاهد ، ومن باب الاستطراد الذي يكاد يكون ملتزما ، يساق الشعر الذي
تربط بينه وبين شعر الشاهد أى رابطة ، كتشابه المعنى أو اتفاق الغاية أو
الحادثة التي قيل فيها هذا الشعر أو نحو ذلك ، وفي خلال ذلك نجد مجموعة
لا بأس بها من الأحاديث عن عدد كبير من الصعاليك وشعرهم .

وفي كتب الأخبار الادبية كأمالي القالي وكامل المبرد ، لا نجد لهذه الكتب
موضوعا معينا ، وانما هي روايات أدبية مقصودة لذاتها ، ورغم تبويب هذه
الكتب ، الا أننا نجد أن موضوعات كل باب لا تنطبق عليه كلها ، وانما يبدأ
الباب برواية أو روايات تناسب عنوانه ، ثم يستطرد في موضوعات شتى قد
لا يربطها بعنوان الباب سبب ، فمثلا في الكامل باب ذكر الأذواء من اليمن في
الاسلام ، يبدو بالاذواء ثم يستطرد الى أحاديث عن بعض الأمويين والعباسيين
وولاية مصر ، الى أشعار مختارة ، وآيات من القرآن قد يفلط في مجازها النحويون
وهكذا مما لارابطة بينه وبين عنوان الباب الا مجرد الاستطراد (١) وقد كان من
فضل هذا الاستطراد أن حفلت هذه الكتب بمجموعات كثيرة من أشعار
الصعاليك .

وفي كتب الامثال كمجمع الامثال للميداني ، نجد طائفة من أخبار

(١) انظر الكامل للمبرد ٣١٣/٢ - ٣٢٨ .

الصعاليك وأشعارهم حيث ان بعض الامثال قيلت في حوادث لبعض الصعاليك مثل « العاشية تهيج الآبية » في قصة سطو السليك على بيت رويم الشيباني وما قاله السليك فيها من شعر ، وبعض الامثال يتحدث عن الصعاليك ولو بالمعنى العام مثل « كل صعلوك جواد » .

ومن أهم الكتب في الحديث عن الصعاليك وشعرهم وان لم يكن أدقها كتاب الاغانى للاصفهاني وقد سيطر على الاصفهاني فيه هدفان ، أحدهما ما جعله هو هدفا في حديثه بمقدمته وعنوانه للكتاب ، وهو أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، والآخر ولعه بطرائف الاخبار وغريبها ، وقد سلك الى هذين الهدفين أسلوب الاستطراد الذي غلب على معظم كتب الاخبار القديمة وبذلك كله ساق كثيرا من الاخبار والتراجم والشعر عن كثير من الصعاليك لان في طرافة تراجمهم وأخبارهم ما يفرى مثله بالافاضة في الحديث عن يتعرض لحديثه منهم ، فضلا عن أن بعضهم له أشعار يتغنى بها ، ومع أن الاصفهاني ليس موضع الثقة الكاملة في رواياته وأحاديثه (١) الا أن له من علمه الواسع ، وذاكرته الجبارة في تأليفه ، ما لا يجعل لباحث أدبي غنى عنه .

ومن أهم آثار السكري بالنسبة لشعر الصعاليك ، مجموعتنا « أشعار الهذليين » و « ديوان الهذليين » حيث احتويا على مجموعة كبيرة من شعر صعاليك هذيل كأبي خراش والأعلم وصخر الغي وما تبودل بين الهذليين وعدوهم تأبط شرا من شعر ، ومن المصادر الهامة أيضا في شعر الصعاليك ، كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، حيث جمعا فيهما شعرا كثيرا من بينه قصائد ومقطوعات عديدة لكثير من شعراء الصعاليك ، ومن خير هذه الكتب دقة واستيفاء للقصائد المفضليات للضبي والاصمعيات للاصمعي وفي كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ومعجم الشعراء للمرزباني نجد تراجم لعدد لا بأس به من شعراء الصعاليك ، الا أن تراجمهم غير وافية ، وكذلك شعر من ترجموا لهم حيث نجد معظمه مقتطفات من القصائد غير مقصودة لذاتها في أغلب الأحيان ، وانما لارتباطها بالترجمة أو الأحداث .

وفي معجمات الاماكن والبلدان كمعجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت نجد مجموعة كبيرة من شعر الصعاليك ، لان هدف هذه الكتب شرح أسماء الاماكن وبيان موضعها ، وشعر الصعاليك حافل بالحديث عن الاماكن نظرا لكثرة تنقلهم في أماكن كثيرة تقتضيها حياة الصعلكة وأعمالها ، وأماكن نائية أو موعلة ليس من اليسير على غيرهم أن يرتادها ، حتى ان بعض هذه الاماكن لم يرد الا في شعر الصعاليك مثل نبال التي قال القالي : لم أر نبال الا في شعر السليك (٢) ويعتبر معجم البكري من أكثر الكتب ترديدا لشعر الصعاليك ،

(١) انظر آراء كثير من قدامى العلماء في تبريحه بترجمة المؤلف في صدر كتاب الاغانى .

(٢) انظر معجم البكري ١٣٣٩/٤ .

فان به مجموعة كبيرة من شعرهم ، بل انفرد بذكر شعر لم يرد في مصادر أخرى فيما أعلم كيعض ما أورده من شعر جند بن معاوية (١) وتوبة بن الحمير (٢) إلا أن ما ساقه من شعر يعتبر في جملته أبياتاً مفردة ، وقل أن يسوق بيتين أو ثلاثة مجتمعة ، ومع ذلك فان ما أورده من شعر له دلالة على جانب كبير من الأهمية ، فان بعض ما أورده من أبيات مفردة أو مثناة ، انفرد بذكره عن المصادر الأخرى كما مثلنا آنفاً ، ومعنى ذلك أن هذه الأبيات بترت من قصائد كانت معروفة أو مدونة حتى زمن البكرى ، ثم عبت بها الزمان فضاغت ولم تصل إلينا ، وينطبق هذا على كثير جداً من الأبيات التي ساقها البكرى في المعجم ، فاقنا حين تأخذ هذه الأبيات الكثيرة لنحاول العثور على القصائد التي انتزعت منها هذه الأبيات ، لا نعثر على قصائدها ، وفي هذا جانب مهم من الحجة للذين يرون أن كثيراً من الشعر القديم أو أغلبه لم يصل إلينا ، وفيه أيضاً جانب من الحجة على الذين يرون أن النثر هو الذي ضاع معظمه ، وأن الشعر لم يذهب إلا أقله (٣) .

ثم بقية للراجع القديمة مهما اختلفت موضوعاتها ، ولا اعتقد أن هناك شيئاً من اللبالة أو تجاوز الحقيقة في القول بأنها جميعاً وبدون استثناء تكاد لا تخلو من حديث أو شعر لبعض الصعاليك ، قل ذلك أو أكثر ، على ما في الوصول إلى هذه الأحاديث من صعوبة بالغة ، لا لتناثرها فحسب ، بل لانه لا يجمعها موضوع معين ، ولا تندرج في حديث بعينه ، وإنما تأتي عرضاً في سياق حديث قد يكون بعيداً عن كل ما يتعلق بالصعاليك ، وقد يضطر الباحث إلى استعراض كتاب كامل ليخرج منه ببضعة أبيات ، أو بضع فقرات عن الصعاليك ، ومن نحو هذا تتبين قيمة الجهد المشكور لهؤلاء نفر الذين عكفوا (٤) على دراسة بعض الكتب القديمة كالآغانى وبعض كتب الجاحظ وبعض معاجم الأماكن وكتب أخرى لحصر ما ورد فيها من أسماء الاعلام والأماكن والطوائف والمعاني ثم بتبويبها في فهراس مجمعة تعين الباحثين أى عون ، وتسخر لهم كثيراً من الوقت والجهد .

وأما عن دواوين الصعاليك ، فلم يصل إلينا منها إلا ديوانان ، أحدهما ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت ، وله شرح عليه ، أورد فيه ترجمة عروة وأخباره والحوادث التي ارتبطت بها بعض شعره ، وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين في مجلد واحد ، والآخر ديوان الشنفرى وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما في النسخة الخطية . الموجودة بدار الكتب المصرية (٥) .

(١) معجم البكرى ١١٤١/٤ بيت واحد .

(٢) المصدر السابق ٨٨٥/٣ بيت واحد .

(٣) انظر العسلة لابن رشيقي ٢٠/١ .

(٤) مثل جهود الأساتذة محمد عبد الجواد الاصمعي وعبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .

(٥) انظر تنبع مراحل الديوانين في تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١٠٥/١ وما بعدها .

وقد تتبع صاحب تاريخ الادب العربى أهم المراجع التى ورد فيها أخبار
أو أشعار عن مجموعة من شعراء الصعاليك ، هم تأبط شرا والسنفرى وعروة
ابن الورد (١) .

روايته :

مع أن الرواة والعلماء القدامى بذلوا جهدا بالغا فى تحرى الرواية والتزام
الصدق فى كل ما يتقلونه ويروونه ، وأخذوا أنفسهم وأخذوا غيرهم أيضا بالتزام
الدقة فى النقل والرواية وكان حسابهم على التهاون فى ذلك شديدا عسيرا ، حتى
ان صاحب بن عباد يصف أبا الغوث بأنه ابن سوء وأنه جاء من قبله الخذلان لانه
روى عن البحترى قوله .

واحق الايام بالانس ان يؤثر فيه يوم المهرجان الكبير
مع أن صحة البيت فيما يعرفه :

واحق الايام بالانس ان تؤثر يوم المهرجان الكبير
وحتى ان الاحمر أخذ على المفضل الضبى أنه روى لا مرى القيس .

« نمس بأعراف الجياد أكفنا » مع أن صحته « نمش » بالشين المعجمة
لا السين وأخذ عليه أيضا قوله :

واذا الم خيالها طرقت عيني فماء شجونها سجم
بالقاف مع أن صحته « طرفت » بالفاء ، وأخذ الاصمعى على المفضل أيضا
روايته لبيت أوس « تصمت بالماء تولبا جذعا » بالذال ، مع أن صحته « جدعا »
بدال مكسورة (٢) نقول مع أن العلماء التزموا مثل هذه الدقة ، وعابوا على الناقلين
والرواة مثل هذا الخلاف الذى يعتبر معظمه يسيرا ولا يحدث فى المعنى كبير
تغيير ، الا أننا حين نذهب الى شعر الاقدمين وخاصة شعر الصعاليك نجد فيه
اختلافا غير هين ولا يسير من ناحيتين :

(١) أنظر المصدر السابق .

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢/٢٤٩ ، ٢٥٠ .

أولا : الاختلاف في الالفاظ :

قد يكون الاختلاف في الالفاظ في الاخبار والتاريخ شيئا مقبولا مادام أصل المعنى محفوظا ولكن الامر يختلف بالنسبة للدب عامة ، والشعر خاصة ، فان الالفاظ في الشعر مقصودة لذاتها بما تؤديه من جرس وايجادات قد لا تستطيع الفاظ أخرى وان رادفتها أن تؤديها وقد يتوارد شعراء كثيرون على معنى واحد ، فيصوغه كل منهم في أسلوبه الخاص ، وقد يتفاوتون في ذلك جودة وضعفا تفاوتا كبيرا مع أن المعنى واحد ، وإلى هذا قصد الجاحظ حين رأى أن المعاني مطروحة في الطريق يلقاها العربي والعجمي ، وإنما يتفاوت الشعراء بحسن السبك وجودة اللفظ .

وشعر الصعاليك تعرض لاختلاف في كثير من الفاظه ومن أمثلة ذلك ميمية عمرو بن بركة ، فقد تعرض بعض أبياتها للخلاف في الفاظها فصاحب الأملالي يروى :

وكيف ينال الليل من جل ما له حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا غص الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم

بينما يروى البيت الثاني صاحب الاغانى هكذا :

صموت إذا غص الكريهة لم يدع لها طمعا طوع اليمين مكارم

ويروى القالي (١) والبكري (٢) وابن عبد ربه (٣) منها :

إذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الافراط يوم جوائم

بينما يرويه صاحب الاغانى هكذا (٤) :

اذ الليل أدجى واسجهرت نجومه وصاح من الافراط هام جوائم

ويروى القالي منها :

أفا ليوم ادعى للهوادة بعد ما أجبل على الحى المذاكى الصلادم
فان حريما أن رجا أن أردھا ويذهب ما لي يا ابنة القيل حاله

ويروى الاصفهاني :

أفا لأن ادعى للهوادة بعد ما أميل على الحى المذاكى الصلادم
كان حريما اذ رجا أن يضمها ويذهب ما لي يا بنة القوم حاله

(١) الامالي ١١٩/٢ .

(٢) معجم ما استعجم ٢٩٣/٢ .

(٣) العقد الفريد ٣٤/١ .

(٤) ويروى في موضع « واسجهرت نجومه » .

ويروى القالى والاصفهانى منها :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا فى ذا يالهمدان ظالم

ويروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١) :

وكننت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا فى ذا آل همدان ظالم

ويروى القالى :

فلا صلح حتى تقدع الحيل بالقنا وتضرب بالبيض الحفاف الجماجم

ويروى الاصفهانى :

فلا صلح حتى تعثر الحيل بالقنا وتضرب بالبيض الدقاق الجماجم

ويروى القالى :

متى تطلب المال الممنع بالقنا تعش ما جدا او تخترمك المخارم

ويرويه الاصفهانى :

ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعش ذا غنى او تخترمه المخارم

وفيهما اختلاف غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك الاختلاف فى بعض شعر شبيب عمرو بن كريب ، فيروى أبو تمام منه (٢) :

ولو انى لبثت لهم قليلا لمجرونى الى شيخ بطين
شديد مجامع الكتفين باق على الحدتان مختلف الشئون

بينما يرويهما الجاحظ هكذا (٣) :

ولو انظرتهم شيئا قليلا لساقونى الى شيخ بطين
شديد مجالز الكتفين صلب على الحدتان مجتمع الشئون

واذا أردنا مثالا واضحا لاختلاف الرواية فى الالفاظ ، وفى ترتيب الابيات ، فلنرجع الى مرثية مالك بن الريب ، فقد عنيت مراجع كثيرة بسردها منها أمالى القالى وأغانى الاصفهانى ، وخزانة البغدادى وجمهرة أشعار العرب للقرشى ، وفى كل منها اختلاف عن الآخر سواء فى الالفاظ أو فى ترتيب الابيات ، ولسنا نرى بأسا بسردها على طولها لتتخذها نموذجا لهذا الاختلاف ، لأهمية أثر هذا الاختلاف من وجهة القيمة الأدبية سواء أكان الاختلاف فى الالفاظ أم فى

(١) الموضوع السابق من العقد الفريد

(٢) ديوان الحماسة ٢٥٣/١

(٣) البيان والتبيين ٨٥/٣

الترتيب ، وهذه القصيدة قالها مالك حين احس الموت ، يرثى بها نفسه ويعبر
عن شعوره بالتشرد والغربة ، وهي كما رواها القالي (١) .

- ١ ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة
 - ٢ فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه
 - ٣ لقد كان في اهل الغضى لودنا الغضى
 - ٤ ألم ترني بعت الضلالة بالهدى
 - ٥ واصبحت في ارض الاعادى بعدما
 - ٦ دعاني الهوى من اهل اود وصحبتى
 - ٧ اجبت الهوى لما دعاني بزفرة
 - ٨ اقول وقد حالت قرى الكرد بيننا
 - ٩ ان الله يرجعني من الفزو لا ارى
 - ١٠ تقول ابنتي لما رأت طول رحلتى
 - ١١ لعمري لئن غالت خراسان هامتى
 - ١٢ فان ابيج من بابي خراسان لا اعد
 - ١٣ فله درى يوم اترك طائعا
 - ١٤ سدر الظباء السانحات عشية
 - ١٥ ودر كبرى اللذين كلاهما
 - ١٦ ودر الرجال الشاهدين تفتكى
 - ١٧ ودر الهوى من حيث يدعوصحابتي
 - ١٨ تذكرت من يبكى على فلم اجد
- بجنب الغضى ازجى القلاص النواجيا
وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
مزار ولكن الغضى ليس دانيسا
واصبحت في جيش ابن عفان غازيا
اراني عن ارض الاعادى قاصيا
بذى الطبيين فالتفت ورائيا
تقنعت منها ان الام ردائيا
جزى الله عمرا خير ما كان جازيا
وان قل ما لي طالبا ما ورائيا
سفارك هذا تاركى لا اباليا
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
اليها وان منيتموني الامانيسا
بنى باعلى الرقمتين وماليا
يخبرن انى هالك من ورائيا
على شفيق ناصح لو نهائيا
بامرى الا يقصروا من وثاقيا
ودر لجاجاتي ودر انتهاييا
سوى السيف والرمح الردينى باكيا

(١) الامالى للقال ١٣٦/٢ .

الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
عزیز عليهن العشية ما ييسا
يسوون لحدى حيث حم قضائيا
وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
يقر بعينى أن سهيل بداليا
برايبة انى مقيم لياليا
ولا تعجلانى قد تبين شائيا
لى السدر والاكفان عند فتائيا
وردا على عيني فضل ردائيا
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
سريما لدى الهيجا الى من دعائيا
وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
وطورا ترانى والعناق ركابيا
تخرق اطراف الرماح ثيابيا
بها الفر والبيض الحسان الروائيا
تهيل على الريح فيها السوافيا
تقطع اوصالى وتبلى عظاميا
ولن يعلم الميراث منى المواليا
واين مكان البعد الا مكائيا
اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا
لفرى وكان المال بالأمس ماليا
رحا المثل أو أمست بفلج كما هيا
بها بقرا حم العيون سواجيا
يسفن الخزامى مرة والا قاحيا

١٩ واشقر محبوبكا يجر عنائه
٢٠ ولكن بأكتاف السمينه نسوة
٢١ صريع على أيدى الرجال بقفرة
٢٢ ولا تراءت عند مروميتى
٢٣ اقول لأصحابى أرفعونى فانه
٢٤ فيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا
٢٥ أقيما على اليوم أو بعض ليلة
٢٦ وقوما اذا ما استل روحى فهينا
٢٧ وخطا بأطراف الأسنة مضجعى
٢٨ ولا تحسدانى بارك الله فيكما
٢٩ خذانى فجرانى بثوبى اليكما
٣٠ وقد كنت عطافا اذا الحيل أدبرت
٣١ وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى
٣٢ خطورا ترانى فى طلال ونعمة
٣٣ ويوما ترانى فى رجا مستديرة
٣٤ وقوما على بشر السمينه أسعيا
٣٥ بأنكما خلفتمانى بقفرة
٣٦ ولا تنسيا عهدى خليلي بعدما
٣٧ ولن يعلم الوالون بثا يصيبهم
٣٨ يقولون لا تبعده وهم يدفنوني
٣٩ غداة غد يا لهف نفسى على غد
٤٠ وأصبح مالى من طريف وتالد
٤١ فيا ليت شعرى هل تغيرت الرحا
٤٢ اذا الحى حلوها جميعا وانزلوا
٤٣ رعين وقد كاد الظلام يجنها

- ٤٤ وهل أترك العيس العوالي بالضحي
٤٥ إذا عصب الركبان بين عنيزة
٤٦ فيا ليت شعري هل بكت أمهالك
٤٧ إذا مت فاعتادى القبور وسلمى
٤٨ على جلت قد جرت الريح فوقه
٤٩ رهينة أحجار وترب تفضمت
٥٠ فيا صاحباً أما عرضت فبلغن
٥١ وعمر قلوبى فى الركاب فانها
٥٢ وأبصرت نار المازنيات موهنا
٥٣ يعود النجوج (١) أضواء وقودها
٥٤ غريب بعيد الدار نار بقفرة
٥٥ أقلب طرفى حول رحلى فلا أرى
٥٦ - وبالرمل منا نسوة لو شهدتنى
٥٧ وما كان عهد الرمل عندى وأمله
٥٨ فمنهن أمى وابنتاى وخالتى
- بركبانها تملو المتان الفياضيا
وبولان عاجوا المبقيات النواجيا
كما كنت لو عالوا نعيك باكيا
على الرمس أسقيت السحاب الغوايا
ترابا كسحق المرنباني هابيا
قرارتها منى العظام البواليا
بنى مازن والريب ألا تلاقيا
ستفلق أكبادا وتبكي بواكيا
بعلياء يثنى دونها الطرف رائيا
مها فى ظلال السدر حورا جوازيا
يد الدهر معروفا بأن لا تدانيا
به من عيون المؤنسات مراعيما
بكين وفدين الطيب المداويا
ذميما ولا ودعت بالرمل قاليا
وباكية أخرى تهيج البواكيا

وهى فى رواية الأمالى كما نرى ثمانية وخمسون بيتا ، وكذلك أوردها
البغدادى فى خزائنه (٢) من حيث العدد وكذلك أيضا أوردها صاحب
الأغانى (٣) بينما جعلها القرشى فى جمهرته (٤) اثنين وخمسين بيتا فقط ،
وأما من ناحية الاختلاف فأقرب الروايات إلى بعضها روايتا الأمالى والأغانى ،
ومع ذلك فبينهما اختلاف فى الألفاظ فى تسعة أبيات ، وإذا تجاوزنا عن أن
الأصفهاني صدر القصيدة بالبيتين الرابع والعشرين والسابع والعشرين فذكرهما
أولا ساردا القصيدة بعدهما ثم كررهما فى موضعهما من القصيدة مرة أخرى ،
ويمكن حمل ذلك على أنه فكر أولا فى الاكتفاء بهما كنموذج من القصيدة ثم رأى
أن يوردها كاملة ، وكل ما يؤخذ عليه أنه كان ينبغي أن يفصل بينهما وبين

(١) اللنجوج والينجوج عود الطيب يتبخر به .
(٢) الخزائن ٤٧/٢ .
(٣) الأغانى ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بالفهرس .
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٤٣ .

القصيدية ، حتى لا يوحي ذلك بأنهما مطلع القصيدة خاصة وأن القصيدة لم تلتزم التصريح في مطلعها ، مما يجعل أى بيت من هذه الوجهة يصلح مطالعاً لها ، إذا تجاوزنا ذلك نقول أن الأبيات التسعة التى اختلف فيها مع القالى تفاوت فيها الاختلاف قوة وضعفاً ، فبعضها فى مجرد حرف كالببيت الرابع والعشرين الذى ساقه الأصفهاني فى أول القصيدة ثم كرره فى موضعه منها فرواية الأمالى « فيا صاحبي » ورواية الأصفهاني « أيا صاحبي » وبعضها فى الكلمات وهيئتها كالببيت التاسع عشر ، فى الأمالى « واشقر محبوبكاً يجرع عنتاه وفى الأغاني « واشقر محبوبك يجرع لجامه » والببيت التاسع والعشرين ، فى الأمالى « خذاني فجراني بثوبى » وفى الأغاني « ببردى » والأمالى « فقد كنت » والأغاني « فقد كان » وفى الببيت الثلاثين فى الأمالى « وقد كنت ٠٠٠ سريماً لدى الهيجاء » وفى الأغاني « الى الهيجاء » وفى الببيت الثالث والأربعين فى الأمالى « كاد الظلام » وفى الأغاني « كان الظلام » وفى الببيت الخمسين فى الأمالى « فيا صاحباً » وفى الأغاني « فيا صاحبي » وفى الببيت الذى بعده فى الأمالى « وعمر قلوصى » وفى الأغاني « وعطل قلوصى » وفى الببيت الذى بعدهما فى الأمالى « موهنا » وفى الأغاني « أنها » وفى الأمالى « رانيا » وفى الأغاني « رانيا » وفى الببيت الأخير فى الأمالى « فمنهن أُمى وابنتاى وخالتى » وفى الأغاني « أُمى وابنتاهما » وسياق القصيدة يرجع رواية الأمالى حيث يتحدث فيها عن بعض بناته فى الببيت العاشر .

وأما فى رواية البغدادي فاختلاف أكثر ، حيث نجده فى خمسة عشر بيتاً هى الأبيات الخامس والثامن والثاني عشر والسابع عشر والتاسع عشر وفى التاسع والعشرين والثلاثين والثاني والأربعين والثالث والأربعين ، والسادس والأربعين ، والخمسين والذى بعده والثالث والخمسين والذى بعده والأخير ، وفى بعضها وافق الأمالى وفى البعض الآخر وافق الأغاني ، وزاد البغدادي أن فى اختلافاته يتغير تركيب الكلمات ، ففي الببيت الرابع والخمسين فى الأمالى « غريب بعيد الدار » أما فى الخزائن فهى « بعيد غريب الدار » .

على أننا نلاحظ أن هذه الخلافات فى جملتها لا تغير المعنى ، وكل حديثنا عنها من ناحية أهمية الألفاظ نفسها وترتيبها كما نطق بها الشاعر ، فإن الأديب أو الشاعر المطبوع ينفث فى كلماته وفى ترتيبها من الجرس ، والأحاسيس الخاصة ما لا نجده فى الفاظ أخرى وأن رادفت الفاظه ، بل ولا فى الفاظه نفسها إذا أخرجت من موضعها أو تغير ترتيبها ، ويكون مثل الفاظ الأديب أو الشاعر حينئذ ومرادفاتهما من الالفاظ الأخرى مثل سلكن من نوع وحجم واحد يسرى فى أحدهما تيار كهربى دون الآخر ، فهما فى مرأى العين لا يختلفان فى شئ ، ولكنهما عند اللمس والتذوق يختلفان اختلافاً شديداً .

وإذا كان الاختلاف في المصادر السابقة - على أهميته - في الالفاظ فقط ، بحيث لا يتغير بها المعنى تغيرا كبيرا ، فإن صاحب جمهرة أشعار العرب (١) كان اختلافه أبعد من ذلك ، فمن حيث العدد جعلها اثنين وخمسين بيتا فقط وخالف في الترتيب بين بعض أبياتها ، وزاد فيها بما لم يرد في الروايات الأخرى كقوله بعد البيت الثلاثين « وقد كنت محمودا لدى الزاد ٠٠٠ الخ ، وغير الالفاظ لم يرد خلاف فيها فيما سبق كقوله في البيت قبل الأخير (٢) « فمنهن أم ، مع أن الروايات الأخرى تتفق على أنها « أمي » .

هذا عن المراجع التي ساقته القصيدة كلها ، ونحن نذهب إلى المراجع التي استشهدت منها بأبيات مفردة ، أو اقتطعت منها نماذج ، نجد فيها أيضا اختلافات في بعض ما سبق وفيه اختلاف عن كل ما سبق فابن قتيبة يورد منها ثمانية أبيات (٣) فيها ما سبق من اختلاف وفيها مخالفة في بعض الالفاظ لكل ما سبق كقوله في البيت الرابع والعشرين « فيا صاحبي رحلي دنا الموت فاحفرا ، مع أنه في الروايات السابقة « فانزلا » .

والأصفهاني في موضع غير الموضع الذي ساق فيه القصيدة (٤) يذكر بيتا منها منسوباً لـ جعفر بن عتبة الحارثي ضمن قصيدته ويقول إن هذا البيت بعينه يروي مالك بن الريس في قصيدته المشهورة التي يرثي بها نفسه وهو البيت الواحد والخمسون .

وعطس قلوصي في الركاب فانها ستبرد اكبادا وتبكي بواكيا
بلفظ « ستبرد » مع أنه ذكره في القصيدة « ستفلق » .

والبكري (٥) يختلف في البيت العشرين عن كل الروايات السابقة فيقول « وإن بأطراف الشبيكة نسوة » مع أنها في الروايات السابقة ، ولكن باكتاف السمينه نسوة » .

وإذا كان علماء مثل القالي وابن قتيبة والبكري والأصفهاني والبغدادي والقرشي غير علماء آخرين يختلفون في قصيدة واحدة ، مع أنهم يصفونها بأنها مشهورة ، ومع أن عصر شاعرهما كان خيرا مما سبقه من العصور من حيث كثرة الرواية وضبطها وكثرة العلماء القائمين على نقلها وحمايتها من العبث بها والانحراف فيها ، نقول إذا كان الأمر كذلك نعلم إلى أي مدى يكون الاختلاف فيما دون هذه القصيدة وصاحبها من الشهرة ، وما قبل هذا العصر مما لم تكن

(١) القرشي ص ١٤٣ .

(٢) في الروايات الأخرى هو البيت الأخير .

(٣) الشعر والشعراء ٣١٢/١ .

(٤) أنظر الألفاظ ٤٨/١٣ .

(٥) معجم ما استعجم ٧٨١/٣ .

فيه الرواية قد وصلت الى صورتها تلك ، ولم يكن التفرغ لجمع الشعر وتدوينه قد وصل الى مرتبته حينذاك ، ولذلك يجد الدارس أن الاختلاف بين الروايات في الشعر الجاهلي أشد منه في الشعر الاسلامي ، وكتاب التنبيه على أوهام القالي للبكري يعتبر من حيث هو مثالا لبعض ما وقع من خطأ الرواية ، حيث أن الكتاب كله تصحيح لأخطاء الأماي التي صدرت عن أبي علي القالي .

ثانيا : الاختلاف في نسبة الشعر :

والنوع الثاني من الخلاف في شعر الصعاليك ، هو اختلاف الروايات حول نسبة بعض الشعر لأحدهم أو لغيره ، والمتتبع لهذا النحو ، يجد أن هذا الخلاف قد مس معظم شعراء الصعاليك ، فمثلا كما رأينا الأصفهاني يروي أن أحد أبيات مرثية مالك بن الربيع قد تنوزع حول نسبته إلى مالك أو جعفر بن علبة (١) .

وعن عروة بن الورد يروي القالي (٢) « قال عروة بن الورد » :

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| لا تشتمني يا بن ورد فأنه | تعود على مالي الحقوق الموائد |
| ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به | خصاصة جسم وهو طيان ماجد |
| واني امرؤ عافى انائي شركة | وانت امرؤ عافى انائك واحد |
| أقسم جسمي في جسموم كثيرة | واحبو قراح الماء والله بارد |

ويرد البكري على رواية القالي بقوله « هذا من أوهام أبي علي - القالي - رحمه الله وغفلته ، فكيف ينشد لابن الورد « لا تشتمني يا بن ورد » وانما البيت الأول من الأبيات التي أنشد لقيس بن زهير بن جذيمة صاحب حرب داحس ، يرد على عروة وكان بينهما تنافس وكان قيس أكرلا مبطانا فكان عروة يعرض له بذلك في أشعاره ، فمن ذلك قوله :

واني امرؤ عافى انائي شركة وانت امرؤ عافى انائك واحد
فقال قيس بجيبه :

لا تشتمني يا بن ورد فأنني تعود على مالي الحقوق الموائد

وقال محمد بن يزيد - رحمه الله - أن قوله « ومن يؤثر الحق النؤوب ... » ليس لعروة وانما هو لهذا العبسي الذي رد عليه (٣) « وهكذا يقسو البكري على القالي في غفلته مصححا خطأه ، مع أنه هو نفسه يشير الى عدم تأكده

(١) انظر الأماي ٤٨/١٣ .

(٢) الأماي ٢٠٠/٢ .

(٣) التنبيه على أوهام القالي ص ١١٢ .

من هذا التصحيح ، بدليل انه أدخل في الحديث رواية ابن يزيد ، ومع تحامل
البكرى على القالى نجد أن البكرى نفسه لم يكن دقيقا في هذا التنبيه ، فان
سياق المفارقة بين عروة وقيس يدل على أن البيت الثاني الذى نسبته البكرى
الى قيس وهو « أتها متى ٠٠٠ » ليس لقيس الا على تأول فى معناه بحمله على
غير النحول ، فالسياق يرجح انه لعروة وليس لقيس ، وقد نسبته الاصفهاني
فعلا لعروة (١) وقد تحاشى ابن السكيت هذا البيت فيما جمعه من ديوان عروة ،
فذكر بعض الأبيات السابقة ولم يذكر هذا البيت (٢) ، وكما التبس على القالى
فنسب الأبيات كلها الى عروة ، فكذلك التبس الأمر على المبرد فنسبها كلها
لقيس بقوله « وقال رجل من بنى عيس » ، قال أبو الحسن يقول لعروة بن
الورد (٣) ثم ذكر الأبيات الأربعة وأكثر ما وقع الاختلاف فى شعر الصماليك
كان فى شعر تأبط شرا ، ومن ذلك القصيدة التى أولها :

ان بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

وهي قصيدة رثاء ، وقد نسبها أبو تمام الى تأبط شرا (٤) ولكن روايات
أخرى تنسبها لابن اخت تأبط شرا يرثيه (٥) وبعض الروايات ترى أن ابن اخته
هذا هو الشنفرى ، والتبريزى يرى أن القصيدة مولدة من شعر خلف الأحمر
ويستنصر بالنمر وأبى الندى ، وليس لهم من دليل الا النقد الموضوعى
للقصيدة ، قائلين ان من عباراتها « جل حتى دق فيه الأجل » أى عظم الخطب
حتى صغر عنده كل عظيم ، ويرون أن الاعرابى « لا يكاد يتغفل الى مثل هذا »
وأن القصيدة تحدد موضع قتله بسلع من ضواحي المدينة مع أنه قتل فى بلاد
هذيل وألقى فى غار يسمى رخمان (٦) ، والواقع أنه وإن كانت هذه الأدلة مجرد
ترجيح الا أننا حين نتأمل القصيدة فى جملتها وأوزانها وحتى فى قافيتها نجدها
غريبة على شعر تأبط شرا وعلى شعر الصماليك بصفة عامة ، ومن ثم نجد لنقد
التبريزى وصاحبيه وجهته ، ومما اختلف فيه أيضا أربعة أبيات رواها بعضهم
فى قصيدة امرئ القيس المشهورة « قفا نيك » وهى :

وقرية اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العر قفر قطمته به الدثب يعوى كالخليع المعيل

(١) الأغانى ٣/١٤ .

(٢) انظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٨٠ ، ٨٧ .

(٣) الكامل ٣٦/١ والخمير لى يقول يعود على القمر أى أن المجنى يخاطب عرو بهذه

الشعر .

(٤) ديوان الحسانة ٣٤٢/١ .

(٥) النقد المفرد ١٢٧/٣ .

(٦) شرح التبريزى للحسانة ٣٤١/١ ، ٣٤٣ والأمال ٢٧٨/٢ .

فقلت له لما عوى ان شاننا قليل الفنى ان كنت لا تهمل
كلانا اذا ما نال شيئا افاته ومن يحترق حرثي وحرثك يهزل

ويرويه بعضهم لتأبط شرا (١) وبعضهم يلجأ الى النقد الموضوعي كالنقد السابق فيقول ان هذا أشبه بكلام الصعلوك لا كلام طالب الملك (٢) ، يعنى تصعلك تأبط شرا ، وطلب امرى القيس للملك ، وهذا واضح فى حديث الأبيات عن تفاصيل خاصة بحياة الصعاليك وفقدهم وعدوهم ، والجاحظ يكرر الشك فى نسبة بعض الشعر لتأبط شرا أو غيره ، فمرة يقول : وقال تأبط شرا أو أبو محرز خلف (٣) ومرة يقول : وقال تأبط شرا ان كان قالها (٤) وأخرى يقول : ومن هذا الباب قول تأبط شرا أو قول قائل فيه (٥) ، وبعض الباحثين يستنتج ان الجاحظ يغلب عليه الاعتماد على ذاكرته فى الاملاء والكتابة دون الرجوع الى المصادر للثبوت من مصدر الرواية (٦) ومثل هذه التفسيرات من الجاحظ فى تشكيكه تجعل للرأى المشار اليه قيمة .

ومن أمثلة الخلاف فى نسبة الشعر ما نسبته أبو تمام الى أبى الطمحان بقوله « وقال أبو الطمحان القينى الأسدى وحلقه ضاحب شرطة يوسف بن عمر (٧) » والتبريزى يقول انما الأبيات لطخيم أبو الطخماء الأسدى وكان بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المرى وكان على شرطة يوسف بن عمر فحلق رأسه فقال هذه الأبيات (٨) ، والواقع يؤيد التبريزى ، فان أبا الطمحان مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، فلم يدرك ذلك العصر ، على أن الحادثة حتى لو كانت فى أول الاسلام فلا تناسب أبا الطمحان ، لانه أسلم وهو شيخ أشيب ، فلم يكن فى لته من الجمال ما يصفه هذا الشعر بقوله :

لقد حلقوا منها غدافا كانه عناقيد كرم أينعت فاسبكرت
فظل العذارى يوم تحلق لمتى على عجل يلقطنها حيث خمرت

ومال العذارى وشيب أبى الطمحان ؟

ومن أمثلة الخلاف أيضا عن شعر أبى خراش الهذلى ، حديث البغدادي عن البيت التالى :

(١) شرح القصائد السبع لابن الاثير ومعنى الشعر الأخير ان من يش فى مثل عيشى وعيشك يهلك من الهزال .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ٩٣/١ .

(٣) الحيوان ١٨٢/١ .

(٤) الحيوان ٦٨/٣ .

(٥) الحيوان ٢٥٥/٦ .

(٦) هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، أنظر مصادر الشعر الجاهلى له .

(٧) ديوان الحماسة ٤١٢/٢ .

(٨) شرح التبريزى للحماسة ٤١٢/٢ .

اننى اذا ما حدث لك القول يا اللهم يا اللهما

حيث يقول نقلا عن أبى زيد وهذا البيت من الأبيات المتداولة فى كتب العربية ، ولا يعرف قائله ولا يقيته وزعم العيني أنه لأبى خراش الهذلى قال وقيله :

ان تغفر اللهم تغفر جما ولى عبد لك لا اله

وهذا خطأ - يعنى من أبى زيد الذى نقل عنه ما سبق - فان هذا البيت الذى زعم أنه قبته بيت ، مفرد لا قرين له ، وليس هو لأبى خراش وانما هو لامية بن أبى الصلت قاله عند موته وقد أخذه أبو خراش وضمه الى بيت آخر ، وكان يقولهما وهو يسمى بين الصفا والمروة وهما :

لا هم هذا خلص ان تما آتمه الله وقد آتمنا
ان تغفر اللهم تغفر جما الخ

وقد تمثل به النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

ومن الحق أن نقول : انه اذا كان الاختلاف فى الالفاظ قد أصاب كثيرا من شعر الصعاليك ، فان الاختلاف فى نسبته لم يصب منه الا القليل .

وهناك صورة أخرى من الاختلاف ، لا تخلو من غرابة ، هى أننا نجد بعض شعر الصعاليك منبثا فى شعر غيرهم ، ومنسوبا الى غيرهم ، كالبيت الذى قال الأصمهانى عنه أنفا انه مذكور فى قصيدة جعفر بن عتبة مع أنه بنصه ، فى قصيدة مالك بن الربيع السابقة ، وكأبيات تأبط شرا الأربعة ، التى أدخلت فى قصيدة امرئ القيس .

ومع ذلك فتعليل هذا ميسور ، بحمله على الالتباس فى نفس الراوى ، حين يروى قصيدتين لشاعرين من وزن واحد وقافية واحدة ، فقد يخطئ بوضع بيت أو أكثر من إحدى القصيدتين فى الأخرى :

ولكن الذى يصعب تعليله أن نجد مقطوعات كاملة أو شبه كاملة من شعر الصعاليك مذكورة ضمن قصيدة أخرى غير متفقة فى الوزن والقافية ، أو فى أحدهما مع قصيدة شاعر من غير الصعاليك ، مثال ذلك أبيات عروة بن الورد ، اننى اتفقت الروايات على أنها له وهى :

حما الله صلوكا اذا جن ليله
بعد الغنى من نفسه كل ليلة
ينام قتيلا ثم يصبح قاعدا
مصافى المشاش ألفا كل مجزر
أصاب قراها من صديق ميسر
يحث الحصى عن جنبه المتعطر

(١) خزائن الأدب ١٠٣/٢ .

يعين نساء الحي ما يستعنه
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه
مطلا على أعدائه يزجرونه
وان بعدوا لا يامنون اقترا به
فذلك ان يلقى المنية يلقها

فيضحي طليحا كالبعير المحسر
كضوء سراج القابس المتسور
بساحتهم زجر المنيع المشهر
تشوف اهل القائب المتنظر
حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١)

وهذه الابيات لم يختلف أحد في نسبتها الى عروة ، وهي من قصيدة طويلة
أوردها ابن السكيت في شرحه لديوان عروة .

وهذه الأبيات نفسها بمعانيها ، وتكاد تكون بالفاظها نجدها في قصيدة
ميمية لحاتم الطائي حيث نجد في آخر هذه القصيدة بنصه وترتيبه ما يأتي :

لما الله صعلوكا مناه وهمه
ينام الضحى حتى اذا نومه استوى
مقيما مع المثرين ليس يسارح
ولله صعلوك يساور همه
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة
يرى الخمص تعديا ولم يلق شعبة
اذا ما رأى يوما مكارم عرضت
ويغشى اذا ما كان يوم كريمة
يرى رمحه ونبله ومجنسه
فذلك ان يهلك فحسنى ثناؤه

من العيش ان يلقى لبوسا ومغنا
تنبه مثلج لفؤاد مورما
اذا نال جدوى من طعام ومجثما
ويهمي على الأحداث والدهر مقدما
ولا شعبة ان نالها عد مغنا
يبيت قلبه من قلة الهم مبهما
تيمم كبراهن ثمت صمما
صنور العوالي فهو مختضب دما
عتاد فتى هيحسا وطرفا مسوما
وان عاش لم يقعد ضعيفا ملما (٢)

فهذا التوافق الذي يكاد يكون كاملا في المعاني وان اختلف ترتيبها ، وفي
كثير من الألفاظ أيضا ، يدعو الى النظر ، ويصعب تعليله ، لأن القصيدتين ليستا
متفقتين في الروى حتى نقول باحتمال أنه حدث تدخل بينهما في رواية الأبيات ،
ومع ذلك فلسنا نرى هذا التوافق الظاهر بينهما يدخل فيما أجازته النقاد للشعراء
كتوارد المعاني أو توليدها أو تجديد صياغتها ، ولا فيما لم يجيزوه كالسرقة
والسطو ، لأن ذلك كله يحدث عادة في البيت أو البيتين ، والمعنى أو المعنيين بين
قصيدتين ، أما أن يحدث في جملة أبيات تصلح أن تكون قصيدة فهذا ما يدعو
الى النظر .

على أننا حين نعرض هاتين المجموعتين على النقد ، نجد أمامنا زاويتين
متعارضتين مما يزيد الموضوع لبسا وغرابة ، فمن الناحية الفنية يمكن أن نقول
أن هذا الشعر يصور نفسية الصعاليك ومذهبهم في الحياة ، وهو يتفق مع

(١) الكامل للبرد ٧٨/١ وديوان حساسة أبي تمام ١٥٩/١ ، ١٦٠ والقصيدة كاملة في
ديوان عروة ص ٩٢ .

(٢) خزائن البغدادي ٢٩١/٢ .

الاتجاه العام لشعرهم ، وما يتردد كثيرا من معانيهم ، ومن هذه الناحية يمكن أن يقال أن عروة هو السابق في هذا الشعر ، وإن حاتما أحد عنه معاويه كلها . ولكننا من الناحية التاريخية نجد أنه وإن لم تتحدد الروايات بدء حياة كل من عروة وحاتم وولائته إلا أنها تشير إلى أن حاتما سابق على عروة رغم قرب زمنيهما ، فإن حاتما لم يدرك الاسلام ، وإنما أدركه ابنه على وبنته سقانه ، ولقيما النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، وعروة أدرك الاسلام وإن لم يسلم ، ويدل على ذلك ما ورد في أخباره أن امرأته كانت فيمن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وإن كان هذا ترجيحاً ومن هذا لا نرى أمامنا إلا أن نرجح أن حاتما الطائي هو السابق بأبياته ، وإن حديثه عن الصعلكة ليس بغريب . بل ليس بغريب أن يكون قد زاول الصعلكة في فترات من حياته ، كما رأينا فيما سبق سادة مثله وأعلى منه سيادة زاولوها ، في مجتمع كان طابعه الغزو والسلب والنهب (٢) ، لا فرق في مزاوله أساليب الصعلكة فيه بين السادة والصعاليك إلا أن الصعاليك كانوا يتخذون من الصعلكة حرفة دائمة ، وغيرهم كان يزاولها في ظروف خاصة ، وحاتم الطائي مرت به بعض الظروف التي يمكن أن تدفعه إلى الصعلكة حينذاك ، ومنها الفقر في بعض فترات حياته ، كما ورد في أخباره (٤) وما يحدثنا به هو في شعره من مثل قوله :

غنيما زمانا بالتصعلك والغنى فكلما سقانه بكاسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة غنا ولا أزرى باحساننا الفقر (٤)

ونرجح أيضا أن عروة بن الورد بلغت أبيات حاتم ، وتأثر بها في شعره هذا ونستبعد أن يكون هذا من توارد الخواطر ، ونستبعد أيضا أن يكون من خطأ الرواية ، أو تداخل الأبيات بين القصيدتين .

على أننا مهما نجد من اختلاف أو اضطراب حول شعر الصعاليك ، فإن في شعرهم ميزة تحميه من الذوبان في غيره ، أو الالتباس بشعر آخر كما يحدث لغيره ، هذه الميزة هي أن شعر الصعاليك - كما سيأتي في الحديث عن منهجه وخصائصه - يتميز دائما بطابع خاص ، يميزه عن غيره من عدة زوايا ، بحيث يمكن للناقد ذي الذوق الأدبي الدارس لشعر الصعاليك ، أن يميزه عن غيره في غير جهد أو عناء شديدين ، وقد اعتمد البغدادى فعلا على هذا النقد الموضوعي في شعرهم عن غيره ، كما سبق في قوله عن أبيات تأبط شرا التي رويت في قصيدة امرئ القيس أن هذا الكلام أشبه بكلام الصعلوك واللص ، لا بكلام

(١) خزائن البغدادى ٢/ ٢٩١ .

(٢) أنظر تفسير قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم »

الآية ٦٧ المكتوب - تفسير الكشاف ، وأنظر ما سبق .

(٣) أنظر خزائن البغدادى ٢/ ٢٩٢ .

(٤) أنظر لسان العرب مادة (صعلك) .

الملوك (١) ولذلك اضطر الذين رأوا نسبة هذه الأبيات الى امرئ القيس ان يتلمسوا أخبار حياته ، ليجدوا فيها ما يثبت أنه تصعلك فترة من حياته ، أو أنه كان يتتبع الصعاليك وذلك فى فترات حروبه وصراعه من أجل استعادة ملك أبيه (٢) .

لامية العرب :

من حق اللامية لأهميتها ولما دار حولها من حديث أن تحظى بحديث خاص لا يفره سياق حديث آخر .

والواقع أنه لم تحظ قصيدة عربية بمثل ما حظيت به لامية العرب من اهتمام سواء فى القديم والحديث ، فقد تداولها الرواة ، ثم تناقلها كثير من العلماء والمؤلفين ، ثم توالى عليها عدد كبير من الشراح فى شروح خاصة بها (٣) وأشهرها أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري ، ثم جاء المستشرقون فأولعوا بها ولما بينا ، واكبوا على دراستها وترجمتها الى كل اللغات الأوروبية تقريباً ، مظهرين إعجابهم فى تقديم كل دراسة أو ترجمة عنها وصاحب تاريخ الأدب العربى (٤) يسرد كثيراً من دراسات المستشرقين وترجماتهم لها ، ويصف اللامية بأنها تمثل مذهباً شعرياً مستقلاً عن الشعر العربى القديم كله حيث يقول « أما فى لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فى تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلى وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضاً مقصوداً لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسى بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله » (٥) ثم يصفها عقب ذلك بأنها « قصيدة لامعة بين قصائد الشعر الجاهلى » ، والواقع أن حديث اللامية يحتاج الى بحث خاص ، ولكننا لا نستطيع الاضافة فى حديثها لأنها وإن كانت من صلب الموضوع كجزء من شعر الصعاليك ، بل غرة فى شعرهم إلا أن الحديث عنها ليس مقصوداً لذاته ، ومع ذلك يمكن أن نوجز ما يتعلق بها فى النقاط الآتية :

١ - صاحب اللامية وهو الشنفرى أزدى يمنى الأصل ، ولكنه سبى وهو صبى ، وعاش أسيراً فى بنى شيباء بن فهم من نجد ، ثم انتقل الى بنى سلامان

(١) انظر خزائن الأدب ٩٣/١ .

(٢) انظر الشعراء الصعاليك د. يوسف خليل نقلا عن الاصمعى فصل (الاسلوب القصصى) .

(٣) انظر فهارس الفروع بدار الكتب المصرية وبها أكثر من خمسة عشر شرحاً مطبوعاً ومخطوطاً للامية العرب كما عدد بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى كثيراً من الفروع ١٠٥/١ ترجمة النجار .

(٤) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما بعدها ترجمة النجار .

(٥) المصدر السابق .

ابن مفرج بنجد أيضا ، في حادثة مبادلة أسرى بين بنى سلامان وبنى فهم ، ومن خلال الروايات عن شخصية الشنفرى وظروفه ، نرى فيه شخصية فذة في عدة نواح ، في قوة الإرادة الى درجة غير مألوفة ، ومن أمثلة ذلك تصميمه على قتل مائة رجل من بنى سلامان وإنفاذ عزمه ، وفي قوة تركيبه الجسمي ، ومن أمثلة ذلك أنه كان يسبق الخيل في عدوه ، وفي قوة عقلية وعمق تفكيره ، ومن أمثلة ذلك أنه كما يصفونه كان يضرب به المثل في الحذق (١) والدهاء وما وصل اليه من شعره حتى غير اللامية يدل على ذلك ، وقد شاعت الظروف لهذه المواهب أن تعيش في أسوأ ظروف اجتماعية ، أبرزها أنه مجرد أسير ذليل لا يملك حتى حريته ، بل ازدادت الظروف قسوة عليه حين تعرض لحوادث اضطهاد وإذلال من بنى سلامان حين تطلعت نفسه الى الارتباط بأحد فتياتهم ، فاتجه الى الصعلكة حتى كان من أبرز الصعاليك وأشهرهم على الإطلاق صابا سخطه ونقمته على كل الناس ممثلين في بنى سلامان ، وموجز وصفه أنه شخصية فذة لامعة ، قسمت عليها الظروف حتى بفضت اليها الحياة .

وخلال وحدته وتشردة في الصعلكة قال هذه اللامية ، وهي ثمانية وستون بيتا ، فجاءت القصيدة مطابقة كل المطابقة لشخصيته بما فيها من مقومات وعقليته بما فيها من عمق ونضوج وظروفه بما فيها من قسوة وجفاف ، حتى كان القصيدة مرآة صقيلة نرى فيها الشنفرى وحياته بوضوح وكما وصف الشنفرى بأنه شخصية فذة لامعة ، كذلك وصفت اللامية بأنها قصيدة فذة لامعة كما يقول كارل أنها فذة في مذهبها لامعة في وضعها بين القصائد ، وهذا التطابق من أقوى الأدلة على أن اللامية من إنتاجه .

٢ - ظلت اللامية منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر مشهورة بأنها للشنفرى ، وقد تناولها كثير من أجلة الأدباء والنقاد بالشرح ، ولم يبدوا أى شك أو إشارة الى أنها نسبت لأحد من الشعراء غير الشنفرى ، ولم تؤثر في ذلك بذرة الشك التي وضعت في زمن خلف الأحمر . بأن اللامية من وضع خلف وليست للشنفرى فإن مثل هذه الآراء الضعيفة أو الغمزات الأدبية الطائفية شائعة في الأدب العربي حول كثير من الشعر ولكنها لم تؤثر في الاتجاه العام للنقاد والأدباء بمعنى أن كثيرا من القصائد غير اللامية نسبت في رأى ضعيف أو في إشارة عابرة الى غير شاعرها ، ولكن شهرة القصيدة في نسبتها لقائلها ومعرفة عامة العلماء لمصدرها ورواتها ، لم يجعل لمثل هذه الآراء الضعيفة قينة ولا تأثيرا في الاتجاه العام ، بل لم تكن هذه الآراء تحظى حتى بمجرد التخليق أو التعقيب في معظم الأحيان ، كالرأى الذى أثر في حياة القائل بأن اللامية من وضع خلف الأحمر ، فإن القائل نفسه وهو راوى هذا لم يعقب عليه ، ولم يحد فيما يبدو أنه يستحق المناقشة .

(١) أنظر ترجمته ومراجعتها بهذا البحث فصل (الشعراء الصعاليك : الجاهليون) .

وظل الأمر كذلك في شهرة اللامية بأنها للشنفرى ، وعدم التفات النقّاد والعلماء الى ذلك الراى المشكك حتى جاء المستشرقون في العصر الحديث ، ومع ما أبدوه من اعجاب شديد باللامية ، واهتمام بالغ بدراستها ونقلها الى لغاتهم ، الا أن بعضهم مثل كرنكو (١) أثار الشك في نسبتها الى الشنفرى ، وجعل من هذا الشك موضوع دراسة واهتمام ، ويذكر أنه تتبع آراء قدامى اللغويين في شكهم هذا ، في حين أننا لا نعلم أن أحدا في تاريخ الأدب العربى منذ الجاهلية نفى اللامية عن الشنفرى الا ابن دريد في رواية القالى من أن ابن دريد حدثه ان هذه اللامية لخلف الأحمر (٢) ، ولكن بعض المستشرقين لا يوافقون بعضهم الآخر على نفى اللامية عن الشنفرى ، وينفون بشدة أنها لخلف الأحمر مؤيدين بشدة أيضا أنها للشنفرى كما فعل صاحب تاريخ الأدب العربى (٣) فيما قرره .

٣ - اقتفى بعض الباحثين (٤) أثر المشككين من المستشرقين ، مشيرا الى تأثيره بهم ، وانتهى من حديثه عن اللامية بأنها ليست للشنفرى ، وانما هي لخلف الأحمر ، مع انه اعترف بأن النقاد والعلماء والشرح العرب في كل العصور نسبوها الى الشنفرى دون شك أو اشارة الى أنهم يشكون في نسبتها الى أحد غير الشنفرى ، وأنه لم تشذ عن هذا الاجماع الا رواية ابن دريد ، وحصر أدلته على أن اللامية ليست للشنفرى فيما يأتى : -

(أ) ابن دريد كان قريب عهد بخلف فهو أكثر صلة بالروايات حينذاك ، ونقل هذا عن كرنكو الذى أشرنا الى أنه تزعم الحملة ضد نسبة اللامية الى الشنفرى فيما رآه .

(ب) الأصفهاني في أغانيه ، ولسان العرب ، على كثرة حديثهما في شعر الصعاليك أغفلا ذكر اللامية فلم يرد لها ذكر في أحدهما ، ولم يستشهدا بشيء منها .

(ج) اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتا (٥) وهي في طولها هذا لا تتفق مع شعر الصعاليك من حيث أنه يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات مع أنه اعترف بأن للشنفرى قصيدة أخرى تبلغ خمسة وثلاثين بيتا (٦) وأنها أطول ما ورد من شعر الصعاليك ، وأضاف الى ذلك قلة الاضطرابات في ألفاظها .

(١) دائرة المعارف الاسلامية اللاتينية ٣٣٥/٤ كما ذكر كارل في تاريخ الادب العربى ترجمة النجار ١٠٥/١ .

(٢) أمالي القالى ١٥٥/١ وصاحب تاج العروس مادة (آم) ينسبها الى تابع شرى وواضح منه أنه ليس غير مقصود به الرواية .

(٣) كارل بروكلمان ١٥٥/١ .

(٤) أعنى به الدكتور يوسف خليف في الشعراء الصعاليك ص ١٧٧ - ١٧٩ .

(٥) هي في رواية القالى في الأمالي ٦٧ بيتا فقط .

(٦) هي قصيدة تائية بالفضليات من ١٥٨ وهي ٢٦ بيتا وليس العدد كما ذكر من أنه ٣٥ .

وترتيب أبياتها بين الروايات بخلاف شعر الصعاليك ، وأضاف أيضا ما لاحظته كرتكو من قلة أسماء المواضع والاشخاص فيها ، وهي بذلك تخالف الشعر كله .

(د) ختم حديثه هذا بأن اللامية خلف الأحمر ، وأن خلفا صور فيها حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا حتى يصح أن نطلق عليه لامية الصعاليك أو دنيا الصعاليك . هذه الأربعة مستندات هذا الرأي ، وحين نأتى الى مناقشتها نقول : أما الدليل الاول عن ابن دريد وقرب عهده من خلف وسلسلة تلاميذه ، فيرد عليه بعدة نوح ، منها أن القالى نفسه وهو الذى روى هذه الرواية عن ابن دريد ، معاصر لابن دريد حيث يقول « حدثنى أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التى أولها .

اقيموا بنى أمى ضدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لامليل

له - يعنى لحلف الأحمر - وهي من المقدمات فى الحسن والفصاحة » (١) وهذا فى سياق حديثه عن خلف حيث يقول قبل هذه الرواية مباشرة : قال أبو على : كان أبو معمر أعلم الناس بالشعر واللفه ، وأشعر الناس على مذاهب العرب ، ثم ساق روايته عن ابن دريد .

ومن نص رواية القالى فستنتج أكثر من ناحية ، منها أن نسبة اللامية للشنفرى كانت معروفة للقالى حيث يقول « القصيدة المنسوبة الى الشنفرى ، ومنها أن رأى ابن دريد كان أول شك أثير حول نسبة اللامية الى الشنفرى حيث لم يتحدث القالى عن شك آخر ولا عن رأى آخر يظهر رأى ابن دريد فى شكه ، ومعنى ذلك انه حتى حياة القالى وابن دريد كان العرب مجتمعاً ورواة وعلماء متفقين على أن اللامية للشنفرى دون أى شك فى ذلك ، ومنها أن الرواية نفسها تحمل طابع الضعف وتوحى بعدم الصحة ، لأن الرواية بدون سند فلم يحدثنا القالى أنه ابن دريد روى هذه الرواية عن أحد ، مع أن القالى من أدق العلماء فى التزام سلسلة الرواة فهو يلتزم دائماً عدا حديثه المشافه مع معاصريه أن يذكر سلسلة الرواية كاملة ، وفى الرواية السابقة لهذه الرواية مباشرة مثلاً يقول « حدثنى أبو بكر بن الانبارى قال حدثنا أبو عبد الله ابن أحمد البصرى المسمى قال حدثنا الرياشى قال حدثنا محمد بن عبد الوهاب الشنقى قال : دخلنا على خلف الأحمر فعوده فى مرضه الذى مات فيه . الخ ، وفى هذه الرواية عن خلف يجعل بينه وبين خلف أربعة رواة ، بينما اقتصرت روايته عن اللامية على قوله « حدثنى أبو بكر ابن دريد » ولم يذكر المصدر الذى استقى منه ابن دريد روايته .

وقد يسأل سائل : فما نقول فى هذه الرواية إذن ؟

والجواب أننا لا نفترض كذب القالى فانه من العلماء الثقات ، ولا ابن دريد

كذلك ، وأما الأمر بالنسبة للقالي أنه ينبغي أن نرجع الى سياق الرواية ، فإنه أوردهما في سياق حديثه عن أبي محرز خلف الأحمر ومقدرته الشعرية ، فكان من الطبيعي أن يذكر كل ما يعلمه عنه ، وكل ما ينسب اليه حقا أو غير حق ، وعلى غير المحق أن يتحمل تبعه جوره ، وكان مما يعلمه ما سمعه من ابن دريد ، فلا بأس عليه أن يذكره ، وعلى ابن دريد أن يتحمل تبعته ، وقد يقال أنه كان على القالي أن يبين رأيه في هذه الرواية ، فنقول : أنه وإن لم يصرح برأيه إلا أنه عرض به بأكثر من طريق ، منها أنه ترك رأى ابن دريد خلوا من تأييد أو تدعيم مما يوحى بضعفه . ومنها أنه صرح خلال الرواية نفسها بأن القصيدة منسوبة الى الشنفرى ، ومنها وهو الأهم أنه بينما ذكر هذه الرواية في الجزء الأول من أماليه ، عاد في الجزء الثالث فنسبها للشنفرى دون أى اعتبار لهذه الرواية أو إشارة اليها ثم ساق القصيدة كاملة (١) ومعنى هذا أنه مقتنع بأن اللامية للشنفرى دون شك منه ، وأنه إنما ذكر رواية ابن دريد عن نسبتها لحلف المجرد الأمانة العلمية في ذكر كل ما يعلمه عن شخص وإن لم يكن مؤمنا به ، ولست أدري لماذا لم يذكر أحد من الباحثين أن القالي ساق اللامية في الجزء الثالث منسوبة للشنفرى دون أن يشير الى أى شك في هذه النسبة .

وأما عن ابن دريد ، فإنا لا نفترض اختلاقه للرواية ، مع أن في أخباره على شهرته بالعلم الواسع ما ينزل به ولو قليلا عن ثقة العلماء من حيث الصلاحية لدقة الرواية ، فمن ذلك ما يروى البغدادى أنه « كان مواظبا على شرب الخمر » وكان يلقي الناس وهو سكران (٢) ، ومع ذلك لا نفترض كذبه ، وإنما ينبغي أن ننظر الى التيارات الأدبية والعنصرية المعاصرة له ، فابن دريد عاش في صدر العصر العباسى ، وعاصر الخليفة المقتدر ، وحينذاك كانت العصبية الطائفية بين العرب والفرس قد بلغت أوجها ، هذه العصبية التى برزت الى الوجود منذ الفتوحات الإسلامية ، وإن كان بعض الباحثين يرجعها الى الجاهلية (٣) وتمثلت هذه العصبية في عدة نواح منها المجال الأدبى ، الذى بدأت العنصرية الفارسية ضد العرب تتضح فيه على يدي بشار ثم اكتمل نضجها في عصر أبى نواس وزملائه ، حين فتح العباسيون أبوابهم وقلوبهم على مصاريعها للفرس ، فتكتلت القوى الفارسية ضد العرب ملتفة حول البارزين منهم كالبرامكة ، وفي حياة ابن دريد الذى ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة كانت هذه العنصرية فى قمته ، وكان يهيم الفرس أن يحشدوا أكبر عدد من شعرائهم يناقسون بهم الشعراء العرب ، وإن لم يستطيعوا ذلك فلا أقل

(١) الأمال ٢٠٥/٣ ولم يشر أحد من الباحثين الى ذلك .

(٢) أنظر خزائن البغدادى ٢٧٨/٢ ، ٧٨٩ .

(٣) أنظر الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب - المكتبة الثقافية ٩٢

من أن يحاولوا نسبة أكبر قدر من الشعر الموروث وخاصة جيده الى أحد شعرائهم ، وإذا لاحظنا ان خلفا الأحمر كان من الموالي (٤) اى من غير العرب ، فلا نستبعد أن أحد المتعصبين من الفرس فى زمن ابن دريد نفس على العرب أن يكون فى شعرهم قصيدة لامعة فذة كاللامية فزعم لابن دريد أنها لخلف الأحمر لينفيها عن العرب ، ويثبتها لشاعر فارسى الأصل هو خلف ، وأخذ ابن دريد الكلمة بحسن نية ولم يسأل صاحبها عمن روى عنه ذلك ، لشهرة خلف حينذاك بالوضع ، أو لعل ابن دريد من باب أمانة النقل كما فعل القالى قال لتلاميذه فى أثناء الدرس - ومنهم القالى (٢) - كل ما سمعه عن خلف ومقدرته فى الوضع ، ومن ذلك هذا الخبر عن اللامية ، على أننا لا ينبغي أن نظلم ابن دريد ، فعلى فرض أنه قال ذلك لتلميذه القالى نقول : انه لو كان لهذا الخبر اعتبار فى نفس ابن دريد لساقه فى مؤلفاته التى عدد البغدادى تسعة منها ، ولنقل تلميذه القالى عنها ذلك ، لأن القالى غاش بعد استاذة ابن دريد نحو خمس وثلاثين سنة ، حيث توفي ابن دريد سنة ٣٢١ هـ والقالى سنة ٣٥٦ هـ . وبحكم كونه أولى الناس بمعرفة مؤلفات أستاذه ، والاطلاع عليها ، على أننا لا نجد فيما وصل إلينا من كتب ابن دريد كالاكتشاف والجمهرة أثر لهذه الرواية ، ولم ينقل صاحب البحث الذى تناقشه شيئا من ذلك ، وكذلك المستشرق الذى تأثر الباحث به .

وإذن فكل ما يمكن أن نتصوره فى هذه الرواية أنها مجرد محاولة للتشكيك ، لا نجد ما يدل على أن ابن دريد نفسه أو القالى تأثر بها أو أقاما لها وزنا ونرجح أن مصدر هذه المحاولة كما قلنا نزعة التعصب العنصرية من جانب بعض الفرس ، ليسلبوا من الأدب العربى درة من أبرز درره ، وينسبوها الى بعض طائفتهم ، وقد يدعوننا هذا الى التريث فى قبول كل ما نسب الى خلف الأحمر ، أو اتهم بوضعه ، لرده الى المكان الصحيح ، ومما يدل على أن بين هذا التشكيك فى اللامية وعصبية الفرس صلة ، أننا نجد الطغرائى الذى جاء بعد ابن دريد بأقل من قرنين ، حيث توفي الطغرائى سنة ٥١٥ هجرية ، أظهر وهو فارسى غير لامية العرب فوضع قصيدته المشهورة ، وسماها لامية العجم (٣) ، ردا على لامية العرب ومنافسة لها ، أو منافسة للعرب فى لاميتهم ، ويبدو أن الطغرائى حين وجد أن التشكيك فى لامية العرب لم ينجح عمد الى محاربتها بطريق المنافسة والمعارضة ، وفى تسميته قصيدته بلامية العجم ما يحمل هذا المعنى ، وفيه اعتراف ضمني بأن لامية العرب للشنفرى ، لأنها لو كانت لخلف لكانت لامية عجم أيضا ، ثم ظهرت أيضا لامية الروم لابن الحكيم الحلبي (٤) .

هذا عن الدليل الأول من أدلة البحث الذى تناقشه ، وأما الدليل الثانى

(١) هو مولى الاسعريين . انظر هامش البيان والتبيين ١/ ٢٩٣ .

(٢) خزانة البغدادى ٢/ ٢٨٨ .

(٣) انظر الفيت المسجم فى شرح لامية العجم للصفدى .

(٤) انظر فهرس الكتب بدار الكتب المصرية حتى آخر مايو سنة ١٩٢٦ م ٣١٤

وهو أن الأصفهاني وصاحب لسان العرب على كثرة ما ذكرا من شعر الصعاليك لم يتعرضا للامية ، ومعنى ذلك أنها ليست للصعاليك .
وللرد على ذلك نقول : أما عن الأصفهاني ، فإنه في أغانيه سيطرت عليه نزعتان ، أحدهما جعلها عنوانا للكتاب ، وتحدث عنها في مقدمته ، وهي الحديث عن أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، حيث جعل ذلك هدفا ، وما سواه فتبع واستطرد ، والآخرى ولوعه بغريب الأحاديث ، وطريف الأخبار والاحداث ، ولم تكن اللامية من هذا ولا ذاك فلم يجد ما يدعو إلى الحديث عنها ، فضلا عن أنه لم يلتزم قط حين يتحدث عن شاعر أن يورد كل شعره ، أو حتى أن يعدد قصائده ، فلم يكن عليه بأس حين تحدث عن الشنفرى أن يذكر بعض شعره دون البعض الآخر ، فليس في ذلك دليل ولا ترجيح ، والشبهة الوحيدة التي كان يمكن أن تثار حول اغفال الأصفهاني للامية ، هي أن اللامية لم تكن موجودة حتى زمن الأصفهاني ، وإنما اخترعت بعده ، ونسبت إلى خلف الأحمر ، لغرض من الأغراض ، كالعنصرية التي أشرنا إليها ، ولكن هذه الشبهة لا محل لها ، لأن السابقين للأصفهاني تحدثوا عن اللامية ، والمعاصرين له تحدثوا عنها ، ومنهم القالى الذى أورد نصها في أماليه ، والقالى معاصر للأصفهاني ، بل تصادف أن توفيا في عام واحد ، هو سنة ٣٥٦ هـ (١) والقالى يذكر أنها منسوبة للشنفرى أى من قبل ذلك على أننا يمكن أن نتجاوز ذلك إلى القول بأنه لو فرض أن الأصفهاني نفى اللامية صراحة عن الشنفرى ، أو نسبها صراحة إلى خلف أو غيره ، لم يكن ذلك بالحجة التي نطمئن إليها ، لأن الأصفهاني لم يكن موضع الثقة بين العلماء في أخباره ورواياته (٢) ولوعه برواية كثير من الخرافات في أغانيه يؤيد ذلك .

وأما عن اغفال لسان العرب الاستشهاد باللامية فنقول : أولا لم يقل صاحب البحث الذى ناقشه انه استقصى لسان العرب كله ، وعلى فرض أن اللسان خلا من الاستشهاد باللامية فليس في ذلك دليل ولا ترجيح ، لأن صاحب اللسان لم يقل انه قصر استشهاده على شعر الصعاليك ، حتى نحاسبه على خلو شواهد من أبيات اللامية ، وحتى لو قال ذلك ، فليس في اغفاله للامية دليل أيضا ، لأننا حينئذ سنقول أيضا : هل قال اننى ذكرت كل شعر الصعاليك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لو فرضنا أن اللامية لحلف الأحمر ، فلم أغفلها ولم يستشهد بأبياتها ؟

ومن هذا نرى أن هذا الدليل من الوهن بحيث لا يفيد تدليلا ولا ترجيحا أيضا . على أننا أيضا لو فرضنا أن صاحب اللسان نفى اللامية عن الشنفرى أو

(١) أنظر ترجمة كل منهما في صدر كتابه .

(٢) أنظر آراء كثير من العلماء في تجريحه بترجمة المؤلف في صدر كتاب الأغاني .

نسبها الى غيره لم يكن ذلك حجة ولا دليلا . فهدفه وهدف غيره من اصحاب المعاجم شرح الالفاظ ، ونقل آراء العلماء فيها ، وهم في هذا يمس موضع تجريح ، ولكن بالنسبة للروايات يختلف الوضع ، حيث لا يلتزم كثير منهم افة ، فمثلا حينما يتعرض احدهم لشرح لفظ ، نجد ذهنه منصبا على هذا الشرح ، فاذا خطر في ذاكرته بيت شعر استعمل هذا اللفظ ، ساقه شارحا استعمال هذا اللفظ ، غير مهتم كثيرا بقائل هذا البيت ، لأن ذهنه منصوب على شرح اللفظ ، ومنهم صاحب اللسان والقاموس ، كما عدا تأبط شرا والشنفرى من الأغربة الاسلاميين (١) ، مع أنه لا خلاف في أنهما جاهليان ، وكنا نسب صاحب تاج العروس اللامية الى تأبط شرا ، مع أن ذلك لم يقل به أحد قط (٢) ، على أن هناك كتباً أخرى من أمهات المراجع استشهدت بأبيات اللامية ، ولم تبد شكاً في نسبتها للشنفرى ، ومنها نهاية الأرب للنويرى (٣) .

وأما الدليل الثالث من أدلة البحث الذي ناقشه ، فللرد على النقطة الأولى منه ، وهي أن طول اللامية غير مألوف في شعر الصعاليك وأن أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً وهي ثائية الشنفرى (٤) ، وما عداها من شعر الصعاليك يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات . للرد على ذلك نقول : أن الدليل نفسه يتضمن الرد عليه . ففيه اعتراف بأن الشنفرى صاحب أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، ومعنى ذلك أنه أطولهم نفساً في الشعر ، وأقدرهم على إنتاج المطولات ، فكيف نستبعد أن ينتج قصيدة تبلغ ثمانية وستين بيتاً مع اعترافنا بأنه أطولهم قصيداً ؟ والذي ينتج قصيدة تبلغ ستة وثلاثين بيتاً ، كيف لا يستطيع أن ينتج الثمانية والستين ونضيف الى ذلك أن الثمانية والستين بيتاً لا تعتبر في عرف رواة العرب ونقادهم طويلة ، ولا يصفون مثلها بأنها من المطولات ، أما التي يصفونها بأنها طويلة فمثل قصيدة النابغة الجعدي التي تبلغ مائتي بيت (٥) ، وقصيدة ابن دريد التي تسمى المقصورة وتبلغ مائتين وتسعة وثلاثين بيتاً (٦) ، أو ما كان قريباً من ذلك ، أو على الأقل أطول من اللامية بكثير ، كالعصائد السبع الجاهليات (٧) ، أما الثمانية والستون بيتاً كلامية العرب ، فلا تعتبر في عرفهم من المطولات ، إلا بالاعتبار النسبي ، أعني بالنسبة الى القصار ، وإن لم يكن هناك ما يمنع من وصفها بالطول .

على أننا لا نسلم باطلاق حكم المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين الذين

(١) مادة (غرب) .

(٢) مادة (آم .) .

(٣) أنظر ٢٢٧/٦ (أصوات القوس) .

(٤) هذه الثائية بالفضليات ص ١٠٨ وهي ٣٦ بيتاً .

(٥) خزنة البغدادى ٣١٩/٢ .

(٦) المصدر السابق ٢٨٧/٢ .

(٧) أنظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأبارى .

هم موضوع البحث المذكور فقد وردت لهم قصائد كثيرة يمكن ان نسميها بعرفنا طويلة ، فمن ذلك عينية مالك بن حريم ، وتبلغ أربعين بيتا (١) وراثيه عروة بن الورد ، وتبلغ نحو أربعين بيتا (٢) وعينية قيس بن منقذ وهي أربعة وأربعون بيتا وكلهم (٣) صعلوك جاهلي ، وقصيدة عبدة بن الطبيب تبلغ واحدا وثمانين بيتا (٤) مع أنه مخضرم قضى معظم حياته في الجاهلية يتلصص في الرباب .

فلامية العرب اذن ، لا هي بالطويلة طولا غير عادي ، ولا هي الوحيدة التي تجاوزت حجم المقطوعات بين شعراء الصعاليك ، ولا هي الوحيدة الطويلة بين شعراء صاحبها .

وأما غلبة شعر المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين ، فذلك لضعف الرواية واضطرابها في هذا العصر ، وكثير من الشعر الذي وصل إلينا يبدو أنه مبتور من قصائد ، ضاع معظمها ولم تصل إلينا منها إلا هذه الأبيات المبتورة ، وخصوصا ما ورد من الشعر الذي عاش أصحابه في زمن قريب من الاسلام أما الذين عاشوا في زمن أبعد من ذلك ، فإذا رجعنا إلى الروايات وآراء العلماء لا نجد غربة في هذه المقطوعات ، فهم يروون أن الشعر الجاهلي بدأ بالمقطوعات ، وأن أول من قال قصائد كاملة هو مهلهل بن ربيعة ، وأنه لم يقل شاعر قبله عشرة أبيات كاملة ، وأنه سمي مهلهلا لأنه هلهل الشعر أي رققه (٥) ويروون ان عنترة لم يكن يقول إلا البيتين والثلاثة ، حتى خاصمه رجل وسابه ، فقال قصيدة ، ثم درج على انشاء القصائد (٦) .

فالنقاد اذن يرون أن الشعر الجاهلي بدأ بالمقطوعات ، ومن الطبيعي أيضا أن يبدأ كل شاعر حياته الشعرية بالمقطوعات ، وخاصة في الجاهلية التي لم يكن الشعر فيها يرتبط بغرض معين يدفع الشاعر إلى الشعر ، الا غرض واحد ، هو التعبير عن انفعاله هو ازاء مشاعره الشخصية ، وانفعاله بأمر من الأمور ، وإذا أضفنا هذا إلى ما هو معروف من أن التاريخ والرواية وجمع الشعر لسم ينضجن الا مع الاسلام ، أو قبله بقليل ، لم يكن غريبا أن نجد المقطوعات شائعة في الشعر الجاهلي كله ، وخاصة شعر الصعاليك الذي كان أصحابه يحكم حياتهم أو حرفتهم أقل اختلاطا بالمجتمعات والرواة .

ولكن ذلك لا يؤثر قط في حديث اللامية من حيث ما يريدونه ، فقد قيلت

(١) الاصمعيات ص ٥٦ .

(٢) أنظر ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) هو قيس بن الحدادية أنظر الأغاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

(٤) المفضليات للفضي ص ١٣٤ .

(٥) أنظر خزنة البغدادى ٢٣/٢ وأعجب العجب شرح البيت ٢٩ .

(٦) المصدر السابق ٨٨/١ .

قصائد أطول منها ، وأسبق منها زمنا ، ولم تكن اللامية القصيدة الوحيدة الطويلة بين شعر المتنفرى ، ولم يكن هو الصعلوك الوحيد الذى قال قصائد طويلة فى الجاهلية كما قلنا .

وأما عن النقطة الثانية من هذا الدليل . وهى قلة الاضطراب فى ألفاظها وترتيب أبياتها مما يخالف شعر الصعاليك ، فنقول : ان الواقع غير ذلك ، وحين نرجع الى المقارنة بين روايات شراحها وناقليها نجد بينهم اختلافا كثيرا ، ان لم يزد عن مستوى الاختلاف فى الشعر الآخر للصعاليك فلن يقل عنه ، ويكفى للمثال أن نختار عالين من أدق العلماء فى الرواية ، هما أبو على القالى ، والزمخشري ، ومع دقتهما المشهورة نجد اختلافا بين روايتيهما للامية فى الأمل (١) وأعجب العجب فى شرح لامية العرب (٢) سواء من حيث الألفاظ أو من حيث الأبيات ، ففي الألفاظ نجد بينهما اختلافا فى أكثر من ثمانية وعشرين موضعا مع التجاوز عما يظن أنه من أخطاء المطابع ، وهى على وجه التحديد - حسب الترتيب الآتى عن رواية الأمل - فى الأبيات الأولى والثانى والسادس والثانى عشر والثالث عشر والثامن عشر والثانى والعشرين ، والبيتين اللذين بعدهم والتاسع والعشرين والثانى والثلاثين ، والرابع والثلاثين والذى بعده والثامن والثلاثين والثالث والأربعين والخامس والأربعين والثامن والأربعين والواحد والخمسين والذى بعده والرابع والخمسين والسادس والخمسين والثلاثة اللائى بعده والخامس والستين والذى بعده .

هذا عن الاختلاف فى الألفاظ ، وأما عن الأبيات ، فان القالى رواها سبعة وستين بيتا ، بينما رواها الزمخشري ثمانية وستين .

وهذا الاختلاف يدل على أن الزمخشري نقل عن رواية أخرى غير الأمل ، لأن الزمخشري جاء بعد نحو قرنين من القالى ، فالقلى ولد سنة ٢٨٨ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ بينما ولد الزمخشري سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

فالقول اذن بأن اللامية لم يصيبها ما أصاب شعر الصعاليك من الاختلاف ، لا يتفق مع الواقع ، ولا يصلح دليلا .

وأما النقطة الثالثة من هذا الدليل ، والتي نسبت الى كرنكو ، وهى قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها مما خالفت به المؤلف فى شعر الصعاليك ، فنقول عنها : ان فى هذا القول بعدا عن النقد الموضوعى ، فليست أسماء الأماكن والأشخاص ملحا لا بد أن يضاف الى كل طعام ، وأن تحشا به كل قصيدة ، وإنما ينبغى أن نسأل : هل كانت اللامية تقتضى ذكر الأماكن والأشخاص فخلت

(١) أمل القالى ٢٠٥/٣ - ٢٠٨ .

(٢) للزمخشري .

منها ؟ بل ، هل كانت تقبل استعراض أسماء الأماكن والأشخاص . والواقع
يجيب بلا ، فسياق اللامية وموضوعها ينحصر في تصوير نفسه إنسان ساطع ،
هجر حياة المجتمعات ليحيا حياة يرسمها هو لنفسه كما يريد ، وقد رسمها في
صورتين أو صورة واطار حول هذه الصورة ، فأما الصورة فهي الصعلكة ،
بما تتطلبه حياتها من أسلحة ، ومن صفات معينة في مزاولها ، وأما الاطار فهو
المعقل ، أو الصحراء التي يزاول منها صعلكته بما تحويه الصحراء حوله من مناظر
وطبيعة وحيوان ، فهذه العناصر الثلاثة ، السخط ، وحياة الصعلوك والبيئة
المحيطة به ، هي كل ما تشتمل عليه اللامية ، وقد وفيت اللامية بأغراضها الثلاثة
كأكمل ما يكون الوفاء وأدقه وأبلغه ، بل وفيت بغرضها في درجة لا يتصور أن
تربو عليها شاعرية أخرى أن بلغت ، وفوق هذا فهي لم تنطرق الى أى غرض
فرعى بل التزمت الوحدة بكل ما تعرفها بها مذاهبها ، من وحدة نفسية أو
عضوية أو موضوعية أو فنية (١) .

وبعد ذلك نسأل : ما الحاجة الى أسماء الأشخاص والأماكن لدى شخص
سخط على الناس فهجرهم متعمدا أن يعيش بين الوحوش ، كما فعل الشنفرى ؟
فهو ان كان في حاجة فالى أسماء الوحوش التي يعيش بينها لا الى أسماء الناس
الذين هجرهم الى غير رجعة ، وقد ذكر فعلا من أسمائها كل ما يمكن أن يزداد
السان في الصحراء .

واذن فهذه النقطة لا تتفق مع النقد الموضوعي للقصيدة بل توحى بنوع من
تلمس الاتهام في شيء من تحامل النقد وأما الدليل الرابع من أدلة صاحب البحث
الذي نناقشه ، والذي جعله في صورة نتيجة لأدلته السابقة عليه ، وهو أن خلفا
الأحمر صور في هذه اللامية حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا عن طريق
تمثيل حياة الصعاليك وشعرهم ، فنقول عنه : أنه من الغريب أنه كان ينبغي
أن يصل به هذا المعنى الى الحكم أو الترجيح بأن اللامية للشنفرى ، ولكنه وصل
به الى عكس ذلك فحكم في بساطة بأن اللامية لخلف الأحمر ، وذلك أن التصوير
الرائع الممتاز لحياة الصعاليك بالذات ، لا يتصور أن يصدر من شخص غير
صعلوك ، بل غير أصيل في الصعلكة فليست حياة الصعاليك قصرا مزخرفا
يمكن لأى شاعر أن يتجول فيه أو يتمثله فيصفه ، كما وصف البحترى إيوان
كسرى في سينته الشهيرة ، أن حياة الصعاليك الحقة بكل جوانبها ، من حيث ما
يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم
في مجاهلهم من مناظر قد لا يتاح لغيرهم أن يراها ، وما يسلكونه أو يتعرضون
له من مواقف رهيبة في تصلكنهم وأثر ذلك كله في نفوسهم ، كل ذلك لا يتصور
أن يصفه وصفا « رائعا ممتازا » شخص يعيش في أحد الأمصار بين مجتمع وادع

(١) أنظر النقد الأدبي الحديث للدكتور عيسى هلال ٤٠١ - ٤١٤ وآراء واتجاهات للدكتور

مطمئن ، من مجرد تمثله لحياة الصعلوك واشتعارهم ان ما صورته اللامية من أثر الطبيعة في بردها الذي يدفع الصعلوك الى ان يحطم قوسه ليوفدها ويستقو بها ، وحرها الذي يذيب اللواب وتتملح منه افاعي الصحراء ، ومطرها الذي يوحل الرمال فيجعلها غطشا وبغشا كما تقول أبياتها ، وما صورته من حياة حيوان الصحراء ومناظرها لا يتصور قط أن يصدر الا عن شخص عاش في هذه البيئة عيشا طويلا ، وانفعل بهذا العيش انفعالا شديدا ، والذي يلفت النظر في صور اللامية أنها مثلا حينما تتحدث عن حيوانات الصحراء ووحوشها لا تعد الى مجرد وصفها كالمألوف في الشعر ، وانما تلجأ الى تصوير معيشة هذه الحيوانات وحياتها مع علاقة ذلك بالصعلوك الذي يعيش في بيئتها ، وكان اللامية لا تكتفي وصف هذه الحيوانات ، ولا وصف مناظر الطبيعة ، وانما تتحدث عن الصعلوك وحياته ، فتربط به بطريقة غير مباشرة كل ما يحيط به من برد وجو وحل وعيون مياه ، وعوالم من الحيوانات لكل منها معيشته وأسلوبه في الحياة ، فخرم النحل - رئيس جماعة النحل - ورعيته من النحل ، لهن حياة ودقاع عن نتاجهن من العسل عجيب ، والأزل من الذئاب حين يجوع فيجمع عصايتها من ذئاب شيب الوجوه كأنها قذاح ، والقطا في سباقها الى الماء وتهافتها عليه ثم انصرافها بسرعة كأنها ركب مجفل من أحاطه ، وصورة الصعلوك في مكانه وهو يراقب الطريق بعينين كعيني الأنكى ، ويضحى في صورته كابتة الرمل (١) المترقبة المتوثبة ، وغير ذلك من التصوير الذي نعود فنقول أننا لا نتصور شاعرية تربو عليه ان بلغته ، والشئ الذي انفردت به اللامية فوق جودتها البالغة والتي أشار اليه كارل بروكلمان في سياق إعجابه باللامية هو أنها لا تلجأ الى الحديث عما تعرض له أو تصوره لذاته وانما تركز على النظرة الى هذا الشئ من خلال نفسية صاحبها وارتباط هذا الشئ الذي تتخذه موضوعا بصاحبها وحياته . وكل ذلك غير مستطاع الا لشخص يجتمع فيه أمران ، أحدهما التكيف مع حياة الصعلوك الى أبعد حدود التكيف ، والآخر القدرة على تصوير هذا التكيف الى أقصى حدود القدرة ، وهذان الأمران لم يكن خلف الأحمر منهما في شئ ، وكان الشنفرى منهما كل شئ فتكيفه مع حياة الصعلوك ظاهر وقدرته على تصوير هذا التكيف لا يبدو في اللامية وحدها وانما نجده في شعره كله ، فحين قلوس ما وصل إلينا من شعره نعلم ان شاعريته لم تكن عظيمة في اللامية وحدها ، وانما كانت عظيمة في مواضع كثيرة من شعره ، وميزة اللامية عن شعره أنها جمعت متفرقات عظيمة أو متناثراتها في لوحة كاملة ، فاللامية قريبة من شعر الشنفرى ومنهج تفكيره قريبا واضحا ، في حين أنها بعيدة عن شعر خلف ومنهج تفكيره عار. تلونه بعيدا واضحا أيضا كما يؤيد ذلك صاحب تاريخ الأدب العربي (٢) ، ومن هذا نرى أن الحديث كان ينبغي أن يصل الى أن اللامية

(١) العينة .

(٢) كارل بروكلمان ١٩٥١ .

للمستقرى كما يقتضى منطق النقد ، لا خلف لما ذهب صاحب البحث الذى
تناقشه .

ولسنا نريد من هذا الرد انكارا على باحث أن يبدى وجهة نظره أصاب
أو أخطأ ، فالاجتهاد فى حال صوابه وخطئه غير ممقوت ، غاية الأمر أن الاجتهاد
لا يتيقن أن يترك الطريق النيرة المستقيمة الى الدروب الملتوية المظلمة .

ولكن الذى بلفت النظر أن يكون متعصبو الفرس فيما فرجج ، أول من
يحاول سلب اللامية عن المنزع العربى فى القديم ، وأن يكون متعصبو المستشرقين
أول من يحاول احياء هذا التشكيك فى الحديث ، والأشد غرابة أن هذا التشكيك
سواء قديمه وحديثه لا يستند الى أى سند تاريخى أو فنى ، لأنه من حيث التاريخ
لم يعتمد على أية رواية الا كلمة ابن دريد ، وكلمة ابن دريد لا تعتبر من الوجهة
العلمية رواية ، لأنه لم يذكر سنداً لها ، ولا تعتبر رأياً لابن دريد ، لأنه لم
يسجلها فيما بلغنا من مؤلفاته وكثير من موضوعاتها حول الشعر ونقده ، ومن
حيث الوجهة الفنية لا نجد شبهاً أو تقارباً قط بين شعر خلف الأحمر واللامية ،
بيتما تجد الناحيتين التاريخية والفنية تؤكدان أنها للمستقرى ، فقد اتفق العلماء
فى كل العصور وفى مقدمتهم القالى الذى روى كلمة ابن دريد على أن اللامية
للمستقرى ، ويكفيها بالإضافة الى شراحها الكثيرين الذين لا يبدون شكاً قط فى
تسيتها للمستقرى ، يكفيها بالإضافة اليهم أن يجمع ثلاثة من صفوة العلماء والنقاد
على أنها للمستقرى ، وهم القالى (١) والزمخشري (٢) والنويرى (٣) .

ومن الناحية الفنية يكفيها دليلاً على نسبتها الى المستقرى اعتراف المشككين
أنفسهم بما بلغته من مقدرتها على تصوير حياة الصعاليك ، واعتراف البحث الذى
تناقشه بأنها صورت هذه الحياة تصويراً « رائعاً ممتازاً » .

وأظننا بعد هذا الحديث عن اللامية فى حاجة الى ابرادها ، ولكننا مع ذلك
نقول أن تذوق اللامية لا تكفى له القراءة العجلى ، وإنما يحتاج الى تأن ودراسة ،
وأيضاً ينبغى الحرص عليه للاستمتاع باللامية وتذوقها أن نحاول فهم ألفاظها ،
فتكاد تكون هى الحائل الوحيد بين القارئ العادى وبين ظهوره على جوهر
اللامية ، لغرابة كثير من هذه الألفاظ ، وهذا نص اللامية كما رواها أبو على
القالى وأشار الى أهم ما بينه وبين الزمخشري من خلاف فى الرواية مستعينا
بشرح الزمخشري .

(١) الأمالى ٢٠٥/٣ .

(٢) أعجب العجب فى شرح لامية العرب .

(٣) نهاية الأرب ٢٢٧/٦ .

فانى الى اهل سواكم لامل (١)
 وشلت لطيانى مطايا وارحل (٢)
 وفيها لمن حاف الفل متعزل (٣)
 سرى راغبا او راهبا وهو يعقل (٤)
 وارقط زهلول وعرفاء جبال (٥)
 لديهم ولا الجاني بما جر يعتدل (٦)
 اذا عرضت اولى الطرائد ايسل (٧)
 بأعجلهم اذ أجشع القوم اعجل
 عليهم وكان الافضل المتفضل
 بحسنى ولا فى قربه متعلل
 وايض اصليت وصفراء عيطل (٨)
 رصائع قد نيطت عليها ومعلم (٩)
 مرزاة تكلى ترن وتعلول (١٠)
 مجلدة سقبانها وهى بهل (١١)
 يطالعا فى شأنه كيف يفعل (١٢)
 يظل به المكاء يعلو ويسفل (١٣)

اقيموا بنى امى صلور مطيكم
 فقد حمت الضجات والليل معمر
 وفى الارض منى للكريم عن الاذى
 لعمرك ما بالارض ضيق على امرى
 فى دونكم اهلون سيد عملس
 هم الرهط لا مستودع السر شائع
 وكل ابى باسل غير اننى
 وان مدت الايدى الى الزاد لم اكن
 وما ذاك الا بسطة عن تفضل
 وانى كفانى فقد من ليس جازيا
 ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع
 هتوف من الملس الحسان يزينها
 اذا ذل عنها السهم حنت كائنها
 ولست بمهياف يعشى سوامه
 ولا جبا اكهى مرب بعرسه
 وهنا زاد الزمخشري بيتا لم يذكره القالى وهو :
 ولا خرق هيق كان فؤاده

- (١) فى رواية الزمخشري الى قوم سواكم ، والتفضيل فى اميل على غير بابيه اى مانله .
 (٢) حمت : تهيأت ، ومقبر : مضى ، والطية : الحاجة ، وارحل جمع رحل ، ورواية
 الزمخشري لطيات
 (٣) المتعزل : مكان العزلة .
 (٤) رواية الزمخشري ما فى الارض .
 (٥) السيد الذئب وقد يسمى به الأسد . والمجلس الذئب القوى السريع ، والارقط النمر
 والزهلول الأملس والجبال الضيع وعرفاء : طويلة .
 (٦) عند الزمخشري هم الأهل لا مستودع السر ذائع .
 (٧) يعنى مع قوة هذه الوحوش وبسالتها فانا ايسل منها وأسرع الى الصيد ، والزمخشري
 يرى المواد بالطرائد الفرسان المتسابقون للصيد ، وهو أنسب لما بعده .
 (٨) مشيع : كان له شيمة تناصره ، واييض اصليت : سيف صقيل ، وصفراء عطل :
 قوس طويلة المنق .
 (٩) الهتف الصوت والملاسة التهمة ويطلت علقت والحمل علاقة السيف . وعند
 الزمخشري الملس المتوق (جمع متن وهو الصلب) ونيطت اليها .
 (١٠) للزمخشري مرزاة عجل وتعلول من العويل .
 (١١) المهياف السريح العطش والمجدعة المقطوعة الاذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة
 غير مصروية ، يريد أنه لصبره على العطش يدخل سوائه المراعى البعيدة .
 (١٢) الجبا الجبان والاكهى الأبرء والسء الخلق أو البليد ، والمرب الملازم لمرأته والشرط
 الثانى مناء لا يحرس على اشتشارتها .
 (١٣) الخرق الدمش والبيق الظليم المكاء طائر يعنى لست ملوعا كالنعام ولا مضطربا
 كالضائر .

يروح ويغدو داهنا يتكحل (١)
 ألف اذا ما رعته اهتاج اعزل (٢)
 هنى الهوجل العسيف يهماء هوجل (٣)
 تطاير منه قاذح ومفلل (٤)
 واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (٥)
 على من الطول امرؤ متطول (٦)
 يعاش به الا لنى وماكل (٧)
 على الضيم الا ريثما اتحول (٨)
 خيوطة ماري تبار وتقتل (٩)
 ازل تهاده التناثف اطحل (١٠)
 يخوت باذئاب الشعاب ويعسل (١١)
 دعا فاجابته نظائر نحل (١٢)
 قذاح بكفى ياسر تتقلقل (١٣)
 محابيض رداهن سام معسل (١٤)

ولا خالف داريه متفزل
 ولست بعسل شره دون خيره
 ولست بمحيار الظلام اذا انتحت
 اذا الامعز الصوان لاقى مناسمي
 اديم مطال الجوع حتى أميته
 واستف ترب الأرض كى لا يرى له
 ولولا اجتناب الدأم لم يبق مشرب
 ولكن نفسا حرة لا تقيم بي
 وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت
 واغدو على القوت الزهيد كما غدا
 غدا طاويا يعارض الريح هافيا
 فلما لواه القوت من حيث أمه
 مهلهة شيب الوجوه كأنها
 أو الحشرم البعوث حثت دبره

- (١) الخالف الذى لا يخير فيه والدارى الملازم لداره يعنى لست تألها منقطعا للفزل والدهن والكحل .
- (٢) المل : القراد والمراد الرجل الملسن الضئيل الجسم كالقراد والالف العاجز .
- واحتاج أسرع بحق .
- (٣) المحيار المتخير وعند الزمخشري اذا انتحت أى قصدت واعترضت والهوجل الرجل الطويل الاحمق والعسيف الجاهل واليهماء المتاهة من الصحراء والهوجل آخر الفلاة لا اعلام بها .
- (٤) الا معز مكان الصلب كثير الحصى والصوان الحجارة اللس والمسم لى الاصل خف البعير يريد رجليه والقاذح الشر والمفلل المكسر .
- (٥) المطال من الماطلة وأذهل أنسى .
- (٦) الطول المني .
- (٧) عند الزمخشري لم يلف .
- (٨) عند الزمخشري نفسا مرة وعلى الدأم
- (٩) الخمص الجوع الشديد والحوايا الأمعاء والخيوطة السلوك ومارى رجل وعند الزمخشري بخاط وتقتل .
- (١٠) الأزل الذئب الخفيف الوركين والتنوفة المغارة والاطحل الأغبر اللون .
- (١١) الطاوى الجائع والهافى الجائع أو السريع ويخوت ينقض ويسسل يمشى الخبيب
- (١٢) لواه مطلقه ودفعه وأمه قصده والنظائر الاشباه والنحل المهازبل .
- (١٣) مهلهة رقيقة اللحم والقذح السهم قبل أن يراش والياسر القاهر .
- (١٤) الحشرم رئيس النحل أو بيت الزناير والمبعوث مسرع السير وحثت حض والدبر جماعة النحل والمحابيض العيدان التى يجمع بها العسل ورداهن انزلوهن والمسل جامع العسل وسام مرتفع وعند الزمخشري أرداهن . وهو تصوير لقصة جماعة نحل وجدت خلاياها مهيمة .

- مهرة فوه كان شقوقها
فضج وضجت بالبراح تانها
واغضى واغضت واتسى واتست به
شكا وشكت ثم ادعوى بعد وادعوت
وفاء وفات بادوات وكلها
وتشرب أسارى القطا الكدر بعدا
هممت وهمت وابتدرنا واسدلت
فوليت عنها وهى تكبو لعقره
كان وغاما حجرته وحوله
توافين من شتى اليه فضمها
فهب غشاشا ثم مرت كأنها
وألف وجه الأرض عند افتراشها
وأعدل منحوصا كان فصومه
فلن تبتسى بالشنفرى أم قصطل
- (١) شقوق العصى كاخات وبسل
(٢) وياه نوح فوق عليها، ثكل
(٣) أرامل عزاهها وعزته أرامل
وللصبر أن لم ينفع الشكو أجمل
(٤) على نكط مما يكتام مجمل
(٥) سرت قريبا أحشاؤها تتصلصل
(٦) وشمر منى فارط متمهل
(٧) يياشره منها ذقون وحوصل
(٨) أضاميم من سفلى القبائل نزل
(٩) كما ضم أذواد الأصاير منهل
مع الصبح ركب من أحاطة مجطل
(١٠) باهلا تنبيه سناش فحل
(١١) كعاب دحاهها لاعب فهي مثل
(١٢) لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول
(١٣) لما

- (١) مهرة واسعة الإشدق وفوه مفتوحة الأفواه والشندق جانب الفم والكلوح التكشير
وانبوس وبسل كربة الوجوه .
(٢) البراح الأرض العشاء والنوح جمع نالحة وثكل جمع ثكل وعلياء بقعة مرتفعة يعنى
رئيس النحل وجماعته .
(٣) يعنى أن رئيس النحل وجماعته جميعهن الحزن الشديد على العسل كأنهن فى مأثم
وحين يتسن من جدوى النواح أطرقن وتبادلن العزاء ، وأرامل جمع أرملة معروفة وعند الزمخشري
« مرامل عزاهها وعزته مرمل » والمرمل الذى نفد زاده ومرامل جمعه .
(٤) فاء رجم وبادوات مسرعات ومجمل صانع التجميل وعند الزمخشري نكط بالطاء ولعله
شفا مطبى فى الأمانى والنكط المجلة أو الجوع .
(٥) السؤر بقية الثراب والقرب المسير الى الماء على بعد ليلة وتتصلصل تصبوت وعند
الزمخشري أحناؤها تتصلصل والاحناء الجوانب .
(٦) أسدلت أرخت اجتحتها والفارط المتقدم والمتهمل المتشد فى أمره ، يعنى مسابقة بينه
وبين الظفار الى الماء .
(٧) يعنى شرب قبلها فلم يترك للقطا الا سؤرا فى عقر الحوض تكبو فيه لقلة الماء .
(٨) وغاما أصواتها حجرته جوانبه والأضاميم جمع أضمامة الجماعة منطسمين وعند
الزمخشري سفر القبائل أى مسافريهم .
(٩) توافين اجتمعن والذود ما بين الثلاثة والمشرة من الأبل والأصاير مجموعة الأبل نحو
الثلاثين والمنهل مورد الماء .
(١٠) العب شرب الماء من غير مص وغشاشا مستعجلة وأحاطة قبيلة من اليمن والأولى أنه
مكان والركب قطع وحشى .
(١١) الأهدأ شديد الثبات يعنى جسده وتنبهه ترقمه والسفا سن حروف فقاار الظهر وقمل
جافة .
(١٢) أعدل أتوسد ذراعا والمبحوم اليابس والفصوص المائل ودحاهها بسطها .
(١٣) تبتسى تحزن وعند الزمخشري أم قصطل بالسفن وهو الضيار كناية عن الحرب ،
وللعنى أن حرب العرب لم ترقى لها الآن . فلان سرورها قبل ذلك .

- طريد جنايات تياسرن حمه
تبيت اذا ما نام يفتى عيونها
والف هموم ماتزال تعود
اذا وردت أصدرتها ثم انها
فاما ترينى كابتة الرمل ضاحيا
فانى لمولى الصبر اجتاب بزه
واعلم احبانا واغنى وانما
فلا جزع خلة متكشف
ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا ارى
وليلى نحس يصطلى القوس ربها
دعست على بغش وغطش وصحبتى
فايمت نسوانا وايتمت اللة
فاصبح عنى بالغميصاء جالسا
فقالوا لقد هرت بليلى كلابنا
فلم يك الا نبأه ثم هومت
- (١) تياسرن لحنه اقتسموه ، والمقيرة اللحم ايضا ، والمعنى كثرت جناياته فلا يدري

- بايها يؤخذ .
(٢) عند الزمخشري تمام يعنى الجنايات وحنانا يعنى متعجلين .
(٣) عياد مصدر عاد والربع من الحمى ان تأخذ الحمى يوما وتلدع يومين ثم تجيء . وكذلك
همومه .
(٤) وردت حضرت . وأصدرتها رددتها وتثوب ترجع وتحييت تصغير تحت وعمل من العلو .
(٥) ابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقبة يريد مكان الترقب وعند الزمخشري رقة أى
رقة حال .
(٦) مولى الصبر صاحبه والسمع ولد الذئب من الضبع والحزم مفعول مقدم .
(٧) اعلم افتقر والبعدة البعد والتبذل المجازف يعنى ينال الفنى من يتنقل مبعدا مجازفا .
(٨) الخلة الفقر وعند الزمخشري من خلة والتخيل من الخيلاء يعنى لا أظهر شعورى بالفقر
ولا بالفنى .
(٩) تزدهى تستخف والاجهال جمع جهل وعند الزمخشري بأعقاب الأقاويل ورجل نمل أى
تمام .
(١٠) النحس البرد واصطلى استندقا بالنار وربها صاحبها والاقطع تصال السهام يعنى -
يستدلى بقوسه وصاله من البرد .
(١١) الدعس الوطء والفضش المطر الخفيف والغطش الظلمة وعند الزمخشري على غطش
وبنش والمار شلة الجوع والارزيز البرد والوجر الخوف والافكل الرعدة .
(١٢) الايم من النساء والرجال من لازوج له وايتمت اليتيم والدة اولاد وأليل مظلم .
(١٣) عند الزمخشري واصبح الغميصاء موضع يتجدد يعنى اصبح أهل الحى الذى غزوته
فريقين مسئول وسائل .
(١٤) هرير الكلب صوته وعند الزمخشري فقلنا أذئب والعس الطواف بالليل والفرعل ولد
الضبع .
(١٥) النبأ صوت وهومت نامت وربع أفزع للمجهول والأجل الصقر وعند الزمخشري فلم
تكن بالناء .
شعر الصعاليك - ١٧٧

وان يك انسأما كما الانس تفعل
أفأيه فى رمضأته تتململ (١)
ولا ستر الا الاتحمى المرعبل (٢)
لبأند عن أعطافه ما ترجبل (٣)
له عبس عاف من الفسل محول (٤)
بعاملتين ظهره ليس يعمل (٥)
على قنة أقمى مرارا وأمثل (٥)
عذارى عليهن الملاء المذبل (٧)
من العصم أدمى ينتجى الكيج أعقل (٨)

فأن يك من جن لأبرح طارقا
ويسوم من الشمرى يلوب لوابه
نصبت له وجهى ولاكن دونه
وضأ اذا هبت له الريح طيرت
بعيد بمس الدهن والفلى عهد
وخرق كظهر الترس قفر قطعته
فألحقت أولاه بأخراه موفيا
ترود الأراوى الصحم دونى كأنها
ويركن بالأصال حولى كأننى

منهج شعرهم وموضوعاته

بأستثناء الشذوذ الذى لا تخلو منه قاعدة أو حكم ، يمكن أن يقال أن شعر الصعاليك ليست له موضوعات معينة يتجه إليها اتجاها مقصودا ، ومع ذلك نجد أنه يكاد يطرق كل الموضوعات المألوفة فى الشعر العربى القديم على تفاوت فى تعرضه لهذه الموضوعات .

وقد يبدو فى هذا شىء من التناقض أو الغرابة ، ولكنها الحقيقة التى ينتهى إليها الدارس الناقد لشعر الصعاليك .

فشعر الصعاليك ، قصائده ومقطوعاته ، يغلب عليه نوعان ، نوع يحتوى على معان كثيرة رغم تقاربها ، وأغلب ما يكون ذلك فى القصائد ، كلامية الشنفرى ولامية عبدة بن الطبيب ونوع يطرق معنى واحدا أو يدور حول معنى واحد ، ويغلب ذلك فى المقطوعات ، وهى أكثر ما وصل إلينا من شعر الصعاليك .

(١) المراد بالشمرى شدة الحر واللوب ما ينتشر فى الجو مثل العنكبوت من الحر والمرض شدة وقع الشمس على الأرض .

(٢) نصبت أقمته والكن الستر والأحمى ضرب من البرود والمرعبل المنزق .

(٣) ضاف سابغ واللباد خصال الشعر بين الكتفين والأعطاف الجوانب وترجل تمشط أى لا يستر. وجهى الا ثوب ممزق وشعر غير مرجل .

(٤) العبس ما يتعلق بأذئاب الأبل من أبوالها وأبأارها فيجف عليها يعنى أن شعره لا ينال الدهن والتفلية فيتراكم عليه الوسخ والعبس .

(٥) الحرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستواء والعاملتان وجلاه والغصير فى ظهره للحرق أى مكان غير مطروق .

(٦) الغصير فى أولاه للحرق وموفيا مشرفا والقنة أعلى الجبل والاقاء جلسة خاصة وأمثل انتصب قائما .

(٧) ترود تذهب وتجىء والأراوى أنثى الوعل والصحم السود الى صفرة والملاء ضرب من الثياب يريد الأراوى تألفنى وعند الزمخشرى حولى كأنها .

(٨) يركن يشبتن والأصال جمع أصيل والأصم ، الوعل فى ذراعه بياض والادنى ما طار فنه ويستحى يعتمد ويقصد والكيج عرض الجبل وسنده والأعقل المعتنع .

ولكن الذى يلفت النظر أننا لا فى هذا ولا ذاك نجد القصد الى الغرض أو الموضوع واضحا ، بمعنى أننا حين نتأمل شعرهم فى جملته نجد أنهم لا يقصدون قصدا واضحا الى الحديث فى غرض معين أو التركيز فى موضوع خاص ، وحتى المقطوعات التى تدور حول معنى واحد ، مع أنها فى ظاهرها مقصورة على غرض وموضوع معين ، الا أننا بعد قراءة المقطوعة وتأملها نجد فى نفوسنا احساسا بأن موضوع القطعة ليس غرضا مقصودا لذاته ، وحين نحاول البحث عن الغرض المقصود نجد أنه دائما ينتهى الى شيء واحد ، هو شخصية الصعلوك نفسها وحياته ، فقد يتحدث الصعلوك مثلا عن الفقر ، وقد يتحدث عن السلاح ، وقد يتحدث عن الوحوش ، وقد يتحدث عن الناس ، ولكننا نحس أنه لا يتحدث عن شيء من ذلك لذاته ، فلا يتحدث عن الفقر من حيث وصف آثاره وملابساته لذاتها ، وإنما يتحدث عنه من زاويته هو ، وعن موقفه منه وتأثره به ، ويتحدث عن البيئة مثلا ، فيصف ليلة شديدة البرد ، أو يوما شديد الحر أو وحوشا ترود من حوله أو أعداء يرصدونه متربصين به ، ولكنه لا يتحدث عن شيء من ذلك حديث الواصف فحسب ، كما يتخذ بعض الشعراء من مثل هذه الأشياء لوحات فنية مقصودة لذاتها ، فيصفون ما فيها قاصدين الوصف لذاته ، وإنما يتحدث عن مثل هذه الأشياء من زاويته هو ، ومن حيث ارتباطه بها فى مزاوله الصعلكة وتأثره بها ، ومثال ذلك وصف عمرو بن براقة لظلام الليل وسكونه فى الصحراء فقد رسم لوحة فنية لاحدى ليالى الصحراء ، حين يوغل الليل ، فيخيم الظلام حتى لا يبدو فيه الا تالق النجوم ويسيطر النوم والسكون على البدو المقيمين بالصحراء ويخيم الهدوء والسكون فلا تسمع فيه الا اصوات البوم منعما من ثغايا الجبال ولكننا نجد ان هذا الوصف ليس مقصودا لذاته لهدفه ، وإنما يسوقه عرضا فى خلال حديثه عن غاراته وصعلكته قائلا انه ينتهز مثل هذا الوقت من الليل ليغير على أعدائه . فهو أضمن وقت لنجاح الغارة ، حيث يأخذ أعداءه على غرة ، أو ينسل من ما لهم بما يريد دون ان يشعروا به فيقول :

إذا الليل أدجى واسجهرت نجومه وصاح من الافراط بوم جوائم (١)
ومال بأصحاب الكرى غالباته فانى على أمر الغواية حازم (٢)

وكذلك يرى النسفرى يرسم لوحة فنية لاحدى ليالى الشتاء فى الصحراء ، نرى السماء فى هذه اللوحة يتساقط منها المطر ، ونرى الارض قد ابتلت رمالها فأصعبت مرحلة . وبرى فيما بين السماء والارض بردا قارسا بالغ القسوة ، ونرى بى هذه اللوحة صعلوكا حائرا بين مطر السماء ووحل الأرض وبرد ما بينهما ، وحاصرته هذه العوازل ، فاستبد به الجوع حتى بلغ اقصاه ، واستبد به الخوف

(١) ادجى اظلم واسجهرت لمعت والافراط محسوسة جبال

(٢) أمال النالى ١٦٦/٢ واسجهرت نجومه . رواية الاعامى اما روايه النالى فيقول : الكرى

ظلامه ، والكرى : النوم

حتى بلغ أقصاه ، واستبد به البرد حتى ظل جسمه كله يرتعد وحتى دفعه هذا البرد الى تحطيم قوسه الذي يذود بها عن حياته الوحوش والمخاطر فيوقدها هي وصالها ليستثنى بهن ، ويدفع عن جسمه بعض هذا البرد الشنيع .

هذه لوحة بديعة رائعة يمكن أن تستوعب قصيدة كاملة في غرض مقصود لذاته ، ولكننا نجد الشنفرى لا يسوق هذا الوصف كموضوع أو غرض مقصود ، وإنما يسوقه عرضا في خلال حديثه عن المتاعب والمخاطر الجسيمة التي تغلب عليها بقوة عزمه وإرادته فيجتازها حتى يبلغ هدفه من غاراته على أعدائه ، فليس هذا الوصف هو المقصود ، وإنما المقصود أنه لا يرده عن عزمه شيء فيقول من لاميته الشهيرة :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطعها اللائي بها يتنبسل (١)
دعست على غطش وبفش وصجتي سعار وادزير ووجر وأفكل (٢)
فايمت نسوانا وأيتمت اللة وعدت كما أبدات والليل اليل

وهكذا نجد هذا الاتجاه غالبا على شعرهم كله كما سنرى خلال الموضوعات الكثيرة التي طرقها شعرهم ، ومن هذا نعلم أنه لا تعارض بين القول بأن شعرهم لا يتجه اتجاهها مقصودا الى اتخاذ الموضوعات والقول بأنه طرق تقريبا كل الموضوعات المألوفة في الشعر القديم ، فالفاصل بين الاثنين هو القصد والاتجاه ، بمعنى أن الموضوعات نفسها موجودة ولكنها كما قلنا ليست مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود هو شخصية الشاعر الصعلوك نفسه وحياتها ، ولعل هذا مانعنا المستشرقون خلال حديثهم عن لامية العرب ونقدتهم أياها من قولهم انها تمثل مذهبها شعريا مستقلا عن الشعر القديم ، كما يقول صاحب تاريخ الأدب العربي « أما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والقيان وغيرها غرضا مقصودا لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسي يهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله ، (٣) ولكن هذا الاتجاه أو المذهب ليس قاصرا على اللامية وحدها ، وإنما هو طابع شعر الصعاليك كله في جملته وهذا الطابع من العوامل الأساسية في امتياز اللامية وبروزها بين الشعر العربي كله ، فحين نقول أن لامية الشنفرى طراز شعري فذ ، فليس معنى ذلك أن ميزتها جاءت من قبل شاعريتها ، وإنما جاءت قبل ذلك من قبل أنها تحمل هذا

(١) النحس البرد واصطلي استدفأ وربها صاحبها والاقطع فصال السهام .

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبفش المطر الخفيف والسعار شدة الجوع والادزير البرد والوجر الخوف والافكل الرعدة .

(٣) كارل بروكلمان ١٠٦/١ وما بعده ترجمة النجار .

الطابع المميز لشعر الصعاليك ، وأنها بلغت في هذا الطابع حد الكمال الشعري، وهذا الكمال هو كل ما تتفوق به عن شعر الصعاليك ، فحين ندرس شعر الصعاليك نجد أن معاني لامية السنفرى بل وكثيرا من طابع أسلوبها وخصائصها شائعا فيه ، واللامية جمعت أهم هذه المزايا ، وصاغت بها بما يلائمها من الأسلوب ، وصورتها فيما يبرز جمالها من الصور . ومعنى ذلك أن شعر الصعاليك ينهج منهجا متميزا عن غيره ، ويحمل طابعا يميزه عن سواه .

وإذا اردنا أن نلخص هذا الطابع في تقريره الى الذهن نقول : ان شعر الصعاليك أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التي يدون الشخص فيها افكاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف . وموقف الصعاليك هو الصعلكة بما يلازمها من أسباب تدفع اليها كالفقر والحاجة . ومخاطر يتعرضون لها في مزاوله الصعلكة من أعداء ووحوش ومتاعب ، وآثار تتمخض عنها الصعلكة من جنائيات يطالب أصحابها بالثأر لها . وموتورين يتربصون بالصعلوك الانتقام ، وهذه المواقف وما يتعلق بها هي التي تثير مشاعرهم الى الشعر . من ناحية احساسهم وتأثرهم بها ، فيسجلون بشعرهم هذا الاحساس ، ولهذا لم يبد في شعرهم تشتت أو تفكك رغم أنه لا يركز الحديث حول أغراض ثابتة أو موضوعات محددة فقد كان المتوقع وحال شعر الصعاليك كذلك من عدم تحديده موضوعات له أن يبدو مفككا متناثرا ، ولكنه لم يكن كذلك بل كان على العكس ، بادى الوحدة والترابط وعدم التناثر بين معانيه ، وذلك لأن لجوءه الى أسلوب المذكرات الشخصية جعل فيه قاعدة ثابتة تشد اليها كل المعاني ، هذه القاعدة هي شخصية الصعلوك ، فمهما كانت المعاني التي تطرقها القصيدة أو المقطوعة متباعدة في ذاتها فان ارتباطها بشخصية الشاعر في صورة المذكرات يجعلها شديدة الترابط لأنها تتجمع كلها حول هذه الشخصية ، والمعاني أو الأحداث لا بأس بتغايرها مادام هناك الرابط الذي يجمعها ، ومثال ذلك المذكرات الشخصية التي مثلنا بها ، فقد يكون هناك شخص في رحلة ، أو معركة ، أو موقف مثير ، فيسجل انفعالاته ومشاعره ، ويسجل مشاهدته ، وقد تكون هذه المشاعر مختلفة، وقد تكون المشاهد ، متغايرة ، ولكنها ما دامت مرتبطة بصاحبها فهي جميعا أجزاء في وحدة مترابطة ، كما لو تخيلنا مثلا مسافرا ضل الطريق في إحدى المجاهل فبات ليلة مخيفة عصيبة ، فحدثنا عن مشاعره في هذه الليلة ، فقد يحدثنا عن خوفه بما يشاء أن يصور في هذا الخوف ، وقد يحدثنا عن جوعه بما يشاء من تصوير ، وقد يحدثنا عن مفاجآت مرت به ، وقد تجمع هذه المفاجآت بين ما يشبه المتناقضات ، فيرى هذا التائه شبحا يتخيل فيه منقذا فيفرح أشد الفرح ، وإذا الشبح وحش مفترس فيفزع أشد الفزع ، أو يبلغ منه العطش فيرى ماء فيفرح فاذا هو سراب، وفي خلال ذلك قد يحدثنا هذا التائه عما

يشاء من مناظر مهما كانت مختلفة ، بشرط واحد مهم ، هو أن تكون هذه المناظر مرتبطة بالموقف الذى هو فيه ، فله أن يحدثنا عن مطر أصابه فى هذه الليلة ويصور آثاره كما يشاء وله أن يحدثنا عن وحوش رآها من مكنه فأخافته وعن أى شئ يحسه أو يراه مهما كانت الأحاسيس . أو المناظر مختلفة بشرط واحد كما قلنا هو أن ترتبط هذه الأمور بالموقف فإذا لم ترتبط كانت شتاتا مبعثرا ، لأن الموقف هو الحيط الذى يربط هذه المعانى على اختلافها فتبدو شيئا واحدا ، فإذا انفصلت عن هذا الحيط كانت بددا مبعثرا .

ومثال ذلك أيضا القصة نجدها تنتقل من الأحداث الأصلية والفرعية والمواقف المختلفة ولكن ارتباطها بشخصية بطل القصة ، وتتابعها فى خط يسير مع هذه الشخصية يجعل من أحداثها ومواقفها مهما اختلفت شيئا واحدا متتابعاً لأنها مرتبطة بقاعدة ثابتة هى شخصية البطل ، ولو تصورنا هذه الأحداث والمواقف التى تحتوى عليها القصة فى غير سياق القصة ، بأن أخرجنا منها شخصية البطل وارتباط الأحداث به ، ثم سردنا المواقف والأحداث المتعلقة بالشخصيات الأخرى لكانت صورة أحداث أى قصة شيئا مختلفا كل الاختلاف عن صورتها فى القصة ومن أمثلة هذا المنهج فى الشعر المعاصر قصيدة « ليلة التنفيذ » (١) التى نالت تقديرا كبيرا من النقاد ، والتى تصور شخصا محكوما عليه بالاعدام يصور مشاعره فى ليلة تنفيذ الأعدام ، وهى مشاعر عديدة مختلفة ، عن والديه ، وعن حياته وما مر فيها ، وعن نفسيته حينئذ ، وشعوره نحو ما حوله ، وخاصة السجناء وخطواته ، ونحو الغد وما وراءه ، ومشاعر أخرى ، وهذه المعانى على اختلافها بدت فى القصيدة مترابطة أشد الترابط ، لأنها مرتبطة بالقاعدة الثابتة ، التى تتمثل فى ليلة التنفيذ ، بالنسبة للمحكوم عليه .

وأوضح مثال لمنهج الصعاليك فى شعرهم لامية الشنفرى التى تصور فى جملتها شخصا ضاق بمقامه بين الناس ، حين ضاق بأخلاقهم وموقفهم منه ، وبلغ منه الضيق أن أبغض النوع البشرى كله ، فهجره الى حياة الصحراء بما فيها من وحدة ووحوش ، مسجلا ذلك كله فى قصيدة شعرية هى اللامية ، كما يسجل انسان مشاعره وبعض أحداث حياته فى مذكرات ومن هذا نصل الى نقطة أخرى مكملة للنقطة السابقة ، وهى أنه ما دام شعر الصعاليك يصور أحداث حياتهم ومشاعرهم نحوها فهل يحمل طابع حياتهم ؟ وهل استطاع أن يعكس خصائص حياتهم ؟ بمعنى أن الصعاليك كانوا كما هو معروف يحيون حياة متميزة عن حياة غيرهم باعتمادها على العدوان والسلب والنهب ، ومعاناة مشقات كثيرة فهل استطاع شعرهم أن يحمل هذا الطابع المتميز ، بحيث يمكن تمييزه عن غيره من الشعر ، كما تميزت حياة أصحابه عن حياة غيرهم ؟ وحتى يصدق عليه أنه ينهج منهج المذكرات الشخصية وللإجابة عن ذلك نقول :

(١) للشاعر هاشم الرفاعى .

نريد قبل ذلك أن نحدد الناحية التي تميزت بها حياة الصعاليك ، لنرى بعد ذلك هل انعكست هذه الناحية بموضوعاتها في شعرهم أم لا ؟ والناحية التي تميزت بها حياة الصعاليك متشعبة التفاصيل ، ولكن يجمعها جميعا أنها حياة صراع .

صراع مع كل شيء ، مع الأسباب التي دفعتهم الى الصعلة ، كالفقر والشعور بالمهانة والضياع ، وصراع مع الصعلة نفسها في مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك من مخاطر ومشتقات ، وصراع مع آثار الصعلة ، من الأعداء المجنى عليهم ، ونواحي أخرى تتمخص عنها الصعلة ، فحياتهم يمكن تلخيصها في أنها « حياة الصراع » وقد كان صراعا شاقا مضنيا قاسيا ، لا تقوى على دوام احتماله الا نفوس أوتيت مقومات خاصة من القوة والجلد وثبات العزيمة ، ولو لم يؤت الصعاليك من ذلك كله حظا كبيرا لما استطاعوا ان يكونوا صعاليك .

وقد انعكس هذا الصراع في شعرهم ، كما سنرى في الموضوعات الآتية ، فقل أن نجد مقطوعة منه ، بل قل أن نجد بيتين متجاورين يخلوان من التعبير عن هذا الصراع الذي شمل حياتهم كلها ، بل تعدى أحداث الحياة وأسلوب المعيشة الى دخيلة نفوسهم ، فتراهم يصارعون في نفوسهم معاني قلمسا يعرض لها غيرهم ، كالهجوم والخوف والتشاؤم من الحياة والاستخفاف بها ، حتى يمكن أيضا أن نسميه « شعر الصراع » وقبل أن ندخل في تفصيل موضوعات شعرهم نحب أن نقول : انه يمكن اجمال موضوعات الصراع التي طرقتها شعرهم في ثلاثة موضوعات رئيسة كما أشرنا آنفا ، أولها الأسباب التي من شأنها أن تدفعهم الى الصعلة كالفقر وآثاره ، والشعور بالهوان في المجتمع والضياع فيه ، وثانيها حياة الصعلة نفسها وبيئتها وأساليبهم في مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك ، وما يعدونه من أسلحة لها وما الى ذلك ، وثالثها الآثار التي تجرهما عليهم الصعلة ، كالأعداء ، والسلطان في الاسلام بما يحتوى عليه هذان المجالان من نواح .

وهناك أمران نحب أن نزيدهما وضوحا ، أحدهما أن الأحكام وخاصة في الأدب لا ينتظر فيها أن تكون قاطعة جافة ، كالأحكام الرياضية مثلا ، بل فيها مجال للرأى واختلاف الوجهات ، وقد تختلف وجهتان في الأدب ، ولا نستطيع أن نحكم على أحدهما بالخطأ ، لأن كل منهما تنظر من زاوية ، والشأن في نواحي الأدب ، وفي صوره بالذات أن يكون لها أكثر من زاوية كزاوية الأسلوب ، وزاوية المعنى ، وزاوية التصوير ، بل كل من هذه قد تكون له أكثر من زاوية أيضا فلا ينتظر من أحكام الأدب أن تكون قاطعة جافة ولا ينتظر منها وهو ما يعني أن تكون شاملة مستقصية ، بمعنى أننا حين نحكم على شعر الصعاليك حكما أو نصفه بوصف ، فليس معنى ذلك أن نجد هذا الوصف في كل شعر لهم ، وإنما يكفي أن يكون طابعا بارزا في معظم شعرهم .

والأمر الثاني أننا لا نتوقع أن تكون حياة الصعاليك ولا حياة أي إنسان في عزلة كاملة عن الناس والمجتمع ، فهم وإن كانوا قد فرغوا حياتهم أو معظمها للصعلة ، إلا أنه كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يشهدون فيها مجتمعاتهم فيها حياتهم وأحداثهم ومشاعرهم ، وفترات أخرى يكونون فيها عن الصعلة أما للشيخوخة كأخريات عبدة بن الطبيب ، وأما للاستغناء بمصاحبة الأمراء كمالك بن الربيع وبكر بن النطاح ، وأما للتوبة كالأحيمر السعدي وعبيد بن أيوب في أخريات أيامهما .

ففي هذه الفترات كانت حياة المجتمع تدعوهم إلى التجاوب معها ، فينتجون شعرا يمثل حياتهم الاجتماعية ، بما فيها من غزل ومدح وثناء وحكمة ونحو ذلك ، ولكننا حتى في شعرهم الاجتماعي ، لا نعلم ما ينم عن أشخاص وطريقة تفكيرهم وأخلاقهم ، ويمكن أن نسمي هذا النوع « الشعر الاجتماعي » .

وإذا شعر الصعاليك يشتمل على موضوعين أساسيين ، أحدهما « شعر الصراع » ويشمل الموضوعات المشار إليها بفروعها ، والآخر « الشعر الاجتماعي » ويشمل حياتهم وصلاتهم الاجتماعية .

ولنتحدث أولا عن الصراع بأنواعه المختلفة في شعرهم .

صراع الضياع

في هذا الحديث نرى شعرهم يصور صراعاتهم مع الإحساس بالضياع والهوان في المجتمع ، ومن خلال شعرهم نراهم متفقين على اختلاف أماكنهم وعصورهم على نظرة واحدة ينظرون بها إلى وضع الفرد في المجتمع ، هذه النظرة هي أن الفرد ينبغي أن يكون ذا شأن في مجتمعه أي كان هذا الشأن فإذا لم يتح له وضعه الاجتماعي أن يكون في المكان المرموق من السيادة أو الفروسية أو حصانة الجانب ، فليسلك أي طريق تجعله في مكان مرموق ، ولو كانت هذه الطريق مضادة عدوانية كما يقول القائل :

إذا أنت لم تنفع فصر ، فانمنا يورجى الفتى كيما يضر وينفعا

وينظر الصعاليك إلى أوضاع مجتمعهم فإذا أمامهم عقبتان من أشد العقبات صلبة ووقفا في طريقهم ، أحدهما الفقر الذي يعتبر صفة مشتركة بينهم ، والذي لم تستطع حتى جهودهم في الصعلة على قوتها وعنفها أن تخلصهم منه ، ولذلك أصر معظم علماء اللغة على تفسير الصعلة بأنها الفقر ، مع اعترافهم بالمدلول العدواني لها ، وينظر الصعاليك فإذا الفقر

بالإضافة الى كونه تهديدا لحياتهم نفسها هو أول عوامل هدم الكيان الاجتماعي للمرأة ، فالفقير شخص مهين في المجتمع طالما كان فقيرا ، واني له الخروج من هذا الفقر ، في مجتمع يزداد فيه الفقراء كل يوم فقرا ، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى ويتبع ذلك أن يزداد الأغنياء تسلطا ومجدا وعلاوا ، بينما يزداد الفقراء هوانا ومذلة ودنوا ، وليس من حق الفقراء أن ينتقصوا من سلطان الأغنياء ، بينما من حق الأغنياء أن يزدوا الفقراء ضعة وهوانا .

والعقبة الثانية احتكار المجد والسيادة في المجتمع القبلي ، فالسيادة فيه دائما محتكرة في بيوت معينة تتوارث السيادة ومهما تنقلت السيادة بين الأفراد فلا ينبغي أن تتجاوز البيت الذي توارثها ، وقد كانت شيمة هذه السيادة خاصة في الجاهلية عتوا وتجبرا واذلالا للأفراد وفي مقدمتهم الصعاليك لأنهم فضلا عن وقوعهم في نطاق السيادة فهم فقراء وينظر الصعاليك فإذا في أشخاصهم من القوة والعزة ، ومن الحمية والألفة ما يصطدم بالعقبين معا اصطداما عنيفا ، فلا تسبخ نفوسهم حال الفقراء وتعرضهم للموت جوعا ، والذل هوانا ، ولا تهضم عزتهم أن يعيشوا بين القطيع تدفعهم عصا السادة وتحركهم كبرياء المتسلطين . ولكنهم في مجتمع كهذا لا يجدون أمامهم سوى طريقين اثنين ، طريق الاستسلام للهوان حتى الموت ، بكل ما يفرضه الاستسلام أو طريق التمرد ، وليس أمامه الا الصعلة ، بما تكبدتهم هذه الطريق من مشقة وعناء .

وسنرى كيف صور شعرهم موقفهم من العقبتين ، عقبة « الفقر وآثاره » وعقبة « الهوان في المجتمع »

الفقر وآثاره

١ - القسوة :

لا شك أن أول ما نحسه في حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذي لازمهم منذ نشأتهم والذي كان من أبرز الأسباب التي دفعتهم الى الصعلة ، ولذلك نجد الروايات تقرر غاراتهم وغزواتهم بالفقر ، بل بالمجاعة في أكثر الأحيان على انها سبب مباشر ، كما تردد كثيرا في اخبار عروة بن الورد من مثل « كان عروة اذا أصابت قومه سنة شديدة . . وكان عروة اذا أجذب الناس . .

خرج للغزو « (١) . وبلغ من فقره انه اضطر الى رهن امراته على الشراب فبنى النضير ، لانه لم يكن يملك غيرها ، على الرغم من انه كان عائداً من احدى غزواته (٢) ومن مثل روايتهم عن السليك انه « صابته خصاصة شديدة فخرج على رجله » (٣) وحين مر الوالى سعيد بن عثمان بمالك بن الريب وهو يقطع الطريق قال له - ويحك يا مالك ، ما الذى يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العداوة وقطع الطريق ؟ قال : اصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان ، قال : فان انا اغنييتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعنى ؟ قال : نعم ، أكف كاحسن ما كف أحد « (٤) ، وهكذا فى أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم الشديد .

وقد صوروا فى شعرهم حالهم مع الفقر ، وشعورهم نحوه ، وصراهم لمقارمته ، فهذا تأبط شرا يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد الا تعلقة تحول بينه وبين الموت ، حتى برزت أضلاعه من النحول ، والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقول :

قليل ادخار الزاد الا تعلقة فقد نشر الشرسوف والتصق المعاء (٥)

ويقول فى محادثة بينه وبين الذئب ، اننى مثلك لا أملك شيئا ، وانما اعتمد فى معيشتى كما تعتمد أنت على الفريسة كلما أحسست الجوع :

وقربة اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعت به الذئب يعوى كالحليح المعيل
فقلت له لا عوى ان شاننا قليل الغنى ان كنت لما تمول (٦)

بل نراه فى قوله « ان كنت لما تمول » يشك فى أن الذئب بلغ من الفقر ما بلغه هو ، ويصف تأبط شرا تمزق نعله ، فيقول ان الجبال التى يتسلق صخورها لبصل الى مكمنه الذى يزاول منه صعلكته ، هذه الصخور فى حاجة الى نعل متبنة تقى قدميه وأصابهما من تمزيق الصخور ، ولكنه لا يملك الا نعلا بالفة الرثالة والتمزق فيقول :

(١) أنظر ديوان عروة ص ٨٢ والأغاني ٨١/٣ .

(٢) أنظر أغاني الاصمغاني ٣٨/٣ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ .

(٤) أمالي القائل ١٣٦ .

(٥) حساسة أبى تمام ١٩٠/١ والتعلقة ما يتعلق به ونشر برز والشر سوف مقاطع الاضلاع والماء الأماء .

(٦) خزائن البغدادى ٩٣/١ ونسبت هذه الأبيات فى رواية لامرئ القيس .

لا شيء في ريدها الا نعماتها منها هزيم ومنها قائم باق (١)
بشرقة خلق يوقى البنان بها شددت فيها سريحا بعد اطراق (٢)

وأبو خراش الهذلي يشبه تمزق نعله بهيكل عظمي لطائر بعد أن يؤكل لحمه ، ففي نعله من الخروق والتمزق مثل ما بين الأضلاع والعظام والأجنحة ويقول انه حين يضطر الى السير بنعله هذه في الندى والمطر والوحل فقد يفضل نبذها والسير على قدميه .

ونعل كاشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٣)
وعن النعل أيضا نرى الشنفرى يقول مرة انه أحيانا يضطر الى الحفاء لا يجد نعلا :

فاما ترينى كابنة الرمل ضاحيا على رقة أحلى ولا أتنعل (٤)
ومرة يصف تمزق نعله ، فيقول اننى أسعى لا أملك شيئا الا نعلين تمزق صدرهما لم أستطع حتى خصفهما ، وملحفة بالية ، وملاءة خلقة قصيرة ، اذا شددتها على جسمي من جانب تعرى الجانب الآخر فيقول :

قليل جهازى غير نعلين أسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف وملحفة دوس وجرود ملامة اذا أنجمت من جانب لا تكلف ويقول عروة بن الورد عن فقره الذى يدفعه الى مجابهة المخاطر :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا يقرر وي طرح نفسه كل مطرح (٥)
ويقول لامراته انه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فان قتل فموته أرحم لها من عيش الذل ، وان غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين فيقول :

ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٦)
فان فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا ، وهل عن ذاك من متأخر وان فاز سهمى كفكم عن مقاعد لكم خلف أديار البيوت ومنظر

-
- (١) المفضليات ص ٣٠ والريد أعلى الجبل والنعامة خشبات يجعلها الصلوك كميننا كالظلة للريشة فى أعلى الجبل وهزيم متكسر يعنى بعض الخشبات قائم وبعضها متكسر .
(٢) الشرقة الخلق يعنى النعل الممزقة والبنان أطراف الأصابع والسريح السيور تشد بها النعل والاطراق أن يربط تحت النعل نعلا أخرى لتمزق العليا .
(٣) ديوان الهذليين ١٣١/٢ والسمانى طائر وخلاف عقب والرمح المطر الخفيف .
(٤) من اللامية ، وابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقة يعنى رقة الحال من الفقر ، أنظر أعجب العجب فى شرح لامية العرب .
(٥) أمالى القالى ٢٣١/٢ ويفرر يؤخذ على غرة .
(٦) الاصمعيات ٣٦ ، ٣٧ وأخليك يعنى تكونين حرة بموتى ويعنى بسؤ المحضر موقف

ويتحدث مالك بن الريب عن فقره وجرمانه من متع الحياة فيقول :

انى اتحت لشابك انيابه مستانس بدجى الظلام منازل
لم يدر ما غرف القصور وفيوها طيبا ونخل سوادها المتمايل

ويقول الأعمى الهذلى فى وصف ما يعانيه بينته وأولاده من فقر يضطرم
الى التطلع الى ما فى أيدي الأقارب :

وذكرت اهلى بالعرا وحاجة الشعث التوالب
المصرين من التلا د اللامحين الى الأقارب (١)

وصخر الفى يتحدث عن فقره وضيق ذات يده فيقول :

انى بلهماء قل ما أجدر عاودنى من حبابها زؤد (٢)

ويقول عن ثوبه :

ارى الأيام لا تبقى كريما ولا العصم الأوابد والنعما
اتيح لها أقيدر ذو حشيف اذا سامت على الملقات ساما (٣)

ويقول عمرو بن بركة ان سيفه معظم ماله :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم (٤)

أما عروة بن الورد فيقول ان سلاحه كل ما يملك :

ومال مال غسير درع ومغفر وبيض من ماء الحديد صقيل (٥)

ويصف عبيد بن أيوب صبره على تمزق ثيابه وشعثه وشحوبه وجذبه
بقوله :

وات خلق الأكراس اشعث شاجبا على الجلب بساما كريم الشمائل
تعبود من آبائه فتكاتهم واطعامهم فى كل غبراء شامل (٦)

هذا عن حالهم مع الفقر .

السائل فى ذله .

(١) ديوان الهذليين ٨١/٢ .

(٢) القصر والقصر لابين قتيبة ١٥٨ م العائى .

(٣) ديوان الهذليين ٦٣/٢ والقصر فى لها يمود على الأوابد (الوحوش) والنعما والأقيدر
قصير المنق يعنى نفسه . والحشيف الثوب الخلق المزق والملقات جمع ملقة المكان الاملس
من الجبل .

(٤) أمال القائل ١١٩/٢ .

(٥) المسنة لابين رشيق ٣٥/٢ .

(٦) العيون للجاحظ ١٦٥/٦ .

وأما عن احساسهم بالفقر ، وبمكانة الفقير في المجتمع ، وكيف ينزل الفقر بصاحبه الى درجة من الهوان على الناس ، بل وعلى الأقارب والزوجات ، فقد اکتروا من تصويره في شعرهم ، فهذا أبو النشاش يفضل الموت على الفقر حيث يقول :

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل اخفق طالبه
فحش معسما أو مت كريما فأنى أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه (١)

ومالك بن حريم يرى أن المال يرفع الحسة ويجعل الذميمة حميدا وأن الفقر مذلة لصاحبه بين الناس فيقول :

أنبت والأيام ذات تجارب وتبدى لك الأيام ما لست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه ويشئ عليه الحمد وهو مذموم
وأن قليل المال للمرء مفسد يعز كما حيز القطيع المحرم
يرى درجات الجدل لا يستطيعها ويقعد وسط القوم لا يتكلم (٢)

ويقول السليك عن احساسه بين الناس بعجزه عن نفع قريباته :

أشباب الرأس أنى كل يوم أرى لي خالة وسط الرجال
يشق على أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مآلى (٣)

ويقول عروة بن الورد مقارنا بين منزلة الغنى ومنزلة الفقير بين الناس :

دعيني للفتى أسعى فأنى رأيت الناس شرهم الفقير
واهونهم وأحقسهم لديهم وإن أمسى له كرم وخير
ويقضى في الندى وتزدرية حليته وينهره الصغير
وتلقى ذا الفتى وله جلال يكاد فؤاد جاجبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الفتى رب غفور (٤)

ويقول أيضا :

قالت تماضر إذ رأت مال خوى وجفا الأقارب فالفؤاد قريح
مالى رأيتك في الندى منكسا وصبا كأنك في الندى نطيح
المال فيه مهابة وتجلة والفقر فيه مذلة وفضوح (٥)

ويقول الأحير السعدى :

(١) حساسة أبي تمام ١١٦/١ .

(٢) حساسة أبي تمام ٣١/٢ ، ٣٢ .

(٣) الكامل للمبرد ١٤٠/٢ ، ١٤١ .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢٣٤/١ .

(٥) ديوان عروة ٨٩ ورويت الأبيات للنمر بن تولى .

تعزنى الاعدام والبلو معرض وسيفى باموال التجار زعيم (١)

وأبو خراش الهذلى يشتد به الفقر فيجد من زوجه تنكرا وازورارا
ويجد منها نعييرا واحتقارا ، فينشئ قصيدة يخاطبها بها ، محاولا ردها الى
الرؤية والحكمة ، مبينا لها فضله على فقره ، ومنها :

رات رجلا قد لوحته مخامص وطافت برنان المعدين ذى شحم (٢)
تقول فلولا أنت أنكحت سييدا أوف اليه او حملت على قوم (٣)
أفاطم انى أسبق الحنف مقبلا وأترك قرنى في المزاحف يستلمى (٤)

ويقول عروة بن الورد لزوجه أيضا :

دعيني أطوف فى البلاد لعلى أفيد غنى فيه لدى الحق محمل (٥)

٢ - آثام الفقر :

ولابد للفقر من آثار تترتب عليه ، وقد عانى الصعاليك منها أشد
العناء ، وصارعوها أشد الصراع ، وأبرز هذه الآثار الجوع ثم تحول الأجسام
والهزال .

وفى شعر الصعاليك صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسى الذى
يتعرضون له كثيرا ، والذى بلغ من تعودهم عليه واستعدادهم لاستقباله دائما
أن راضوا أنفسهم على طرق معينة يقاومونه بها

وكذلك الهزال وتحول الأجسام نجده شائعا فيهم ، يشكوئه فى الم
ويصورونه فى صور مختلفة مؤثرة . وحين نستعرض حديث شعرهم عن كل
منهما نقول :

(أ) الجوع :

يصور تأبط شرا أثر قلة زاده وما تترتب عليه من ضعف جسمه وبروز
عظامه ، والتصاق أمعائه من الجوع فيقول :

(١) أمال القال ٤٨/١ .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٨/٢ . والمخامص جمع مخمصه من الجوع ، والمعدان الجنبان يعنى
أنها رانه ناعلا من الجوع فتطلعت الى شاب مكتنز اللحم حتى لو ضرب جنباه لكان لهما رنين من
اكتمار اللحم والشحم .

(٣) القرم الجبل القوى لم يستعمل ، يعنى لولاك لتزوجت سييدا موسرا .

(٤) أسبق الحنف يعنى ينجو من الميت بسرعة عدوه والمزاحف مواضع القتال .

(٥) حسانه أبى تمام ٣٠/٢ .

قليل ادخار الزاد ألا تعلة فقد نشر الشرسوف والتصق المعال (١)

ويصف الشنفرى حياته فى رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم الى تأبط شرا ، وقد وجد تأبط شرا ان الزاد قليل ، فأخذ يقرر عليهم ولا يمنحهم الا القليل الذى لا يرد عنهم الجوع ، ولكنه بذلك يدفع عنهم جوعا أشد . فيقول :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم اذا أطعمتهم أو تحت واقلت (٢)
تخاف علينا العيل ان هي أكثر ونحن جياع أى آل تألت (٣)
وما ان بها فنن بما فى وعائها لكنها من خيفة الجوع أبقت (٤)

والسليك بن السلكة حصل فى احدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هى عدد من الابل ، فقرت بها عينه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو اليها فلم يبلغها الا بعد أن عرض نفسه لمخاطر كثيرة رأى فى بعضها الموت قريبا منه وحين ننظر فعلا الى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بنى تميم فى اليمامة والرباب فى الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت فى جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطويل وما يكتنفه من مخاطر الصحراء والجبال والمهاالك ، يجد السعادة وقرة العين فى عدد من الابل ، ولكننا حين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التى كان يعانها نعلم ان هو ساعد بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يحكيه فى هذا الشعر ، من انه كان يعانى الجوع الشديد فى الوقت الذى يخصب فيه الناس وهو الصيف ، فضلا عما يجدون فيه من أوقات ، وان هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ به حالة من الضعف تجعله يشعر بالدوار وظلام البصر حين يقف كما يقول :

وما نلتها حتى تم ملكت حبة وكنت لأسباب الثنية اعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرئى اذا قمت تغشاني ظلال فاسد (٥)

وأبو خراش الهذلى يتحدث عن ابنه خراش الذى كان قد خرج فى غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشفق عليه أحد الأعداء فالقى عليه رداءه ليخفيه ، وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصفه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار خراش ، مبينا أن سبب غارته لم يكن عداوة بينه وبين أحد

(١) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ والشر سوف مقاطع العظام .
(٢) أراد بأم عيال تأبط شرا لأنهم جملوه كالآم تولهم وأدحت أعطت قليلا واقلت مثل

أوتحت .
(٣) العيل واليلة الفقر أى آل تألت تعجب معناه أى سياسة ساست يعنى سياسة حكيمة .
(٤) الضن البخل يعنى أن إبقاءها الطعام وتفتيرها كان لخشية الجوع بنقاد الزاد منهم .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ١١/٢ واسد دخل فى السدفة وهى الظلام .

وانما الرغبة فى دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتح له الغنيمة أثر
النجاء :

ولم يك مثلج الفؤاد مهيجا أضاع الشباب فى الرييلة والخفض (١)
ولكنه قد نازعته مخاض على أنه ذو مرة صادق النهض (٢)
كانهم يشبثون بطائر خفيف المشاش عظمه غير ذى نهض (٣)

ولما كان هذا الجوع المضمنى ليس شيئا عارضا فى حياتهم ، وانما هو حالة
ان لم تكن دائمة فهي متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم
التجارب الى طرق يعالجونه بها ، وأيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة
الارادة ، والصبر الشديد ، فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى فى معالجته الجوع
من انه يصبر عليه ، ويجاهد فى تجاهله وتناسيه حتى ينجح فى التغلب على
الشعور بوطأته ، مبينا انه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض
إذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه انسان باطامة ، وانه لولا عزة
نفسه والارتفاع بها عما يشيئها لما عز عليه طعام ولا شراب فيقول من لآميته :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فاذهل
وأستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الدام لم يبق مشرب يعاش به الا لدى وماكل (٤)

وهذه الطريقة التى هدت الضرورة اليها الشنفرى ، اهتمدى اليها أبو خراش
أيضا ، فيقول انه فى صراعه مع الجوع يتذرع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع
هذا الصبر فيذهب ، وكما قال الشنفرى انه يفضل استفاف التراب على الذل
كذلك قال أبو خراش انه يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل فيقول :

وانى لألوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (٥)
واغثبق الماء القراح فأنتهى إذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم (٦)

(١) ديوان الهذليين ١٥٨/٢ ، ١٥٩ ، وأولها : حمدت الهى بعد عروة الذنبا .. خراش وبض
الشر أمون من بض ومثلج ضعيف بارد ومهيج رغو مثقل والرييلة كثرة اللحم والخفض الدعة
والتنعم .

(٢) مخاض يعنى الجوع وصادق النهض قوى المزيمة ورواية أمال القائل ٢٦٧/١ لوحته
مخاض .

(٣) المشاش المظم والنض ، يعنى الذين يعدون خلف خراش وجدوه كطائر خفيف المظم
واللحم فى سرعة علوه .

(٤) وفى اللامية أبيات أخرى عن الجوع منها : وأطرى على الخضم الحوايا .. الخ واغثو
هل القوت .. الخ .

(٥) أقوى الجوع أطيل جسده والجرم الجسد .

(٦) اغثبق يعنى أشرب والمزج الضعيف وأنتهى أى اكفى .

أرد شجاع البطن قد تعلمته وأوثر غري من عيالك بالطعم (١)
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويروون في سبب هذه الابيات ان أبا خراش أقفر من الزاد أياما ،
ثم مر بامرأة من هذيل موسرة . فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش
ريح الطعام قرقر بطنه ف ضرب بيده على بطنه وقال : انك لتقرقر لرائحة
الطعام . والله لا طعمت منه شيئا . ثم قال : يا ربة البيت . هل عندك من
صبر أو شيء مر ؟ فأنته به . فأكله . ثم أهوى الى بعيره فركبه وانصرف
فظننت المرأة أنه أنكر من ضيافتها شيئا . فأخذت بتأديته : هل رأيت بأسا
أو أنكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الأبيات (٣) .

(ب) نحول الجسم :

ومن آثار الفقر التي شكها الصعاليك بصورة ظاهرة نحول الأجسام
وما يعتريها من هزال ونحافة شديدة ، فالشغري يصف جسمه حين ينام
بأنه لا يبلغ الأرض ، لأن عظامه وفقر ظهره البارزة تحول بينه وبين الأرض
وأنه حين يتوسد ذراعه إنما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها
للحم فيقول :

والف وجه الأرض عند افتراشها بأهدا تنبيه سناسن قتل (٤)
وأعدل منحوضا كان فصوصه كعاب دحاما لأعب فهي مثل (٥)

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه ، ويقول ان هذا النحول سببه
الجوع ، وأنه كان يمكن لجسمه أن يكون ضخما لو أثر نفسه برزقه ، ولكنه
يؤثر أن يقسم هذه الضخامة في أجسام كثيرة من الذين يجود عليهم ويشركهم
معه في رزقه من الناس فيقول :

ومن يؤثر الحق النؤوب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجد
اقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد (٦)

-
- (١) شجاع البطن يريد شدة الجوع والطعم الطعام والتي يخاطبها زوجها .
(٢) الرغم الهوان والذل . والأبيات من قصيدة بديوان الهذليين ١٢٧/٢ . ١٢٨ .
(٣) أنظر الأغاني ٦٠/٢١ . وبما ان هذه الأبيات ضمن قصيدة يحاور بها زوجها فيحل على
أنه قال القصيدة قبل هذه القصة ثم تمثل بهذه الأبيات منها في المناسبة المذكورة مع الهذلية .
(٤) من اللامة : والأهدأ شديد الثبات يعنى جسمه والسناسن رءوس فقر الظهر والقمل
الجافة .
(٥) اعدل أتوسد والمنحوض ذراعه اليابس والعصوص المفاصل ودحاما بسطها .
(٦) كامل المبرد ٣٦/١ وحماسة أبي تمام ٣٠١/٢ والامالي للقالى ٢٠٠/٢ والتنبيه للبكري

١١٣ مع اختلاف في محاوراة بين عروة ورجل من قومه .

وأبو خراش يصف نحول زميل له في الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف
يابس ، فجسمه عظم لا لحم فيه ، كفه يابسة تبرز في ظهرها أعصابها ، وساقاه
يابستان لا يرى فيهما إلا العظم فيقول عنه :

سمع من القوم عريان أشاجعه خف النواشر منه والظنايب (١)

كما وصف أبو خراش ابنه خراشا - وهو صعلوك - بضالة جسمه
وضيوله ، فعظامه رقيقة ضئيلة لا لحم عليها في قوله « خفيف المشاش عظمه غير
في نحض » (٢) وكما وصف نفسه بالنحول وضالة الجسم ولا يؤثر في
السياق أنه جعل سبب هذا النحول حزنه على صديق له ، فقد تحدث في
موضوع أخرى كثيرة عن السبب الحقيقي لهذا النحول وهو الجوع الشديد المضنى
الذى كان يتعرض له دائما كما سبق فيقول :

وما بعد أن قد هدنى الدهر جملة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٣)
وما قد أصاب العظم منى مخامر من النداء داء مستكن على كلم

وتأبط شرا يصف جسمه بأنه ليس فيه إلا هيكل من العظم الضخم في
صدره ، ولكنه عظم لا يحمل لحما ولذلك كانت بعية جسمه في نحول وضالة
فيقول حين حاصره أعداؤه من بنى لحيان الهذليين فاحتال للنجاة منهم بصبه
عسلا على الصخور وانزلاقه عليها بعيدا عنهم :

وأخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت وممسدر (٤)
فرشت لها صدوى فزل عن الصفا به جوجو عبل ومتن مخصر (٥)

ويصف جسمه أيضا ببروز أضلاعه من الجوع فيقول :

قليل ادخار الزاد ألا تعسلة فقد نشر الشر سوف والتصق المعال (٦)

ويتحدث تأبط شرا أيضا عن هزال جسمه في حديث له الى أحد الذئاب
فيقول :

(١) عريان أشاجعه يعنى معرى عن اللحم والنواشر عصب ظهر الكف والظنايب حروف
الساق يعنى يابسه .

(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ وفي بيت قبله « لوحته مخامص » أمالي القائل ٢٦٧/١ تأكيد
للنحول بسبب الجوع .

(٣) ديوان الهذليين ١٥١/٢ في زياته خالد بن زهير الهذلي وتضال مخفف تضامل .

(٤) وأخرى يعنى الحيلة التى نجابها وأصادى النفس عنها يعنى أدبرها والشطر الثانى
منه وحلت هذه الحيلة هى كل الحزم .

(٥) فرشت سلت والصفا نوع من الحجارة وجوجو عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر
دقيق ضشل أنظر الحامدة ١٨/١ .

(٦) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ والنشور الظهور والبروز والشر سوف الاضلاع حول البطن .

كلانا اذ ما نال شيئا افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (١)

ومالك بن الريب يتحدث عن تحول جسمه ، مشيرا الى صراعه مع أعدائه وأثر ذلك في نحوله ، ولكن في حديثه عن فقره في مواضع أخرى ما هو أوضح سببا فيقول :

وقد تقول وما تخفى لجارتها أنى أرى مالك بن الريب قد نحلا
من يشهد الحرب يصلها ويسعرها تراه مما كسته شاحبا وجلا (٢)

وعبيد بن أيوب العنبري يتحدث أيضا في تشرده في القفار عن ضالة شخصه وضمور جسمه فيقول :

كأنى وآجال الظباء بقفرة. لنا نسب نرعاه أصبح دانيا
وإن ضئيل الشخص يظهر مرة ويخفى مرارا ضامر الجسم عاريا (٣)

ويسلك في تصوير نحوله أسلوب المبالغة فيقول ان تشرده في الصحارى وطول تنقله في الفياض جعل من جسمه شيئا لو حملته حمامة لطارت به كما قال :

حملت عليها ما لو ان حمامة تحمله طارت به في الخفاف
رحيلا وأنساما وأعظم وامسق أضر به طول السرى في المخاوف (٤)

على انه ينبغي أن نلاحظ في مقارنتنا بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام في حديثهم عن الفقر وآثاره انه وإن كان الجاهليون والاسلاميون قد اشتركوا في معاناة الفقر والشكوى منه على السواء ، الا اننا نجد صعاليك الاسلام لم يتحدثوا قط عن هذا الجوع الشديد المضني الذي عاناه الجاهليون متألين منه أشد الالم ، وكذلك نجد صعاليك الاسلام وإن كانوا تحدثوا عن تحول أجسامهم الا انهم لم يربطوا بين هذا التحول وبين الجوع والحرمان كما ربط الجاهليون .

ومعنى ذلك ان صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام وإن كانوا قد اشتركوا في الفقر الا أن درجة هذا الفقر كانت مختلفة ، فبينما نجد فقر الصعلوك الجاهلي يبلغ منه حد الجوع المهلك بحيث لا يرى أمامه الا أن يستف التراب كما يقول الشنفرى أو يقتبق الماء القراح كما يقول أبو خراش ، ولذلك يقترب بصعاليك

(١) خزانة البغدادى ٩٣/١ ويعنى بالشطر الاول سرعة العدو والثاني أن من يتعرض

لمثل معيشتى ومعيشتك يهزل جسمه .

(٢) انظر مذهب الأغانى ١٠/٥ - ١٩ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦٠ .

(٤) الشعر لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي والضمير في عليها للناقة .

الجاهلية كثيرا مثل قولهم « أصابته خصاصة شديدة ففزا » (١) بينما نجد صعاليك الجاهلية كذلك ، نجد فقر صعاليك الاسلام لا يبلغ بهم هذه الدرجة ولذلك لم يتحدثوا فيما بلغنا من شعرهم عن الجوع ، وتحدثوا عن نحول الأجسام ولكن لم يقرنوه بالجوع والمخامص ، وكذلك نجد ان ما يدفع صعاليك الاسلام الى الصعلكة ليس هذا الجوع كما كان لدى الجاهليين ، وانما مجرد الشعور بان فقرهم يجعلهم دون الناس منزلة ويحرمهم من رغد العيش ونعمائه التي يورون غيرهم فيها ، فمالك بن الرب مثلا لا يشكو الجوع ، وانما يشكو حرمانه من غرف القصور وفيئها ونعيمها كما يقول عن نفسه :

لم يند ما غرف القصور وفيؤها طيبا ونخل سوادها المتمايل (٢)

وحينما سأله الوالي عن سبب قطعه الطريق ، لم يقل الجوع والحرمان وانما قال « المعجز عن مكافأة الاخوان » يعنى مجرد شعوره بأن الفقر جعله في منزلة يراها غير مناسبة له .

وهذا الفارق بين الاسلاميين والجاهليين يتضح من المقارنة بين الحالة الاقتصادية في الجاهلية والاسلام ، ومن النظرة الى اثر الفتوحات الاسلامية وما افاضته من رخاء في المجتمع العربي .

ولكن هذا الفارق كان ذا اثر كبير في حياة كل من الجاهليين والاسلاميين بالنسبة للآخر ، وسترى فيما يأتى ان انفراد الجاهليين بهذا الجوع الشديد كان له تأثير كبير في حياتهم وبالتالي في شعرهم ، بل ترتبت عليه موضوعات كاد الجاهليون ينفردون بها عن الاسلاميين ، كشعر المراقب وشعر العدو ومعظم شعر الطبيعة ، فان شدة الجوع جعلت الجاهليين يرتادون اماكن لا يضطر اليها الاسلاميون .

صراع الهوان في المجتمع

ولئن كان شعر الصعاليك قد صور صراعهم الشاق مع العقبة الاولى وهي الفقر وآثاره كما رأينا ، فانه أيضا صور صراعهم مع العقبة الثانية مما كان يحول بينهم وبين اخذ مكانهم الصحيح في المجتمع ، أو على الأقل المكان الذي

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٤/١ والخصاصة الجوع .

(٢) انظر مهذب الاغانى ١٠/٥ .

تطعن الى نفوسهم ، ولا يؤذى كرامتهم ويثبت كيانهم ، فائبات الكيان هو غايتهم ولذلك يمكن تسمية هذا الفصل « اثبات الكيان » وهذه العقبة الثانية هي « احتكار السيادة » بمعنى ان تكون سيادة القبائل في بيوت معروفه تتوارث السيادة ولو مداولة بين أفرادها ، وليس هذا ما ضاق به الصعاليك لذاته فانه لم يبد من شعرهم الاتجاه الى السيادة أو الحرص عليها ، ولكن الذى ضاقوا به هو ان هذا الاحتكار قد تولدت عنه طبقة منكورة في القبائل ، وتكاد هذه الطبقة وخاصة في الجاهلية تحصر الأفراد في ثلاث طبقات ، طبقة السادة وهم أفراد البيوت التي تتوارث السيادة ، وأفراد هذه الطبقة جميعا سواء أكانوا سادة أم غير سادة من حقهم أن يشمخوا بأنوفهم كما يريدون ، وأن يتجبروا كما يشاؤون وأن يسلبوا أموال الناس وحقوقهم وكرامتهم وأعراضهم طالما كان في سيوفهم قدرة على حماية بغيرهم في هذا كله ، ولم يكن بغيرهم هذا مقصورا على القبائل المعادية ، أو المجاورة ، وإنما كان يشمل أيضا البيوت والأحياء الأخرى من قبيلتهم نفسها ، وخاصة البيوت التي لا تظهر خضوعا وانقيادا ظاهرا لسيادتهم كبعض ما رأينا في الحديث عن الجاهلية ، فهذه الطبقة في قمة الوضع الاجتماعي . وهناك طبقة ثانية في أسفل الوضع الاجتماعي وهي طبقة العبيد وسائر الأفراد الفقراء في القبيلة من غير بيت السيادة فهؤلاء الفقراء كانوا هم والعبيد شيئا واحدا لأنهم وإن اختلفوا من حيث الحرية والرق ، إلا أن هذا الاختلاف من حيث التطبيق العملي في المعيشة لا قيمة له فكلاهما كان أمام طريق واحدة هي أن يقدم كل جهده في خدمة السادة لقاء لقمة تحفظ عليه الحياة ، ولن تكون له حياة بدون هذه اللقمة ، ولن يحصل على هذه اللقمة إلا بالخدمة لدى السادة والأغنياء ، لأن البيئة لا مجال فيها لوسائل أخرى من العيش ، وأهم وسيلة كان يستخدم فيها العبيد والفقراء الرعى ، وهناك في الرعى يحصى الفارق بين الفقير الحر ، والراعي العبد فكلاهما راع ، وكلاهما لا يملك من الحياة غير ذلك .

هاتان الطبقتان كانتا طرفي المجتمع ، أولاهما في القمة ، وكل أفرادها يلقون التجلة الاحترام ، وآخرهما في الحضيض ، وكل أفرادها يلقون المهانة والهوان ، بينهما طبقة ثالثة ، تتكون من الأفراد البارزين بين أفراد القبيلة من غير بيت السيادة ، وبروز الأفراد كان أمامه مجالان ، الغنى والفروسية ، الأغنياء والفرسان كانوا يكونون طبقة وسطا بين الطبقتين الآخرين وكانت منزلة أفراد هذه الطبقة تحددها المزايا التي يستطيع كل فرد الوصول اليها فالغنى بمقدار غناه ، والفارس بمقدار شجاعته واسهامه في الزود عن القبيلة أو الرفع من شأنها ، وكان هناك مجال ثالث يستطيع الأفراد أن يجعلوا لهم مكانة أدبية منه اذا هب لهم وهو الشعر ، فالشاعر في المجتمع العربي سواء في الجاهلية والاسلام كان يحظى بقدر كبير من التقدير والاهتمام ، حتى انه من تقاليدهم انه كان اذا ظهر شاعر في قبيلة أضلت وفود القبائل تهتفها به

ولكن الشعر وخاصة فى الجاهلية حيث لم يشجع التكسب بالشعر فيها (١) لم يكن وسيلة مجدية للمعيشة ، فلم يكن الشاعر يستطيع الاعتماد على شعره فى معيشته ، حتى ان النابغة الذبياني على شهرته الشعرية اضطر الى مزاوله حيلة الصعاليك (٢) ، اما الوصيلتان الأخريان فيمكن الاعتماد عليهما فى المعيشة لان الغنى له من ماله ما يعوله ، والفارس ان لم يكن له مال ففي سيفه ما يمكنه من جلب المال ، ولو بالقزو والغارة ، كما كان شائعا فى الجاهلية ووضع الصعاليك من هذه الطبقات ظاهر فهم لم يكونوا من بيوت السيادة ، وكانوا مع ذلك فقراء ، بل غاية فى الفقر وبذلك اجتمعت فيهما الصفتان اللتان وضعتاهم فى الطبقة السفلى من المجتمع ، وكان بعضهم شعراء ، ولكن شعرهم لم ينفعهم ، فالشعر لم يكن فى الجاهلية مصدرا للعيش ، وحين أصبح الشعر فى الاسلام وسيلة للعيش أبت نفوسهم دون غيرهم من الشعراء أن يتخذوه وسيلة للعيش والتكسب ، فلم يتكسبوا به قط الا من شذ منهم مثل بكر ابن الطلاح ، على ان الروايات تفيد انه لم يتكسب بشعره الا بعد ان أقصر عن الصلابة (٣) وكون الصعاليك يابون عامدين مترفين أن يتكسبوا بالشعر حقيقة مشرفة لهم ، كما سيأتى فى موضعه .

واذن فقد كان الصعاليك ومعهم شعراؤهم فى الطبقة الدنيا من المجتمع ولكن نفوس بعضهم أبت بما تحمل من عزة وقوة وإباء أن تستكين لوضعها فى هذه الطبقة ولم يكن كما قلنا أمام المتحفزين من هذه الطبقة ليرتفعوا الى الطبقة الوسطى الا طريقان طريق الثراء ، وطريق الفروسية ، فأما الثراء فهو موصد أمامهم بإحكام ، لأنهم لا يملكون منه شيئا ، وأما الطريق الآخر وهو الفروسية والشجاعة فهو مفتوح أمامهم ، لأنهم يملكون وسائله وأسلحته بل يملكون منها قنارا من القوة والجرأة والمضاء والبسالة قلما يتباح لغيرهم ولكنهم بالطبع لم يكونوا فى درجة واحدة أو حالة واحدة ، فالذين كانوا فى نسب خالص وفروسية بارزة ، أصبحوا من الفرسان الذين تعزز بهم قبائلهم كعروة بن الورد العبسى ، ومالك بن حزم الهمداني ، وقيس بن منقذ السلولي قبل أن يخلع ، ومنهم من حال وضع أمه دون ذلك كالسليك بن عمير السعدي الذي كانت أمه السلابة أمة رقيقة أو وضعه هو كالشنفري الذي كان أسيرا فى بنى سلامان .

وليست هذه التفاصيل مما يعنينا فى هذا الموضع ، ولكن الذى يعنينا ان الصعاليك وجدوا أنفسهم فى الموضع المهيمن من المجتمع ، ولم تقبل نفوسهم بحكم

(١) أطر الملة لابن رشيقي ٨٠/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٦١/٢ .

(٣) أطر مذهب الأتاني ٨٤/٨ وشرح حساسة أبى تمام ٩٣/٢ وكان فى العصر العباسي مصدرا لفرشيد .

طبيعتها وتكوينها هذا الموضع ، ولم يكن أمامهم لتفادى هذا الهوان الا الاعتماد على أشخاصهم فى قوتها وعنفها ، أيا كان مظهر القوة ، وأيا كان أسلوب هذا العنف .

وقد عبر شعرهم عن هذه المعانى كلها تعبيرا واضحا عميقا ، ينم عن عمق احساسهم بهذه المعانى ، وتأثيرهم بها ، واستماتتهم فى الخروج من نطاق الذل والهوان الذى يريد المجتمع أن يفرضه عليهم .

فالشنفرى يعبر عن نفوره من اذلال نفسه باستجداء حسنات الناس مفضلا استغاف التراب على ذلك فيقول من اللامية :

واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الدام لم يبق مشرب يعاش به الا لدى وماكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم الا ريثما اتحول (١)
وابو خراش يقول مثل ذلك :

وانى لاثوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (٢)
مخافة أن احيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم
والسليك يقارن بين الحال التى يريد لها لهم المجتمع ، والحال التى ارادوها لانفسهم فيقول :

فلا تصلى بصعلوك نؤوم اذا امسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوب ضروب بنصل السيف هامات الرجال (٣)

ومثل هذه المقارنة يقارنها ابو النشاش النشلى ، ولكنه لا يرى ضرب هامات الرجال كما رأى السليك وانما يرى أن يسرح سواما من ابل الناس ويروح بها ، راكبا الى ذلك كل صعب ، متنقلا بين ارجاء واسعة من البيداء فيقول :

اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح سواما ولم تعطف عليه اقاربه (٤)
فللموت خير للفتى من قعوده عديما ومن مول تدب عقارب
ونائية الارعاء طامسة الصوى خدت بابى النشاش فيها ركائبه
ليكسب مجدا أو ليدرك مغنما جزيلا وهذا الدهر جم عجائبه

(١) انظر اعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشري والطول المن والدام الدم .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ ، ١٢٨ واثوى الجوع أطيل حبسه حتى يذهب والجرم الجسم يقول يذهب الجوع ويبقى عرضى وجسمى نطيقان .

(٣) كامل المبرد ٣١٠/١ ويعنى بالعيال الذين يعولهم غيرهم .

(٤) حماسة أبى تمام ١١٥/١ ويجوز ارادة سوانم الشخص نفسه مقارنة بين الفتى والفقر .

ويقارن بين الحالتين أيضا عروة بن الورد ، راسما صورتين متقابلتين ،
 أحدهما تسخر سخرية موجهة من الصعلوك المستكين للهوان ، الذي يرضى لنفسه
 أن يكون كل أمله آكلة يجود عليه بها أحد الموسرين ، وأن يكون كل ما فى حياته
 حلقة مفرغة ، من النوم والكسل وخدمة المحسنين اليه ، والصورة الأخرى عن
 الصعلوك المستشيط حماسا وحيوية وحركة ، حتى كان الحيوية جذوة نار تكسو
 وجهه ، هو فى صراع دائم مع العيش والحياة والأعداء ، ويبلغ من خطره أن أعداءه
 مهما يحاولوا البعد عنه أتقاء لشره ، فانهم يتوقعون دائما مفاجأته إياهم كما
 يتوقع الأهل حضور غائب منتظر الاياب فيقول :

| | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| لما الله صعلوكا اذا جن ليله | مصافى المشاش آلفا كل مجزر |
| يعد الغنى من نفسه كل ليلة | أصاب قراها من صديق ميسر |
| ينام عشاء ثم يصبح ناعسا | يحث الحصان عن جنبه المتغفر |
| يعين نساء الحى ما يستعنه | ويمسى طليحا كالبعير المحسر |
| ولكن صعلوكا صفيحة وجهه | كضوء شهاب القابس المتسور |
| مطلا على أعدائه يزجرونه | بساحتهم زجر النيح المشهور |
| اذا بعدوا لا يأمنون اقترابه | تشوف أهل الغائب المتظفر |
| فذلك ان يلق النية يلقها | حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١) |

وفى شىء من هذه المقارنة أيضا يقول الاحيمر السعدى :

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| وقالت أرى ربيع القوام وشاقها | طويل القناة بالضحاء نؤوم |
| فان أك قصدا فى الرجال فأننى | اذا حل أمر ساحتى لجسيم (٢) |

وشعر الصعاليك ينبىء عن نفورهم الشديد من الهوان . وصراهم العنيف
 فى سبيل اثبات كياناتهم فى المجتمع فهم ينعون نعيًا شديدا على الحاملين منهم ،
 حاضين إياهم أشد الحظ على أن يتحركوا ويخاطروا بأنفسهم فى أى شىء . ومهما
 كانت نتيجة المخاطرة فهى خير من خمولهم وهوانهم بين الناس كما يقول عروة
 ابن الورد :

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة | ان القعود مع العيال قبيح (٣) |
| وكما يقول أيضا : | |

| | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه | شكا الفقر أو لام الصديق فاكثرا |
|-------------------------------|--------------------------------|

(١) حساسة أبى تمام ١٩٥٩/١ والمشاش العظم اللين يكن أكله ومصافى من المصافاة
 والمجزر مكان الذبح .
 (٢) أملى القالى ٤٨/١ وربع القوام متوسط الطول والبيت الثانى معناه ان لم اكن ضخم
 الجسم فأننى ضخم المزينة والقوة .
 (٣) ديوان عروة ٨٩ .

وصار على الأذنين كلا وأوشكت صلات ذوى القربى له أن تنكرا (١)

وأما مالك بن الريب فقد عبر عن نفوره من ذلك الهوان حين طلب إليه سعيد ابن عثمان الوالى أن يرعى ابله لقاء العطاء الشهري الذى يمنحه اياه بقوله :

وانى لاستحيى الفوارس ان أرى بأرض العدا بو المخاض الروائم
وانى لاستحيى اذا الحرب شممت أن أرتضى دون الحرب ثوب المسالم (٢)

والشنفرى يؤكد فى اصرار نفوره من كل ما يجعله ضعيفا أو خاملا أو كسولا أو مهينا أو مغلوبا على أمره أو أى شئ مما يريد المجتمع للصعاليك أن يكونوا فيه فيقول :

ولست بمهيف يعشى سوامه مجدة سقبانها وهى بهل (٣)
ولا جبا أكهى مرب بعرسه يطالها فى شأنه كيف يفعل (٤)
ولا خرق هيق كان فؤاده يظل به المكاء يعلو ويسفل (٥)
ولا خالف دراية لتفزل يروح ويفغو داهنا يتكحل (٦)
ولست بعمل شره دون خيره ألف اذا مارعته احتاج أعزل (٧)
ولست بمحيار الفلام اذا نحت هدى الهوجل العسيف يهما هوجل (٨)

بل انهم ليفضلون الموت على تلك الحياة الحاملة المهينة كبعض ما مر فى هذا الشعر ، وكما يقول عروة بن الورد :

وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس الا من أجد وشمرا
فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتطدرا (٩)

(١) ديوانه ٩٩ •

(٢) أنظر مهذب الأغاني ١٠/٥ •

(٣) المهياف السريع العطش ومجده مقلوبة الأذان والسقب ولد الناقة والباصل الناقة

غير مصرورة •

(٤) الجبا الجبان والأكهى الأبخر والبليد والمرب الملازم لأمراته والشطر الثانى معناه

بحرص على استشارة زوجه •

(٥) الحرق الدهش والبيق الظليم والمكاء طائر يعنى لست ملوعا كالنعام ولا مضطربا كالطائر

(٦) الخالف الذى لا خير فيه ، والدارى الملازم لداره يعنى لست تافها متقطعا للغزل والدهن

والكحل

(٧) المل القراد والمراد الرجل المسن الضئيل كالقراد والآلف العاجز واحتاج أسرع بحق •

(٨) المحيار المتخير والهوجل الرجل الطويل الأحق والعسيف الجاهل واليهما المتاهة من

الصحراء والهوجل آخر القلاة •

(٩) ديوان عروة ٩٩ •

ويقول عروة :

قلت لركب في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزح
تناولوا الفنى أو تبلغوا بنفوسكم الى مستراح من عناء مبرح (١)

ويقول أيضا :

فقلت له ألا احى وانت حمر ستشبع في حياتك او تموت (٢)

ومما لا شك فيه أن هذه المعاني الكثيرة التي كرروها في شعرهم ، وأكثروا شعورهم بها من هوان الفقير في مجتمعهم ، ومن إثارة الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة ومعان أخرى تدل على أن اتجاههم الى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول الى الفنى ، وإنما كان مع ذلك يحمل الرغبة في اثبات كيان لهم في المجتمع ويحمل النفور الشديد الظاهر من أن يكونوا مجرد أفراد في القطيع الذى يسوقه السادة الأغنياء ، ويحمل الاصرار الشديد على أن يظهرُوا لأنفسهم كيانا يشعر به الناس على الأقل ويحسبوا حسابه ، ان لم يرهبوه ويفرقوا منه .

ومما لا شك فيه أيضا أنهم قد استطاعوا أن يخرجوا أنفسهم من زحمة القطيع وأن يجعل كل منهم لنفسه كيانا منفردا متميزا من القطيع ، ولكن هذا الكيان لم يكن ثابت الحجم والأهمية وإنما كان مذبذبا قابلا للضخامة والتقلص ، بمعنى أن كلا منهم قد استطاع بعزة نفسه ، ورفضه أن يمتن مروته وكرامته بصور الهوان والذل ، من استجداء الناس وخدمتهم ، بعد التسكع والحمول والضياع ، قد استطاع كل منهم بذلك أن يخرج نفسه من الطبقة السفلى في مجتمعه وأن يلفت الانظار اليه ، على أنه رجل أبى ينفر مما يعيش عليه مثله ، ثم ان كيانه بعد ذلك وأهميته أو خطورته في مجتمعه ، تتحدد بمقدار ما لديه من مقومات ، وما يستطيعه من قدرة على الصراع ، صراع كل الظروف المحيطة به والمقيدة لنمو كيانه ، وبمقدار ما يتهيا له من ظروف وقد كان الصعاليك بالطبع متفاوتين في مقوماتهم وفى قدرتهم على الصراع ، ولذلك اختلف شأن بعضهم عن بعض ، كما أن الظروف لم تكن تسير على وتيرة واحدة لهم ، فقد تنكص الظروف عن بعضهم حيناً ، ثم تنهيا ، كما عاش الشنفرى دهرا من عمره أسيرا ، ثم تنهيا له الخروج على وضعه ذاك ، وقد تنهيا الظروف ثم تنكص ، كما كان قيس ابن الحدادية ، فارسا يكبره قومه ويستعين بهم على أعدائه وفى غزواته ، ثم خلعه قومه حين كثرت جنائياته وثقلت عليهم آثارها ، فأصبح خليعا منبوذا لا سند له

(١) آمال القالى ٢٢١/٢ وماوان مكان .

(٢) ديوان عروة ٨٦

ولا معين ، حتى أنه ليقول للذين أرادوا أسره : وبم ينفعكم أسرى ؟ انكم لو طلبتم
بى من قومى عنزا جرباء ما أعطيتموها ، وظل يقاتلهم حتى قتل (١) .

ويمكن حين تنتهى جولتنا مع صراعهم أن نسأل : هل حققوا كل ما يريدون
من صراعهم مع المجتمع ومع الظروف ؟ أما الآن فنحن نتبع مراحل حياتهم
ومشاعرهم ، أعنى مراحل صراعهم وقد بلغنا منها مرحلتين ، أولاها معاناة الفقر
وآثاره ، وثانيتهما أحساسهم بهوان طبقتهم ورغبتهم فى الخروج من هذا الهوان ،
ولكن هذا الخروج لم يكن سهلا ولا ميسورا ، وانما كان يقتضى منهم صراعا شاقا
عنيفا ، فلننظر هذا الصراع .

صراع المهنة

حياة رهيبة حقا هذه التى عاشها الصعاليك ، وشقوا طريقهم فيها .
والواقع أن حياة الصعاليك الحقيقية لا تبدو قط من أخبارهم وتراجهم ،
وانما تبدو من خلال شعرهم نفسه ، فمهما قرأ القارىء من أخبارهم ، ومهما
جمع الباحث من معلومات عنهم ، فانه لن يشعر بصراعهم ، وحياتهم الحقة كما
عاشوها وتأثروا بها وصارعوها ، وانما يشعر بها حقا حين يدرس شعرهم ،
ويرى ما فيه من انعكاس لرهبة حياتهم ، وقسوتها ، ويرى فيه عناءهم وصراعهم
ومشاعرهم ازاء هذه الحياة التى خاضوا أشواكها وجابهوا أخطارها ، وصارعوا
مزارتها وقسوتها .

ولامية الشنفرى نموذج كامل لحياة الصعاليك ، بكل ما فيها من قسوة ،
وكل ما فيها من مخاطر ، وكل ما فيها من صبر وقوة ارادة ، وكل ما فيها من
آلام الصعاليك وهمومهم ومشاعرهم نحو حياتهم .

ونحن مثلا حين نقرأ أخبار الشنفرى وما ساقته الروايات عنه : نحسب
أننا علمنا عنه وعن حياته شيئا كثيرا ، ولكننا حين ندرس لاميته نجد أن الأخبار
والروايات لم تظهرنا من أمره الا على أيسره وأهونه ، وأن شعره هو الذى
يظهرنا من أمره ونفسيته وصفاته حياته وبيئته على الشئ الكثير ، فالروايات
مثلا تكاد تكتفى فى الحديث عن حياته وحياته غيره من أمثاله بأنه « صعلوك »
تاركة ما تشير اليه هذه الكلمة للنفس تصويره كيف تشاء حسب تصورها
للصعلكة ، ومعلومها عنها ولكن كلمة (صعلوك) هذه نجدها فى شعرهم حياة

(١) انظر أغاني الأصمهانى ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

حافله بثتى وصنوف من الرهبة والمخاطر والقسوة والمشاعر وغير ذلك مما لا يمكن لغير شعرهم أن يصفه أو يصوره .

فشعر الشنفرى يصف لنا حياته حيث يزاول صعلكته ، فيصور ليلة من ليالى هذه الحياة ، ونهارا من أيامها ، واصفا موقفه وصراعه ومشاعره ازاءها ، فيصف الليلة بأنها ليلة حافلة بالبرد والمطر والوحل ، وأن بردها لا كالبرد ، حتى أن جسمه امتلا رعدة وارتعاشا وحتى اضطر الى أن يوقد سلاحه الذى تعتمد عليه حياته فى مثل هذه الصحراء ليستدفى به ، وأن هذه الليلة بمطرها وبردها ووحلها ورهبة صحرائها ووحوشها قد ملأته خوفا وجوعا وارتعاشا ، ولكن ذلك كله لم يردّه عن عزمه ، فمضى فى هذه الاهوال الى غارته على أعدائه فيقول :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللاتى بها يتنبل (١)
دعست على غطش وبفش وصحبتى سعار وارذيز ووجر والفكل (٢)

ويصف النهار بأنه يبلغ من شدة حره أن الجو يمتلى بما يشبه خيوط العنكبوت ، وأن شدة وقع الشمس الملتهبة على الرمال تحولها الى جحيم لا تطيقه حتى الافاعي فى جحورها ، وأنه ازاء هذا كله لا يملك ما يتقى به برده ولا حرا الا برد منزق لا يكاد يستر جسده فيقول :

ويوم من الشعرى يلوب لوابه افاعيه فى مفسائه تتململ (٣)
نصبت لسه وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الاتحمى المرعب (٤)

ويصف معيشته فى تلك الحياة البالغة القسوة ، بأنه تعود الجوع المضنى فهو يديم مطاله حتى يميته (٥) ، وأنه يطوى على الخصى حشاياه وأمعاه كما تلقف الخيوط ليطوى بعضها على بعض (٦) وحتى الماء غير ميسور له ، فهو يسعى آمادا طويلة ليعثر على بقعة ماء خلفها المطر أو السيل يزاحم فى شربها طيور الصحراء وقطاها (٧) وأن شأنه فى البحث عن القوت شأن ذئب الصحراء ، تظل رائحة

(١) النحس البرد واصطلى استدفأ بالنار والاقطع نصال السهام ويتنبل أى يستعملها للنبيل : من اللامية .

(٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبفش المطر الخفيف والارذيز البرد والوجر الخوف والأفكل : الرعشة .

(٣) المراد بالشعرى شدة الحر واللوب ما ينتشر فى الجو مثل العنكبوت والرمش شدة وقع الشمس على الأرض . البيت ٦٠ .

(٤) نصبتة اقمته والكن بكسر الكاف الستر والاتحمى نوع من البرود والمرعب المنزق . البيت ٦١ .

(٥) البيت المشرون من اللامية وما بعده

(٦) البيت الرابع والمشرون ما بعده .

(٧) البيت الخامس والثلاثون وما بعده ٧

عادية مطوفة في الصحراء حتى يتيح لها الحظ ما تقتات به (١) ، وأنه ألف النوم على الأرض ليس بينه وبينها بحرًا وبردها حائل ، لا يشكو منها ، وإنما يشكو من جفاف جسمه وبروز عظامه التي تحول بينه وبين الاستقرار أو الراحة في النوم ، فإذا نام على ظهره وخزته فقار ظهره البارزة حين تلمس الأرض ، وإذا اعتدل على جنبه لم يجد وسادة يتوسدها إلا ذراعه ولكنها وسادة جافة خشنة ، لأن ذراعه ليس فيه إلا عظام جافة ، ومفاصل يابسة صلبة كأنها كعوب القنّاء (٢) وأنه على هذا كله يمشى حافيا ولا يلبس إلا بردًا ممزقًا ، وأن شعره الذي لا يخلق مسترسل حول صدغيه وعنقه ، وأن هذا الشعر تليد في بعضه من عدم النظافة لأنه قد يمضى عليه الحول لا يغسل ولا يفلى ولا يخلق (٣) ، وفوق هذا كله الهموم المتدافعة نحوه ، والتي تأتيه لا يدري من أين ؟ ولكنها تهب عليه من فوقه وتنبعث إليه من تحته ، والتي مهما يحاول صرفها تأب أن تفارقه إلا ريثما تعود ، وكأنها حتى الربيع التي تظل تعود صاحبها ثم تفارقه ثم تعود في أوقات منتظمة محددة (٤) .

ولكنه ليس الشنفري وحده ، وليست اللامية وحدها هي التي صورت حياة الصعاليك وصراعهم مع هذه الحياة ، بل نجد شعر الصعاليك كله يصور حياتهم وصراعهم على النحو الذي صورته اللامية ، وإن اختلف التصوير أو درجة الصراع ، حسب الظروف التي تحيط بالشاعر من حيث درجة القسوة ، ومن حيث قدرته على تصويرها .

فعمر بن براقة يصف لنا الوقت الذي يختاره لمزاولة حياته في الصعلكة ، وفي هذا الوصف نرى ليلة من ليالي الصحراء ، لا يهيم فيها أن كانت باردة أو غير باردة ، ممطرة أو غير ممطرة ، وإنما يهيم شيء واحد يترقبه دائما ، وهو سيطرة النوم والظلام والسكون على كل شيء ، حتى إذا اطمان إلى أن الليل بلغ من اظلامه مداه حتى لا يرى فيه إلا تألق النجوم ، وبلغ من سكونه مداه حتى لا يسمع فيه إلا صياح البوم الجوائم في جبال الأفراط ، وحتى إذا اطمان إلى أن النوم قد مال بكل الناس ، هنالك يقدم على ما يريد كما يقول :

إذا الليل ادجى واسجهرت نجومه وصاح من الأفراط بوم جوائم
وما بال صاحب الكرى غالباته فاني على أمر الفواية حازم (٥)

وفي حياة الصعاليك التي عاشوها في الصعلكة جوانب كثيرة من الصراع ، فمنها ما كانوا يتعرضون له دائما من مخاطر الإعداء والوحوش والمفاجآت ، ومن

(١) البيت الخامس والمشرون وما بعده .

(٢) البيت الواحد والأربعمون وما بعده .

(٣) الأبيات ٤٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) البيت السادس والأربعمون وما بعده وسبق ذكر نص اللامية كاملة .

(٥) أمال القالي ١١٩/٢ واسجهرت نجومه رواية الأغاني أما رواية القالي فهي وأكثر غلامه .

هذه الحاجات ما تعرض له مالك بن الريب ذات ليلة ، حيث احسن مالك سيفه وقلم ، واذا هو يصحو من نومه على ثقل يجثم فوقه ، فانتفض بكل ما أوتي من قوة وحرس على الحياة ، فاذا شبح لم يمكنه الظلام من تبيينه ، أو لم يجد من الوقت ما يسمح له بتأمله ، فاهوى عليه بسيفه فصرعه ، أوقده نصفين كما تقول الرواية ، ثم تبينه فاذا هو رجل أسود ، وقد صور مالك هذه القصة في قوله :

ما نمت الا قليلا نمته شئرا حتى وجدت على جثمانى الثقلا
دهية من دواهي الليل بيتتى مجاهدا يبتقى نفسى وماختلا
اهويت نكاحا له والليل ساترا الا توخيت والجرس فانخدلا (١)

ولنلاحظ بين لنا شخصية هذا الداهية من دواهي الليل كما قال مالك ، فيقول في مفاخر الحبش والزنج على العرب « قالوا - يعنى الحبش والزنج - ومنا أقلع الذى قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة ، قالوا : وانما قتله مالك بن الريب لأنه وطئه فى جوف الليل وهو سكران خائر » (٢) ومن هذا نعلم أن ما تعرض له مالك بن الريب ليس شيئا عاديا ، وانما هو خطر حقيقى مثل فى رجل متوحش يقطع الطريق وحده على القوافل وليس على الأفراد فحسب ، عشرين سنة كاملة .

ومما تعرض له مالك بن الريب ذئب عدا عليه فى بعض الليالى ، ولكنه استطاع أن يقتله ثم يقول :

أذئب القضا قد صرت للناس ضحكة تغادى بك الركبان شرقا الى غروب
ألم ترنى ياذئب اذ جئت طارقا تخالطنى أنى امرؤ وافر اللب (٣)

ويصف مالك بن الريب حاله وهو يزاول مهنته فى ظلام الليل ، وما يتوارد على نفسه من نوازع الخوف والحذر واليقظ لما يعرض من مخاطر ، وكأنه ذئب يتلمس طريقه فى غلس الظلام فيقول .

يعط الفؤاد اذا القلوب تانست جزعا وورثة كل أدوع باسل
حيث الدجى متطلعا لغفوله كالذئب فى غلس الظلام الحافل (٤)

وأبو خراش الهذلى يصف ليلة من ليالى صعلكته ، بما فيها من برد وغيوم وأمطار وأحوال ومع هذا الوحل الذى يصعب فيه مجرد السير ، ومع هذا الظلام الذى لا يتيح للسارى أن يتبين ما تطأ قدماءه ، تضطره الظروف الى أن يعدو أحيانا بكل ما أوتي من قدرة على العدو حتى ان الاشجار الصغيرة التى تثبت فى الصحراء لتتحطم تحت قدميه من شدة عدوه ، ولا يبالى خلال ذلك ما قد يعترضه

(١) مهلب الأغاني ١٢/١ والجرس الصوت .

(٢) رسائل الجاحظ ١١٣/١ والخائر غير التشيط .

(٣) المصدر السابق ١٥/٥ .

(٤) انظر مهلب الأغاني ١٠/٥ .

من مخاطر الوحوش أو ما قد يطأه من حيات أو هوام ، بل انه ليجد أن نعله المعزقة
قد أثقلت فيضطر الى نبذها والقائها فيقول :

وليلة دجن من جمادى سريتها إذا ما استهلكت وهي ساجية تهمي (١)
وشوط قضاح قد شهدت مشايحا لادر ك ذحلا أو أشيف على غنم (٢)
إذا ابتلت الأقدام والتفت تحتها غناء كاجواز المقرنة الدهم (٣)
ونعل كاشلاء السمانى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورههم (٤)

وعبيد بن أيوب يلقى النهار من حياته . فلا يظهر فيه شيء ، ولا يزال
فيه شيئا ، أما الليل ففيه كل حياته ، وفيه كل نشاطه حتى أصبح كأنه جنى
لا يرى بالنهار ، ولا يآلف مجامع الناس ، ومع ذلك فهو غير الجن فيما يصدر عنه
كما يقول :

فليس بجنى فيعرف نجله ولا هو أنسى تحتويه المجالس
يظل ولا يسو لشيء نهاره ولكنه ينباع والليل داس (٥)

وقد سجل الصعاليك بشعرهم كثيرا من غاراتهم وأساليب صعلكتهم
واحداث حياتهم فى الصعلكة ولذلك اعتمد كثير من المؤلفين القدامى فى الحديث
عنهم واستنباط أخبارهم على شعرهم نفسه كما يتضح ذلك فى كتاب الاغانى
حيث نجد معظم حديثه عن الصعاليك وسرد أخبارهم لا يعتمد على روايات أو
أخبار ، وإنما يعتمد على الشعر نفسه بما ورد فيه من أحداث وأخبار ، وقد
لاحظ ذلك صاحب تاريخ الأدب العربى (٦) ، وقد ورد كثير من ذلك فى شعرهم ،
فمن ذلك هذه القصة التى سجلها السليك ، حيث تسلل الى بيت يزيد الشيبانى ،
وكن خلفه انتظارا لسنوح الفرصة ، وإذا ابن الرجل يروح بالابل ، فأنكر أبوه
استعجاله فى الرواح بها قائلا : هلا عشيتها ساعة من الليل ، ثم زجر الرجل
الابل وعاد بها الى مرعاها ، وجلس قريبا منها متدثرا بردائه من البرد ، وكان
السليك حينئذ يتبعه ، فأهوى السليك على الرجل بسيفه فقتله ، وساق الابل
حتى نجا بها ، ثم سجل هذه القصة بشعره حيث يقول :

- (١) دجن يعنى الغيم المظلم وجمادى يعنى البرد وتهمى تسيل بالماء .
(٢) شوط قضاح مدى واسع يقتضيه المسبوق والمشايخ الجاد والذحل الثار وأشيف
أشرف .
(٣) أجواز أوساط والدم الابل والمقرنة التى ترقن ببعضها يعنى انه حين يعدو يحطم
تحت قدميه أشجارا كأوساط الابل .
(٤) أشلاء السمانى يعنى عظام طائر نبذتها طرحتها والرمح المطر الخفيف . ديوان الهذليين
١٣٠/٢ ، ١٣٦ .
(٥) الحيوان للجاحظ ٢٣٥/٦ .
(٦) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما بعدها .

وعاشية رج بطلان ذعرتهاها بصوت قتيل وسطها يتسيف (١)

ويصف هذا القاتل صاحب الابل بأن لون الدم المنساب في خطوط على جسده كان كأنه برد ملون مخطط ، وأن الصرير من قومه حين يأتيه يجده كذلك فيقول :

كان عليه لون برد معبر إذا ما آتاه صارخ متلهف

ويتحدث عن أصحاب الابل بأن فناءهم سيبيت خاليا منها لانه نجا بها ، فهي ليلة شؤم عليهم لانهم فقدوا الابل وفقدوا صاحبها ، وكأنهم لم يزجروا الطير ليعرفوا ما تختبئهم لهم هذه الليلة فيقول :

فبات لها اهل خلاء فئاؤهم وموت بهم طير فلم يتعيفوا

ومن اجزاء القصة أنه كان للسليك رفقة ينتظرونه عن كتب يقول عنهم :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ماعلوا نشزا اهلوا وأوجفوا (٢)

والشغرى كما يبدو من أخباره وشعره سيطرت عليه نزعة الانتقام من بنى سلامان أكثر من الرغبة في الغنائم لانه أحس الذل في معيشتهم بينهم أسيرا ، وقد زادوه ذلا بإيذائه في كرامته ونفسيته حين انكروا عليه التزوج منهم ، وفعلوا به ما كان سببا في اندفاعه الى التصعلك بأقوى ما يملك من ارادة وصلابة ، وفي اللامية يحدثنا عن أثر غارة من غاراته على أعدائه الذين يغلب أنهم بنو سلامان ، وواضح من شعره عن هذه الغارة أنه لم يستهدف الغنيمة ، وإنما استهدف القتل من أعدائه فيقول بعد حديثه عن ليلته السابقة ذات البرد والمطر والخوف والجوع والرعدة :

فايمت نسوانا وأيمت اللة وعلت كما أبدات والليل اليل

فهو قد قتل أناسا تأيمت بموتهم نساؤهم وييمت أولادهم ، ثم يصف حديث أعدائه حين أصبح عليهم الصباح واجتمعوا يتباحثون فيما حل بهم ، واعتراهم الدهش ، فأخذوا يتساءلون ويتجاوبون ويختلفون فيمن أو فيما فعل هذا الذي حل بهم ، فمنهم من يقول : لقد هرت كلابنا بالليل ، ومعنى ذلك أن طارقا غريبا طرق الحى ، ولكن ما الطارق ؟ انه لم يحدث صوتا ، فلعله ذئب عدا ، فافترس من افترس ، بل لعله ضبع صغيرة فعلت ما فعلت ، ومنهم من يقول انه لم يكن الا صوت حركة يسيرة أحسستها بالليل ثم هدات ، فحسبتها قطاة ريعت أو صقرا أزعج ثم لم أجد بعد ذلك صوتا ولا حركة ، ومنهم من يقول : ولم لا يكون

(١) انظر القصة كاملة في مجمع الأمثال للميداني ٩/٢ - ١١ وبطان متلثة البطون ويتسيف يعنى مضروبا بالسيف . وعاشية رج بطلان وصف للابل يعنى ابل مشاة متلثة سقتها تاركا قتيل مضروبا بالسيف كان وسط الابل .

(٢) باتوا يظنون يعنى أصحاب الابل وما بعده وصف لزملائه والنشز المرتفع وأوجفوا خافوا يعنى خوفهم عليه ويجوز ارادة الوجيف من السير يعنى أسرعوا بالابل .

هذا الطارق شيطاناً من الجن ؟ ان هذا الذى حدث لا يمكن أن يفعله انسى ، وقد كان مصدر خلافهم ودهشتهم أنه لم تحدث غارة عليهم كما تعودوا أن يروا الغارات ، فهل يعقل أن يفعل انسان بمفرده كل ما حدث دون أن يحس أحد أو يشعر ؟ هذا مصدر الحيرة فى نفوسهم ، والشكوى يصور حيرتهم هذه فى قوله :

فأصبح عني بالغميصاء جالسا فريقان مسئول وآخر يسأل
فقالوا لقد هوت بليل كلابنا فقلنا أذنب عس أم عس فرعل
فلم يك الا نبأة ثم هومت فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
فان يك من جن لأبرج طارقا وان يك انسا ماكها الانس تفعل (١)

ومالك بن الريب حدثنا عن مورد رزقه ، فيقول انه وان كان لا يرفض الرزق الطبيعى الذى يتاح له كما يتاح للناس ، الا أن اعتماده الحقيقى فى رزقه على نصل سيفه وفرسه ، فهذان هما اللذان ينفعانه فى كراته على التجار وقطعه الطريق عليهم كما يقول :

سيفينى المليك ونصل سيفى وكرات الكميت على التجار (٢)

والاحير السعدى يحدثنا أيضا عن أسلوب صعلكته ، ونهجه فى المعيشة ، وأن أموال التجار هى هدفه ، وأن سيفه هو الوسيلة اليها فيقول :

تعيرنى الاعساد والبدو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم (٣)

ثم يفصل الاحير ما كان يتيح له السطو على زوامل التجار من أنواع البز والطرف والثياب ، وان كان شعره الآتى قد قاله بعد توبته ، هذه التوبة التى لم تقتل فى نفسه الحنين الى ماضيه فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقلى اذا مروا من الحزن (٤)
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (٥)
فرب ثوب كريم كنت آخذده من القطار بلا نقد ولا ثمن (٦)

وصخر الغى الهذلى يحكى لنا صورة من صور صراع الصعاليك فى حياتهم الشاقة الرهيبة ، بل يحكى عن صراع جانب يبدو للناس حيناً يسيراً وهو الحصول

(١) من اللامية والغميصاء مكان وهرت صوتت والفرعل ولد الضبع والنبأة الصوت الضعيف والأجلد الصقر .

(٢) مذهب الأغانى ١٠/٥ .

(٣) أمال القال ٤٨/١ .

(٤) أمال القال ٤٩/١ والزوامل الأبل المحملة .

(٥) البز الثياب والطرفة يعنى الشيء الثمين ويحتسبوا يتركوها حسبة لله .

(٦) القطار الأبل المقطورة بعضها ورءى بعض .

على الماء ، ومع صاحب يرافقه في حياة الصعلكة ، فيقول انه حين نغد الماء منه حمل قريته وأخذ يبحث عن ماء ، حتى علم مكانا للماء ، فسعى اليه ، ولكنه سعى الخائف المتوجس الحذر ، لأن الامواء مطلب لسكان الصحراء دائما وملتقى لهم لقتلها ، وشدة حاجة الناس اليها ، وهو بسبب أعدائه وجنباياته في الصعلكة كثيرا لأعداء ، فانه لن يأمن أن يجد على الماء رسدا من أعدائه يوقعون به ، فأخذ يسعى وكأنه نمر مقور من شدة البرد كما يقول :

وماء وردت على ثوبة كمشى السبنتى يراح الشفيفا (١)

وظل صخر في مشيته هذه المحاذرة البطيئة حتى بلغ الماء واطمان الى خلوه من الأعداء فأراد أن يملا قريته في أقصى عجلة وتسرع ، خشية أن يفاجئه العدو من حيث لا يحتسب أو أن يكون مخدوعا في اطمئنائه الى خلو المكان من الأعداء ، فدلى قريته في الماء ولكنه وجد أن القربة قد تراكم عليها كثير من التراب والوسخ والروث ، فأخذ يخضها في الماء خضا شديدا ليذهب عنها بعض ما تراكم عليها ، وكأنه والقربة في يده يخضها هذا الخض الشديد مقامر قد أثارت هزيمته في ليسر كل غيظه وغضبه ، فهو يخض القدح في يده خضا شديدا لعله يفوز في رميته القادمة كما يقول :

فخضضت صفنى في جمه خياض المدابر قدحا عطوفا (٢)

ويتابع صخر قصة أمر يبدو يسيرا لغير الصعاليك وهو مجرد الحصول على الماء فيقول انه بعد أن ملا قريته بالماء أراد أن يسرع بالعودة ، وكأنه اتقضى على غنيمة يريد النجاء بها بأقصى ما يتاح له من سرعة ، ولكن خوفه ليس على الماء ، وإنما على نفسه من أعدائه الذين يترصدون به في كل مكان ، ولذلك أخذ يفكر في الطريق التي يسلكها في عودته ، ان الحذر علمه أن يتجنب العودة في طريقه التي جاء منها خشية أن يجد أعداءه قد آكمنوا له فيها فأخذ في عودته الطرق الملتوية ، والملتفة خلف الجبال حتى يمكنه أن يتخذ من هذه الجبال وتعاريجها وكهوفها حصنا إذا أحس الخطر يحرق به فيقول :

فلما جزمت به قريتي تيممت أطرقة أو خليف (٣)

(١) ديوان الهذليين ٧٤/٢ والزورة الازورار والخوف والسبنتى النمر والشفيف البرد ويراح يعنى يحس .

(٢) الخضضة يعنى التحريك الشديد للشيء الذى يحدث صوتا خفيفا كالجاف مثلا وانصغر قرية أكبر من العادية والجم الكثير يعنى الماء والمدابر يعنى المغلوب فى لعب ليسر وخياض فى معنى المصدر من خضض وقدحا مفعول له والعطوف القدح الذى يكرر رمية مرة بعد مرة .

(٣) جزمت ملأت وبه يعنى الماء وتيممت قصدت وأطرفة جمع طريق والخليف طريق وراء حل أو واد .

ويحدث عن رفيقه فيصفه بأنه رجل متمرس بالفرز معبود عليه لانه
حرفته ولذلك فهو غير ضعيف ولا مذرى به في أعين الناس .

معى صاحب حاجن بالفرزة ولم يك فى القوم وغلا ضعيفا (١)

وصخر من العدائين المشهورين بأنهم لا تسبقهم الحيل ، ولذلك فلا بد
لصاحبه أن يكون كذلك ، وهو يصف هذا الرفيق بأنه فى عدوه كأنه حمار
وحش عنيف ، قد عركه الصراع والجري وترك الجروح آثارها فى جسمه
وكل جرح منها كأنه عضة فم .

ويعدو كعدو كدر توى بفائله ونسائه نسوا (٢)

والشغرى يصف لنا طريقة ترصده لضحاياه وهو يقطع الطريق ، فيقول
ان المكان المفضل لديه هو أن يختار كميناً فى ذروة الجبل وأعلاه ، وان الوقت
الأثير عنده هو حين يشتد الظلام فيصعد الى كمينه فى ذروة الجبل ، هذه الذروة
التي لا يستطيع بلوغها الا ذو القوة والصلابة وهناك يتكئ على ذراعين يشبهان
السبب لصلابتها وخلوها من العظم ، ويظل عاقدا ذراعيه متكئا ومحدبا
عليها ولكن بصره الحديد يجول فى كل ناحية وكأنه أفعى متيقظ متحفز يدور
برأسه وبصره فى كل وجه يرقب ضحاياه فيقول :

ومرقبة عيطاء يقصر دونها اخو الضرورة الرجل الخفيف المشف (٣)

نميت الى اعلى ذراها وقلدنا من الليل ملتف الحديقة أسد (٤)

فبت على حد الذراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (٥)

ولكنه على هذا العناء وهذا الجهد كله ، وعلى ما يسلك من وسائل مختلفة
فى صعلكته لا يضمن الفوز بما يريد ، فقد يغتم وقد يخيب ، كما يقول :

وباضعة حمر القسى بعثها ومن يغز يغتم مرة ويشمت (٦)

(١) داجن معبود ويريد بالفرزة الفرز واللغل النذل .

(٢) الكدر بضم الكاف والدال وتشديد الراء الغليظ ، وصف لحمار الوحش والمائل عرق
غليظ يصل فى باطن الفخذ الى الساق والنسوف آثار من عض والاطهر أنه يريد أن احتكاك
باطن فخذه من شدة العدو قد ترك فيها هذه الآثار .

(٣) مهذب الأغاني ٩٥/١ والمرقبة مكان الترقب وعيطاء مرتفعة والمشف الذى شفته عوامل
الضعف فأوهنته .

(٤) نميت صعدت والشرط الثانى معناه أصبح الظلام شديدا .

(٥) محدب مائل الأرقش الامم الملون الجلد والمتقصف المتلوى .

(٦) الباضعة القاطعة يعنى جماعة غزاة وحمر القسى يعنى أن القسى قد أحمرت من طول
استعمالها وتعرضها للشمس والمطر ، ويشمت تصيبه الشماتة لعدم فوزه بفنيمة والبيت من
قصيدة طويلة بالمفضليات ص ١١٠ .

ولكنه على أى حال مستريح النفس ، فيكفيه أنه يبعث الروح والروح
فى قلوب أعدائه ، وهو ما يريد أن يحققه ، ولو ضحى فى سبيله بحياته
فيقول :

امشى على الأرض التى لن تفرنى لانكى قوما أو اصادف حمى (١)
وتأبط شرا يصف رهبة اصحاب الابل منه ، وتوقعهم لفارته فى كل
حين ، وهم يعلمون انه قادر على الغزو ، سواء كان وحده ، أو كان له شيعة
فيقول :

ولكن أبواب المخاض يشفهم اذا افتقروا واحدا أو مشيعا (٢)
وكنا قال الشنفرى انه يفزو فأحيانا يفنم وأحيانا يشمت ، ولكنه فى
الحالين يخرج بنتيجة تريخ نفسه ، كذلك يقول مالك بن الرب :

وأيابى سيخلفهن سيفى وشدات الكمى على التجار
فان أسطع أرح منه أناسى لضربة فاك غير اعتلاد
وان يقلت فانى سوف أبغى بنيه بالمدينة أو صراد (٣)

ولئن كان كثير من الصعاليك يؤثرون الليل ، يتخذون منه ستارا لهم فى
مزاولة أعمالهم الرهيبة فان عبدة بن الطبيب لا يستغنى عن الظلام ، ولكنه يؤثر
أن يكون قريبا من طلوع الشمس ولئن كان كثير منهم يؤثر المراقب يكمن فيها ،
ويؤثر قدميه يعتمد على نحائه بهما تكمن المخاطر ، فان عبدة بن الطبيب
يؤثر الغزو على فرس ساهم الوجه كانه ذئب ، ومهما تختلف الأساليب ، فان
الصحراء ميدان الجميع ، يقول (٤) :

أفزعته منه وحوشا وهى ساكنة كانها نعم فى الصبح مشلول
بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول
وقد غلوت وقمرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل

وأما عبيد الله بن الحر ، فهو رجل مودود من نسب أمه التى كانت قبيلة
أصحبها السبى ، فهو يريد أن ينتقم لها بسيفه ، ويبتقم لما أصاب نسبه من
رذاذ حول أمه فيجعل من أهدافه الأساسية فى الصعلكة سبى الحرائر حتى
يشفى غليل صدره لسبى أمه فيقول :

-
- (١) المفضليات ١١٠ وتكاد أصاب منه والحة الملية
 - (٢) حسنة أبى تمام ١٩٠/١
 - (٣) مذهب الأغانى ١٠/٥ وصراد موضع قرب المدينة
 - (٤) المفضليات ١٤٣ ومنه يعنى الكلا والنعم الابل ومشلول مطرود والسرحان الذئب والطرف
الكريم والمنصلت الضامر الماضى والتجليل فى البيت الأخير التطفية الخفيفة

ان تك امى من نساء اصحابها سباء القنا والمرهفات الصنائع
فتبا لفضل الحر ان لم ائل به كرائم ابناء النساء الصرائح (١)

ويزيد العقيل يدرك مدى الامن الذى احس به اصحاب الابل حين اقلع
عن الصعلكة ويمن عليهم بتوبته فيقول :

الا قل لأرباب المخائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد (٢)

ولئن كان شعر الصعاليك قد تحدث عن جوانب كثيرة مختلفة من حياة
الصعلكة ، وصراع الصعاليك فى هذه الحياة ، فان منهم من جعل لنفسه شعارا
عاما يوجه حياته كلها ، وتخضع له كل وسائله فى المعيشة ، كما يقول الاحيمر
السعدى :

وانى لاستحيى لنفسى ان ارى امر بحبل ليس فيه بعير
وان اسأل العبد اللثيم بعيره وبعران ربه فى البلاد كثير (٣)

وكما يقول بكر بن النطاح فى هذا البيت الذى كان العرب يرون فيه
مثالا لعزة النفس وابائها وعفتها :

ومن يفتقر منا يعش بحسبهم ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (٤)

أَسْلَحَةُ الصَّعْلَكَةِ

وحياة الصعاليك التى قلنا انه لا يمكن لحديث او روايات او اخبار مهما
تبلغ ان تصورها على حقيقتها بما فيها من رغبة وقسوة ومخاطر لا يدركها حق
ادراكها الا الذين عاشوا فيها وتأثروا بها وانفعلوا بما فيها وهم الصعاليك
أنفسهم وكذلك لا يمكن لاي اخبار او روايات ان تصور مشاعر اصحاب هذه
الحياة كما يصورها الصعاليك أنفسهم ، لأنهم اصحاب هذه الحياة الذين عاشوا
فيها ، وتأثروا بكل ما تنطوى عليه .

(١) أمال القالى ٢٢٠/٣

(٢) كامل المبرد ٦١/١

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخاضى

(٤) مهذب الأغانى ٨٤/٨

وحياة من الرهبة والقسوة والخطورة بهذا المكان ليست سهلة ولا ميسورة وليست مستطاعة لكل راغب فيها ، بل ولا لكل مضطر اليها ، ولئن كان بعض الناس يفخرون بمخاطرة أقداموا عليها ، أو موقف عصيب اجتازوه ، فان حياة الصعاليك بكل يوم من أيامها وبكل خطوة من خطواتها سلسلة متصلة متلاحقة من المخاطر والمواقف العصبية فليست فى حياتهم ساعة تخلو من خطورة أو خوف أو توقع المكروه ، وسنرى ان كل حياتهم كانت قلقا ورهبة وخوفا ، حتى نومهم كان قلقا مفزعا ، وليس أشد على نفس انسان من شعوره بأن كل ما حوله ومن حوله عدو متربص به ، حريص كل الحرص على أن ينال منه ان لم يهلك ، ويكفى مثلا لذلك هذا الشعور الذى يحمله الشنفرى من أنه طريد جنائيات كثيرة جناها ، وأصحاب هذه الجنائيات حريصون على الثأر منه . يتنازعون لحمه ، ويتنافسون أيهم يكون أسبق الى صرعه وان أعداءه الكثيرين لشدة غيظهم وحرصهم على الانتقام منه لا تنام عيونهم فكيف ينام هو حيث تبنت هذه العيون كلها يقظى حيثة الى مكروها ؟

طريد جنائيات تيامرن لحمه عقيرته لأيهما حم اول (١)
تبنت اذا ما قام يقظى عيونها حثاها الى مكروها تتغلغل (٢)

ومع ذلك فهذا جانب واحد من جوانب الخطورة والرهبة فى حياة الصعاليك وهو جانب مطاردة الموتورين للصعاليك .

واذن فهذه الحياة الخطيرة الرهيبة تحتاج بالضرورة الى أسلحة كثيرة يتذرع بها لمجابهة ما فيها ، ولكن هذه الأسلحة لا يكفى فيها أن تكون مجرد أسلحة قتال ، فكتير من مخاطر هذه الحياة ليس قتالا ولا يحتاج الى أسلحة قتال وانما يحتاج الى صفات أساسية لازمة لكل من يخوض غمار تلك الحياة ، ولذلك يمكن أن ننظر الى الأسلحة التى يحتاج اليها الصعلوك على انها نوعان ، أسلحة « منظورة » وأسلحة « غير منظورة » ونعنى بالأسلحة المنظورة أو المحسوسة اللوازم المباشرة التى تحتاج اليها حياة العدوان التى يحيها الصعاليك ، فهم فى عدوانهم الدائب على الناس ، وفى تعقب المعتدى عليهم للصعاليك ومطاربتهم أيهم ، لابد للصعاليك فى هجومهم وفى دفاعهم من أسلحة ووسائل للهجوم والدفاع . وأهم أسلحة الهجوم أسلحة القتال المعروفة كالسيف والقفوس ، والمطايا من الأبل والحيل ، وأهم أسلحة الدفاع سلاح كاد الصعاليك ينفردون به وهو السرعة المدهشة فى العدو ، وأيضا الأماكن التى تتيح لمرتادها الاختفاء عن الأعين والهروب ، ولذلك نجدهم يحرسون دائما كما سنرى على مثل هذه الأماكن فى مزاولتهم للصعلكة .

ونعنى بالأسلحة غير المنظورة أو غير المحسوسة الأسلحة غير المباشرة التى

(١) من اللامية : وتيامرن تقاسن والعقيرة اللحم أيضا .
(٢) تبنت يعنى الجنائيات يقصد أصحابها وحثاها يعنى متجملين .

تلزم لكل صعلوك حتى يستطيع أن يحتل هذه الحياة بما فيها من مخاطر وقسوة .

وأهم هذه الأسلحة الصفات التي ينبغي أن تنهيا للصعلوك ، والتي يجب أن يكون متصفا بها حتى يستطيع أن يواجه المخاطر التي لابد أن يتعرض لها كل صعلوك ، والقسوة التي لا تخلو منها حياتهم ، وذلك كالجرأة وقوة الإرادة والصبر واليقظة .

وهذه الأسلحة غير المنظورة أهم ما يلزم للصعلوك ، بل هي أهم من الأسلحة المنظورة ، وهي المعيار الحقيقي للفتاوت بين الصعاليك ، ولدى خطوة الواحد منهم في الصعلكة ونجاحه فيها ، وبدون هذه الأسلحة لا يصلح شخص لحياة الصعاليك الحقيقية مهما أتيح له من أسلحة منظورة ، أما الذين يتمتعون بقدر وافر من هذه الصفات فانهم كانوا دائما ينجحون في تحقيق أغراضهم من الصعلكة ، ولذلك نجد في أخبار كثير منهم كما سبق انه كان يغزو وحده ، أو كان يغزو على رجله ، ونجد الشنفرى مثلاً هذا الذي روع نجدا كلها وخاصة قبيلة بنى سلامان كان كما يؤكد شعره وأخباره يعتمد على نفسه ، وحتى في الأخبار القليلة التي تحدثنا عن صحبه ، لا نجد له إلا رفيقين في أكثر الأحيان هما تابط شرا وعمرو بن براق ، ومما يدل على عدم ملازمة هذين الرفيقتين له ان الأخبار تصف تابط شرا بأنه كان يغزو وحده ، ومعنى ذلك ان هذه الصفات ألزم ما يحتاج اليه الصعلوك في حياته ، وانه يستطيع أن يستغنى بها عن كثير من الأدوات المنظورة أو المحسوسة .

وفيما يل نتحدث عن هذين النوعين من الأسلحة التي تدرع بها الصعاليك لحوض حياتهم هذه الرهيبة القاسية الخطيرة .

الأسلحة المنظورة

٢ - أسلحة القتال

إذا كان حمل السلاح شيمة العربي ، يرى سلاحه جزءاً منه ، لا يفارقه في سلم أو غيره ، فهو ملازم له في كل أوقاته ، فمن باب أولى الصعلوك الذي يعيش حياة عادية ومعدوا عليها كما بقول الصعاليك ، فلا يتصور أحد من الصعاليك بدون سلاح ، ونرى شعرهم يعتز بالأسلحة اعتزازاً شديداً ، ويتفنن في تصوير هذا الاعتزاز والتعبير عنه ، وقد تحدثوا عن أنواع كثيرة من الأسلحة نسوق أهمها فيما يأتي :

١ - السيف :

السيف هو السلاح الاول الذى كان يحرص كل عربى على حمله واستعماله ، والأسلحة الأخرى تعتبر اضافية بالنسبة اليه . أو مدخورة للظروف ، حيث ان الأسلحة الأخرى غير السيف كان مجالها القتال ، أما السيف فملائم للفرد دائما ، سواء فى الحرب والسلام وقد تحدث شعر الصعاليك عن السيف باضافة وتفنن ، ولا يكاد شاعر منهم لم يكرر حديثه عن السيف فى صور وأسماء وتشبيهات مختلفة .

وأكثر الحديث فى شعرهم عن السيف ، كان عن لونه ، وهو البياض ، فيقول الشنفرى :

إذا فزعوا طاولت بأبيض صارم ورامت بها فى جفورها ثم سلت (١)

ويقول أيضا عن بياض سيفه الذى يجذ أطراف السواعد :

وأبيض من ماء الحديد مهند مجد لأطراف السواعد معطف (٢)

ويتحدث عروة بن الورد عن بياض سيفه المشهر الوقع فيقول :

نظعن عنها أول اليوم بالقنا وببيض خفاف وقعن مشهر (٣)

ويتحدث عروة أيضا عن بياض سيفه الذى لا يملك غيره وغير درعه ومنظره فيقول :

ومال مال غير دوع ومغفر وأبيض من ماء الحديد صقيل (٤)

ويتحدث مالك بن الربيع عن القرى الذى قدمه ، وقد كان هذا القرى سيفا أبيض كالعقيقة :

فقراك أبيض كالعقيقة صارم ذا روثق يثقى الضريبة فاصل (٥)

ولئن كان بياض سيف مالك فاصلا فى أعضاء خصمه كما قال ، فانه منجاة لصاحبه كما يقول :

فصرت لقي لما علاك ابن حرة بأبيض قطاع ينجى من الكرب (٦)

(١) للضليات ١١١ والجفر كنانة السهام والصارم القاطع يعنى السيف .

(٢) مهلب الأغانى ٩٥/١ .

(٣) الاصميات ٤٠ .

(٤) العنت لا بن رشيق ٣٥/٢ .

(٥) مهلب الأغانى ١٠/٥ .

(٦) مهلب الأغانى ١٦/٥ .

وسيف مالك هذا يصفه راجز بأنه مسموم فيقول :

الله نجاك من القصيم ٠٠٠

ثم : ومالك وسيفه المسموم (١)

ولكن صخرا الغي يرى هذا البياض غير خالص في سيفه ، بل مشسوبا
ببعض الميل الى السواد في بعض متنه ، وليس ذلك عيبا فيه ، بل زيادة في
الجودة ، فهو سيف مستخلص ، انتقاء من سيوف أريحاء الكثيرة حتى انه لا يجد
شبيها له ، وحتى ان ضربته لا يصلب أمامها شيء فيقول :

وصارم اخلصت خشيبته أبيض مهو في متنه ربد (٢)
فليت عنه سيوف أريج حتى باء بكفى ولم أكد أجد (٣)
فهو حسام تتر ضربته سا ق المذكرى فعقلها قصد (٤)

ويستغنى الشنفرى بسيفه الأبيض وقوسه عن عون الناس جميعا
وصداقاتهم وصلاتهم فيقول :

وانى كفانى فقد من ليس جازيا بحسنى ولا فى قربه متعل
ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع وأبيض اصليت وصفراء عيطل (٥)

وعمر بن براقة لا يرضى لسيفه الأبيض مكانا حين يضرب الا الجماجم
فيقول :

فلا صلح حتى تقلاع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

وأما قيس بن الحدادية فيجعل سيوفهم البيض هي كل ما يقدمونه من
مهر ليستحلوا بها نساء أعدائهم ، وذلك حين يصبحن أسيرات بهذه السيوف
فيقول :

لقد علمت أفناء بكر بن عامر باننا نلود الكاشح المتزحرا
وانا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحا (٧)

(١) معجم البكرى ١٠٢٧/٣ .

(٢) صارم قاطع وأخلصت خشيبته أخلص طبعه وهو رقيق والربد جمع ربة وهي البقح
المخالفة في اللون .

(٣) أريج هي أريحاء الشام بلدة وباء صار ولم أكد أجد معنى لم أجد له مثيلا .

(٤) تتر تقطع والمذكرى المسن الصلب والتصد جمع قصدة وهي الكسرة . ديوان الهذليين

٦٠/٢ .

(٥) مشيع يعني كان له شيعه تناصره وأصليت قاطع وصف للسيف وعيطل قوس طويلة

المنق . اللامية .

(٦) أمالي القالي ١١٩/٢ .

(٧) الأغانى للأصفهاني ١٤٤/١٤ .

وأما مالك بن حريم فيصف قومه وسيوفهم البيض تلمح حين يضربون بها فيقول :

والبيض تلمح بينهم تعصو بها الفرسان عصوا (١)

ومن الصعاليك من حاول تشبيهه بياض السيف بشيء ، ولكنهم لم يخرجوا عن تشبيهه بالملح (٢) ، ولعل الملح أشد ما يعرفونه بياضا ، فلا نعلم شيئا في حياتهم أكثر بياضا من الملح ، وحتى اللبن المعروف بالبياض لا يبلغ الملح في صفاء بياضه ، وخاصة لبن الأبل الشائع بينهم ، فبياضه غير خالص لما يشوبه من الدهن ، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يشبهوا بياض سيوفهم بأشبه ما يعرفونه بياضا وهو الملح ، فعمر بن بركة يجعل في سيفه الذي يشبه لون الملح غنى له عن المال ، ولاعتزازه بالسيف يذكره في خمسة أبيات من قصيدة غير طويلة ، تكاد الخمسة تكون مخصصة للسيف فيقول عن نفسه ،

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح ابيض صارم
غموض اذا غص الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمن ملازم
ثم : كذبتم وبيت الله لا تاكلونها مراغمة ما دام للسيف قائم
ثم : متى تجمع القلب الذكي وصارما وانما حميا تجتنبك المظالم
ثم : فلا صلح حتى تقدح الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجاهم (٣)

ويقول مالك بن حريم عن لون سيفه الذي يشبه الملح ، والذي قتل به سيد أعدائه :

بنى قمبر قتلت سيدكم فالיום لا فدية ولا جزع
جللته صارم الحديدة كالملح وفيه سفاسق ملح (٤)

ويقول عروة بن الورد :

يكفى من الماثور كالملح لونه حديث باخلاص الذكورة قاطع (٥)

والشنفرى يطلق لحياه العنان ، فلا يكتفى بذكر الملح في تشبيه لون سيفه ، وإنما يلجأ الى أسلوبه الغالب على شعره كله ، وهو التصوير البارع العميق من مرثيات بيئته فيقول : بعد ذكر اللون والصفات المألوفة انه يشبه « أقطاع الغدير » أو أحد « أذئاب الحسيل » :

-
- (١) الحيوان للجاحظ ٤٧٤/٦ وتعصو تضرب والصو الضرب .
(٢) شبهه مالك بن الريب بالحققة في البياض كما سبق أنفا ولكنه تشبيه لا يعتبر من البيعة . .
(٣) أمالي القالي ١١٩/٢ وتقدح تكف والجاهم الرموس .
(٤) المصدر السابق ١٢٠/٢ وسفاسق طراقة المسماة الفرند .
(٥) ديوان عروة ٩٩ .

حسام كلون الملح صاف حديد جراز كاقطاع الفدير المنعت (١)
تراها كاذناب الحسيل صوادرا وقد نهلت من الماء وعلت (٢)

وقد حظى متن السيف بأوصاف كثيرة فى شعر الصعاليك ، تنعتة أحيانا بالحدة والشحذ ، وأحيانا بالركة التى تدل على المضاء والنفاذ ، وأحيانا بالصلابة والمنانة ، وأحيانا بالطول مع مصاحبة ذلك لأوصاف أخرى ، وتشبيهات له ، أو نسبة الى صانع أو بلد ، أو غير ذلك من الأوصاف .

على اننا نلاحظ ان مقبض السيف وحمائله لم تحظ باهتمام شعرهم ، ولم يجعلوها موضوعا بارزا للحديث عنها ، وهذا أمر متوقع من مثل الصعاليك فالمقبض والحمائل تعتبر زينة وكمالا ، أعنى ان العناية بهما انما تتوقع من فرسان المجتمعات والمدن ، الذين يختالون بأسلحتهم ويستعرضونها أمام الناس ، فيهمهم جمال مقبض السيف أو حمائله أو غمده ، ليكون فى هذا الجمال زيادة فى الهيبة والتمجيد ، أو جذبا لأنظار المفتونات ، أو حتى ارضاء للخيلاء ومباهاة بالثراء ، أما الصعاليك فلم يكن لهم فى شيء من ذلك أرب ، وما لهم والحلية والزينة ؟ انهم فضلا عن كونهم لا يستطيعونها لفقرهم ، ليسوا فى حاجة اليهم وحياتهم فى عزلة عن المجتمعات ، وسيوفهم قلما تستعمل فى ضوء النهار ، وانما مكانها الصحراء ، وزمانها جوف الظلام فحينما يتحدثون عن هذه الحلى يتحدثون عنها عرضا ، وفى سيوف غير سيوفهم ، كما يتحدث الأعلام الهذلى عن الضبايع السود التى تشبه جلودها ثياب الرهبان ، وعن نزاع هذه الضبايع لبلد فريستها كما ينزع القين الحلية المذهبة عن جفن السيف ليضع غيرها مكانها فيقول :

سود سحائل كما ن جلودهن ثياب واهب (٣)
أذانهن اذا احتضر ن فريسة مثل الذائب (٤)
ينزعن جلد المرء نزع القين أخلاق المذهب (٥)
بل على العكس نجدهم يصرحون بخلو سيوفهم من الحلية ، وأن مواضع الحلية منه خلقة بالية فيقول تأبط شرا :

(١) المضليات ١١١ والجراز السيف القاطع والاقطاع يعنى الأمواج الرقيقة التى يضر بها الهواء فتلمع بياضا والمنعت الكثير النعوت .

(٢) الحسيل جمع حسييلة وهى أولاد البقر - يشبه السيوف بأذناب أولاد البقر حين ترى أمهاتها ونهلت وعلت يعنى أن السيوف رويت من الدماء فى مقابلة رى صفار البقر من لبن أمهاتها .

(٣) سحائل وصف للضبايع بالضخامة يعنى ضبايعا ضخمة سودا كأنها تليس ثياب رهبان لسوادها .

(٤) احتضرن أوقمن والمذهب جمع مذبة وهى المفردة التى يعرف بها .

(٥) القين الحداد والأخلاق جمع خلق للشئ القديم البالى والمذهب جمع مذهب أو مذهبة يعنى أن القين ينزع عن جفن السيف الشئ المذهب الملصق به حين يبلى ليضع جديدا مكانه .

فطار بقحف ابنة الجن ذو سفاسق قد اخلق المحملا (١)
ويقول عبيد بن أيوب أن طول احتضانه السيف جعل جفنه وحمائله
كأنهن جزء منه :

وطال احتضاني السيف حتى كانما يلاظ بكشحي جفنه وحمائله (٢)

فملازمة السيف لذاته هي التي تعنيهم ، ولا يعنيهم بعد ذلك شيء قط
الا جودة السيف ولذلك حرصوا كثيرا على الحديث عن جودة السيف كما قال
صخر القى انه افترى سيمه من سيوف اريحاء حتى لم يكن لسيفه مثيل ، وعن
مضائه في النفاذ وتقطيع الأوصال وعن شحذ حده ، بالاضافة الى سرد أسماء
كثيرة للسيف مأخوذة أصلا من صفات له ثم غلبت عليه كالمهند والشطب .

فمن ذلك وصف سعد بن ناشب لسيفه حيث يقول عن نفسه :

إذا هم القى بين عينيه عزمه وصنم تصميم السريجي ذي الأثر (٣)
وأبو خراش يرى غاية ما يطلب في السيف أن يكون حادا مضيقولا
فيقول :

ولولا نحن أوهقه صهيب حسام الحسد ملروبا خشيبا (٤)
وأحيانا يسمى أبو خراش سيفه المهند كما يقول في وعيده لشخص
يدعى واقدا :

أوا قد لا آلوك الا مهندا وجلد ابى عجل وثيق القبائل (٥)
ومرة أخرى يضيف اليه صفة المهند القضاب فيقول :

فنشيت ريج الموت من تلقائهم وكرهت كل مهند قضاب (٦)
وأحيانا يتحدث عن ابناء السيف وصلابته مشبها شخصا بنصله فيقول :

اشم كنصل السيف يرتاح للننى بعيدا من الآفات والخلق الوخم (٧)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والقحف العظم فوق الدماغ والسفاسق طرائق
السيف المسماة الفرند وابنة الجن الفول .

(٢) الكامل للبرد ٢٠٠/١ ويلاظ يلازم ويلتصق .

(٣) حساسة أبى تمام ٢٧٢/١ والسريجي نسبة الى صانع أو بلد والأثر صلابة المثن وحدته .

(٤) ديوان الهذليين ١٣٥/٢ وأرهقه أغشاء بمعنى ضربه والحسام الحاد والمزروب الحديد
والخشيب حديث العهد بالصقل .

(٥) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ ولا آلوك يعنى ليس لك الا السيف وأبى عجل يريد جلد

الثور صنعت منه قرص .

(٦) المصدر السابق ١٦٨/٢ ونشيت شمت والمهند المشحوذ والقضاب القطاع .

(٧) المصدر السابق ١٥٣/٢ فى رثاء قريبه خالد بن زهير والأوصاف فى البيت لخاله .

وأما صخر فيسمى سيفه الجراز متحدثا عن حدة متنه ومضائه ، فيقول حين طولب بدية أحد قتلاه مخاطبا خصمه أبا المثلم :

ليت مبلغا يأتى بـقول لقاء أبى المثلم لا يريث (١)
فيخبره بأن العقل عندي جراز لا أفل ولا أئيث (٢)
به أقم الشجاع له حصاص من القطمين اذ فر اليوث (٣)

وأبو المثلم هذا الذى توعدده صخر الفى قائلا ان الدية التى تطلبها لن تجدها عندي الا سيفا له صفاته السابقة ، تجد أبا المثلم هذا يؤمن على ما ذكره صخر عن سيفه ، بل يزيد فى وصف سيف صخر عما وصفه صخر نفسه فيقول :

يا صخر ان كنت ذا بز تجمععه فان حولك فتيانا لهم خلل (٤)
او كنت ذا صارم غضب مضاربه صافى الحديدة لا تكس ولا جبل (٥)
وسمحة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٦)
يا صخر فالليث يستبقى عشيرته قنية ذى المال وهو الحازم البطل (٧)

وتأبط شرا يؤكد أنه لا تهمة للسيف حلية أو رونق ، وانما يهمة أن يكون سيفه حديدا ماضيا ، ولذلك فانه اذا وجد سيفه قد فل أو كل شحذه بحد الحجارة دون أن يحتاج الى صيقل يصقله فيقول :

اذا كل أمهيته بالصفاء فحد ولم أده صيقلا (٨)
أما عبد الله بن سبرة الحرشى فيهمه أن يجلى الصياقل عن سيفه ما يعلق بنصله فيقول :

-
- (١) المصدر السابق ٢٢٣/٢ ولقاء أى تلقاء وقبالة ويريث يبطىء .
(٢) العقل الدبة والجراز القاطع والافل المفلول ولا أئيث يعنى حديده ذكر .
(٣) أقم الشجاع أرده وله حصاص أى جد ونشاط فى مره وقطعه والقطمين المتهيجين من الفحولة .
(٤) البز السلاح والخلل جمع خله بطانة جفن السيف واراد بها السلاح نفسه : ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ .
(٥) التمس الضعيف والجبل بفتح الجيم وكسر الباء الكز الغليظ غير السهل والعضب القاطع .
(٦) وسمحة قوس سهلة الاستعمال وكاتمة ليس بها صدع والسبيكة الصفراء يعنى قوسا غير منكسة ولا عاطلة من التوتر .
(٧) القنية المال المكتنى يريد أن الحازم يستبقى أهله وعشيرته ويحرص عليهم فلا يعمل على قتلهم كما تفعل أئث .
(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وكل أى كل حده وأمهيته شحذته وحدته والصفاء نوع من الحجارة .

كل ينوء بهامى الحد ذى شطب جلى الصياقل عن ذريه الطبقا (١)

وجحدر بن معاوية حين أودع السجن أشفق أن يموت ، لا رهبة من الموت ولا حبا فى الحياة ، وإنما لأن لسيفه وسلاحه حقا وغاية لم يحققها بعد فيقول :

ولم اك قد قضيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان (٢)

ومالك بن الربيع حين حلقت المثية فوق رأسه ، وأحس طعم الموت فى حلقه فى رحلته التى مات فيها مشردا غريبا ، حينذاك وجد نفسه وحيدا يصارع الموت والغربة ، ولكنه فى هذه اللحظات العصبية لم ينس سيفه ورمحه ولئن كان سيفه قد صاحبه حياته صحبة الرفيق والساعد والسند القوى الثمين ، فانه فى لحظات موته أيضا كان النادب والرائى والباكى ولا باكى غيره وغير رمحه وفرسه فيقول :

نذكرت من يبكى على فلم أجده سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر مجبوك يجز بجامه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٣)

٢ - السهم :

ومن الزم الأسلحة للصعاليك القوس والسهم ، لأنهم بحكم حياتهم يعتمدون اعتمادا أساسيا على أشخاصهم بمفردها ، وبحكم اعتماد الصعلوك على أسلوب الترسد ، والهجوم والدفاع الفردى ، يحتاج الى سلاح بعيد المدى فى الإصابة ، بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضحاياه ، والسهم خير ما يحقق له ذلك ، ولذلك نجد شعرهم يتحدث كثيرا عن السهم ويصور أهميته فى حياتهم وتحقيق أغراضهم ، فمن ذلك ما يصفه صخر البغى عن سهامه ، من أنها مع ترسه حصن منيع يحول بينه وبين أعدائه ، ويرد عنه مترعديه حيث يقول :

انى سينهى عنى وعيـلهم بيض رهـاب ومجنـا أجـد (٤)

والشغفرى يتحدث عن أهمية السهام للصعلوك حتى انه يحمل منها ما يستطيع حمله دائما ، لأنها الحاجز المنيع بينه وبين أعدائه ، والقبضة الطولى فى بلوغه إياهم ، فيصف رفيقه تأبط شره الذى يسميه « أم عيال » لأنه كان يدبر أمر قوتهم حين يغزون ، يصفه بأنه يحمل دائما جعبة فيها ثلاثون سهما مهيأة للاطلاق فور احساسهم بأول خطر فيقول :

(١) أمالى القائل ٤٧/١ والشطب طرائق السيف فى متنه وذريه لمعانه والطبق الوسخ .

(٢) أمالى القائل ٢٧٨/١ .

(٣) مذهب الأغاني ١٧/٥ مراثيته المشهورة .

(٤) ديوان الهذليين ٥٩/٢ والبيض الرهاب السهام المرهفة المرققة والمجنأ الترس وأجد

لها وفضة فيها ثلاثون سيحقا اذا آتست أولى العدى اقشعرت (١)
ثم - اذا فزعوا طارت بأبيض صارم وراحت بما فى جفراها ثم سلت (٢)

ويصف أبو خراش سهمه الحاد العريض النصل ، وذلك خلال صورة دقيقة جنيلة يرسمها لقطيع من حمر الوحش تعرضن لصائد ، فبعد أن وصف القطيع بما فيه من آتن حوامل وذكور يحاولن النزول على الاتن رغم حملهن ، ثم ما يحدثه القطيع من تصايح وجلبة وتعارك يثور له حولهن وفوقهن غبار كأنه الثوب المنسوج ، ثم اشتداد وهج الشمس عليهن ، وسعيهن الى الماء وبعد أن شرب القطيع وعاد هنالك كان أبو خراش وسهامه راصدا للقطيع فيقول مكمل هذه الصورة •

منيبا وقد أمسى تقدم وردها الفيلر محموذ القطاع نذيل (٣)

يريد أن القطيع حين عاد وقد أمسى عليه المساء ، كان أبو خراش قد سبقه وترصد له فى طريقه وتابع القطيع سيره ، محاذرا بفريزته ، مرهفا سمعه خشية أن يكون فى طريقه صائد يكمن له كما كان أبو خراش كامنا حينئذ له وشى واحد لم يستطع القطيع أن يخفيه ، هو وقع أرجله القوية فى طريق خشنة غليظة غير ممهدة ، وتزداد حدة وقع أرجله حينما يكون منحدرًا من هضبة مرتفعة ، ويعبر أبو خراش عن ذلك فيقول :

فلما دنت بعد استماع وهفنه بنقب الحجاب وقعن رجيل (٤)

ويتابع أبو خراش صورته هذه الواقعية الجميلة ، فيقول أن الحمر الوحشية ظلت فى انحدارها القوى الوقع من المرتفع حتى نزلت بطن الوادى ، وفى مثل هذه الوديان المنخفضة من الصحراء تتجمع عادة مياه الأمطار والسيول ثم تجف أو يجف معظمها ، فتتنبت منها طحالب وأنواع من نبات الصحراء قد يكون بعضها كثيفا أو مرتفعا ، ولذلك حينما نزلت حمر الوحش من مرتفعها لنجتاز هذه النباتات النابتة فى مياه آجنة أخذت الحمر تفتح ما بين رجليها

(١) المضليات ١١١ والوفضة جمبة السهام والسيحف السهم العريض النصل وآتست أحست وأنشئ بفتح العين وكسر الدال جماعة المدائن واقشعرت تهيأت للقتال وضمر التائب يعود على أم عيال وهو تأبط شرا •

(٢) الصارم القاطع للسيف والجفر كثافة السهام يريد أنه يرمى سهامه فإذا نفلت سل السيف •

(٣) ديوان البلدين ١٢٠/٢ منيبا راجعا والورد مكان الورد من الماء وأقيدر تصير العنق يعنى نفسه ومحموز شديد صلب والقطاع السهام ولذيل من الذالة يريد أنه رث الثياب غير نظيف المظهر • المظهر •

(٤) دلت يعنى حمر الوحش وبعد استماع وهفنه أى بعد تسمع أرفهن فيه أذانهن والنقب الطريق الغليظ والحجاب الأرض المرتفعة كالهضبة الصغيرة ، والرجيل القوى يعنى وقع أرجلهن قوى عنيف •

الأماميتين فيما يشبه الوثب المضطرب لتجتاز هذا الماء الآجن بما فيه من طحالب ونباتات

يفتحن بالأيدي على ظهر آجن له عرمص مستأسد ونجيل (١)

وبعد أن اجتاز القطيع هذا الماء الآجن بما فيه من نباتات مضى في طريقه صوب الجبل ، وهنا كان أبو خراش في تتبعه القطيع ببصره قد وجد الفرصة لاقتناص أحد هذه الحمر بسهمه وقد اختار أقربها إليه ، وفجأة أحس الحمار بأبى خراش وسهمه ، فاعتراه فزع شديد ، وحاول النجاء ، ولكنه وجد نفسه وليس أمامه إلا شق في الجبل أحسن أبو خراش اختياره لاصطياد صيده ، واندفع الحمار في الشق ، فأصبح كالصيد في الفخ ، وحينئذ كان سهم أبي خراش الضخم الحاد العريض النصل كما يصفه يفور في فؤاد الحمار .

فلما رأى الآ نجاء وضمه الى الموت لصب حافظ وقفيل (٢)
وكان هو الأدنى فخل فؤاده من النبل مفتوق الفرار بجيل (٣)

ومن هذه القصة نرى جانبا من جوانب حاجة الصعاليك الى السهم ، وهو جانب الصيد ، الذي تعتمد حياتهم عليه ، ان طعامهم بحكم حياتهم في الصحراء وانقطاعهم عن المجتمعات اامدا قد تطول الى الأشهر الطويلة أو ما هو أطول من ذلك ، في رحلات الغزو البعيدة المدى ، وفي الفترات الطويلة التي يضطرون فيها الى التخفى من المطاردة ، في كل ذلك لا وسيلة لهم الى العيش الا الطرد والصيد لا يصلح له في أسلحتهم الا السهم ، وعمره ذو الكلب يجعل من سلاحه وسهامه خير رد على وعيد المتوعدين ، فسيغه الملازم له كالوشاح ، وترمنه الذي يتقى به سهام العدو فتفل سهام العدو على صلابه ترسه وسهمه المدد للانطلاق ، وكنائته التي تحوى سهامها محددة كالشوك ، كل ذلك يجعل وعيد أعدائه هراء ، فيقول :

تمثاني وأبيض مشرفيا أشاح الصدر اخلص بالصقال (٤)
واسمر مجنا من جلد ثور أصلا مفللا ظبة النبال (٥)

(١) يفتحن بالأيدي يفتحن ما بين أيديهن والآجن الماء الراكد وله عرمص يعنى به نباتات والعرمص الطحالب من النبات ومستأسد يعنى هو نبات صلب ونجيل نبات رخو يريد أن الحمر فتحت يديها لتجتاز ماء آجنا به نباتات بعضها صلب وبعضها رخو .

(٣) رأى يريد الحمار ولصب بكسر اللام وسكون الصاد الشق في الجبل وحافظ لا منفذ فيه يمينا ولا شمالا وقفيل جاف بايس .

(٣) الأدنى الاقرب يعنى أن الحمار الذي تخيره كان أقربها إليه ، وخل ثقب فؤاده بسهمه ومفتوق عريض يعنى السهم والفرار الحد وبجيل ضخم .

(٤) ديوان الهذليين ١١٦/٣ وأشاح الصدر ملازم كالوشاح للمصدر .

(٥) مجنا محذب يعنى الترس وأسم ليس فيه خال ولا منافذ ومفللا اسم فاعل أى بكسر النبال والظبة الحد .

وايفاقى بسهمى ثم ارمى والا فالاباء فاشتجالي (١)
وفى قعر الكنانة مرهفات كان ظلماتها شوك السبيل (٢)

والشغرى يبين وجهها من وجوه حافة الصعاليك الى السهم ايضا ،
أو موقفا من مواقف النفع له ، فيقول ان ورود الماء على ما فيه من أخطار ، حيث
يكون الماء دائما فى الصحراء مطلبا للناس ومنهم الأعداء ، ومطلبا للوحوش وكلها
عدو ، لا يخفيه ما دام يحمل سيفه اليماني ، وسهامه المنتقاة من خير السهام
والتي تعرف طريقها دائما حين يرميها الى القلوب ، لأنه تابع برى هذه السهام
حتى ان لها حين تنطلق لصوتا وذفيفا عجيبا فيقول عن سهامه هذه وعن
اصوات انطلاقها :

وانك لا تدري ان رب مشرب مخوف كداء البطن او هو اخوف (٣)
وردت بمائور يمان وضالة تخيرتها مما ارش وأرصف (٤)
اركبها فى كل احمر غائس وأنسج للولدان ما هو مقرف (٥)
وتابعت فيه البرى حتى تركته يزف اذا انفدته ويدلف (٦)

ويمكن القول بأن السهم وأداة رمية وهى القوس أهم ما يلزم للصعلوك
لاعماده على شخصه كفرد ، ولاعتماد حياته على التردد والخفية كما قلنا ، فهو
فى حاجة الى سلاح بعيد المدى بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه.
بالاضافة الى حاجته الأساسية فى الصيد ونحو ذلك مما أشارت اليه صور
استعمالهم للسهم ، ولذلك نجد السهم مرتبطا فى حديثهم دائما بهذه الأغراض
بل هو مرتبط فى خيالهم بالدفاع عن النفس ضد أشد المخاطر التي يتخيلونها
أو بمعنى أصح بتخيلها بعضهم كخيالات عبيد بن أيوب عن الجن والغيلان ،
هذه الخيالات التي حاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فنجده يربط السهم بهذه
الخيالات فى صراعه معها فيقول :

ولقد لقيت منى السباع بلية وقد لاقت الغيلان منى الدواهيـا
أذقت الثنايا بعضهن بأسهمى وقددن لحمى وامتشقن ردائىـا (٧)

(١) الايفاق أعداد السهم للرمى والاناباءة يعنى اذا انفدت السهام لحات الى السيف
وروى فاستلال وهو أوضح .

(٢) الكنانة جعبة السهام ومرهفات حادة والظبة الحد والسبال شجر له شوك .

(٣) مهذب الأغاني ٩٥/١ والمشرى مكان الشرب .

(٤) المائور ذو الصلابة والحدة والضالة السهام والرصف فى القاموس رصف السهم شد
على رطله عقبة .

(٥) يعنى بالشطر الاول احمرار القسى من الشمس والاستعمال والقرف شجر .

(٦) يزف ويدلف يعنى صوت السهم عند انطلاقه وفى القاموس سهم يدلف سريع خفيف .

(٧) الحبروان للجاحظ ١٦٥/٦ .

ولئن كان ذكرهم للسيف أكثر ، فإن ذلك من قبيل التقليد العربي في ملازمة السيف لكل فرد ، واعتباره السلاح الأساسي في حياة كل منهم ، وأن كان بعضهم كالصعاليك أخرج في معظم أحيانه لى غيره .

٣ - القوس :

والقوس مرتبطة بالسهم لأنها الأداة التي يرمى بها ، واهتمامهم بالسهم ينعكس على القوس أيضا ، ونجد الحديث عن السهم مرتبطا غالبا بالحديث عن القوس .

وفى حديثهم عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثهم عنها ، أحدهما اللون ، وفى هذا المعنى نجدهم غالبا يصفونها بصفرة اللون ، وهو اللون الأصيل فيها ، وفى أحيان قليلة يصفونها بالاحمرار ، لا على أنه لون أصلى وإنما على أن طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر قد أثر فى صفاء صفرتها ، وحول هذا الصفاء الى شيء من الحمرة ، والمعنى الآخر الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم ، أو صوتها مع صوت السهم فى انطلاقه واندفاعه الشديد فى الفضاء ، وغالبا ما يجتمع حديثهم عن المعنيين . ونلاحظ أن الشنفرى من أكثر شعراء الصعاليك حديثا عن القوس ، وأنه مفتون أيما فتنة بالصوت الذى ينبعث منها ومن الأسهم حين الرمى ، فنجد مرة بعد أن يذكر أنها « صفراء عبطل » (١) يقول عن صوتها وصفاتها :

هتوف من اللبس الحسان يزيناها وصائح قد نيطت اليها ومحمل (٢)
إذا ذل عنها السهم حنت كأنها مرؤاة تكلى ترن وتعول (٣)

ومرة أخرى يذكر لونها، ويشبه صوتها بصوت الحزين ، ولكنه لا يكتفى بذلك ، وإنما يشبهه أيضا بصوت النحل حين يخطئ غاره وخلاياه فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق فيقول فى سياق أنه لا يملك غير سلاحه :

وصفراء من نبع أبى طهير ترن كارتان الشجى وتهتف (٤)
إذا طال عنها النزع تاتى بعجسها وترمى بمذريها بهن وتهتف (٥)

(١) عبطل طويلة العنق : اللامية فى البيت الحادى عشر .

(٢) اللامية : والهتف الصوت والملاسة النعومة وفى رواية اللبس المتون والمحل ما تعلق به ونيطت شدد .

(٣) ذل انفصل وحنت من حنين الابل الى أولادها بالصوت المخصوص ومرؤاة كثيرة الرزايا تصيبها والتكل المفجوعة بفقد ولدها وترن من رنين الصوت ودويه وتعول من العويل .

(٤) مهذب الأغاني ٩٥/١ والنبع شجر اللقى وللسمام ينبت فى قلعة الجبل كما فى القاموس مادة (نبع) .

(٥) العجس مقبض القوس ومذرا القوس الموضعان اللذان يقع عليهما الوتر واحدهما مدرى

كان حفيف النبل من فوق عجبها عواذب نحل أخطأ الغار مطنف (١)

ويصف الشنفرى مبلغ اعتزازه بقوسه ، فيجعلها قوينة لحياته ، بحيث لا يفرط فيها الا عندما تهدد حياته ، كما ذكر فيما مر من ليلة النحس الشديد الذى هدد حياته بالبرد فاضطر الى ايقاد قوسه ليستدفئ بها ، وقد تحدث عن احمرار لونها أحيانا كما سبق أنفا .

ويصف عبيد بن أيوب العنبرى قوسه بصفرتها ووترها ونصال سهامها فيقول

الم ترنى صاحبت صفراء نبعة لها ربذى لم تفلل معابله (٢)

وأما صخر الغي فيرى لقوسه رنيناً خاصاً مفرداً فى بحة ودوى ، كأنه صوت العدائين حين يطلبون شيئاً فيتجاوب صدى تناديهم فيقول :

وسمحة من قسى زادة صفرا هنوف عدادها غورد
كان ارنائها اذا دهمت هزم بغاة فى اثر ما فقلوا (٣)

وأبو المثلث الهذلى خصم صخر الغي ، والذى كانت بينهما ملاحاة ومنافرات يؤيد صخر فى الاعجاب بقوسه ، فيقول له انك ان تكن ذا سلاح تجمععه ، وذا سيف قوى ، وقوس محكمة ، فان فينا فتباناً لا يقلون عنك فيقول أبو المثلث فى خطابه هذا لصخر عن قوس صخر :

وسمحة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٤)

وعمرؤ ذو الكلب يصف متانة قوسه وصلابة تركيبها ، وجودة الخشب الذى صنعت منه فيقول :

وصفراء البراية فرع نبع مسنمة على ورك حدال (٥)

ومما يرتبط بالسهم والقوس الكنانة ، وقد تحدثوا عنها ، كما مر خلال للشعر السابق « وفى قمر الكنانة مرهفات » (٦) ومثل « لها وفضة فيها ثلاثون

(١) الحفيف الصوت وعواذب مبعدة ضالة والطف الحديد من الجبل يريد كسوت الجبل حين يضل عن غارده فى منحنيات الجبل .

(٢) كامل المبرد ٢٠٠/١ والربذى الوتر والمابل النصال العريضة الطويلة .

(٣) ديوان الهذليين ٦٠/٢ وزارة مكان مشهور بصناعتها والهتف الصوت والتفريد صوت مخصوص ، والردم هيئة مخصوصة فى استعمال القوس والهزم الصوت وبغاة طالون .

(٤) ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ وسمحة سهلة الاستعمال وكاتمة ليس فيها صدع والسبيكة الصفراء ولا ناب يعنى غير منكسة وليست عطلا من الوتر .

(٥) ديوان الهذليين ١١٨/٣ على ورك يعنى اصل الشجرة التى صنعت منها وحدال يعنى فيها طمانينة من أحد رأسها .

(٦) ديوان الهذليين ١١٦/٣ عمرو بن عجلان ذو الكلب .

سيحفا ، (١) ، ويمكن أن نقول أن السيف والسهم وأدواتهما ، هما الأسلحة الأساسية لحياة الصعلكة نفسها ، وإن ما سواهما من الأسلحة التي ذكرها الصعاليك ليست أسلحة صعلكة ، وإنما هي أسلحة حروب كالرمح والدرع ولكن حياة الصعاليك لم تكن صعلكة خالصة ، لأنهم مهما يكن من أمرهم فهم جزء من قبائلهم ، ولا يستطيعون التخلي من مشاركة أقوامهم ما يعرض لهم من حروب وصراع بينهم وبين غيرهم من الأعداء فهم في هذا جزء من المجتمع ، ورجال حروب في بعض المواقف ، ولا يستطيعون الاستغناء عن كل ما تضطر إليه الحرب من أسلحة وأدوات ، ولذلك نجدهم يتحدثون عن أسلحة الحروب ولكنه واضح من شعرهم أنه حديث جانبي وليس صلبا في أشعارهم وصراهم الحقيقي ، لأن الصعلكة وحياتها وصراعها هي التي تملأ تفكيرهم ، وتوحى إلي مشاعرهم بما تتضمنه حياتها ، ولذلك لم يكن الحديث عن أسلحة الحروب يحمل طابع الاهتمام أو الكثرة التي حظيت بها أسلحة الصعلكة في شعرهم .

٤ - الرمح :

الرمح من الأسلحة التي يغلب استعمالها في الحروب ، ولذلك لم يكن حديثهم عنه مستفيضاً ولا مطبوعاً بالاهتمام ، ولكن الرمح ليس مقصوراً على الحروب ، بل يستعمل في الصيد والصيد من الحاجات الضرورية لطعام الصعاليك ومعاشهم ، ولذلك نجد صخرنا الذي يصف الرمح في سياق صيد حمارى وحش فيقول :

نشامت في صلورهما رماحا من الخطى اشربت السما (٢)

ويرثي أبو خراش أخوته مشبها إياهم بالرماح الزرق الحداد الشداد فيقول:

حسان الوجوه طيب حجازاتهم كريم نثاهم غير لف معازل (٣)
رماح من الخطى زرق نصالها حداد أعاليها شداد الأسافل (٤)

وعروة بن الورد يصف رمحه بأنه دائم الغلبة والنصر ، وأنه أسمر القناة فيقول :

ومالي مال غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطى القناة مثقف وأجرد عريان السراة طويل (٥)

(١) المفضليات للضبي من ١١١ شعر الشنفرى .

(٢) ديوان الهذليين ٦٦/٢ والخطى نسبة إلى مكان صنعه والسمام الثقوب .

(٣) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والحجزة في الأصل مقعد الأزار يريد وصلهم بالمقعة ونشاهم ما يشيع عنهم يريد طيب حديث الناس عنهم والألف الثقيل والأعزل المجرد من السلاح .

(٤) الخطى نسبة إلى المكان الذي صنعت فيه الرماح وزرق تستعمل مراداً بها البيض ويريد بالنصال الأسنة .

(٥) العمدة لابن رشيق ٣٥/٢ والمثقف الغالب المنتصر .

ويصفه مرة أخرى بأنه لدن محدد فيقول :

بكل رقاق الشفرتين مهنسد ولدن من الخطى قد طر أسمر (١)

وأما مالك بن الريب فيجد ربحه ثالث اثنين لا باكى عليه غيرهن حين
اشرف على الموت فى غربته فيقول :

تذكرت من ييكى على فلم أجده سوى السيف والرمح الردينى باكيا
واشقر مجبوك يجز لجامسه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٢)

ويتحدث عمرو بن براقة عن قنوات رماحهم فيقول :

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم
ويقول :

متى تطلب المال الممنع بالقنا تعش مشريا أو تخترمك المخارم (٣)

ويقول قيس بن الحداية عن اثر قنواتهم فى استباحة نساء أعدائهم ،
واستيلائهم عليهن سبيات :

وأنا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكجا (٤)

ويقول عبيد الله بن الحر أيضا عن اثر القنا فى سبى النساء اللاتى كانت
منهن أمه :

ان تك أمى من نساء أصابها سباء القنا والمرهفات الصفائح (٥)

ويقول أبو خراش فى وصف الخيل التى يحثها على العدو الشديد
فرسان يحملون القنا :

شواحي يمرين بالقوم والقنا فروع السياط والاعنة والركل (٦)

ويقول جحدر بن معاوية عن خوفه من أن يموت ولما يقض حقوق سنان
ربحه :

ولم اك قد قضيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان (٧)

(١) ديوان عمرو بن الورد ص ٩٧ والطير من السنان المحدد .

(٢) مهذب الأغاني ١٨/٥ من مراثيه .

(٣) أمالى القال ١١٩/٢ .

(٤) أغاني الأصفهاني ١٤٤/١٤ .

(٥) أمالى القال ٢٢٠/٣ .

(٦) ديوان الهذليين ١٦٥/٢ .

(٧) أمالى القال ٢٧٨/١ .

ويريد مالك بن الريب أن يحفر قبره بأطراف أسنة الرماح فيقول :
 وخطا بأطراف الأسنة مضجعى وردا على عيني فضل ردائيا (١)

٥ - الدروع والترس :

ومن أسلحة الحروب أو من وسائل الوقاية فى الحروب الدرع ، ولكون الصعاليك ، يهتمون بحياتهم الخاصة فى الصعلكة دون الحروب ، لم يهتموا بالدرع ، بل لم تكن بهم حاجة إليها ، بل ان فى حملها مثقلة لهم تفسد عليهم حياتهم فى الصعلكة التى تحتاج دائما الى خفة الحركة وسرعة العدو ، ولم يتحدث عن الدروع الا الذين عاشوا فترات مع اقوامهم على انهم من فرسانهم كقيس ابن الحدادية ، الذى كان يعتبر قبل خلعهم من فرسان قومه المعدودين كما يبدو ذلك واضحا فى شعره ، فيقول عن انتقاله من حياة الدعة والهدوء الى صراع الحروب :

واصبحت بعد الأتس لابس جبة اساقى الكماة الدارعين العواليا (٢)
 وبكر بن النطاح وان كانت قد غلبت على حياته فترات من الركون الى ابواب الامراء والسادة والعيش فى رحاب نعمتهم منصرفا عن معاونة حياة الصعلكة وقسوتها ، وقد شد فى ذلك عن الصعاليك ولم يشاركه هذا الشذوذ الا فضالة بن شريك ، ومالك بن الريب فى فترات قليلة من حياتهما ، وكان بكر بن النطاح اكثر الصعاليك امعانا فى هذا الشذوذ كما يبدو من اخباره وشعره ، تقول مع هذا كان فيما بينه وبين نفسه مهيا للصعلكة والعودة الى نشاطها فى أى وقت ، وكأنه فى حالة استعداد و « طوارىء » كما حدث فعلا حين استناره أبودلف الأمير بقوله انك تكثر من وصف نفسك بالشجاعة دون أن أرى من شجاعتك شيئا ، فقال له : أيها الأمير وأى غناء يكون عند الحاسر الأعزل ، ثم أخذ سيفا وفرسا ودرعا ورمحا فخرج حتى أغار على مال لآبى دلف نفسه فاخذه (٣) ، ولذلك يتحدث فى شعره عن انه وان كان اليوم فى ترف فانه يستطيع فى أى وقت أن يكون مقاتلا وصعلوكا :

إذا شئت غننتى ببغداد قينة وان شئت غنننى الحمام المطوق
 لباس الحسام أو أزار مصفر ودرع حديد أو قميص مخلوق (٤)

(١) مذهب الأغاني ١٨/٥ .

(٢) أغاني الأصفهاني ١٥٤/١٤ ولا يس جبة يعنى درعا سابقة كالجبة والحب الظن أن اصلها لابس جبة بالنون ثم حرفت فى الروايات والدارعون لابسو الدروع والعوال الرماح .

(٣) انظر مذهب الأغاني ٨٤/٨ - ٩٠ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٩٦/٣ يريد بالحمام المطوق حياة الصحراء والصعلكة يعنى ان الحياتين مستطعنان له وقميص مخلوق مطيب بالخلوق .

وهناك أيضا الترس الذي كانوا يصنعونه من جلد قوى ، كانوا يؤثرون له جلد الثور ، وهو نوع من وسائل الدفاع كالدروع ، وعن هذا الترس يقول صفر الفى :

انى سئينهى عنى وعيئدهم بيضى وهاب ومجنا أجد (١)
والترس أخف حملا من الدرع ، ولذلك فهو أنسب للصعاليك حتى لا يشقل حركتهم ولا يعوقهم عن العدو فان لم يكن بد من اتخاذ أحدهم شيئا يتقى به وقع النبال ، فالترس أنسب لهم من غيره ومن أجل هذا نجد حديثهم عنه أكثر وأحظى بالاهتمام من الدرع ، وهذا عمرو بن العجلان المعروف بذى الكلب ، ينحلت عن ترسه ، وعن أهميته فى صد النبال عنه ، مصرحا بالمادة التى صنع منها فيقول :

تمنائى وابيض مشرفيا أشاح الصدر اخلىص بالصقال
واسمر مجنا من جلد ثور أصم مفلا غبة النبال (٢)

وأما أبو خراش فيسترسل فى وصف الثور الذى صنع من جلده الترس بأنه ثور قوى ضخم ، قد شبع غداء من وديان جيدة الماء والنبات ، وأنه ليبلغ من قوته أنه لا يعبأ بالثيران حين تعرض له لتصدده عن طريقه ، فان فعلت عادت الثيران مصدعة محطمة عنه بعد أن يكون قد آدمى جنوبها بقرنيه ، وأنه ليبلغ من الضخامة أنك حين تراه قائما على مرتفع بارز ، تحسبه لضخامته بيتا من جلد ، وتحسب قوائمه أوتادا أرسى بها هذا البيت ، يقول أبو خراش عن هذا المنظر مخاطبا عدوه واقدا :

أواقده لا ألوك الا مهندا وجلد ابى عجل وثيق القبائل (٣)
غذاه من السرين أو بطن حلية فروع الآباء فى عميم السوائل (٤)
يشب اذا الثيران صلت طريقه تصدعن عنه داميات الشواكل (٥)
يظل على البرز اليفاع كانه ضراف وست أوتاده عند نازل (٦)

(١) ديوان الهذليين ٥٩/٢ والبيض يريد السهام ومجنا الترس واللفظ مأخوذ من معنى محذب لأن الترس كذلك واجد صلب .

(٢) ديوان الهذليين ١١٦/٣ البيت الأول سبق ذكره فى السيف وأسمر ترس ومجنا أحذب وأصم ليس فيه خلل ومفلا يكسر حد النبال .

(٣) ديوان الهذليين ١٣٩/٢ « ألوك يعنى ليس لك عندى وأبو عجل يعنى الثور وجلده يعنى به الترس .

(٤) السرين بلد ووطن حلية واد والآباء النصب والعميم النبات المزدهر كان له عمائه والسوائل أماكن سبل الماء .

(٥) المشب المسن فى قوة وصدت طريقه يعنى صدته عن الطريق ومحمد عن تفرق والشواكل ما يبل الورق من الجنب .

(٦) البرز ما برز من الأرض واليفاع ما ارتفع من الأرض والطراف بيت من جلد ورسث فعل ماض بمعنى ثبتت .

٦ - العدو

ومن أهم الأسلحة الذاتية التي اعتمد عليها الصعاليك في حياة الصعلكة ، العدو العجيب ، الذي يصفونه دائما بأنه لا تلحقه أو لا تسبقه الخيل ، وقد اقتصف بهذه الصفة كثير جدا من الصعاليك كما مر في تراجعهم وخاصة الجاهليين ، كالشنفرى وتابط شرا وعمرو بن براق ، وأشهر القبائل بكثرة عدائهم هذيل ، حيث نشعر من أخبارهم ان العدو كاد يكون شيئا مألوفاً في حياتهم ، ويعتل السكرى هذه الظاهرة بأن هذيل قوم رجالة ليسوا بأصحاب دواب (١) ، وهذا التعليل وإن لم يكن كاملاً ، بحيث يشمل تعليل هذه الظاهرة من نواحيها المختلفة ، إلا انه يلقي ضوءاً على جانب مهم من التعليل وهو أثر البيئة ، وأسلوب المعيشة الذي يشكل حياة المجتمعات ، ويضطرها الى صوغ حياتها لتتلاءم معه وتحقق كيائها وتواجه ظروفها على ضوئه .

ومهما تعددت أسباب هذه الظاهرة يمكن فيما نعتقد ارجاعها الى ثلاثة أسباب ، أحدها التكوين الشخصى ، الذى يتيح لصاحبه أن يبرز في ميدان تلك الظاهرة ، والذى أشار أبو خراش الهذلى الى شيء منه فى وصف ابنه خراش ، وتعليل سرعته الفائقة ، وعدم استطاعة مطارديه أن يلحقوا به ، حيث يقول عن ابنه هذا حين نجا بعدوه من مطارديه :

كانهم يشبثون بطائر خفيف المشاش عظمه غير ذى نخص (٢)

والثانى الوراثية . ولعل فى هذا تفسيراً لشيوع هذه الظاهرة فى هذيل مع ان كثيراً من القبائل تشاركها فى ظروف البيئة والمعيشة ، ومن ذلك ان أبا خراش كما سبق فى ترجمته كان أحد عشرة اخوة كلهم عدا لا تسبقه الخيل ، والثالث البيئة وأسلوب المعيشة ، حيث يضطر كل مجتمع الى صوغ حياته على ضوء ما تتيحه له بيئته ومعيشته وما تسمحان به كما يقرر ابن خلدون ذلك باستفاضة وتأكيد (٣) .

ويبدو بوضوح فى أخبار الصعاليك وأشعارهم ان العدو كان من أهم الأسلحة التى يعتمدون عليها ، والتى كانت تدفع معظمهم الى الاعتماد على نفسه فى الفوز أو التردد ، بمفرده أو مع رفيق على الأكثر فى معظم الأحيان ثقة فى الاعتماد على هذه السرعة غير العادية فى العدو ، فيطمئن الى أن يفزو

(١) انظر ديوان الهذليين ٧٦/٢ .

(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ والمشاش العظم اللين وهو من عظام الذبائح ما يمكن مضغه

من رويس العظام ومعناه مرونة المفاصل فى العدو ، والنخص اللحم يعنى أنه خفيف اللحم .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون وخاصة الفصل الأول من الباب الأول بمقدمته من ص ٤٦

أو يترصد ، ولا يزعجه فيهما أن يكون وحده أو مع رفقة معدودة ، فإن ثقتهم في ساقيه تجعل معه حصنا متنقلا يلوذ به فيحويه في أحرج اللحظات فالمدو عند الصعاليك ملاذ آخر يلجأون إليه حينما تفل في يديهم أسلحة الهجوم أو المقاومة كما عبر عن ذلك أبو خراش حيث يقول :

فان تزعمى انى جينت فاني افر واومى مرة كل ذلك
اقتل حتى لا اوى لي مقاتلا وانجو اذا ما خفت بعض الهالك (١)

وقد تفنن العداءون من الصعاليك في تصوير عدوهم وتشبيبه والاعتزاز به ، فنرى تابط شرا الذي كان أحد ثلاثة لم تلحقهم الحيل قط وثانيهم الشنفري وثالثهم عمرو بن براق ، نجد تابط شرا يعتمد على ساقيه هو وزفيقه حينما حصرتهم بجيلة ، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلصهم ، وبعد نجاة تابط شرا صور قصة نجائه هذه واصفا شدة عدوه ومطاردة أعدائه اياه فيقول :

نجوت منها نجائي من بجيلة اذ القيت ليلة خبت الرهط اوراقى (٢)
ليلة صاحوا واغروا بى سراعهم باليكتن لدى معدى ابن براق (٣)
كانما حثحثوا حصا قواده او ام خشف بلدى شت وطباق (٤)

وبعد أن شبه سرعة عدوه بالنعام والظبية ، لم يرق له هذا التشبيه لأنه لا يعبر عن الحقيقة فهو أسرع من النعام ومن الظباء حقيقة فيما يعرفه من نفسه ، واذن فهذا التشبيه لم يؤد الغرض منه ، فهم يشبه عدوه اذن ؟ أغلب الظن انه لم يجد شيئا يشبه به عدوه فلجأ الى أسلوب الحقيقة ، ولئن كان الأدباء والبلغاء لا يكادون يختلفون في أن أسلوب المجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة ، فاني لا أعتقد أن مجازا مهما يكن أبلغ من أسلوب الحقيقة الذي لجأ إليه تابط شرا في هذا السياق حيث يقول بعد الأبيات السابقة :

لا شيء أسرع منى ، ليس ذا عذر وذا جناح بجنب الريد خفاق (٥)

(١) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ .

(٢) المضليات ص ٢٨ وبجيلة القبيلة التي أسرته هو وصديقه والقيت اوراقى استفرغت

مجهودي في العدو .

(٣) اليكتن موضع ومعنى للمكان أو مصدر ميمى ، ابن براق عمرو وهو والشنفري

صديقه اللذان أسرا معه .

(٤) حثحثوا حركوا وحصر أحص ما تناثر ريشه والقوا ما ولى الرأس من الريش يريد الظليم وهو ذكر النعام والخشف ولد الظبية والثت والطباق نباتان طيبا المرعى يشبه نفسه بالنعام والظبية في العدو .

(٥) البدر جمع عذرة ما تدل من ناصية الفرس على وجهها يريد الفرس وذا الجناح الطائر والريد أعلى الجبل ، وبعضهم يرى أن ليس أداة استثناء بمعنى إلا الفرس والطائر والسياق يرجح أن ليس معناها لا استثنى من الحكم السابق وهو لا شيء أسرع منى لا استثنى فرسا ولا طائرا لأن الفرس ليس أسرع من النعام الذي أضرب عن تشبيه عدوه به قبل ذلك .

ف قوله « لاشئ أسرع منى » فى سياق اضرابه عن التشبيهين السابقين يجعل له مع كونه أسلوب حقيقة عادى جمالا ووقعا بالغى التعبير والايحاء .

وفى قصيدة أخرى يؤكد تأبط شرا انه يفوت الخيل الجياد بحريه فيقول :

لها الويل ما وجبت ثابتا الف اليمين ولا زملا (١)
ولا وعش الساق عند الجراء اذا بادد الحملة الهيفلا (٢)
يفوت الجياد بتقريبه ويكسو هواذها القسطلا (٣)

ويعقد تأبط شرا مقارنة بينه وبين الذئب فى معيشتها وأسلوب حياتها وشدة عدوها ، بل وفى هيكل جسميها فيقول :

وواد كجوف العير قفر قطعه به الذئب يعوى كالحليح المليل
قلقت له لما عوى أن شائنا قليل الفنى أن كنت لما تمول
كلانا اذا ما نال شيئا أخاه ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (٤)

ويصف تأبط شرا أيضا تنقله بين الصحراوات والقفار المتباعدة بما فيها من مهالك ، فى سرعة عجيبة لا تتاح الا للرياح ، فيقول عن نفسه :

يقل بمومة ويمسى بقفرة جحيشا ويعروى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنخرق من شمس المتدارك (٥)
وأكثر من أظهر اعتزازه بعدوه وتفنن فى تصويره أبو خراش الهذلي ، فهو مرة يلفت نظر زوجه التى أظهرت ازورادا عنه الى هذه الموهبة الرائعة فى العدو فيقول :

الاطم انى اسبق الختف مقبلا وأترك قرنى فى المزاحف يستلنى (٦)
ويشرح أبو خراش هذه الموهبة ، واصفا صورة من صورها العجيبة فيقسم أنه ما رأى نعاما ولا حمار وحش ولا تيسا من الظباء أجود منه عدوا حين يحلق به الخطر ، ويختار واحدا من الثلاثة ، وهو تيس الظباء أشهرها بالمدو فيقارن بينه وبين نفسه يقول :

(١) الشعر والشراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وثابت اسمه والآف والزمل الضميف الجبان .
(٢) الجراء الجرى والميفل الجيش الكثير . معنى أن الجرى لا يتعبه ، ولا تدهشه كثرة الأعداء .

(٣) التقريب سرعة تقل القدمين فى العدو والقسطال الغبار والهرادى الاعتناق .
(٤) خزاعة البهيدى ٩٣/١ والسطر الأول من البيت الأخير لسرعة العدو والثانى يعنى الهزال لضيق الميعة .

(٥) الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ ونسب هذا الشعر للسليك .
(٦) ديوان الهذليين ١٣٠/٢ والمزاحف أماكن الزحف والقتال ويريد بالسطر الأول أنه يسبق الذين يريدون قتله فينجو بسلوه والختف الهلاك ويستلنى يريد تسميل دماؤه .

فوالله ما ربداء او عالج عسانة اقربونا ان تيس ربل مصمم (١)

ويتابع حديثه عن هذا التيس من الأطباء فيقول انه مهما تصورنا من المفزعات التي تنفر الطبي وتزعجه ، ومن المعروف ان الطبي يكون في أسرع حالات عدوه حين يخاف الخطر ومهما تصورنا من سيطرة الخوف والفزع على هذا التيس في عدوه فلن يكون أسرع مني ، ومن الحالات التي يحيط الخطر فيها بالطبي حين يصطلم بفخ فينجو منه كقوله :

وبشت حبال في مراد يروده فأخطاه منها كفاف مخزم (٢)

وحالة أخرى من حالات اهاجة الطبي ودفعه الى العدو الشديد ، وهي تهافت الذباب اللاسع عليه ، حين ينوشه هذا الذباب بلسه فينتقل مذعورا لا نلوى على شيء كأنه السهم فيقول أبو خراش عن ذلك :

يطيح اذا الشعراء صانت بجنبه كما طاح قذح المستفيض الموشم (٣)

وعن حالات ازعاج الطبي وعدوه الشديد ، احساسه بالصائد وكلايه وسهامه ، فينتقل عاديا وقد سد أذنيه كأنه أصلم لا يسمع شيئا ولا يصفي لشيء :

كان الملاء المحض خلف ذراعه صراحيه والأخني المتحم (٤)

تراه وقد فات الرماسة كأنه أمام الكلاب مصفى اتحد أصلم (٥)

يقول أبو خراش ان الطبي حتى في هذه الحالات التي يكون فيها في أقصى حالات نفوره وسرعة عدوه ليس بأسرع مني .

باجود منى يوم كلفت عاديا وأخطاني خلف الثنية أسهم (٦)

(١) ديوان الهذليين ١٤٥/٢ والربداء التمامة الغبراء اللون وعلج حمار غليظ والمالة القطيع من سمم الودش والاقب ضامر البطن والتيس يعنى ذكر الطباء والربل ثبات وروى رمل ومصمم من التصميم والاندفاع .

(٢) مراد يروده مسارح يسرح فيها والحيال حبال الفخ الذى ينصب للطبي ويقطى بالرمال والكفاف يعنى حبال الفخ ومخزم منظم يعنى أن الصائد بث الحبال والفخ ولكنها أخطات القبض على يد الطبي .

(٣) يطيح يعنى يسرع في عدوه والشعراء ذباب يلسع وصانت صوتت في جلبة والقذح السهم المستفيض الذى يقبض بالسهم يضرب بها والموشم ذو العلامات كالوشم .

(٤) يصف لون الطبي بأن خلف ذراعه بياض خالص وجسمه ملون كالبرد ذى الألوان والمحص الخالص البياض والصراحي كذلك والأخني نوع من الثياب والمتحم من الاحمى نوع من البرود اليمانية المغطاة .

(٥) مصفى حال مبنى للمجهول والأصلم مستأصل الاذن يعنى فى شدة الدفاعة كأنه أصلم لا يصفى لما حوله .

(٦) الكلفت الاتقباض والسرعة وفيه معنى العود يعنى أسرعت عالدا ناجيا من مطاردى والثنية جزء من الجبل .

أوائل بالشهد الذليق وحشنى لكى المتن مشبوح الدراعين خاجم (١)

ومما ينبغى ملاحظته انهم يعتمدون على الصور الواقعية فى البيئته ، من المشاهد التى يرونها ويعانونها ويصارعونها ، أو يشاركونها صراع الميمنة وحتى حينما يلجأون الى المبالغة ، فان مبالغتهم مستمدة من البيئة وحياتها كما رأينا فى تشبيهه تأبط شرا عدوه بوفد الريح ، فانه وإن كان فى هذا التشبيه شئ من المبالغة ، الا انها مبالغة مستقاة من البيئة ومشاهدتها ، فان الريح وآثارها من المشاهد البارزة ذات التأثير فى حياتهم ، بل حتى الخيال حين يلجأون اليه كما سيأتى فى خيالات الوهم ، نجد هذا الخيال نابعا من مخاوف البيئة الرهيبة ومجاهلها .

ومن هذه البيئة يوالى أبو خراش وصف العدو وتصويره ، فيصف عدو ابنه خراش مشبها إياه بطائر خفيف اللحم من العظام كما أسلفنا (٢) ويحكى أبو خراش قصة نجاته من بنى نفاثة حين طاردوه بأجود ما لديهم من خيل ، وكيف أنه حين اشتد رائحة الموت ، وعلم انه لا نفع لسيفه فى هذا الموقف ، رفع ساقا يثق فيها كل الثقة ، وانطلق متخففا من كل شئ حتى ثيابه ، فكانه حمار وحش ضامر البطن يقرب أرجاء الأرض بقوائمه تقريبا ومن هذا كله يعلم لاثمونه انه لم يترك صحبه عن طيب نفس ، وتعلم لاثمته انها لو رأت هذا المشهد وما فيه من روع وفزع لبالت على نفسها خوفا ورعبا فيقول :

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| لما رايت بنى نفاثة أقبلوا | يشلون كل مقلص خناب (٣) |
| فنشيت وبع الموت من تلقائهم | وكرهت كل مهند قضاب (٤) |
| ورفعت ساقا لا يخاف عثارها | وطرحت عنى بالعداء ثيابى (٥) |
| أقبلت لا يشتد شئى واحده | علج أقب مسير الأقارب (٦) |
| الله يعلم ما تركت منها | عن طيب نفس فاسألوا أصحابى (٧) |
| لا مت ولو شهدت لكان تكبرها | ماء يبل مشافر الققباب (٨) |

(١) أوائل الطلب النجاة بالشهد وحشنى يعنى رجلا يعدو خلفه ومشبوح الدراعين عريضهما والخلج الطويل المتن يعنى ظهره .
(٢) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ .
(٣) ديوان للهذليين ١٦٨/٢ ويشلون يدعون والمقلص الفرس الطويل القوائم الضامر البطن والخناب الطويل .

(٤) نشيت شجعت والمهند السيف واللقباب القاطع يعنى لم يعد السيف مجديا .
(٥) العراء الصحراء يعنى انطلقت عاديا وأثناء ذلك طرحت ثيابى حتى لا تثقلنى .
(٦) الملح حمار الوحش والأقب الضامر ومسير الأقارب يعنى فى خاصرته خطوط .
(٧) منه يبدو أنه وليفق اضطر الى تركه لدى الإعداد .
(٨) مشافر الققباب يعنى صوت البول فى الفرج .

وحين أحس أبو خراش الموت على أثر لدغ الحية له ، استطاع أن يغالب حب الحياة ، واستطاع أن يعزى الناس عن موته بأن المنايا متربصات بكل إنسان ، تطلع له من حيث لا يحتسب ، ولكن شيئا واحدا لم يستطع العزاء أن يخفف من شعور الأسى في نفسه لفقده ، هذا الشيء هو ساقه التي سيفقد رفاقه من الصعاليك فيقول :

**لعمرك والمنايا غالبات على الإنسان تطلع كل نجد (١)
لقد أهلكت حية بطن أنف على الأصحاب ساقا بعد فقد (٢)**

ونجد معاني الصعاليك وتشبيهاتهم تتفق مع معلومات العرب وخبرات مجتمعهم عن البيئة ، فحمار الوحش الذي تردد تشبيه الصعاليك سرعة العدو به ، نجد العرب يضربون به المثل في السرعة ، فيقولون « أسرع من العير (٣) » وكذلك يضرب العرب المثل بالجراد في السرعة (٤) ونجد الصعاليك يشبهون العدو بالجراد فيقول أبو خراش :

وعادية تلقى الثياب وزعتها كرجل الجراد ينتحي شرف الخزم (٥)

وكذلك شبه الصعاليك سرعة العدو بالعقاب ، فهذا أبو خراش يشبه سرعته بعقاب منقضة على فريستها ، ولكنه في هذه المرة مندفع لقتال أعدائه وليس هاربا منهم كما صور في بعض ما سبق ويقول :

**كأنى أذعدوا ضمنت بسوى من العقاب خاتمة طلوبا (٦)
جرمة ناهض في رأس نيق ترى لعظام ما جمعت صليبا (٥)
وات قنصا على فوت فضمت الى حيزومها ريشا وطيبا (٨)**

وأما الشنفري فيرى في عدوه غناء له عن كل شيء ، حتى عن الرفقة والخلان ، فإن في عدوه غناء وشفاء لنفسه من كل شيء فيقول :

(١) ديوان الهذليين ١٧١/٢ وتطلع كل نجد يعني لا يعجزها صعود مرتفع مهما علا .

(٢) بطن أنف هو المكان الذي لدغته فيه الحية وبعد فقد أصله بعد فقدى يعني بعد موته سيفقدون ساقه العداة .

(٣) مجمع الأمثال ٣٥٠/١ .

(٤) انظر مجمع الأمثال للميداني ٣٥٤/١ .

(٥) ديوان الهذليين ١٣٢/٢ وتلقى الثياب يعني تتخفف من لبسها لسرعة العدو وينتحي

يقصد والشرف والخزم المكان الفليظ .

(٦) المصدر السابق ١٣٢/٢ واليز السلاح وخاتمة منقضة وطلوبا طالبة صيد يعني كنت

في سلاحى كالعقاب .

(٧) جرمة ناهض كاسية فراخ وصف للعقاب والنيق رأس الجبل والصليب يريد

بقايا اللحم على العظم يعني عقابا كثيرة الصيد للرائسها .

(٨) القنص الصيد وعلى فوت يعني سابقا لها يكاد يفوتها والحيزوم الصدر يعني

تهيأت للطيران والانتفاض .

الا لا تمدنى ان تشكيت خلتي شفاني باعلى ذى البريقين عدوتي (١)
ويصف الشنفرى هذا العدو الذى يشفى نفسه من كل شيء بأنه حين
يمدو لا يعوق قلبه شيء ، بل ان الحجارة التى تعترض رجليه تتطاير فيقدح
منها الشرر ويقل حدها كما يقول :

اذا الامر الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قاذح ومفلل (٢)

ويصف الشنفرى صورة من صور هذا العدو ، وجهها من وجوه اعتماد
حياته عليه . فيصف مسابقة بينه وبين القطا ، فى الوصول الى بقعة ماء .
ما تخلفه الأمطار والسيول فى الصحراء ، كأنها الحوض ، فيقول ان سرب
القطا الذى جاء من سفر بعيد ليشرب من هذا الحوض الطبيعى وصل بعد أن
شربت فلم أترك له الا سؤرا قليلا ، ظل يتزاحم عليه ، ويكبو الى قعره بحواصله
وذقونه لئالة ما فيه من ماء فيقول :

وتشرب أسارى القطا الكدر بعدما سرت قريبا أحنأوها تتصلصل (٣)
ههمت وهمت وابتدونا وأسدت وشمر منى فارط متمهل (٤)
فوليت عنها وهى تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل (٥)

وقد تبدو مثل هذه الصورة غريبة على غير الصعاليك ، بل قد نراها
مسرقة فى المبالغة والبعد عن الواقع ، ولكننا لو أحسنا تصور حياة صعلك
يتجول فى أماكن ومجاهل متباعدة فى الصحراء ، وتصورنا مدى حاجة رجل
هذه حالة الى الماء ، لأمكننا أن نتصور انه وان كان فى وصفه سرعة العدو
بعض المبالغة - مع جواز ألا تكون هناك مبالغة - الا أن فى ربط حاجته الى
الماء بالقطا غاية الواقعية التى لا يبلغها الا من يعانىها معاناة حقيقية فى حياته
كالصعاليك ، فالصعلك المتنقل بين الصحراوات لا يعرف مكانا للماء ، ولا يجد
وسيلة لهذه المعرفة الا الاستدلال بال مخلوقات الطبيعية فى الصحراء ، فهو
يعرف من تجربته ان سرب القطا يبحث عن الماء ، فيجب أن يتبعه بأقصى
ما يمكنه من سرعة حتى لا يغيب عن بصره ، ولو تأملنا الصورة لعلمنا ان
المسابقة بينه وبين القطا انما بدأت حينما أرخى القطا أجنحته أثناء الطيران (٦)

- (١) الفضليات للضبي ١١٢ والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والعدوة المرة من العدو
(٢) اللامية - والأمز الكاذب - الضلب والصوان حجارة والمنسم أصلا خف العير يعنى
قذميه والقاذح الشرر والمفلل المكسر حده .
(٣) من اللامية - والسؤر بقية الشراب والقرب السير الى الماء على بعد ليلة والاحناء جمع
حنو الجانب .
(٤) أسدت أرخت جناحيها والفارط المتقدم والمتمهل المتأني يعنى سبقها ولم يجهد نفسه
فى العدو .
(٥) تكبو تميل والعقر يعنى شربت قبلها فلم أترك لها الا سؤرا تكبو اليه لقلته .
(٦) عند قوله « وأسدت » يعنى وأرخت أجنحتها .

وهذه علامة تحديد هدفه وعثوره على الماء فالصورة في تفصيلها كما توحىها
الفاظها ان الشنفري بينما كان يبحث عن الماء نظر فوجد سرب قطا يبدو
انه قادم من بعيد باحثا عن الماء ، ونظر فوجده أرخى أجنحته مما يدل على انه
رأى ماء في مكان قريب ، ويتبع ارخاء الأجنحة انه قتل من سرعته ، لأنه حدد
هدفه وسيساعد للنزول ، هنالك ينطلق الشنفري الذي لم تلحقه خيل قط
مباريا القطا ومن هذا نعلم انه لا مبالغة ولا خيال في الصورة فيما يتعلق
بالعدو ، ولكنه التصوير الذي لا يحسنه الا الصعاليك عن حياتهم ، والشنفري
يحدثنا عن ان المسافات بين الأماكن تكاد تمحى ، وان الأماكن مهما تباعدت
يكاد يختلط بعضها ببعض حينما يحرك ساقيه فيقول :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل (١)
فالخفت اولاه باخراه موفيا على قنة ألقى مرارا وأشل (٢)

وحبيب الأعلام الهذلي وقع في مأزق اضطره الى الفرار بأقصى ما لديه من
سرعة ، حيث تعرض لمطاردة عنيفة تزعمها عداء يدعى جذيمة العبدى ، ويصف
الأعلام لللائمة عدوه ، مشبها إياه بالنعامة ، معتذرا بأن الأعداء جعلوه يتصور
ان حروف الجبل وهو يعدو سيوف مسلولة عليه ومن هذا الشعر قوله :

كرهت جذيمة العبدى لما رأيت المرء يجهد غير آلى (٣)
فلا وايك لا يتجو نجائي غداة لقيتهم بعض الرجال (٤)
كان ملائتي على هزف يعن مع العيشة للرتال (٥)
على حت البراية زمخري السواعد ظل فى شرى طوال (٦)
كان جناحه خفقان ريح يمانية بربط غير بالى (٧)
بلدت لهم بدى شوطان شدى وكم أبذل غداثلد قتال (٨)

(١) من اللامية البيت الرابع والستون والخرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستواء
والعاملتان رجلاه وظهره ليس يعمل يعنى انه مكان خشن غير مطروق ، ولا يتسنى لغيره السير فيه
(٢) الضمير فى أولاه للخرق يعنى قطعته مسرعا مشرعا والقنة أعلى الجبل مكان الترسد
كالمركبة والأقواء جلسة خاصة وأمثل يعنى ينتصب قائما .

(٣) ديوان الهذليين ٨٣/٢ وجذيمة هو الذى طارد الأعلام والشطر الثانى يعنى أن عدوه
لم يدخر جهدا فى مطاردته .

(٤) يخاطب المرأة اللائمة يعنى ليس فى أعدائه من يعدو عدوه .
(٥) ملائتي تشية ملاة يعنى جالبي ردايه والهدف ذكر النعام يريد أن ثوبه أصبح حوله
كجناحي الظليم ويعن يعترض والرتال فراخ النعام .

(٦) حت البراية ضئيل الجسم يعنى هو سريع على شأله وزمخري أجوف عظام السواعد
إشارة الى زعم العرب أن عظام النعام جوفاء لا مخ فيها والشرى نوع من الشجر يريد أن النعام
أزعه منظر طول الشجر فعدا .

(٧) الريط مما يلبس وغير بالى يعنى هو جديد .
(٨) شدى عدوى يعنى بدى لى عدوى ولم أبذل غداثلد قتال .

واحسب عرط الزوراء ويوى على بوشك رجع واستلال (١)

وصخر النى يشبه سرعة العدو بحمار وحش ذى قوة وصراع فيقول :

ويعدو كعدو كدو ترى بفائله ونسائه نسوفا (٢)

والأعلم الهذلى له قصيدة كاملة فى قصة مطاردة أعدائه السابقة ، مشبها العدو بسرعة حمر الوحش وعدو النعام ، وتعتبر القصيدة من أدق الشعر وأعمقه فى وصف الطبيعة وحيوانها ، وما يكتنف هذه الحيوانات وحياتها ومعيشتها من جوانب لا يحسها إلا الصعاليك ، لأنهم يعيشون معها ، ويشاركونها ظروف البيئة وجفافها وقسوتها ، فى أوثق ما تكون المشاركة ، وأقرب ما يكون الجوار وأولها :

لما رايت القوم بالعلـ يا دون قدى المناصب (٣)

وحاجز الازدى يتعرض أيضا لمازق لا ينجيه منه إلا العدو . حين أحرق به بنو عامر فعدا عدوه الذى لا يبارى ، وقد شبه عدوه بعدو ظبى طارده صقر يريد أن ينقض عليه ، وبهذا العدو استطاع أن ينجو من قوم حرصوا على الإيقاع به فيقول :

عشية كادت عامر يقتلوننى لدى طرف السلاء راغبة البكر
فما الظبى أخطت خلفه الصقر وجلها وقد كاد يلقي الموت فى حلقة الصقر
بمنى غداة القوم بين مقنع وآخر كالسكران مرتكز يفرى (٤)

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أنجاه عدوه فيها ، ولم تكن أيضا المرة الوحيدة التى وصفها وتحدث عنها بشعره ، وفى مرة أخرى كادت خنعم تفتك به لولا أن أنقذته ساقاه ، وقد تبعه بعض فرسان خنعم فلم يلحقوه ، ثم قال حاجز عن هذه الحادثة مشبها عدوه هذه المرة بثلاثة حيوانات مشهورة بالعدو :

وكانما تبع الفوارس أربى أو ظبى راية خفافا أشعبا
وكانما طردوا بلدى نمراته صلعا من الأروى أحن مكليا
أعجزت منهم والأكف ثنائى ومضت حياضهم وآبوا خيبا (٥)

ومن هذا كله نعلم مدى أهمية العدو فى حياة الصعاليك ، ومدى حاجتهم إليه كسلاح أساسى يعتمدون عليه ، بل كاهم سلاح يطمنون الى الاعتماد عليه

(١) عرط الزوراء مكان ويوى على يعنى على طن المكان سيوفا مسلولة عليه .

(٢) ديوان الهذليين ٧٦/٢ والكدر الغليظ والفائل عرق فى باطن الفخذ الى الساق والنسوف

آثار من عض .

(٣) أنظر ديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٨٢ .

(٤) مهذب الأغاني ٩٣/١ .

فى كل الظروف ، وخاصة فى الظروف التى لا تجدى فيها أسلحة القتال
ولا سواعد المقاتلين .

ومن هذا نعلم أيضا ان حاجتهم الى العدو لم تكن لمجرد النجاة من الأعداء
بل لنواحي أخرى فى معاشهم وشرابهم أيضا .

ولكن الذى يلفت النظر ان ظاهرة العدو كانت فى الصعاليك الجاهليين
دون الاسلاميين ومع افاضة الروايات والأخبار فى أحاديث العدائين فى الجاهلية
من الصعاليك ، نجد الروايات تسكت عن حديث العدو بالنسبة للصعاليك
الاسلام ، ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة لو كانت موجودة كظاهرة لدى
الاسلاميين لتحدثت عنها الروايات .

ويمكن تحليل ذلك بأن حياة صعاليك الجاهلية تختلف وخاصة من حيث
الرخاء والفقر الشديد عن الاسلاميين ، فالحاجة الشديدة فى الجاهلية جعلت
الصعاليك يقضون حياتهم كلها أو معظمها فى الصناعات مستغلين كل
امكانياتهم الجسمية ومنها العدو فى سبيل دفع الجوع والمخامص ، والانسان
ابن عوائده كما يقول ابن خلدون ، أما صعيلوك الاسلام فانه وإن كان فقيرا
الا انه لم يبلغ حد الجوع الذى تحدث عنه الجاهليون كما قلنا حينذاك ، ومن ثم
فلم يضطر الى مثل الجهد المضنى الذى كان يبذله الجاهليون للحصول على
مجرد لقمة العيش ، ومن ثم أيضا لم يضطر الى استغلال امكانياته الجسمية التى
قد تكون لديه اذا حاول استغلالها ، فالفارق بينهما الاضطراب وعدمه ، ومن
الواضح كما رأينا ان صعاليك الجاهلية لم يتخذوا العدو ترفا ولا فخرا
وانما اقترن دائما بالاضطرار وأخرج اللحظات فى حياتهم .

٧ - الأماكن

والصعلكة فى طابعها العدائى نوع من الحرب ، وصورة من صورها
ولذلك نجد الصعاليك يهتمون باختيار الموقع الذى يزاوون منه عدوانهم
بحيث يتيح لهم نجاح الهجوم والدفاع معا كما يختار القائد موقعه فى الحرب .

وأهم المواقع التى يتحدث عنها شعرهم ، والتى يبدو من وصفها حرصهم
العامد على الدقة فى اختيارها « المراقب » التى تشبه الكمين ، فالمراقبة مكان
حصين يجهتد الصعلوك فى حسن اختياره ، بحيث يحقق له غرضين ، أحدهما
مراقبة الطريق والمكان المحيط به فيكتشف السائرين فى الطريق أو الطرق
المحيطة به ، والآخر حصانة المكان ، بحيث يتيح له التخفى عن الأعين ، ويتيح
له الدفاع عن نفسه ان أحس الخطر ففى مثل هذا المكان يرقب صيده من

الناس والحيوان وينقص عليه حينما يرى الفرصة سانحة ، وفى مثلة أيضا يخفى . ثم يختار الوقت الملائم لغزواته الخاطفة ، وغاراته المفاجئة ، ثم يعود الى حصنه ، أو يتخذ حصنا مشابها .

ونظرا لأن الهدف من اختيار المراقبة واحد ، لذلك نرى وصفهم لها متقاربا ويحمل الصفات الأساسية التي يطلبونها فى اختيارها ، فعمر بن عجلان يصف مرقبته بأنها مرتفعة شماء حتى ان الطرف يحار فى ارتقاعها ، ونفهم من اختيار هذا المرتفع الشاهق أنه يرى كل الأماكن المحيطة ، وأنه يضمن عدم استطاعة الأعداء أن يصلوا اليه ، ومن يجازف منهم بالصعود فان سهام الصعلوك تصرعه قبل أن يبلغه بأمد طويل ، ويصفها عمرو أيضا بأنها فى موضع بارز مشرف من الجبل ، فهم رغم انها تتيح لمن فيها الاختفاء الا أن موقعها يمكن المختفى من المراقبة الكاملة لبروزها ، ويقول انه يقيم فيها وقتا طويلا آمنا متمكنا من استقراره كأنه قبال النعل بين الاصبعين ، ثم ينطلق فى أوقاته المختارة الى الأماكن التي يريد بها فيقول :

ومراقبة يحار الطرف فيها الى سماء مشرفة القذال (١)
أقيمت بريدتها يوما طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال (٢)
ومقعد كربة قد كنت فيها مكان الاصبعين من القبال (٣)
فلست لحاصن ان لم ترونى بطن صريخة ذات النجال (٤)
وأى قينة ان لم ترونى بعوروش تحت عرعرها الطوال (٥)

والشفرى يصف مرقبته هذا الوصف أيضا ، فيقول انها عالية فى الندوة ، لا يستطيع أن يبلغها الا القوى الصلب ، وأنه قضى فيها الليل عاقدا ذراعيه أمامه منحنيا عليهما متلفتا حوله كأنه الأفعى فيقول :

ومراقبة عطاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفيف المشقف
نميت الى أعلا ذراها وقسودنا من الليل ملتف الحديقة أسدف
فبت على حد اللراعين محبدا كما ينطوى الأرقش المتقصف (٦)

وأبو خراش الهذلى يصف مرقبته أيضا بأنها مرتفعة تتيح له الاشراف وانها فى حرف ناتئ من الجبل كأنه حد الفأس ، وفى هذا الموضع صنع مظلة من خشب ولكنها أصبحت شبه منهدة ، حيث سقط أحد جانبيها وبقي الآخر

(١) ديوان الهذليين ١١٩/٣ وشماء عالية والقذال الرأس .

(٢) الريد الحرف البارز من الجبل والشطر الثانى يعنى أقيمت منكبا غير ظاهر .

(٣) معناه توسطتها كما يتوسط قبال النعل الاصبعين .

(٤) الحاصن المرأة اللطيفة وصريخة موضع والنجال النر .

(٥) قينة أمة وعوروش موضع .

(٦) مهذب الأغاني ٩٥/١ والمشف الضعيف وأسدف من السدفة وهى الظلام محبدا منحنيه

قائما ، ولكن أباخراش يشير خلال وصفه إشارة مهمة الى هدفه من اختيار
مركبته في هذا المكان . وهو أن تكون مشرفة على طريق عام يتصل مرور
الناس فيه ، وهذا الطريق العام لا يخلو من صيد لأبى خراش في تجارة
أو طعينة أو قافلة ، فيقول .

لست لمرة أن لم أوف مركبة يبدو لي الحرف منها والمقاصيب (١)
في ذات ريد كذلك الفاس مشرفة طريقها سرب بالناس دعوب (٢)
لم يبق من عرشها الا دعامتها جدران منهدم منها ومنسوب (٣)

والاعلم الهذلي يصف تنقله بين قم الجبال حين يفشاه الليل فيقول :

دجى اذا ما الليل جن على المقرنة الجاحب (٤)

وكما وصف أبو خراش مركبته ، كذلك نجد مثل هذا الوصف في مركبة
تأبط شرا ، فهو يصفها بأنها بارزة فائقة ، ويشبه حدها بسنان الرمح
ويصفها بالارتفاع الشاهق ، وأنها شديدة الحرارة في الصيف ، لأن ظللتها
لم تعد صالحة للتظلل ، فبعضها تهدم ، وبعضها باق ولكنه غير مغن ، وأنه
وصحبه يتخذون منها مرقبا وحصنا ، وإن كان هو أسرعهم في الصعود إليها
فيقول :

وقلة كسنان الرمح بارزة ضحانة في شهور الصيف محراق (٥)
بادرت قنتها صحبى وما كسلوا حتى نهيت إليها بعد اشراق (٦)
لا شيء في ريدها الا نعامتها منها هزيم ومنها قائم باق (٧)

ويروى القالى قائلا : قال تأبط شرا يصف قلة جبل :

نهضت إليها من جثوم كانها عجوز عليها همل ذات خيعل (٨)

(١) ديوان الهذليين ١٥٩/٢ ومرة أبوه لم أوف لم أشرف والمقاصيب مواضع علف الدواب.
ورويت الأبيات لمروة أخيه .

(٢) الريد الحرف الثاني من الجبل وذلك حد وسرب شائع كثير السير فيه ودعوب
موطر مطروق .

(٣) العرش المظلة وجدران عودان أحدهما منهدم والآخر لم يتهدم بل قائم منصوب . وانظر
الحيوان ٤٥١/٤ .

(٤) ديوان الهذليين ٨٢/٢ والمقرنة التي دلا بعضها من بعض من الجبال والجاحب.
الصغار منها .

(٥) المضليات ٢٩ والقلة أعلى الجبل وضحية بارزة للشمس ومحراق تحرق من فيها لشدة
حرها .

(٦) القلة والقلة واحدة ، ولميت صعدت يعنى سبقت صحبى .

(٧) الريد أعلى الجبل والنعامة المظلة من خشب وهزيم متكرر يعنى بعضها تهدم وبعضها باق

(٨) الأماي ٣٨/١ والهممل الثوب الخلق .

ومما سبق لرى انهم يكادون يتفقدون على اوصاف معينة للمراقب التي يختارونها، ويوحى حديثهم عنها بمدى الجهد الذى يعاونه فى الصعود والنزول الى هذه المرتفعات الشاهقة ، وما فى حياتها من صعوبة وقسوة لا يتاح التغلب عليها الا لمن وهب قدرة ونشاطا غير عاديين ، ومن الحق ان نقول ان الذين تحدثوا عن المراقب هم العداءون ، وهذا يفسر القدرة على الصعود والنزول الدائمين فى هذا العلو الشديد ، وقد لا يتصور غير الصعاليك ايضا مدى ما فى هذا الجهد العنيف ، فالشخص الذى يتاح له أن يصعد جبلا مرة فى حياته بعد حدثا فى حياته لا ينسى ، فكيف بشخص حياته صعود ونزول فى شواهد القمم من الجبال ، وهذا بالتالى يفسر ما ينبغى أن نشبهه من ان الذين تحدثوا عن المراقب هم صعاليك الجاهلية ، أما صعاليك الاسلام فانهم وان تحدثوا كثيرا عن التنقل والصحراوات والايغال فى الاماكن الا انهم لم يتحدثوا عن المراقب ، ويمكن تعليل ذلك بان المراقب فى صورتها تلك لا يقوى على ارتيادها الا الذين اوتوا نشاطا جسميا غير عادى كالعدائين ، وصعاليك الاسلام كما لاحظنا فى الفصل السابق لم يكن العدو صفة من صفاتهم ، ويمكن ربط هذا كله بما لاحظناه ايضا عند الحديث عن آثار الفقر والجوع ، من ان صعاليك الاسلام وان كانوا فقراء ، الا ان فقرهم لم يبلغ بهم حد الجوع الذى عاناه الجاهليون ، والذي ترتبت عليه أشياء كثيرة فى حياتهم ، منها ملازمة الصحراء والمخاطر ، وهذه الملازمة أثمرت فى حياتهم الاعتماد على العدو ، وهذا العدو ونشاطه يسر لهم ارتياد قمم الجبال واتخاذ المراقب .

ومهمة المراقب فى حياتهم كما قلنا الترسد والتخفى ، وكذلك حين ينزلون منها يحرسون على هذا المعنى ، فيتخيرون مسالكهم فى دقة وعناية بالغة ، ولذلك نجدهم يؤثرون الطرق الملتوية والتي تدنو من أماكن تتيح لهم النجاة اذا أحس بهم خطر ، كما وصف صخر الفى طريق عودته من الماء بعد ملء قربته بأنه أثر طرقا ملتوية خلف الجبل حيث يقول « تيممت أطرقة أو خليفا » (١) . وأما تأبط شرا فانه يرسم صورة للطريق الذى يسلكه وهو أن يكون متعرجا أو ملتويا كأنه خياطة الثوب ، ويصفه ايضا بأنه لا يخلو من منحنيات وصخور ، وانه لطول تجربته أصبح يهتدى الى مثل هذه الطرق التى تحقق له ما يريد ، وهو الأمن فى وصوله الى الماء فيقول :

وشعب كشل الثوب شكس قطعته
به من سيول الصيف بيض أقرها
مجامع صوحيه نطاف مخاصر (٢)
جبار لصم الصخر فيه قراقر (٣)

(١) سبق فى فصل العدو .

(٢) الاصمعيات ١٣٥ والشعب الطريق فى الجبل والشل الخياطة وشكس شعب وصوحاه جانباه ونطاف مخاصر بقع ماء بارد .

(٣) بيض يعنى لون الفدران وجبار يريد سيلاً مهلكاً وقراقر يعنى صوت تحدر السيل على الصخور الصماء .

تبطنته بالقوم لم يهدنى له دليل ولم يثبت لى النعت خابر (١)
به سمات من مياه قديمة مواردها ما ان لهن مصادر (٢)

ويصف الشنفري طرقه التى يسلكها بأنها فى وديان نائية ملتوية ، وانها
كثيرة الأشجار مما يتيح له أن يتخذ منها كمينا يختفى فيه أو يترقب منه
فيقول :

وواد بعيد العمق ضمنك جماعه بواطنه للجن والاسد مالف
تعسفت منه بعد ما سقط النسل غما ليل يخشى غيلها المتعسف (٣)

ومن المعالم البارزة بصفة عامة فى شعر الصعاليك كثرة الحديث عن
الأماكن ووصفها والتنقل بينها ، ولذلك كأن شعرهم من المصادر الأساسية
التى اعتمدت عليها معاجم الأماكن (٤) ، ومن هذه الزاوية يعتبر شعر الصعاليك
من أكثر الشعر حديثا عن الطبيعة فى مختلف مشاهدتها ، ومن حديث
الصعاليك عن الأماكن نشعر أنه تكاد تنعدم الفواصل بين الأماكن عندهم
وانهم يشعرون كأن الأرض كلها ملك لهم ، وأنه لا يعجزهم عن التنقل بين
أماكنها مهما تباعدت شئ ، فالشنفري يصف لنا جولة من جولاته فى الصعلكة
فيعدد خمسة أماكن فى بيتين اثنين ، بعضها جبال وبعضها صحراوات
فيقول :

امشى باطراف الحماط وقارة تنفض رجلى أسبطا فعصورا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك يلقى القاصى المتفورا (٥)

على أننا ينبغي أن نلاحظ أن هذه الأماكن على كثرتها لا يسوقها على أنها
مقام أو مستقر له ، وإنما معبر يجتازه الى غيره من الأماكن حيث عبر بقوله
« امشى بتشديد الشين » وقوله « تنفض رجلى » (٦) ومثل ذلك يقوله عبدة بن
الطيب عن أماكن كثيرة يعرفها ، وله فيها ذكريات :

قفا نيك من ذكرى حبيب واطلال بلى الرضم فالرمانتين فاعمال
الى حيث سال القنع من كل ووضه من العتك حواء اللذائب محلال (٧)

(١) تبطنته دخلت بطنه والتمت الوصف وخابر مختبر .

(٢) سمات بقايا .

(٣) مهلب الاغانى ٩٥/١ والفلول الوادى الضيق كثير الشجر وعسف عن الطريق مال

وعدل .

(٤) انظر للشال معجم ما استعجم للبكرى فى التعريف بالأماكن والمواضع .

(٥) معجم البكرى ٩٤٦/٣ والحماط وأسبطا وعصورا وذات الرس وبطن منجل مواضع

(٦) بتشديد الشين فى أمشى وتشديد اللاء فى تنفض ، وتنفض الرجل معناه أنه سائر

ماشيا .

(٧) معجم البكرى ٦٥٥/٢ والرضم والرمانتان واولع والقنع والعتك أماكن .

وكذلك يقول توبة بز الحميز :

عفت نوبة من اهلها فستورها فدت الصفيح المنتضى فحصرها (١)

على ان الصماليك يرون في الاماكن نفسها من حيث بسطتها وتباعدها
مهربا ومنجاة لهم من كل ما يخافونه ، ومن كل ما يضييقون به كما يقول مالك
ابن الريب :

فاتي سوف يكفينيك عزمي ونص الغير بالبلد القفار (٢)

ويقول مالك ايضا حينما ضاق بتعقب الحجاج الثقفي له ان الارض واسعة
امامه ، وانه لمشوق الى الصحراء ، بل ان ناقتة لعطشى الى ريح الفسلوات
فما مقامه في ارض لا يجد فيها حرته ، وانه لقادر على ان يجعل من كل البلاد
بلدا له ؟ فيقول :

ان تنصفونا يال مروان نقرب اليكم والا فاذنوا ببعاد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريح الفلاة صوادي
ففي الارض عن دار المدلة مذهب وكل بلاد اوطننت كبلادي (٣)

ومثل هذا المعنى نجده في لامية الشنفرى (٤) ، وتابط شرا ايضا يهددهم
بتركهم الى آفاق رحبة فسيحة ، ثم لا يستطيعون العثور عليه بعد ذلك أبدا
فيقول :

انى زعيم لئن لم تتركوا علي ان يسال الحى عنى اهل آفاق
ان يسال القوم عنى اهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاقى (٥)

ومهما تكن الاماكن التى يتحدثون عنها فانها اماكن مقفرة مخوفة
لا يستطيع ان يجوبها غيرهم ، ففي مثلها يجدون أمنهم كما يقول عروة
ابن الورد :

وغبراء مخش ودها مخوفة اخوها باسباب المنايا مفر
قطعت بها شك الخلاج ولم اقل حجابة هيابة كيف تامر (٦)

(١) المصدر السابق ٤٥٣/٢ ونوبة وستور والصفيح وحبر اماكن .

(٢) مذهب الاغانى ١٠/٥ واليس الايل .

(٣) الكامل للسيد ٣٠٢/١ وصوادي عطاش .

(٤) الأبيات الثالث والرابع والخامس .

(٥) المفضليات ٣٠ وثابت اسمه ولاقى من اللقاء يعنى مهما سألوا فلن يجدوا من يقول
لهم لقيته .

(٦) ديوان عروة بن الورد ٩٦ والهاء فى حجابة وهيابة للمبالغة واصلها خباب وهيا
او ضعيف .

ويقول عبيد بن أيوب عن نفسه :

أخو فلوات صاحب الجن وانتحي عن الأنس حتى قد تقضت وسائله (١)

وظروف الصعاليك وخيساتهم وآمالهم تهيم لهم التنقل الدائم ، فهم لا يملكون شيئاً ثابتاً يحرصون عليه فيبقون في ملازمته ، بل لا يملكون في اغلب الأحيان شيئاً ، واضطراهم الى أن يحصلوا على معاشهم ، وعدم وجود مورد رزق لهم في أماكنهم ، كل ذلك يجعل الرحلة والتنقل شيئاً ميسوراً لهم وهذا مالك بن الربيع يدع موطنه في الحجاز ويرحل مع أحد الولاة الى خراسان بمجرد أن يحصل هناك على معاش ، وقد ترك في سبيل ذلك موطنه وأهله ولم يرده حتى بكاء ابنته وهي تودعه (٢) ، بل يشعرون كثير من شعورهم أن التنقل هو الهدف الذي يملأ نفوسهم ، وأن الإقامة شيء غابر في حياتهم كما يقول الشنفرى :

كان قد فلا يفردك منى تمكثي سلكت طريقاً بين يربغ فالسرد (٣)
والسليك بن السليكة يخشى في مرارة وألم أن يدركه الموت دون أن يروى
ظماؤه الى غارات كيرة يبعد بها في أماكن نائية حتى يبلغ أعماق اليمن من مأرب
وبلاد الأزد فيقول :

امعتنقى ريب المنون ولم ارفع عصافير واد بسين جاش ومارب
واذعر كلاباً يقود كلابه ومرجة لما التمسها بمقنب (٤)

ومثل هذه الأمنية يحمل الشنفرى حيث يقول :

الا تزرني حفتي أو تلاقني امشي بدهر أو غداً فنورا (٥)
وأما عروة بن الورد فقد كانت خيله في الصعلكة تجوب أرجاء نجد والحجاز
كليهما كما يقول :

ويوما على غارات نجد وأهله ويوما بارض ذات شت وعمر
يناقلن بالشمط الكرام أولى النهى نقاب الحجاز في السريح المسير (٦)
وكذلك يقول أبو النشاش ، انه يرى في مجاهل الصحراء خير ميدان
لركائبه فيقول :

(١) كامل المبرد ٢٠٠/١

(٢) انظر مهلب الاغانى ١٠/٥

(٣) معجم البكرى ١٣٦٢/٤

(٤) انظر معجم البكرى ١١٧٠/٤ وجاش ومارب بلدان باليمن وكذلك . سرجة والمقنب

جماعة الغيل .

(٥) معجم البكرى ٥٥٩/٢ ودهر وغداً ولورد مواضع من ديار بني سلامان أعداده .

(٦) الاصمعيات ٤٠ وشت وعمر شجر والشمط الغيل والكرام الفرسان .

ونانية الأرجاء طامسة الصوى خلت بابى النشاش فيها ركائبة (١)

ومن ذلك كله نعلم مدى اعتماد الصعاليك على طبيعة البيئة من حيث المكان ومدى تسليحهم بها فى صراعمهم مع الحياة ، سواء فى الهجوم والدفاع ، وكذلك صراعمهم مع طبيعة هذه البيئة فى مجاهلها ، ومسالكها وقسوتها ومشقة السير فيها ، وما تفرضه على مرتادها من ذلك كله .

٨ - المطايا

ومهما اعتمد الصعاليك على أجسامهم وخصائصها ، ومهما اعتمد بعضهم على ساقيه وشدة عدوها ، فإن المطية من لوازم البدوى بصفة عامة ، لأن معاشه غير مستقر ، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن ، أو أصحاب المهن والزراعة ، وإنما هو شخص متنقل دائم السعى وراء رزقه فى أى مكان يتاح له ، وأكثر ما يكون رزقه ارتباطا بالكلا الذى تعيش عليه ماشيته ، فضلا عن أن الاقتصاد العربى وخاصة فى البادية كان أهم مجال له الماشية ، ومنها الأبل والخيل وهما أهم المطايا .

ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة أو فرسا غنيا ، أو خارجا عن نطاق الفقراء والمحتاجين لأن الناقة الواحدة أو الفرس ليست ثروة بالمعنى المفهوم ، وإنما هى أداة تنقل وسعى للرزق وكأنها جزء من حياته فى المجتمع العربى القديم .

والصعاليك كانوا أكثر الناس رحلة وتنقلا وراء الغارات التى يقومون بها والتى يدرسون أهدافها بعناية ودقة قبل أن ينفذوها ، فهم لا يغيرون جزافا وإنما يدرسون فى أغلب الأحيان الموضع الذى يغيرون عليه من عدة نواح كقوة الدفاع لدى المغار عليهم ، والوقت الملائم للغارة ، وقبل ذلك الغنيمة التى يمكن الحصول عليها من هذه الغارة ، ومتى توافرت لديهم فى هذه الدراسة المعلومات التى ترجح نجاح الغارة وفوزها بالغنيمة انقضوا بغارتهم ، وكانوا يسلكون وسائل عدة فى جمع معلوماتهم عن مكان الغارة وموضع الغنيمة وطرق النجاة ، ومن هذه الوسائل ارتياد المدن والمجامع العامة التى يلتقى فيها جموع من القبائل المختلفة كموسم الحج فى مكة ، والأسواق التى كانت تقام فى مواسم معينة كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز كان الصعاليك يرتادون أحيانا هذه الأماكن ويختلطون بالوافدين من القبائل يستطلعون أخبار قبائلهم ، وخلال ذلك ، وعلى ضوء ما يصلون إليه من معلومات يضعون خطط

(١) حسنة أبى تمام ١١٥/١ والصوى الأعلام يعنى مطبوعة المعالم واسمة الأرجاء .

لغاراتهم . كما كان عروة بن الورد يرتاد يثرب (١) ، وكما كان الهذليون يرتادون مكة (٢) وكما كان السليك يرتاد الأسواق (٣) ، وقد كانت هذه الغارات أحيانا تبعد الى أماكن نائية ، كما سبق آنفا من شعر عروة بن الورد عن عاراته في نجد والحجاز ، وكفارات السليك على جوف مراد باليمن (٤) مع ان ديار بني تميم قبيلته قرب يثرب .

وهذا الابعاد في الغارات والغزو ليس من المعقول أن يعتمد فيه الصعلوك على قدميه ، فقد يمكن أن يستغنى قطاع الطرق منهم أو بعضهم عن المطايا أو على الأقل في بعض الأحيان أما المفزيون والغزاة منهم فكان اعتمادهم الأساسي والضروري على المطايا في أغلب الأحيان ، ولا يستثنى من ذلك إلا بعض العدائين الذين كانوا يشقون في عدوهم أكثر من ثقتهم في المطايا بما فيها الخيل ، فانهم لم يهتموا كثيرا بالمطية كالشنفوي وتأبط شرا وإلى خراش ، كما يبدو ذلك من شعرهم

على ان بعض الصعاليك كما قلنا كانوا في بعض حياتهم يعتبرون من شجعان أقوامهم وفرسانهم في الحروب التي تدور بينهم وبين القبائل والأحياء الأخرى ، كجحدر بن ضبيعة وعروة بن الورد ومالك بن حريم وقيس بن الحداية قبل حمله ، فهؤلاء كانت عدتهم حينذاك الخيل .

وقد كان بعضهم من أصحاب الخيل التي نالت شهرة في العرب ، كالسليك فان له فرسا تسمى النحام ، من الخيل المشهورة المعدودة (٥) ، وكذلك حاجز ابن عوف الأزدي ، كانت له فرس تسمى ذببة (٦) .

ويبدو من شعرهم ان الخيل والابل كانت من الوسائل الأساسية التي تقوم عليها صعلكتهم وانها أيضا من الأسلحة التي لا تستغنى عنها الصعلكة في جملتها ، سواء في الغارات والغزوات والوصول الى أماكنها ، وفي التنقل من مكان الى مكان وفي الصراع مع الأعداء ، وفي النجاء بها في بعض الأحيان .

ولئن كان الشعر العربي القديم ، جاهليه واسلامه ، حفل بالحديث عن الخيل والابل ووصفها أكثر مما حفل به شعر الصعاليك ، فذلك لأن المطايا كما قلنا قدر مشترك في أهميتها بين كل عربي والآخر ، ولكن نظرة الصعاليك وغيرهم اليهما تختلفان اختلافا واضحا ، فغير الصعاليك ينظرون الى الخيل والابل

-
- (١) انظر الأغاني للأصفهاني ٣٧/٣ وكان يبعث الميرون على بعض الأغنياء ، كقصته مع بخيل كنانة انظر شرح ابن السكيت لديوانه .
 (٢) انظر معجم البكري ٥٣٠/٢ .
 (٣) انظر الأغاني للأصفهاني ١٣٥/١٨ .
 (٤) انظر معجم الأمثال للميداني ٩/٢ .
 (٥) انظر أمالي القالي ١٨٦/٣ والقاموس المحيط مادة (نحم) .
 (٦) القاموس المحيط مادة (ذاب) .

من خلال زاويتين ، ملكيتهم لها ، واعجابهم بها في أداء ما يناط بها ، ولذلك نجد وصف الخيل والابل لذاتها شائعا في شعرهم ، أما الصعاليك فينظرون اليها من خلال ارتباطها بحياتهم ، ومدى حاجتهم اليها في الصعلكة ، ولذلك نجد حديثهم عنها يغلب عليه الارتباط بهذه الحياة ، كالنجاة على فرس ، أو الانتقال على الناقة من واد الى آخر ، أو الانقضاض بالفرس على قوافل التجار كناقاة مالك بن الريب المتنقلة بن القفار (١) وشدات كميته على التجار (٢) .

فالشاعر من غير الصعاليك يرى فرسه أو ناقته فيتحدث عنها ويصفها لذاتها ، أما الصعلوك فيتحدث عنها غالبا خلال حديثه عن حياته ، وان وصفها فانما للمرعى عن أدائها لدور مهم في حياته .

٩ - الخيل

لم يكن الصعاليك يعنون بالخيال على أنها ثروة ، ولا على أنها زينة ، وانما عناهم منها مدى ارتباطها بحياتهم في الصعلكة ، ولذلك نجد حديثهم عنها يحمل هذا الطابع ، وينحو هذا المنحى ، فالسليك السعدي مثالا يتحدث عن فرسه النحام ، وهو من الأفراس المعدودة المشهورة في العرب كما قلنا ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بجودة وصفات تميزه عن الكثير من غيره وكان يمكن للسليك وهو الشاعر القدير أن يستغل خياله في الحديث عن شهرته ووصفه ، ولكننا نراه حين يتحدث عنه لا يعنيه من ذلك الا ما حققه من نفع في صعلكته في حين كان يمكن أن يصوغ كغيره قصيدة كاملة أو قصائد في التغنى به ، ولكنه اقتصر على وصف قوائمه القوية لأنها أهم ما يعنيه منه ، وعلى غرته المقترنة باليمن في نجاح ما يناط به ، ثم ذكر له ثلاثة أغراض تشمل حياة الصعاليك هي الصيد ، والمطاردة ، سواء كان الذين يطاردونهم أعداء أو غنما ، والنجاء به من مطارديه فيقول :

كان قوائم النحام لما تحمل صحتي اصلا محار (٣)
على قرماء عالية شواه كان يياض غرته خمار (٤)
وما يدريك ما فقرى اليه اذا ما القوم ولوا أو اغاروا (٥)

(١) أنظر شعرة في ذلك . مهذب الأغاني ١٠/٥ .

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢ .

(٣) الكامل للمبرد ٥٧/٢ والاصل جمع أصيل المشى يشبه لون القوائم بالأصيل والمحار الصدف يعنى قوائم صلبة ملصقا .

(٤) القرماء للموضع وشواه قوائمه .

(٥) ولوا أو اغاروا مناء اذا هربوا أو طلبوا .

ويحضر فوق جهد الحضر نص يصيدك قافلا والمخ رار (١)

وواضح من شعره أن فرسه هذا كان ذكرا .

ومالك بن حريم يقول انه آثر فرسه وافتلاها لغرضين ، أحدهما الغنم بها ، والآخر مجابهة المخاطر ، وتبلغ هذه الفرس من جودتها أنها حين تعثر إحدى قوائمها لا تكبو ، وانما تعاونها الثلاث الأخرى من قوائمها فيستقيم سيرها . يقول :

إذا وقعت احلى يديها بشرة تجاوب اثناء الثلاث يدعدا (٢)
ثم - مقربة أدنيتها وافتليتها لشهد غنما أو لتدفع مدفا (٣)

ويصف الجهد الذى تعانيه فرسه فى الفوز والغارات والصراع فيقول :

ترى المهرة الروعاء تنفض رأسها كاللا وأينا والكميت المقدعا (٤)

وأما مالك بن الريب فيتحدث عن كميته ، فلا يرى حاجة لوصفه ، وما حاجته الى الوصف ؟ ان حاجته أن يكون الكميت أداته لتحقيق مآربه فيقول :

سيغنيني المليك ونصل سيفي وكرات الكميت على التجار (٥)

أو يقول :

وانيابي سيخلفهن سيفي وشادات الكمي على التجار (٦)

ولم يخطر لمالك أن يصف جواده الا حينما أشرف هو على الموت ، ولم يعد فى حاجة الى جواد ، ولم يكن وصفه لأعجاب ، وانما كان وصف الاشفاق فيقول من مريته التى قالها عند موته :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرمح الردينى بايا
وأشقر محبوبك يجز بجامه الى الماء لم يترك له الموت سايا

وأبوخراش لم يتحدث عن خيل يستعملها ، ولم يبد فى شعره أنه يعتمد على الخيل ، لأنه كان من أشهر الغدائين ، حتى انه تراهن مع الوليد بن المغيرة

(١) الحضر ارتفاع الفرس فى عدوه ويصيدك يصيد لك والمخ رار يعنى تشبيهه بالنعام

فى خلو عظامه من المخ فى زعمهم .

(٢) الاصمعيات ٦٦ والثيرة المهرة والثلاث قوائمها الأخرى ودع دع صوت زجر الفرس

أى كان الثلاث تلهفها بهذا الصوت .

(٣) افتليتها اقتطعتها أو نتجتها والمقربة الأثرة لديه والمدفع مصدر ميمى من الدفع .

(٤) الاصمعيات ٦٠ والروعاء كأنها لزعمة من دوام نشاطها وحركتها والكلال والأين الجهد

والتمب والمتدع النشيط .

(٥) الشعر والشمراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

(٦) النظر مهذب الأغاني ١٠/٥ .

على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق ، فراهن أبا خراش على أنه ان سبقهما
فهما له ، فسبقتهما أبو خراش وفاز بهما كما مر ، فلم تكن بمثل عدوه
حاجة الى الخيل لأنه أسرع منها ، ولكنه مع ذلك يصف خيلا مغيرة
وصفا قلما يحتاج لشاعر ، وذلك في قصة رجل من قومه قتل جارا له من بني تميم
فانكر أبو خراش ذلك انكارا شديدا ، ونعى على قريبه نكسه في الجوار ، وهجاء
بشعره ، وما قال في هذا الشعر أن الفلام التميمي حين أحس الغدر والموت
دعا قومه ، ولكن بينه وبين قومه وديانا وأنهارا ، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا اليه
على خيلهم في أقصى عجلة وسرعة متصورة ، يلهبون خيلهم ضربا بالسياط
والأعنة والركل بالأقدام ، وفي هذا السياق يصف أبو خراش الخيل وصفا
عجيبا في انطلاقها كالسهام تحت هذا الحث العنيف من فرسانها ، وقد وصف
هذه الخيل بوصفين بصوران أقصى ما يحتاج لشاعر أن يصوره من خيل
في مثل تلك الحالة ، وهما أن الناظر الى الخيل حينئذ يراها فاعرة أفواها ،
ويرى أحداق أعينها في وضع غير عادي كأنه الحول ، والصورة في جملتها ، من
الخيل في هيئتها هذه ، الى الفرسان في استعجالهم وتحفزهم ، وحنهم للخيل
بكل وسيلة ، تعتبر من أجمل اللوحات الشعرية ، يقول :

دعا قومه لما استحل حرامه ومن دونهم عرض الأعقة فالرمل (١)
ولو سمعوا منهم دعا يروعهم اذا لآتته الخيل أعينها قبل (٢)
شواحي يمر يهن بالقوم والقنا فروع السياط والأعنة والركل (٣)

ولكن الذي يعيننا في الواقع من هذه الصورة التي تعتبر اتجاها بارعا
في وصف أثر السرعة والحث الشديد في الخيل هو أن نتساءل : ولماذا كان
أبو خراش هو الذي يمثل هذا الاتجاه دون غيره ؟ وأغلب الظن أن هناك
ارتباطا بين العدو وهذه الاجادة في وصف سرعة الخيل بالأسلوب الواقعي
الذي لا يحمل شيئا من تكلف أو مبالغة أو خيال ، فأبو خراش عداء فذ
وهو بهذا كثير السباق مع الخيل والتعرض لمطاردتها ، ومن ثم فانه كثير المشاهدة
لأثر السرعة والاجهاد على الخيل ، ولذلك كان تعبيره واقعا صادقا لا أثر
فيه للمبالغة أو الخيال .

والأعلم الهذلي يصف فرسه ، فلا تعنيه منه الا سرعته التي تشبه ظليم النعام (٤)

- (١) ديوان الهذليين ١٦٥/٢ واستحل حرامه يعني استحل جواره والأعقة جمع عقيق وهو
الوادي الواسع والرمل موضع فيه منازل بني مازن من تميم يقول عنه مالك بن الربيع
وبالرمل منا نسوة ٠٠ الخ ، في مربيته .
(٢) الرواية (منهم) ولعل صحتها (منه) وقيل بضم القاف وسكون الباء اقبال احدى
الحدقتين على الأخرى كالحول .
(٣) شواحي فاتحات أفواها ويمريهن يستخرج لشاطهن تحريك السياط والركل ، بمعنى
الخيل .

(٤) انظر شعره في الحيوان للجاحظ ٣٢٦/٤ .

والذين كانوا يزاولون الحروب مع اقوامهم من الصعاليك كانوا أكثر حديثا عن الخيل ، وقد سلك بعضهم مسلك غيرهم من غير الصعاليك في المبالغة في وصف الخيل ، والعناية بحسنها وأوصافها الجسمية ، ولذلك عد بعضهم من أحسن الوصافين للخيل ، وقد قال عبد الملك بن مروان مرة : أشرف المناديل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول :

ثمت قمنا الى جرد مسومه اعرافهن لا يديننا مناديل (١)

وهذا البيت من قصيدة طويلة لعبدة طرق فيها عدة عناصر منها الخيل ، ويبدو حسن البيت السابق في موقعه من القصيدة ، فهو في سياق أن عبدة وفرسانا معه جهدوا حتى صادوا ثورا ضخما ، وتحاولوا حتى طبعوه ثم أكلوا ثم قاموا الى خيلهم فامتطوها ، واتخذوا من أعرافها مناديل يمسحون بها عن أيديهم أثر اللحم ، ولكن شعر الصعاليك لا يخلو من طابعهم ، فتجد عبدة في هذا الوصف يهتم بأن يصف جهد فرسه وعنايته في التنقل وكثرة السير فيقول :

بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول (٢)
خاطي الطريقة عريان قوائمه قد شفه من ركوب البرد تذييل (٣)

وقيس بن الحداية يصف خيلهم التي يصارعون بها أعداءهم فيقول :

نحن جلبنا الخيل قبا بطونها اعرافها الى الداعي المثوب جنحا (٤)
ويقول عن خيلهم الكمت :

رميناهم بالحو والكمث والقنسا وبفض خلفا يختلين السواعدا (٥)
ومالك بن حريم يقول :

يا عمرو لو أبصرتني لرفوتني في الخيل رفوا
واليبيض تلمع بينهم تعصو بها الفرسان عصوا
للقيت منى عربدا يقطو امام الخيل قطوا
ثم - وسمعت زجر الخيل في جوف الظلام هبي وهبوا (٦)

(١) البيت من قصيدة طويلة . انظر المظيليات ١٣٤ - ١٤٥ .

(٢) ساهم الوجه قليل اللحم فيه والسرحان الذئب والمنصلت المنجرد الماضي والطرف الكريم الطرفين .

(٣) الخاطي كثير لحم الجسم والطريقة طريقة ظهره وشفه أضمره وأهزله وركوب البرد يعنى أنه دائم ركوبه في البردين الفداء والمشى والتذييل من الذبول وهو الضمور .

(٤) أغانى الأسفلاني ١٤٤/١٤ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) الحيوان للجاحظ ٤٧٤/٦ والرفو التسكين والعصو الغرب بالسيف وقطا يقطو تقارب

مفقيه وهبي وهبوا صوت زجر الفرس .

وكذلك نجد وصف عمرو بن بركة (١) ووصف تأبط شرا لأدهمه (٢)
وأما عروة بن الورد فانه يجعل أجرده جزءا من سلاحه الذي لا يملك غيره فيقول:

ومالي مال غير درع ومقفر وأبيض من ماء الحديد صقيل
واسمر خطى القنساء مثقف وأجرد عريان السراة طويل (٣)

ولا شك أن الخيل أكثر الموضوعات التي لقيت اهتماما كبيرا في الشعر العربي ، فلا يكاد شاعر من القدامى لم يتعرض لوصف الخيل والحديث عنها ، كثر حديثه أو قل ، وإن كان في أغلب أحيانه كثيرا ، لأن الخيل كانت تحقق في حياتهم أكثر من غرض ، فضلا عن أنها تنفرد بمواقف لا يصلح فيها غيرها كالحروب التي كانت جزءا أساسيا في حياتهم ، وقد دعم الاسلام اعتزاز العرب بالخيل كما في الحديث الشريف « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة » وكما يقول عمر بن الخطاب « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » وفي رواية « ومروهم فليشربوا على الخيل وثبا » والصعاليك وإن كانوا في اعتزازهم بالخيل جزءا من العرب ، إلا أننا نجد في حديثهم طابعهم الخاص بحياتهم وشعرهم ، حيث يركزون اهتمام حديثهم عن الخيل بمدى ارتباطها بصراعاتهم مع ظروفهم وأعدائهم .

١٠ - الابل

والابل هي الأداة الطبيعية للسير في الصحراء بما هيأها الله لذلك ، ولكن الصعاليك ليسوا مجرد سائرين ، انهم متنقلون دائما بين أماكن متباعدة وصحراوات مترامية ، ولذلك نجد حديثهم عن التنقل مقرونا بالابل .

فتوبة بن الحمير مثلا يصف أجواز القفار المخوقة التي تجتازها به ناقته القوية الصلبة هذه القفار المهلكة التي يصبح الضعيف فيها ذليلا مشرفا على الهلاك كأنه بقايا حيوانات ضعيفة انحسر عنها الغدير فيقول :

وأدما من سر الهاري كأنها مهاة صوار غير ما مس كورها (٤)
قطعت بها أجواز كل تنوفة مخوف رداها كلما استن مورها (٥)

(١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ وأمالى القال ١٨٦/٣ .

(٢) المصدا لابن رشيقي ٣٥/٢ .

(٣) أنظر العقد الفريد باب الخيل .

(٤) أغاني الأصفهاني ٢٨٠/٣ والأدما من الابل مافي لونهياياض مع سواد المقلتين ، والسر المنض والمهاة البقرة الوحشية والصوار قطيع البقر .

(٥) الأجواز جمع جزر وسط الشيء واستن حاج والمود القفار .

ترى ضعفاء القوم فيها كأنهم دعا ميص ماء نتس عنها غديرها (١)

وعبيد ين أيوب المشهور بملازمته للفقار ، وبعده عن الأماكن المأهولة بعد أن كثرت جناياته وأباح السلطان دمه ، يحمد من ناقته صبرها على حياته القاسية ، ومشاركته كل ما يعانیه ومن ذلك كثرة ما يتعرضان له من عطش فيقول :

ظللت وناقتي نصوى فلاة كفرخ الضب لا يبغي ورودا (٢)

ومالك بن حريم يصف إبعادهم في التنقل والأسفار ، حتى أنهم يتكون أولاد أبلمهم حيث تولد ويرحلون عنها ، حتى لا تعوق سيرهم فيقول :

فمن يائنا أو يعترض بسبيلنا يجد أثرا دعسا وسخلا موضعا (٣)

وقد رأينا أن مالك بن الريب هدد بنى مروان ، أورد على مضايقة عمالهم له ، بأن ناقته عطشى إلى ريح الفلاة ، يعنى أن الرحلة والتنقل ميسوران له بقوله :

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس إلى ريح الفلاة صوادى

وحين بلغه أن الحارث بن حاطب الوالى يتوعده ، رد عليه بقوله :

فانى سوف يكفينيك عزمى ونص العيس بالبلد الفقار
وعنس ذات معجمة امون عنداة موثقة الفقار
تزيف اذا تواهقت المطايا كما زاف المشرف للخطار (٤)

ويقول فى القصيدة نفسها أنه يستطيع بناقته هذه القوة الصبور أن يطأ أرضا لم يبلعها قبله أحد :

ولا جزع من الحدثن يوما ولكنى أروء لكم وبار (٥)
بهزمار تراد العيس فيها اذا أشفقن من قلق الصغار
وهن يحشن بالأعناق حوشا كان عظامهن قداح بار

(١) الدغاميص نوع من حيوانات الماء أسود صغير كالذود يعيش فى الغدران ونش الحسر وجف .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ والشرط الثانى اشارة الى زعم العرب أن الضب يصبر على المطش مدة طويلة .

(٣) الاصمعيات ٥٩ والدعس يعنى أثر المشى وسخلا يريد ولد الناقة .

(٤) مهلب الاغانى ١٠/٥ والمئس الناقة ومعجمة شخمة وامون مأمونة السير والمئدة الثرية وتزيف تسرع والمواهة المواطبة .

(٥) الحدثن الليل والنهار يعنى ما يخبطانه من بلاء ووبار أرض زعم العرب أنه لم يطأها أحد .

وهذه الناقة التي صاحبت حياته الشاقة العنيفة القاسية ، وشاركته كل ما عاناه ، نظر إليها مالك حين أشرف على الموت ، فتألم لفراقها ، وأحس أنها ستألم أيضا لفراقه ، وأنها ستحزن وتحن إليه حيننا يفلق الأكباد فيقول :

وعطل قلوبى فى الركاب فانها ستفلق أكبادا وتبكي يواكيا

وجحدر بن معاوية حين وضعه الحجاج فى السجن ، حن الى ناقته طيمة الزمام ، التي كان يرحل بها الى أماكن حبيبة الى نفسه فيقول :

نظرت وناقضى على تعاد مطاوعة الأزيمة ترحلان
الى ناريهما وهما بعيد تشوقان المحب وتوقدان (١)

وعبد بن الطبيب يهيم بناقته هيأما جعله يخصها بنحو عشرين بيتا من قصيدته اللامية الطويلة (٢) وهى من أجمل ما وصفت به الابل ، وفيها يقول ان طرف خفها يترك فى الأرض أثرا كأنه الأزميل يقطع الجلد ، وأنها مع سرعتها تجدها تقصا وترجيعا كأنه الدلال ، وأن طرف منسما من طول المتابعة ومصادمة الحصى فلل ، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنها غربالان ينفيان الوغل الردى فيقول :

عيهه ينتحى فى الأرض منسما كما انتحى فى اديم الصرف أزميل (٣)
تخذى به كلما طورا وترجعه فحده من ولاف القبض مفلول (٤)
ترى الحصى مشفرا عن مناسما كما تجلجل بالوغل الغرابيل (٥)

ولم ينس مالك بن حريم الكرم العربى فى نحر الابل ، فهو يقول انهم يعطلون البعير اذا عجز عن السير ويطمعونه الناس ان سمن .

اذا ما بعير قام علق رحله وان هو اتقى الحموه مقطعا (٦)

(١) أمالى القالى ١٢٥/٣ المرتبة .

(٢) الفضليات للصبى ١٣٤ وعدتها واحد ولما تود بيتا .

(٣) عيهه شديدة ينتحى يعتمد والمنسم طرف الخف والصرف الجلد والازميل يعنى كقطع الجلد بالشفرة .

(٤) تخذى تسرع وبه يعنى المنسم والولاف المتابعة فى المشى والقبض النزو ومفلول تنلم .

(٥) مشفتر متفرك وتجلجل تحرك الوغل الردى يعنى مناسما تميزا لحصى الكبير من الصغير فى تفريقه كما تقلل الغرابيل بالحصى .

(٦) الاصمعيات ٥٩ وقام عجز عن السير واتقى سمن ورواية الاصمعي ابقى .

الأسلحة غير المنظورة

وليس ما تقدم من الأسلحة والوسائل كافيا لأن يجعل شخصا ما صعلوكا من الصعاليك ، ولا أن يجعل الصعلوك ناجحا في ميدان الصعلكة ، فالأسلحة والوسائل السابقة ميسورة لكل الناس ، فمن اليسير على أى شخص أن يملك سيفا وقوسا ومطية ثم يتوجه الى أى مكان من الصحراء أو الجبل ، ولكن هل هذا يكفى لأن يكون صعلوكا بالمعنى المفهوم ؟

ومما لا شك فيه أن ذلك لا يكفى مطلقا لأن يكون الوسيلة الوحيدة الى الصعلكة ، لأن هذه الوسائل كما قلنا يكاد يشترك فيها أفراد العرب جميعا ، فالسيف والمطية من لوازم كل عربى ، والبيئة ملك مشاع للجميع ، أعنى البيئة التى كان يتخيرها الصعاليك ليتخذوا منها مواقع لمزاولة عدوانهم أو الاحتماء من آثار هذا العدوان كالمراقب والمجاهل والمغارات ، ومع شيوع هذه الوسائل بين أفراد العرب ، فلم يكونوا جميعا صعاليك وإنما كان الصعاليك قلة بارزة فى حياتهم ، ونعود فنسأل : لما أذن تهيأ لهذه القلة أن تتحكم فى هذا الميدان ؟ مع أنه كان ميدانا مرموقا وخاصة فى الجاهلية ، وكان كثير منهم يتمنى لو نجح فيه كما ينجح الصعاليك ، أو على الأقل لا يرى غضاضة فى أن يكون من هؤلاء الصعاليك الذين تتردد أسماؤهم فى أرجاء الجزيرة مقرونة بالرهبة دائما ، وبشيء من الإعجاب فى كثير من الأحيان ، ولكن هؤلاء الكثيرين لم ينجحوا فى الصعلكة ، وإنما نجح فيها قلة بارزة .

ولا نعتقد أن الإجابة عن ذلك عميقة أو ملتوية ، فالواقع أن الأسلحة الأولية والأساسية للصعلكة ليست السيف والمطية والمكان ، وإنما الأسلحة الأولية والأساسية هى المقومات الذاتية والصفات الشخصية التى ينبغى أن تتوفر أولا فى الشخص ، ثم تدعمها تلك الأسلحة والوسائل وفى الذى سبق من الوسائل وسيلة واحدة تعتبر من الأسلحة الأولية وهى سرعة العدو ، لأنها أيضا من المقومات الذاتية فى الشخص ، ولتوضيح ذلك قليلا نقول أن ما فى حياة الصعاليك من متاعب وقسوة ، لا يمكن النظر اليه من زاوية واحدة ، وبالتالي لا يصلح له سلاح واحد ، ومثال ذلك أن فى حياتهم كثيرا من الزوايا والمواقف لا يصلح فيها السيف ولا غيره ، ولا ينقذ منها مخبا أو غيره كالعطش الذى يتعرضون له كثيرا بحكم حياتهم فى الصحراوات ، وتنقلهم بين المجاهل والقفار ، وكذلك الجوع ، وكذلك الشعور بالخوف والوحدة ، وكذلك الوفوع فى مازق كمحاصرة الأعداء للصعلوك ، ونواحى أخرى كثيرة ، هذه النواحى لا تصلح لها الا مقومات ذاتية فى الشخص .

ومن هذه المقومات العدو ، وكان يمكن أن يكون حديثه هنا ، ولكننا آثرنا الحديث عنه مع الوسائل السابقة ، التزاما للتفريق بين الوسائل المنظورة وغير المنظورة .

فالأسلحة أو الوسائل غير المنظورة نعى بها المقومات الشخصية ، والصفات الخاصة التى ينبغى أن يتصف بها شخص ما اذا أراد أن يكون صعلوكا ، والذى من اجل فقدانها لم يتهيا النجاح - من زاويتهم هم - فى الصعلكة الا لأفراد فى كل قبيلة أو حى .

ومن أهم هذه المقومات الذاتية قوة الإرادة التى تمكنه من مواجهة المواقف الكثيرة الصعبة التى يتعرض لها ، والتى تجعل منه شخصا غير متردد فى المواقف التى يفسدها التردد وضعف العزيمة ، وكذلك الصبر وقوة الاحتمال ، مما يتيح للصعلوك احتمال قسوة الحياة التى يعيشها ، والحرمان الذى يعانيه ، والجوع والعطش اللذان ما أكثر ما يعرضان فى حياة الصعلوك كما رأينا فى شعرهم ، وكذلك الاستهانة بالموت ، فالموت مترصد لكل صعلوك فى كل وجه من وجوهه ، ان لم يكن من الأعداء فمن الوحوش وهوام الأرض ، ومن الضلال فى المجهل وفقدان ضروريات الحياة كالماء والطعام ، فالجوع من الموت لا يصلح قط بين الصعاليك ، وكذلك الجرأة ، فالصعلكة تقوم على العدوان ، والمفروض فى الصعلوك أنه البادى دائما بالسطو والعدوان ، فلا بد له اذن من أن يكون جريئا مقداما ، وكذلك الحذر واليقظة ، فالصعلوك محاط دائما بالأعداء من الناس وغير الناس ، وكما أنه متربص بالناس فبالناس متربصون به ، فاذا لم يكن حذرا يقطا فانه سيكون ضحية لأول رصد يلقاه ، وكذلك الحيلة وحسن التخلص فالصعلوك الدائم التنقل والتجول فى أماكن مخفوفة بالمخاطر والكائنات لابد أن يتوقع المآزق وبالتالي لابد أن يكون مهيا للتصرف السريع ، وحسن التخلص من المآزق .

وقد كان يمكن أن تعد هذه الوسائل أو الأسلحة صفات للصعاليك دون أن تسلك فى عداد الأسلحة ، ولكن الواقع أنها وان كانت بالنسبة لغيرالصعاليك مجرد صفات ، الا أنها بالنسبة لهم ليست مجرد صفات ، وانما هى وسائل كالأسلحة الحقيقية اعتمدوا عليها اعتمادا أساسيا - كما سنرى فى صعلكتهم ، وفى صراعهم مع الظروف والأعداء ، فاستغلوا كل صفة منها بأقصى ما يمكن الاستغلال حتى جعلوها أسلحة واضحة فى حياتهم .

ومن الواضح أننا لا نعى أن تكون هذه الوسائل كاملة جميعا فى كل صعلوك ، ولا أن الصعاليك جميعا فى درجة واحدة من هذه الوسائل والصفات ولكن الذى لا شك فيه أن الصعاليك جميعا كما يبدو من شعرهم وأخبارهم ، وكما يفرض تصورنا لحياتهم وظروفهم لابد لكل منهم أن يتصف بقدر واف من هذه الوسائل كلها ، واذا فقد جانبا منها فلا بد أن يكون فيه من الجانب الآخر قوة مضاعفة تعوض هذا الفقدان ، والا فيمقدار بعده عن هذا المستوى بمقدار ما يكون فاشلا بين الصعاليك .

١ - قوة الإرادة

حين نستعرض شعر الصعاليك نرى فيه بوضوح أنه ينبع من أشخاص يعتزون بمقامات كثيرة ، تدور كلها حول قوة الشخصية واعتزازها بكيانها ، وعدم خضوعها أو خضوع سلوكها إلا لما تمليه إرادة الشخص نفسه ، وما يريته لها هو من اتجاه ، ولست أريد أن أذكرى الصعاليك قبل أن أستعرض ما يمكن أن يكون فيه تزكية لهم ، ولكننا بصفة عامة نستطيع أن نقول أن السوء ليس كله فى الصعاليك ، وإنما فى الظروف التى أحاطت بهم ، ثم انعكس بعض هذا السوء عليهم ، ومهما نعتقد فى الصعاليك من سوء ، فلا شك أن فيهم من الصفات ما يحملنا على تقديرها . وعلى الاعتقاد بأن هذه الصفات لو وجدت ظروفًا خيرا من الظروف التى أحاطت بالصعاليك لكان يرجى أن يكون شرهم خيرا لهم وللناس ، ولأن يرجى خير كثير لهم ولمجتمعهم من هذه الصفات التى تحلوا بها ، والتى لا شك أنها لذاتها فضائل ، ولكنهم لم يجدوا مجالا يستفيد من هذه الصفات ، فحولوها إلى أسلحة تدمير وعدوان من باب قولهم :

إذا أنت لم تنفع فاضرب فانمسا يرجى الفتى كيما يضرب وينفعا

ومن أبرز ما يطالعنا من هذه الصفات الواضحة فى شعرهم ، والتى ينبع منها كثير من الصفات الأخرى قوة الإرادة والحزم ، بحيث يمثل لنا شعرهم الصعلوك ماضيا دائما فى غير تردد ولا وجل ، يجعل من عزمه وإرادته ورأيه الهادى الوحيد له والدافع الوحيد لسلوكه كما يحدثنا سعد بن ناشب بأنه إذا هم بشيء ، فليس هناك شيء قط يستطيع أن يثنيه عن همه ، ولا أن يخيفه من مضيه ، لأنه يضع عزمه كله ، وعزمه وحده ، بين عينيه ثم يمضى بعزمه هو ، وعلى ضوء رأيه هو ، وبصحبة سيفه هو ، ولا شيء غير ذلك فيقول :

**إذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يات ما يأتى من الأمر هائبا
إذا هم القى بين عينيه عزمه وتكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض الاقائم السيف صاحبا (١)**

ويقول أيضا عن نفسه مرددا هذا الشعور الذى يملأ عليه نفسه :

إذا هم القى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذى الأثر (٢)

وهذا صعلوك آخر يردد هذا المعنى أيضا ، قائلا أنه لا يقيم لرأى الناس وعذلهم ميزانا لأنه لا يتأثر برأى الناس إلا العاجزون ، أما الجازم فانه ماض وراء حزمه ، مشيح عن تثبيط المثبطين فيقول :

(١) حساسة أبى تمام ١٦/١

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧٢/١ والسريجي السيف والأثر الصلابة والمضاء .

غلام اذا ما هم بالفتك لم يبسل الا مت قليلا ام كثيرا عواذله
وما العجز الا ان تشاور عاجزا وما الخزم الا ان تهم فتفعلا (١)
ويبين عروة بن الورد سبب اعراضه عن رأى الناس ومشورتهم ، بأنه
يرام لا يجيبهم حال ، فان زاول الصعلكة لاموه ، وان كف عنها افتقر فعيروه
بفقره كما يقول :

وقد عروني المال حين جمعته وقد عروني الفقر اذ انا مقتر (٢)
ولذلك صمم على أن يعتمد على حزمه ، وأن يجعل أمره دائما مزما .
لا يستشير فيه أحدا ، ولا يصد عنه شيء ، فيقول :

ساغنيك عن رجع الملام بمزجم من الأمر لا يعيشو عليه المطاوع (٣)
ويشير عروة الى اعتماده على رأيه وحده ، والى أنه لا يتقاد قط الا لما تمليه
عليه ارادته يشير الى ذلك في قصة اليهود من بنى النضير ، حين نزل بهم عروة
ومعه سلمى زوجه التي كان أمرها من مزينة ثم تزوجها ، فراقت المرأة في
جمالها لليهود ، فاحتالوا على عروة وغرروا به ، وظلوا يتنادمونه ويسقونه
الخمر ، حتى سكر ، وظل يطلب شرابا ، فطلبوا منه أن يرهن زوجه ثمنا لما
يشرب ، وظل يشرب مستزيدا في رهنها حتى غلق الرهن ، وأصبحت المرأة
ملكا لهم ، وحين صبحا عروة من سكره أنكر ما صنع ، وعجب كيف يفعل شيئا
لم تمله عليه ارادته وضميره ، وكأنه ألف من نفسه أنه حتى السكر لا يحول
بين سلوكه وارادته وضميره فيقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب ووزور
فيا للناس كيف غلبت أمرى على شيء ويكرهه ضميرى (٤)
وأما تأبط شرا فانه يقول : أنه اذا هم بشيء ولو لم يتحدث به فلا بد
من نفاذه ، فكيف به اذا هم وقال ؟

وكنيت اذا هممت اعتزمت وأحر اذا قلت أن افعل (٥)
والأعلم الهذلي يدمى وجه زوجه اذا حاولت أن تثنيه عن عزمه مهما تعللت
بالأسباب فيقول :

يلمى وجه حنته اذا ما تقول تلفتن الى العيال (٦)

- (١) الكامل للمبرد ١٢١/١ .
(٢) ديوان عروة بن الورد ٩٦ .
(٣) ديوان عروة بن الورد ١٠٠ .
(٤) أنظر الأغاني للأسفهانى ٢٨٠/٣ .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ .
(٦) ديوان الهذليين ٨٣/٢ وحنته زوجه يعنى يضربها حتى يدمى وجهها اذا أرادت منه
من مخاطر الصعلكة بحجة حاجة العيال اليه .

ومالك بن الريب يحدثنا بأنه حين يهيم بالأمر لا يكتفى بمجرد انفاذه ، وإنما يصمم على أن يكون انفاذه عاجلا غير متأن ، وأنه لم يكن قط مشقت العزم متردد الهمة ، مهما تفاقمت أمامه الخطوب ، ومهما اشرأبت له المخاطر فيقول :

وما أنا بالنائي الخفيضة في الوغى ولا المتأنى في العواقب للذي
أهم به من فاتكات العزائم على غمرات الحادث المتفاقم
قليل اختلاف الرأي في الحرب باسل جميع الفؤاد عند حل العظام (١)

وحين نبحث في شعر مالك بن الريب لنرى ما يجعله يتشبث بهذا العزم ، ولا يحيد عن هذا الصراع ، نجده مرتبطط بشيئين ، أحدهما خشية أن يجد نفسه مضيقا تأفها في مجتمعه ، والآخر رغبته في أن يثبت وجوده وكيانه في المجتمع ، وهو ما يعبر عنه هو وبعض الصعاليك بالمعالي والمجد فيقول عن الأمر الأول الذي يخشاه :

وما أنا كالغير المقيم لأهله على القيد في بجوحة الضيم يرتع (٢)
ويقول عن الأمر الثاني الذي يتطلع إليه ، ويحرص على أن يكونه :

ليس شيء يشاؤه ذو المعالي بعزيز عليه فادعى المجيبا (٣)
على أنه لا ينبغي أن نفعل أن صفة الإرادة والحزم لا يستدل عليها بالنسبة للصعاليك بمثل هذه المعاني التي يصرحون بها في شعرهم عنها ، ولكن الواقع أن هذه الصفة تبدو واضحة وراء شعرهم كله ، ففي كل موضع يتحدثون عنه. تحس بأن المتحدث ليس شخصا عاديا ، وأن هذه المعاني ليست من مجرد شاعر يصوغ المعاني وينتقي الألفاظ ، وإنما وراء ذلك كله شخصية ذات كيان ، وذات إرادة محسوسة ، ومثال ذلك حديثهم عن الجوع ، وعن حياة المراقب ، فأنسا نحس من خلال صراهم فيهما أننا أمام عزائم صلبة ، وإرادات متميزة .

وكذلك أخبارهم ، فيما يتعلق بتحملهم للمشاق ، ومواجهتهم للمخاطر وشعرهم في ذلك وأن كانت ستأتي له أحاديث تخصه ، إلا أن فيه ولا ريب جانبا من قوة الإرادة كبيرا ، ومثال ذلك قصة أبي خراش الذي أصابه الجوع أياما ، ثم رزق على هذه المخمصة الشديدة ذبيحة شهية ، حين شم شواء اللحم قرقر بطنه ، وإذا هو يطلب من المرأة التي ذبحت له الذبيحة شيئا مرا ، فيأكله أو يشربه ، نكاية في بطنه الذي أراد الخروج على إرادته ، ثم يصمم على أن لا يذوق الطعام ، ويمضى في طريقه بجوعه هذا الشديد (٤) .

(١) مهذب الأغاني ١٥/٥

(٢) المصدر السابق ١٣/٥

(٣) المصدر السابق ١٥/٥

(٤) انظر الأغاني للأصفياني ٦٠/٢١ م بولاق

٢ - الصبر

وهناك صفتان تعتبران أثرا من قوة الإرادة ، هما الصبر والجرأة ، وقد تبدو الجرأة لكونها صفة ايجابية أقرب الى قوة الإرادة من الصبر ، ولكن الواقع العكس ، فالصبر المرتبط بالإرادة ، اعنى الصبر الذى يتحكم فيه صاحبه وليس الذى يكون نوعا من الضعف وخور العزيمة - ذلك الصبر هو الدليل الحقيقى على قوة الإرادة والتحكم فى النفس ، ولذلك نجد أقوى الناس هم أقدرهم على ضبط أنفسهم فى المواقف العصيبة التى توصف بأنها ثبات ، أو بأنها حلم ، أو غير ذلك من المواقف المختلفة ، أما الجرأة فيمكن أن ينظر إليها من زاويتين ، أحدهما جرأة مرتبطة بالإرادة ، وقد تسمى شجاعة ، وهى المرتبطة أيضا بالإرادة ، بمعنى أن يكون صاحبها يتحكم فى إرادته ، ضابطا لتوجيه هذه الجرأة ، فتنعكس قوة إرادته على جرأته وتوجهها بقيادة هذه القوة ، وأناحية الأخرى من الجرأة ، جرأة لا تملئها الإرادة ، وإنما تملئها انفعالات عابرة ، غير ثابتة ولا مستقرة ، كالغضب والمفاجأة ، وهذا النوع الذى لا تملئها الإرادة الثابتة لا يعتبر من قوة الإرادة ، وإنما هو فى أغلب حالاته نوع من ضعف الإرادة ، وفقدان السيطرة على النفس ومشاعرها ، وقد نجد تفسيراً للتفريق بين هذه الأنواع فى الحديث الشريف «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم حين رجعوا من بعض الغزوات «رجعنا من الجهاد الأسفر الى الجهاد الأكبر» ، يعنى جهاد النفس .

والواقع أن نصيب الصعاليك فى جملتهم من الصفتين كان موفورا ، وإن كلا من الصفتين الصبر والجرأة ، كان مرتبطا بقوة الإرادة فيهم الى درجة كبيرة .

فأما الصبر ، فإننا حين نستعرض حياة الصعاليك من أخبارهم ، ومن تصوير شعرهم نجد أن حياتهم كلها كانت تقوم على الصبر الشديد الذى لا يقوى عليه غيرهم ، ولا تطيقه نفوس غير نفوس الصعاليك .

فحين ننظر الى الشنفوى مثلا وهو يقاوم الجوع الشديد المضى ، فيظل يحتمس ، ويقاوم ، ويتجاهل ، حتى يكاد ينعدم لديه الشعور بالجوع ، حيث يقول :

أديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١)

ولذلك يرى نفسه ليس صبوراً فحسب ، وإنما هو مولى للصبر متحكم فيه ، ولتعوده الصبر أصبح ثابت المشاعر ، لا يشتكى الجوع كما قال ، ولا يجزع من الفقر ، ولا يفرح بالفضى ، ولا تثيرة حماقات الجاهلين فيقول :

(١) من اللامية : سبق ذكر نصها مشروحا .

وانى لمولى الصبر اجتاب بزه على مثل قلب السمع والخزم الفعل
واعدم احيانا واغنى وانما ينال الفنى ذو البعدة المتبدل
فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الفنى اتخيل
ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا ارى سثولا باعقاب الاحاديث انمل (١)

ولئن كان الشنفرى صبورا على الجوع ، فان عبيد بن ايوب صبور على
العطش ، فهو يحدثنا عن أنه هو وناقته يصبران على العطش امدًا طويلا كصبر
الضب على العطش فيما تزعم العرب فيقول :

ظلمت وناقتي نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغى ورودا (٢)

وصورة أخرى من صور الصبر ، يحدثنا عنها عمرو ذو الكلب ، وهي
صبره اليوم الطويل على الإقامة فى مرقبة موحشة ، مختبأ كأنه الخيال لا يراه
انسان فيقول :

أقمت بريدها يوما طويلا ولم اشرف بها مثل الخيال (٣)

وكذلك صبر الشنفرى على أن يبيت الليل كله فى مرقبة محدبا منحيا
على حد زراعيه حيث يقول : « فبت على حد الذراعين محدبا » (٤)

وعروة بن الورد يحدثنا أيضا عن صورة من صور صبره فيقول :
صبور على رء الموالى وحافظا لعرضى حتى يؤكل الثبت اخضرا (٥)
ويقول ان صبره أقوى من كل حدث ، فلا شيء قط يدفعه الى شكوى
أو جزع :

فلا انا مما جرت الحرب مشتك ولا انا مما احدث الدهر جازع (٦)

وكل ما فى حياة الصعلكة لا يقوى عليه الا الرجل الصبور ، فحياة الصعلكة
من حيث هى نموذج للصبر الشديد على حياة قاسية مجهدة محفوفة بالمخاطر
من كل جوانبها ، وفى كل خطواتها ، وقد صبر الصعاليك على حياتهم ، ولكنهم
يواجهون آلاما خارج حياة الصعلكة ، فيصبرون أيضا ، كما يحدثنا أبو خراش
عن صبره على موت أخوته فيقول :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى (٧)

(١) من اللامية •

(٢) انظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ •

(٣) ديوان الهذليين ١١٩/٣ •

(٤) مهذب الاغانى ٩٥/١ •

(٥) ديوان عروة ٩١ •

(٦) ديوان عروة ٩٩ •

(٧) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ •

وهو يحدثنا عن أن مظهره لا يدل دائما على دخيلته ، لأنه يصبر على أمور لا يبيديها فيقول :

وقد امنوني وطمعت نفوسهم ولم يعلموا كل الذي هو داخل (١)

٣ - الجرأة

وكون الصعاليك شجعانا أمر لا يثأز فيه . فان طبيعة حياتهم التي تعتمد على العدوان والصراع الدائم مع الناس لا يصلح لها الا رجل شجاع ، ولكننا نريد أن نبرز الجانب الذي يميز شجاعتهم عن غيرهم من شجعان العرب ، وهذا الجانب يتمثل في الجرأة ، بمعنى أن صفة الشجاعة فيهم لا تحتاج الى تدليل وتوضيح ، وإنما الذي يحتاج الى توضيح مظهر شجاعتهم ، أو طريقتهم في استخدام هذه الشجاعة وإظهارها ، وطريقتهم أو طابع شجاعتهم هو الجرأة ، وتمثل جرأتهم في المخاطرة والمجازفة التي تشبه من يسمون في التعبير الحديث الفدائيين ، ولعله أقرب الأوصاف الى طابع شجاعة الصعاليك ، فالصعلوك أشبه ما يكون بالفدائي ، غير هيب للموت ، لأنه غير حريص على الحياة (وسنرى افاضة شعر الصعاليك في الاستهانة بالموت) وهو دائما البادي بالعدوان أو الصراع ، ولا يلقي كبير بال لما تتمخض عنه الأحداث والأيام من نتائج ، وبما يبلغ من سوء النتائج في توقعها فان ذلك لا يفرعه ولا يثنيه ، حيث أنه وضع في مقدمة احتمالاته دائما الموت ، وهو شر ما يتوقع ، فكل ما هو دون الموت حين يسير بالنسبة اليه .

ولذلك كانت مواقف الصعاليك وحياتهم تتسم دائما بالجرأة ، وعدم المبالاة بالنتائج ، ولو كان من بينها الموت ، حتى أنه ليس من المبالغة أن يقال أنهم يسعون الى الموت أكثر مما يسعى هو اليهم .

وهذا سعد بن ناشب يبلغه ان الوالى هدم داره مطاردا اياه ، فيقول متحدئا عن جرأته ، ومظهرا استعداداه لمواجهة الموت ، بل ساعيا اليه في مقدمة الساعين :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| فان تهلموا بالفرد داري فانها | تراث كريم لايبالي العواقب |
| أخي غمرات لا يريد على الذي | يهم به من مخطط الامر صاحبا |
| فبا لزام وشحوا بي مقصدا | الى الموت خوفا الى الكتائب |
| اذا هم ألقى بين عيني عزمه | وتكب عن ذكر العواقب جانبا (٢) |

(١) ديوان الهذليين ١٢٤/٢ .

(٢) حسنة أبي تمام ١٥/١ ، ١٦ .

وتأبط شرا يقول أنه وقف حياته على طلب الثار ومقارعة صناديد الفرسان
الذين توازرهم أقوامهم في حين أنه هو لا يعتمد على أحد ، ويضيف معنى نبلا
قلما نجده في شعر الشجعان ومفاخرهم ، وهو يقول أنه في قتاله واستبساله
لا يهدف إلى أن يوصف بالشجاعة

قليل غرار النوم أكبر همه دم الثار أو يلقي كميا مسفعا (١)
يماصعه كل يشجع قومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وجحدر بن ضبيعة يأبى أن يجز شعر ملته كما فعل قومه من بكر ، حين
تعاقدا على خلق رؤوسهم في إحدى مواقعهم مع تغلب لتكون علامة يعرف بها
بعضهم بعضا ، ولكن جحدرا صعلوكهم الشاعر الفارس يقول لهم : دعوا لمتي
أول فارس يطلع غدا من الثنية ، يعني أنه سيكون أسبق قومه إلى القتال
في الموقعة ، وأنه سيجالد أول فارس يطل عليهم من أعدائهم ، فلم لا ينكرون
ناصيته لهذا الفارس يجزها إن لم يستطع هو أن يقتله ؟ ثم يقول لهم شاعرا ،
ردوا على الخيل في الحرب فانا فارسها ، فان لم أفعل فلمتى حل لكم ، وقد علمتم
بأسي وشجاعتى ، بل إن أمي لتعلم شجاعتى منذ كنت وليدا في لفافاتي فيقول :

ردوا على الخيل إن الملت أن لم انا جزها فجزوا لمتي
قد علمت والدته ما ضمت ما لففت في خرق وشمت (٣)

والذى يعنينا أكثر من غيره في هذه القصة ، هو أنه لا يلتفت نظرا مجرد
شجاعة جحدر ، فقد يكون قومه أو فرسانهم جميعا أو بعضا شجعانا ، ولكن
الذى يلتفت النظر تحفز جحدر لأن يكون أول مقاتل وساع إلى القتال ، وهو
من معنى الجرأة الذى تعنيه ، وعروة بن الورد سريع الاستجابة لداعى الوغى
فيقول :

إذا قيل يا ابن الورد اقدم إلى الوغى أجبت فلاقاني كمى مقارع (٤)

ويبين عروة سبب اقدامه وجرأته ، فيقول أنه عدم الحرص على الحياة ،
وعدم الجزع من الموت :

فان فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر (٥)

(١) حماسة أبي تمام ١٨٩/١ والكمى الشجاع والمسفع المتغير لون الوجه من الحمى والغضب

(٢) يماصعه يجالده ويقاتله ويشجع قومه يعني يشجعه قومه والشطر الثانى معنى أن

تأبط شرا لا يفعل ذلك ليوصف بالشجاعة .

(٣) حماسة أبي تمام ١٩٥/١ والمث نزلت والبيت الثانى معنى أن أمه تعلم شجاعته
منذ كان في لفافاته رضيعا . ويسمى هذا اليوم يوم التحاللق لخلق بكر رهوسها فيه وقد انتصروا
على تغلب .

(٤) ديوانه ص ١٠٠ .

(٥) الاصمعيات ص ٣٧ .

وصخر الفى يتحدث أيضا عن سرعة استجابته للقتال فيقول :

وكننت اذا سمعت دعاء داع أجبت فلا ألف ولا مكيت (١)

ويصف لنا نفسه حين يجيب داعى القتال بأنه « ذو مبادهة » يعنى بذلك انه صاحب البدء والمفاجأة بالقتال ، وانه ماض على الهول ، وأنه مقدم الوغى ، وأنه بطل فيقول :

أبا المثلم انى ذو مبادهة ماض على الهول مقدم الوغى بطل (٢)

ولم يكن وصف صخر لنفسه خيال شاعر ، فان الغريب أن خصمه أبا المثلم الهذلى ، الذى يخاطبه صخر بهذا الشعر ، لم ينكر على صخر ما وصف به نفسه من هذه الصفات وغيرها وقد اعترف بذلك فى منافراته الشعرية الكثيرة بينه وبين صخر (٣) وأبو خراش يقبول أنه يتقدم المغيرين ليهديهم فى دجى الليل ، وليكون أسبقهم الى القتال :

وانى لاهلى القوم فى ليلة الدجى وارمى اذا قيل هل من فتى يرمى (٤)

وأما سعد بن ناشب فانه يلتزم تجاه أعدائه طابعا من الشراسة والفظاظة الدائمة ، حتى يحتفظ على نفسه كيائها وهيبتها ، أنه فى الشدائد التى تثقل على الفرسان وأبناء الحروب يكون هو من أبر أبناء الحرب بها فيقول :

فانا اذا ما الحرب ألفت قناعها بها حين يجفوها بنوها لأبرار (٥)

ويقول عن تلك الشراسة وسبب تمسكه بطابعها ، وميدان توجيهها :

| | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| تفندنى فيما ترى من شراستى | وشدة نفسى وما تلوى |
| فقلت لها ان الكريم وان حلا | ليلقى على حال امر من الصبر |
| وفى اللين ضعف والشراسة هبة | ومن لم يهب يحمل على مركب وعر |
| وما بى على من لان لى من فظاظة | ولكننى فظ أبى على القسر |
| أقيم ضغاضى الميل حتى أرده | وأخطمه حتى يعود الى القدر (٦) |

ومالك بن الريب يحكى صورة من قتاله عدوه فيقول :

(١) ديوان الهذليين ٢٢٤/٢ والألف ، الضعيف والمكبث من المكث وهو التقاعد .

(٢) ديوان الهذليين ٢٢٩/٢ والمبادهة المفاجأة .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤١

(٤) المصدر السابق ١٢١/٢ .

(٥) المصدر السابق ٢٧٣/١ .

(٦) المصدر السابق ٢٧٠/١ ، ٢٧١ والصفا المروج والخطم من اسماك خظام الدابة ، والقدر

خزها واني لضراب اذا اختلقت ايدي الرجال بضرب يختلي البصلا(١)

وحين تسلل ذئب ليفترسه صرعه مالك بسيفه ثم قال مخاطبه :

فانت وان كنت الجبرى جناه منيت بضرام من الأسد الغلب
فلست ترى الا كميا مجدلا يدها جميعا تثبتان من التوب (٢)

واما عبيد بن أيوب فيشبه نفسه بالصقر المتحفز دائما للانقضاض فيقول:

لكا لصقر جل بعدما صاد فتية تديرا ومشويا عيطا خرادله (٣)

٤ - الاستهانة بالموت

لو كان بالصعاليك حرص على الحياة كما يحرص سائر الناس ، ولو كان بهم نفور من الموت كما ينفر سائر الناس لما تسنى لهم أن يكونوا صعاليك ، ولكن الصعاليك لا يحرصون على الحياة ولا يرهبون الموت كما يرهبه سائر الناس ، ولذلك تسنى لهم أن يعيشوا حياة تقوم على المخاطرة والمبادأة كما يقول صخر الغي (٤) ، وعلى ترقب الموت ، ليس من الأعداء والناس فحسب ، وإنما من كل وجه من وجوه حياتهم بوحوشها وحياتها ومجاهلها وغير ذلك

ولئن كان بعض الناس من غير الصعاليك يتحدثون عن الاستهانة بالموت ، فاننا في سبيل محاولتنا دائما أن نبرز خصائصهم التي تميزهم عن غيرهم ، نقول أن الذين يتحدثون عن الاستهانة بالموت من غير الصعاليك يربطون ذلك بمواقف معينة يرون فيها أن الموت خير من الحياة ، وأن الذي دعاهم الى الاستهانة بالموت في هذا الموقف إنما هو مقارنة بين الموت وموقف أو نتيجة أسوأ منه ، كالمقارنة بين الفرار في الحرب والموت ، حين يرى المقاتل أن الموت خير من عار الفرار أحيانا ، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلي عن الذود عن العرض ، حين يرى الذائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار ، وهكذا ، في مواقف معينة

(١) مذهب الأغاني ١٣/٥ وخزها بمعنى الضربة واختلاف الأيدي أن يضرب كل منهما ضربة مما والبصل بيضة الحديد يضمها المقاتل على رأسه .

(٢) مذهب الأغاني ١٦/٥ .

(٣) كامل البرد ٢٠٠/١ وجل نظر مستشرفا للانقضاض وقديرا مطبوخا في قدر والعبيط اللحم الطرى والخرادل يعني القطع يريد أنه بعد هجره حياة الناس أصبح كالصقر يعيش على الفرائس والبيت الذي قبله : فاني وتركى الانس من بعد حبهم وصبري عن كنت ما أن أزايله .

(٤) ديوان الهذليين ٢٢٩/٢ .

محددة ، ولكن نظرة الصعاليك فى جملتهم الى الموت غير ذلك ، انهم يستهينون بالموت لذاته ولو بغير مقارنة بينه وبين موقف آخر ، وكأن شعور الاستهانة بالموت صفة أصيلة دائمة فيهم لا يثيرها موقف معين ، ولا يتوقف ظهورها على ظرف من الظروف كما يلاحظ ان ذلك بالنسبة لغيرهم من المستهينين بالموت هذا فضلا عن أن المستهينين بالموت من غيرهم أفراد قلّة فى مجتمعاتهم ، مما يضفى على مواقفهم طابع الشذوذ والتميز الذى يدعوهم الى الفخر بها ، ويدعو الناس الى الاعجاب بهذه المواقف لأنها غير مألوفة ، أما بالنسبة للصعاليك ، فهذا الشعور يبدو من شعرهم وأخبارهم ليس فى أفراد أو قلة منهم ، وإنما هو شعور عام يغلب عليهم جميعا فى جملتهم ، حتى أننا نجده الأمر فى مقارنتهم بغيرهم معكوسا ، فبينما يعتبر المستهين بالموت من غير الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور عن الكثيرين من مجتمعه ، يعتبر الهياپ للموت من الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور بين الصعاليك ، وليس هذا بالغريب ، فالمألوف فى الناس من غير الصعاليك الحرص على الحياة والرغبة من الموت ، والذى يشذ عن هذا الشعور ، يعتبر منفردا متميزا بينهم ، وأما الصعاليك فشعورهم العام عدم الحرص الشديد على الحياة ، فالذى يحرص عليها هياپا للموت يعتبر ، شاذا منفردا بينهم ، ولذلك يجد الدارس لحياة الصعاليك وأشعارهم نشزا بارزا أمامه حينما يجد حديثا أو شعرا عن فرار أحدهم فى موقف وان كان عصيبا ، كبعض أخبار حاجز الأزدي (١) وأبى خراش الهذلى (٢) ، على أننا نلاحظ أن هؤلاء كانوا من أشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل ، فكانوا اذا أحاط بهم الأعداء فى موقف يوقنون فيه بالموت يجدون معهم سلاحا خطيرا ، هو العدو ، فكان من الحكمة أن يتخذوا من موهبة العدو سبيلا للنجاة ، ثم يعودون للانتقام من أعدائهم ، فذلك أقرب الى الحكمة من استسلامهم للموت ، ولكن بعض الرواة بالمقياس الذى أشرنا اليه ، وهو شذوذ الهيبة من الموت بين الصعاليك كانوا يرون فى فرارهم هذا شيئا من الغرابة لا لذاته ، وإنما لمقارنته بالمألوف والمتوقع من الصعاليك ، ومن المرجح أن هؤلاء الذين فروا بالعدو ، او لم تكن لديهم وسيلة العدو لآثروا الموت على الاستسلام لأعدائهم ، كما فعل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية حين حاصره جمع من مزينة كانوا مغيرين للفنيمة ممن يجدون منه غرة ، على أسلوب الصعاليك ، فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة ، فأبى قائلا : نفسى أكرم على من الأسر ، ولم يكن قيس من العدائين حتى يحاول النجاة بعدوه ، ولذلك آثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهينا بالموت :

أنا اذا الموت ينال غاليه مختلط أسفله بعاليه

(١) انظر مذهب الاغانى ٩٣/١ .

(٢) انظر ديوان الهذليين ١٤٢/٢ - ١٤٤ .

قد يعلم الفتيان أنى صاليه إذا الحديد رفعت عواليه (١)

وكما قدر تأبط شرا فى نفسه حيث وقع فى مأزق من هذه المآزق ، حين حاصره بنو لحيان الهذليون ، وطلبوا منه أن يستأسر ، فأبى الأسر ، وقدر فى نفسه مقارنة بين الأسر وما يتبعه من رق أو فداء أو منة ، وأيا كان فهو أسر ، وبين الموت ، فلم يتردد فى إثارة الموت إذا لم ينجه احتمال ثالث وهو عدوه المشهور بسبق الحيل فيقول :

هما خطئا ، أما اسار ومنة وأما دم ، والقفل بالحجر أجبر (٢)
وأخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حزم أن فعلت ومصدر (٣)

ولكن حظ تأبط شرا كان حسنا ، إذ نجح احتماله الثالث ، وهو اعمال الحيلة ، ثم النجاة عاديا على ساقيه (٤) والذي يعنينا هو أن تأبط شرا فى تقديره للموقف ، جعل الموت نصب عينيه ، مؤثرا اياه على الأسر حتى مع احتمال أن يمن عليه أسروه ، وهو فى هذا لا يمثل خلقه وحده ، وانما يمثل خلق الصعاليك ، جميعا ، وهذا البعض الذى تحدثوا عنه بالفرار من أفراد الصعاليك ، انما كان موقفهم كموقف تأبط شرا هذا ، لأن الذين تحدثوا عنهم بالفرار كانوا من أشهر العدائين كما قلنا ، وقد فضل صخر الغي موته على الأسر (٥) ، وحديث الاستهانة بالموت من أبرز المعانى التى طرقها شعر الصعاليك ، حتى أنه لا يكاد شاعر منهم يخلو شعره من هذا المعنى ، بل أننا نراه مكررا فى صور مختلفة لدى معظم شعرائهم ، فتأبط شرا يستهين بالموت ، لأنه يعلم أن حياة مثله من الصعاليك الذين يغرون دائما بالأعداء معرضة لمواجهة الموت فى كل حين ، ولذلك فهو مهيب نفسه لاستقباله ، ويزيد تأبط شرا على ذلك أنه يعلم أن الناس يعرفون فيه هذه الصفة ، فينصحون من يعينهم شأنها ألا تتزوجه لأن هامته مهياة لأول سهم يلقاها فيقول :

وقالوا لا تنكحيه فانه لأول فصل أن يلاقى مجمعا (٦)
ثم ومن يغفر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

- (١) انظر الأغاني الأصلهاى ١٤٤/١٤ وما بعدها .
- (٢) حساسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ وخطئا يعنى هما احتمالان اما الأسر واما القتل ، يقول انه يفضل أن يقتل على أن يأسره حتى ولو منوا عليه بعد ذلك باطلاقه بدون فداء .
- (٣) وأخرى يعنى هناك طريقة أو حيلة أخرى يعنى محاولة النجاة وأصاى أشاورو الشطر الثانى يعنى أن محاولة النجاة فيها كل الحزم .
- (٤) انظر القصة فى شرح حساسة أبى تمام عن التبريزى ١٦/١ ، ١٧ .
- (٥) انظر قصة مقتله بشرح ديوان الهذليين للسكرى .
- (٦) حساسة أبى تمام ١٨١/١ ومجمع جماعة يعنى إذا لاقى جمعا سيقتل بأول فصل منهم والأيات منفردة فى القصيدة ولكنها مرتبطة المعانى وسنان الموت فى البيت الآتى يعنى الموت نفسه مشها اياه بالسلاح .

ثم - واني وان عمرت اعلم اننى سألنى سنان الموت يبرق اصمعا

ويحكى تابط شرا صورة من صور عدم مبالاته بالموت حين يمشى حافيا
فى اماكن يعلم أن فيها هلاكه شاعرا بما فى سراه من مخاطرة فيقول :

يسرى على الاين والحيات محتفيا نفسى فداؤك من سار على ساق (١)
ولذلك كله فهو ينصح نفسه ، وينصح غيره ، بأن يستغل ما يملك فى
زكاء نفسه وكسب حمد لها ، لأن الموت متوقع فى كل حين فيقول :

سدد خللك من مال تجمععه حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى (٢)

والشغف يبلغ أقصى الاستهانة والاستخفاف بالموت حين يوصيهم
ألا يدفنوه ، بل يتركوه للضباع توسعة عليها ، لأن الضباع خير من أعدائه
الذين يحرصون على أن يحملوا رأسه يشفون بها صدورهم وصدور أهليهم .
ثم يتركوا جسده فى المكان الذى لافوه فيه يقول :

لا تقبرونى ان قبرى محرم عليكم ولكن أبشرى أم عامر (٣)
إذا احتملوا رأسى وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملقى ثم سائرى

ويؤكد الشغف أن الموت ليس رهيبا ولا مخوفا لديه ، لأنه مستعد
لاستقباله دائما ، ومما يزيد فى اطمئنانه الى الموت أنه لن يكون هناك عمت
ولا خالات بواكى عليه ، لأنه يعيش فى فلواته بعيدا عن الناس ، فضلا عن أن
قومه من أزد اليمن قد انقطعت بينه وبينهم الصلة ، منذ اختطف صغيرا من
بينهم ، وهو الآن فى صحراوات نجد وجبالها ، فيقول عن المعنى الأول :

إذا ما أتتني ميتتى لم أبالها ولم تذر عمتي الدموع وخالتي
ولو لم أرم فى أهل بيتى قاعدا اذن جاءني بين العمودين حمتي (٤)

وأما عروة بن الورد ، فما أكثر ما تحدث عن استهائته بالموت ، واستعداده
للقاته فى كل حين ، فنراه مرة يزجر امرأته التى تنهاه عن المخاطر خوفا من

- (١) المفضليات ٢٧ والسرى السيرفى الليل والأين التعب أو نوع من الحيات ومحتفيا حاليا .
(٢) المفضليات ٣٠ وسدد من سداد الراى وخللك يعنى خصالك يريد أكتسب حمدا بمالك
ولا تدخر فانك ملاق الموت .
(٣) حساسة أبى تمام ١٨٨/١ وأم عامر كنية الضبع يريد أن تقبرونى وإن يكون لى قبر ،
لأنى واثق أن أعدائى الكثيرين سيظفر بعضهم بى فيحملون رأسى ويتركون جسدى للضباع وهذا
المعنى لا يتعارض مع التقديم للبيتين .
(٤) المفضليات ١١٢ ولم أرم لم أبرح والعمودين يريد عمودى الخيمة والحمة الموت بمعنى
حتى لو ظللت مقيما فى أهل بيتى لجاءنى الموت فى خيمتى .

الموت ، يقول لها أنه يريد أن يستقبل الموت وهو يصارع الحياة وصولا الى هدف ، لا أن يستقبله فعيد البيت فيقول :

أرى أم حسان الغداة تلومنى
لعل الذى خوفتنا من أماننا
تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
يصادفه فى أهله التخوف (١)
ويقول لها أيضا :

ذرينى ونفسى أم حسان اننى
فان فاز سهمهم للمنية لم أكن
جزوعا ، وهل عن ذاك من متاخر (٢)
ويقول أيضا :

أليس ورائى أن أدب على العصا
رهينة قعر البيت كل عشية
أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم
فيشمت أعدائى ويسامنى أهل (٣)
يطيف بى الولدان أهدج كالرأل
فكل منايا النفس خير من الهزل

ويقول أيضا أن المنايا متربصة فى كل ثنية يواجهها المرء ، ولا مفر له منها ، فليس من الحكمة أن يتهرب من أمر لابد واقع فيقول :

وان المنايا ثغر كل ثنية
فيهل عن ذاك من متاخر (٤)
ويؤكد هذا المعنى أيضا فى قوله :

مخالف قاع كان عنه بمعزل
ولكن حين المرء لابد واقع (٥)

ولذلك فهو ينصح المرء ألا يترك خوف الموت يذيقه ذلا أو فقرا فيقول :

فقلت له ألا احى وأنت حر
ستشيع فى حياتك أو تموت (٦)

وينصح الصعلوك بأن يبذل أقصى جهده فى صراع الظروف وال فقر ، فان حقق أهدافه طابت نفسه ، وان مات فى سبيل تحقيقها مات محمودا فيقول :

ولله صعلوك صفيحة وجهه
كضوء القابس المتنور (٧)

(١) حساسة أبى تمام ٢٣٨/٢ .

(٢) الاصعيات ٣٦ .

(٣) مذهب الأغاني ٢٣/٢ وما بعدها والحيوان للجاحظ ٣٥٦/٤ والرأل فى البيت التالى

ولد النعام .

(٤) ديوان عروة ٩٦ .

(٥) ديوانه ٩٩ والحين الموت .

(٦) ديوانه ٨٦ .

(٧) حساسة أبى تمام ١٦٠/١٦١ وصفيحة وجهه عرضه والقابس طالب النار من القبس

وكذلك المتنور يريد ظهور الجذ والحركة فى وجهه فى مقابلة ليعيه على الكسل والخمول قبل ذلك .

مظلا على أعدائه يزجرونه
فلذلك ان يلقى المنية يلقها حميدا وان يستغن يوما فاجدر

وأبو خراش يؤثر الموت على حياة ذليلة مهما كانت صورة الذل ، فيقول
في سياق سبب احتماله الجوع الشديد :

مخالفة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (١)

وأما قيس بن متفد فهو متأهب للموت ولو في غير اختيار بينه وبين موقف
آخر فيقول :

فلن تأتني الدنيا بيومي فجاءه تجلني وقد قضيت منها مآربي (٢)

ويزيد العقيلي يجعل من استهائته بالموت ما يشبه الحكمة فيقول :

إذا ما التايا أخطائك وصادفت حميمك فاعلم أنها ستعود (٣)

وسعد بن ناشب يرفض أن يقيموا على هوان مخافة الموت فيقول :

ولسنا بمحتلين دار هضيمة مخافة موت ان بنا نبت الدار (٤)

وأما أبو النشاش النهشل فإنه وإن كان يقارن بين الموت وحياة الحاجة
والعلم ، إلا أننا نحس أنه يركز على استخفافه بالموت لذاته ، ويتناول تهوينه
من جوانب مختلفة فيقول :

فللموت خير للتي من قصوده عديما ومن مولى تد عقاربه
فضى معدا أو مت كريما فأننى أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
ولو كان حى ناجيا من منية لكان أثرا حين جدت ركبته (٥)

وأبو الطمخان انقضى يمثله موته وما يعقب هذا الموت من تركه وحيدا
في لحد ضيق ، وكأنه مترقب لهذا الموت فيقول :

ألا علاني قبل نوح النوائج وقبل ارتقاء النفس فوق الجوائج
وقبل غد ياليف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائج
أذ راح أصحابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد على صفائح

(١) ديوان الهذلي ١٢٧/٢ .

(٢) مذهب الأمانى ٩٣/١ .

(٣) كامل للبرد ٦١/١ .

(٤) حسنة أبي تمام ٢٧٣/١ .

(٥) حسنة أبي تمام ١١٥/١ والاصمعيات ١٢٥ وأثير يبدو أنه شخص كان يضرب به المثل

يعنى لو كان لأحد أن ينجو من الموت لنجا هذا الشخص .

يقولون هل أصلحتم لأخيكم وما للحد في الأرض القضاء بصالح (١)
ومالك بن الرب يرى أن مروءته تمنعه من الفرار من الموت ، ولولا كرم
نفسه وعزتها لكان له عن الموت منصرف فيقول :

أرى الموت لا انحاش عنه تكهما ولوشئت لم أركب على المركب الصعب (٢)

وأما توبة بن الحخير فيتحدث عن ليل الأخيلية حبيبته ، قائلا أنه يخاطر
ما يخاطر في صعلكته لأجل غايتين ، فأما أن يسعدها بغنى وميسره ، وأما أن
يلقى حتفه ، فيفسح لها الطريق ويفك هو من أسر حبها فيقول :

أظن بها خيرا وأعلم أنها ستنعم يوما أو يفك أسيرها (٣)

وشعرهم في هذا المعنى يطابق أخبارهم ، حيث نجد أن معظم من بلغتنا
تفاصيل من أخبارهم ماتوا قتل بسيف الأعداء وسلاحهم ، ومن هؤلاء الشنفرى
وتأبط شرا والسليك بن السليكة ، وقيس بن الحداية وعمر ذو الكلب وصخر
الغى وتوبة بن الحخير ، ولم تحدثنا الأخبار أن أحدا منهم قبل طائعا أن يكون
أسير ، بل حققوا ما شاع في شعرهم من استهانتهم بالموت (٤) .

٥ - الحذر واليقظة

ومن الواضح أنه لا تعارض بين الاستهانة بالموت والحذر ، فالمحارب في
ميدان القتال مهما بلغ من البسالة والاقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه
ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيلة وحذر ، ولا يخل هذا بوصفه بالبسالة والاقدام
بل إن الحيلة والحذر جزء من كل ما يوصف به من بسالة وقدام وشجاعة .

ولم تكن حياة الصعاليك مجرد ميدان قتال ، ولم تكن المخاطر التي
تترصد بهم مجرد أعداء محاربين أو متربصين ، أن حياة الصعاليك معركة مستمرة
متصلة بين الحياة والموت ، لا فرق فيها بين ليل ونهار ، ولا بين صبح ومساء ،
ولا بين حركة واستقرار كل ذلك أجزاء ومراحل وصور من المعركة المتصلة بينهم
وبين الموت الذي يرقبونه في كل شيء ، في الضحايا الذين يتربصون أو يسطون

(١) حماسة أبى تمام ٢٧٣/١ وقد أظهر الخليفة المأمون إعجابا بهذه الأبيات لما فيها من
موعظة والصفات الحجارة .

(٢) مذهب الأغنى ١٦/٥ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخالجي وأظن بها خيرا يريد اعتقد فيها الوفاء
وستنعم يعنى بفناء أسيرها يعنى موته .

(٤) أنظر مراجع أخبارهم في تراجمهم باب (الشعراء الصعاليك) .

أو يفرون هم عليهم ، وفي الأعداء الكثيرين الذين خلقتهم غاراتهم وجنباياتهم والذين يترصدونهم بدورهم بالصعاليك ، وفي الوحوش الضارية الكثيرة المنبشة من حولهم والتي لا يأمنون غرتها في كل حين ، وفي هوام الأرض وحياتها التي تنساب في كل وجه دون حس أو دبيب ، وفي ظروف أخرى كثيرة تكتنف حياتهم في كل وجه من وجوهها .

ولذلك كان لزاما على الصعاليك أن يجعلوا من صلب اسلحتهم في حياتهم هذه اليقظة والحذر الشديدين ، وكان من الصفات الأساسية في كل صعلوك أن يكون حذرا متيقظا شديد الحيلة والاحساس بالمخاطر ، وقد جعلت هذه اليقظة فيهم ما يشبه الغريزة في الاحساس بالخطر والتهيب له ، وعدم المفاجأة في وقوعه .

وقد ساعدتهم هذه اليقظة في الخلاص من مأزق كان مصيرهم فيها شرا لولا هذه اليقظة ، ومن ذلك قصة السليك مع الرجل الذي عدا على السليك وهو نائم ليأسره أو يقتله أن أبى الأمر ، ولكن يقظة السليك من حيث توقعه للمخاطر دائما ، وعدم ارتبأكه بالمفاجأة هيا له النصر على خصمه هذا (١) وقصة مالك ابن الريب مع أفلح الصعلوك الذي ظل عشرين سنة يقطع طريق خراسان وحده على القوافل ، حين جثم أفلح بضخامته على مالك وهو نائم (٢) ، ولكن مالكا مع ذلك لم تدهشه المفاجأة ، بل هب وكأنه لم يكن نائما فأهوى على أفلح بسيفه فصرعه (٣) ، وفي ليلة أخرى سطا ذئب على مالك أيضا ، ولكن مالكا كان أشد منه حذرا ويقظة ، فاستطاع أن يصصره بسيفه (٤) ولذلك نرى حديث الصعاليك عن اليقظة والحذر بارزا في شعرهم ، ويبدو منه ضيقهم بالنوم ، لأنه يفسد عليهم التزامهم الحذر واليقظة ، ولكن مع ذلك لم يتركوا للنوم أن يفسد عليهم حياتهم فنرى في شعرهم أن نومهم يكاد يكون صوريا ، وأنه أقرب الى اليقظة منه الى النوم الحقيقي ، وأخبارهم الكثيرة تؤيد ذلك كما مثلنا ، وهذه الأمثلة لا تدل على أحداث فردية فقط ، وإنما تدل على صفة عامة في الصعاليك ، هي اليقظة الشديدة التي جعلت حتى نومهم متيقظا ، ولو تصورنا نائما عاديا فوجيء بخطر كبعض ما مثلنا لما تسنى له أن يكون في شيء من هذه اليقظة العجيبة التي تحل بها الصعاليك ، والتي لم يفسدها عليهم حتى نومهم .

وتأبط شرا يصور لنا يقظته هذه ، تصويرا عجيبا حقا ، فيقول ان بين عينه وقلبه صلة في الاحساس بالخطر ، فبينما قلبه يراوده الاحساس بالخطر ، اذا عيناه تنظران فتجدان سلاحا مصوبا نحوه ، ويعلم ذلك بأن الحذر أصبح

(١) انظر مجمع الأمثال ١١/٢ .

(٢) انظر رسائل الجاحظ ١٩٣/١ .

(٣) وانظر مذهب الأغاني ١٣/٥ .

(٤) انظر مذهب الأغاني ١٥/٥ .

سجبة فيه حتى انه اذا نلم ظل قلبه حارسا يقظا محاذرا ، ينبغي الى أى خطر يحيط به يقول :

اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىء من قلب شيخان فاتك (١)
ويجعل عينيه ربيثة قلبه الى سلة من حد اخضر باتك

ويصف نومه القريب من اليقظة أيضا قائلا انه ينام ، ولكن قلما تصيبه من نومه غرة أو استغراق ، بل هو يقظ النوم لأنه بين خطرين ، فهو دائما طالب ومطلوب معا ، وأخشى ما يخشاه الغرة من أعدائه ، كما أن أحرص ما يحرص عليه أن يجد منهم غرة ، ويحدث بذلك المرأة التى أبت الزواج منه لأنه معرض دائما للموت من أول نصل يلاقية فيقول :

فلم تر من رأى فتيلة وحاذت تأيمها من لابس الليل اروعا (٢)
قليل غراد النوم اكبر همه دم النار أو يلقي كميما مسفعا (٣)
على غمرة أو نهزة من مكانس أطل نزال القوم حتى تسعسا (٤)

ويصرح تأبط شرا بأنه يغالب النوم دائما ، لأن النوم عدوه الحقيقي ، وأنه يسلك كل وسيلة ليدود النوم عن عينه ، ومن ذلك أنه يوقد أحيانا النار فى بعض سراه ، لا لشيء الا ليصرف النوم عن عينه ، ويريح راحته قليلا من جهد السرى الطويل ، ثم يواصل سراه بالليل بعد اطمئنانه الى ذهاب النوم عنه .

ونار قد حضات بعيد وهن بدار ما أردت بهما مقاما (٥)
سوى تحليل راحلة وغير اكائه مخافة أن يناما (٦)

ويصف لنا الشنفرى صورة يقظته الدائمة ، فيقول انه يبيت الليل فى مرقبته يقظا ، وقد وضع ذراعيه أمامه وانكفا محدبا عليهما ، ولكنه لا يفعل ذلك بغية الراحة ، وانما لبتاح له أن يفحص ببصره الحديد الأماكن والسبل أمامه وليدور برأسه كالأفعى الملتوى مراقبا ما حوله فيقول بعد وصفه المراقبة والظلام من حوله :

-
- (١) أنظر الحيوان للجاحظ ٢٥٥/٦ (هامش) والكالىء الحارس وشيخان حذر عبور والربيثة الراصد الذى يستطلع للقوم طريقهم والسلة المرة من سل سيفه .
(٢) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ والفتيل مثل للتفاحة يعنى كان رأيها تافها والتأيم فقد الزوج ولابس الليل كناية عن الحذر .
(٣) المسفع المتغير لون الوجه .
(٤) الغرة الغفلة والمكانس الملازم للكناس ماوى الظبي وتسعسع قارب النهاية .
(٥) مجمع الأمثال للميداني ٣٥٠/١ فى المثل (أسرع من العير) وحضا النار أوقدها وأشعلها والوهن الكلال والتعب .
(٦) تحليل راحلة يعنى ارحلتها والعير انسان العين وأكائه أراقبه وأحرسه يعنى انسان عينه .

فبت على حد الدراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

وبين الشفرى سبب هذه اليقظة الشديدة ، فهو بالإضافة الى أنه طالب صيد ، هو أيضا طريد جنايات كثيرة جناها ، جعلت له أعداء كثيرين يترصدون غرته ، ان نام هو فعيونهم هم يقظى متعجلة الظفر به ، فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لايتها حم أول (٢)
تنام اذا ما نام يقظى عيونها حثاا الى مكروهه تتعجل (٣)

ويقول مالك بن حريم ان طلبه للثأر نقص عليه النوم :

لم اك فيها لا بليت بها نؤوم ليل يغرنى الطمع (٦)
وليست حادثة معينة تدعو مالكا الى اليقظة ، ولكنه يقول انه جعل الحذر صفة فيه ، حتى لا يفاجأ بغارة ، فهو متيقظ لأدنى حركة من سوائه حيه ، هنالك يحس بأنها غارة الأعداء ، فلا يؤخذ حينذاك على غرة فيقول :

فواحدة الا أبيت بغرة اذا ما سوام الحى حولى تضوعا (٥)

ويصفون مالك بن الريب أنه من حذره ويقظته كان ينام دائما محتضنا سيفه ، وهو يقول ذلك للذئب الذى عدا عليه فى القصة السابقة .

فانت وان كنت الجرىء جنانه منيت بضرغام من الأسد الغلب
بمن لا ينام الليل الا وسيفه وهينة أقوام سراع الى الشغب (٦)

وأبو خراش يصور يقظته فى مرقبته مع صاحبه ، فيقول عن صاحبه انه لا يؤتى قط عن غرة ، وانه يبعثه ربيثة ومستطلعا فى أوقات من الليل ينام فيها طلاب النوم والدفء ، أما هما فليسا من طلاب النوم ولا الدفء فيقول :

لست لمة ان لم أوف مرقبة يبدو لى الحرف منها والمقاصيب
بصاحب لا تنال النهر غرته اذا افلى الهدف القن المعازيب
بعثه بسواد الليل يرقبنى اذا أثر النوم والدفء المناجيب (٧)

(١) مهذب الأغاني ٩٥/١ ومحدبا منحنيا والأرقش الحية الرقطاء .

(٢) من اللامية - وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه أيضا وحى يعنى اذا مات يريد ان أصحاب الجنايات يتسابقون فى تقسيم لحمه والسبق فى الظفر به .

(٣) تنام يعنى الجنايات يريد أصحابها ، اذا نام هو ناموا هم ولكن عيونهم يقظة اليه

(٤) أمالي القالى ١٢٠/٢ من قصيدة فى قصة ثأره لآخيه .

(٥) الاصمعيات ٥٨ وواحدة يعنى احدى صفاته والقرة الفللة والسوام السوام وتضوع فزع

(٦) مهذب الأغاني ١٦/٥ يغالب الذئب والضرغام الأسد والشغب اثاره الشر

(٧) ديون الهذليين ١٦٠/٢ والدمر طرف وافلى احتجز والهدف الثقيل الوشم من الرجال

والقن العبد الخالص الرق والمعازيب الاماء فاعل افلى يعنى اذا احتجز الاماء ضعيفا فلا يزاو عملها حادا . والمناجيب الضميمة .

ومن صور الحذر التي يراعيها الصعاليك حسن اختيار الطريق الذي يسلكونه ، كما يصف صخر الغي ذهابه الى الماء ليلاً قربته محاذرا ، فلما أراد العودة أثر أن يرجع من طريق غير الذي ذهب فيه ، خشية أن يكون أعداؤه رأوه وهو ذاهب فتربصوا عودته ، وراعى في طريق عودته أن يكون الطريق خلف جبل أو مكان طبيعته تسمح له بالنجاة اذا هوجم فيقول :

فلما جئمت به قربتي تيممت أطرقة أو خليفاً (١)

وأما عمرو بن براقة فينفى عن نفسه نوم الليل ، ولكنه يعرف أنها ليست صفته وحده ، وإنما هي صفة الصعاليك جميعا ، ويعرف كذلك أن الناس جميعا يعلمون أن هذه صفة الصعاليك ، لأنه إنما ينام الليل خلى الببال والمسالم ، أما الصعاليك فلاهم خليو الببال ، ولاهم مسالمون ، فلا عجب أن يكون نومهم قليلا غرارا ، فيقول :

**تقول سليبي لا تعرض لتلفة وليك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
الم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل اذا نام الخل المسالم (٢)**

٦ - الحيلة

ولكن الحياة المعتمدة دائما على المخاطرة لا تخلو من مآزق يتعرض لها صاحبها مهما بالغ في حيطته وحذره ، وقد بذل الصعاليك جهدهم في الحذر واليقظة حتى حرموا على أنفسهم لذة الاستغراق في النوم ، والتمتع به مهما يبلغ بهم الكلال ، كما رأينا من تأبط شرا الذي كان في تجوله وسراه بالليل ، يشعر بالكلال الشديد ، والارهاق المضنى هو وراحلته ، ويحس الرغبة الملحة في النوم ولو لحظات يريح فيها جسده المنهك ، ولكنه يأبى الراحة الا لراحلته ، أما هو فلا يزيد على أن يوقد النار بما يبذله من جهد في سبيل اشعالها ليصرف عنه النوم ، ثم يواصل السرى والصخو واليقظة ، خشية أن تكون في نومه غرة يؤتى منها .

ولكن هذه اليقظة الشديدة لم تحل بينهم وبين المآزق يقعون فيها ، وخطر هذه المآزق على الصعاليك حصار الأعداء ، حينما يكون هؤلاء الأعداء كثرة لا قبل المصطلوك بها ، ثم يأخذون عليه الطريق فلا يجد مفرا ولا مهربا ، وقد قلنا ان

(١) ديوان الهذليين ٧٦/٢ وجئمت ملات وبه يعنى الماء وتيممت قصدت وأطرقة جمع طريق وخليف خلف جبل أوود والجمع في أطرقة يشير الى التواء الطريق وتمدد مسالكه .
(٢) أماني القائل ١١٩/٢ وتعرض أصله تتعرض، وتلفة المرة من التلف وجل منظم .

الصعاليك ليس من خلقهم الفرار من الموت ، بل على العكس ، خلقهم الاستهانة بالموت والاستعداد لمواجهة في كل حين ، وقلنا ان الصعاليك كانوا ازاء موقف كهذا الموقف نوعين ، العدائين وغير العدائين ، أما غير العدائين فلم يكن أمامهم الا طريقان ، الاستسلام للاعداء ، أو الموت فكانوا لا يترددون في اختيار الموت ، كما فعل قيس بن منقذ مع أنهم عرضوا عليه الأسر ، فأبى وأصر على أن يقاتل مع يأسه من النتيجة ، لأنه كان وحيدا وسط جمع كبير ، وظل يقاتل حتى قتل (١) ، ولذلك لا نعلم أن أحدا من الصعاليك أسر أو قبل الأسر ، مع كثرة ما تعرضوا له من مواقف يسوغ لكل امرئ فيها أن يقبله ، وأما العداءون من الصعاليك فكان أمامهم احتمال ثالث غير الأسر والموت في مثل هذا الموقف ، وهو النجاة عدوا على أقدامهم ، فحينما يجدون أنفسهم في الموقف الذي يحاصروهم فيه أعدائهم ، يجدون مع ضيق الموقف وشدته احتمالا في النجاة بعدوهم الذي لا تلحقه الحيل ، ولكن هنالك عقبة يجب أن يجتازوها حتى يستطيعوا استعمال أقدامهم ، هذه العقبة هي الخروج من الحصار ، فإذا استطاعوا النفاذ أو التسلل من الحصار كان الأمل في نجاحهم قويا مهما طاردهم الأعداء ، وهذا النفاذ أو التسلل لا يفنى فيه بالطبع القتال أو استخدام القوة ، لأنه موقف فوق طاقة الصعلوك ، وإنما يغنى فيه شيء واحد ، هو اللجوء الى الحيلة وحسن التخلص :

وأخبار الصعاليك وأشعارهم تحدثنا عن كثير من هذه المواقف التي استعمل عداءو الصعاليك حيلتهم وسيقاتلهم فيها حتى نجوا ، ومن ذلك قصة تأبط شرا مع بنى لحيان من هذيل حيث استطاعوا أن يرصدوه حتى سعد مرتفعا من جبل ليحجن عسلا يقتات به ، ولم يكن له طريق غير الذي سعد منه ، فحاصره بنو لحيان ، وطلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا فأبى ، وأصبح يواجه الموقفين ، الموت ، والأسر الذي أباه بشدة ، ولكنه عمل ذكاءه لايجاد مخرج ثالث ، فالتقبة الكداء الآن أمامه الحصار ، ولو استطاع النفاذ منه لكان له في ساقه شأن ، وإذا ذكاؤه يهديه المخرج ، وإذا هو يلجأ الى الجانب الآخر من المرتفع الذي يقف عليه ، فيصعب العسل الذي جمعه على صخور ذلك الجانب الآخر بعيدا عن بنى لحيان ، وقد كان صبه العسل ليستطيع الانزلاق عليه فوق الصخور بسلاسة ويسر ، دون أن تجرحه أو تسلمحه الصخور التي تشبه ازلاقتها حد الفأس كما يقول أبو خراش ، وبهذه الحيلة استطاع تأبط شرا النجاة من موقفه الخطير ، ثم يقول عن موقفه هذا :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر (٢)

(١) مهذب الأغاني ٢٣٥/١ ، وكذلك صخر الفى في قصة مقتله . انظر شرح السكرى لديوان الهذليين .

(٢) حساسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ ولم يحتل من الحيلة ، والشطر الثاني يعنى اللشل . وادبار الهزيمة .

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا
فذاك قريع الدهر ما عاش حول
القول للحيان وقد صمرت لهم
هما خطتا اما اسار ومنه
واخرى اصاى النفس عنها وانها
فوشت لها صدرى فزل عن الصفا
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا
فابت الى فهم ولم اك آيبا

به الخطب الا وهو للتصديق مبصر (١)
اذا سد منه منخر جاش منخر (٢)
وطابى ويومى ضيق الجحر معور (٣)
واما دم والقتل بالخر اجسد (٤)
لمود حزم ان فعلت ومصدر (٥)
به جؤ جؤ عبل ومتن مخصر (٦)
به كدحة والموت خزبان ينظر (٧)
وكم مثلها فارقتها وهى تصفر (٨)

ولم تكن المرة الوحيدة التى نجا فيها من هذيل وتركهم آسفين على نجاته
كما يقول « وكم مثلها فارقتها وهى تصفر » ولم تكن هذيل وحدها التى نجا منها
تأبط شرا وتركها آسفة مدهوشة ، بل نجا بحيلته وعدوه كثيرا من أعداء كثيرين
ومن ذلك هذه القصة التى ترويها أخباره ، فى نجاته من بجيلة وهى بروايتها
« خرج الشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق (٩) فأغاروا على بجيلة ، فوجدوا
لهم رسدا على الماء ، فلما مالوا له فى جوف الليل قال لهما تأبط شرا : ان بالماء
رسدا ، وانى لأسمع وجيب قلوب القوم ، فقالا ما نسمع شيئا وما هو الا
قلبك يعجب ، فوضع أيديهما على قلبه وقال : والله ما يجب وما كان وجابا ،
قالوا : فلا بد لنا من ورود الماء ، فخرج الشنفرى ، فلما رآه الرصد عرفوه
فتركوه حتى شرب من الماء ورجع إلى أصحابه ، فقال : والله ما بالماء أحد ، ولقد
شربت من الحوض ، فقال تأبط شرا للشنفرى : بلى ، ولكن القوم لا يريدونك ،
وانما يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرى ورجع ولم يعرضوا له ، فقال تأبط شرا
للشنفرى : اذا أنا كرمعت فى الحوض فان القوم سيشهدون على فيأسرونى ، فذهب
كانك تهرب ، ثم كن فى أصل ذلك القرن فاذا سمعتنى أقول : خذوا خذوا فتعال
فاطلقنى ، وقال لابن براق : انى سأمرك أن تستأسر للقوم ، فلا تنأ عنهم ولا
تمكنهم من نفسك ، ثم مر تأبط شرا حتى ورد الماء فحين كرع فى الحوض شدوا

- (١) الخطب المكروه والتصديق حسن التصرف .
(٢) قريع الدهر المجرب وحول بصير والشرط الثانى يعنى اذا سد امامه باب نفذ من
باب آخر .
(٣) لحيان محاصروه وصمرت خلعت والوطاب يعنى اثناء العسل ويومى ضيق الجحر يعنى
هو يوم لا مثقل فيه ومعور منكشف المعور يريد يوما قاسيا .
(٤) خطتا يريد خطتان أى حالان اما الأسر أو القتل .
(٥) اصاى استشير واخرى يريد الحيلة يفكر فيها .
(٦) الصفا الحجارة وجؤ عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر نحيل .
(٧) يكدح يؤثر يريد لم يؤثر فيه الصفا ولم يخدشه حتى وصل الأرض ناجيا من موت مائل
(٨) أب رجح ولم اك آيبا لم يكن ينتظر رجوعى ومثلها يعنى هذيل وتصفر آسفة يريد
نجوت منها كثيرا .
(٩) الصحيح براق لانه اسم أمه .

عليه فأخذوه وكتفوه بوترا ، وطار الشنفرى ، فأتى حيث أمره ، وانحاز ابن براق حيث يروونه ، فقال تأبط شرا : يامعشر بجيلة ، هل لكم فى خير أن تياسرونا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ قالوا نعم ، فقال : ويلك يا ابن براق ، أما الشنفرى فقد طار ، وهو يصطلي نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك ، فهل لك أن تستأسر وييا سرونا فى الفداء ؟ قال : لا والله حتى أروى نفسى شوطا أو شوطين فجعل يستن نحو الجبل ويرجع ، حتى اذا رآوا أنه قد أعيا طمعوا فيه فاتبعوه ، ونادى تأبط شرا : خذوا خذوا ، فخالف الشنفرى الى تأبط شرا فقطع وثاقه ، فلما رآه ابن براق وقد خرج من وثاقه مال الى عنده ، فناداهم تأبط شرا : يامعشر بجيلة : أعجبكم عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا ينسيكم عدوه ، ثم أحضروا (١) ثلاثهم فنجوا ، وفى ذلك يقول تأبط شرا :

ليلة صاحوا واغفروا بى سراهم بالعيبتين لدى معلى ابن براق
كانما حشحوها حصا قوادهمه أو أم خشف بدى شت وطباق
لا شىء أسرع منى غير عسدر أو ذى جناح بجنب الربد خفاق

فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدائين (٢) وقد ساق الضب القصيدة التى اقتطف منها الميدانى الأبيات السابقة كاملة فى المفضليات (٣) ، وفيها يصرح بنسب أعدائه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيلة اذ القيت ليلة خبت الرهد أوراقي

وقصص الحبل التى نجا بها العداهون من الصعاليك وأشعارهم فيها كثيرة ، ومنها قصة أبى خراش الهذلى فى نجاته من خزاغة بجيلة بارعة وهى كما رواها صاحب ديوان الهذليين فى شرحه « وكان من حديث أبى خراش أنه خرج بزوجة أبيه مرة - وكان مرة خلف بعد لبني أم أبى خراش واخوته السبعة عليها - وأن أبى خراش أتى بها مكة وأمرها أن تقضى ما أرادت من نسك أو غيره ، وقعد لها بالأخشب (٤) وقال لها : احذرى أن يعرفك أحد ، فإن بهذا البلد قوما قد وثرتهم من بنى كعب بن خزاعة ، فلقيها فائد فعرفها ، وقال لها : كم معك من بنيك ؟ فأتى رجل من عشيرتك أحد بنى سهم ، فإن بهذه القرية قوما قد وترهم أبو خراش ، فأقعدى وأخبرينى بحوائجك ، فأقعدتها واشترى لها حوائجها ، وقال لها : أى بنيك معك ؟ (٥) قالت : أبو خراش ، قال : فامضى ولا تخبرى أحدا سواى خبرى ، قال : وتقدم فائد

(١) أحضروا عدوا مسرعين .

(٢) مجيب الامثال ٤٦/٢ ، ٤٧ والقصة أيضا فى خزاعة البغدادى .

(٣) المفضليات ٢٧ - ٣١ وعدتها ستة وعشرون بيتا .

(٤) الأخشب جبل وهو أحد الأخشين المشهورين .

(٥) أى بنى زوجك لأنها زوجة أبى بنى خراش وليست أمه ، وأبو خراش اسمه

خوبل بن مرة وخراش ابنه .

لابى خراش حتى قعد له بالطريق ، ورجعت المرأة الى أبى خراش ، فقال لها : من لقيك . ومن رأيت ؟ قالت : رأيت رجلا من بنى سهم ، وكان احرص على أن أخفى أمرى منك ، فنعتته لها أبو خراش ، فقالت : نعم انه لهو ، قال : ذلك فائد ، وقد قتلتنى ، قالت : فارجع الى قريش ، فخذ منها جوارا ، فأبى عليها أبو خراش وذهب بها ، وقال لها : القوم بالمغمس فامضى اليهم ، وحملها على جمل لمرة نجيب ، وقال لها ، اذا خلفت القوم فاجهدى بعيرك فانى شاغلهم عنك ، ولن يتعرضوا لك حتى يئسوا منى ، فمضت ، وجاء أبو خراش يبطل في المشى ويصلح نعله حتى خلفتهم المرأة ، ثم جهدت بعيرها حتى كان خمارها فى اطراف الشجر نسج العنكبوت ، واتاهم أبو خراش حتى سلم عليهم يطعمهم فى نفسه لتذهب المرأة فقالوا : مرحبا يا خويلد ، وأقبلوا اليه غير سراع وهم يميلون نحوه ، ولا يريدون ذعره ، وقد قدموا فائدا بذنب الثنية ، ثم عدوا عليه ، وشهد أبو خراش يؤم ذنب الثنية أسفل من قائد ، وقالوا : اليك يا فائد ، اضرب يا فائد ، ارم يا فائد ، وزعموا أن قوس أبى خراش انقطعت حمالتها وانفلت أبو خراش ، وجاءت امرأة مرة اليه (١) ، فقال لها : ويلك ما فعل أبو خراش ؟ قالت : قتل ، قتله فائد وأصحابه ، قال : ويلك ، قتل وأنت تنظرين ؟ قالت نعم ، قال : كيف انفلت أنت ؟ قالت : انه لم يقتل حتى خلفت القوم ، قال : فأخبرينى كيف كان قتله ؟ قالت : عهدي به وقد التف عليه القوم ، فقال : هل سمعت من شئ ؟ قالت : : سمعت « يا فائد اضرب ، يا فائد ارم » فقال : ان أخطأت سهام القوم أجابنى ، وصرخ مرة ، فاستجاب له أبو خراش ، ففى ذلك يقول

أبو خراش :
رئوسى وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٢)
الى آخر القصيدة ، (٣) والقصيدة وصف دقيق لأحداث القصة ومطابقة أعدائه له ، وسرعة عدوه .

والسليك بن السليكة له قصص فى حيله ، وقد سجل بعضها فى شعره ، ومنها قصه غارته مع صاحبيه على جوف مراد باليمن ، حيث طلب من صاحبيه أن ينتظراه فى مكان قريب ، على أن يذهب هو الى ابل رأوها ، ليدرس خطة سلبها والنجاة بها ، وقال لصاحبيه : سأعلم من الرعيان مكان الحى ، فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا بعيدا لحنت لكما بقول فاغرا ، وذهب فعلم من الرعاء أن الحى بعيد ، وأنهم ان طلبوه بعد سلبه الابل فلن يدركوه فقال للرعاء : الا اغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فقال بأعلى صوته مخاطبا رفيقيه اللذين ينتظرانه فى مكان قريب :

(١) معنى جاءت الى زوجها مرة بعد أن تركت اباخراش يراوغ خزاعة .

(٢) الرؤف التسكرين معنى حاولوا خداعه بأنهم لا يريدون به شرا وخويلد اسم أبى خراش

(٣) ديوان الهذليين ١٤٤/٣ - ١٤٨ والقصيدة أربعة عشر بيتا .

يا صاحبي الا لحي بالوادي
انتظران قليلا ريث غفلتهم
الا عبيد وآم بين اذواد (١)
لم تمنوان فان الريح للعادي (٢)

صراع النعاج

ومع ان ما سبق يبدو صراعا في حياة الصعاليك ، فانه في جملته يعتبر مجرد اسلحة يتذرع بها الصعاليك للصراع الحقيقي العنيف الذي جابهوه في الصعلة ، والذي تمخض عنه دخولهم هذا الميدان .

والصراع العنيف الذي جابهه الصعاليك منذ اختار كل منهم الصعلة طريقا له ، يمكن حصره في ثلاث جبهات محيطة بالصعاليك ، وتكاد تتكافأ في خطورتها وقسوتها على الصعاليك ، وهي :

١ - الصراع النفسي : واقساه وأشده شعور الصعاليك بالمطاردة ، فانه يبدو في شعورهم شعورهم بأنهم مطاردون ، ويبدو أيضا أن هذا الشعور كان ثقل الوطأة على نفوسهم وهم وأن تفاوتوا في مقاومته ، وأن اختلفت قوة كل منهم في احتماله ومحاولة التغلب عليه الا اننا نحس بضفة عامة أنه كان شعورا مؤرقا لمصاحبه جميعا ، وباعثا فيها قلقا وتوجسا شديدين ، وبلغ هذا الشعور من بعضهم حد الخوف الدائم من كل شيء ، بل بلغ من بعضهم حد الوهم ، وتصور أعداء لا وجود لهم ، ومخلوقات لم تخلق قط الا في خياله وخيال الأساطير كالقول .

٢ - صراع الأعداء : وما أكثر أعداء الصعاليك ، بل لا يبالغ من يقول ان الناس جميعا أعداءهم ، لأنهم بسلوكهم أعلنوا الحرب على جميع الناس ، ليس كل انسان معرضا لسطوهم ؟ اما على شخصه ، واما على ماله ، واما على شيء يعز عليه كالقبيلة والحرمان ، فالناس بالنسبة للصعاليك نوعان ، نوع معتنى عليه ، فهو موقر يريد أن ينتقم من وأثره الصعلوك ، ونوع مترقب لمعاونهم عليه ، ان سنحت لهم الفرصة ، وكلا النوعين عدو للصعاليك .

٣ - صراع البيئة : فان البيئة التي كانت مهياة بطبيعة تكوينها لأن تكون مجالا صالحا للصعلة ، كانت من جانب آخر تحمل في ثناياها أخطارا بالغة عليهم ، في نواحي عديدة ، أيسرها وأخطرها معا صعوبة الحصول على الماء ، ثم الوحوش والهوام والحيات ، ثم المجاهل نفسها ، تلك التي تعرض رائدها للضلال والهلاك كما حدث لعمر بن عبد الجان (٣) .

(١) مجمع الأمثال للسيداني ١١/٢ وآم جمع أمة والألواء جماعات الأبل .

(٢) الريح القرة والغلبة .

(٣) انظر مذهب الأغاني ١٨٨/٢ وفي موته خلال انظر أيضا ديوان الهذليين ١٢٠/٣ .

٤ - هناك جبهة رابعة قوية ، لم يعان منها صعاليك الجاهلية ، لانهم لم يدركوها ، وهى السلطة بنوعها التشريعى والتنفيذى ، قد عانى منها المخضرمون والمسلمون ، لأنها كانت أقوى سلاح يهدد سلوكهم العدوانى . ولنتحدث عن هذه الأنواع من الصراع فى شعرهم .

الشعور بالطاردة

ليس من الغريب أن يسيطر على الصعاليك شعور نفسى عام بأنهم مطاردون ، بل الغريب ألا يكون لديهم هذا الشعور ، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعا ، وأصبح المجتمع بالنسبة لهم بين طالب ومطلوب ، وأصبح شعورهم هم أيضا نحو المجتمع كله أن يكونوا طالبين أو مطلوبين ، ولا وسط بين المرحلتين ، طائفة كذلك من الطبيعى أن تواجه بالعداء ، ومن الطبيعى أن يكون فى نفوسها من الشعور نحو المجتمع بقدر ما تحمل هذه النفوس للمجتمع ، ومن نوع ما تخمله نفوسهم ، ونفوسهم لا تحمل للمجتمع الا عدوانا وتربصا أو « لادرك ذحلا أو أشيف على غنم » كما يقول قائلهم (١) .

وبده هذا الشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ، ونفورهم منه ، وهجرتهم عنه للعوامل التى أدت بهم الى الصعلكة ، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعا بارزا من النفور من المجتمع ، وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة ، كما يقول الشنفرى انه مصمم على هجرة الناس جميعا الى أى مكان لا أجاور فيه أناسا ، ولا أتعامل مع بشر ، وقد كان المكان الأثير لديه بعد تصميمه هذا هو الصحراء الوحشة المقفرة من البشر ، وكان أهله ومجتمعه الذى استبدله بمجتمع البشر ، هو مجتمع الوحوش ، فيعبر عن نفوره من الناس وهجرته عنهم بقوله من اللامية :

اقيموا بنى أمى صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وارحل
وفى الأرض مناسى للكريم عن الأذى وفيها لمن خالف القل متعزل

ويعبر عن مدى سخطه على الناس جميعا ، وإشاره كل أنواع الوحوش على البشر فى جوارهم وخلقهم بقوله :

ولى دونكم اهلون ، سيد عملس وارقط زهلول وعرفاء وجيال (٢)

(١) هو أبو خراش من قصيدة ميمية بديوان الهذليين والاحل الثار وأشيف أشرف .

(٢) السيد الذئب والارقط النمر وجيال الغنم والمعلس القوى والزهلول الاملس

وعرفاء طويلة .

هم الرهط لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يتذل.

وفي المعنى والهدف نفسهما يقول عروة بن الورد كما سبق « أقيموا بنى
لبنى صدور مطيكم » .

وهو معنى شائع فى شعرهم ولو منظويا فى معنى آخر ، فهذا أبو النشاش
النهشل يجعل الصعلوك شيئا مستقلا عن الناس ، بعيدا عنهم كأنه فى غيب ،
وحتى أن دنا فليس من حقهم أن يدخلوا عالمه ويطلعوا على دخيلته ، وهذا المعنى
يعبر عن هجرة نفسية عن المجتمع حيث يعتبر الصعاليك أن الأسباب قد أثبتت
بينهم وبين الناس فيقول قائلهم :

وسائلة بالغيث عنى وسائل . ومن يسأل الصعلوك أين مذهبى ؟ (١)

وهذا يعنى أن الصعاليك فى عزلة نفسية عن المجتمع بالإضافة إلى عزلتهم
الواقعية فى حياتهم .

وهذه العزلة حملت معها إلى الصعاليك شعورا ثقيل الوطأة بأنهم أصبحوا
مطاردين من أعدائهم ومن الناس جميعا ، فى صور كثيرة مختلفة يعبر بها شعرهم
عن هذا الشعور .

فالشغرى يرسم صورة دقيقة لهذا الشعور ، بأنه أصبح طريدا ، وطريد
لجنايات كثيرة جناها ، فهو لذلك لا يستطيع أن ينام مطمئنا ، لأنه أن اطمئن
فى نومه ، فهناك عيون كثيرة غير مطمئنة فى نومها ، بل هى يقظى شديدة اليقظة
فى نربصها به ، وتعجلها أن توقع به فى أقصى سرعة ممكنة فيقول :

طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيهما حم أول (٢)
تببت إذا ما نام يقظى عيونها حثا إلى مكروهه تتعجل

وتأبط شرا موقن بأنه مطارّد من أعدائه الكثيرين ، ولكنه يضيف أنه موقن
أيضا بأن أعداءه ، سينالونه يوما ما ، ومعنى ذلك أن الشعور بالمطاردة قد بلغ
منه حدا بالغا فيقول عن نفسه :

ومن يفر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٣)

بل يبلغ هذا الشعور من نفس الأعلام الهذلى حدا رهيبا ، حيث يتصور أن
كل ما حوله من شجر يخيل إليه أنه أعداء ، وأن فروعه سهام وسيوف مسلولة
موجهة نحوه لتودى به فيقول :

(١) حساسة أبى تمام ١١٦/١ .

(٢) من اللامية وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه وهم يريد إذا نزل به الموت من حم القضاء .

(٣) حساسة أبى تمام ١٩٠/١ .

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستلال (١)

وهناك ارتباط بين طابع الحذر واليقظة الذى تحدثنا عنه بالنسبة للصعاليك وهذا الشعور الذى يعانونه ، وهو الشعور بالمطاردة ، فكثير من صور الحذر واتجاهاتهم فيه مرتبط بشعور المطاردة ، ويصلح أن يكون مثالا له .

وما من شاعر من الصعاليك الا ونجد فى شعره هذا الشعور بالمطاردة ، ان تصرىحا وان تضمينا ، على تفاوت بالطبع فى الاحساس والتأثر به .

فمالك بن الربيع يصور لنا حياته فى مهمه مقفر لا يرى فيه أحدا ، ثم يخيم عليه الظلام فى هذه الوحدة الموحشة ، فيتضاعف شعوره بالرغبة والخوف غير المحدود ، لأنه خوف من كل شيء ، بل وخوف من لا شيء ، لأن هذه الوحدة نفسها وما يكتنفها من ظلام ووحشة هى فى ذاتها مصدر رهبة ، بالإضافة الى ما يتوقع صاحبها من أحداث فيها ، ولذلك يصور مالك رهبته حينئذ فى قوله :

ادجت فى مهمه ما أن أرى أحدا حتى اذا حان تعريس لمن نزلا
وضعت جنبى وقلت الله يكلؤنى مهما تم عنك من ليل فما غفلا
والسيف بيتى وبين الثوب مشعره أخشى الحوادث انى لم أكن وكلا (٢)

ولئن كان السبب الأساس فى هذه الرهبة الشعور بالمطاردة ، الا أنه يصرح بأثر الوحشة ورهبة المكان المقفر حيث يقول :

أما ترى الدار قفرا لا أنيس بها الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا

والأعلم الهذلى يحكى صورة من صور خوفه ، وهذه الصورة وإن كانت مرتبطة بحادثة معينة ، هى فراره ونجاته من أعدائه بالعدو ، لأنه كان من العدائين المشهورين الا أننا نجد معانى الخوف التى راودته ترتبط بشعوره بالمطاردة أكثر من ارتباطها بالموقف نفسه ، فأننا نراه لا يخشى أعداءه فقط ولا يخشى مجرد وقوعه فى أيدي مطاردين وإنما يخشى حسابه على جنائات جناها ، وجزاؤها السيف وأن يصير جسده صيدا للضباع والطيور والذئاب والثعالب وهذا هو أثر الشعور بالمطاردة فيقول :

لا رأيت القوم بالعلياء دون قلى المناصب (٣)

(١) ديوان الهذليين ٨٥/٢ والعرفط نوع من الشجر والزوراء موضع ويودى يهلك والوشك المجلة والسرعة ، والاستلال من سل السيف ومن شرح السكرى له « يقول كلما طلعت عرفطة أحسبها انسانا يمين على من الفرق » والفرق الخوف الشديد ومنه أيضا « كلما مروت بشجرة طلنتها تعين على » .

(٢) مذهب الأغاني ١٣/٥ والتعريس فى البيت الأول نزول السفر آخر الليل .

(٣) ديوان الهذليين ٧٧/٢ - ٧٩ وقدى بمعنى قيد من قولهم قيد رمح والمناصب بلد .

وفريت من فزع فلا اومن ولا ودعت صاحب (١)
ثم يقول :

وخشيت وقع ضربة قد جربت كل التجارب (٢)
فاكون صيدهم بها واصير للضبع السواغب (٣)
جزرا وللطير المربة والذئاب وللتعالب (٤)

ولكن الشنفري كان معتدلا في أثر شعور المطاردة في نفسه ، وقد تمثل هذا الشعور الذي صوره في أنه أصبح طريد جنائيات وأنه أصبح نومه غارارا ، تمثل في خوف عادي لا يبلغ حد الدهش الذي عرا الأعلم ، وإنما هو شعور بين مشاعر أخرى كثيرة ، منها الاحساس بالجوع والاحساس بالبرد والرعدة فيقول عن ليلة باردة ممطرة :

دعست على غطش وبغش وصحبتى سعاد وارزيز ووجر وأفكل (٥)

وأما عبيد بن أيوب الذي ألبأته مطاردة المجتمع والسلطان الى الفلوات ليعيش فيها وحيدا خائفا قلقا مترقبا كل شر ، في كل وجه من وجوه حياته ووجوه الصحراء ، فقد سيطر عليه الشعور بالمطاردة حتى أصبح يتلهف على أن يذوق طعم الأمن ولو لحظة ، لأن فؤاده قد خلعه الخوف والترقب فيقول :

اذقنى طعم الأمن أو سسل حقيقة علي وان قامت ففصل بنانيا
خلعت فسؤادى فاستطير فاصبحت ترامى به اليبس القفار تراميا (٦)

ويصرح عبيد مشيرا الى سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كل شيء من حوله عدو مطارد متعقب له ، حتى طيران الحمامة يظنه عدوا ، وحتى أصبح لا يصدق الا حديث الخوف ولا يثق في أحد .

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشمس
وخفت خليل ذا الصفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٧)

(١) فريت تحيرت ودهشت يعنى عجزت عن الرمي لاضطرابي ولم أستطع توديع صاحبي الذي فررت عنه وتركته .

(٢) الضريبة السيف وجربت يعنى سيفا مموذا على الضرب به يريد تجوئ بعدوى من أعدائي خوف ضربى بالسيف والأحوال الآتية التي سيدمرها .

(٣) الضبع جمع ضبع والسواغب الجياع .

(٤) المربة المقيمة بالمكان الملازمة له .

(٥) من اللامية سبق نصها والدعس الوطاء والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعاد

الجوع والارزيز البرد والوجر الخوف والأفكل الرعدة .

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م اخانجى .

(٧) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من طباء الوحش أن تخفيه فيقول :

الا يا طباء الوحش لا تحذريننى وأخفيننى اذ كنت فيكن خافيا

صراع الأعداء

ولئن كان يمكن اعتبار • المجتمع كله عدوا للصعاليك ، مما كان له اثر في طابع العزلة النفسيه والواقعية التي فرضها الصعاليك على أنفسهم ، ولئن كانت هذه العزلة نوعا من الصراع والحرب بين الصعاليك والمجتمع ، وجبهة من الجبهات التي يصارعون فيها ، الا ان الجبهة البارزة المحسوسة كانت الصراع المباشر مع الأعداء المباشرين • وأغلب هؤلاء الأعداء المباشرين للصعاليك كان يتمثل في نوعين ، نوع نتج عن حياتهم في الصعلكة وجنائياتهم فيها وهو الأكثر والاظهر في صراعمهم مع الأعداء ، ونوع كان نتيجة ارتباط بعضهم بأقوامهم في الحروب والتطاحن مع الأحياء والقبائل الأخرى ، فكان هذا البعض من الصعاليك يزاول هذا الجانب من الصراع بالاضافة الى حياته في الصعلكة وصراعه في جوانبها المختلفة ، ولكن هذا التعاون الذى يبذله الصعلوك مع قومه في حروبهم بصفته فردا منهم كان يتحول الى عداء شخصى بينه وبين هؤلاء الأعداء ، ويصبح صراعه معهم جزءا من حياته وصراعه في الصعلكة كما كان الوضع بالنسبة لمالك بن حريم وعمر بن بركة وصعاليك هذيل ، والذى يعيننا من هذا الجانب هو أثره في حياة الصعاليك ، ومدى دلالاته على وضعهم بين أقوامهم ، ودلالاته أيضا على صفتهم كمقاتلين في الحروب ، كما سنرى ذلك في شعرهم ، والواقع أن الصعاليك يختلفون اختلافا بينا في صورة صراعمهم مع الأعداء في كلا النوعين ، فالعداؤون بالذات كان يغلب عليهم طابع معين ، هو عدم الاشتراك في الحروب القبلية أو حتى الجماعية ، وانما كانوا يؤثرون الرفقة المحدودة التي لا تتعدى غالبا الشخص الواحد كما نرى في شعر الأعلام (١) وشعر أبى خراش (٢) الهذليين ، أو الشخصين كما نرى في رفقة السليك (٣) ، ورفقة الشنفرى (٤) ثم يغيرون بهذه الرفقة المحدودة مترقبين الغرة ، معتمدين في سلاحهم على السهام التي تنال عن بعد ، دون السيوف التي تحتاج الى المجابهة مع الأعداء ، والمجابهة في حاجة الى عدد كبير لا يملكوته ، ولذلك نرى وصف القوس والسهام شائعا بادى الاهتمام

(١) انظر ديوان الهذليين ٧٨/٢ - ٨٥ •

(٢) المصدر السابق ١٣٤/٢ وما بعده •

(٣) انظر مجمع الأمثال ١١/٢ •

(٤) المصدر السابق ٤٦/٢ •

فى شعر العدائين أكثر من غيرهم وأكثر من حديثهم عن الأسلحة الأخرى ، فاذا ضاقت عليهم السبل أطلقوا لسيقاتهم العنان .

وكان بعض هؤلاء العدائين يبلغ من ثقته بنفسه وسرعة عدوه أن يغير وحده كما كان يفعل تابط شرا (١) وكما كان يفعل الشنفرى فى كثير من الأحيان (٢) .

ونجد شعر العدائين صورة واضحة مفصلة لا عن صراعاتهم وحياتهم فقط ، وإنما عن كل ما يحيط بالحوادث وتفاصيلها ، فشعر العدائين أدق شعر الصعاليك من حيث دلالة على حياتهم وعلى البيئة من حولهم ، وعلى نفسياتهم وتقلبهم مع الأحداث ، وشعر الهذليين من أوضح الأمثلة لذلك ، فمثلا نرى صخرا الذى فى قصيدة واحدة ليست بالطويلة (٣) يصف حياته كلها فى الصحراء ، واصفا الصحراء نفسها ، وما يراه حوله من أحوال الطبيعة ، مركزا على منظر السحاب الذى تشبه قطعه الضخمة السائرة سفنا ضخمة محملة بمخبر عباب البحر ، والبرق يلعب بينها كأنه قدح البشير ، ثم يصفه حين أمطر و « أسال من الليل أشجانه » وكيف أن الوديان الشاسعة تحولت الى أحواض كبيرة من الماء ، حتى أن ما بين وادى القصور الى يللمم أصبح حوض ماء ، وكيف أنه حين جفت الأرض وأصبحت صالحة للمشى أراد أن يستفيد من ذلك المطر ، وكل فائدته بالنسبة إليه أن يملأ قريته من أحد هذه الأحواض قبل أن تجف متحذرا خلال ذلك عن أن هذه الأحوال كلها لا تمنع أعداءه أن يتربصوا به ، ولذلك فهو يحاذر حذرا شديدا فى كل خطوة ، ويتخير الطرق التى يأمل فيها النجاة من تربص أعدائه .

والأعلم الهذلى فى قصيدة أخرى يقص قصة دقيقة مفصلة لحادثة نجاة من أعداء كانوا مترصدين له ، وفى هذه القصيدة نجد القصة كاملة ، بل نجدها أدق وأكثر تفصيلا وتوضيحا للمشاعر مما ترويه الروايات (٤) وفيها يصف أنه فوجئ بأن أعداءه قيد رمية منه فانتابه فزع شديد أذهله عن كل شيء إلا انطلاقه الشديد فى العدو ، مصورا مطاردة عدائين آخرين لهما وكيف أن الأعداء يغرون عداءهم باللاحق بالأعلم وصاحبه ويحثونهم بأقصى قوة ، والأعلم أيضا يحث صاحبه بأقصى قوة على العدو ، والطريف أن الأعلم خلال عدوه ظل يتصور صورا مفزعة من حاله لو تمكن منه أعداؤه ، متصورا سيفا صارما يهوى عليه (٥) ومتصورا نفسه جثة تهوى عليها الطير ، وتتسابق إليها الضباع والذئاب

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧١/١ .

(٢) انظر اللامية وخاصة البيت الرابع والخمسين .

(٣) انظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ - ٧٦ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا .

(٤) المصدر السابق ٧٧/٢ - ٨٣ وهى نحو اثنين وعشرين بيتا وأولها :

لما رأيت القوم بالعلاء دون قدى المناصب .

(٥) انظر البيت التاسع من القصيدة .

والثعالب مصورا تصويرا جميلا هذه الضباع التي يخشاها في سواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، ونزع الضباع لجلد الفريسة كما ينزع الحداد غشاء عن جفن السيف ، وآذان هذه الضباع التي تشبه مغارف الطعام الكبيرة ، ويصف كيف أنه ظل يعدو كذلك حتى اقتصف النهار عدوا داثبا جامدا ، وصور الخوف من وقوعه في أيدي أعدائه وما يفعلونه به وما يترتب على ذلك ، فمن هذه الصور أولاده وأهله البؤساء لو هلك لاضطرتهم الحاجة الى سؤال الأقارب وهكذا •

وفي قصيدة تلى هذه القصيدة يصف جوانب أخرى من الحادثة السابقة في مطاردة جذيمة العبدى (١) وفي قصيدة بعدها يصف الأعلام صراعه مع عدو آخر ، وإعداداته سلاحه لهذا الصراع •

وأبو خراش يصف أيضا في شعره صورا من صراعه مع أعداء كثيرين ، في حوادث كثيرة ، منها قصته مع ابني شعوب واصفا عدوه ، واعتزازه بقوته وقوة قومه (٢) وقصته مع واقد (٣) ، وقصة نجاحه من خزاعة بعد أن كادوا يفتكون به (٤) وقصة صراعه مع بنى بكر (٤) •

وأما غير العدائين فنجد التعبير بالحرب والقتال شائعين في شعرهم ، لأنهم يعتمدون في صراعهم المباشر مع الأعداء على القتال بالسيف وأدوات الحرب العادية المألوفة لديهم • وصور الصراع مع الأعداء في شعر الصعاليك عامة كثيرة مختلفة ، ولكنها جميعا توحى بصراع دائم أو مترقب دائما ، كما يقول عبيد ابن أيوب :

فما زلت منذ كنت ابن عشرين حجة أخا الحرب مجنيا على وجانيا (٥)

ويعبر عمرو بن براقة عن استمرار صراعه مع أعدائه فيقول :

فلا صلح حتى تعثر الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

ويصف حاجز بن عوف راحة نفسه وشفاء صدره حين رأى صورة من صور نصره على أعدائه فيقول :

ولقد شفاني أن رأيت نساءكم تبكين مردفة على الأكفال (٧)

(١) ديوان الهذليين ٨٣/٢ - ٨٥ وأولها

أعبد الله ينذر يا لسمه دمي ان كان يصدق ما يقول

(٢) المصدر السابق ١٣٢/٢ - ١٣٦ وأولها « هدونا عدوة لا شك فيها » •

(٣) المصدر السابق ١٣٨/٢ - ١٤٠ وأولها « أواقد لم اغررك في أمر » •

(٤) المصدر السابق ١٤٤/٢ - ١٤٨ وأولها « رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع » •

(٥) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ •

(٦) أمال القالي ١١٩/٢ •

(٧) مهنذ الأغاني ٩٣/١ •

ويصف عمرو بن عجلان تصميمه على مواصلة صراعه مع أعدائه حتى يرى
نساءهم يضرين صدورهن بالنعال كعادتهن في البكاء على القتيل فيقول :

وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال (١)

ويصف مالك بن الربب صورة من قتاله مع منازلته فيقول :

خذا واني لضراب اذا اختلفت ايدى الرجال بضرب يختل البصلا (٢)

ويصف مالك بن حريم صراعهم مع أعدائهم ، وشفاء نفوسهم بدماء العدو ،
وبسالة فرسانهم في طلب النار والدفاع فيقول :

نريد بنى الحيفان أن دماءهم شفاء وما والى زييد وجمعا
يقود بأرسان الجياد سراتنا لينقمن وترا أو ليدفعن مدفا (٣)

وجند بن ضبيعة الذي كان معدودا من فرسان قومه بنى بكر ، بالإضافة
الى صفته كصعلوك ، يتحدث عن وضعه في الحرب فيقول :

اذا الكمة بالكمة التفت أمخدج في الحرب أم آتمت (٤)

وأما سعد بن ناشب فلا يقبل من عدو أن يصع له خدا ، وإنما يخطمه
بشراسة وفضافة حتى يقيم معوجه فيقول :

أقيم صفا ذى الميل حتى أوده وأخطمه حتى يعود الى القدر (٥)

ولكن عروة بن الورد يرسم نموذجا عاما للصعلوك ، كما ينبغي أن يكون
عليه صراع كل صعلوك مع أعدائه ، أو هو الوصف لصراع الصعلوك الحقيقي
كما يراه فيقول :

ولله صعلوك صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور (٦)
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيع المشهور (٧)

(١) ديوان الهذليين ١١٥/٣ .

(٢) مهذب الأغاني ١٣/٥ وخذا معنى الضربة ويختل يريد يفلق والبصل الخوذة من
الحديد على الرأس .

(٣) الاصمعيات ٦٠ ويلاحظ أنه قال هذه القصيدة في أخريات عمره كما يدل مطلعها فهي
لا تمثل الا ذكرياته كصعلوك .

(٤) حساسة أبي تمام ١٩٦/١ والمخدج الناقص يعنى حينئذ يعلم الناس هل ولدتنى أمى
تاما أم ناقصا .

(٥) المصدر السابق ٣٧١/١ والصفا الميل والقدر الاعتدال .

(٦) الاصمعيات ٣٥ وحساسة أبي تمام ١٦٠/١ والقابس والمتنور حامل النار يعنى متوقدا
حركة وحيوية .

(٧) المسبح المشهور نوع من قذاح الميسر السيئة الحظ يعنى ينفرون منه نفور اللاعبين من
القدح التمس .

إذا بعثوا لا يأمنون اقترباه تشوف أهل الغلب المنتظر (١)

صراع الهموم

قد يبدو غريباً أن تقرر هموم الصعاليك بحديث خاص ، ولكننا حين نستعرض شعرهم نرى أن حديث الهموم فيه غير خفى ولا غابر ، بل نحس أن الهموم كانت جانبا من الجوانب القاسية في حياتهم ، والتي عانوا منها وظلوا في صراع غير يسير معها .

ولكن الذى يلفت النظر هو التساؤل عما يمكن أن يكون مصدرا للهموم في حياة الصعاليك ، مع بساطتها وعدم تعقيدها ووضوح أهدافها ، ومع قوتهم البالغة في مواجهة الصعاب وتخطي العقبات ان لم يكن تحطيمها ؟

والواقع أن ذلك لا ينفي وجود الهموم ، ولا يتعارض مع كون الهموم جانبا بارزا في حياة الصعاليك بل يمكن اعتبار بعضه من الأسباب المهمة في سيطرة الهموم على نفوس الصعاليك ، فهذه القوة التي وهبوا إياها في نفوسهم عامل من عوامل الهم والانقباض ومن المعروف أن أقرب النفوس إلى القلق والهموم والانقباض هي النفوس القوية ، سواء كانت قوية في تفكيرها أو آمالها أو مقوماتها الأخرى ، لأن هذه القوة تفتح أمام صاحبها أبوابا كثيرة من الإدراك ، وأبوابا كثيرة من الآمال والأهداف ، وأبوابا أخرى من الإحساس بأشياء قد لا يحس بها غيرهم ، ومن التفكير في وسائل وسبل لبلوغ الأهداف أو تحقيق أغراض قد لا يحتاج غيرهم إلى التفكير فيها ، وكل هذه الأبواب والإحساس منافع وثقوب وشقوق في نفس صاحبها من شأنها أن تخلق في نفسه صراعا ودوامات ، يحس بها هو ، لأنه يديرها في نفسه ويتأثر بها ، ولا يحس منها غيره إلا وصف هذا الشخص بأنه يعاني هما أو قلقا .

وقد تكون أبعد النفوس عن القلق والهموم النفوس الضعيفة ، الضعيفة في إدراكها وتفكيرها والضعيفة في آمالها وأغراضها ، والضعيفة في إحساسها بما حولها وبحقيقة الطريق الذي تسلكه في حياتها وما يكمن في هذا الطريق لهم ولغيرهم . ولكن نفوس شعرائنا الصعاليك كانت قوية في كل شيء ، قوية في إرادتها ومقوماتها كما رأينا في أخبارهم وشعرهم ، وقوية في إدراكها وتفكيرها ، وليست في حاجة إلى التدليل على ذلك ، لأن شعرهم نفسه هو الدليل .

فهذه القوة في نفوس الصعاليك اذن أول منابع الهموم في نفوس الصعاليك وهناك منابع أخرى تخص الصعاليك بعضها عام وبعضها خاص ، فمن العام مثلا

(١) المنتظر المنتظر الرجوع يعنى يترقبون سطوه عليهم ترقب أهل الغائب المرتقب الرجوع .

شعور الصعلوك ولو شعورا خفيا بأنه يملك من المقومات ما لا يملكه كثير من الناس ، يملك شجاعة وبأسا شديدا تهفو كثير من النفوس الى أدناه فلا يتاح لها ، ويملك عقلية فذة وتفكيرا عميقا يصوغه شعرا ، ويملك أشياء أخرى قد لا يملكها كثير من الذين يتمتعون بالسيادة والغنى والجاه في الناس ، ومع ذلك فهو لا يملك حتى لقمة العيش ، ويقضى حياته يصارع صخور الجبال ورمال الصحراء ووحوش القفار وأعداء كثيرين لا لشيء الا لمجرد أن يعيش ، يشعر بصفة عامة أنه في غير المكان الذي يليق به ، وأنه لم ينصف بهذا القسط القاسي المظلم الذي أعطيه من الحياة ، ظلمه الناس حيث أنكروا أن يكون له في مكانتهم مكانا ، وأن يكون له في عيشهم عيشا ، ليس ذلك شيئا يبعث الهم والانقباض في كل نفس حساسة كنفس الشاعر ، قوية كنفس الصعلوك ، فكيف اذا اجتمعت الشاعرية والصعلكة كشعرائنا الصعاليك ؟

وهذا كله يعتبر من الأسباب العامة التي يمكن أن تكون سببا مباشرا أو غير مباشر للهموم ، ولكن حياة الصعاليك لا تتركهم للأسباب العامة وحدها ، وانما تهيل عليهم كل يوم أسبابا خاصة بكل منهم من شأنها أن تملأ النفس هما وحزنا وانقباضا ، فهذا مثلا واحد منهم له رفيق يعانين معا مخاطر الحياة ومشقاتها ينظر فاذا رفيقه قد اغتاله سهم من سهام الأعداء ، وهذا شخص يضطره العيش الى أن يترك صبية أشوق ما يكون الى التمتع بحياته معهم ليشخص في رحلة نائية مسرفة في النأي ، مبتعدا عنهم غير آمن أن يعود اليهم مرة أخرى ، وهكذا من ظروف كثيرة قنبت في حياة كل منهم كما سنرى بعض ذلك خلال هذا الحديث ، والذي يبدو واضحا من حديث الصعاليك عن الهموم أنهم لا يتخذونها موضوعا مستقلا كشأنهم في أغلب ما يعرض له شعرهم ، وانما يتحدثون عن الهموم حديثا عارضا ، والفارق بين الاثنين أن الموضوع المخصص يدعو الشاعر الى الخوض في معانيه محاولا بما توحى شاعريته أن يبرزه في ثوب من الخيال أو المبالغة أو التزيد حتى يصبح موضوعا متكاملا ، أما عرض الصعاليك لهمومهم وأغلب ما يعرض له شعرهم فهو حديث النفس المجرد من الخيالات في انشاء المعاني أو المبالغة التي تخلق معاني غير واقعية ، أو التزيد الذي يقال على المعنى ليخرجه موضوعا متكاملا ، حديث النفس كمجرد انعكاس لما تعانيه وتصارع ، في صورة الخبر الموجز ، بل الذي يصاغ في أقصى ما يمكن من إيجاز في كثير من الأحيان ، ولذلك نجد عمق الصعاليك وكثرة ما يحمله شعرهم من معان ليس في كثرة الالفاظ أو تعداد المعاني وانما في الإيحاءات التي يوحىها الصدق والتجربة بأكمل ما يعنيه - لا أقول هذان الاصطلاحان على أنهما من اصطلاحات النقد الأدبي - وانما أقول بأكمل ما يعنيه هذان اللفظان ، لأن صدق الصعاليك ليس مجرد صدق فني - وانما هو صدق حقيقي ، وتجربتهم ليست تجربة نفسية شعورية فحسب ، وانما هي التجربة الحقيقية الواقعية في كل ما يعرض في حياتهم ويعانونه ، بل يصارعونه ، ثم يعكسونه بصورته

في نفوسهم ليكون شعرا مطابقا كل المطابقة لصورته في نفوسهم ، ولصورته في صراهم معه في واقع الحياة .

والشنفرى يصف لنا همومه وثقلها على نفسه ، وأن هجومها أقوى من أى محاولة لردّها ومهما حاول صدها فانها تأبى الا أن تعود ، حتى أصبح يعرف ويترقب مواعيد زيارتها كما يترقب صاحب الحمى المتقطعة زيارة حماء ، فيقول :

والف هموم ما تزال تعود عيادة كحصى الربع أو هي أثقل (١)
إذا وردت أصدرتها ثم أنها تشوب فتاتي من تحيت ومن عل (٢)

ومع دقة هذه الصورة عن هموم الشنفرى ، أعنى تصويره لاحتساسه بالهموم ، مع ذلك نجد أدق ما فيها إحياءات ألفاظها البالغة الإيجاء ، فمثلا لفظ « ألف » يوحى بأنه أصبح أليفا للهموم معتادا عليها وكذلك « ما تزال » يوحى باستمرار توارد الهموم عليه وكذلك توعده يوحى بثقل الهموم عليه كأنه مريض منها ، وكذلك « إذا وردت أصدرتها » يوحى بالصراع العنيف الذى يعانى مريض في مد الهموم وجزرها في نفسه وكذلك « من تحيت ومن عل » تعبير يوحى بأن الهموم قد لفته وأغرقتة ، وأنها تأتي من مصادر عدة وأسباب مختلفة ، وكذلك لفظ « تحيت » وحده يوحى بقربها والتصاقها المؤلم به ، وكونها كالقراش ولكن لا مهرب منه ، بالإضافة الى إحياءات أخرى مثل التأكيد الذى يوحى « تعود عيادة » والتفضيل فى « أثقل » والإطلاق فى « عل » بما يوحى من فضاء واسع قد يكون كله هموما متلاحقة نازلة عليه ، والصورة كلها مع ذلك لها فى جملتها إحياء خاص فوق إحياء الألفاظ والتراكيب ، وقد يكون ذلك من نواح كالتنكير فى هموم الذى يوحى بكثرة الهموم وتنوعها ولكن الذى يستوقفنا بأعجاب أمام صورة الشنفرى هذه أن يكون علم النفس الحديث مؤيدا للشنفرى فى تشبيهه عيادة الهموم بعيادة الحمى المتقطعة ، فإن من أحدث ما وصلت اليه بحوث علم النفس منذ بضع سنوات فقط ، أن الشخص الذى تنتابه الهموم والانقباض تنتابه فى فترات تردد دورى ، بحيث يستطيع أن يسجل ترددها . وبالتالي يستطيع أن يعرف مواعيد ترددها (٣) .

ومعنى هذا أن الشنفرى لم يكن متخيلا ولا متكلفا فى صورته هذه عن الهموم ، وإنما كان معبرا عن واقع يحسه ويعانى منه ، وهذا هو السبب فى أنه

(١) من اللامية وحصى الربع بكسر الراء المشدة من الحمى التى تأخذ يوما وتدع يومين ثم تحي يوما ثم تنصرف يومين وهكذا .

(٢) أصدرتها صدقتها وتشوب ترجع وتحيت تصغير تحت .

(٣) أنظر صحيفة الأخبار ، أعداد شهرى إبريل ومايو سنة ١٩٦٣ باب « أخبار العلم »

نقلا عن مجلة اجنية .

استطاع أن يسبق بمعنى واقعي يبدو في صورته التي صورها الشنفرى وكأنه خيال شاعر .

ويؤيد هذا أن الشنفرى وإن كان سابقا بهذا المعنى وتصويره ، إلا أنه لم يكن الوحيد الذى صورته من الصعاليك ، فهذا جحدر بن معاوية (١) يعبر عن هذا المعنى بالصورة التي صورها الشنفرى ، وبالمعنى الذى توصل إليه علم النفس الحديث ، حيث يقول وهو فى سجن الحجاج :

تأويني قبت لها كنعيا هموم ما تفارقني حواني (٢)
هي العواد لا عواد قسومي أظن عيادتي فى ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عني ثنى ريعانهن على ثنائى
وكان مقر منزلهن قلبي فقد أنفهنه والههم آنى (٣)

ومهما تكن من أسباب عامة لهوم جحدر ، فهناك سبب خاص واضح من أسباب هذه الهوم ، وهو كونه فى السجن جيسا يترقب نهاية رهيبية كما يقول بعد ذلك فى القصيدة .

وتأبط شرا يتحدث أيضا عن الهوم التى تنتابه ، وعن الأرق الذى يعتاده ، وهو وإن لم يوضح هذا المعنى كما وضحه الشنفرى وجحدر ، إلا أنه يصرح به فى قوله « يا عيد » من التعود وفى قوله « ايراق » من الأرق ، مبينا سبب هذا الهم المؤرق ، وهو أنه يعيش حياته طيفا يسرى فى ظلام الليل طراقا للأهوال ، ساريا فوق المخوفات من الحيات وغيرها ، حافى القدمين على هذا السرى الطويل ، وفوق ما يطؤه من مخاوف فيقول :

يا عيد مالك من شوق وايراق ومهر طيف على الأهوال طراق (٤)
يسرى على الأين والحيات محتفيا ، نفسى فلأؤك من سار على ساق (٥)
ويشير قيس بن الحداذية الى تعود الهوم وتردها عليه ، حيث بدلت حياته بالوداعة والأنس صراعا رهيبا مع الأعداء فيقول :

وبدلت من جلواك يا أم مالك طوارق هم يحتضرن وساديا
وأصبحت بعد الأنس لابس جبة أساقى الكماة الدارعين العواليا (٦)

(١) انظر أمالى القالى ٢٧٧/١ وفيه (لجحدر وكان لصا ميرا فأخذه الحجاج فحبسه .. الخ) وفى الصعاليك جحدران ، ابن ضبيعة وهو جاهل ، وابن معاوية وهو معاصر للحجاج فتعين أن يكون المقصود جحدر بن معاوية .

(٢) المصدر السابق ، والكنيع المنقبض .

(٣) أنفهنه أعينه وهذا البيت يعتبر سابقا لقول المتنبي فى قصيدة الحمى المشهورة (بذلت لها المطارف والحشايا .. فعافتها وباتت فى عظمى) يعنى الحمى .

(٤) العيد ما يعتاد الانسان والايراق من الأرق وطيف يعنى نفسه فى الظلام .

(٥) الأين الكلال والجهد والشطرن الثانى يعنى لاراحلة له ، المفضليات ٢٧ .

(٦) أعانى الأصفهاني ١٥٤/١٤ وجبة يعنى الدرع ولعل أصلها جنة بالنون والكماة الشجعان و الدارعون لابسو الدروع والعوالى الرماح ومن الجميل فيه لفظ « أساقى » .

ومالك بن الربيع يعرض بعض الأحداث التي أثارت في نفسه الهم والألم ، ومن ذلك اضطراره لترك ديار قومه ، وترك ابنته ليسافر الى خراسان مع الوالي (١) طلبا للعيش الذي ضاق في موطنه ، ويصف مالك وداعه لابنته ، وبكاء ابنته في توديعه ، وأثر ذلك في نفسه وصفا مؤثرا بالغ التأثير فيقول لابنته حين رآها تبكي بكاء مرا وهي تودعه :

اسكتي قد حزنت بالدمع قلبي طالما حز دمعك القلوبا
فحسني الله أن يدافع عني ريب ما تحذرين حتى أووبا (٢)
ودعي أن يقطع الآن قلبي أو تريني في رحلتى تعذيبا

وحتى حينما أدركه الموت في رحلته هذه لم ينس الم هذا لوداع المحزن فيقول من مرثيته :

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتى سفارك هذا تاركى لا أباليا
ومرثيته هذه التي قالها عندما أحس الموت في غربته ، تعتبر كلها
أنة حزينة عميقة الحزن ، نفت فيها مالك بن الربيع هموم حياته كلها ، ومشاعر
حاضره كله ، وصاغ ذلك كله في أبيات تحدرت من فمه كما تتحدر دموع حرى
من مآقيها (٣)

وأبو خراش انبعثت له في حياته أحداث كثيرة أثارت الهموم والأحزان
في نفسه ، وملأت قلبه كآبة وانقباضا ، ومن ذلك فقد فقد بعض اخوته الذين
يقول عن فقدهم :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهم صبرت ولم أقطع عليهم أباجلى (٤)
وأشد ما ملأ نفسه حزنا وهما فقد أخيه عروة ، الذي كان ساعدا له في
حياته ، والذي كان يرجيه لعظام أموره ، حتى أنه كان يتصور أن مما يهون
عليه الموت شعوره بأن وراءه سندا هو عروة حيث يقول لعروة قبل مقتله •

لعلك نافعى يا عرو يوما إذا جاورت من تحت القبور (٥)
إذا راحوا سواى وأسلمونى لحشناء الحجارة كالبعير

ولكن الأمر انعكس ، فعروة هو الذى مات قتيلًا قبل أبى خراش فحزن
عليه أبو خراش حزنا عميقا متصلا ، فمرة يقول عنه •

(١) سعيد بن عثمان بن عفان •

(٢) ما تحذرين يعنى الموت وأؤوب أرجع والأبيات في مذهب الأغاني ١٥/٥ •

(٣) القصيدة سبق ذكرها عند الاختلاف في شعرهم •

(٤) ديوان الهذليين ١٢٣/٢ والأبجل أحد المروق •

(٥) ديوان الهذليين ١٣٦/٢ ومن بمعنى الذبن وحشناء الحجارة يعنى الحفرة والبعير تشبيه

للقيب بالجميل البارك •

قوائله لا أنسى قتيلا وزنته بجانب قوسى مامشيت على الأرض (١)
ويصور أبو خراش تجدد حزنه وهمه على فقد عروة كلما تذكر مبيتها
أو مقبلا جمعها ، ويصور الهموم التي تعاوده كلما طلع عليه صباح ، فيقول
مخاطبا امرأة عروة :

ولا تحسبى أنى تناسيت عهدى ولكن صبرى يا أميم جميل
ألم تعلمى أن قد تفرق قبلتنا خيلا صفاء مالك وعقيل (٢)
أبى الصبر أنى لا يزال يهيجنى مبيت لنا - فيما خلا - ومقيل
وأنى إذا ما الصبح آنست ضوؤه يعاودنى قطع على ثقيل (٣)

وقد تجمعت هموم أبى خراش كلها ، وحزنه كله فى صورة رثائه لقريبه
خالد بن زهير ، ومن الواضح أنه ليس حزنه على زهير وحده مصدر هذه الهموم
الطاحنة التي يعانيتها ، وإنما هى إحدى المناسبات التي يبيع لنفسه أن يتحدث
فيها الى الناس بهوميه وأحزانه الكثيرة ، قديمها وحديثها ، مقنعا إياها
بقناع المناسبة التي يتحدث فيها فيقول من شعره فى هذه المناسبة ، وكما
قال آنفا « يعاودنى » معبرا عن اعتياد الهموم وتردها ، فكذلك يكرر هذا
المعنى فى قوله :

فبانت تراعى النجم عين مريضة لما عاليا واعتادها الحزن بالسقم (٤)
وما بعد أن قد هدنى الدهر همة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٥)
وما قد أصاب العظم منى مخامر من الداء داء مستكن على كلم (٦)
وأن قد بدا منى لما قد أصابنى من الحزن أنى ساهم الوجه ذوهم
شديد الأسى بادی الشحوب كأننى أخو جنة يعتاده الحبل فى الجسم (٧)

ومالك بن حريم الهمدانى يستعرض همومه وأحزانه على قتل أخيه أيضا ،
ويقارن همه وحزنه بحزن الناس فلا يرى له مثيلا مهما كانت دواعى الحزن
المألوفة لديهم ، حتى أصبح « ينظر فى وجه الرجال فلا يعرف شيئا » وحتى
أصبح الفراش غريبا عليه ، لأنه لم يعد يالف مضجعا فيقول :

لا أسمع اللهو فى الحديث ولا ينفعنى فى الفراش مضطجع
لا وجد تكللى كما وجلت ولا وجد عجول أضلها ربيع
أو وجد شيخ أضل ناقته يوم رواح العجيج إذا دفعوا

(١) المصدر السابق ١٥٨/٢ وقوسى موضع .

(٢) شخصان يضرب بهما التل من غابر الام .

(٣) ديوان الهذليين ١١٦/٢ ، ١١٧ .

(٤) ديوان الهذليين ١٥١/٢ ، ١٥٢ وعاليا أثقلها وبلغ منها .

(٥) تضال تضال ورق عظمى نحل جسمى .

(٦) مخامر داء مستكن ملازم والكلم الجرح .

(٧) الأسى الحزن والجنة من الجنون والحبل بسكوه الباب فساد العقل والجسم ، وفيه

إشارة واضحة فى الالتقاء مع الشيلفى وجعفر فى تصويرهما السابق للهموم .

- ينظر في وجه الرجال فلا يعرف شيئاً فالوجه ملتحم (١)
وكذلك عبید الله بن الحر يتحدث عن فلق الهم قلبه فيقول :
فلو فلق التلهف قلب حتى لهم اليوم قلبي بانفلاق (٢)
وهذا سجين من الصعاليك يصف ما يورده عليه السجن من هموم
مختلفة ، وما يذكره به من ذكريات مؤلمة فيقول :
أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب ان ذا لعظيم (٣)
وهكذا نجد الهموم كثيرة متلاحقة في نفوس الصعاليك ، وهي وان اختلفت
أسبابها وتنوعت مثيراتها الا أنها في نهايتها هموم تتوالى عليهم ، وتمثل جانبا
مهما من جوانب صراعهم في الجوانب المختلفة من حياتهم ، ومع ذلك فحين تتأمل
همومهم وأسبابها المباشرة ، قلما نجد ثقل الهموم التي يعانونها مناسبة
للسبب المباشر الذي يذكرونه ومن هذه الأسباب القليلة المناسبة لما يذكرونه
من هموم قول أبي الطمحان :
أرقت وآبنتي الهموم الطوارق ولم يلق مالاقيت قبلي عاشق (٤)

فمثل هذا النوع المألوف ، والذي يتناسب مع السبب المقروء به قليل
جدا في شعرهم ، أما الغالب فهو هموم ثقيلة الوطأة ، مضنية للنفس ، طاحنة
في القلب ، ككتير مما مثلنا ، ومثل هذا النوع من الهموم لا نستطيع أن نفتتح
بأن مصدره سبب معين مباشر ، وانما المعقول أنها هموم دفيئة كثيرة ، متعددة
الأسباب والدوافع في نفوسهم ، وأن الأسباب المباشرة التي يذكرونها انما
هي مفتاح تفتح به مخازن ضخمة لهموم كثيرة دفيئة .

الوحوش

ومن الواضح أن بين الصعاليك بحكم اعتماد حياتهم على التنقل في
الصحراوات والتخفي بها وبين الوحوش احتكاكا مباشرا . ولذلك نجد الحديث
عن الوحوش شائعا بارزا في شعرهم ، بل لا يكاد شاعر يخلو شعره من حديث
عن الوحوش ، بل أكثر من هذا أننا لا نكاد نجد قصيدة كاملة تخلو من الحديث
عن الوحوش ، اذا صرفنا النظر عن المقطوعات التي بلغتنا لأنها قيلت مقطوعات

- (١) أمال القال ١٢٠/٢ وربع في البيت الثاني يعنى شالة في مكان مفضل ومن معاني
الربع المنزل والمكان .
(٢) خزنة البغدادى ١٨/٢ في رداء الحسين بن علي .
(٣) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .
(٤) مهذب الأغاني ٣٦/١ .

أو لأنه لم يصلنا منها الا هذا القدر من الآيات، وليس من ريب في أن الوحش من أعداء الانسان ، ان لم يكن من أخطر أعدائه .

ولكن الذى يلفت نظرنا فى حديث الصعاليك عن الوحوش على كثرته أنه مسوق فى غير الصورة التى نتوقعها ، فالواقع أن الصعاليك لا يبدون خوفا من الوحوش ولا يظهر من شعرهم أنهم يعتبرون الوحوش خطرا فى حياتهم او مصدر قلق لهم كما يتبادر الى أذهاننا ، بل نجد حديثهم عن الوحوش يأخذ طابعين ، الطابع الأغلب ، وهو عكس ما نتوقع تماما ، حيث نراهم فيه يأنسون الى الوحوش ويمتدحونها وكثير منهم يعتز بجوارها وخلقها ويبدو فى حديثه وكأنه يتغزل فيها ، والطابع الثانى وهو الأقل ، نجد فيه حديثهم عن الوحوش عاديا ، يصفونها ويصفون حياتها وبعض خلقها ، وأحيانا قليلة خطورتها ، ولكنهم أيضا لا يتحدثون عنها على أنها مصدر خطر عليهم ، أو على أنها عدو يشغل بالهم كما تحدثوا عن مجالات كثيرة للصراع والعداء وسواء كان هذا أو ذاك فانه مما لا شك فيه ان شعرهم لا ينبىء عن أنهم يعتبرون الوحوش خطرا عليهم ، أو أنهم يضيقون بجوارها أو توقع لقاءها أو ترقب هجومها أو غير ذلك ، بل على العكس الذى يظهره شعرهم أنهم يأنسون اليها ، أو يرون جوارها شيئا عاديا على أقل تقدير ، هذا لا مجال للشك فيه كما يبدو واضحا من شعرهم ، ولكن هل يمكن أن نعتبر هذا أمرا عاديا لا يحتاج الى تفكير أو تعليل ؟ ومن حق المجيب عن هذا أن يجيب بأن هذا الحديث من الصعاليك عن الوحوش لا يمثل حقيقة احساسهم ، وأنهم يحاولون تغطية شعورهم الحقيقى وهو الخوف من الوحوش مقنعين اياه بقناع من أحاديث الشجاعة والجرأة وعدم الخوف من الوحوش ، ومن حق معترض أن يعترض على هذا المجيب ، بأن الصعاليك لم يظهروا فى حديثهم عن الوحوش شجاعة أو بأسا ، ولم يتخذوا من هذا المجال ميدان فخر لهم حتى نتهمهم بأنهم ينسجون لأنفسهم أثواب بطولة غير حقيقية يغطون بها خوفهم من الوحوش ، فلم يكن حديثهم عن الوحوش أنهم قاهرون لهذه الوحوش ، وانما يريدون أن يقولوا : الوحوش أهلنا وأصدقائنا وجوارهم خير لنا من جوار البشر . ومن حق مجيب آخر عن السؤال أن يجيب بأن الانسان ابن بيئته كما يقول علماء الاجتماع ، والناس ينفرون من الوحوش ويرون فيها نكرا منكرا لأنها بيئة غير بيئتهم ، أما الصعاليك فالامر بالنسبة لهم عكس ذلك ، لقد هجروا من جملتهم بيئة الناس ، ليس بأجسامهم ومعيشتهم فقط ، وانما بنفوسهم وعواطفهم أيضا ، بمعنى أنهم أصبحوا أعداء كارهين للناس ومجتمعاتهم ، وأصبحت بيئتهم التى يعيشون فيها بأجسامهم ونفوسهم وأمالهم هى بيئة الوحوش فليس غريبا أن يحاولوا التكيف مع الوحوش ، فيروا فيها من الفضائل ما لا يراه غيرهم ، ويروا فيها مخلوقات تشاركهم آلام البيئة وأمالها ، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من حقيقة لا تجوز فيها ، بل ليس غريبا أن يتابع بعضهم هذا المنطق فيرى فى الوحوش بيئته التى يألفها كل الالف ،

ويرى فى الناس بيئة غريبة عليه ينكرها كل الانكار ، كما ننكر نحن الوحوش ، لانها بيئة غريبة علينا . ومن هذا البعض الأجير السعدى الذى يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت اطيح (١)

وقد يجيب عن السؤال السابق مجيب ساخط على الناس ، بأن الوحوش ليست من النكر بالدرجة التى تصورها أو نتصورها ، وان فى الحيوان من الفضائل ما يخلج أخلاق البشر ، أليس فى الحيوان ما يضرب به المثل فى الوفاء ، فى حين يغدر الناس بعضهم ببعض لأتفه المطامع ؟ وأليس الحيوان أعف من بنى آدم فرجا ، حيث لا يتناكحن الا لبقاء النوع بالحمل ، فى حين يملأ بنو آدم أرضهم تننا بفضائح الاعراض والقروح ؟ وأليس الحيوان أملاً نفساً بالقلعة والرضا ، حيث لا يطلب رزقا الا حينما يجوع ، فاذا شبع كان عفيفاً زاهداً مهما أغرتة المغريات ، فى حين لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ، وفى حين يسعى الشبعان المتخممة خزائنه منهم ، ليفتصب لقمة الجائع الهزيل ؟ ، وقد يضيف هذا المجيب بأنه اذا كان الناس يعلمون ذلك وغيره من فضائل الحيوان ويضربون ببعضه الأمثال فان هناك فضائل أخرى للحيوان قد تكون أكرم وأسمى ، ولكنهم لا يحسونها لأنها فى بيئة غريبة عليهم ، فلم لا يكون الصعاليك يعيشهم فى تلك البيئة وتكيفهم معها قد أحسوا تلك الفضائل فأنسوا إليها وآثروها ، حتى زادتهم رغبة فى جوارها والقرب منها ، ورغبة فى البعد عن مجتمعات البشر ، وآية ذلك هذا الألف والود الذى يبدو واضحا بينهم وبين الوحوش ، فى حديثهم عنها ؟

وقد يجيب مجيب آخر بغير ذلك ، ولكنى أقول لهذا وذاك ، فلننظر بعض شعرهم ، فقد يهديننا الى جواب آخر ، وقد نجد فيه هو الجواب ، فيكفينا جهد الخلاف ، وحين نذهب الى شعر الصعاليك ، نقول أولا أنهم تحدثوا عن كثير من الحيوان الذى يعيش فى الصحراء وحشياً ، سواء أكان مفترساً أم غير مفترس ، بل لا نعلم أن حيواناً من حيوانات بيتهم لم يتحدثوا عنه ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ مجموعة من شعرهم عن حيوانات مختلفة ، يتفق كثير من حديثهم عن هذه الحيوانات مع معلومات بيتهم عنها ومع الأمثال المضروبة بهذه الحيوانات (٢) ولكن معظم حديثهم عن الحيوانات غير المفترسة كان حديثاً عارضاً غير مقصود لذاته ، يسوقه فى سياق مثل أو تشبيه ، كما يقول عبيد بن أيوب مشيراً الى زعم العرب أن الضب يصبر على العطش أمداً طويلاً ، والى أسطورة عن فرخ الضب والصفدع يرويها الجاحظ :

ظلت وناقتي نضوى فلاة كفرخ الضب لا يبغي ورودا (٣)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣ .

(٢) أنظر مجمع الأمثال للميداني وخاصة ما جاء على أفعال من الأبواب المختلفة .

(٣) أنظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦ .

وفى الهجاء تشبيهاً بالضرب (١) ، وكذلك القنفذ (٢) والغراب فى ضرب
المثل بحدّة بصره (٣) والفارة تشبيهاً بها فى الهجاء (٤) والأرنب (٥) والظبي
فى الصيد (٦) .

ولكن حديث الحيوانات المفترسة كان أحظى وأكثر اهتماماً ، فهم حتى وإن
ساقوه خلال غرض آخر إلا أنهم عندما يتحدثون عن هذه الوحوش يتوقفون وقفة
متأنية لتتال من حديثهم قدراً غير يسير ، فالشنفرى مثلاً فى سياق حديثه
عن سخطه العارم على الناس ، وتصميمه على أن يهجرهم الى مجتمع آخر ، ننظر
فاذا المجتمع الآخر هو مجتمع الوحوش ، وإذا هو يتحدث عنها لا حديث الخائف
الوجل ، ولا النافر المتوجس ، وإنما حديث الألف والود والأعجاب فيقول
مخاطباً الناس جميعاً فى لاميته :

ولى دونكم أهلون سيد عهلى وأرقت زهلول وعرفاء جبال (٧)
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبى باسل غير أننى إذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٨)

فهو إذن يهجر الناس الى بيئة الوحوش ، ثم يرى فى الوحوش أهلاً
كراماً لا يدعن سرا ، ولا يخذلن جانياً ، ثم يبدأ فى التكيف النفسى معهن ،
جامعاً بينه وبينهن فى معيشة مشتركة وسباق مشترك فى المعيشة ، وهذه
الشركة فى الحياة والآمال أقوى روابط التكيف الاجتماعى ومن هذه الزاوية
لا يكون حديث الصعاليك عن الفهم مع الوحوش خيالا أو مجازاً أو أى شئ غير
الحقيقة وإن لم تكن حقيقة كاملة ، ويوضح الشنفرى بعد ذلك فى القصيدة
نفسها هذه المشاركة مشيها حياته وسعيه لطلب العيش فى الصحراء ، بحياة
الذئب وطلبه للعيش فيقول :

واغلو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاده التناقف اطحل (٩)
وتتزايد هذه المشاركة والآلفة بينه وبين الوحوش حتى تنتهى الى التوافق
بينهما ، وكأنه واحد منها كما يقول فى آخر القصيدة إن أناث الوعل
ألفته كأنه ذكرها :

-
- (١) انظر الحيوان للجاحظ ٦٧/٦ ، ١١٣ .
(٢) انظر المصدر السابق ١٦٦/٤ ، ١٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٤٣١/٣ .
(٤) المصدر السابق ٢٦٣/٥ .
(٥) انظر مذهب الأغاني ٩٣/١ .
(٦) مذهب الأغاني ٩٣/١ .
(٧) السيد العهلى الذئب القوي وأرقت زهلول نر أملس وعرفاء جبال ضبع طويلة .
(٨) يقارن بينه وبين الوحوش قائلاً مع بسالتها فانا أسرع منها الى الصيد .
(٩) الأزل الذئب الخفيف الوركين والتنولة المفازة والإطحل الأغبر اللون وبعده آيات مكملة
للمعنى .

ترود الأراوى الصبح حولي كأنها عذارى عليهن الملاء المذيل (١)
ويركن بالآصال حولي كأنني من العصم أدنى ينتحي الكيج اعقل (٢)

وعبيد بن أيوب يصف أيضا مراحل الفتة مع الوحوش ، قائلا انه من أنكره أول الأمر ، فلما تعودن عليه ألفنه ، وازداد هذا الألف توتاحين شاركن جفاف الحياة وصعوبة العيش فيقول :

فاجفلن نفرا ثم قلن ابن بلدة قليل الأذى امسى لكن مصافيا
أكلت عروق الشرى معكن والتوى بحلقى نور القفر حتى ورائيا (٣)

ويؤكد عبيد حلفه للوحوش ، ولكن هذا الحلف لا يعنى تخلى كل منهما عن طبعه ، فإذا بدر الطبع من أحدهما فالآخر متيقظ له فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتنى بقرب عهدهن وبالبعد
وامسى الذئب يرصدنى مخشا لخفة ضربتى ولضعف أدى (٤)

ويتحدث الاحيمر السعدى عن حياته مع الوحوش فى القفار حين خلعه قومه وطارده السلطان فيقول :

« كنت أرى النوى فع رجيع الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر أحدا قبلى ٠٠ » (٥) ويؤكد هذا بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكنت أطير (٦)

وتأبط شرا أيضا يتحدث عن ألف الوحوش له ، وأطوار هذا الألف ، فيقول ان الوحوش تعودت رؤيته ليل نهار ، بل تعودت أن يبيت بمرأى منها ، فالفته لتعودها رؤيته ، ولكونها لم تجد منه أذى أو تعرضا لها فى معيشتها ، تحول الألف بينها وبينه الى ما يشبه الود ، حتى انها لتوشك أن تسلم عليه لو كانت تحسن السلام فيقول :

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا (٧)
ثم رأين فتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت انسا لصافحته معا (٨)

(١) ترود تذهب وتجرى والأراوى أنشئ الوعل والصبح السود الى صفرة والملاء نوع من الثياب .

(٢) الآصال جمع اصيل والأعصم الوعل فى ذراعه يياض والأدنى طويل القرن وينتحي يقصد والكيج عرض الجبل وسننه والاعقل الممتنع .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٥٩/٦ .

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٢٩٠/٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخاتجى مع اختلاف إسرى فى الألفاظ .

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخاتجى .

(٧) حساسة أبى تمام ١٩٠/١ والمغنى مكان النزول والطرير الثاني يعنى لا يمنحها من مرتع لها .

(٨) الططر الأول يعنى رأينه منصرفا من صيدهن الى شيء آخر .

فهذا الفريق من الصعاليك الذي مثلنا له بما سبق لا يرى فى الوحوش عدوا ، بل يرى فيه أهلا أو شريك حياة أو جارا غير لثيم على أدنى الفروض ، ولا يرى فى صلتها بها عداء ولا صراعا ، وانما يرى ألفا وودا أو سـلاما على أقل الفروض .

وهناك فريق آخر من الصعاليك ، لا يرى فى جوار الوحوش ألفا ولا ودا ، ولكنه أيضا لا يرى فيه عداء ولا صراعا صريحا ، وانما نحس أن فيه مجرد الغربة والتوجس ، أو لحذر على أبعد الفروض ، فما لك بن الريب يتحدث عن البيئة التى اضطرت الصعلكة الى ملازمتها والعيش فيها فيقول :

لما ترى الدار قفرا لا أنيس بها الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا (١)

وحتى حينما عدا ذئب عليه ليغتاله فقتله بسيفه ، اعتبر مالك هذا الحادث فرديا ، فلم تشعر أنه غير رايه أو أظهر رأيا أو مشاعر نحو الوحوش كلها ، وانما قصر حديثه على الذئب الذى عدا عليه وحده ، بل أكثر من هذا لم يندم الذئب بأكثر من قوله « أذئب الفضا قد صرت للناس ضحكة » (٢) ، بل مدحه فى مقابلة مدح نفسه بقوله :

فانت وان كنت الجرى جنانسه منيت بضرغام من الأسد الغلب (٣)

ولكن المهم أن هذه الحادثة لم ينعكس أثرها فى نفسه على نوع الوحوش كله وأكثر ما بلغنا من شعر الصعاليك عن الوحوش وعن البيئة بصفة عامة فى ثوب الصلوق والواقعية الحقة كان من شعر صعاليك هذيل وشعر الشنفرى ، وقد مثلنا من شعر الشنفرى واتجاهه نحو الوحوش .

وأما صعاليك هذيل فنجد فى شعرهم طابع المعاناة الحقيقية لحياة الوحوش والفقا ومراقبتها عن كثب ، وفى شعرهم صور رائعة عن بعض الوحوش ، تمثل لوحات فنية فى أدق صورها وقد أشرنا الى شىء من ذلك فيما سبق .

وصخر الغنى يرسم لوحة من هذه اللوحات ، تمثل حمارى وحش ، ويبدأ منظرهما فى روضة من أعشاب الصحراء يرعيان فيها ، وبعد أن شبعوا تهيأ لطلب الماء يشربان ، وقربا من الماء ، ولكنهما أحسا صائدا يرصدهما ، فدارا والتفسا حتى بعدا عن الماء ، ثم صعدا مرتفعا غليظا من الأرض ، ثم انحدرتا بقوة ، وهما ما يزالان فى بحثهما عن ماء آمن ، وظلا طول الليل هكذا ، وحينما أطل عليهما الصباح ، ظنا أن أزمتهما قد فرجت ، ولكنها كانت فى الواقع أزمة جديدة فيها الردى لهما ، اذ فوجئتا بخيل الصائدين تشيم الرماح فى صدورهما فيقول :

ولا علجان يتابان ووضا نصيرا نبتة عما تؤاما (٤)

(١) انظر مذهب الاغانى ١٠/٥ .

(٢) انظر مذهب الاغانى ١٦/٥ البيت الاول من القصيدة .

(٣) المصدر السابق « البيت الثانى من القصيدة »

(٤) ديوان الهذليين ٦٣/٢ - ٦٦ والعلج حمار الوحش والم بضم العين تام النبات

وتوام مزدوج .

كلا العليين أصغر صيعرى تخال نسيل متنيه اشغاما (١)

الى آخر هذه الصورة ، والذي يعيننا منها أنه ساقها مسبقا المراثيات التي يشاهدها ويتتبع أحوالها ، ثم ترى علاقته بها ، انها علاقة لا يتحدث فيها عن صراع ولا عداء الا فى حالة واحدة ، هي حالة الصيد ، حينما يحتاج الى أن يصيد ، وهو يصف نفسه صائدا فيقول :

أتيج لها أقيدر ذو خشيف اذا سامت على الملقات ساما (٢)
خفى الشخص مقتدر عليها يشن على ثنائها الساما (٣)
فيبدرها شرائعها فيرمى مقاتلها فيسقيها الزواما (٤)

فهذه صورة صراع مع نوع من الوحوش ، ولكنه صراع الخائف أو المدافع عن النفس ، وانما صراع الصائد المهاجم ، الذى يسقى صيده الموت الزوام كما قال :

والاعلم الهذلى يخشى الضبع ، ولكنه لا يخشاهما وهو حى قوى ، وانما يخشى سطوها على جثمانه لو صرعه أعداؤه ثم تركوه جزرا للوحوش من ضبع وذئب وتعلب وكذلك الطير ، ولكن ذهنه تركز على الضبع لشهرتها بتتبع الجيف ، فتصور نفسه جثة ملقاة ، تتجمع حولها ضباع سود كأن جلودهن ثياب رهبان فى سوادها ، ذات آذان طويلة كأنها مغارف الطعام ، يعملن فى نزع جلده كما يعمل القين فى غمد السيف ، ولا يكتفين بأن يأكلن منه ، وانما يجرون جثته الى جرائهن الصغار اللاتي تركهن وراءهن كما يقول :

فاكون صيدهم بها وأصير للضبع السواغب (٥)
جزرا وللطير المربة والذئاب وللشعالب (٦)
وتجر مجرية لها لحمى الى أجر حواشب (٧)
سود سحاحيل كان جلودهن ثياب راهب (٨)
آذانهن اذا احتضر نقريسة مثل الماذنب (٩)

- (١) أصغر صيعرى لاوى العنق والنسيل ما تطاير من شعرة والثغام نبات جاف .
(٢) المصدر السابق ٣٦٣/٢ وأقيدر قصير العنق والحشيف الثوب الخلق والملقات جمع ملقة المكان الأملس .
(٣) خفى مختبئ لصيدها ومقتدر قادر ويشن يصب والثمائى مواضع الطعام يصيبها منها والسام روى السهام .
(٤) الزوام الموت العاجل . والوحوش التى يعيها فى الايات الوعول والثغام كما ذكر فى بيت سابق .

- (٥) ديوان الهذليين ٧٩/٢ ، ٨٠ والسواغب الجياح .
(٦) مجرية ذات جراء هي صغارها وحواشب متفتحات البطن .
(٧) سحاحيل يريد ضخمة .
(٨) الماذنب مغارف الطعام .

ينزع عن جلد المرء نزع . ع القين أخلاق المذاهب (١)

ومثل هذا المعنى يرأود الشنفرى فى تصويره أن أعداءه سيقتلونه ، ويحملون رأسه ، ثم يتركون جسده للضباع (٢) .

ونخرج من هذا الحديث بأن نقول أنه لا يبدو من شعر الصعاليك أنهم كانوا يعتبرون الوحوش على خطورتها مشكلا أساسيا فى حياتهم ، أو عقبة فى سبيل صعلكتهم ، حتى أننا نرى مشاكل أخرى قد تبدو أيسر من الوحوش كالحصول على الطعام والماء كانت تشغل حياتهم وتؤرقهم أكثر مما تشغلهم الوحوش ، وقد يكون لمعيشتهم فى بيئة الوحوش والفهم لها ، وشعورهم النفسى بأنها البيئة التى لا مفر لهم منها أثر فى وجود شيء من التقارب بينهم وبين الوحوش من حيث الالف ، وذويان شيء من النفور الطبعى بين مجتمع الناس والوحوش ، ولكن ذلك كله لا ينفى خطورة الوحوش ، ولا احساسهم بالتوجس منها ، والمحاذرة من طبعها ، أعنى لا يعنى جهلهم أو تجاهلهم طبيعة الوحوش .

الوهم

فى المجتمعات البدائية تشيع الخرافات والأساطير ، يلقيها الطفل مع نظامه ، وتظل عالقة بذاكرته مهما أنست الأيام أياها ، فإذا أحاط به ظرف يساعد على ظهورها برزت فى ذاكرته وخياله الى الوجود ، بل الى التأثير فى نفسيته وسلوكه وإدراكه أو احساسه .

ومن هذه الخرافات فى المجتمعات البدائية وخاصة البادية ، الغيلان والسعالى ، والصور المختلفة للجن .

وحين نتحدث عن هذه الخرافات بالنسبة للصعاليك لا نستطيع التعميم ، فالواقع أننا حين نستعرض شعرهم نجد قلة قليلة هى التى تحدثت عن هذه الخرافات كشيء فى حياتها ، بل لعلنا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن اللذين تحدثوا عن الخرافات بهذه الصورة هما عبيد بن أيوب العنبرى وتابط شرا على وجه التحديد .

فأما عبيد بن أيوب فقد تحدث كثيرا فى شعره عن خرافات كثيرة كالغول والسعلاة ، والجن لا على أنها أشياء موجودة فحسب ، فلو كان الأمر كذلك لاختلف الحديث عنه ، ولكنه تحدث كثيرا عن أنه حالف هذه المخلوقات وعاشرها وجاورها ، أو صارعها وقتلها ، فى صور لا شك قط فى أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة وعن أدنى مراحل العقل فى تصديقها .

(١) القين الحداد والخلق البالي والمذاهب الحل المذمبة على جن السيف .

(٢) انظر حماسة أبى تمام ١٨٨/١ .

فهو يتحدث عن الغول مثلا بأنه رافقها بعد أن أوقدت حوله نارا وظلت
ترن بألحان مختلفة فيقول :

ولله در الغول انى رفيقها لصاحب قفر خائف يتستر
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر (١)

بل يزيد الأمر تفصيلا فيصف أنه لقي غولين ذكرا وأنثى فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتنى - بقرب عهدهن وبالبعاد
ثم - وغولا قفرة ذكر وأنثى كان عليهما قطع البجاد (٢)

وفى مرة أخرى لم يأنس الى الغول ، وإنما لقيت منه الدواهى كما
يقول :

ولقد لقيت منى السباع بليّة وقد لاقت الفيلان منى الدواهى (٣)

ومرة يتحدث عن السعلاة والغول فيقول :

وساخرة منى ولو أن عينها رات ما الأقيه من الهول جنت
أزل وسعلاة وغولا قفرة اذا الليل وارى الجن فيه أرنت (٤)

ويتحدث عن صفاته مع الغول بعد عدائهما فيقول :

وصار خليل الغول بعد عداوة صفيا وربته القفار البسابس (٥)

ثم يتحدث عن حلفه مع الجن بعد هجره الأنس ، وعن أن هذا الحلف
كان ناجحا قويا لأنه هو شبيه بالجن فى شكله وشمائله فيقول :

أخو قفرات حالف الجن وائتلفى من الانس حتى قد تقضت وسائله
له نسب الانسى يعرف نجله وللجن منه خلقه وشمائله (٦)

وينكر على أعدائه أن يغيروا عليه وهو الذى « يثير الجن وهى هجود »
كما يقول :

أقل بنو الانسان حتى اغرتم على من يثير الجن وهى هجود ؟ (٧)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي وفى الحيوان للجاحظ ٤٨٢/٤ برواية

شاذب متقفر ، وقفر • مكان متقفر •

(٢) الحيوان للجاحظ ١٥٩/٦ •

(٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ •

(٤) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦ •

(٥) المصدر السابق •

(٦) المصدر السابق •

(٧) المصدر السابق ١٦٦/٦ وأقل استلهم بمعنى هل قل

ويزعم أنه أصبح معروفا بأنه خليل الغول فيقول :

تقول وقد الممت بالانس لمسة مغضبة الاطراف خرس الخلاخل
اهذا خليل الغول والدثب والذي يهيم بربات الحبال الكواهل ؟ (١)

واما تأبط شرا فلم يبلغ ما بلغه عبيد بن أيوب من الوهم والاسراف في الخيال ، وانما هي حادثة واحدة ، تحدث عنها تأبط شرا في شعره بأنه قتل فيها الغول ، ولكونها حادثة واحدة قلنا فيما سبق انه من الناحية النظرية ، اذا نظرنا الى خبر كهذا فليس من الحتم أن نكذب دعواه ، لجواز أن يكون قد قتل حيوانا غريبا في الصحراء ، تمثل من شكله أنه الغول كما ارتسمت في خياله ولكننا من الناحية التطبيقية حين نرى حديثه عن هذا الحادث لا نجد مقرا من عمله على الوهم ومجانبة الواقع والحقيقة ، ومن الحديث العادي الذي يمكن معه محاولة الدفاع عن تأبط شرا قوله :

الا من مبلغ فتیان فهم بما لا قيت يوم رحي بطلان
باني قد لقيت الغول تهوى بقفر كالصحيفة صحصهان (٢)

ومن الحديث المسرف الذي لا يترك مجالا للدفاع عن تأبط شرا ، قوله انه جاور الغول وتأمل خلقتها ، بل وطالبها بضعها حيث يقول :

فاصبحت والغول لي جارة فيسا جاراتا انت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تهول فاستنولا (٣)

واذن فهذا النوع لا يمثل واقعا ولا حقيقة ، بل ولا استنادا الى شيء من الحقيقة ، وانما يمثل مجرد أوهام وخیالات بحتة .

ومع أن هذا النوع من الوهم لا يمثل ظاهرة عامة في الصعاليك ، وانما هو من قبيل الحالات الفردية التي يمكن أن تكون الى الشذوذ في محيط الصعاليك أقرب منها الى الظاهرة العامة بينهم ، نقول مع ذلك فهو في حاجة الى التعليل ، وفي محاولة تعليل هذا الوهم نعود فنقول ان بذوره من غرس الأساطير والخرافات التي تشيع في المجتمعات البدائية ، وخاصة البوادي ، حيث يلقتها الصغار مع أقاصيص الطفولة ، ثم تظل متداولة بين السذج والبسطاء ، وحين ينمو الطفل وتنضج شخصيته يحاول أن يتناسى هذه الخرافات والأساطير التي علقته بذكرته طفلا ، ولكن هناك ظروفنا يمكن أن تستخرج صور هذه الأساطير من الذاكرة وتسيدها ماثلة أمام العين ، وأكمل هذه الظروف وأصلحها لبروز الخرافات والأساطير حياة الصعاليك ، التي يعيشها معظمهم وحيدا أو شبيها

(١) المصدر السابق .

(٢) مجسم ما استجيب للبكرى ٢٥٧/١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والجمع الفرج .

بالوحيد ، فى صحراء مقفرة فيها كل عوامل الوحشة والخوف والرهبة الى ابعد حدودها ، هذه الحياة التى يرسم الاحيمر السعدى صورة منها ، كما يروى ابن قتيبة فيقول ، « وكان لصا كثير الجنائيات ، وخلعه قومه فخاف السلطان وهرب ، وخرج الى الفلوات ، وقفار الارض . وقال : انى ظننت انى قد جرت نخل وبار (١) أو قد قربت منها وذلك انى كنت أرى فى رجيع الذئب النوى ، وصرت الى مواضع لم يصل اليها احد قط ، وكذت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر منى لأنها لم تر غيرى قط ، وكنت آخذ منها لطعامى ما شئت الا النعام فانى لم أره قط الا شاردا نادا » (٢) ومهما يكن فى هذا من المبالغة أو شيء من الوهم الذى نتحدث عنه ، فانه يدل على حياة الوحدة والوحشة والرهبة التى يعيشها بعض الصعاليك وهذه الحياة هى التى نعى أنها أهم الظروف التى تساعد على تجسيد الخرافات والأوهام .

ومن هذا نقول ان حياة الصعاليك وبيئتهم تساعد على ظهور الخرافات والأوهام ، وأنما لو كانت شائعة بينهم لما كان ذلك غريبا ، بل يكون هو النتيجة الطبيعية المنتظرة ، خاصة وأنه صاحب وحشة البيئة ومخاوفها ووحدتهم فيها شعور عام بينهم بأنهم مطاردون ، مطاردة مطلقة مرتقبة من كل الوجوه ، من الأعداء وغير الأعداء كما سبق ، وهو شعور نفسى ثقيل الوطأة ، خطير الأثر ، وقد صور القرآن الكريم أثر هذا الشعور فى المنافقين بأنه يبلغ منهم أن يتصوروا أن كل صيحة انما هى خطر متجه اليهم ، حيث يقول تبارك وتعالى « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » (٣) وهو تحليل نفسى بالغ العمق والتعبير ، وقد كان هذا المعنى مورد للشعراء ينسجون على منواله ، وقد عدد المفسرون كثيرا من الشعراء الذين أخذوا من هذا المعنى (٤) وهذه الآية يمكن أن تكون تفسيرا للوهم الذى نتحدث عنه ، من حيث ان الشعور بالمطاردة - وهو أعمق وأوسع من مجرد الخوف - حينما يتمكن من النفس يفقد لها اتزان الادراك وسلامة الشعور فيتولد فيها الوهم مختلطا بالحقيقة ، كما توهم المنافقون تحت وطأة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم .

ومن حق معترض أن يعترض هنا بأنه اذا كان الأمر كذلك فقد كان ينبغي أن يكون الوهم شائعا فى شعر الصعاليك وأحاديثهم ، حيث أنهم بصفة عامة - كما تقرر سابقا - قد عانوا من الشعور بالمطاردة ، فقد كان ينبغي أن يكون لهذا الشعور العام بالمطاردة نتيجة عامة أيضا هى شيوع الوهم لديهم ممثلا فى الخرافات والأساطير ، ولكن قلة قليلة منهم قد لا تتعدى عييد بن أيوب

(١) مكان تزعم العرب انه لم تظاه قلم انسان .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجي وانظر المقدم الفريد ٢٩٠/٣ أيضا .

(٣) الآية ٤ من سورة المنافقون .

(٤) انظر للمثال تفسير الكشاف للزمخشري فى هذه الآية .

وتأبط شرا ، والأحيمر السعدي ، ان اعتبرنا في بعض حديث عبيد السابق
 شيئا من وهم ، هذه القلة فقط هي التي نجد الوهم في كلامها ، فلماذا لم
 يهم (١) الباكون ؟

ونجيب عن ذلك بأن الباقي كانت لديهم أسلحة مضادة للشعور بالمطاردة
 والخوف ، وهي القوة التي تميز بها الصعاليك ، والتي كانت ولا شك قوة
 غير عادية ، بل لا يتنازع في أنهم في جملتهم كانوا من القوة في قمة عالية ، وأبرز
 مظاهر هذه القوة التي قاوموا بها الشعور بالمطاردة والخوف هو الاستهانة بالموت
 كما سبق ، فهذه القوة التي تبلغ في بعض جوانبها حد الاستهانة العامة بينهم
 بالموت كانت سلاحا مكافئا للشعور بالمطاردة ، فلم يشمر شعور المطاردة ثمرته
 المنطقية المنتظرة ، وهي الوهم .

هذا عن أكثرية الصعاليك ، الذين حمتهم قوتهم واستهانتهم بالموت من
 سيطرة الشعور بالمطاردة إلى حد الوهم ، أما الأقلية التي لم يكن نصيبها من القوة
 كبيرا فقد تمكن في نفوسهم شعور المطاردة ، وسيطر عليها الخوف حتى بلغ
 بها درجة الوهم وفقدان الاحساس السليم بما حولهم من أشياء ، وليس هذا
 التفريق بين الصعاليك في هذا المعنى نظريا ، انما هو واقع ملموس في شعرهم ،
 فالواقع ان المستعرض لشعر الصعاليك يجد حديث الخرافات والوهم نشرا فيه ،
 فمع كثرة حديث الصعاليك عن الوحشة والفقر والوحدة والوحوش ، مع كثرة
 ذلك كله في شعرهم لا نجد اتجاها إلى حديث الخرافات والأوهام الا لدى هذه
 القلة ، وقد قلنا ان أهم سبب من أسباب هذه الخرافات والأوهام سيطرة
 الشعور بالمطاردة والخوف إلى درجة تتغلب على قوة صاحبها ، بمعنى أن تكون
 قوته أضعف من مقاومة هذا الشعور . وهذا الفارق بينهم في قوة المقاومة
 وضعفها نجده واضحا في شعرهم فأغلبية الصعاليك نجدتهم مع حديثهم عن
 الشعور بالمطاردة أو حتى الخوف ان عرضوا به يتحدثون أيضا عن قوتهم
 وصلابتهم واستهانتهم بكل شيء حتى الموت ، أما القلة التي غلبها الشعور
 بالمطاردة والخوف وغلب قوتها ، فأننا نجد ضعف المقاومة بارزا في
 شعرهم .

فعبيد بن أيوب الذي تمثل الوهم المشار إليه في شعره . حيث كان أكثرهم
 حديثا عن الخرافات والأوهام بصورة ظاهرة ، عبيد هذا نجد حديثه عن الخوف
 البالغ المتكمن من نفسه ظاهرا متميزا في شعره ، وكأنه هو نفسه يسوق لنا
 سبب الأوهام التي شاعت في شعره وهو الخوف الشديد غاية الشدة حيث
 يصور معنى الآية الكريمة السابقة تصويرا يكاد يكون حرفيا في قوله :

لقد خلت حتى لو تطير حمامة لقلت علو او طليعة معشر (٢)

(١) يهم مفارح ومم وما .

(٢) العيران للجاحظ ٢٤١/٥ .

ويصور مبلغ شعوره بفقدان الثقة في عليا درجاتها فيقول :
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشم
وخفت خليل ذا الصفاء ورأيتي وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (١)
ويبلغ قمة الشعور بالمطاردة حينما يطلب من وحشى الصحراء أن يخفيه
عن مطارديه فيقول :

الا يا ظباء الوحش لا تحدريني وأخفيني اذ كنت فيكن خافيا
بل انه ليثير الاشفاق عليه حينما يبلغ منه ذلك كله أن يتمنى مستعظما
لحظة يذوق فيها قلبه المخلوع طعم الأمن فيقول :

أذقنى طعم الأمن أوصل حقيقة على وان قامت ففصل بنائيا
خلعت فؤادى فاستطير فاصبحت ترامى به اليد القفار تراميا

وعبيد بن أيوب بهذا يريخ المستنجن وملتمسى الأسباب ، حيث يصرح
لهم بأن الخوف والشعور بالمطاردة قد بلغا منه هذا المبلغ ، فيقطع نصف الطريق
نحو النتيجة بذكره المقدمة المنطقية لها ، بل يمكن أن يقال انه صرح بالمقدمة
المنطقية ، وصرح أيضا بنتيجتها ، غاية الأمر أنه ذكرهما منفصلتين ، فلا ينقصهما
الا الترتيب المنطقي .

والجاحظ يسوق في تعليل هذا الوهم سببين أحدهما قوله « اذا استوحش
الانسان تمثل له الشيء الصغير كبيرا ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى ،
وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير الحقير انه عظيم جليل » (٢) وهو بهذا
يشير الى بيئة الصعاليك التى قلنا أنها من العوامل المساعدة على إبراز مكنونات
الذاكرة من الخرافات والأوهام وتجسيدها بقوله « اذا استوحش الانسان » .

والسبب الآخر يعرضه الجاحظ في قوله « ومما زادهم فى هذا الباب
وأغراهم به أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار الا أعرايا مثلهم ، والا عاميا لم
ياخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٣) ،
وبهذا يشير الى ما ألمحنا اليه من أثر البدائية فى تقبل الخرافات والأساطير
ونشرها فى المجتمعات البدائية ، وهذا يتضمن أن بعض الناس يحاول أن
يستغل سذاجه مجتمعه لابساً ثوب البطولة بهذه الخرافات التى تجد من
مذاجتهم مرتعا خصيبا .

ولئن كان السببان كلاهما ينطبق على عبيد بن أيوب ، فائنا نرى أن
السبب الثانى وحده هو الذى يمكن أن ينسب الى تابط شرا فى حديثه المحدود
عن بعض الخرافات ، لأن تابط شرا فى جملة صفاته وأخباره وشعره ، لم يكن

-
- (١) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .
(٢) الحيوان للجاحظ ٢٥٠/٦ .
(٣) المصدر السابق ٢٥١/٦ .

من الذين يفقدون الخوف أو الوحشة سلامة حسهم وادراكهم لما حولهم ، خاصة وأن في هذا الميدان كان عن حادثة واحدة هي حادثة قتله الغول فيما زعم ، وأنه لولا التفاصيل التي ساقها في هذه الحادثة لكان يمكن ان تلمس له فيها وجهها من وجوه الصديق .

صراع السلطة

وقد انفرد صعاليك الاسلام بصراع عنيف جديد ، هو صراع السلطة ممثلة في السلطتين التشريعية والتنفيذية .

وقد نظر صعاليك الاسلام فاذا شيء جديد يأخذ عليهم حياتهم من جميع أقطارها ، ويترصدهم مسالكهم ، بل يلاحقهم حتى في كهوفهم وخلواتهم ، بل وينفذ الى خبايا نفوسهم ، في كل وجه يجدون أمامهم هذا الشيء ، وفي كل خلوة ينفذ اليهم هذا الشيء ، لا يترك لهم ظلمة يتحصنون بها ، ولا منعرجا يأمنون فيه ، وكأنه ضوء النهار يكتسح كل ظلام ، ويكشف كل مخبأ وكان هذا الشيء الذي فوجئوا به هو الاسلام .

ولا شك أن الاسلام كان أخطر عدو واجهه الصعاليك ، كما كان أكبر ضربة منيت بها الصعلكة وقد كانت هزيمة الصعلكة والصعاليك أمام الاسلام أيضا أكبر هزيمة متوا بها ، ان لم تكن الهزيمة الوحيدة التي وضعت حدا فاصلا مميزا بين صعلكة الجاهلية وصعلكة الاسلام ، سواء في الأساليب والمشاعر .

ولا نغنى بانتصار الاسلام على الصعلكة أنه قضى على الصعاليك أو حتى قلل من عددهم ، وإنما نغنى أن انتصاره كان في تغيير النظرة الى الصعلكة تغييرا كاملا ، فبعد أن كانت الصعلكة ميدانا للبطولة والتنافس ، ومحظا للعجب والتطلع ، أصبحت جريمة منكرة بغيضة ، لا تلقى من الاسلام الا انكارا شديدا ، وعقابا صارما ، ولا تلقى من المسلمين الا نبذا وبغضا ومطاردة .

وقد كان أثر الاسلام في قسم ظهر الصعلكة واضحا كل الوضوح في نقطة هامة جدا في شعر الصعاليك ، تعتبر محورا فيه ، هذه النقطة هي الذاتية في شعر الصعاليك ، فمن السمات البارزة في شعر الصعاليك كله الذاتية ، حيث يجعل الواحد منهم ذاته محورا لكل شيء ومنطلقا لكل معنى ، ومشرفا على كل ما يعرض له في شعره مصاحبا له ، ولكن هذه الذاتية تختلف اختلافا أساسيا في شعر الصعاليك الاسلاميين عنها في شعر الجاهليين ، فبينما نجد ذاتية صعاليك الجاهلية تتسم بالعزة البالغة ، والاعتداد الشديد بالنفس ، والاستهانة المطلقة بكل شيء ، نجد ذاتية صعاليك الاسلام عكس ذلك ، تتسم بالشعور بالضيعة ، وبالاتين ، والرغبة في التخفي ، والظروف المحيطة بكل

منهما لا تجعل فى شىء من هذا غرابة ، فبينما يشعر الجاهل أن سلوكه محط الإعجاب والرهبة والتقدير من المجتمع مما يدعو إلى الاعتزاز والفخر به ، يشعر صعلوك الاسلام أن سلوكه محط الانكار والبغض والمطاردة ، مما يدعو إلى عكس ما يشعر به صعلوك الجاهلية .

وقد تمثلت سلطة الاسلام التي واجهها الصعاليك فى ناحيتين ، السلطة التشريعية ، وهى الاسلام من حيث أنه دين ، والسلطة التنفيذية ، وهى سلطة القائمين على تنفيذ أحكام الاسلام من الخلفاء والولاة .

(١) السلطة الشرعية :

وليس من المستطاع أن نطلع على صراع الصعاليك مع الدين من حيث هو دين ، فالمفروض أنه صراع نفسى لا يحس به إلا صاحبه ، وإنما عبرنا بلفظ « صراع » لأننا نعتقد أن الصعاليك لم يكونوا من الذين استجابوا للاسلام بسهولة ويسر ، وذلك لأكثر من سبب ، وأهم هذه الأسباب أنه إذا كان غير الصعاليك ليس بينه وبين الاسلام فى غالب الأمر إلا العقيدة ، بمعنى أنه حين يعتنق الاسلام فلن يتغير فى حياته شىء إلا العقيدة ، أما الصعلوك فحين يعتنق الاسلام يتقلب كل شىء فى حياته رأساً على عقب ، وأهم هذه الأشياء جميعاً أن الصعلكة مورد رزقه ، والمصدر الوحيد لعيشه ، ومعنى ذلك أنه حين يعتنق الاسلام يفقد مصدر رزقه الذى لا يملك سواه ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الصعلكة أصبحت فى حياتهم كالحرقة التى تملك على صاحبها كل مشاعره واحساسه ، وكل هواه فى كثير من الأحيان ، وهذه الحرقة التى تشبعت بها نفوسهم ، والفهم الطويل لها ، قد تجد نفوسهم شيئاً من أحجام فى التخلي عنها ، ولو من باب فراق شىء أليف ، وقد يالف الانسان شيئاً ولو غير حبيب إلى نفسه فلا يرحب بفراقه ، كما يقول المتنبى :

خلقت اليفاً لو رددت إلى الصبا لفارقت شيبى هوجع القلب باكياً

وهناك سبب آخر قد يزيدون به عن المترددين فى الاسراع إلى الاسلام ، وهو ما أشرنا إليه فى أسباب الصعلكة من أنه قد يكون من دوافع الصعلكة وأسبابها الاستعداد الشخصى فى التكوين ، والتهيؤ النفسى لدى بعض الأفراد بطبيعة تكوينهم للصعلكة ، مما يجعلهم أكثر من غيرهم تردداً فى الاسراع إلى الاسلام ومع ذلك نود أن نقول أنه مهما اختلفت الأسباب وتنوعت العلل ، فإن شعورهم نفسه يشير بوضوح إلى أنه حتى الذين تابوا عن الصعلكة باسلامهم أو خلال عصور الاسلام ، يبدو من شعور أكثرهم أن التوبة لم تبلغ من نفوسهم مبلغ الاطمئنان الكامل ، ولم تحل بين نفوسهم والحنين ولو فى خفية إلى حياتهم فى

الصعلكة ، ولم تفض جفونهم عن أن ترنو الى ماض يسدو أنه حبيب الى نفوسهم .

ومن الطريف فى ذلك تعبير أبى خراش الهذلى عن تقييد الاسلام لسلوكه ، وحيلولته بينه وبين ثارات كان يمنى نفسه بالانتقام لها من أعدائه ، وعن أن الاسلام يرد طيش الشباب فيجعل منه اتزاناً كاتزان الشيوخ فيقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن احاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل (١)

والأحيمر السعدى مع توبته لم يستطيع أن يغالب شوقا الى أيام غابرة كان يجد فيها متعته بالسطو على مثل هذه الزوامل فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الأقى اذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (٢)

ولئن كان الصراع فى الآيات السابقة واضحاً فى نفس الأحيمر بين شعوره بالتوبة ورغبته فى التمسك بها ، وبين حنينه الى الصعلكة ، فإن الصراع فى شعر يزيد العقيلي أخفى من ذلك حيث يقول بعد توبته :

الا قل لأرباب المخاض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد
وان أمراء ينجوا من النار بعد ما تزود من أعمالها لسعيد (٣)

فالبيت الثانى وإن كان يظهر سعادة بالتوبة واطمئنانا اليها ، إلا أن البيت الأول لا يخلو من الماح ولو يسير الى الحنين الى المخاض .

ولكن هذا الحنين لا يقلل من أثر الاسلام فى الصعلكة ، فإن التوبة نفسها أثر من آثار الاسلام ، والذي يعنى التشريع من الناحية الاجتماعية هو الكف عن السلوك الممنوع بصرف النظر عن نفسية صاحبه ، على أن بعض توبتهم توحى بالصدق الخالص ، واستهجان الماضى كقول عبيد بن أيوب :

يارب عفوك عن ذى توبة وجل كأنه من حذار الناس مجنون
قد كان قدم أعمالاً مقاربة أيام ليس له عقل ولا دين (٤)

(١) الكامل للسرد ٢٦٧/١ .

(٢) أمال النال ٩/٢ ؛ والزوامل الأبل المحملة والقطار الأبل المقطورة بعضها فى أثر بعض والبيت الثانى نصح للصوص بالتوبة والآيات فى جملتها تصور صراعا بين التوبة والحنين الى الصعلكة .

(٣) الكامل للسرد ٦١/١ والمخاض الأبل فى سن معينة ، وأهملوا يعنى اطمئنوا ويعنى بقوله تعلمون ما يعرفونه عنه من أساليب الصعلكة .

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٦٢/٤ .

ب - السلطة التنفيذية :

ومع أن الروايات لم تحدد من الناحية الزمنية مراحل حياة الصعاليك ، بحيث نعلم مثلا متى تاب التائبون منهم ؟ بالإضافة الى نواحي غموض أخرى ، الا أننا مع ذلك نحس بصفة عامة أن التوبة غلبت على الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى المخضرمين ، ومعنى ذلك أن صراع السلطة التشريعية كان في الذين عاشوا أول الاسلام أوضح منه في المتأخرين ويتضح هذا من شعر السابقين منهم ، كابى خراش الذى مات في خلافة عمر ، وكان من المخضرمين ، حيث نجد هذا المعنى في شعره ، كما رأينا أننا فى تعبيره عن احاطة الاسلام برقاب الصعاليك كما تحيط السلاسل .

ويبدو رغم عدم وضوح الروايات أن الفترة منذ سيطرة الاسلام على شبه الجزيرة الى خلافة على ابن أبى طالب كرم الله وجهه قد خفت فيها صوت الصعاليك ، وشلت فيها حركتهم ، بتأثر أغلبهم بالاسلام وتوابعهم الى الله ، كما تاب أبو خراش ، والحارث بن بدر التميمي (١) أو يتعرض بعضهم للعقاب كجعفر ابن عتبة الحارثي (٢) .

ويبدو أيضا أن شيوع الفتن والخلافات والحروب فى الدولة منذ بدء خلافة على بن أبى طالب وخصومته مع معاوية ، فقد أتاح للصعاليك أن يعاودوا نشاطهم مرة أخرى ، ولذلك نجد عددا من شعراء الصعاليك معاصرين لبدء هذه الفترة ، كعبيد الله بن الحر ، الذى تحدثت أخباره باتصالات وخلافات مع كل من معاوية وعلى ، ومثل شبيب بن عمرو الذى طارده جنود على بن أبى طالب . ثم أخذ الصعاليك ينتشرون مع انتشار الفتن .

والذى نريد ان نقوله ، هو أننا بعد هذه الفترة لا نحس ان صراع الصعاليك كان مع السلطة الروحية الممثلة فى الدين ، بمعنى أنهم شعروا أن الوازع الدينى بدأ سلطانه يخف عنهم ، ولذلك قل التائبون منهم بعد ذلك ، فى حين بدأوا يزدادون عددا ، وأصبح صراعهم ليس مع السلطة الروحية ، ولا مع السلطة التشريعية لذاتها ، وإنما أصبح صراعهم مع السلطة التنفيذية الموكول اليها تنفيذ التشريع ، وقد عانى الصعاليك من صراعهم مع الولاة والخلفاء عناء شديدا ، كما كان الحال مع عبيد الله بن الحر ، الذى تحدى معظم ولّاء عصره (٣) وظل فى صراع معهم أمدا طويلا ، وهذا شبيب بن عمرو الذى كان يقطع الطريق ، يصور مطاردة على بن أبى طالب له ، وخوفه من الوقوع فى قبضته ، ورهبته من مخيس فيقول :

(١) انظر الكشف للزمخشري تفسير الآية ٣٤ من سورة المائدة .

(٢) انظر خزائن الادب للبغدادي ٤٦/٢ ، ٤٧ ، ومواضع أخرى .

(٣) المصدر السابق ١٨/٢ - ٢٢ -

فلا أن رأيت ابني شميـط
تجللت العصا وعلمت أني
ولو أني لبثت لهم قليـلا
شديد مجامع الكتفين باق
بسكة طيء والباب دوني (١)
وهين مخيس أن أدركوني (٢)
لجروني إلى شيخ بطـين
على الحدائق مختلف الشئون (٣)

وسعد بن ناشب يحتدم الصراع بينه وبين بلال بن أبي بردة عامل بني مروان على البصرة (٤) وقد هدم الوالي داره تنكيلا به ، ولكن هدم المطاردة بما فيها هدم داره لم تفت في عضده وإنما تلقاها بالصمود الشديد ، والتحدى العنيف ، فيقول مستهينا بهدم داره :

وأذهل عن داري وأجعل هدمها
ويصفر في عيني تلادي إذا انثنت
فإن تهتموا بالغدر داري فانها
ثم يخاطب بلالا بقوله :

لا توعدا يابلال فاننا
وإن لنا أما خشيـناك مذهبا
فلا تحملنا بعد سمع وطاعة
فانا إذا ما الحرب ألفت قناعها
ولسنا بمحتلين دار هضمية
وإن نحن لم نشق عصا الدين أحرار
إلى حيث لا نخشاك والدهر أطوار
على غاية فيها الشقاق أو العار
بها حين يجفوها بنوها لأبرار
مخافة موت أن بنا نبت الدار (٦)

ويتحدث عبد الله بن سيرة الحرشي عن الأمير ، فيقول أنه لا يقيد نفسه بسلطانه ، وأنه قادر على مخالفته ، لأنه يستوحى سلوكه من سلطان نفسه لاسلطان الأمير فيقول :

وإني إذا ضمن الأمير بأذنه
على الأذن من نفسي إذا شئت قادر (٧)
ومالك بن الريب تعرض لمطاردة أكثر من وال من ولاية بني أمية ، فقد طارده الحارث بن حاطب وتوعده ، ولكن مالكا يرد عليه ساخرا من وعيده ومن أيمانه التي حلفها متوعدا فيقول :

(١) حساسة أبي تمام ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ ، وابنا شميـط اللذان وجهما الخليفة لمطاردته والسكة السطر من الشعر .

(٢) العصا فرسه ومخيس بتشديد الياء المكسورة سجن بالكوفة بناء الامام على .

(٣) البيتان الأخيران وصف لعل رضى الله عنه .

(٤) قيل هو الحجاج أنظر شرح الحساسة عن التبريزي ١٥/١ .

(٥) حساسة أبي تمام ١٥/١ والبيت الأول يعنى أجعل مال فداء لعرضي والثاني يعنى يصفر مال مادمت منقادا عزمي .

(٦) المصدر السابق ٢٧٢/١ . ويرى أن بلالا الذي يخاطبه خارجي ولكن موضوع الشعر وحوادثه مع بلال بن أبي بردة ترجح أنه بلال الوالي ابن أبي بردة .

(٧) حساسة أبي تمام ١٨٦/١ .

تألى حلفة فى غير جرم أميرى حارث شبه الضرار
على لأجلدن فى غير جرم ولا أدنى فينفعنى اعتسداوى
وقلت وقد ضمنت الى جاشى تحلل لا قال على حار (١)

ثم يفسر فى شعر آخر سر تحديه للولاء وقدرته على الاستهانة بمطاردتهم ،
وهو أنه قادر على التنقل والرحلة الى أى مكان فيقول :

أحقا على السلطان أما الذى له فيعطى أما ما يراد فيمنع
إذا ما جعلت الرمل بينى وبينه وأعرض سهب بين ييرين بلقع
فشأنكم يا آل مروان فاطلبوا سقاطى فما فيه لباغيه مطمع (٢)

وحين طارده الحجاج الثقفى عامل بنى مروان لم يخضع ولم يهن أمام سيطرة
الحجاج وبطشه الشديد ، بل تحداه وتحدى بنى مروان معه ، بسلاحه الذى
يتحصن به الصعاليك من كل شىء ، وهو الرحلة ، والتحكم فى الأماكن المقفرة
التي لا يجرؤ غير الصعاليك على ارتيادها فيقول لبنى مروان :

ان تصفونا يا آل مروان نقرب اليكم والا فاذنوا ببعساد
فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس الى ريج الفلاة صوادى
ففى الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطنت كبلادى (٣)

وهذا السلاح ، سلاح الرحلة يروزه للحجاج ، هاجيا إياه هجاء موجعا .
ساخرا منه سخرية قلما استطاع أحد فى عصره أن يهديها الى الحجاج فيقول
معرضا بالرحلة ، مشيرا الى تعليم الحجاج للصبيان فى كتابه قبل أن يصبح
أميرا .

فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبيدا من عبيد اياد
زمان هو المقر بذلة يراوح صبيان القرى ويغادى (٤)

السجن

وكانت حصيلة صراعهم مع السلطة ، ومطاردة السلطة لهم أن أنتهى بعضهم
الى السجن ولئن كانت الروايات أيضا غير واضحة كل الوضوح فى أسباب دخولهم
السجن ، ثم مصيرهم بعد السجن ، أو على الأقل لم تكن واضحة كل الوضوح

(١) مذهب الأغانى ١٠/٥ وتحلل يعنى من اليمين ولا قال لا تحلف وحار مرشم حارث .

(٢) المصدر السابق ١٢/٥ .

(٣) الكامل للمبرد ٣٠١/١ .

(٤) الكامل للمبرد ٣٠٢/١ .

بالنسبة لبعضهم ، الا انه من المفهوم أن الصعلكة كانت طريقهم الى السجن ،
 مهما اختلف أسلوب الصعلكة ، من قطع طريق أو سرقة أو قتل ، أو غير ذلك .

وقد انتهى السجن ببعضهم الى القتل ، كجعفر بن علبة الذي حبس في
 سجن المدينة ، ثم قتل لدم أراقه (١) ومنهم من قدر له أن يخرج من السجن ،
 كمالك بن الريب الذي حبس بمكة لاتهامه بالسرقة (٢) . ومنهم من لا نعلم عن
 سجنه ونهايته الا آهاته التي انبعثت منه في سجنه ، كجحدري بن معاوية (٣)
 والجرفنس (٤) ومهما يكن من شيء فقد كان السجن والخوف منه من العقوبات التي
 أقرت مضاجع صعاليك الاسلام ، وكذلك من العقوبات التي أثرت في سلوكهم
 وحياتهم نفسها ، فان كثيرا من الذين هجروا حياة الناس الى القفار كالأحيمر
 السعدي وعبيد بن أيوب كان السجن هو السيف المصلت الذي أزهب بريقه
 نفوسهم فضلا عما يتوقعون بعد هذا السجن .

وهذا شبيب بن عمرو حين فر من مطاردة جنود علي بن أبي طالب يركز
 خوفه ورهيته من مخيس وهو السجن الذي بناه علي رضي الله عنه بالكوفة
 فيقول :

تجللت البصمات وعلمت أنني رهين مخيس ان ادركوني (٥)

ولذلك قال علي حين بلغه هذا الشعر « والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ،
 لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعني لوضعت في مخيس .

ومالك بن الريب يبدي حزنه على حبسه في سجنه بمكة ، متذكرا رفاقه
 وصحبه في الريب من أرض بني مازن فيقول :

اتلحق بالريب الرفاق ومالك بمكة في سجن يعنيه واقبه (٧)

والجرفنس يبعث الى قومه برسالة يصف لهم فيها حياته ، وما يعانيه
 نهاره من القيد والسلاسل وما يعانيه ليله من ضيق السجن ووحشته فيقول :

**ابلغ بني ثعل غنى مغفلة فقد أنى لك من نى وانضاج
 أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في جوف منحوت من الساج (٨)**

(١) خزائن البغدادي ٤٦/٢ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ .

(٣) أمالي القائل ٢٧٧/١ .

(٤) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

(٥) حساسة أبي تمام ٣٥٣/١ .

(٦) شرح حساسة أبي تمام عن التبريزي ٢٥٣/١ .

(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ والريب موضع لقومه تحدث عنه في مرثيته .

ويجوز أن يكون المراد به آباءه .

(٨) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ .

وهذا لص آخر من الصعاليك يهوله ما هو فيه من قيد وجبس ، وما يعانیه من وحشة وشعور بالغربة وهجر الأجابة فيقول :

اقيد وجبس واغتراب وفرقة وهجر حبيب ان ذا لعظيم (١)

ولكن رسالة جحدر بن معاوية الى قومه من سجن الكوفة ، كانت أشد المأ ، فهو لا يعانى مرارة السجن فحسب ، وانما يحاذر أيضا وقع سيف الحجاج ، وهو لا ينكر أن الحجاج وان كان قاسيا ، الا أنه لن يظلمه اذا قتله ، لأنه جنى ما يستحق به صولة الحجاج فيقول :

**اذا جاوزتما سعفات حجر واودية اليمامة فانيماني
وقولا جحدر أمسى رهينا يحاذر وقع مصقول يمانى
يحاذر صولة الحجاج ظلما وما الحجاج ظلام لجانى (٢)**

وقد كان يمكن أن تكون لهجة يائس مترقب للموت كجحدر أكثر حزنا وشعورا بالرهبة والفرق الشديد ، ولكنه تماسك الصعاليك ، وصلاتهم ، وتهيؤ انفسهم دائما للموت ، ولكنه مع ذلك صب حزنه ويأسه فى ثنايا القصيدة كلها ، حين تحدث عن الهموم التى تكنته وأفعمت قلبه فى أبيات منها •

تاوبتى فبت لها كنيما هموم ما تفارقنى حوانى

وحين تحدث عن شوقه الشديد الى موطنه ، بل الى كل ما يمكن أن يتصل بموطنه ، حتى البرق ، فيقول من القصيدة :

اليس الله يعلم أن قلبى يحبك ايها البرق اليمانى ؟

ولكنه يصب سخطه كله ، ونقمته كلها ، ويأسه كله ، على السجن الذى صوره بأنه قطعة معجلة من سقر ، حيث يقول فى شعر غير الشعر السابق •

يارب أبفض بيت أنت خالفه بيت بكوفان منه استعجلت سقر (٣)

الشعر الاجتماعى

وبحكم أن الانسانى اجتماعى بطبعه ، فليس من المعقول أن يكون الصعاليك بمنأى كامل عن المجتمع ، ولا أن يكونوا خلقا آخر فى نفسياتهم وعواطفهم الاجتماعية فكل منهم لابد أن تربطه بالمجتمع أى رابطة ، ولو كانت هذه الرابطة عداء وخصومة من باب اعتبارهم الضدية نوعا من الروابط ، ولكن الصعاليك لم تكن

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ •

(٢) أسال الفال ٢٧٨/١ •

(٣) سجع ١٠ اسنجم للبكرى ١١٤١/٤ وكوفان يعنى الكوفة •

الضدية ، أو الضدية وحدها هي الرابطة بينهم وبين المجتمع ، بل كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يرتبطون فيها بمجتمعاتهم كأحاد منهم ، فضلا عن أزواجهم وأولادهم ، فضلا عن أن كثيرا منهم كما قلنا كان معدودا من فرسان قومه وشجعانهم ، وشارك قومه حروبهم وبأساءهم ، واصطلي بآثار هذه الحروب فوق ما اصطلاه في حياة الصعلكة ، لذلك نرى هذا الجانب الاجتماعي من حياتهم منعكسا في شعرهم بجوانبه المختلفة ، وهم في هذا مختلفون ، ولئن كان الشعر السابق في الموضوعات المختلفة ينطبق عليهم بصفة عامة ، فانه في الشعر الاجتماعي لا ينطبق كل موضوع أو كل معنى عليهم جميعا . لأن الشعر السابق يمثل حياتهم في الصعلكة وصراعهم في هذه الحياة ، وهم في الصعلكة سواء ، لذلك كانت الموضوعات والمعاني السابقة شاملة لهم في جملتهم الا حين يشار الى استثناء واحد أو بعض معينه ، أما في الشعر الاجتماعي فانهم مختلفون ، فبعض الموضوعات تنطبق على بعضهم ، لأن هذا البعض زاوول هذا الجانب من الحياة الاجتماعية ، ولا ينطبق على البعض الآخر لأنه لم يزاووله أو لم يتعرض له ولو كانت هذه التفاصيل تعيننا لذاتها لأمكن بسطة الحديث فيها ، ولكننا انما يعيننا اتجاه شعرهم وخصائصه ، ومبلغ تميزه عن شعر غيرهم ، ولذلك نجدنا مضطرين الى سرد الجوانب البارزة في شعرهم الاجتماعي مكتفين بالإشارة الى منهجهم وطابعهم فيها . ويمكن تقسيم شعرهم الاجتماعي الى نوعين :

١ - النوع التقليدي في أغراضه كالمدح والهجاء والرثاء والغزل .

٢ - النوع الذي يمثل خلق الصعاليك الاجتماعي ، وطابعهم في هذا الخلق .

ولكننا نقول بصفة عامة ، ان الناحية الاجتماعية قد تكون بارزة في شعر بعض الأفراد من الصعاليك ، ولكنها غير بارزة في شعرهم ككل ، وحتى اذا برزت في بعض النواحي فاننا نجدنا وقد اكتست ثوب الصعاليك ، وشعارهم الذي يكسو شعرهم كله ، ف شعر الصعاليك في جملة لا يبرز فيه الا طابع الصعلكة ، مهما تعددت أغراضه وموضوعاته وكأنه الخاتم التي يختم به كل شعر لهم .

الأغراض التقليدية

وتعني بالأغراض التقليدية الموضوعات الشائعة في الشعر العربي القديم ، كالغفر والاعتزاز بالقبيلة والمدح والهجاء والرثاء والغزل ، وحين تستعرض شعر الصعاليك عن هذه الأغراض فليس فيه ما يأتي :

١ - الفخر :

الفخر صفة مشتركة بين الشعراء جميعا قديمهم وحديثهم ، فلا يتصور شاعر قط لم يفخر بنفسه وان لم يكن يستحق من الفخر شيئا ، بل كثير من الشعراء على مر العصور يعلم ويعترف بأنه لا يحمل بما يستحق أن يفخر به شيئا ، ومع ذلك لا يستطيع ألا يفخر ، وكأنه يشعر بأنه يتميز بنوع من اللوحة غير المتاحة لكل الناس ، وهى الشعر ، ومن ثم يجد فى نفسه احساسا خفيا بأنه يستحق أن يفخر بنفسه ، فان لم يفخر بشاعريته نفسها ، فخر بنفسه فى أى صورة من صورها ، ومعنى ذلك أنه يمكن القول بأن الشاعرية نفسها هى المصدر الأول للشعور بالفخر عند الشعراء ، بالإضافة الى ما يدعمها فى شخصية الشاعر من صفات تستحق الفخر .

واذن فمن الطبعي أن يفخر شعراء الصعاليك بأنفسهم ، وقد فخروا ، ولكننا نلاحظ أنهم لم يجعلوا الفخر موضوعا ولا حتى غرضا مقصودا لذاته ، وانما يأتي فى معظم الأحيان عرضا ، واستنتاجا من أحداث ومعاني سابقة ، وكأنه تعليق أو تعقيب على حديث ، على أن فخرهم لا يخلو فى معظم الأحيان أضحا من كونه فى محيط الصعلكة ، اشادة بجانب أو صفة من صفاتهم السابقة التى جعلوها أسلحة لهم فى الصعلكة ، كقوة الإرادة والحزم والجرأة والاستهانة بالموت وبقيّة ما سبق من ذلك ، وحتى فى بعض المعاني التى تخرج من محيط الصعلكة نجدها مقرونة بصفات الصعلكة ، كقول الشنفرى بعد حديثه عن صبره وقوة ارادته .

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى

وكقول مالك بن حريم مشيرا

وأخذ للمولى اذا ضيم حق

وقد فخر مالك هذا بنفسه ، فو

وان كان عندها فى شعره أربعة ، اذ

واحدة ، وواحدة فى العفة التى سيأتى

عصر الصعاليك ، والثالثة وهى أول

تمثل الحذر واليقظة حيث يقول :

فواحدة ألا أبيت بغرة

اذا ما سولم اجى حوى نصوص (١٠)

(١) من اللامية .

(٢) الاصمعيات ٥٨ والاعيط الأبي .

(٣) انظر الاصمعيات ٥٦ - ٦٣ .

(٤) الاصمعيات ٥٨ .

وعروة بن الورد يفتخر باكرامه الضيف ، واکرام الضيف والفخر به شائع
فى شعر العرب ، ولكن غير الشائع ما قرنه به عروة ، من أنه يجعل من اكرامه
الضيف محادثته حيث يقول :

فراشى فراش الضيف والبيت يتيه ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحده أن الحديث من القسرى وتعلم نفسى انه سوف يهجع (١)

وتأبط شرا يفخر بأنه يضرب هام العدا ، وضرب هام العدا أيضا شائع
فى الفخر ، ولكن غير الشائع أن يقول انه لا يهدف من ذلك الى فخر أو ذكر
بين الناس فيقول :

يماصعه كل يشجع قومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وهكذا حين نتتبع فخر الصعاليك نجد أنه ليس فخرا عاديا كالمألوف
فى فخر غيرهم ، وإنما نجد لهم دائما طابعهم المعين ، أو اتجاها خاصا يميزون
به أنفسهم ، ويميزون به شعرهم .

٢ - الاعتزاز بالقبيلة :

والاعتزاز بالقبيلة من أكثر الموضوعات والأغراض شيوعا فى الشعر
العربى القديم ، نتيجة لوضعهم القبلى الاجتماعى ، وما يترتب على ذلك مما
هو معروف فى علم الاجتماع ، من تأثير الفرد بالقبيلة ، وترايط أفرادها
وطغيان شخصية القبيلة من حيث هى على شخصية الأفراد فى جملتهم .

ولكن الصعاليك شذوا فى جملتهم ، حيث كان الواحد منهم يعتبر نفسه
قوة مستقلة ، وكيانا مستقلا ، ولذلك انفردوا بأن الواحد منهم كثيرا ما يتصدى
لقبيلة أو حتى بأكمله ، ويهدده ويتوعده بمفرده ، وكأنه قوة ماثلة لقوة
قبيلة أو حتى ، كما فعل الشنفرى مع بنى سلامان وكما فعل تأبط شرا مع
بنى لحيان من هذيل ، ولكن بعض الصعاليك كانوا من العمد التى تقوم
عليها قوة قبيلتهم ، كجحدر بن ضبيعة البكرى ، ومالك بن حريم الهمداني ،
وعروة بن الورد العبسى ، وقيس بن مقلد السلولى قبل خلعه ، وهذا النوع
من الصعاليك شارك قبيلته فى كل ظروفها ، من حيث صراعها مع القبائل
الأخرى ، وانعكست مشاركته فى شعره ، وكان من أثر هذه المشاركة
والارتباط بمصير القبيلة وظروفها احساس الفرد بأنه مستمد لجانب من قوته
من قوة القبيلة نفسها ، وهذا هو المصدر الأساسى للفخر بالقبيلة والاعتزاز

(١) ديوانه ١٠٠ .

(٢) حاسة أبى تمام ١٩٠/١ ويماصعه يجالده ويقاتله ، وليشجعا بمعنى لا ليقال انه

الوجه لعل يشجع يريد كل يشجعه قومه .

بها ، وهذا المعنى نجده في شعر أفراد من الصعاليك ، منهم مالك بن حريم (١) وأبو الطمجان القينى (٢) وعروة بن الورد (٣) وقيس بن منقذ (٤) .

وهناك صورة من صور هذا المجال ، تتمثل في المنافرات الشعرية التي كانت بين بعض الصعاليك وأفراد من القبائل أو الأحياء الأخرى ، ومصدر هذه الخصومات في معظم الأحيان خصومة القبيلتين أو الحيين يمثلها شاعر من إحدى القوتين في منافرات مع شاعر من القوة الأخرى ، ولم يكن هذا الجانب واضحا في شعر الصعاليك ، باستثناء منافرات صخر الغي مع أبي المثلث الهذلي (٥) ومنافرات قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني (٦) ، ولكن الذى نلاحظه على المنافرات التي اشترك فيها الصعاليك أنها كانت منافرات كريمة ، لم يشبها قط هجاء مقذع ، أو سباب قبيح ، بل لم تشبها روح الحق والغل ، وإنما كان طابعها كرم الخصومة وتقدير الخصم ، وأوضح ما يكون ذلك في منافرات صخر الغي مع أبي المثلث فأنها نموذج للخصومة السامية الكريمة التي لا يتحامل الخصم فيها على خصمه ، ولا ينكر عليه فضائله ، بل كثيرا ما يعترف لخصمه بفضائل لم يزعمها لنفسه (٧) ، وكذلك مفاجرة قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني اثر حروب كانت بين قوميهم ، فان أقسى ما بلته قيس من ابن الأحب قول قيس :

غداة توليتم وأدبر جمعكم وابنا بأسراكم كانا ضراغم (٨)
والذى نريد أن نلقت النظر اليه أنه كان بعضهم قد تحدث كثيرا في مجال الاعتزاز بالقبيلة ، الا أن هذا الاعتزاز لم يطف على شخصياتهم كما طغى في شعر كثير من غير الصعاليك ، وإنما تحس أن شخصية الصعلوك هي البارزة ، وهي التي يجعلها الصعلوك محورا لكل شيء ، وكان قوة قبيلته أو حيه سلاح من أسلحة قوته هو كسائر الأسلحة التي يدعم بها صراعه وقوته .

٣ - المدح :

لم يكن الشعرى الجاهلي الأولى كما هو معروف وسيلة للكسب ، ثم عرف الشعراء طريقهم الى الكسب بالشعر على يد نفر منهم في مقدمتهم النابغة

-
- (١) أنظر الاصمعيات ٥٦ - ٦٣ .
 - (٢) أنظر الكامل للبرد ٣٠/١ ، ٣١٠ .
 - (٣) أنظر ديوانه ٩٧ .
 - (٤) أنظر أغاني الاصفهاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .
 - (٥) أنظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤٠ .
 - (٦) أنظر أغاني الاصفهاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .
 - (٧) أنظر للمثال ديوان الهذليين ٢٣٠/٢ من شعر أبي المثلث « يا صخر ان كنت ذابز تجمعه .. » ردا على شعر صخر ٢٢٨/٢ « ماذا تريد بأقوال ابلغها .. »
 - (٨) مهذب الأغاني ١٠٤/١ .

شعر الصعاليك - ٣٢١

الذبياني ، ثم الأعشى وبعض من عاصرها ، وما جاء الإسلام حتى كان التكسب بالشعر قد وضع ، وأصبح مشهورا غير خفى ، ومعروفا غير منكر عليه ، فمئذ بدء الإسلام كانت رحلة الأعشى الى النبي صلى الله عليه وسلم متكسبا بقصيدته التي يقول فيها عن ناقته ورحلته الى النبي :

**فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفي حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله ندى**

فانه وإن كانت رحلته لم تتم بسبب منع قریش اياه ، إلا أنه كان معروفا أنه متكسب بقصيدته ، وأن النبي كان سيمنحه عطاء سمحا كهده الناس بسماحته دائما ، وكما أعطى شعراء آخرين وحين جاءت خلافة عمر كان الأمر أكثر شهرة وأوضح عرفا ، حتى أن عمر يقول مقرا للشعراء على تكسبهم بالشعر ، نعم ما تعلمته العرب ، أبيات من الشعر يقدمها المرء بين يدي حاجته ، .

واذن فقد كان التكسب بالشعر سبيلا غير خفية ولا منكرا عليها ، سواء في الجاهلية والإسلام ، بل كثيرا ما رفع التكسب بالشعر بعض الشعراء في مكانتهم ومعيشتهم الى مستوى السادة والأمراء ، كما كان النابغة في أيامه مع آل المنذر ، وكما كان شعراء كثيرون في الإسلام ، وقد يسأل سائل هنا : فلماذا لم يرح شعراء الصعاليك أنفسهم من هذا العذاب الاليم الذي عانوه في الصعلكة ليتكسبوا بشعرهم ، خاصة وأن التكسب بالشعر لم تكن فيه غضاضة على شاعر ؟

والجواب أنها عزة النفس ، والحرص على حريتها في غير حدود لهذه الحرية ، هذه العزة وهذه الحرية التي لا تحد ، هي التي منعتهم من التكسب بالشعر ، وحيث أن لكل قاعدة شذوذا ، فإن قلة قليلة جدا من الصعاليك ، تكاد تنحصر في بكر بن النطاح ، وأبى الطمحان القيني ، هما اللذان اتخذتا شعريهما وسيلة للتكسب في فترات من حياتهما ، وأما من عداهما من شعراء الصعاليك ، فقد أبى أن يبيع حريته وعزة نفسه لسيّد أو أمير لقاء أى شيء ، وأصروا على التزام هذا المبدأ أشد الإصرار ، مفضلين مخاطر الصعلكة وشقاءها على التفريط في شيء من هذه العزة ، وقد صور الشنفرى وأبو خراش هذا الإصرار تصويرا واضحا ، حيث يقول الشنفرى :

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (١)

(١) من اللامية والطول المن .

بل يوضح اشارته الى التعفف عن أى أسلوب كاسلوب التكسب بالشعر
أو غيره فيقول :

ولولا اجتناب الدام لم يلف مشرب يعاش به الا لدى وماكل (١)

وأبو خراش يعبر عن هذا كله بقوله :

واني لأتوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى
واغتبق الماء القراح فأنتهى اذا الزاد أمسى للمزج ذا طعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويعبر بكر بن النطاح عن شعار الصعاليك فى هذا المعنى قبل أن يتخلى
هو عن هذا الشعار فيقول :

ومن يفتقر منا يعيش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل (٣)

فقد كانوا اذن يعرفون ان هناك وسائل سهلة وادعة للكسب منها
التكسب بالشعر ، وكانوا يعرفون أنه يمكنهم أن يعيشوا من ورائها فى لين
ورغد ، ولكنهم فضلوا على هذا الرغد أن « يستقوا الترب » وأن « يتشوا لجوع »
الى أبعد مداه ، لا لشيء الا « مخافة أن أحيا برغم وذلة » كما يقول أبو خراش ،
أو أن يرى أحد له عليهم « طولا » كما يقول الشنفرى .

وقد يثور سؤال آخر وهو : كان التكسب بالشعر يتمثل فى المدح ، فهل
معنى ذلك أن شعر الصعاليك خلا من المدح ؟ والجواب أنه ورد لنا فى شعر
الصعاليك مدح وان لم يكن كثيرا ، ولكننا باستثناء الشذوذ كبكر بن النطاح
الذى انقطع فترة من حياته الى مدح نفر من السادة والأمراء كخربان بن عيسى
وأبى دلف متكسبا بذلك (٤) باستثناء هذا الشذوذ نلاحظ أن مدحهم
على قلة طابعا خاصا يتميز به ، وهذا الطابع يتضح فى ناحيتين ، أحدهما
أنهم فى أغلب الأحيان لا يقصدون المدح لذاته ، وانما يكون مدحهم مرتبطا
بحياتهم فى الصعلة ، أو شكرا على موقف نبيل كان فيه نفع لهم أو لم يكن ،

والناحية الأخرى أن مدحهم باستثناء الشذوذ أيضا الذى يكاد ينحصر
فى بكر بن النطاح وأبى الطمجان القينى . من أعف أساليب المدح ، وأبعده
عن التمجيد والمبالغة ، حيث يكتفى بسرد بعض الفضائل فى بساطة وحرص
على الحقيقة ، ومجافاة للخلو والتصوير والافراط اللائى يشعن فى مدائح غيرهم

(١) من اللامية أيضا والذام الدم .

(٢) ديوان الهذليين ١٣٧/٢ ، ١٢٨ وأتوى يعنى أحبس والجرم الجسم والمزج النخيل

أو الضعيف والرغم الهوان والذل .

(٣) مذهب الأغاني ٨٤/٨ .

(٤) أنظر آمال القالى ٢٣٦/١ وكامل المبرد ٨٧/٢ ومذهب الأغاني ٨٤/٨ .

من الشعراء ، بل فلاحظ أن كثيرا من مدحهم لا يبرز في الممدوح إلا الصفات التي عرف بها الصعاليك أو اختصوا بها .

ومن هذا النوع الأخير مدح تأبط شرا لقريب له ، يصفه بالصبر ، والتنفل بين المخاطر والمهالك ، وسرعه العدو ، والحذر واليقظة ، والجراة والاقدام ، ويصفه بإيثار الوحشة والعزلة على الانس ، وبهذا يكون قد جمع فيه أهم ما يميز الصعاليك في صفاتهم فيقول :

اني لمهد من تنائي فقاصد
اهز به في ندوة الحى عطفه
قليل التشكى للمهم يصيبه
يظل بمومة وبمسي بغيرها
ويسبق وقد الريح من حيث ينتحي
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل
ويجعل عينيه ريثة قلبه
إذا هزه في عظم قرن تهللت
يوى الوحشة الانس الانيس ويهتدى

به لابن عم الصلق شمس بن مالك
كما هز عطفى بالهجان الاوارك (١)
كثير الهوى شتى النوى والمسالك
جحيشا ويعرورى ظهور المهالك (٢)
بمنخرق من شدة المتدارك (٣)
له كالى من قلب شيجان فاتك (٤)
الى سلة من حد اخلق صائك (٥)
نواجد افواه المنايا الضواحك
بجيت اهتدت ام النجوم الشوابك (٦)

وأبو خراش له شعر في المدح ، ولكننا نجد مدحه اما لشخص يعتبر عضدا له في الصعلكة وعونا على أعدائه كخالد بن زهير ، أو ذامنة ومكرمة ، كالشخص الذي أنقذ ابنه خراشا من القتل حين كان خراش مع عمه عروة في رحلة صعلكة ، فقتل عروة ، ونجا خراش بفضل شخص ألقى عليه رداءه فحجبه عن القوم حتى عدا ونجا بنفسه ، فمدح أبو خراش هذا الرجل دون أن يعرفه (٧) وقيل في هذا أنه لا يعرف شاعر مدح من لا يعرفه قبل أبي خراش (٨) وفضالة بن شريك يمدح يزيد بن معاوية ، ولكن لا متكسبا ولا متوددا ، وإنما شاكرا له حمايته من أمير المدينة الذي طارد فضاله لهجائه عاصم بن عمر (٩) ، وقيس بن مشقة يمدح أسد بن كرز شاكرا له أنه تحمل عنه ما جناه ، ويمدح عدى بن عمر حين آواه بعد أن خلعه قومه وتبرأوا منه ، ويمدح عدى بن نوفل بسبب فك أساره هو وجماعة من قومه (١٠)

- (١) حماسة أبي تمام ٢٢/١ ، ٢٣ والهجان الايل الكريمة والاورك راعية شجر الاراك ،
- (٢) المومة المفازة لا ماء فيها والجحيش المنفرد ويعرورى يركب .
- (٣) وقد الريح أولها وينتحي يقصد والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق .
- (٤) حاص شاط والنوم الخفيف والكالى الحافظ والشيجان اللاتك الحازم .
- (٥) الريثة بمعنى الرقيب والسلة المرة من سل السيف والأخلق الأملس والصائك القاطع .
- (٦) أم النجوم يعنى الشمس أو المجرة يريد أنه يستأنس بالوحدة ولا يفضل فى سراه بالليل .
- (٧) انظر ديوان الهذليين ١٥٧/٢ وحماسة أبي تمام ٣٢٦/١ .
- (٨) انظر شرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ٣٢٦/١ عن الأصمى وأبي عبيدة .
- (٩) انظر مذهب الأغاني ٣١٠/٢ .
- (١٠) انظر أغاني الأسفلهاى ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

وكذلك مدح قليل من مالك بن أريب لسعيد الوالى على اجرائه عليه رزقا (١)
ولكنه كما تفيد القصة والشعر لا يعتبر تكسبا .

٤ - الهجاء

ولئن كان مدح الصعاليك لغيرهم لم يجر على عزة نفوسهم ، ولم ينزل الى التهاافت والمغالاة فان هجاءهم كان أدل على خلقهم ، وأقرب الى أن يكون ممثلا لطابعهم الذاتى فى صفاتهم الشخصية ، والاجتماعى فى خلقهم العام . على أن بعضهم تعفف عن الهجاء قاطبة كعبدة بن الطيب الذى ترفع عن الهجاء (٢) وحين ننظر الى هجاء الصعاليك لغيرهم نجد أول ما يبادهن منه عفة بالغة فى الألفاظ والمعانى ، فلا نعلم صعلوكا قط جنح الى الاسفاف والاقذاع فى هجائه لأحد مهما يبلغ بينهما من عدا ، ثم نرى بعد ذلك أنهم يعفون عن أن يجعلوا سبب هجائهم لأحد سببا من الأسباب الشائعة لدى الشعراء . كحرمان من عطاء ، أو تكوص عن قرى وضيافة ، لأنهم لا يطلبون عطاء ، ولا يلتمسون قرى وضيافة ، باستثناء الشذوذ فى هذا المعنى كهجاء فضالة بن شريك لعاصم بن عمر لعدم استضافة عاصم إياه (٣) ، وانما يغلب على هجائهم أن هجوا أن يكون سببه العداوة (٤) ، أو موقف خصومة أو إيذاء صدر من المهجو ، بل أحيانا يكون سببا انسانيا نبيل لا نعلم أن أحدا تأثر به من الشعراء غير الصعاليك ، كقصة أبى خراش مع غاسل السعدى الذى قتل جارا له ، مع أن غاسلا كان من قبيلته ، ولكن أبى خراش لاه بشعره لوما عنيقا على هذه الفعلة التى ياباها الخلق الكريم ، وتنكرها تقاليد العروبة ، وكان القتل غلاما تميميا من بنى حنظل ، ومن لوم أبى خراش لغاسل على قتله .

أبات على مقراك ثم قتلتيه على غير ذنب ذاك جد بك الشكل
فهل هو الا ثوبه وسلاحه وما بكم عرى اليه ولا عزل (٥)

وقد تهاجى صخر الغى مع أبى المثلج فى منافراتهما ، ولكننا نجده هجاء بالغ العفة ، حتى ليحسبه الحاسب عتابا بين صديقين ، على ما بين صخر

(١) أنظر مذهب الأغاني ١٠/٥ .

(٢) أنظر شرح حماسة أبى تمام عن التبريزى ٣٢٨/١ .

(٣) المصدر السابق ٣١٠/٢ .

(٤) أنظر ديوان الهذليين ٢٢٣/٢ - ٢٤٠ بين صخر الغى وأبى المثلج .

(٥) أنظر ديوان الهذليين ١٢٤/٢ - ١٦٦ والمقرى القصبة يقرى فيها الضيف وجد بك الشكل دعاء على القاتل ومعنى القطر الأخير لستم عريا ولا عزلا من السلاح حتى تقتلوه من أجل ثوبه وسلاحه .

وابى المثلم من عداء (١) والأعلم الهدلى وان كان أيضاً قليل الهجاء ، الا أن هجاءه على قلته يمتاز دائماً بطابع معين ، وهو كونه صدى لحياته فى الصعلكة ، وهو ما لم يؤلف فى الهجاء ، فأحياناً يشبه مهجوه ببعض مرثياته فى حياة الصعلكة فيشبهه بالضيق فى عدم عفة نفسها وتخنثها (٢) وأحياناً يصفه بقصور الهمة عن مراتب السيادة ، ثم يبين له مراتب السيادة فإذا بعضها من صفات الصعاليك (٣) .

ولعل أكثر من بلغنا فى شعرهم هجاء فضالة بن شريك ، وهو وان كان هجاؤه يعتبر من الشذوذ فى شعر الصعاليك ، حيث انه هجا لمنع العطاء وكف القرى عنه ، الا أن هجاءه يتسم مع نياله من المهجو بعدم الفحش والاقذاع فقد هجا عاصم بن عمر لأنه لم يقره فكان مما قاله :

الا أيها الباغي القرى لست واجدا قواك اذا ما بت فى دار عاصم
ثم تذكر أباه عمر فخفف من غلواء هجائه قائلاً :

ولولا يد الفاروق قلدت عاصما مطوقه يخزى بها فى المواسم (٤)

وكذلك هجا عبد الله بن الزبير لتجاهل ابن الزبير عطاءه (٥) ، حين قدم على ابن الزبير قائلاً : ان ناقتى تعبت ودبرت ، فقال له ابن الزبير : ارقعها واخصفها ، قال فضالة : انما جئتك مستحملاً لا مستشيراً ، فلعن الله ناقة حملتنى اليك ، قال ابن الزبير : ان وراكبها (٦) ، ثم قال فضالة من هجائه :
شكوت اليه ان تعبت قلوصى فرد جواب مشدود الصفاد
يضمن بئاقة ويروم ملكا محال ذلكم غير السداد (٧)

ويبدو أن فضالة كان نزاعاً الى الهجاء مع عفة الفاظه ، فقد قلنا انه يعتبر شاذاً بين الصعاليك فى هجائه من ناحيتين ، احدهما أنه أكثر من بلغنا هجاءه فى شعره منهم ، والأخرى انه الوحيد من بينهم الذى بلغنا انه هجا لعدم القرى والعطاء ، وكان مظهر مقدرته فى الهجاء أننا نجد لهجائه وقعا بليغاً عميقاً يهز كيان المهجو مع عدم الفحش فى الهجاء ، والمتأمل فى هجائه يجد أنه بارع براعة

(١) انظر الهذليين/ ١٢٣ - ١٤٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ٨٦/٢ ، ٨٧ .

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ٢٧٥/١ بيتان اولهما (وان سيادة الاقوام) والذى سده

(٤) انظر مهذب الاغانى ٢١٠/٢ .

(٥) قيل ان ابن فضالة هو صاحب القصة المذكورة وليس فضالة نفسه .

(٦) انظر مهذب الاغانى ٢١٠/٢ وان بمعنى نعم وراكبها أى لعنها الله ولمن راكبها .

(٧) المصدر السابق ومشدود الصفاد كناية عن البخل من قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة

الى عنقك .

بينة في إصابة المواضع القاتلة من مهجوه ، ففي هجائه السابق لعاصم بن عمر بن الخطاب ، يصيب نقطة خطيرة من عاصم تكفي لهدم مركزه في مجتمعه ، فمن أهم مفاخر قريش في العرب منذ القديم الانتماء الى قريش نفسها ، ولكن فضالة يريد أن يستل عاصما من مجد قريش فيقول في أسلوب البساطة :

فتى من قريش لا يجود بنائل ويحسب أن البخل ضربة لازم

وفي قوله « فتى من قريش لا يجود بنائل » شيء من التعجب الخفي ، وكذلك مع ابن الزبير ، كان أهم ما يطمح اليه ابن الزبير ويقا تل من أجله بلوغه الخلافة ، ولكن فضالة يضع بينه وبين الخلافة عقبة صلبة ، ويتعمد أن يحاربه في أهم آماله حيث يقول : « يضمن بناقة ويروم ملكا ؟ » ولو كان ابن الزبير يدرك ما لهذه العبارة من أثر في الدعاية ضده للمأ له الوادى نوقا وكذلك فعل فضالة بن شريك مع ابن مطيع الوالى الذى كان يدعو لعبد الله ابن الزبير بالكوفة مبايعا له ، ثم استحوذ على الأمر المختار بن عبيد (١) فقال فضالة يهجو عبد الله بن مطيع هجاء بالغا ، مع أنه لم يكذب يهجو منه غير كفه ، ولم يهج كفه ببخل أو شيء ، غير شكلها وملبسها ، فيقول (٢) .

| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| دعا ابن مطيع للبياع فجئته | الى بيعة قلبي بها غير عارف |
| فقرب لى خشناء لما لمستها | بكفى لم تشبه أكف الخلاف |
| معوذة حمل الهراوى لقومها | فرورا اذا ما كان يوم التسايف |
| من الشنات الكزم أنكرت لمسهما | وليس من البيض السباط اللطائف (٣) |

٥ - الرثاء :

وأما رثاء الصعاليك لغيرهم فقد كان أضيق نطاقا ، حيث لا نجد في شعرهم رثاء الا لدى نفر محدود منهم ، ويتسم رثاؤهم بالطابع الشخصى . بمعنى أنه لا يبدو أن الرثاء غرض مقصود لذاته لديهم ، وإنما كان تنفيسا عن عواطف حقيقية أحسوا بها ، وذلك لأننا نجد الذين رثاهم الصعاليك ذوى صلة شخصية وثيقة بهم ، كان يكون المرثى ابنا أو أخا أو زميلا فى الصعلكة ، أو معينا فى وجه من وجوه حياتهم .

فمثلا نجد أبا خراش ورد فى شعره رثاء كثير ، ولكنه جميعا لأشخاص تنطبق عليهم الصلات السابقة ، فقد رثى أخاه عروة الذى كان فضلا عن اخوته

(١) انظر هامش البيان والتبيين ١٥/٣ وانظر مذهب الأغانى ٢١٢/٢ .
(٢) ذكر الجاحظ الشعر الآتى فى البيان والتبيين ١٥/٣ غير منسوب لأحد ولكن الأصقهانى ساقه لفضالة فى ترجمته وحديثه عنه انظر مذهب الأغانى ٢١٢/٢ نقلا عن الأغانى .
(٣) انظر مذهب الأغانى ٢١٢/٢ وفى البيان والتبيين للجاحظ ١٥/٣ خلاف فى الترتيب وبعض الألفاظ .

زميلا في الصعلكة (١) ورثا نفرا من اخوته الأشقاء بني لبني (٢) ورثي زهير بن العجوة الذي قتله المسلمون في عزوة حنين (٣) ورثي دبيعة السلمى سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد (٤) ويبدو من حديثه أنه كان صديقا له ، ورثي زهيرأ أخاه حين قتله بنو لحيان (٥) ، ورثي خالد بن زهير صديقه وزميله (٦) .

وصخر ألقى رثي أخاه عبد الله (٧) ، وكذلك يرثي ابنه (٨) ، وله قصيدة أخرى في رثاء ابنه فيها حزن عميق ، حيث يشبه صخر نفسه بحال حمامة مفجوعة في مخاطبة مع هذه الحمامة ، هو يشكو إليها فجيرة فقد ابنه تليد ، وهي تشكو إليه فقد فرخها الذي سماه « ساق حر » ومن هذا الشعر يقول :

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| وما أن صوت نائحة بليلى | بسبيل لا تنام مع الهجود |
| تجهنا غادين فساءلتنى | بواحدنا وأسال عن تليدى |
| فقلت لها فاما ساق حر | فبان مع الأرائل من ثمود |
| وقالت لن ترى أبدا تليدا | بعينك آخر العمر الجديد |
| كلانا رد صاحبه يياس | وتانيب ووجدان بعيد (٩) |

ومن أشهر رثاء الصعاليك ، رثاء عبدة بن الطبيب لقيس بن عاصم المنقرى ، الذى نأفسه فيه بمض الشعراء فلم يلحقوه (١٠) ، وهو عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها تحية من غادوته غرض الردى اذا زار عن شحط بلادك سلما فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما (١١)

وقد أشار الى صلاته به ، وسبب رثائه بقوله « من غادوته غرض الردى » يعنى نفسه .

-
- (١) انظر ديوان الهذليين ٣٦/٢ - ١٣٨ .
 - (٢) المصدر السابق ١٢٣/٢ .
 - (٣) المخدر السابق ١٤٨/٢ - ١٥٠ ، ١٥٧/٢ .
 - (٤) المصدر السابق ١٥٥/٢ . ١٥٦ .
 - (٥) انظر معجم ما استعجم للبكري ٥٣٠/٢ .
 - (٦) انظر ديوان الهذليين ١٥١/٢ - ١٥٤ .
 - (٧) المصدر السابق ٥١/٢ ، ٥٢ .
 - (٨) المصدر السابق ٦٢/٢ .
 - (٩) ديوان الهذليين ٦٧/٢ .
 - (١٠) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢٢/١ .
 - (١١) حساسة أبى تمام ٣٢٨/١ والشحط البعد .

٦ - الغزل :

ومهما تكن عزلة الصعاليك ، ونأيهم عن المجتمع ، وإيثارهم للعزلة ، فهم بشر ، فيهم ما فى الناس من عواطف وغرائز ، ولذلك لم يكن غريباً أن يكون فى شعرهم غزل ، بل الغريب ألا يكون

وليس يعنينا كثيراً غزلهم لذاته ، وإنما يعنينا طابعهم فى الغزل ، ومنهجهم فى حديثهم عنه . وأول ما يطالعنا من طابع الصعاليك فى الغزل العفة فى أكرم صورها ، سواء فى حديثهم عن عواطفهم وأشواقهم ، أو عن صفات حبيباتهم وخلقهم ، وستأتى لهذا الحديث بسطة ، ثم أمر آخر يبدو واضحاً فى غزل الصعاليك ، وهو الواقعية الحقيقية ، والصدق فى تصوير صلاتهم العاطفية ، مما يتبين منه أنهم يتحدثون عن حقائق عاشوها وتأثروا بها ، خاصة وأن بعضهم كان من مشهورى العشاق فى العرب ، كتوبة بن الحمير صاحب الحب المشهور مع ليل الأخيلىة (١) وعمرو بن عجلان الذى ضرب به المثل فى الحب (٢) ، فليس فى غزلهم شطحات الخيال ، ولا أوهام الأمانى الكاذبة ، وهناك أمر آخر يتميز به غزل الصعاليك ، وهو شبيوع الغزل بالزوجات (٣) وهو ما لم يؤلف فى غزل الشعراء ، حتى أن النقاد عدوا رثاء جرير لزوجه الذى يقول فيه :

لولا الحياء لها جنى استتبار ولزوت قبرك والحبيب يزاد

عدوه غريباً فى الشعر العربى ، وبين الرثاء والغزل رابطة ، كما أن بين الرثاء والمدح رابطة أيضاً ، ومعنى ذلك أن الغزل بالزوجات غير مألوف ولا شائع فى الأدب العربى ، وهو حقيقة ، ولكن الصعاليك يشيع فى غزلهم الغزل بالزوجات بل لا تقل حرارة عواطفهم فى أكثر الأحيان حين يتحدثون عن أزواجهم عنها حينما يتحدثون عن حبيباتهم ، ويمكن تعليل ذلك نظرياً بكثرة أسفار الصعاليك وتنقلهم بين أماكن متباعدة تضطرهم إلى الاغتراب والبعد المتواصل ، فيجدون فى هذا البعد من الحنين إلى أزواجهم ما يجده العاشق المحروم من حنين إلى من يعشق ، ومن المعروف أن الحرمان روح الحب وأنه كلما فقد الحب شيئاً من الحرمان فقد جانباً من حدته ، وفى أسفار الصعاليك وبعدهم عن أزواجهم ما يحقق كثيراً من هذا الحرمان .

وثمة أمر رابع يبدو فى غزل الصعاليك ، وهو ابتكار معان كثيرة لا نعلم أنهم سبقوا إليها ونعتقد أن الصدق والتجربة الحقيقية كانت أهم الدوافع فى ابتكار هذه المعانى .

(١) انظر الشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجي وحاسة ابن مرام ١٠٨/٢

(٢) انظر أمالي القالى ٢١٦/٢ .

(٣) انظر مثلاً الأصمعيات ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م خالجي

وحين تسوق بعض الأمثلة للميزات السابقة ، نقول : من أمثلة السمة الأولى في غزلهم وهي العفة ، قول الشنفرى يصف امرأة :

فيا جارتى وانت غير مليمة اذا ذكرت ولا بذات تقلت (١)
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشيت ولا بذات تلفت
تيبت بعيد النوم تهلى غبوقها لجارتها اذا الهدية قلت (٢)
تعلى بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت بالمذمة حلت (٣)
كان لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها ، وان تكلمك تبت (٤)
أمية لا يغزى نثاها حليها اذا ذكر النسوان عفت وجلت (٥)
اذا هو أمسى أب قرة عينه مآب السعيد لم يسأل أين ظلت (٦)

وأما عن السمة الثانية وهي الواقعية ، فنقول ان واقعية غزل الصعاليك ليس معناها انها فى طابع أو معان واقعية ، وانما معناها انهم عانوا ما تحدثوا عنه من غزل حقيقة ، ومعانيهم فى واقعيتهما وقربهما من الحقيقة تزيد ذلك بل هناك معان تبدو متسمة بالخيال المبعد كقول جحدر بن معاوية :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تلماني
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني (٧)

فمثل هذا المعنى يبدو لذاته مسرفا فى التخيل ، مبعدا عن الواقع ، من حيث أنه يقنع بأن الليل يجمعها ، وانهما يريان الهلال معا ويعلوها النهار معا ، وأنه يعد ذلك تدائيا بينهما ، ولكننا حين نلم بطروف الشاعر نعلم انه لا خيال ولا تكلف ، فان جحدرا قال هذه القصيدة وهو مودع فى سجن الحجاج يترقب قتله جزاء جنایات جناها فليس فى مستطاعه حين قال ذلك ، بل وليس فى أمله من لقاء بينهما الا فى هذه المشاركة الطبيعية ، والعزاء النفسى كذلك من الواقعية البينة الصديق لهجة قيس بن الحداية فى غزله بنعم بنت ذؤيب على كثرة غرله بها ، ومن أمثلة ذلك على عزله بها انه لم يجنح الى الخيال أو المثالية الانسانية التى يعزى اليائسون بها أحيانا أنفسهم ، وانما كان واقعيا فى أمله فيها ، وواقعيا فى خوفه من أن يبعد البعد قلبها عنه ليدنيه من شخص آخر ، وكان واقعيا فى ثورته على هذه الصورة ، معرضا بالدعاء

-
- (١) للمضليات ١٠٨ ، ١٠٩ ومليمة أى غير ملومة ولا بذات تقلت أى لا يقال فيها انها ذات تقلت وتقلت من القتل وهو البغض .
(٢) الفروق شراب الليل معنى تؤثر جارتها بشرابها .
(٣) روى البيت باختلاف فى اللفظ .
(٤) النسي المنسى والام يفتح الهزة القصد وتبلى توجز .
(٥) التماسية الغائب وحليها زوجها .
(٦) أب رجع وقرة عينه معنى قرير العين والجملة الأخيرة معنى ملازمة بيتها .
(٧) أمال القاتل ٢٧٨/١

عليها وعلى من تختاره ، ألا يذوقا لذة عيش ، ولا يحرموا من فجيعة ، جزاء
نكرانها وتحولها عنه ، فيقول من ذلك :

فان كانت الأيام يا أم مالك تسليمكم عني وترضى الأعداء
فلا يأمئن بعلى امرؤ فجج لذة من العيش أو فجج الخطوب العوايا (١)
ويقول عن صلتها به ، ومبلغ عفتها في هذه الصلة :

قد اقتربت لو ان في قرب دارها نوالا ولكن كل من ضمن مانع
وقد جاورتنا في شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع (٢)

وأما غزلهم بالزوجات فقد شاع في شعر نفر منهم ، على رأسهم عروة
ابن الورد ، ومالك بن حريم ، وعبد بن الطبيب (٣) .

وأما المعاني التي لا نعلم ان أحدا سبقهم إليها ، والتي كانت موردا
للشعراء من بعدهم ، والتي نعتقد ان المعاناة الحقيقية ، والصدق ، هو الذي هيا
لهم هذا السبق بها ، بالإضافة طبعا الى قوة شاعرية السابقين منهم بهذه
المعاني .

ومن هذه المعاني قول الشنفرى في الوصف بالعفة والحياء :

كان لها في الأرض نسيا تقصه على أمها ، وان تكلمك تبليت (٤)

وأذا كان قول النابغة الذبياني في وصف المتجردة زوج النعمان :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظرو السقيم الى وجوه العود

أدل على جمال العينين وأكثر إحياء بالانوثة ، فان وصف الشنفرى أدل
على العفة والحياء بالإضافة الى إحياءات أخرى يوحىها بيت شعره ، على أن بيت
الشنفرى أكثر ملاءمة لحلقه ، وأدل على ما يريد التعبير عنه ، فان اتجاهه في
شعره كله فيما يتعلق بالفضل هو العفة البالغة ، سواء من ناحيته هو ، ومن
ناحية من ارتضاها حبيبية له ، في حين يعتبر بيت النابغة غير مستوف
لما يقتضيه الحال مما ينزل بدرجة في ميزان البلاغة التي تعتمد على مراعاة
مقتضى الحال ، ومقتضى الحال لشاعر كالنابغة يصف امرأة ملك محسن اليه
كالنعمان أن يفضل وصفها بالعفة على ما يوحى بأنه غزل بها ، ولو قال النابغة
مثل بيت الشنفرى مكان بيته لكان أبلغ وأنسب لما يقتضيه المقام .

(١) أغاني الأصمهاني ١٥٤/١٤ .

(٢) انظر مذهب الأغاني ١٠٢/١ .

(٣) انظر للمثال ديوان عروة بن الورد ، والمفضليات ٣٥ . ١٣٦ ومصادر مالك بن حريم

في ترجمته .

(٤) المفضليات ١٠٩ والنسي المنسى وقصصه تغطي اثره والام بفتح الهزة قصد وتبليت توجز

ومن هذه المعاني التي تفوق بها الصعاليك ، وكانت موزدا للشعراء من بعدهم ، قول بكر بن النطاح الحنفي :

يضاه تسحب من قيام فرعها وتغيب فيه وهو وحف اسحم (١)
فكانها فيه نهار ساطع وكانه ليل عليها مظلم (٢)

فالبيتان وخاصة الثاني منهما كان معناه موزدا لشعراء كثيرين بعد بكر بن النطاح ، حتى عصرنا الحاضر .

ومن هذه المعاني أيضا ما سبق من قول جحدر بن معاوية :

ليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني (٣)

ويزيد جحدر عن أخذوا هذا المعنى انه أقربهم الى الحقيقة والاقناع لأنه قال ذلك وهو يائس في سجنه .

ومن الحق أن نضيف الى ما سبق من سمات غزل الصعاليك سميتين أخريين ، قد تكونان أكثر تمييزا لغزلها من السمات الأخرى ، لوضوحهما وكونهما حسييتين لا تحتملان التأويل واختلاف الرأي .

واحدي السمتين أننا كثيرا ما نجد غزل الصعاليك يأتي في حشو القصيدة (٤) ، لا مطلقا لها كما هو مألوف لدى الشعراء ، ونحن نحاول أن نلتمس أوضح تعليل لذلك نقول انه الصديق للصعاليك يتحدثون دائما عن واقع حياتهم ، وشعرهم دائما يمثل مشاغلهم ومشاكلهم وما يعانونه في الحياة فحين ينشئ الواحد مثلا قصيدة يغلب أن تكون تعبيراً عن شواغل نفسه وما يعانيه في حياته ، فيحدث عن هذه الشواغل ، وقد يكون من بينها حب يعاينه ، فلا يعنيه أن يكون أول القصيدة أو آخرها ، إنما يعنيه تعبيره عن احساسه به كما يعبر عن احساسه بأي شئ من الأغراض التي احتوتها القصيدة ، أما الشعراء الآخرون ، فهم بالنسبة للغزل بين حالتين ، إما أن تكون القصيدة مقصورة على الغزل ، ومن الطبيعي في هذا أن تكون مبدوءة بالغزل

(١) أمالي القالي ٢٢٤/١ حساسة أبي حاتم ٩٤/٢ والفرع يعني الشعر والورق الكثير الاسود والسحم ثوب .

(٢) عل متواله نسج شعراء كثيرون منهم على محمود طه في قوله ودخلت في ليلين شعرك والجبى ولثمت كالصبح المنور فاك .

(٣) أمالي القالي ٣٧٨/١ .

(٤) انظر للمبال ديوان الهذليين ٧٣/٢ وأمالي القالي ٢٧٨/١ ومهذب الأغانى ١١/٥ الأول من غزل صخر الغي والثاني لجحدر بن معاوية والثالث لملك بن الربيع والنظر الاصمعيات ٥٧ لملك بن حريم .

واما أن يكون هدف القصيدة غرضاً يستدعى بدعها بالتشويق كالمدرج وطلب
العطاء فيبدؤها بالفرز .

والسمة الأخرى أنه باستثناء الأفراد الذين اشتهروا بحب امرأة معينة
كتوبة بن الحمير صاحب ليل الإخيلية (١) ، وقيس بن الخداديّة صاحب نغم بنت
ذؤيب (٢) نجد الفرز ليس من الموضوعات الأساسية ، أو الأغراض البارزة
في شعر الصعاليك ، حيث نجده في أغلب الأحيان غرضاً عادياً يتحدثون عنه
كما يتحدثون عن سائر مشاغل حياتهم وآلامها وهمومها ، ولعل هذا من أسباب
كون غزلهم يأتي كثيراً حشواً في القصيدة لا مطلقاً لها .

الحلق الاجتماعي للصعاليك

ولسنا نريد الحديث عن خلق الصعاليك بصفة عامة ، فإن كثيراً مما سبق
يمثل خلقهم ، كالصبر والجرأة وقوة الإرادة والحزم ، والحذر واليقظة ونحوهن
فهذه ولاشك صفات لهم ، وتعتبر خلقاً لهم ، ولكنها صفات ذاتية شخصية
كان تأثيرها في ميدان صعلكتهم حتى أنهم تسلموا بها لتجأهم في حياة
الصعلكة ، ولم يكن يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك بدونها .

ولكننا هنا نريد أن نتحدث قليلاً عن الجانب الاجتماعي في خلق الصعاليك
والصلات والروابط الاجتماعية كثيرة متشعبة ، ولكننا كهدف البحث كله
نقتصر منها على الجوانب التي كان للصعاليك فيها طابع معين ، ومنهج متميز
عن غيرهم ، وفي هذا النحو كان للصعاليك ثلاثة جوانب ، لهم في كل منها
طابع خاص ، ومسلك معين يمتازون به في جملتهم عن غيرهم ، ويمكن حصر
هذه الجوانب فيما يأتي :

١ - الصلة الشخصية :

فقد كان كما يبدو من شعرهم لهم اتجاه معين في صلاتهم وصدقاتهم
الشخصية من حيث الصفات التي يرونها لازمة فيمن تروق لهم الصلة به ،
ومن حيث سلوكهم هم نحو من تربطهم به صلة شخصية .

(١) أنظر مصادره في ترجمته وللشمال الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الغانجي وحسامه

أبي تمام ١٠٨/٢

(٢) أنظر مصادر ترجمته فيما سبق وللشمال الغاني الأصلهاني ١٥٤/١٤ وما بعدها حيث

ساق له غزلاً كثيراً .

٢ - الفلسفة :

حيث يبدو واضحا من شعرهم ان نفوسهم كانت تتميز بطابع خلقي. ممتاز بنبيله وسموه ، في عفتها عما من شأنه أن يكون حطة خلقية ، أو سبة اجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالأعراض .

٣ - الاشتراكية :

وقد كان للصعاليك طابع اشتراكي من حقه أن ينوه به ، حيث لمع هذا الخلق الأصيل فيهم منذ الجاهلية الأولى بين ظلمات ظلم اجتماعي حالك ، وفي مجتمع كان من هذه الزاوية بالذات كالسماك يأكل كبيره صغيره ، حتى أن الذي يشذ بمظهر فردى من مظاهر التعاون والتعاطف الاجتماعي كان ينظر اليه بعين الاكبار والاعجاب لغرابة سلوكه بالقياس الى الوضع العام في المجتمع ، ولكن الصعاليك كانوا في هذا الميدان يمثلون غرة في مجتمعاتهم ، ولكن هذه الغرة لم يقدر لها اللعنان والبروز لظروف أحاطت بالصعاليك كما سيأتى . وهذه الجوانب على انحصارها تبرز الأطار العام لوضعهم في المجتمع ، وتشمل أهم النواحي التي تربط فردا أو طائفة بمجتمعه .

١ - الصلة الشخصية

يطالعنا في الصلات الشخصية للصعاليك طابع معين يغلب عليهم جميعا هو بعد صلاتهم عن النفاق الاجتماعي ، مما يسميه الناس مداراة أو سجالمة أو مصانعة ، فهم لا يقرون هذه المصانعات ، ولا يعترفون بالمداراة والمواربة وانما يؤثرون دائما الصراحة الواضحة في صلاتهم ، بحيث نشعر بأنه ليست هناك مرحلة وسط عندهم بين الصداقة والعداوة فاما صداقة خالصة نقية ، وأما عداوة صريحة بينية ، أما ما بينهما من مصانعات ومداورات والتواءات وسائر الأصابع التي تغطي الوجوه غير المحبوبة فلا يعترفون بها ولا بقرونها ويمكن تعليل ذلك بأن اشتراك المصالح والمنافع ، والاحتكاك الدائم بين الناس في صلاتهم بعضهم ببعض ، يضطرهم الى المصانعة والمداراة والتجاهل ، لأنه لا تستقيم حياتهم الاجتماعية الا بذلك ، ولو كشف كل منهم ما في نفسه للآخرين من مطامع وعواطف بأنواعها وتضاربها لتحولت حياة الناس الى حرب دائمة لا هوادة فيها ، فهم مضطرون الى تجاهل ما في نفوس الآخرين نحوه ، وتعطية ما في نفوسهم نحو الآخرين ، حتى تستقيم لهم الحياة

أو تكون أدنى الى الاستقامة ، أما الصعاليك فبحكم أشياء كثيرة منها عزلتهم التي تتيح لهم الاستغناء عن حياة الناس بما فيها ، ومنها فقرهم الذي لم يبق لهم شيئا يصنعون الناس من أجله ، ومنها طبيعة نفوسهم المقطورة على القوة التي لا يحتاجون معها الى منافقة أو مداورة تحميمهم من غيرهم ، بحكم أشياء كثيرة منها هذه الأشياء لم تكن بالصعاليك حاجة الى أن يضعوا في صلاتهم مرحلة وسطا بين الالف والرغبة أو الصداقة ، وبين العداوة ، فاما أن يكون المرء بالنسبة اليهم مرغوبا فيه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون مرغوبا عنه بأى مرتبة من مراتب النفور ، ولكن في كلا الحالتين لا يخفون ما في نفوسهم عنه ، ولا يضللونه ، كما أنهم لا يحاولون تضليل أنفسهم .

هذا شعار عام للصعاليك في جملتهم ، نحسه من خلال شعرهم ، حيث نراهم ينبذون من لا يجدون لنفوسهم رغبة فيه على النحو الذي أشرنا اليه ، وأما الذين يجدون في نفوسهم رغبة فيه ، فنشعر من خلال شعرهم أنهم يؤثرون فيه صفات معينة ، معظمها صفاتهم كصعاليك وكأصحاب خلق معين وهم بهذا يسلكون الطريق الطبيعي في الصداقة ، فمن المعروف ان أوثق الصداقات ما قامت على تشابه وتقارب بين الصديقين .

وهذا تابط شرا يبين لنا مذهبه في الصداقة ، فيقول ان الصداقة الواهية التي لا يرجى منها بذل ولا تضحية في الشدائد ينبذها غير مشتاق اليها . ولا مشفق من نبذها فيقول :

انى اذا ما خلة ضنت بنائلها وامسكت بضعيف الوصل احذاق (١)
نجوت منها نجائى من بجيلة اذ اقيت ليلة خبت الرهط اوداقي (٢)
ثم - ولا أقول اذا ما خلة صرمت يا ويح نفسى من شوق واشفاق (٣)

ويبين الصفات التي يلتبسها ليكون صاحبها صديقا محببا اليه ، وهي صفات كثيرة ، ولكن تبرز من بينها صفات للصعاليك وخاصة في البيت الثالث مما يأتى :

لكنما عولى ان كنت ذا عول على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد فى عشيرته مرجع الصوت هنا بين ارفاق (٤)
عارى الظنايب ممتد نواشره مدلاج ادهم واهى الماء غساق (٥)

-
- (١) المفضليات ٢٨ والخلة الصداقة والوصل يعنى حبل الصداقة والاحذاق المتقطع .
(٢) بجيلة قبيلة أسرته ثم نجا منها والخبت اللين من الارض والرهط موضع وأوداقي يعنى بذلت جهدى عدوا .
(٣) صرمت قطعت .
(٤) مرجع الصوت تأمر وتنهى وهذا رافعا صوته يعنى رئيس جماعته أو عصابته .
(٥) الطنايب حروف عظم الساق والنواشر عروق ظاهر الذراع يعنى مزاله مدلاج كثير سفر الليل والادهم الليل . وواهى الماء صفة الليل يعنى شديد المظلم .

جمال ألوية شهاد اندية قول محكمة جواب آفاق (١)

فمن أهم الصفات التي يطلبها اذن في صديقه أن يكون نحيلا ، كثير الحركة والعمل في الليل جوابا للآفاق ، وكأنه يشترط أن يكون صديقه صعلوكا وهو فعلا ما يريد أن يقوله وبعد هذه الأبيات أبيات أخرى تؤكد هذا المعنى .
والشغفري يصوغ هذا المعنى في صورة أخرى ، فهو أن أحس في الصداقة شكاً أو شيئاً يشكوه أعرض عنها لاجئاً الى قوته ، مبيناً انه بين حالين لا ثالث لهما ، فهو حلو لمن طلب حللته ومر اذا توجس أو انكو من أحد شيئاً ، وليس ينتظر منه بين الحالين حال أخرى فيقول :

الا لا تعدني أن تشكيت خلتي شغاني بأعلى ذي البريقين علوتي (٢)
واني خلو أن أريئت حلوتي ومرا اذا نفس الغزوف استمرت (٣)
أبي لا أبي سريع مباءتي الى كل نفس تنتحي في مسرتي (٤)

ويعبر الشغفري مرة أخرى عو هذا المعنى في صورة أخرى أيضاً فيقول :

واني كفاني فقد من ليس جازيا بحصني ولا في قريبه متعل
ثلاثة اصحاب فؤاد مشيع وابيض اصليت وصفراء عيطل (٥)

وسعد بن ناشب يعبر عن هذا أيضاً ، فيجعل نفسه في طرفين متباعدين فهو اما حلو كريم ، واما شرس عنيف ، ولكنه حين يعنف فلا حدود لشراسته وعنفه فيقول :

تفندني فيما ترى من شراستي وشدة نفسي أم سعد وما تدرى (٦)
فقلت لها أن الكريم وأن حلا ليلفي على حال أمر من الصبر
وفي اللين ضعف والشراسة هيبه ومن لم يهب يخل على مركب وعز (٧)
وما بي على من لأن لي من فظاظة ولكنني فظ أبي على القسر (٨)

ويتحدث مالك بن حريم عن أصدقائه وأخوان صفائه ، بأنهم حين رأوا شبيهه أعرضوا عنه الى من رأوه أكثر نفعا لهم ، وأجدي عليهم عونا ، وكأنه يؤيد

- (١) المحكمة الكلمة الفاصلة وجواب آفاق صاحب أسفار وغارات .
- (٢) المضليات ١١٢ ولا تعدني تعبير عن السخط والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والمدوة المرة من العفو .
- (٣) استمرت ارادت المارة .
- (٤) المباءة الرجوع تنتحي تقصد .
- (٥) من اللامية ومتعلل يعني النفع ومشيع قوى كان له شية والابيض السيف والصفراء القوس .

(٦) حساسة أبي تمام ٢٧٠/١ ، ٢٧١ وتفندني تلومني وتجهلني .

(٧) يعني من لم تكن له هيبه يستخف .

(٨) الفظاظة الغلظة والقسر يعني الظلم .

مذهب الصعاليك في صداقاتهم حيث لا يبقون منها ما يتوجسون فيه ريبة وما لا يثقون ثقة كاملة في صدقه ونقاؤه ، فيقول عن اخوان صفائه ، بعد حديثه عن شبيب رأسه :

واقبل اخوان الصفاء فوضعوا الى كل احوى في المقامة افرا (١)

وليس معنى ذلك ان الصعاليك انفردوا بهذا الاتجاه في الصداقة ، وانما نعننى منه اننا قد نجد بعض هذا في شعر غيرهم ، ولكن بصورة فردية ، وغالبا ما يصحبه في شعر غيرهم خلق وسط ، يعبر عنه بالحلم ، او التفاضى او التسامح او نحو ذلك ، ولكن هذا الاتجاه في شعر الصعاليك ليس فرديا وانما هو عام يغلب على شعرهم في جملته ، دون أن تصحبه مرحلة وسط في صلاتهم الفردية ، وحتى ان وردت عبارات توحى بالتوسط ، فاننا نجد كالكشادة هنا لا تمثل خلقا ، ولا يدعمها السياق ، كقول الشنفرى :

ولا تزدهى الاجهال حلمى ولا اذى سثولا باعقاب الاقاول ائمل (٢)

٢ - العفة

قد يبدو الحديث عن عفتهم متعارضا مع مسلكتهم ، حيث يعتمد سلوك الصعاليك على العدوان على اموال الناس ، وحيث يعتمد رزق الصعاليك على سلب ممتلكات غيرهم ، ولكن الواقع ان هذا السلوك مذهب اجتماعى آمنت به نفوسهم ، وارتضوه لحياتهم ، لا يرون فيه غضاظة ولا خزيا ولا شيئا يسيء الى مروءتهم ، وانما يرون فيه عكس ذلك ، كرامة لهم ، وارتفاعا بانفسهم عن ذل السؤال ، وهوان المن بالاحسان والتفضل عليهم كما رأينا ، وكما عبر عن ذلك بكر بن النطاح بقوله :

ومن يفتقر منا نعيش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكما يقول الاحير السعدى :

وانى لاستحيى لنفسى ان ارى أجور حبل ليس فيه بعير

وأما عفة الصعاليك في خلقهم الاجتماعى كما يبدو واضحا من شعرهم فقد سمت الى درجة من الببل ، لا نظن ان شعرا صور خلقا أو نبلا أسمى منها

(١) الاسمييات ٥٧ واوضحوا اسرعوا والاخرى اسود الشعر والمقامة المجلس والالرع التام

الشعر ، يعنى تركوه الى مجالس الشباب .

(٢) من اللامية : سبق نصها مشروحا .

وليس شعرهم وحده هو الذى يصور هذه المثالية الرفيعة فى أخلاقهم فأخبارهم أيضا لا تعارض هذا ولا تنفيه ، بل تؤيده وتؤكد ، فهذه زوج عروة ابن الورد ، تصفه قائلة : « انى لا أعلم امرأة ألفت سترا على خير منك ، أغفل عينا ، وأقل فحشا ، وأحمى لحقيقة » (١) ، ولم تقل ذلك وهى فى كنفه وإنما قالت حين هجرته هجرة لا أمل فى رجوعها عنها ، مختارة عليه قومها ، فى قصة نخبرها بين زوجها عروة وقومها (٢) .

وعفة الصعاليك فى ترفهم عن كل ما يسىء الى المروءة ، وكل ما يخلدش الكرامة والخلق النبيل عفة مطلقة ، غير محدودة بنوع أو مجال معين ، ففي كل مجال من مجالات السلوك الاجتماعى يتميزون بهذه العفة والخلق الكريم وقد عرف هذا عنهم حتى ان واحدا منهم شذ عن هذا الخلق ، كان شذوذه بينا متميزا ، وكان موضع غرابة وانكار من رواة الأخبار وكأنهم يقولون ان هذا ليس خلق الصعاليك ، وهو أبو الطمحان القينى فى بعض أفعال تسمى الى الخلق ، كسطوه على مال امرأة وعرضها بعد أن أحسنت اليه (٣) .

وأوضح ما تكون عفة الصعاليك فيما يتعلق بالمرأة ، ومن نواحي هذه العفة انفرادهم بالغزل فى الزوجة ، مما يوحى بالاتجاه الخلقى المشروع فى عواطفهم .

وأما عن الغزل بصفة عامة عند الصعاليك ، فالواقع انه من الهضم لخلق الصعاليك أن يوصف غزل قط بأنه أعف من غزل الصعاليك ، ولئن كان غزل بنى عذرة قد اشتهر بالعفة ، فان غزل الصعاليك كان أسبق وأعف .

وبينما نجد الشعراء يفرغون معظم جهدهم الشعرى فى الهيام بالمرأة مركزين معظم هذا الجهد فى تتبع مواضع الانوثة والعفة ، مما يشف عن شهوة جامحة الى كل شيء فى المرأة ، بل ان كثيرا من شعرهم يتتبع أعضاء المرأة عضوا عضوا ، وجزء جزءا من أعلاها الى أدناها ، مما تفيض به كتب الأدب والشعر (٤) بينما نجد الشعراء كذلك ، نجد غزل الصعاليك يسمو عن ذلك كله ، فلا يعرض قط لعورة ، ولا يشير قط الى موضع انوثة أو عفة ، ولا يشف قط عن تهافت أو جموح ، بل على العكس نلمس فيه تعمد الحديث عن العفة سواء فى خلق المرأة المتغزل بها ، أو فى خلق الشاعر نفسه ، بل نجد شخصا كالسليك يضع لنفسه هذا الشاعر الذى ينبىء عن العفة المترفة باحتقاره لغير النوار وهى المرأة النفور من الريبة فيقول :

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ ، ١٦٠ م الخانجي .

(٢) انظر المصدر السابق وديوان عروة .

(٣) انظر الأغاني للأصمغاني ٧/١٣ .

(٤) انظر للمثال نهاية الادب للنويرى ١٨/٢ - ٦٥ عما قاله الشعراء فى تتبع أعضاء

المرأة وكذلك ١٣٤/٢ - ٢٧٧ عما قالوه فى أحوال العشق .

يعاف وصال ذات البذل قلبى ويتبع المنعة النوايا (١)

ويصف المرأة التى يتحدث عنها بقوله :

من الخفريات لم تفضح اباهها ولم ترفع لاختوتها شئنا (٢)

ويصف الشنفرى من يتغزل بها بقوله :

فيا جارتى وانت غير مليمة اذا ذكرت ، ولا بذات تقلت (٣)
لقد اعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشيت ولا بذات تلفت
تبئت بعيد النوم تهلى غبوتها لجارتها اذا الهدية قلت (٤)
تحل بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت باللمة حلت
كان لها فى الارض نسيا تقصه على امها ، وان تكلمك تبئت (٥)
اميمة لا يخزى نشاها حليلها اذا ذكر النسوان علت وجلت (٦)

وهذا توبة بن الحميز مع عشقه المشهور لليل الاخيلية ، هذا العشق الذى يبيح له فى عرف العشاق أن يطمع وأن يؤمل ، ولكنه لا يطمع ولا يؤمل وانما يكتفى منها بما لا يكفى سواء فيقول :

ولو ان ليلي الاخيلية سلمت على ودونى جنبل وصـفـفـانـح
لسلمت تسليم البشاشة او زقا اليها صدى من جانب القبر صانـح
واغبط من ليل بها لا اناله الا كل ما قرت به العين صالح (٧)

وليلي الاخيلية هذه تعترف لتوبة بمغفته وحيائه فتقول عنه بعد موته :

فتى كان احبى من فتاة حبية واشجع من ليث بخلان خادر (٨)

وقيس بن الحدادية مع هيامة الشديد بحبيبتة نعم بنت ذؤيب ، يصف عفتها مع مبادلتها اياه الحب فى شعر كثير يقول منه :

قد اقتربت لو ان فى قربها نوالا ، ولكن كل من ضمن مانع
وقد جاورتنا فى شهود كثيرة فما نولت والله راء وسامع
كان فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع (٩)

(١) مهذب الاغانى ١٧٠/٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المفضليات ١٠٩ وتقلت من القل البغض .

(٤) الفبوق شراب الليل .

(٥) الام القصد وتبئت توجز الكلام .

(٦) نشاها سيرتها .

(٧) حساسة ابى تمام ١٠٨/٢ والصفايح الحجاره وزقا صاح .

(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى .

(٩) اغانى الاصفهاني ١٥٤/١٤ .

وبكر بن النطاح يصف عفة حبيبته ، ويساه من الطمع فيها ، مع ما تفعله هذه العفة في نفسه من تردده بين نوازع مختلفة ، ولكنه مع ذلك قانع راض عفيف فيقول :

فلا كبدى تبلى ولا لك وحملة ولا عنك اقصار ، ولا فيك مطعم
فلا تساليني في هواك زيادة فائسره يجرى وادناه مقنع (١)

ومالك بن حريم يحدثنا عن حبه ، وعفة هذا الحب فيقول :

اهيم بها لم اقض منها لبانة وكنت بها في سالف الدهر موزعا (٢)
ويقول أيضا عن عفته عن التطلع الى جارتها أو ايدائها في عرضها ويجعل ذلك احدى صفات أربع عددا في نفسه :

وثالثة ألا تقلع جساتي اذا كان جار القوم فيهم مقدعا (٣)

وأبو خراش الهذلي يصف أخاه ورفيق صعلكته زهيراً حين قتل فيقول :

قتلتهم فتى لا يفجر الله عامداً ولا يجتويه جاره عام يمحى (٤)
ولئن كانت العفة في صلة المرأة بارزة في شعر الصعاليك ، فليست من الجانب الوحيد في عفتهم ، ولا هي أبرز الجوانب ، وإنما نحس أن العفة خلق أصيل في الصعاليك تبدو في كل ما يمكن أن يوصف بالعفة كما يقول مالك ابن حريم :

وأكرم نفسى عن أمور كثيرة حفاظا وانهى شحها ان تطلعا (٥)
والشنفرى يتحدث عن نحو ذلك من العفة فيقول :

ولولا اجتناب الدام لم يلف مشرب يعاش به الا لدى وماكل (٦)
بل يبلغ بالعفة الى مراعاتها حتى في أدب الطعام فيقول :

وان مدت الأيسى الى الزاد لم أكن باعجلهم اذ اجشع القوم اعجل (٧)
ومن صور العفة عند الصعاليك عفة اللسان ، حتى في الشتم والإهزاء كما يقول مالك بن الريب :

(١) مهلب الأغانى ٨/٨٤ .

(٢) الأصمعيات ٥٨ .

(٣) الأصمعيات ٥٨ والقذع الضفى .

(٤) معجم ما استمع للبكرى ٣/٣٠٠ .

(٥) الأصمعيات ٥٨ .

(٦) عن اللامية والدام اللامة .

(٧) من اللامية .

وقد كنت صبارا على القرن في الوغى وعن شتمى ابن العم والجار وانيا (١)

وشعر الصعاليك كله شاهد على عفة السنتهم ، فلم يبلغنا شعر كان فى جبلته أعف لفظا وأكرم معنى من شعر الصعاليك ، فغزلهم كريم عفيف كما قلنا وهجاؤهم أيضا كله كرم وعفة لسان اذا قيس بغيره من الهجاء فى أى عصر من العصور ، فبينما نجد هجاء الشعراء يفيض تجريحا وسبا للمهجوين ونيلًا من أعراضهم ومزقاتهم ، نجد شعر الصعاليك — كما أشرنا — يلتزم حدود العفة الكريمة ، فلا يفحش ولا يقذع ، بل سما كثير منه الى النماذج المثالية فى الخصومة ، كما فى خصومة صخر الغى وأبى المثلج الهذلى (٢) .

وقد يبدو غريبا ظهور العفة فى طابع متقارب بين طائفة لم يجمع أفرادها مكان واحد ولا زمان واحد أيضا ، بل عاشوا فى أماكن وأزمنة متفرقة ، ولكننا يمكن أن نحاول تحليل ذلك بأنهم وإن اختلفوا فى المكان والزمان ، إلا أنهم اتفقوا أو تقاربوا فى صفاتهم الذاتية ، من حيث الصفات والأخلاق التى سبق الحديث عنها بالنسبة لهم ، ومحورها القوة ، وقد تكون هذه القوة فيهم بجوانبها مصدر عفتهم ، لأن عدم العفة نوع من الضعف لا يلائم قوتهم المتعددة الجوانب ، كما أنهم وإن اختلفوا فى الأماكن ، إلا أنهم جميعا تجمعهم بيئة الصعلكة ، وأماكنها المفضلة من الصحراوات والقفار كما سبق .

٣ - الاشتراكية

ولقد كان من العجيب أن يبرز فى الصعاليك خلق اجتماعى كريم ، هو الاشتراكية فى خير صورة يدعو إليها تشريع ، أو تهتدى إليها حضارة .

ومصدر العجب ابن الظروف الشخصية والاجتماعية التى أحاطت بالصعاليك لم تكن لتساعد على خلق كهذا ، فأما الظروف الشخصية فلأنهم كانوا فقراء ، وظلوا طوال صعلكتهم فقراء كما قلنا ، ومع فقرهم هذا فقد كانت الاشتراكية طبعا أصيلا فى حياتهم ، وأما الظروف الاجتماعية ، فنعنى بها ظروف المجتمع الجاهل ، حيث كان مجتمعا طبقيًا ، لا يبرق فيه أى وميض من معانى التعاون أو التكافل الاجتماعى إلا ما يتفضل به بعض المحسنين من الأغنياء على الفقراء ، بصورة فردية لا يبدو فيها التعاون الاجتماعى ، أو حتى الخلق ، بمقدار ما تبدو فيها الانانية والرغبة فى الغنى والتمنى .

ومع هذه الظروف الشخصية القاسية للصعاليك ، ومع هذا الظلام

(١) انظر مرثيته : سبق نصها .

(٢) انظر ديوان الهذليين ١٢٣/٢ - ١٤٠ .

التعاون الحالك فى المجتمع فقد رفع الصعاليك لواء مشرقا من اشتراكية كريمة كانت محط اعجاب المجتمع ، ومضرب أمثاله .

ونحب قبل أن نتحدث عن اشتراكية الصعاليك ، أن نلقى نظرة على اثر الاشتراكية فى مجتمعهم حتى نستطيع أن نحكم على اشتراكيتهم ، وهل استطاعت أن تتقدم من اشتراكية مجتمعهم أم لم تستطع ؟

والواقع أن هناك صفات لا يتنازع فى وجودها فى المجتمع العربى ، كإكرام الضيف ، والسخاء والجود ، وإعانة المنكوب ، ولكنها ليست فى درجة واحدة من وضعها فى المجتمع أو التزام الأفراد حيالها . فإكرام الضيف وحده هو الذى يمكن أن نعتبره صفة عامة فى المجتمع العربى بحيث يلتزم الأفراد إياها بصفة عامة ، وهذه الصفة وإن كانت فى صورة التعاون الاجتماعى إلا أنها على أهميتها ، وعلى ما أدته من فوائد حيوية لا تعتبر فى أصلها أو فى الدافع إليها ، تعاوناً اجتماعياً وإنما تعتبر ضرورة اجتماعية ، والفارق بين المعنيين كبير ، رغم اتفاقهما فى النتيجة ، لأن التعاون نزعة اختيارية ، وعمل يقوم على الاختيار مهما دعت الظروف إليه ، أما الضرورة فأمر لا مفر منه من الناحية الاجتماعية ، وتطبيق ذلك بالنسبة لإكرام الضيف ، أن طبيعة البيئة والحياة حينذاك كانت تحتم التزام المجتمع رعاية الضيف ، لأن الضيف عندهم رجل مسافر ، فى بيئة قاحلة قد لا يجد فيها طعاماً ولا شرباً ، ومهما حمل من زاد ، فطول السفر ، وتباعد أماكن البيئة ، يعرضه لنفاد زاده ، وليست هناك أماكن لبيع الطعام ، أو لتقديمه ، فضلاً عن أنه فى معظم الأحيان ، حتى لو فرضنا وجود أماكن عامة للطعام – وهو فرض غير واقعى فى بيئتهم – فإن هذا المسافر قد لا يجد ما يشتري به ، والأهم من هذا أن السفر والتنقل ليس فى حالات فردية فى مجتمعهم ، وإنما هو طابع البيئة كلها فالقبائل دائمة التنقل وراء الرعى والأفراد دائمو التنقل وراء رزقهم ، وحتى أصحاب المدن ، دائمو التنقل والأسفار فى تجارتهم ورحلاتهم ، ومراعيهم أيضاً . واذن فكل فرد معرض لأن يكون مسافراً ، ومعرض لأن يكون ضيفاً نازلاً لدى أى إنسان ، فى أى مكان ، فهو ملزم بأن يأوى أى إنسان يمر بهذا الطرف ، طرف الضيافة لأنه هو أيضاً معرض دائماً لهذا الطرف أيضاً ، فالضيافة فى العرف العربى حينذاك ، غير الضيافة التى يعنىها عرفنا اليوم من أنها استضافة شخص معروف ذى صلة فى ظروف تختلف كل الاختلاف عن تلك الظروف . لأن الظروف المحيطة بالضيافة كما قلنا هى التى جعلت رعاية الضيف عندهم ضرورة اجتماعية ، ولذلك نجد الضيافة والاهتمام بها تتأثر دائماً من مجتمع إلى آخر حسب هذه الظروف ، كما نلمس فى الفارق بين نظرة القرية الريفية إلى الضيافة من حيث الاهتمام بها . وبين نظرة المدينة من حيث عدم الاهتمام بها ، لأن طررف الضيف فى المدينة غيرها فى الريف ، حيث يستطيع أن يجد فى المدينة من حاجته فى المطاعم والفنادق ما لا يجده فى القرية ، وإحساس

مجتمع المدينة ، ومجتمع القرية بطروف الضيف في كل منهما هو الذى يحدد السلوك نحو الضيافة .

واذن فالضيافة العربية القديمة على اهميتها في حياة المجتمع ، وحلها لمشكلة كبرى في حياة الافراد كانت ضرورة اجتماعية أكثر منها مظهرا من مظاهر التعاون الاشتراكي وأما المظاهر الأخرى التي كانت تأخذ جانبا من طابع الاشتراكية في مظهرها ، كالجود وإغاثة المنكوب ، فقد كانت أقرب أيضا الى النزعة الفردية والرغبة في الفخر والتعالى منها الى التعاون الخلقى الاشتراكي كما يبدو ذلك واضحا في أشعار الكرماء والمحسنين من العرب ، حيث نجدهم دائما يتخذون من مواقف الجود والاحسان موردا فياضا للفخر والتعالى ، وليسوا هم وحدهم الذين يفخرون ، انما يفخر أيضا أولادهم وأقرباؤهم بهذه المواقف بل يتوارثون هذا الفخر جيلا بعد جيل ، وهذا التهاافت الواضح في الفخر بمواقف الجود والاحسان يدل على أن هذه المواقف مهما سمت فهي أقرب الى الانانية منها الى الخلق الاشتراكي النابع من الايمان به لذاته .

ولسنا بهذا نريد أن نقول من قيمة الفضائل العربية ، فالواقع ان هذه الفضائل كانت سناء مشرعا في ظلام الطبقية الجاهلية ، التي يتصارع فيها الافراد على الثروة في أنانية لا تبالى أن تحطم في طريقها أى شيء ، وإى انسان ، في سبيل الوصول الى غايتها .

ولكن الذى نريد أن نقوله ان هذه الفضائل على اهميتها في حياتهم ، وحلها لكثير من مشاكل بعض الافراد ، لا تعتبر خلقا تعاونيا بالمعنى الصحيح ويكفى في بعدها عن الاشتراكية الصحيحة انها مطبوعة دائما بطابع المن والتفضل والتعالى ، وقد يكون هذا الطابع على دقة مدلوله ، من الفسواق الأساسية بين الاشتراكية الصحيحة ، وبين صورة من صور الاحسان والتفضل الفردى أو الجماعى ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الفارق في وضوح مبينا الفرق بين الصورتين في قوله تعالى : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١) فكلمة (حق) هي الفاصل بين المعنيين ، وهي صلب الاشتراكية الصحيحة ، ولذلك نجد التشريع الاسلامى يهدف دائما الى تقرير هذا المعنى وتوضيحه ، مبعدا بكل شدة وأصرار ، الشعور بالتفضل والمن عن نفوس المتصدقين والمزكين ، كما يقول تبارك وتعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى ، كالأذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهتدى القوم الكافرين » ، (٢) ، واضحا المزكين والمتصدقين بين شعورين اثنين ، لا ينبغي أن يتعدوها الى ثالث ، وهما

(١) الأيتان ٢٤ . ٢٥ من سورة النماذج .

(٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

ان ما يخرجونه من أموالهم حق واجب عليهم ، وان جزاء ما يخرجونه عند الله وحده ، وليس عند الناس ، ولا عند أحد من الذين يتلون هذا المال ، وعندئذ لا يجد المتصدقون والمزكون فرصة قط للشعور بالتفضل والمن ، ولا لانتظار المدح أو التأثير باحسانهم لدى أحد من الناس .

والواقع ان هذا الحديث يحتاج الى بسطة واسعة لا يقتضيها الموضوع ولذلك نعود الى الصعاليك ، فنقول ان اشتراكيتهم كانت أقرب ما تكون الى الاشتراكية الأصلية في أوضح صورها حتى التي عرفت الشرائع والمضارات .

وأخبار الصعاليك تؤكد اشتراكيتهم قبل شعرهم ، فمن أخبار عروة بن الورد انه « كان اذا أصابت الناس سنة شديدة (١) تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم اما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذبحت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى » (٢) ومن أخباره أيضا « أجذب ناس من بنى عيس في سنة أصابتهم ، فاهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس فاتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك (٣) أغثنا فرق لهم ، وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا » (٤) ومن أخباره في اشتراكيته مع رفاقه انه « خرج هو وأصحابه حتى أتى ما وان (٥) فنزل أصحابه ، وكنف عليهم كنيفا من الشجر ، ثم مضى يبتغي لهم شيئا » (٦) وفي تكملة هذه القصة السابقة نجد صورة بالغة من صور الاشتراكية ، حيث انه يعد ان ترك هؤلاء الفقراء الذين كنف عليهم كنيفا من الشجر ومضى يبتغي لهم شيئا يعولهم به ، قدر له أن يصيب عددا كبيرا من الابل ، ويصيب معها امرأة ، ورجع بالابل والمرأة ، فقسم الابل بين هؤلاء الفقراء الذين لم يصنعوا شيئا غير انتظار احسانه ، وجعل لنفسه نصيبا مثل واحد منهم ، ولكنهم أبوا عليه أن يأخذ المرأة ، وقالوا كما تسوق الرواية « لا واللوات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا ، فمن شاء أخذها » ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم

(١) يعنى المجاعة والقحط .

(٢) مذهب الأغاني ٢/٣٦ .

(٣) يمتنون بالصعاليك هنا المعنى اللغوي وهو الفقراء ، وكان عروة يسمى عروة الصعاليك أى عروة الفقراء ، انظر القاموس المحيط مادة صعلك .

(٤) الأغاني الأصلهاني ٨١/٣ .

(٥) موضع .

(٦) الأغاني الأصلهاني ٨٥/٣ .

فينتلمهم وينتزع الابل منهم ، ثم يذكر انهم صنيعته ، وانه ان فعل ذلك افسد ما كان يصنع ، فافكر طويلا ثم اجابهم الى ان يرد عليهم الابل الا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم ، فجعل له راحلة من نصيبه « (١) » ، وواضح من هذه الاخبار انها ليست مجرد جسد أو كرم ، وانما هي شعور بالرعاية الاجتماعية . والتكافل الاجتماعي ، وهما جوهر الاشتراكية ، بل انهم بلغوا في الشعور بالاشتراكية حدا أبعد من هذا حد استباحة أموال الأغنياء ليردوها الى الفقراء ، وهم في هذا لا يختلفون عن جوهر التشريعات السماوية والوضعية ، ولا ينقص سلوكهم هذا الا الحماية التشريعية ليكون سلوكا مشروعا ، ومن اخبارهم في هذا ان عروة بن الورد سمع أن رجلا من كنانة بحيل ، فبعث عليه عيونا ، فأتوه بخبره ، فشد على ابله فاستاقها ، ثم قسمها في قومه « (٢) » ومما قاله في ذلك :

واذا افتقرت فلن اوى متخشعا لأخي غنى معروفه مكبود (٣)

ليس هذا السلوك من عروة يتفق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم لعامله على الصدقة : خذها من أغنيائهم ، فاجعلها في فقرائهم ؟ (٤) غير أن مسلك عروة ينقصه حماية التشريع ، والصفة الشرعية ، فأصبح صعلكة ، وليس سلوك تشريع .

وكذلك مالك بن الربيع ، حينما سأل سعيد بن عثمان الوالى قائلا « ويحك يا مالك ، ما الذى يبلغنى عنك من العدا و قطع الطريق ؟ » أجابه مالك بأن سببا واحدا يدعوه الى العدا و قطع الطريق ، ولم يكن هذا السبب طلبا لنفع شخصي ، وانما كان مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، حيث أجابه قائلا « أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان » (٥) .

وهكذا نجد اخبار اشتراكياتهم كثيرة متعددة الجوانب ، وقد عرف المجتمع فيهم هذه الصفة ، حتى أصبحوا مضرب المثل ، ففي أمثالهم « كل صعلوك جواد » (٦) ، وقد نال عروة بن الورد بسبب شهرته الاشتراكية هذه منزلة رفيعة في المجتمع ، وظلت هذه المنزلة مقرونة بسيرته عدة أجيال ، حتى قال معاوية بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم (٧)

(١) انظر مهذب الأغاني ٢٧/٢ .

(٢) شرح ديوان عروة بن الورد لابن السكيت ٨٧ .

(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى والرواية بالمعنى .

(٥) انظر خزائن الأدب للبغدادي ٥١/٢ وأمالى القال ١٣٦/٣ .

(٦) انظر مجمع الأمثال للميداني ١٥٩/٢ المثل ٣١٣٤ .

(٧) ديوان عروة بن الورد ٨٠ .

وحتى قال عبد الملك بن مروان : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني كان ولدني إلا عروة بن الورد لقوله :

واني امرؤ عافى انائي شركة وانت امرؤ عافى انائك واحد (١)

وقال عبد الملك ايضا : من زعم أن حاتمنا أسبح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد (٢) ، والذي نريد أن يكون واضحا في حديثنا عن هذه الصفة في الصعاليك ، أنها لم تكن مجرد كرم أو رغبة في الجود ، وإنما كانت صفة أصيلة في نفوسهم ، توحى بإيمانهم بأن ما في أيديهم ينبغي أن يكون شركة بينهم وبين غيرهم ، وبأنه لا ينبغي أن يترك محروم أو بائس دون عون ورعاية وهذان المعنيان بالذات ، هما اللذان نريد أن نصل إليهما في حديثنا عن اشتراكية الصعاليك ، لأنهما المعنيان اللذان امتازوا بهما عن مجتمعهم ، وسبقوا بهما كل اتجاه إلى الاشتراكية من حيث التطبيق والتنفيذ والالتزام وأهم هذا السبق الذي حازوه في هذا المجال ، أن إيمانهم هذا ، وسلوكهم الاشتراكي لم يكن نابعا من دعوة خارجية ، أو اقتداء ، أو من أي مؤثر خارج نفوسهم ذاتها .

وحين نذهب إلى شعرهم نجد نفيس بأخبار اشتراكيتهم هذه ، ومهما صورها شعرهم في صورة الكرم أو البذل أو العون ، فأننا نحس أن وراء هذه الصور جميعا صفة أصيلة غير متكلفة ، وصفة إنسانية لا يراد بها فخر أو استعلاء ، وقد يقال أن كثرة الحديث عن هذه الصفة في شعرهم ، توحى بالرغبة في الفخر ، مما يتنافى مع ما قرناه آنفا ، والجواب عن ذلك ، أن حديثهم كله في جملة عن صفة الجود الأصيلة فيهم تلك التي سسيتها اشتراكية ، لا يبدو منه نزوع إلى الفخر ، بل ولا مجرد الخبر في معظم الأحيان وإنما نجد حديثهم هذا في أكثر الأحيان دفاعا عن أنفسهم ضد لائمهم على الاسراف وتبديد المال ، ومعظم اللائمين كن أزواجهم ، وفي الأحيان القليلة الأخرى كان حديثهم أخبارا عن حادث من حوادث اشتراكيتهم ، أو دعوة إليها أما نزعة الفخر التي نراها في شعر غيرهم فلا تبرز قط في شعرهم بروز الفخر والتعالى وطلب الذكر . وكما كان عروة بن الورد أكثر الصعاليك حرصا على الاشتراكية ودعوة إليها ، كان شعره أيضا أكثر شعرهم حديثا عنها ودعوة إليها ، وكثير من شعره هذا اقترن بحوادثه الاشتراكية ، ففي قصة أصحاب الكتيف السابقة يصور نفسه بالنسبة لهم كالأم الحنون التي لا تبخل على وليدها بأعز ما تملك ، فيقول من شعره في هذه القصة عن أصحاب الكتيف :

(١) ديوان عروة ٨٠ .

(٢) المصدر السابق .

وانى وإياهم كلنى الام اوهنت له ماء عينيها تفدى وتحمل (١)

وامراته نصده عن المخاطرة بنفسه فى غارات الصعلكة ، فيقول لها : انه يطلب الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لاغاثة المنكوبين الذين تفجؤهم المغارم والديان ، وفى هذا يستعظم عروة أن يرى أحدا منكوبا ويجد نفسه عاجزا عن عونته ويرى الموت خيرا له من هذا العجز فيقول :

دعنى اطوف فى البلاد لعلى أفيد غنى فيه لدى الحق محمل (٢)
اليس عظيما أن تلم ملمة وليس علينا فى الحقوق معول (٣)
بان نحن لم نملك دفاعا بحدوث تلم به الأيام فالموت أجمل

ولنا أن نسأل : هل يبدو فى الأبيات السابقة أثر قط لفخر أو ما يشبه الفخر ؟ وهل هناك سماحة أو اشتراكية أبلغ من اشتراكية شخص يدفع بنفسه الى مخاطر فى مقدمتها الموت ، لا لشيء الا ليتحمل عن المنكوبين تكباتهم ؟ لا أظن فى الجواب خفاء ، ويتحدث عروة أيضا عن معنى نبيل آخر هو انه قد يكسب مالا ، ويخيل اليه حينئذ انه سيصبح غنيا ، وإذا هو يرى صورا من الفقر والحاجة تدفعه الى نبذ ماله ، ليعود فقيرا ، ومن هذه الصور ، فقير ذو عيال ، يشكو هزال جسمه وحاجة أولاده ، وهو مع ذلك كريم ، ولكن الأيام والحوادث أصابت كرمه ومكانته ، فيقول مخاطبا امرأته التى تصر على صده عن المخاطرة بنفسه فى حياة الصعلكة :

أرى أم حسان الفسادة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف (٤)
لعل الذى خوفتنا من أماننا يصادفه فى أهله المتخلف (٥)
إذا قلت قد جاء الغنى حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر اعجب (٦)
له خلة لا يدخل الحق دونها كريم أصابته حوادث تجرف (٧)

وتواصل امرأته كفه عن المخاطرة ، ولكن إيمانه بأن فى الناس من هم فى حاجة الى عونه يزيده اصرارا على معارضتها ، وتنفيذ ما يؤمن به ، فيقول لها ان فى قرابتي نساء قد أرهقن كدح العيش ، ورجالا ينتظرون عونى ، ولا أستطيع أن أخيب أمل أولئك ولا هؤلاء ، فيقول :

(١) أغاني الأصلهاني ٨٥/٣ وانظر ديوانه .

(٢) حساسة أبى تمام ٣٠/٢ ، ٣١ وذو الحق يعنى شخصا لزمته ديانت ومغارم ومحمل

بمعنى حصل أى عون .

(٣) يستعظم أن يرى تكبة تلم بأحد ولا يستطيع عونه والحقوق يعنى الديانت لانه كانت

أبرز مشاكل الاحتياج للون والمساعدة حينذاك .

(٤) حساسة أبى تمام ٣٢٨/٢ والنفس أخوف يعنى الموت الذى أقرب من القتل .

(٥) يعنى قد أموت فى بيتى إذا لم أمرض للأعداء فى غاراتى .

(٦) المفاقر الحاجات والأعجب الهزيل .

(٧) الخلة الحاجة والحق يعنى القرابة وتجرف تذهب بالمال .

فخرني ونفسي ام حسان انني
ابي الخفض من يقشاك من ذي قرابة
ومستهنى ، زيد ابوه فلا ارى
بها قبل ان لا املك البيع مشتري (١)
ومن كل سوداء المعاصم تعترى (٢)
له مدفعا ، فافنى حياء واصبرى (٣)

ويقول عروة لامراته أيضا :

سل الطارق المعتر يا ام مالك
ايسفر وجهي انه اول القرى
اذا ما اتانى بين قدوى ومجزوى
وابدل معروفى له دون منكرى ؟ (٤)

والشغرى يرسم لنا صورة من صور الاشتراكية فى حياة الصعاليك ،
حيث جعلوا زادهم وكل ما يكسبونه من قوت الى واحد منهم ، هو تأبط شرا
وكان يعملهم كما تعمل الأم أولادها ، ويتحكم فى الاتفاق عليهم كما يشاء
بما تقتضيه ظروف الرحلة ، فلا ينكرون ولا يناقشون ، مع أنهم شركاء له
فيقول :

وام عيال قد شهدت تقوتهم
تغاف علينا العيسل ان هي اكثرت
وما ان بها ضن بما فى وعائها
اذا اطعمتهم او تحت واقلت (٥)
ونحن جياع اى آل تالت (٦)
ولكنها من خيفة الجوع ابقت (٧)

ويقول أبو خراش فى رثاء أخيه ورفيقه زهير بن مرة ، متحدثا عن اعتماد
جاره عليه حين تصيبه الفاقة :

قتلتهم فتى لا يفجر الله عامدا ولا يجتويه جاره عمام يمحط (٨)

وأما تأبط شرا فانه لا يبقى على مال ، ويجد لوما عنيفا من اللاتين
واللائمات ، ولكن هذا اللوم لا يثنيه عن خلقه فى البذل والعون ، ويبلغ به
نمسه بخلقه الاشتراكي ، أن يهددهم بهجرهم الى الأبد ، بحيث لا يعلمون
عنه بعد ذلك خبرا ، ولا يجدون له أثرا فيقول :

-
- (١) الاصمعيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ وقبل أن لا املك البيع معنى قبل الموت ، ومشتري معنى
طالبا مجدا ونظرا .
(٢) الخفض اللين والشطر الثانى كناية عن كثرة العمل باليدين .
(٣) مستهنى طالب عطاء وزيد ابوه معنى يجمعنى وإياه زيد فى القرابة .
(٤) حسنة أبي تمام ٢٥٨/٢ والمعتر معنى الفقير الذى لا يسأل والمجزر موشع الذبيح
ويسفر يتهلل .
(٥) الفضليات ١٠٨ وام عيال معنى تأبط شرا واو تحت اعطت قليلا وكذلك اقلت خوف.
لفاد الزاد .
(٦) العيسل الفقر والحاجة واى آل تالت ؟ تعجب معنى اى سياسة سامت فجيها من حسن
سياستها .
(٧) ابقت ادخرت معنى أن تقتير تأبط شرا عنيهم ليس بخلا ولكن خوف لفاد الزاد خلال السفر
(٨) مجيب ما استعجم للبكرى ٥٣٠/٢ .

بل من لعدالة خذالة اشب حرق باللوم جلدي اى تحراق (١)
يقول اهلك ما لا لو قنعت به من ثوب صلق ومن بز واعلاق
عادلتى ان بعض اللوم معنفة وهل متاع وان ابقيتيه باق ؟
انى زعيم لئن لم تتركوا على ان يسأل الحى عنى اهل آفاق
ان يسأل القوم عنى اهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاقى
سدد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقى الذى كل امرئ لاقى

وهكذا نجد تأبط شرا بعد انفاقه ماله ، لا يحس شعورا بالفخر ، ولا رغبة
فى المباهاة ، وانما يجد حربا مع لائميهِ وعذاله من أهله ، ولكن هذه الحرب
لا تزعزع ايمانه بمسلكه ، بل تزيده اصرارا عليه .

وسعد بن ناشب يرد على عاذلته أيضا ، بأنه قد يفتقر ، وقد يغنى ، ولكنه
حين يفتقر يمسك نفسه عن التعرض لعون الناس واحسانهم ، فلا يظهر على
حاجته أحدا ، أما حين يغنى ، فغناه شركة بينه وبين الناس ، فيقول :

ان تعذلىنى تعذلى بى مرءا كيم نشا الاعسار مشترك اليسر (١)
ويعبر عروة بن الورد عن كراهته للبخل ، وانه لا يقبل قط أن يتصف
به ، بل ولا يلم به مهما تكن حاله حتى انه ليعتبر هو والبخل ضدان
فيقول :

وقد علمت سليمى ان راى ورأى البخل مختلف شتيت
وانى لا يرينى البخل رايا سواء ان عطشت وان رويت (٣)

ومالك بن حريم ، يعدد صفات أربعة له ، أحداها انه لا يحجب قدره
وطعامه حين يشتد احتياج الناس فى الشتاء الى الطعام ، ولا يرى من الخلق
أن يشعوا هم والناس جياع ، فيقول :

ورابعة الا أحجل قدرنا على حمها حين الشتاء لنشبع (٤)

واذن فهذه النزعة لم تكن فردية أو شاذة فى محيط الصعاليك ، وانما
كانت عامة فيهم ، وقد عبر المثل العربى القديم « كل صعلوك جواد » عن هذا
العموم ، ولم تكن أيضا فى حوادث فردية عرضت فى حياة الصعاليك ،
وانما كانت نزعة أصيلة عميقة فى نفوسهم وأخلاقهم وأوضح دليل على
تأصلها تكلفهم المخاطر والمشقات من أجلها ، كما رأينا فى حوادث عروة بن

(١) المفضليات ٣٠ والتاء فى عذالة وخذالة للمبالغة فى عذال وخذال والأشعب المختصر

وثابت اسمه

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧١/١ والمرزا كثير الرزايا تصببه والنفا العير واليسر الفنى .

(٣) ديوان عروة بن الورد ٨٦ .

(٤) الاصمعيات ٥٩ .

الورد ، وفي جواب مالك بن الريب لسعيد الوالى ، وحيث كانت عامة فيهم ، وأصيلة في نفوسهم ، فهي اذن صفة من صفاتهم ، وخلق من اخلاقهم ، وكما رأينا في مصلحتهم ازاء هذه النزعة ، لا نرى انه يكفى التعبير عنها بالجلود أو الكرم أو السخاء ، وإنما من حق ما تميزوا به في هذا الخلق أن يعبر عنه للفظ يبرر هذا التميز كالاشتراكية .

الطبيعة

احتلت الطبيعة مكانا بارزا في شعر الصعاليك ، والواقع أن الحديث عن الطبيعة ومناظرها أمر متوقع من طائفة كالصعاليك ، يعيشون مع الطبيعة وجهها لوجه بحيث تحجبهم عنها حجاب من الحياة الصناعية بمبانيها وزروعها ومظاهرها المختلفة ، كما يعيش معظم الناس في بيئات من صنعهم هم ، أما الصعاليك فبيئتهم الحقيقية التى تناسب صعلكتهم . البيئة الطبيعية يجبالها وصحراواتها وسحبها وأمطارها ، ورمالها ، وكهوفها ، وما يلازم حياة هذه الوحوش والحيوانات من صور حياتها ومعيشتها ، وتألف بعضها ، وتنافر البعض الآخر .

هذه البيئة الطبيعية التى عاش فيها الصعاليك ليزاولوا تصعلكتهم وقد تشبعت نفوسهم بها ، وانفعلت مشاعرهم بأدق تفاصيلها ، ولذلك نجد حديثهم عنها يختلف عن حديث غيرهم من الشعراء ، فهم لا يتحدثون عن هذه البيئة ومشاهداتها حديث التخيل ، أو حديث المشاهد العابر ، كما يتحدث الشعراء ، وإنما يتحدثون حديث المفعول المتأثر ، وحديث الخبر المجرب عن تفاصيل لا يتسنى للمشاهد العابر أن يحيط بها .

وبيان ذلك أن أى شاعر من غير الصعاليك لا تصور منه ازاء هذه الطبيعة إلا إحدى حالتين ، أما أن يكون متخيلا ، مجرد خيال في حديثه عن هذه البيئة ومشاهداتها ، وأما أن يكون صادقا ، ولكن صدقه يتمثل في مشاهدة أو رؤية عابرة ، كأن يكون في سفر مثلا فيرى بعض الصور الطبيعية فى أرضها أو سمائها أو يرى بعض وحوشها وحيواناتها ، فيصف ما رآه من هذه المناظر ، وصف للمشاهد لمناظر متحركة عابرة أمام عينيه ، أما الصعلوك ، فمناظر هذه البيئة غير متحركة ولا عابرة بالنسبة له ، وإنما هي ثابتة ملازمة للبيئة ، وملازمة له هو بحكم معيشته فى هذه البيئة ، وقضائه معظم وقته وحياته فيها ، ولذلك حينما يصفها ، يصف تفاصيل دقيقة لا يتاح للتخيل ولا للمشاهد العابر أن يتأملها ، ومثال ذلك وصف الشنفرى لحياة وحوش الصحراء وحيواناتها ومعيشتها ، فقد وصف مثلا فى اللمية ثلاث صور ، عن حياة الذئب ، وعن حياة النحل ، وعن حياة القطا ، ولو كان شاعرا من غير الصعاليك لما أتيح له إلا

منظر هذه الحيوانات ، فيصفها كما رآها بما تتيح له شاعريته في تصويرها ولكن الشنفرى لا يتحدث عن منظرها أو لونها ، أو شكلها ، أو ناحية من نواحي الرؤية العابرة ، وإنما يرسم صورة كاملة لجانب من حياة هذه الحيوانات ، ويتتبع جوانب هذه الصورة بتفاصيلها التي لا يتاح الاطلاع عليها الا للشخص مقيم في هذه البيئة ، خبير بطبائع مخلوقاتنا وأساليب هذه المخلوقات في حياتها ومعيشتها ، وكل ما يتعلق بها .

وأمر آخر يمتاز به شعر الصعاليك عن غيرهم فيما يتعلق بالبيئة ، وهو أنهم لا يتحدثون عن مشاهد البيئة ومخلوقاتنا لذاتها ، كما يشيع في وصف الشعراء لهذه النواحي ، مما يشعر دائما بأنه وصف مقصود لذاته ، فقد يصف الشاعر مثلا السحاب والمطر وأثرهما ، فيجعلها موضوعا وغرضا مقصودا لذاته ، وقد يستوعب ذلك قصيدة كاملة ، أو ما يمكن أن يكون قصيدة مستقلة ثم لا نشعر بأثر للشاعر نفسه في هذا الوصف ، لأنه كالمشاهد المتفرج ، الذي يصف ما يعرض أمامه ، أو ما يمر في خياله ، دون أن يكون له هو دخل في الموضوع الا مجرد الموصف ، ونقل الصورة الى غيره ، أما منهج الصعاليك فغير ذلك ، أنهم دائما جزء أساسي من الصورة نفسها ، بحيث تقرأ وصف الصعلوك لهذه المشاهد ، فتراه هو جزءا من الموضوع ، وفي مكان بارز من الصورة . لأنه لم يكن في موضع المشاهد المتفرج كغيره من الشعراء ، وإنما كان هو نفسه جزءا من البيئة ، ومنظرا من مناظرها الثابتة اللازمة ، أو كالثابتة اللازمة . فهو يصف المنظر على أساس أنه هو جزء منه ، وعلى أساس مراعاة مدى ارتباط الأجزاء الأخرى به هو ، فالشنفرى مثلا حينما يتحدث عن الذئاب في اللامية لا يصفها لذاتها ، وإنما لأنه هو وهي شريكان وشبيهان في حياتهما في الصحراء وفي بحثهما عن الطعام ، وفي نواحي أخرى ، وحينما يتحدث عن سرب القطا . لا يتحدث عنه لذاته ، وإنما يتحدث عنه لأنه يستدل به على وجود الماء الذي هو في حاجة اليه ولأنه شريك وشبيه به في السعي الى الماء ، بل ومنافس له في الحصول على بقع الماء اليسير الذي تخلفه السيول والأمطار في الصحراء .

وحينما يتحدث الأعلام الهدلي عن الضباع مثلا ، فيصف ضخامة أجسامها وضخامة آذانها التي تشبه معارف الطعام ، وسواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، لا يتحدث عنها كمنظر طريف أو غريب رآه ، وإنما يتحدث عنها على أساس أنها إحدى جيرانه وشركائه في البيئة ، ولكنها جار رهيب ، ولذلك يركز حديثه عنها على أنه يتوقع أن تسطو على جثمانه يوما فتنزعه جلده عنه . كما ينزع الحداد الغشاء عن غمد السيف . ليلبسه غشاء آخر ، فهو لا يعنيه حديث الضباع لذاتها . وإنما يعنيه احتكاكه بها ، وتأثره بحياتها في جواره (١) .

(١) انظر ديوان الهدلين ٢٩/٢ - ٨١ وأول الابيات : فاكون صيدهم بها . الخ .

وعمر بن براقة مثلاً حينما يصف فترة معينة من ليل الصحراء ، بأن الظلام قد خيم على كل شيء فلم يبد فيه الا تألق النجوم ، وبأن السكون قد عم كل شيء فلم يقطعه الا صياح بومات من الجبال القريبة ، وبأن النوم قد أغرق كل ساكني هذه البقعة ، هذا المنظر لا يصفه عمرو بن براقة لذاته ، ولا لأنه فترة شاعرية ، ولا لشيء الا أنه الوقت المفضل لديه للانقضاض على أعدائه وضحاياه (١) .

والشنفرى حين يصف فى اللامية ليلة نحس شديدة البرد ، ذات مطر ووحل ، لا يصفها لذاتها ، ولا وصف المشاهد المتفرج . وانما يصفها لأنها أثرت فيه حتى أرعشت جسده ، وحتى اضطرت شدة بردها الى تحطيم قوسه ليوقدها ويستدفئ بها . وحتى اضطره جوعه مع بردها ومطرها ووحلها الى مواصلة المشى والسرى طلباً للطعام والانتقام من أعدائه . وكذلك حين وصف الحر الشديد فى الصحراء ، هذا الحر الذى ملأ الفضاء خيوطاً تشبه خيوط العنكبوت ، والذى بلغ من قسوته أن الأفاعي ضاقت بها حجورها ، وهذه الصورة لم يتحدث عنها الشنفرى لذاتها ، وانما لأنه عانى من هذا الحر ما عانته الأناعي التى واجهت حرارة الجو ، وفار الرمال بجلودها ، فواجه هو أيضاً كل هذا وليس على جسده الا ثوب ممزق لا يحميه من لدغ هذا الحر ، ونعل ممزق أيضاً لا تحمى قدميه من الرمضاء (٢) .

وكذلك حين يصف ابو خراش ليلة دجن شبيهة بليلة النحس فى لامية الشنفرى ، لا يصفها لذاتها ، وانما لأنه جزء من صورتها ، وقد عانى عواملها وتأثيرها ، حيث اضطرت الى السرى فيها (٣) .

وصخر الفى حين يصف الوعل وسيره فى الرمال ، وتباهيه بقرون كاشراف الرواجب ، ثم ايثاره مبيت العزلة والانفراد ، ثم روعه ورهبته من صوت الغراب ، وحياته فى بيئته ، معنياً من ذلك كله بما يتعلق به هو ، وبترصده لصيد هذا الوعل (٤) .

وتأبط شراً يصف طريقاً ملتوياً فى الجبل ، يشبه فى تلويهِ خياطة الثوب ويصف ما يحيط بجانبيه من بقع الماء الصغيرة ، والفدران الكبيرة ، حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها ، ودرجة انخفاض الحفر ، بما تحمل من مياه خلفتها سيول جارفة ، لخريزها من المرتفعات ، واصطدام مياهها بالصخور فى قرقرة ذات صوت رتيب ، ولكن تأبط شراً لا يعنيه هذا المنظر الطبيعى لذاته ، وانما يعنيه وضعه وتأثره هو بهذا المنظر ، من حيث قدرته على اجتياز وعورة هذا الشعب .

(١) انظر أمال القال ١١٩/٢ اذا الليل أدبى ٥٥ وما بعده .

(٢) انظر اللامية (سبق نصها مقروفاً) وكذلك الصور السابقة عن اللاتاب والمحل والظا

(٣) انظر ديوان الهذليين ٣٠/٢ ١٠

(٤) المصدر السابق ٥١/٢ - ٥٢ .

ومعرفته لثنائياه والتواءاته معرفة دقيقة لا يحتاج معها الى دليل ، ولا الى خابر
يثبت له نعته (١) .

وعبد بن الطبيب يصف منظر طلوع الشمس ، في انفتاح قونها ، وما يزال
يخالط الفضاء رداء من سواد الليل ، تتردد أصوات الديكة تبشر بالصباح ،
ولكن عبدة أيضا لا يعنى بمنظر طلوع الشمس وما يحيط به لذاتها ، وإنما
لأنه وقت حركته ، وسعيه الى بغيته من التجار (٢) .

وليس معنى ربط صور الطبيعة بأشخاصهم ضعف التركيز في وصفها أو
إبراز جوانبها بل على العكس ، كان لأختكاكهم الدائم والمباشر بصور الطبيعة
ومناظرها وملازمتهم أياها قوة في الوصف والتصوير واستكمال دقائق الصورة
التي أشرنا إليها ، والتي سبق ذكر الشعر الخاص ببعضها وخاصة في حديث
الأمكن والوحوش ، تبلغ درجة من الروعة في التصوير بالغة ، حتى ليخيل
للدارس المتأمل لها ، أنه أمام لوحة فنية رائعة التجسيد ، ومن روائع هذه
اللوحات الفنية للطبيعة إحدى قصائد صخر الغي الهذلي (٣) عن البرق
والسحاب والمطر ، وما يحيط بهذه العوامل ، حيث يشبه تراكم قطع السحاب
الضخمة بالسفن الكبيرة المليئة بسلع بيعت جزافا بغير كيل لكثرتها ، ويشبه
السير البطيء لهذه الكتل الضخمة من السحاب بتهادى السفن بعضها في أثر
بعض ، وبمشى المقيد القدمين الذي يرسف في سلاسله ، وبأن هذه السحب حين
أشرفت على بعض المواضع ، كأنها أحسنت شجنا فسالت منها دموع فياضة في
صورة مطر ، وظل هذا المطر يهطل بغزارة ، فلو نظرت الى جبل ذى السطاع بعد
هذا المطر الذى غسل صخوره السمراء لحسبته جملا قد نتفه الجرب فلم يبق
في جلده شعره ، فطلاه صاحبه بالقطران ، ويشبه سير السحاب بتشبيها
أخرى ، ثم يصف أثر الأمطار الغزيرة ، بأن ما بين وادي القصور ويللم أصبح
كأنه حوض ماء ، ويتابع صخر تصوير هذا المنظر بما فيه من برق ورعد ، حتى
يبلغ منه ما يريد ، ولكننا نجد أنه هو ليس بمنأى عن هذا المشهد ولا معزل .
ولا يكتفى بأن يكون في موضع المشاهد المتفرج وحسب ، وإنما يبين ارتباطه
بهذه العوامل من الطبيعة ، وموضع من المشهد مبينا أن مثل هذا المشهد الرهيب
هو بيئة التي يدير منها الحرب والغارة على أعدائه ، بالإضافة الى آثار أخرى من هذا
المشهد في حياته ، منها أن هذه المياه كلها تصبح فاذا هي بقع وغدران تغدو من

(١) أنظر الإسمعيات ١٣٥ وأول الأبيات « وشعب كشل الثوب .. الخ » .

(٢) أنظر المضليات ١٤٣ وأولها « وقد غدوت وقرن القيس .. الخ » .

(٣) يعتبر شعر صماليك هذيل وخاصة المدائين منهم وهم أبو خراش وصخر الغي والأعلم
يعتبر شعرهم كله في جملته نموذجاً رائعاً لا جمل ما وصفت به الطبيعة من شعر ، ويكاد شعرهم
يستقصى كل مشاهد البيئة ومخلوقاتا في تصويره . أنظر ديوان الهذليين .

حولها الأوايد التي يترصدها صائدا لها ، أو يسعى الى هذه الغدران ليملأ قربه منها (١) .

وكذلك يصور أبو خراش حياة حمر الوحش ، في صورة رائعة في تفاصيل هذه الحياة وحركاتها ، واللوان الحمر ، راسما خلال ذلك صورة جميلة ، ليوم شديد الحر ، ومنظرا لغروب الشمس وشعاعها الذي يشبه قطيفة ذات خمائل ، ولكننا نجد أبا خراش نفسه صلب الصورة وأوضح جزء فيها ، لأنه يصور المشهد في سياق تربصه بحمر الوحش ليصيد واحدا منها ، واصفا ما حدث خلال ذلك من منظرها ، وفزعها حين أحسست به الى آخر صورته (٢) .

واذن فالظاهرة المميزة دائما لشعر الصعاليك في الطبيعة عن شعر غيرهم هي أن الصعاليك يجعلون أشخاصهم دائما جزءا أساسيا في المشهد ، بل كثيرا ما يكون شخص الصعلوك أهم جزء من المشهد ، بخلاف شعر غير الصعاليك ، حيث نجد الشاعر مجرد مشاهد أو ملاحظ من خارج المشهد ، ولعل هذه الميزة في شعر الصعاليك هي التي أشار اليها كارل بروكلمان في سياق حديثه عن لامية الشنفرى ، ونفيه نسبتها الى خلف الأحمر (٣) حيث يقول « أما أبو علي القالى فقد صرح في الأملى بأن اللامية من صنع خلف الأحمر ، ولكن القصائد التي وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسي يهيئ لتصوير الانسان نفسه وأعماله (٤) » ، ولكن هذا المذهب الشعري الذي أشار اليه كارل ليس مذهب الشنفرى وحده ، ولا اللامية وحدها ، وإنما هو مذهب الصعاليك الجاهليين جميعا كما مثلنا لمعظمهم في مشاهد مختلفة عن طلوع الشمس وعن غروبها ، وعن الليل ، وعن الحر ، وعن البرد ، وعن الجبال وطرقها وعن الأرض ، وطبيعتها ، وعن السحاب والأمطار ، وعن الوحوش والحيوانات وحياتها ، وغير ذلك .

والواقع أن هذا المذهب ليس للجاهليين من الصعاليك وحدهم ، ولا هو في شعر الطبيعة وحده ، وإنما هو مذهب الصعاليك جميعا ، وفي شعرهم جميعه أيضا ، وإن كان الجاهليون في بعض موضوعاته كشعر الطبيعة أوضح

(١) أنظر ديوان الهذليين ٦٨/٢ - ٧٧ وأولها « لشماء بعد شتات النوى .. الخ » .

(٢) المصدر السابق ١١٧/٢ - ١٢٣ وأولها « أرى الدهر لا يبقى .. الخ » .

(٣) ناقشنا هذا الموضوع في موضع خاص بالامية خلال الحديث عن الاختلاف في شعر صعاليك .

(٤) أنظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ترجمة أنجار ١٠٥/١ .

فى هذا المذهب من صعاليك الاسلام ، بسبب عاملين ، غلبا على صعاليك الجاهلية ، هما سرعة العدو ، وشدة الفقر الى درجة الجوع المضنى كما اشرنا الى ذلك سابقا ، هذان العاملان جعلتا صعاليك الجاهلية ألزم للصحراء ، وأكثر اقامة وتوغلا فيها ، فاتيح لهم الاحتكاك المباشر الطويل بكل مشاهد البيئة ومخلوقاتهما ، بل أصبحوا كما قلنا كأنهم جزء ثابت من البيئة ، وكانهم نوع ملازم من أنواع مخلوقات هذه البيئة ، مما جعلهم يتفوقون على صعاليك الاسلام فى بعض موضوعات شعرهم وفى مقدمتها شعر الطبيعة .

ولكن هذا التفوق لا يقصر هذا المذهب عليهم ، وإنما هو مجرد تفضيل أو زيادة بنسبة ما يعنيه لفظ التفوق ، وفى بعض الموضوعات فقط كما اشرنا فيما سبق ، وأهمها ما يتعلق بالأماكن والبيئة بصفة عامة .

ومع ذلك فـ شعر الصعاليك كله جاهليه واسلاميه ، يتسم بهذا المذهب ، ويعتبر هذا النهج من المميزات الأساسية التى تميزه عن غيره من الشعراء ، بحيث نجد شعرهم دائما مرتبطا بأشخاصهم ، لا يتحدثون عن موضوع ؛ ولا يعرضون لمعنى الا وأشخاصهم جزء أساسى من الموضوع ، ان لم تكن محورا له ، وهذا ما سميناه فيما سبق من الموضوعات بالصراع ، حيث رأينا كيف أنهم تناولوا كل ما تناولوه من الموضوعات السابقة - باستثناء بعض الشعر الاجتماعى - لا من زاوية المشاهدة والملاحظة كما يغلب على شعر غيرهم ، بل من زاوية الاحتكاك والصراع ، وحتى الشعر الاجتماعى ، تناولوا معظمه من هذه الزاوية أيضا ، والاحتكاك والصراع جوهر هذا المذهب كما هو واضح . ونعود الى حديث شعرهم عن الطبيعة ممثلة فى البيئة ومشاهدها ومخلوقاتهما ، فنقول : أنهم لم يكادوا يتركون شيئا من ذلك كله الا وتحدثوا عنه ، فبالإضافة الى الصور السابقة يحدثنا مثلا شعر الشنفرى عن الرياحين (١) وعبد بن الطيب عن المطر ، وعن الأوابد (٢) ومالك بن حريم عن البقر الوحشى وعن القطا ، وعن أماكن الماء فى الجبال (٣) ومالك بن الربيع عن القطا وعن الرياح ، وعن الذئب وعن الأطباء ، وعن النجوم ، وعن البيئة وبقرها الوحشى (٤) وصخر الغى عن الطيور الجوارح وقلوب الطير من ضحاياها حول أوكارها ، وعن الأوابد ، وعن النعام وحياتها وخصائصهما ، وعن حمر الوحش وصراعه معها فى صيدها ، وعن الحمامة وحواره معها (٥) ، والأعلم للهدلى عن السحاب وحمر الوحش ، وعن النعامة ، وعن الضباع والذئاب والثعالب ، مكررا حديثه عن الضباع .

(١) أنظر المفضليات ١١٠ .

(٢) أنظر المفضليات ١٤٢ .

(٣) أنظر الاصمعيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) أنظر مرثيته وأنظر مذهب الأغاني ١٠/٥ - ١٩ .

(٥) أنظر ديوان الهذليين ٥٢/٢ - ٧٦ .

وعن حمر الوحش بصفة خاصة (١) ، وأبو خراش الهذلي عن حمر الوحش وصيدها ، وعن الضفر وحياته ، وعن غروب الشمس ، وعن الجراد ، وعن العقاب ، وعن النعامة ، وعن الحمام (٢) وتوبة بن الحمير عن الحمامة وتشبيهه حاله بها (٣) وتابط شرا عن الليل وتداخل الضبح فيه وتمزيق جلباب الليل (٤) وعمرو بن براق عن الليل وسكونه (٥) وجحدر بن معاوية عن البرق وعن حمامتين يشبه نواحيهما نواحه (٦) وهكذا عن كل ما تحوى البيئة من مشاهد ومخلوقات ، وليس شعرهم بالطبع فى هذا درجة واحدة من الجودة أو دقة التصوير ، ولا أيضا من الاهتمام بتصوير ما يتعرض له من هذه المشاهد والمخلوقات .

وتبدو روعة شعر الصماليك عن البيئة ومشاهدها حينما يصور المنظر كاملا ، وحينما لا يكون حديثه عارضا ، كما يقضى السياق بذلك أحيانا ، فحين يصور المنظر كاملا يتجلى طابع الصماليك الذى أشرنا إليه آنفا ، والذي يتمثل فى أمرين ، أحدهما دقة الملاحظة الى حد بعيد ، بحيث يصف أحدهم مشاهد لا يمن لأحد أن تكون موضع ملاحظة أو حديث ، كما يصف الشنفرى جماعة من النحل ، عادت الى خلاياها فوجدت أن أحد جامعى العسل قد عدا على الخلايا فحطمها ليجمع عسلها « فاعترى النحل دهش شديد جعلها تفتح أفواهها كأن هذه الأفواه شقوق العصي ، وبدأ على النحل الوجوم والكآبة الشديدين ، ثم ضبين حزنين ووجومهن فى ماتم صاحب أقمته على خلاياهن المهدمة ، يقودهن فى هذا الماتم الحشرم (٧) فأصبح الحشرم وجماعته من النحل فى ماتمن كأنهن نساء نوح تكل ، وظللن فى ضجيجهن وماتمن ، ثم بدأن يحسسن بأن هذا الماتم لن يجدى عليهن شيئا وأنه لا مفر لهن من التعزى ومعاودة الحياة والبناء من جديد ، فيقول :

| | |
|--|---|
| <p>مجا يبيض رداهن سام معسل شقوق العصي كالحات وبسل واياه نوح فوق علياء تكل أوامل عزاه وعزته مرمسل وللصبر ان لم ينفع الشكو أجمل على نكظ مما يكاتم مجمل (٨)</p> | <p>أو الحشرم المبعوث حثث دبره مهرة فهو كان شقوقها فضج وضجت بالبراج كأنها واغضى واغضت واتسى واتست به شكا وشكت ثم ارعوى بعد وادعوت وفاء وفات بادرات وكلها</p> |
|--|---|

(١) أنظر ديوان الهذليين ٧٨/٢ - ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ١١٧/٢ - ١٤٥ .

(٣) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ .

(٤) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخالجي .

(٥) أما القائل ١١٩/٢ .

(٦) أنظر أمال القائل ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ .

(٧) الحشرم ملك النحل ورئيس جماعته وهو المعروف الآن بملكة النحل .

(٨) من اللامية : سبق نصها مشروحة . ونوح وتكل جمع لائمة وتكل

فدقة الملاحظة التي تبلغ درجة مراقبة حركات النحل ، ووصف أفواهاها وما يعتريها من آثار وانفعالات ، ثم متابعة موقف كامل من ظروف النحل وحياته حتى يبلغ الشاعر بمراقبته وملاحظته نهايته ، هذه الدقة لا تتاح للمشاهد العابر ، وإنما تتاح لشخص ملازم للبيئة ، خبير بها وبحياة مخلوقاتها فيها كالصعاليك .

ومن ذلك هذه الدقة البالغة في الملاحظة التي يرسمها أبو خراش لصورة من صور حياة حمر الوحش ، تتمثل هذه الصورة في قطع من حمر الوحش اشتد به العطش في يوم شديد الحر ، فيصفه أبو خراش في أبيات طويلة (١) متتبعاً حركاته منذ خروجه باحثاً عن الماء ثم وقوفه على مرتفع متطلعا باحثاً عن الماء ، ثم سعى القطيع الى الماء ، فيصف أبو خراش غريزة الحذر في القطيع ، وكيف أنه يسعى مرهناً أذانه لما يبدو حوله من حركات حذر أن يكون في طريقه صائد ، ويصف طريقة مشيه ، وصلابة أرجله ، وشدة وقمها على الأرض الغليظة . ثم يصف كيف يفتح الحمار رجليه الأماميتين ، لينتاز فيما يشبه القفز نباتاً كثيفاً في أرض موحلة بها بقية ماء أجن فيقول من وصفه :

فلما دنت بعد استماع دهله بنقب الحجاب وقمهن رجيل (٢)
يفججن بالأيدي على ظهر أجسن له عرمن مستاسد ونجبل (٣)

وهذه الدقة في ملاحظة طبيعة حمر الوحش وحذرها ، وتسمعها الشديد لما يحسنه حولهن من حركات ، ثم طريقة مشيهن في اجتياز هذا النبات الصلب في الأرض الموحلة المبللة ، هذه الحركات لا يتاح وصفها للمشاهد العابر ، وإنما للملازم للبيئة الخبير بها وبطبيعة مخلوقاتها وحياة هذه المخلوقات، ولا تتاح هذه الملازمة الا لمثل الصعلوك .

ودقة الملاحظة ، هذه التي أتاحها لهم ملازمة البيئة ، والخبرة المباشرة بخصائصها ، وخصائص مخلوقاتها ، هي إحدى جانبي الطابع المميز لشعر الصعاليك نحو البيئة ، والجانب الثاني هو ما قلنا من أن شعر الصعاليك يتميز دائماً ببروز شخصياتهم في صوره ومشاهده ، وهو ما سميناه بالصراع ، لأنهم كما بينا في أكثر من موضع ، لا يبدو أنهم يقولون الشعر لذاته كما يبدو في شعر الشعراء ، وإنما يقولونه كالتعبير عن صراعهم في كل وجه من وجوه حياتهم من حيث احساسهم بهذا الصراع ، وتأثرهم به ، وهو فارق أساسي

(١) نحو اثني عشر بيتاً ، انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١٢١ وأولها « أرى الدهر لا يبقى .. » وفيها ترصده هو وزميل له للصيد من هذا القطيع .

(٢) بعد استماع دهله يعني بعد استماع أدهلن فيه أذالهن والنقب الطريق والحجاب المرتفع ووقمن أي وقع أرجلهن ورجيل قوى شديد .

(٣) يفججن يفتحن أيديهن والأجن الماء الراكد والعرمن نبات صلب ومستاسد قوى والنجبل نوع من الحشائش يعني يفتحن ما بين أيديهن لاجتياز هذا النبات الصلب في الأرض الموحلة .

بين شعرهم عامة وشعر غيرهم ، وان كانت بعض الموضوعات أكثر ابرازا لهذا الفارق كشعر الطبيعة .

ولذلك نجد كما قلنا أشخاصهم دائما في الصورة ، فحين يقول الشنفرى مثلا واصفا ليلة شديدة البرودة :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللائى بها يتنبل

نجده هو بارز الموضع في الصورة فيقول عقب ذلك :

دعست على غطش ويفش وصحبتى سعار وارزى ووجر وافكل (١)

وحين يقول واصفا الحر الشديد :

ويوم من الشعرى يلوب لوابه افاعيه في رمضائه تتمل

نجده هو بارز الموضع في الصورة أيضا فيقول عقبه :

نصبت له وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الاتحمى المرعب (٢)

وحين يقول أبو خراش واصفا أيضا ليلة باردة مظلمة ممطرة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلكت وهى ساجية تهى (٣)

يبرز موضعه من الصورة بقوله « سريتها »

وحين يصف أبو خراش حمر الوحش السابقة ، يبرز موضعه من صورتها أيضا بأنه كان مترصدا لها بغية الصيد منها بقوله عن موضعه من هذه الحمر :

منيبا وقد امسى تقلم وردها اقيدر محمود القطاع نذيل (٤)

وحين يصف تأبط شرا واديا واسما ضخما يشبه في نواحي منه جوف العير ، ويتردد فيه عواء الذئاب ، يبين موضعه من الصورة أيضا فيقول :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فقوله « قطعته » هو موضعه البارز من الصورة .

وهكذا حين نتتبع شعر الصعاليك عامة ، وكثيرا من أغراضه خاصة كشعر الطبيعة ، نجد أنه لا بد أن يكون للصعلوك فيه أثر يدل على شخصه ، وموضعه من الصورة فقول الشنفرى « دعست » وقوله « نصبت له وجهى »

(١) البيتان من اللامية : سبق نصها مشروحا .

(٢) البيتان من اللامية أيضا .

(٣) أنظر ديوان الهذليين ١٣٠/٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١٣٠/٢ ومنيبا راجعا والورد مكان ورود الماء والاقيدر قصير المنق والمحموز شديد الفؤاد والقطاع السهام يريد حاد السهام والنذيل الرث الهيئة المتكشف .

وقول أبي خراش « سريتها » وقوله « تقلم وردها أقيدر » وقول تابط شرا « قطعت » في الأبيات السابقة أمثلة للأثر الذي يدل دائما على اشخاص الصعاليك في شعرهم ، ويجعلهم دائما جزءا مما يعرضون للحديث عنه ، وليسوا مجرد مشاهدين أو متفرجين من خارج الصورة ، كما يظلب على شعر غيرهم .

الخصائص العامة

ونعني بعموم الخصائص ، تلك السمات التي يتفق فيها شعر الصعاليك ، سواء كان من شعر الجاهليين منهم ، أو المخضمين ، أو الاسلاميين ، لأننا سنتحدث بعد ذلك عن بعض سمات ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين ، وأخرى ينفرد بها شعر الاسلاميين منهم ، وحينذاك نؤثر عدم افراد شعر المخضمين بقسم خاص في خصائصه لسببين ، أحدهما أننا نحس أن شعر المخضمين الذي قالوه في الاسلام كان يحمل روحهم الخاصة بهم ، أعنى روح الصعاليك ، نتيجة لانطباع نفوسهم بحباتها ومشاعرها الخاصة ، وأوضح دليل على ذلك أنه حتى الشعر الذي قالوه في التوبة عن الصعلكة لم يخل من هذه الروح (١) ، فكان الأنسب الحاق هذا الشعر ، بالشعر الجاهلي لهم ، الا ما كان اثرا مباشرا من آثار الاسلام كصراع الولاة والسجن ، فقد الحقناه بالشعر الاسلامي لهم ، والسبب الثاني عدم وضوح الروايات ، بكونها لم تحدد الشعر الذي قالوه في الاسلام ، من الذي قالوه في الجاهلية ، ولذلك كان جل الاعتماد في هذه النقطة على موضوع الشعر نفسه وملابساته .

ونعني بالخصائص السمات العامة التي يتسم بها شعر الصعاليك في جملته ، والتي يتميز بها عن غيره من الشعر ، ومن الواضح في هذا أن المقارنة ليست بين شاعرين ، أو قصيدتين ، حتى نتوقع شمول المقارنة واستقصاها لكل المواضع والنواحي ، ولكننا نقارن بين شعر طائفة مهما اتفقت في البيئة والنزعة والظروف ، فلا تخلو من بعض ما يقتضيه اختلاف العصور والظروف المحيطة بكل شاعر ، ولكن هذا الاختلاف ، أو مخالفة الحكم العام الذي نطلقه على شعرهم ، لا يؤثر على الحكم ، ما دام في نطاق الندرة أو القلة أو الشذوذ ، بمعنى أننا حين نطلق حكما على شعر الصعاليك ، ثم نجد مقطوعة أو قصيدة أو شعر شاعر منهم يخالف هذا الحكم ، فلن نعد هذا غريبا أو نقضا للحكم ، فمن المعروف أن لكل قاعدة شذوذا الذي لا يؤثر في سلامتها .

فلنتحدث عن أهم ما نراه مميزا لشعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم

(١) انظر فيما سبق فصل مراع السلطة التشريعية .

١ - تمييز روح الشعر

ان أيسر ما يجده الباحث في شعر الصعاليك ، وأبرزه أيضا ، أن شعرهم عامة متميز عن غيره من الشعر تميزا واضحا ، لا يحتاج الى عناء كبير في تمييزه ، ولا الى عمق نقد في الاحساس به .

وهذا التمييز الذي يتسم به شعر الصعاليك لا ينحصر في موضوعات ، ولا في أغراض ، ولا يتمثل في أساليب ومعان ، ولا في منهج واتجاه ، فحسب ، تتمثل أحيانا في ناحية من تلك النواحي ، تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا تتمثل أحيانا في ناحية من تلك النواحي ، تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا لا يطررها غيره ، أولا تشيع في غيره ، وتتمثل أحيانا في منهج واتجاه لا يظهر في غيره من الشعر ، وتتمثل أحيانا في نواح أخرى يتميز بها ، ولكن ذلك كله يكون تميزه . في أغلب الأحيان نابعاً من تمييز الروح التي تسرى فيه ، ولكننا لا نستطيع ان نحدد هذه الروح لأننا لا نستطيع أن نحس بها ، وان كنا ندركها ونشعر بها .

وعلاقة الشعر بالروح ليست غريبة ، بل يمكن اعتبار الشعر أوثق الانتاج البشرى صلة بالروح ، أو بهذا الشيء الخفى الذي اتفقت العصور على ربط الشعر به ، فقد أحس الناس بصلة خفية بين الشعر ، وبين شيء خفى في الشاعر أو في النفس ، وكان هذا الاحساس منذ القديم ، بل منذ قالوا الشعر وعرفوه ، ثم اختلفوا في تصويره ، وفي التعبير عنه ، فسموه أحيانا الهاما ، ثم اختلفوا أيضا في مصدر هذا الالهام ، فعزاه بعضهم الى الآلهة ، كما فعل نقاد اليونان الأقدمين ، وعلى رأسهم افلاطون وتلاميذه (١) ، وجعل بعضهم مصدره العبقريّة والموهبة ، كبعض كتاب الرومانتيكية ومن تابعهم من كتاب عصر النهضة (٢) وجعل البعض الآخر مصدره الروح ومجاهل خفية مستسرة في النفوس البشرية (٣) ، وسمى بعضهم هذا الشيء الخفى ، أو الصلة بين الشعر وهذا الشيء الخفى بالشیطان ، كما فعل شعراء العرب الأقدمين ، حيث صور كل منهم لنفسه شيطانا يوحى اليه الشعر كما يقول حسان بن ثابت :

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقول وطورا هوه (٤)

(١) أنظر النقد الأدبي الحديث الدكتور محمد غنيمي حلال ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

(٢) المصدر السابق ٣٧٥ .

(٣) أنظر المصدر السابق وأيضا كتاب في الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ١٠٥ - ١١٦ .

(٤) الحيوان للجاحظ ٢٣١/٦ .

ومهما اختلف تصويرهم أو تعبيرهم عن هذا الشيء الخفى ، أو عن الصلة بين الشعر وهذا الشيء ، فإن هناك اتفاقاً بين كل المصور والام على أن هناك رابطة ما بين الشعر والنفس أو الروح أو هذا الشيء الخفى ، وعلى أن هذه الرابطة ليست كرابطة الانتاج العفوي البحت ، وقد يختلفون أيضاً في تصوير هذه الرابطة والتعبير عنها ، ولكنهم لا يختلفون على مبدئها وجوهرها وقد عبر نقاد العرب القدماء عن جانب من ذلك بقولهم « وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره » (١) .

واذن فالشعر يرتبط ارتباطاً مباشراً بروح الشاعر ومشاعره ، وبالتالي تنعكس هذه الروح ، وتلك المشاعر في شعره ، ومما سبق كله علمنا أنه كانت للصعاليك روح خاصة في مقوماتها الذاتية ، ومشاعر خاصة نحو أنفسهم ونحو الناس ، ونحو الحياة نفسها ، كما كانت لهم حياتهم ومعيشتهم وأساليبهم الخاصة التي أثرت في نفوسهم ومشاعرهم ، ومن البدنى في الاستنتاج أنه ما دام الشعر مرتبطاً بالروح والمشاعر ارتباطاً الانعكاس والتأثير ، وما دامت للصعاليك روحهم ومشاعرهم الخاصة ، فينبغى أن يكون شعرهم ذا طابع خاص نتيجة لذلك .

وكما قلنا لا نعى من هذا الحديث الآن أن نفرق بين شعر الصعاليك وغيره من حيث الموضوعات والأغراض ، أو من حيث النواحي المحسوسة في الشعر ، وإنما نعى الروح التي تسرى في الشعر فيصطبغ بها ، ومن الواضح أنه يمكن التفريق بين شعر وآخر بمجرد اختلاف صبغة هذه الروح ، كما يمكن التفريق مثلاً بين روح شعر الرثاء وروح شعر الفخر أو المدح ، وإن كان التفريق أو النقد لمجرد الروح ، دون تمثل هذه الروح في مواضع محسوسة ، من الدقة بمكان في أغلب الأحيان .

وقد أحس نقاد العرب بهذا الفارق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، فتراهم قد اعتمدوا في بعض المواضع في التفريق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، لمجرد احساسهم بروح الصعلكة في الشعر ، سواء تمثلت هذه الروح في موضع محسوس من الموضوعات التي طرقتها الصعاليك وغلبت عليهم دون غيرهم ، أم لم تمثل ، فنجد البغدادي مثلاً يخرج أربعة أبيات من معلقة امرئ القيس اللامية وهي :

وقربة القوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعه به الدلب يعوى كاتخيل المعيل
فقلت له لما عوى ان شائنا قليل الفنى ان كنت لما تمول

(١) العمدة لابن رشيقي ١١٦/١ وخزاعة البغدادي ١٨٤/١ (الشاهد ٣٨) ولغز الخزاعة

• • • لأنه يشعر لما لا يشعر له غيره • • •

كلانا اذا ما نال شيئا اقامه ومن يخترث حرثي وحرثك يهزل (١)

وقد ايد البغدادى نفى هذه الابيات عن امرئ القيس ونسبتها الى نابط شرا ، مكثفيا فى تعقيبه على نسبتها لتأبط شرا بقوله « وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك ، لا بكلام الملوك (٢) » فحكم بنسبتها الى تأبط شرا لمجرد احساسه بان دلالتها وروحها توحى بانها شعر صعلوك .

ومما يجعل هذا التمييز بين شعر الصعاليك وغيره واضحا ، أن شعر الصعاليك فى جلته لا يعدو تصوير حياة الصعاليك ونفسياتهم ، وحياة الصعاليك بطبعها متميزة كل التميز عن الحياة العادية للناس ، وكذلك نفسياتهم متميزة أيضا نتيجة لتكوينها الخاص ، ولانعكاس حياتهم عليها ، وقد رأينا فيما سبق أن موضوعات شعرهم لا تكاد تخرج عن هذين الحدين ، تصوير حياتهم ونفسياتهم ، وأن شعرهم كان وسيلتهم الى تصوير هذين الجانبين .

وبعد هذا الحديث عن الطابع العام الذى يتسم به شعر الصعاليك ، والذى يمكن اعتباره لدى الناقد الدقيق المحس من أهم الفواصل التى تميز شعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم ، بعد ذلك نستعرض أهم الخصائص الموضوعية والفنية التى تراها بعد دراستنا لشعرهم مميزة له عن غيره .

ومن الواضح أن الخصائص والمزايا التى يحملها أى شعر ، ليست حواجز حسية غير قابلة للرأى والاختلاف ، كما أن الحديث عن كل من هذه الخصائص والمزايا لا يعنى الاستقصاء الكامل ، ولا يعنى أن الخصيصة والمزية موجودة فى كل شعر ، ولدى كل شاعر ممن يمينهم الحديث ، وانما يكتفى فى ذلك كله بالأكثري والغلبة ، كشأن الاحكام العامة ، وعلى هذا الأساس نتحدث عن أهم خصائص شعر الصعاليك ومزاياه .

٢ - الخصائص السلبية

ونعنى بالسلبية أن فى الشعر العربى عامة موضوعات تشيع فيه ، ولكننا لا نجد هذه الموضوعات فى شعر الصعاليك ، فخلو شعرهم من هذه الموضوعات هو ما نعنيه بالسلبية .

والموضوعات والأغراض التى خلا منها شعر الصعاليك مع شيوعها فى غيره من الشعر غير قليلة ، ويمكن أن نقول عنها بصفة عامة ، أن الفارق بينهم وبين غيرهم من الشعراء فى اختيار الموضوعات والأغراض ، بمقدار الفارق بين رجل

(١) الشطر الأول يعنى به سرعة عدو كل منهما ، والشطر الثانى يعنى أن معيشة كل منهما تجعل جسمه هزيلا نحيل .

(٢) خزائن الأدب للبغدادى ٩٣/١ (الشاهد ١٥) .

مجاف للمجتمع ، يعاني مرارة الفقر ، ويصارع أشد الصراع ليحصل على عيش
يقيم أوده في كرامة وعزة ، وليثبت لنفسه مكانا وموضعا في مجتمعه ، وبين
رجل وادع هاديء الحياة ، ميسور الحال ، شديد الخلطة بالمجتمع وبما فيه من
ألوان الحياة والمعيشة .

وحين لا نرى بدا من تحديد هذا الحكم غير المحدود ، نقول أن أبرز ما خلا
منه شعر الصعاليك مع شيوعه في غيره ما يأتي :

١ - شعر الترف :

والترف بالطبع أمر نسبي يختلف باختلاف المجتمعات من حيث أسلوب
حياتها ، ومن حيث مستوى معيشتها ، ومن حيث نواح أخرى كثيرة ، ففلاح
القرية مثلا يرى ترفا شديدا في أشياء يعدها ساكن المدينة من أبسط ضروريات
الحياة ، وهكذا فالترف الذي نتحدث عنه هو الترف في عرف البيئة التي عاش
فيها الصعاليك .

وأهم مجال لترف الحياة في البيئة حينذاك كان يتمثل في ناحيتين أحدهما
مجالس اللهو ومتعتها الخمر ، والأخرى التهافت على المرأة والتمتع بها ، وإذا
كان لنا أن نعتبر أن في الالف نفسى ترفا ، فإن هناك ترفا ثالثا في بيئتهم ،
هو الشعور بالزهو والخيلاء .

هذه المجالات الثلاثة للترف نجدها في ثلاثة موضوعات رئيسة في
الشعر العربي ، تفيض بها دواوين الشعراء ، وروايات الرواة ، هي أشعار
الخمر ، وما يحيط بها من وصف مجالس الشراب ، وما فيها من قيان في
الجاهلية والإسلام ، ثم الغلمان في بعض عصور الإسلام ، وأشعار الغزل وما
أفاض فيه الشعراء من هيام بالمرأة ، ولهفة جامحة إليها ، وإسراف أحيانا في
فحش الغزل وتتبع العوزات فيه ، وأشعار الفخر ، وما أفاض فيه الشعراء ،
وخاصة فرسانهم من زهو وخيلاء شديدين ولكننا حين نذهب إلى شعر
الصعاليك نجده يختلف عن غيره اختلافا واضحا في هذه النواحي جميعا .

فأما الخمر ، فلا نكاد نجد لحديثها أثرا في شعر الصعاليك ، جاهليهم
ومسلميهم ، فلم يتخذها شاعر منهم قط موضوعا مستقلا أو غرضا بارزا في
شعره ، أو حتى عنصرا في قصيدة ، ومن باب أولى ما يحيط بها من مجالس
الشراب وما فيها ، ففي المرات المعدودة التي عرض فيها ذكر الخمر في شعر
الصعاليك ، لم يتخذوها حينئذ موضوعا ولا غرضا ، وإنما ذكروا عابرا حينما ،
ونفورا منها أحيانا ، وفي كلا الحالتين لم يبد قط أنهم اتخذوها متعة من متع
حياتهم ، أو حتى شيئا مألوفا ، وأبرز حديث على ندرته في شعرهم عن الخمر ،
حديث عبدة بن الطيب ، حيث يتحدث عن الخمر واصفا مجلس شرابها فيقول :

وقد غلوت وقرن الشمس منفتق
الى التجار فاعلاني بلذته
خرق يجد اذا ما الامر جد به
حتى اتكنا على فرش يزينا
فيها الدجاج وفيها الاسد مخدرة
الى أن يقول :

ثم اصطحبت كميتا قرقفا أنفا
سرفا مزاجا وأحيانا يعلنا
فعبدة بن الطبيب بهذا يصف الخمر وساقياها ومجلس شاربها وصف
الشارب ، المتلذذ ، ولكننا حين ننظر الى الظروف المحيطة بهذا الشعر نلاحظ
ما يأتي : -

١ - عبدة بن الطبيب من المخضرمين ، وقد قال هذه القصيدة بعد وقعة
القادسية وكان حينئذ في أخريات أيامه حيث يتحدث في البيت الثامن من
القصيدة نفسها عن شبيهه ، ومعنى ذلك أنه كان حينئذ قد ترك الصلعة أما
لتوبته بدليل أنه شهد القادسية كما روى الطبري (٧) ، وأما لأن شيخوخته قد
صرفت عن الصلعة ، وحيث أن القصيدة قد صدرت في ظروف بعيدة عن حياة
الصلعة ، فقد كان من الممكن استبعادها من شعر الصعاليك بالمعنى الدقيق
لشعرهم لولا أنها تحمل بقية من روح الصعلوك ومشاعره وذكرياته في
الصلعة •

٢ - القصيدة طويلة ، تبلغ واحدا وثمانين بيتا ، وأبيات الخمر هذه تعتبر
قلة فيها ، بالإضافة الى أنها مسوقة في آخر القصيدة •

٣ - أخبار القصيدة ، وموضوع القصيدة نفسه ، كل ذلك يفهم منه أن
هذه الحادثة التي وصفها عبدة لم تكن بموطنه ولا بارض العرب ، وإنما كانت في
العراق ، حيث شهد عبدة مع المسلمين وقعة القادسية ، وإن كان سبب سفره
الى هناك أنه تمع حليمة له هاجرت الى هذا الموطن ، وأبت أن تعود معه ، وهناك
في إحدى بلاد العجم عرض له هذا المجلس بخمره ، أو هذه الخمر بمجلسها •
ووصفه للستائر والبسط ، والمباني ، والرسوم والتماثيل يؤكد ذلك ، حيث
لم تكن هذه المظاهر قد عرفت حينذاك في موطن عبدة من بلاد العرب ، ومعنى

(١) المفضليات ١٤٣ - ١٤٥ والتجار يعني الخمارين وأعداني أعانني

(٢) خرق بمعنى متفنن مختلف الشئون والفضيل المتعدي في غيه •

(٣) معنى الرسوم في البسط والستائر •

(٤) من أنواع الرسوم في البسط •

(٥) الكمية الخمر والقرقفا التي ترعش شاربها والأنف يعني البكر •

(٦) السمان وشى مقارب مأخوذ من سم الغياط •

(٧) تاريخه ٤٣/٤ •

ذلك أن حديثه هذا ، أو حادثته تلك ، لا تمثل أسلوب حياته ، ولا طابع معيشته وإنما تمثل فترة عارضة عابرة في حياته ، ولذلك لم تتكرر في شعره . واذن فلا تصلح هذه الحادثة التي وصفها عبدة مثالا لحياة الصعاليك ، ولا لحياته هو وبالتالي لا يعتبر الشعر المصور لها مثالا لشيء من ذلك .

وعروة بن الورد يتحدث مرة عن الخمر ، ولكن ليس حديث الود بينه وبينها ، وإنما حديث السخط عليها ، حيث ارتبط شربه إياها بموقف ألمه ويعت في قلبه ندما شديدا ، وذلك أنه كان قد أصاب في إحدى غاراته امرأة كنانية من مزينة ، فاتخذها زوجا ، ومر بها على بني النضير ، فراق لهم أن يسلبوها منه ، فديروا حيلة خبيثة ، مؤداها أنهم أسكروه بشرب الخمر ، ثم استوهبوه زوجه ، فوهبها لهم وهو سكران كما يقول ابن السكيت (١) ، أو رهنها في سكره ثم ظلوا يسقونه مستزيعين إياه في الرهن حتى غلق كما يقول الأصفهاني (٢) ، وأياما يكون فقد كان تصرفه بالهبة أو الرهن خلال سكره ، ثم أفاق على هذه الحقيقة المؤلمة التي يابى العرف الرجوع فيها ، وقد عبر عروة بعد ذلك عن سخطه على الخمر وعلى اليهود بقوله :

سقوني الخمر ثم تكفوني علة الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمي بمغن مالك ولا فقير
فلا والله لو ملكت امرئ ومن لي بالتدبر في الأمور
إذا لعصيتهم في حب سلمي على ما كان من حسك الصدور
فيا للناس كيف غلبت امرئ على شيء ويكرهه ضميري (٣)

وهكذا استطاع اليهود بخبتهم وخديعتهم أن يسلبوا عروة زوجه ، ثم كانت سلمى هذه معهم حين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة (٤) .

وهذه القصة توحى بأن عروة لم يكن مدمن خمر ، فلو كان كذلك لم يكن حديثه عن الخمر ، بهذا التعبير الذي يوحى بأنها شيء غريب على حياته ، وليست شيئا أليفا له ، وهو « سقوني الخمر » بدليل أننا لم نر له حديثا آخر عن الخمر ومن الواضح أن ذكره للخمر بهذه الصورة لا يعتبر من باب الحمريات ، من حيث وصفها ووصف مجالسها ، أو الولوع بها أو نحو ذلك .

(١) أنظر شرح ديوان عروة لابن السكيت ٨١ .

(٢) أنظر أغاني الأصفهاني ٧٥/٣ وابن قتيبة في الشعر والشعراء ١٥٩ لم يذكر قصة الخمر في أخبار سلمى هذه .

(٣) أغاني الأصفهاني ٣٧/٣ وديوان عروة بن الورد ٨١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ - ١٦٠ مع اختلاف في السياق حيث ذكر أن سبب فراق سلمى هذه لمرؤ اختارها قوما عليه ، مع اختلاف في اللفظ الشعر أيضا .

(٤) أغاني الأصفهاني ٧٥/٣ .

على أننا يجب أن نعقب على هذه القصة التي سلب فيها عروة زوجها ، بأنها لا تسيء الى عروة ، لانه لم يتعد في شربه الخمر سلوكا يقره عرف مجتمعه .
وانما الاساءة كل الاساءة من اليهود ، ومن العرف الذي يجعل مثل خديعتهم هذه عملا مشروعا ، ومن العجيب أننا في الوقت الذي نعتقد فيه أن مثل هذا السلوك وهذا العرف كان في جاهلية متخلفة ، نجد هذه القصة ، وبصورتها تحدث في أيامنا هذه ، كما طالعنا الصحف منذ بضعة أيام فقط ، بقصة كهذه القصة (١)
وحيث يصدق القول بأن عروة بن الورد كان يعيش في مجتمع جاهلي ، لا يصدق القول بأن المجتمع الذي حدثت فيه قصة اليوم جاهلي ، ولكنه مع وضوح حيث اليهود في قصة عروة ، لا نستطيع اعفاء مجتمعى الفصتين من جريمة الاعتراف بمثل هذا المسلك الخادع في غير شرف ، واعتباره عملا مشروعا ، وهذا المعنى بالذات ، هو الذي يلفت نظرنا في قصة اليوم ، فهي لا تعيننا من حيث انها جادث ، فالشذوذ الفردى لا يخلو منه مجتمع وانما تعيننا من حيث اعتراف المجتمع بهذا الشذوذ ، وحمايته له ، واعتباره عملا مشروعا .

ولسنا نمتطى الشطط حين نقول ان مجتمع قصة اليوم ، لم يرتفع كثيرا عن جاهلية مجتمع عروة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، ان لم يكن قد نزل عنه درجات باسم الحضارة والقوة والحرية .

فاذا كان مجتمع ايطاليا الذي يبيع عرفه وتشريعه لرجل قانون أن يشتري امرأة من زوجها جاعلا لمرأة كأي سلعة تباع وتشتري ، فليس هو المجتمع الوحيد في الغرب الذي ينزل الى هذه الجاهلية الخلقية والاجتماعية ، ألسنا نرى هذه الاسابيع في بريطانيا موجة من الاحياء والحماية لرذائل كانت تنفر منها أشد المجتمعات ايفالا في الجاهلية والبدادة ؟ كما فعل مجلس عمومهم - وهو أعلى هيئة في الدولة - حين وافق بما يشبه الاجماع على اباحة الشذوذ الجنسي واعتباره عملا مشروعا ، كما وافقوا بما يشبه الاجماع أيضا على اباحة الاجهاض (٢) الذي يعنى - فضلا عن قتله نفوسا بريئة - اباحة البغاء ، لأن الاجهاض في معظم صورته تخلص من ثمرة خطيئة .

وألسنا نرى في أمريكا اليوم صورا من التفرقة العنصرية لم يعرفها أشد

(١) ورد في صحيفة الأهرام بتاريخ ١٦/٧/١٩٦٧ بعنوان « رجل يبيع زوجته ب ١١ جنيهًا و ١٠ شلنات » باع رجل زوجته ب ١١ جنيهًا و ١٠ شلنات في مدينة ميلانو الإيطالية ، قال الرجل واسمه أنطوني دانديتا وهو فلاح عمره ٤٢ سنة في بلاغه الى البوليس أنه كان يشرب الخمر في بار ، واستمر في الشرب حتى فقد وعيه الى حد أن صديق زوجته وهي شابة جملة يوقع على عقد يبيع فيه الزوجة ، قال الزوج السكران الشاكى أن صديق زوجته محام ، وقد استغل خبرته القانونية في تحرير العقد ، وهو ينص على أن يبيع زوجته لقاء ٢٠ ألف ليرة ايطالية ، أى ما يقرب من ١١ جنيهًا استرلينيا و ١٠ شلنات .

(٢) انظر صحف شهرى يوتيه ويولييه سنة ١٩٦٧ وخاصة صحيفة الأهرام لى ٢٩/٧/١٩٦٧

المجتمعات أبعادا فى الجاهلية ، حيث لا يستطيع الرجل من غير البيض أن يركب عربة أو يدخل مطعما أو ينتسب إلى مدرسة فيها البيض ؟

وإذا كانت هذه الصور تعنى على وجه اليقين التاريخى ، كما يؤيد التاريخ كله - أن هذا الانهيار الخلقي والاجتماعى يعنى إرهابا مباشرا ، يؤذن بأفول الدولة ، والانحدار السريع لمجدها وحضارتها ، فإن ذلك لا يمنع من القول كنوع من التعليل بأن مجتمع الغرب اليوم شديد الشبه بمجتمع عروة بن الورد فى وقوع كل منهما خارج اثره النور السماوى بهديه وخلقه وتشريع ، حيث كان مجتمع عروة سابقا لنور السماء ، وحيث يعيش مجتمع اليوم فى ظلامه الخلقي والاجتماعى منذ أطفأ البقية الباقية من نوره السماوى منذ نحو قرن من الزمان فيما سموه فى الغرب حينذاك بالإصلاح الدينى ، وبينما يمكن لمجتمع عروة أن يجد ما يدافع به ، لا نرى لمجتمع اليوم فى الغرب هذا الدفاع ، على أنه مما لا شك فيه أن مجتمع عروة ربا بنفسه عن كثير من تلك الخطايا .

ولم نعن بهذا الحديث استطرادا ، وإنما هى تكملة صورة اقتضاها مقام المقارنة بين مجتمع من مجتمعات موضوع البحث ومجتمع يزعم لنفسه حضارة وخلقا ومبادئ ، وأهم من ذلك توضيح ملابسات أحاطت ببعض سلوك شاعريهم موضوع البحث وهو عروة بن الورد .

ونعود إلى عروة بن الورد ، فنقول أنه لم يكن شعره هذا واصف خمر ، وإنما كان شاكيا خبت قوم حمتهم جهالة المجتمع

بل من الغريب أنه حتى الدين اتصلت حياتهم بحياة المجتمعات ، ومجالس السادة والأمراء ، كبكر بن النطاح ، وأبى الطمحان القينى ، لم يرد فيما بلغنا من شعرهم حديث للخمر . فقد خلا اذن شعر الصعاليك من هذا النوع من الترف الذى كان أبرز مجال للترف والمتعة واللهو حينذاك ، كما كان من أبرز موضوعات شعرهم وأغراضه أيضا .

ولم يكن خلو شعرهم منه ، ومن الترف بصفة عامة غريبا ، فحياتهم جادة كادحة لا تحتل ترفا ولا دعة ولا لينا ، فضلا عن أنهم لم يكونوا بملكون ما يترفون به ، حتى أن الرواية التى ذكرت أن عروة رهن زوجه فى القصة السابقة ذكرت أن اليهود استغلوا فقر عروة ، حيث لم يكن لديه شيء يرهنه غير زوجه (١) وحتى أننا نرى صعلوكا كالأعلم الهذلى ، لا يرقى خياله فى الترف إلى أن يملك زقا من خمر ، وإنما يتصور أن أقصى ما يتخيله من ترف يجعله كالمملك أن يملك قربة صغيرة يملؤها من طعام جيد فيقول عن نفسه :

(١) انظر الأغاني للأصفيهانى ٣٨/٣ .

ويحسب نفسه ملكا اذا ما توسد ظبية الاقط الجلال (١)
ومالك بن الريب يحدثنا عن أنه لم يذق طعم الترف قط فيقول عن نفسه :
لم يدرك ما غرر القصور وفيها طيبا ونخل سوادها المتمايل (٢)
وحين نعود الى حياة الفقر والجوع والهزال التي عاشوها وعانوا منها ،
وانتى كانت في جملتها غالبية عليهم جميعا ، والتي لم تستطع جهودهم على
صلابتها في الصعلة أن تخرجهم منها أو تبعدهم عنها كثيرا ، حين نعود لنلقى
نظرة أخرى على هذه الحياة نعلم أنه لا غرابة في أن تخلو حياتهم وبالتالي شعرهم
من أي مظهر من مظاهر ترف المعيشة ، بل الغرابة أن يوجد فيها ذلك ، حينئذ
كأن سيبدو التناقض أو التباعد الشديد بين بعض شعرهم كشعر الفقر وآثاره ،
والبعض الآخر كشعر الترف .

٢ - الفحش :

ومما خلا منه شعر الصعاليك بصورة واضحة أيضا الفحش ، فبينما نجد
الفحش في الألفاظ والمعاني شائعا في كثير من الشعر ، وخاصة في شعر الغزل ،
وشعر الهجاء ، نجد شعر الصعاليك كما أشرنا الى ذلك في هذين الموضعين أعف
الشعر لسانا ، وأبعده عن الفحش والبذاءة .

فمما يبعث على التقدير لشعر الصعاليك ، سواء جاهليه واسلاميه ، أن
نراه دائما متزما رداء من العفة والحياء ، ومكتسبا ثوبا ناصعا ، لا تدنسه بقعة
من فحش ، ولا يعيبه ثقب يكشف عن ستر .

ومما يدعو للعجب ، أننا نحاول أن نجد كلمة لهم نستثنىها من هذه
القاعدة ، أو شيئا فيه حتى شبهة فحش تستدعى شرحها أو بيان موقفهم منها ،
فلا نعثر من ذلك على شيء .

بل نجد شعرهم على العكس من ذلك ، لا يكتفى بمجرد خلوه من الفحش ،
وانما يفيض بالفاظ العفة ومعانيها ، واضعا نفسه موضع النموذج والقودة
الكريمة في هذا المجال .

ومن الغريب أنه حتى من شذ منهم - على الندرة - في خلقه كابى الطمعان

(١) ديوان الهذليين ٨٣/٢ والظبية جراب صغير قبل أنه يتخذ من جلد الظبية . والأقط
طعام يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يهمل .
(٢) مهذب الأغاني ١٤/٥ .

القيني الذي يصفه الأصفهاني بأنه « أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيها » (١) والذي يصفه ابن قتيبة بأنه « كان فاسقا » (٢) والذي اتفقوا جميعا على مزاولته شيئا من سلوك ينافي الخلق ، وينافي ما عرف عن الصعاليك كما قلنا سابقا ، نقول أنه حتى مثل أبي الطمحان ، مع مزاولته لبعض الفحش في سلوكه ، إلا أننا لا نجد فيما بلغنا من شعره فحشا ، ولا ما هو قريب من الفحش .

وإذا أردنا أن نتبين مدى نصاعة شعر الصعاليك وطهره من الفحش ، فلنلق نظرة عليه ، ثم لنلق نظرة على ما ساقته كتب الأدب من فحش الشعراء ، وخاصة في الغزل وتتميع عورات النساء (٣) وكذلك أبواب الهجاء في دواوين الشعر وكتب الأدب . فاننا حين نرى ما تفيض به من فحش ، نرى في أي موضع من العفة والحياء كان الصعاليك وكان شعرهم سواء في الجاهلية والاسلام .

٣ - الزهو والخيلاء :

ومما خلا منه شعر الصعاليك أيضا ظهور الزهو والخيلاء ، وليس معنى ذلك أنه خلا من الفخر ، الذي ينطوي فيه الزهو ، فقد فخر الصعاليك كما فخر غيرهم ، ولكن فخرهم يختلف اختلافا بينا عن فخر غيرهم ، فأول ما يلاحظ على فخر الصعاليك أنه يبدو وكأنه غير مقصود لذاته ، بل كثيرا ما يبدو في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده بعيدا عن الفخر ، بل قد يحمل شيئا مما يتعارض مع الفخر ، وأبواب كثيرة مما سبق يصلح شعرها كله مثالا لذلك ، فشعرهم في الصبر وقوة الإرادة ، والاستهانة بالموت ، قد يبدو كل ذلك في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده لا يحمل إلا شعورا بجهد الحياة ، والصراع معها ومجالدتها .

ولذلك كان فخرهم قليلا محدودا ، ومع قلته فانه يختلف بصورة بينة عن غيره من أشعار الفخر ، فبينما نجد أشعار الفخر لدى غيرهم تفيض مبالغة وتحديا وزهوا وتهويلا في وصف القوة والاعتداد بالنفس وفضائلها ، نجد فخر الصعاليك رزينا متواضعا كريما ، لا يلجأ قط الى تهويل أو مبالغة ، بل يكتفي في أقل الأحيان بتصوير موضع الفخر في بساطة وقرب شديد من

(١) الأغاني ٢/١٣ .

(٢) الشعر والشعراء ٣٤٨/١ .

(٣) انظر مبادئ التصنيع ، للعباسي وانظر نهاية الارب للنويري وخاصة المواضع الآتية

١١/٢ - ٦٥ ، ١٢٥/٢ - ١٣٢ ، ١٣٤/٢ - ٢٧٧ .

الحقيقة ، أما في أكثر الأحيان فانه يكاد يمحو الفخر محوا ، كأن يتحدث مثلا عن قوة الإرادة أو الصبر ، وقد يبدو هذا الحديث سياق فخر ، وإذا الشاعر يكسوه صبغة الصراع ، وكأنه يقول : لا تظنوا أنني أفخر ، وإنما أضرب لكم مثلا مما أعانيه ، وكان يتحدث مثلا عن كرمه وجوده ، وكان يمكن أن يتخذ منه مجالا رفيعا للفخر في مجتمع يمجّد الكرم ، وإذا الشاعر يحول أنظارنا عن الفخر الى معركة حول هذا الجود ، هو أحد طرفيها ، والطرف الآخر خليط من زوجه وعذاله وأهله والطامعين في الكرم ، وكان الشاعر يقول لنا أيضا انني لا أفخر بهذا الكرم ، وإنما أشكو الذين يريدون أن يحولوا بيني وبينه ، كما سبق عند الحديث عن اشتراكيتهم ، وقد يتحدث أحدهم أيضا عن القوة والبسالة والجرأة ، فيبدو وكأنه يفخر ، وإذا هو يحول الأنظار عن أن نفهم ذلك بأي معنى يبعد حديثه عن الفخر ، وكأنه يقول : انني لا أعني من حديثي فخرا ولا زهوا بقوتي ، وإنما أعني أنني قادر على انفاذ ما أريد ، وقادر على تحدى الأعداء ، ومستعين بالنتائج مهما تكن .

وهذه المعاني نجدّها دائما محور شعر الصعاليك حين يتحدثون عما يوحي بأنه فخر ، ونجدهم دائما يحولون وجهة حديثهم عن طريق الفخر الى طريق الصراع ، أو طريق الرزاة والاعتدال ، وفي كلا الحالتين نشعر كأنهم يتعمدون عدم الفخر . هذا في الوقت الذي نجد فيه غيرهم من الشعراء يحاول على عكسهم أن يكبر الصغير في صفاته ، وأن يجعل من يسيرها شيئا عظيما بما يضيفه عليها من صور المبالغة والخيال ويمكن تعليل عدم نزوع الصعاليك الى الجموح والتطرف في الفخر ، بأنه تكملة لصفة الثبات والاعتدال فيهم ، تلك الصفة التي بدت في تحملهم للفقر وآثاره ، وللمشقة العنيفة التي يقاسونها في حياتهم ، دون ضجر أو تذمر ، فكما أن جهد الحياة ومشقتها وآلامها لم تزعزع ثباتهم ، ولم تخرجهم عن اعتدالهم وتحمل نفوسهم ، كذلك لم تستطع عوامل الفخر أن تخرجهم عن ثبات نفوسهم واعتدالها لتدفعهم كما دفعت غيرهم الى صورة من صور التطرف ومجاوزة الاعتدال كالزهو والخيلاء والغرور .

وهذا الثبات والاعتدال ليس اختياريا بالنسبة لصاحبه ، بمقدار ما هو صفة أو أثر لصفة فيه ، فيمكن أن نرد هذا الثبات والاعتدال في حالي الخير والشر ، في نفوس الصعاليك الى قوة نفوسهم ، حيث كانت نفوسهم أقوى من أن تجذبها عوامل الابتئاس الى أسفل بالضعف والانهيار ، أو أن تجذبها عوامل الفخر الى أعلى بالزهو والغرور ، وشعرهم نفسه يصرح بهذا المعنى ، حيث يتردد في شعرهم كثيرا أنهم لا الفقر يضعف نفوسهم أو يغيرها عن خلقها ، ولا الغنى يزدهيهم أو يخرجهم عن وقارهم كما يقول الشنفرى من اللامية :

وأعدم أحيانا وأغنى وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل

فلا جزع من خلة مكتشف ولا مرج تحت الفنى أنخيل (١)
وكما يقول سعد بن ناشب عن هذا المعنى أيضا :

فان تعذلىنى تعذلى بى مرؤا كريم ثنا الاعسار مشترك اليسر (٢)

فكما كان الصعاليك مثلاً رائعا فى الصبر والقدرة على مشقات ومصاعب لا يقوى على احتمالها غيرهم ، كذلك كانوا مثلاً فى تجنبهم الزهو والخيلاء ، مع أنهم كانوا يملكون قدراً عظيماً من أهم صفتين يتفاخر بهما مجتمعهم ، وهما القوة التى لا ينازع فى أنهم بلغوا منها مكاناً رفيعاً ، والكرم الذى سبقوا باشتراكيتهم فيه مجتمعهم ، حتى ضرب بهم مجتمعهم المثل فيه ، حيث قالوا « كل صعلوك جواد » (٣) .

٣ - تمثيل الحياة الشخصية

نعنى بتمثيل الحياة الشخصية أن شعر الصعاليك يصور الحياة الشخصية لكل منهم ، ولئن كان شعرهم متفقاً أو متقارباً فى تصويره هذا ، فلان حياتهم نفسها متفقة أو متقاربة ، ومن البين الواضح فى شعر الصعاليك أننا حين نقرأ شعر أحدهم نستشف من خلاله حياة صاحبه ، وأسلوب معيشتة ، ومذهبه فى الحياة ، وصلاته بغيره ، بل وأفكاره ومشاعره فى أغلب الأحيان ، ولذلك نلاحظ بوضوح أن المؤلفين يتخذون دائماً من شعرهم مصدراً أساسياً فى أخبارهم وتراجمهم ، وأن اعتمادهم فى هذا على شعرهم نفسه أكثر من اعتمادهم على الروايات والأخبار ، نظراً لأن الروايات عن أشخاص الصعاليك وظروفهم وأحداثهم ليست ، بالكثرة التى ترسم لكل منهم تاريخاً وترجمة كاملة ، لعدة أسباب منها تعثر الرواية فى العصر الجاهلى ، ومنها عزلة الصعاليك ، وصدور معظم أحداث حياتهم فى أماكن عزلتهم بالصحرى ، مما لا يتيح للمجتمع أو الرواة الاطلاع بها المأما واضحاً مفصلاً كأحداث غيرهم من سكان المجتمعات ، وقد يكون منها أيضاً شيء من حذر أحاط بالعلماء فى الاسلام فى تناولهم لأحداث الصعلكة وجرائمها التى ينكرها الاسلام ويحاربها ، ولذلك كان هم العلماء نحو من تناولوا ذكرهم من الصعاليك منصباً على شعرهم نفسه ، لأن الاسلام من فضائله اقرار الشعر لذاته ، بصرف النظر عن صدوره من شخص مرضى عنه أو مسخوط عليه ، وبصرف النظر عن تناول الشعر نفسه لموضوع معروف أو منكر ، وبالإضافة الى سماحة أخرى فى الاسلام ، وهى عدم الانتكاز على راو فى رواية معروف أو منكر مما صورته

(١) اللامية : والخلة الفقر ومكتشف يعنى لا ينكشف فقرى لأحد وأنخيل من الغيلاء .

(٢) حساسة أبى تمام ٢٧٢/١ والنثا الخبر والاعسار الفقر واليسر الفنى .

(٣) مجمع الأمثال للميدانى ١٥٩/٢ .

العلماء فى قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر » ولولا هذه السماحات فى الاسلام
لحسنا جوانب كبيرة ومهمة من الادب العربى وتاريخه .

ومهما تكن الاسباب ، فمن الواضح أن المؤلفين اعتمدوا فى جانب كبير من
اخبار الصعاليك على شعرهم ، حيث وجدوا هذه الاخبار واضحة فى شعرهم ،
وأوضح ما يكون ذلك فى حديث الأصفهاني عن الصعاليك ، بل الأغرب من ذلك
أننا نجد وصف أجسام معظمهم وأشكالهم فى شعرهم (١) وقد يكون شعر
الصعاليك بهذه الميزة منفردا عن غيره قاطبة من الشعر ، فقد نقرأ ديوانا لشاعر
من غير الصعاليك ، فنرى فيه موضوعات شتى ، وافكارا مختلفة ، وأحداثا
متنوعة ، ولكننا لا نكاد نعلم عن شاعر الديوان نفسه كثيرا ، ونجدنا بعد قراءة
ديوانه كله فى حاجة الى أن نعلم من هو ؟ وما معيشتة وعمله ؟ وما أخباره
وأحداث حياته ؟ لأن شعره ان يكن أظهرنا على أفكاره واتجاهاته ، وعلى أحداث
بارزة فى حياته أو حياة مجتمعه ، الا أنه لم يظهرنا على الحياة والظروف الشخصية
لهذا الشاعر ، ويمكن أن يقال هذا بالنسبة للشعراء جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ،
ومجيدهم وتافهم .

أما شعراء الصعاليك ، فحين نقرأ شعر أحدهم نجد فيه حياته وظروفه
الشخصية ، ان لم تكن مفصلة كل التفصيل ، فهى واضحة كل الوضوح ، بل
لسنا فى حاجة الى أن نستقصى شعر الشاعر منهم كله لنعلم حياته وظروفه ، وانما
يكفى أن نلم بقدر من شعره ، فنعلم عنه وعن حياته الكثير ، وأول هذه الدلالة
المهمة أن نعلم أنه صعلوك ، فنعلم عنه بذلك شيئا مهما ، ثم نجد تفاصيل حياته
وصورتها ماثلة فى شعره ، ونعود فنقول ان أبلغ دليل على هذه الظاهرة فى
شعرهم اعتماد المؤلفين عليه فى استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها ،
ولذلك نجد شعرهم دائما مقترنا بأحداث أو صور من حياتهم ، فمثلا نذهب الى
شعر عروة بن الورد فنعرف منه أنه فقير ، وأنه دائم الفارات والغزو ، وأنه يؤوى
المحتاجين دائما ، ويغزو ليعولهم ، ثم نجد فى شعره أخبار حوادث كثيرة تعرض
لها كقصة احتيال اليهود لسلبه زوجه سلمى منه ، وقصة أصحاب الكنيف الذين
أبوا عليه أن يمتاز عنهم فى نصيبه مع أنهم صنائعه ، وقصة سطوه على منزل
رجل بارع الخبرة بالأرض ، دقيق الملاحظة لما حوله ، وهكذا نجد أحداث حياته
مسطرة بوضوح ، بل وبتفصيل فى شعره .

وكذلك شعر الشنفرى نعلم منه عن شخصيته ومعيشته وظروفه أكثر مما
نعلمه عنه من أخباره ، فأخباره فى الروايات محدودة ، لا تكاد تتعدى نسبه ،
ثم انتقاله أسيرا بين قبيلتين ، ثم نغمته على بنى سلامان ، وأحداثا معدودة خلال
ذلك فى صعلكته ، وفى رفقته مع تابط شرا وعمرو بن براق ، ولكن شعره
يطلعنا من شخصيته ومعيشته وظروفه على أكثر من ذلك بكثير ، فحين نقرأ ديوانه

(١) انظر للمثال ما ورد من شعر فى فصل الفقر وآثاره فيما سبق

على قلة شعره ، نجد فيه حياته كاملة بظروفها وأحداثها ومشاعرها ، بل حين نقرأ لاميته نجده هو أوضح فيها منه في الاخبار والروايات ، حتى ليخيل إلينا أننا نراه بأعيننا ، ونتابع حركاته وأعماله ، ومعيشته ، ونسمع نجوى نفسه ، ونرى مشاعره وأفكاره ، فنرى مشاعره نحو الناس بهجرته عنهم ، ونرى أسلحته التي يحملها بألوانها وصفاتها ، ونحس البرد والحر الذي يعانیه ، ونرى الوديان والقفار التي يعيش وينتقل فيها ، ونرى في هذه البيئة مخلوقاتا التي يشاطرهما الشنفري حياتها ، بل ونرى وصفا دقيقا للشنفري نفسه ، فنرى تحول جسمه ، وبروز عظامه وفقر ظهره ، ونرى ثوبه ونعله المزقبن ، ونرى شعره الضافي الذي لم يقص ولم يغسل ولم يدهن ولم يقل منذ حول كما وصفه ونرى حدة بصره ، ثم نرى معيشته وطريقة حصوله على الطعام والماء ، وحاله ان فقدهما ، وهكذا في تفاصيل كثيرة دقيقة عنه ، في جسمه ، وفي نفسيته ومشاعره ، وفي بيئته ، ومخلوقاتا ومشاهدها وفي معيشته وفي أشياء أخرى نخرج منها جميعا ، ولسنا في حاجة الى السؤال عن شيء من أحواله ، فقد علمنا منها كل شيء عنه ، حتى اسمه ، وإشارة الى نسبه في أحاطة اليمينية كما يقول في اللامية عن ركب أحاطة المجفل ، وهكذا في شعر الصعاليك كله ، بل أننا لنرى البيتين والبيت الواحد أحيانا يطلعنا على صورة من حياة الصعلوك ، ويشرف بنا على معيشته ، فبيت واحد لتأبط شرا كقوله مثلا يخاطب الذئب :

كلانا اذا مانال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل (١)

نعلم من شطره الأول أنه عداء ، ومن شطره الثاني أنه يعيش حياة قاحلة تنتج الهزال ، بالإضافة الى ما يوحيه كل معنى منهما من تصور ، وحين نقرأ قول ابن بركة :

**اذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الأفراط بوم جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالباته فاني على أمر الغواية حازم (٢)**

نعلم أنه صعلوك ، ونعلم أسلوبه في الصعلكة ، وكذلك قول مالك ابن الريب :

حيث الدجى متطلعا لغفوله كالدئب في غلس الظلام الخائل (٣)

وكذلك قول الأحيمر السعدي مبينا أسلوبه في حياته :

**وأني لأستحيي لنفسي أن أرى وأمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره وبعيران ربي في البلاد كثير (٤)**

(١) خزانة البغدادى ٩٣/١ •

(٢) أمالي القالى ١١٩/٢ والأفراط جبال والكرى النوم وأمر الغواية يعنى أعمال الصعلكة •

(٣) مهذب الأغاني ١٤/٥ •

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢/١ •

وكقول الشنفرى واصفا المكان الذى اتخذه رسدا وكمينا ، والوقت الذى يختاره للترصد وحاله أثناء الترصد .

ومرقبة عطاء يقصر دونها اخو الضروة الرجل الخفيف المشفف
نميت الى اعلى ذاهبا وقدنا من الليل ملتف الحديقة أسلف
فبت على حد الذراعين محمدا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

وما لا نشك فيه أن شعر الصعاليك بهذه الميزة يتفرد عن غيره من الشعر قاطبة ، وإذا أردنا أن نقرب هذه الميزة الى الأذهان كما أشرنا فيما سبق نقول : ان شعر الصعاليك فى تسجيله لحياة الصعاليك ، وتتبع أحداث حياتهم ، وإبراز مشاعرهم نحو هذه الحياة وهذه الأحداث ، أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، التى يروق لبعض الناس أن يسجلوا فيها أحداث حياتهم ومشاعرهم نحو هذه الأحداث ، واحساسهم بما حولهم من الناس والأحداث وبالحياة نفسها ، وحين تلقى نظرة على مجرد عناوين الأغراض الكثيرة التى سبق عرضها ، والتى شملت حياتهم من فقر وجوع وهزال ، ومذهبيهم نحو هذه الحياة من حرص على العمل واستهانة بالموت ، ثم أسلحتهم الحسية والنفسية التى لازموها ، ثم صراعهم مع كل شيء ، وهكذا من موضوعات وأغراض شتى ، ان لم يكن اتخذا كل فرد منهم موضوعا وغرضا فقد اتخذوها فى جملتهم كطائفة أغراضا وموضوعات ، وساهم كل منهم بقدر كبير أو يسير فيها . حين تلقى نظرة على شعرهم فى هذه الأغراض جميعا ، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، ولو تتبعنا شعر كل شاعر منهم ، وجمعنا شعره فى كل غرض من هذه الأغراض والموضوعات ، لخرجنا بمذكرة شخصية نجده قد سجل فيها ما نريد أن نعلمه عنه ، وأحيانا فوق ما نتوقع أن نعلم عن شخصه وظروف حياته ، وعن نفسيته واتجاهه ، وحتى عن شكله وصفاته الجسمية فى كثير من الأحيان .

ويمكن تعليل ذلك بأمرين : الأمر الأول أنه لا يبدو من شعرهم كله أنهم يقولون الشعر لذات الشعر ، بما يتضمنه هذا المعنى من حوافز تغلب على الشعراء فى إنتاجهم الشعرى ، كترغبة الشاعر فى أن يبرز فى ميدان الشعر ، وأن يثبت لنفسه مكانة فى مجتمعه بهذا الشعر ، وما الى ذلك مما يدفعه الى اختيار أغراض وموضوعات يصوغ فيها الشعر وقد لا تكون هذه الموضوعات شاغلا له هو بالذات ، أو هو كأحد أفراد من مجتمعه فى تأثره بهذه المشاهد أو الأغراض ، وما يدفعه أيضا الى الإجابة ، ومما يدفعه الى مراعاة اعتبارات أخرى ، حاشدا كل امكانياته لينجح كشاعر .

أما شعراء الصعاليك فلسنا نقول أنهم لا يراودهم شيء من هذا الشعور ، ولكننا نقول أنهم لم يتأثروا بهذا الشعور ، ولم يكن موجها لهم ، أو مؤثرا فى

شعرهم تأثير الوضع والجلد ، كما يتضح ويتجلى في شعر غيرهم ، وهذا المعنى المميز لهم له تأثير في طابع شعرهم ، وفي خصائصه في أكثر من موضع كما سنرى ، وقد كان تأثيره فيما نعينه الآن أن الشعراء الصعاليك لم يعنهم الشعر لذاته حين قالوا الشعر ، وإنما عناهم احساسهم بحياتهم وأحداثها ومشقاتها فسجلوا هذا الاحساس مثلاً في الأحداث والصور ، ولذلك حين ننظر الى شعرهم ، لا نجد في شعر الفرد منهم موضوعات وأغراض مقصودة لذاتها ، وإنما نجد حياته هو مصورة في سلسلة أحداث ومشاعر وان بدت في أحيان قليلة ، في صورة أغراض وموضوعات .

والأمر الثاني وإن كان في بعض جوانبه متداخلاً مع الأمر الأول ، إلا أن مصدره متميز عنه ، وهو عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمع ، هذه العزلة بجانيها جعلت مشاعر الصعاليك وحواسهم مركزة على أنفسهم ، وعلى حياتهم الشخصية لكل منهم ، فنشعر من حديث شعرهم واتجاهه أنهم لا يعينهم المجتمع وما فيه ، ولا تنصب مشاعرهم إلا على ذواتهم وحياتهم وما يعانونه ويشعرون به ، وحتى إذا نظروا الى المجتمع ، أو الى أي شيء خارج نطاق حياتهم ، فأنما ينظرون اليه من زوايتهم هم ، ومن خلال احساسهم بحياتهم هم ، كما رأينا في منهج شعرهم الاجتماعي ، حيث نجد فيه دائماً نظرتهم الخاصة ، وانعكاس حياتهم في الصعلكة ، فحتى الرثاء مثلاً نجدهم يركزون حديثهم فيه عن المرثى ، على صفات الصعلكة وطابعها ، وليس ذلك تعبيراً عن أعجابهم بحياتهم أو فتنتهم بها ، وإنما هو تعبير عن أن شاغلهم الأول هو حياتهم الشخصية ، وعن أن تفرغهم لهذه الحياة وانقطاعهم لها قد ملأ عليهم مشاعرهم واحساسهم بها ، فانعكس ذلك كله في شعرهم ، بحيث أصبح شعرهم كالمرآة الخاصة التي يسكنونها بأيديهم ، فأول ما يطالعنا فيها أشخاصهم وانفعالاتهم ، وحركاتهم ، وحتى أن بدا فيها شيء غيرهم ، فأنما يبدو وكأنه خلف ظهر الصعلوك ، أو نطاقاً مضروباً من حوله ، وبهذا أصبح شعرهم كالمذكرات الشخصية .

والشيء المشترك الذي قد يثور التساؤل به في مواضع كثيرة ، منها هذا الموضوع ، هو ، كيف تسنى اتفاق شعر الصعاليك ، ووحدته أو تقاربه في منهجه وخصائصه ، مع اختلاف الصعاليك في أشخاصهم ، وبيئاتهم ، وعصورهم ؟ ونقول عن ذلك أنهم جمعهم المهنة الواحدة ، وهي الصعلكة ، والصعلكة متشابهة في دوافعها وأساليبها ، حيث يجمعها جميعاً أنها سلوك عدواني ، ومتشابهة في البيئة التي تصلح لمزاوتها من الصحراوات والجبال والمراقب ، ومتشابهة أيضاً في الأشخاص الذين يصلحون لمزاوتها فلا بد أن تكون في الصعلوك صفات معينة مما سبق الحديث عنه حتى يصلح للصعلكة ويقوى على مزاولتها ، والصعاليك يتفقون أو يتقاربون في هذه الصفات ، وبهذا نرى الصعاليك أشد الناس تشابهاً

أو تقارباً ، فى أشخاصهم وصفاتهم وبيئاتهم وأسلوب حياتهم ، مهما تباعدت
بينهم العصور ، أو نأت بينهم الأماكن .

ومن هذا أصبح شعرهم أشد الشعر تقارباً ، فى طابعه ،
وخصائصه ، وفى زوايا منهجه .



٤ - الذاتية :

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ومن كل ما سبق نجد أن شعر الصعاليك ذاتى ، ولكنها ليست ذاتية اصطلاحية ، كالتى يعرفها نقاد الأدب الغربى فى الرومانتيكية التى تعتمد فى مصدرها على الروحيات وفى كيانها على مشاعر الفرد ومبجحاته نحو الطبيعة والخيالات (١) ، والتى ضل فى متاهاتها الروحية والوهمية كثير من الشعراء والأدباء ، والتى ابتذل الأدباء فيها أنفسهم وأدبهم حتى ذابت ذاتيتهم نفسها فى صور من ابتذال منكر ، وضياح فى أجواء خيالات مختلفة متناقضة .

ولكن ذاتية الصعاليك شىء آخر ، فهى ذاتية حية متحركة ، وذاتية واقعية معقولة فى آن واحد . وفى كلا الحالين ، فهى ذاتية متميزة محددة ، لا تلتبس بغيرها ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد ، لأن طابعها لا يشيع فى أدب آخر غير أدب الصعاليك ، حتى يتخذ من الجميع مذهب أدبى وكما كان الصعاليك فى أشخاصهم وأسلوب حياتهم طابعاً فريداً بين الناس ، فكذلك شعرهم ، لا يعدو الحقيقة كثيراً من يقول أنه فريد فى طابعه وصبغته . وليس فى هذا المعنى بالذات نقد أدبى له ، أو حكم على مستواه من الوجهة الأدبية ، وإنما هو حكم على طابعه من حيث التميز لذاته ، بصرف النظر عن تقويمه والحكم عليه ، ولكننا من جهة أخرى نجد أن التميز لذاته فضيلة أدبية ، فمن الواضح أن أوضح مراتب الجودة فى الأدب ، بل وفى الانتاج البشرى كله ، هو التميز ، وأنه لا يصبح الأديب أديباً حقاً إلا إذا كان له طابعه المميز ، الذى يبعده عن التقليد ، وعن الذوبان فى فصيلته التى ينتمى إليها ، بل يسرى هذا الحكم على كل الانتاج الفنى ، سواء كان أدباً أو رسماً أو تصويراً أو غيره ، حتى الصناعة التى تنسم بالطابع الفنى ، لا يعتبر الصانع فيها صانعاً حقاً إلا إذا كان لصناعته طابعها المميز لها ، فإن نزل عن هذه المرتبة كان عاملاً وليس صانعاً .

ولكننا لا نعنى هذا المعنى الآن فى حديثنا عن ذاتية شعر الصعاليك ، وإنما نعنى أن ذاتيتهم كانت طابعاً مختصاً بهم ، لم يستوحه من نقد أو مذهب شعرى ، ولا من ثقافة البيئة واتجاهها الأدبى ، ولا من شىء آخر إلا حياتهم الشخصية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة .

(١) انظر كتاب فى الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ص ١١٠ - ١١٧ .

فالصعلوك يجعل نفسه فى شعره دائما صلب الحديث ، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه ، مشدود الى شخصه بخيوط واضحة ، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينه واضحة كل الوضوح ، فهو لا يتحدث عن شئ لذات هذا الشئ وإنما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشئ ، وقد اشرنا الى ذلك عند الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، حيث قلنا ان من أبرز ما يميز شعرهم عن غيره ، ان غيرهم من الشعراء يقلب عليه حين يصف شيئا أن يقف خارج هذا الشئ ، ثم يصفه وصف المشاهد المتفرج ، أما الصعلوك فلا بد أن يكون داخل هذا الشئ ، ولا بد أن تكون هناك علاقة بينه وبين هذا الشئ ، وأغلب ما تكون هذه العلاقة الصراع فى أى صورة من صورته بين الصعلوك وهذا الشئ. فحينما يصف الصعلوك مثلاً ليلة باردة مظلمة ، أو يوماً قانظاً شديد الحر أو مكاناً صعباً خشناً ، أو وحشاً من الوحوش ، لا يصفه لذاته ، وإنما يصفه من زاوية ما يعانیه فى علاقته بهذا الشئ ، وشعرهم فى الطبيعة كله يصلح مثلاً لذلك

وهكذا حين نتتبع موضوعات شعرهم وأغراضه ، نجد كل هذه الموضوعات والأغراض مشدودة الى أشخاصهم ومرتبطة بها ، فهم مثلاً حينما يتحدثون عن الفقر ، أو الجوع ، لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من وجهة الحكمة والفلسفة ، فيتحدثون مثلاً عن الفقر أو الجوع لذاته ، وأثره فى الناس وما ينتج عنه من شر أو أثر أو يدعون الى محاربته وعلاجه ، أو غير ذلك من الزوايا التى يتناول منها الشعراء ما يعرضون له من أمور ، وإنما يتناولونه من ناحيتهم هم ومن ناحية أثره فيهم ، واحساسهم به ، ووسيلتهم لعلاج ومقاومته كما يقول الشنفرى :

أديم مطال الجوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فأذهل (١)
والواقع ان التمثيل لا يبرز هذا الطابع فى شعر الصعاليك ، لان هذا الطابع ليس فى موضع بعينه من شعرهم ، ولا هو لدى شاعر مخصوص منهم وإنما هو طابع عام فى شعرهم ، نحسه بوضوح فى كل شعرهم ، ولدى جميع شعرائهم .

وأوضح ما فى هذا الطابع احساسنا دائماً بشخصية الشاعر من الصعاليك فى كل شعره ، ووراء كل تعبير من تعبيراته .

وإذا أردنا التعليل لهذا الطابع ، نقول ان أهم ما يمكن أن يعلل به هو طابع المذكرات الشخصية الذى تحدثنا عنه آنفاً ، فمن الطمعى أن تكون مذكرات أى شخص عن نفسه ذاتية ، وأن نحس بشخصيته فى كل ما يتحدث عنه فى هذه المذكرات .

(١) من اللامية : البيت المشروى .

٥ - الواقعية

يعرف نقاد الأدب الواقعية على أنها عدم خروج الأديب بأدبه عن دائرة الواقع المألوف الذى يآلفه الناس ، ويتفق مع معلوماتهم عن طبيعة الموضوع وتقابل الواقعية عندهم المثالية حيث يحلق الأديب فيها فى أجواء مثالية يتخيلها وتهفو نفسه الى تحقيقها ، كما تخيل المفكرون والأدباء منذ القديم مدنا فاضلة تخلو من الشر والفساد ، وتتسم فى جميع جوانبها بالخير الكامل الذى لا يعكره شر ولا فساد كمدينة أفلاطون الفاضلة كما تخيلها ، وكما تصور الأدباء فى قصصهم وأشعارهم نماذج من شخصيات تمثل المثل العليا فى الأخلاق التى يصفها الأديب ، من شجاعة أو عدل أو احسان أو غير ذلك من صفات الخير بحيث يكون تصور هذا النوع من الأدباء لهذه الصفات وحديثهم عنها فى أدبهم لا يمثل الواقع ، وإنما يمثل الأمانى التى يتمنون أن يروا هذه الصفات فيها وأحلامهم فى أن يروا مجتمعهم وقد سادت فيه هذه الصفات بالصورة التى تخيلوها .

فهذا النوع من الأدباء يسمى المثاليين ، وهم مقابلون للواقعيين الذين لا يسبحون مع الخيال المبعد ، ولا يصورون فى الناس ما ليس فيهم وإنما يصفون الواقع كما هو (١) .

وقد اختلفت نظرة النقاد العرب الى الواقعية من حيث تصورهم لها فى الصورة المثل التى توصف بالاعتدال والجودة ، ولم يضع نقاد العرب مصطلحات فنية للواقعية وما يقابلها من المثالية ، وإن كانت قد غلبت على أحاديثهم الفاظ. جرت مجرى الاصطلاح ، حيث يعبرون دائما عن الواقعية بالصدق ، ويعبرون عما يقابله بالغلو والافراط ، ويقرنون بالصدق الكذب فى الشعر ، ولكننا نحس انهم لا يجعلونه مقابلا للصدق دائما ، بل يختلفون ، فمنهم من يرى الكذب مقابلا للصدق ، وبهذا يكون الكذب رداء أدب عند هؤلاء ، ولكننا نرى بعضا آخر من النقاد العرب ، لا يجعل الكذب مقابلا للصدق بل يشعر بأنه يعنى بالكذب التصوير الشعري بما يشتمل من مبالغة وخيال ، فلا يكون الكذب بهذا مقابلا للصدق عند هؤلاء ، وإنما هو صورة من صور الواقعية والصدق الفنى ، وإن كانت صورة مجاوزة للوضع السليم عند الآخرين ، وهو الصدق (٢) ، وشعار

(١) انظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوى ٤٣٥ - ٤٤٥ وفى الأدب والنقد للدكتور مندور ١١٦ - ١٢٠ .

(٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٢/١ - ٢٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٦/١ - ٣٩ : أسس النقد السابق ٤٣٩ .

هؤلاء العبارة المأثورة « خير الشعر أكذبه » (١) ، وقد اختلفت وجهات نظر النقاد في القديم والحديث حول الواقعية ، وعلى الأخص حول الوضع الأمثل فيها ، فما الواقعية المثل التي تعتبر مقياسا يقاس به الأدب ويوزن به شعر الشعراء ؟ وإلى أي مدى يباح للشاعر الخروج عن الواقعية المثل إلى المبالغة أو الخيال ؟ وإلى أي مدى أيضا يباح للأديب والشاعر الدخول في الواقعية إلى ما يسمونه « أدب الكاميرا » ؟ الذي يعنون به الامعان في الواقعية حتى يصير الأدب صورة حرفية مباشرة للواقع .

والاجابة على هذه الأسئلة ظلت في القديم والحديث موضح خلاف ، وستظل أيضا موضع الخلاف ، لأن الأدب ليس أقيسة منطقية محددة لا تقبل الخلاف ، ولا هو أمر حسي لا تختلف عليه الحواس ، وليس الأدباء أيضا مصنعا يخرج سلعا ذات أوصاف محددة يحاسب الصناعات على تجاوزها .

وإذا نظرنا إلى واقعية شعر الصعاليك نجدها تتمثل فيما يأتي :

١ - شعرهم كله لا يعدو تصوير الواقع الذي يعيشون فيه ، وتصوير احساسهم بهذا الواقع ، ويكفي توضيحا لذلك ما قرناه آنفا من أن شعرهم يعتبر كالمذكرات الشخصية ، التي دون كل منهم فيها خواطره الواقعية ، في نطاق حياته ومعيشته ، وصلاته وصراعه مع ما حوله ومن حوله .

ولو رجعنا إلى كل الموضوعات والأغراض التي طرقها شعرهم ، لوجدناها جميعا تصورا لواقعهم الذي يعيشون فيه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعا فالموضوع واقعي ، وتصويره أيضا واقعي ، فمثلا قول أبي خراش يصور صراعه مع أعدائه ، واستفادته بموهبة العدو ، فيقول :

فان تزعمى أنى جبنست فأننى أفر وأرمى مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لى مقاتلا وانجو اذا ما خفت بعض المهالك (٢)

فقد علمنا من ذلك صفتين في أبي خراش ، انه بحسن القتال ، وانه عداء وقد كان يمكن أن يتخذ من الصفتين سبيلا للتصوير والخيال ، مبعدا بذلك عن الواقع والحقيقة ، ولكنه آثر أن يصور واقعه تصورا حقيقيا لا مبالغة فيه ولا خيال ، ولا مغالطة ، فوصف انه أحيانا يفر من أعدائه ، ولكنه فرار المقاتل لا فرار الجبان المذعور ، بدليل انه أثناء قراره يلتمس كل فرصة ليرمى فيها بسهامه ، ثم يقول انه يعتمد على الحكمة ، فحين يجد نفسه قادرا متمكنا ، يقاتل حتى يحطم القوة التي يقاتلها ، وحين يجد ان الموقف ليس لصالحه ، لا يعطل موهبة وهبها وهى العدو .

(١) انظر العمدة لابن رشيق ٢٢/١ .

(٢) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ .

والاحيمر السعدى يصور لنا نفسيته تصويرا واقعيا صادقا ، فمع انه كان حيثنذ قد تاب عن الصعلكة ، الا انه آثر الواقعية والصدق ، فى حديثه عن مشاعره كلما رأى قافلة من التجارة ، وكيف ان رؤيته للقوافل تبعث فى نفسه حنينا الى الصعلكة ، أو شيننا من حزن على فراقها حيث يقول من شعره فى ذلك :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحزن
فرب ثوب كريم كنت آخذة من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)
وكذلك يصدق الأعلم الهذلى ، فى واقعية صريحة لم يكن هناك ما يدعوه الى ابرازها لأنها فى خفايا نفسه ، ولكنها رغبة الصدق والواقعية ، حيث يصور كيف انه فى أثناء عدوه لينجو من الأعداء كان يخيل اليه ان الأعداء قد أخذوا عليه كل سنبل ، حتى ان الشجر الذى يمر به كان يحسبه أعداء يسلون سيوفهم عليه فيقول :

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستلال (٢)
وكذلك أيضا يصف لنا عبيد بن أيوب نفسيته وصفا واقعيا دقيقا لا يمكن اتهامه معه بغير الصدق لأنه وصف لا يفخر به ، حيث يقول :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر
فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشمرو
وخفت خليل ذا الصفا ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحذر (٣)

ويصف السليك بن السلكة حرمانه وبؤسه فى أشد أيام الناس خصبا وكيف انه حتى فى الصيف الذى يكثر فيه الخير عند الناس يبلغ به الجوع حد الهزال والضعف ، حتى انه اذا وقف اعتراه دوار فاطلمت عيناه ، فيقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشائى ظلال فاسدى (٤)

وهكذا نجد شعرهم دائما فى محيط الواقع من حيث الأغراض ، فلا يخلق موضوعات خيالية ، ولا موضوعات عامة لا تعنى أشخاصهم ، بل دائما نجد واقع كل منهم باعتبار شخصه هو وما يرتبط به ، سواء أكان يعنى غيره أم لم يكن من حيث اعتباره هو ، لأنه كما قلنا لا يظهر من شعر الصعاليك رغبتهم فى الشعر لذاته ، وانما الذى يبدو واضحا رغبتهم فى التعبير عن حياتهم واحساسهم بها ، وهذا الفارق النفسى بينهم وبين غيرهم من الشعراء فارق يتعلق بجوهر الاتجاه ، وتترتب عليه آثار كثيرة مهمة فى كثير من الموضوعات

(١) أمال القالى ٤٩/١ والزوامل الابل عليها احمالها والقطار الابل المقطورة .

(٢) ديوان الهذليين ٨٥/٢ والعرفط شجر والزوراء موضع والبوشك العجلة .

(٣) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ .

(٤) مجمع الأمثال ٩/٢ - ١١ وأسدف أدخل فى السدفة وهى الظلام .

والجوانب ، ومنها ما يعنيها الآن أن نقوله ، وهو أن من أسباب واقعيته عدم احترافهم الشعر لذاته ، حيث اقتصروا منه على تصوير حياتهم ومشاعرهم نحوها ، ولو قد عناهم الشعر لذاته من حيث احترافه وانتفرغ له والمباهاة به لكان من المتوقع أن يحاولوا طرق موضوعات مختلفة ، منها الواقعي ، ومنها غير الواقعي ، وأن يطلقوا خيالهم الشعري العنان في كل اتجاه ، وقد يكون من هذه الاتجاهات كثير من صور الخيال ومجافة الواقع ، خصوصا وإن قدراتهم الشعرية كما يبدو في شعر كثير منهم تهيم له القدرة على الخوض في أى مجال من مجالات الشعر ، وأى اتجاه من اتجاهاته ، ولو وقفنا وقفة تأمل مقارنين بين التزام الصعاليك الواقعية الكاملة والمثلى كما يراها نقاد العرب ، من حيث التزامهم الواقعية مجردة من المبالغة والغلو والافراط والخيال المبعد عن الحقيقة حيث يرى معظم النقاد العرب أن هذه الصور أهم ما يخل بالصدق والواقعية (١) لو نساءلنا لماذا التزم شعراء الصعاليك تحاشي هذه الاتجاهات المخلة بصدق الشعر وواقعيته ، ملتزمين المنهج الأمثل في الواقعية ، في الوقت الذي تكثر فيه صور الاخلاق بالواقعية المثلى في شعر شعراء معاصرين لهم ، من مبالغة وغلو وافراط وخيان غير واقعي النسج ؟

لو تساءلنا عن السبب في الفارق بين الاثنين لوجدنا أنه من الأسباب البارزة في هذا ، هو أن الصعاليك لم يحترفوا الشعر ، حتى يفرغوا كل جهدهم ويستفرغوا كل طاقتهم الشعرية في معان وأغراض يحاولون اكتسابها ، وإن لم تتح البيئة لهم استنفاد طاقتهم هذه ، خلقوا من خيالهم أغراضا يستفرغون فيها هذه الطاقة ، ولم يتفرغوا أيضا للشعر لينكبوا على تنميته واستقصاء تفريعات معنوية فلسفية فيه ، أو متابعة صوره حتى يبلغوا بها مراحل من الخيال والتصوير الشعري البحت ، كما تفرغ كثير من الشعراء لشعرهم وخاصة أصحاب الحوليات (٢) ، وكان من أوضح آثار عدم احترافهم الشعر لذاته وعدم تفرغهم له أو من أوضح أسباب هذا أيضا أنهم لم يتكسبوا بالشعر - سواء جاهلوههم ومسلموهم - إلا من شذ منهم كما قلنا .

٢ - والأمر الثاني الذي تتمثل فيه واقعية شعر الصعاليك ، أنهم بالإضافة إلى أن موضوعات شعرهم وأغراضه كانت واقعية بحتة ، كان تعبيرهم وتصويرهم لها واقعية بحتة أيضا ، ومن الواضح أن هناك فرقا بين الناحيتين فلا يلزم من كون الموضوع واقعية أن يكون تصوير الشاعر له وتناوله إياه واقعية ، فكثير من الشعراء قد يتناول موضوعا واقعية ، ولكنه يتخذ منه منطلقا

(١) أنظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ٢٣٥ - ٢٤٥ وأنظر المدة لابن رشيق أيضا ٢٢/١ إلى ٢٦/١ في بعض هذا .
(٢) من أشهر أصحاب الحوليات زهير بن أبي سلمى الذي كان يقضى في أعداد بعض قصائده حولا كاملا .

الى أجواء خيالية ، أو جوانب غير واقعية لا يربطها بالموضوع الا مجرد المقارنة أو نفسية الشاعر وعواطفه نحو كل منهما ، كما فى سينية شوقي التى قالها فى منفاه بالاندلس ، حيث جعل موضوعها الأساسى أطلال المجد العربى فى الاندلس ، ولكنه اتخذ من الموضوع مرتكزا للانطلاق الى مقارنات يستعرض فيها حاضر مصر ، ومجدها الفرعونى القديم بآثاره ، متحدنا عن خواطره فى رحلة البحر والسفينة ، وأغراض كثيرة يتعرض لها بجامع المقارنة ووحدة مشاعره نحوها

ولكن الصعاليك لا ينتهجون هذا المنهج فى واقعتهم ، وانما يلتزمون أن يكون الموضوع من واقع حياتهم ، ثم يلتزمون أيضا حدود الموضوع ، لا يخرجون منه الى نطاق آخر ، ويلتزمون أيضا الواقع نفسه فى تصوير الموضوع والتعبير عنه ، فكثير من الشعراء يجنحون أيضا فى تصويرهم للموضوع الواقعى الى صور خيالية ، كما شبه ابن المعتز الهلال بزورق عليه حمولة من عنبر ، ولكن الصعاليك لا يتعدون فى تشبيهاتهم وحتى فى خيالهم الصور الواقعية البحتة بمعنى أنهم حينما يريدون تشبيه شئ واقعى لا يشبهونه بشئ خيالى ، وانما يشبهونه بشئ واقعى أيضا ، كما فعل أبو خراش فى تشبيهه للقبر ، حيث شبه القبر البارز فوق الأرض بالبعير البارك فى قوله :

لعلك نافعى يا عمرو يوما اذا جاودت من تحت القبور (١)
اذا راحوا سوى واسلموني لحشناء الحجارة كالبعير (٢)

فالموضوع وهو القبر واقعى ، والمشبه به أيضا واقعى ، وهو الجمل البارك وحين نستقصى تشبيهات شعر الصعاليك وصوره الشعرية ، نجدها من صميم البيئة ، وفى أقرب حالاتها من الواقع والحقيقة المحسوسة فى حياتهم بل تبلغ واقعية الصعاليك اننا نرى المشبه به فى شعرهم - على عكس غيرهم - أقرب الى الواقعية أحيانا من المشبه نفسه ، حيث نرى أغلب الشعراء يحاولون أن يضيفوا على صورة المشبه به ثوبا من الخيال والرواق ، لأن الشاعر يعتبر المشبه به صنيعة وخلق هو ، وهو الواقع لأن الشاعر يأتى بصورة المشبه به من خياله وتصويره ليعبر بها عن شعوره نحو شئ واقعى يتحدث عنه هو المشبه ، فحين يريد الشاعر مثلا أن يصف زهرة ، أو أن يصف معركة ، تكون الزهرة والمعركة شيئين واقعيين ليسا من صنع الشاعر ، وانما الذى من صنعه هو الوصف والتصوير اللذان يتمثلان أحيانا فى تشبيه الزهرة والمعركة بأشياء أو بصور أخرى ، وهذه الأشياء والصور الأخرى من صنعه ومنسوبة

(١) ديوان الهذليين ١٣٦/٢ وعروة أخوه ومن بمعنى الذين يعنى اذا اكامت .

(٢) أسلموني يعنى تركوني يريد المشيعين لجنائزته وحشناء الحجارة يعنى حجارة القبر وأصله

لحجارة حشناء ، والبعير يعنى ظهر القبر كأنه بعير بارك .

اليه ، وهى فى الوقت نفسه مقياس وحكم على شاعريته ، ولذلك يجتهد كثير من الشعراء أن يلبسوها ثوبا شاعريا مزخرفا بما يستطيعون ، وما يروق لهم من خيال وصور ، ومن هذه الزاوية نجد المشبه به فى أغلب الأحيان وأن كان أوضح من المشبه فى المعنى الذى يريده الشاعر ، الا انه أبعد عن الواقع بسبب ما اكتنفته من خيال وتصوير كما أشرنا اليه من تشبيه ابن المعتز للهلل بزورق عليه حمولة عنبر

ولكن شعر الصعاليك غالبا ما نجد المشبه به فيه أقرب الى البساطة والواقع والالف من المشبه ، كما رأينا فى تشبيه أبى خراش للقبر بالبعير المبارك ، وكما فى تشبيه الأعمى الهذلى لنزع الضباع جلد الفريسة بنزع الحداد حلية جفن السيف ، فهم يالفون ان غمد السيف يوضع عليه غشاء موسى ليكون حلية له ، وحين يبلى هذا الغشاء ويخلق يذهبون به الى الحداد لينزع هذا الغشاء البالى ويضع مكانه غشاء جديدا محلى بالوشى ، فيشبه الأعمى نزع الضبع لجلد الفريسة بنزع الحداد لهذا الغشاء ، فيقول فى سياق حديثه عن الضباع :

يتزعن جلد المرء نزع القين أخلاق المذاهب (١)

ومن جوانب الواقعية فى الصورة ، مراعاة ما هو معروف عن الضباع من تتبعها للبحث والجيف ، مما يجعل صورة الأعمى عن نزع الجلد أعمق فى الواقعية والحقيقة ، فان نزع الجلد فى الحيوان وهو ميت أيسر منه وهو حي .

ويتأثر الشنفرى بالرنين الذى ينبعث من القوس حين ينطلق منها السهم فيشبه هذا الرنين الحزين بأبلغ صوت تعرفه البيئة فى الحزن ، وهو حنين الناقة على ولدها حين تفقده :

إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرؤة تكلى ترن وتقول (٢)

٦ - التجربة والصدق

التجربة والصدق اصطلاحان يترددان كثيرا فى النقد الأدبى .

ويعنى النقد بالتجربة الشعرية ، وضوح الصورة الشعرية فى نفس الشاعر ، وفهمه الكامل لجوانب موضوع شعره ، بمعنى أن يكون مدركا ادراك الاقتناع والفهم العميق لموضوع شعره ، ولا يقصدون بالتجربة ، التجربة

(١) ديوان الهذليين ٨٠/٢ والقين الحداد والأخلاق البالية والمذاهب المذهب .

(٢) من اللامية : والمرؤة كثرة الرزايا تصيبها معنى فقدما ولدها وتقول من المويل .

الحسية التي يتصور معها أن يكون الشاعر قد عانى الموضوع معاناة حقيقية واقعية ، فقد يكون الموضوع خيالاً ، وقد يكون واقعياً ولكن الشاعر لم يعانِهِ ولم يتصل به اتصالاً مباشراً ، بل قد يكون موضوعه تاريخياً في عصور غابرة ، ولكن ذلك لا يمنع من وصفه بالتجربة . فالذي يعنونه من التجربة أن تكون صورة الموضوع وعناصره وجوانبه ، وأسبابه وملابساته واضحة في نفس الشاعر ، مؤثرة في انفعاله كأنه عاها حقيقة واحتك بها احتكاك التجربة العملية (١) ويجعلون الصدق من مقتضيات التجربة الشعرية السليمة المقبولة في النقد ، بمعنى أن يكون الشاعر صادقاً في نقل التجربة الذهنية الماثلة في نفسه للناس ، دون أن يكون في ذلك مديارة أو التواء أو مجاملة ، ويجعلون الصدق الفني في نقل التجربة من النفس إلى الناس يتسم بالإيمان والاخلاص كإيمان الصوفي وإخلاصه لحقيقته ، فالشاعر يحتم عليه صدقه الفني أن ينقل تجربته على الصورة التي يؤمن بها ويعتقد بها دون مراعاة أي اعتبار خارجي ولذلك يخرجون من التجربة الشعرية شعر المناسبات ، لأنهم يرون الصدق الفني فيها غير كامل نظراً لتأثر الشاعر بظروف المناسبة وملابساتها (٢) .

ونقاد العرب الأولون لا يجعلون لفظ التجربة اصطلاحاً يتحدثون عنه وإن كان مضمونه يتردد كثيراً في نقدهم ، وأما الصدق فإنهم وإن كانوا قد اتخذوه اصطلاحاً إلا أنهم لم يضعوا له تعريفاً محدداً ، كشأنهم في معظم اصطلاحات النقد الأدبي التي رددوها في نقدهم ، وقد اختلف فهمهم للصدق في الشعر ، فأحياناً يرونه الصدق الذي يقابل الكذب ، وأحياناً يتحدثون عنه على أنه الصدق الفني الذي يشمل في التصوير الشعري المفع ، الذي لا يعارض التفكير والمنطق (٣) وحين نطبق التجربة والصدق على شعر الصعاليك ، نجد أن انطباقهما على شعر الصعاليك لا يكاد يماثل انطباق آخر

فأما عن التجربة ، فقد كررنا أن شعر الصعاليك في جملته لم يعد حياة الصعاليك ومشاعرهم نحو حياتهم ، في نطاق بيئتهم المحددة التي يعيشون فيها ، ولم يعنهم خارج هذا النطاق شيء ، وحين يتحدثون عن هذه النواحي التي عننتهم نجد أن حديثهم حديث المجرب تجربة حقيقية بما عاها وأحسه ، وبما يراه من حوله ، وقد قلنا في شعرهم عن الطبيعة أنه يمتاز بأنهم دائماً في الصورة وليس خارجها ، وأنهم يضعون أنفسهم دائماً موضع الجزء الأساسي من الصورة ، وليس موضع المشاهد المتفرج من خارج الصورة والمشهد . وإن ذلك يسرى على شعرهم كله بوضوح في كل موضوعاته وأغراضه .

وإذا كان النقد يشترط في الشعر التجربة ، ويجعلها شرطاً أساسياً في

(١) انظر النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٣٩٠ - ٤٠٠ .

(٢) المصدر السابق ٣٩٢ .

(٣) انظر أسس النقد الأدبي للدكتور أحمد بدوي ٤٢٦ .

تقبله ، فانه يكتفى بموقف المشاهد من خارج المشهد والصورة ، مادام المشهد أو الصورة واضحين في ذهنه ، فكيف بالشاعر اذا كان داخل المشهد ، وجزءا منه ، وعاملا من العوامل المحركة فيه ؟ وكيف يقول النقد عنه ؟ لاشك انه - من حيث التجربة - يكون هذا الشاعر قد بلغ قمة التجربة الحقيقية الواقعية وبالتالي يكون قد بلغ أقصى ما ينتظره النقد من شاعر ازاء التجربة ، بصرف النظر عن العوامل الأخرى التي تساهم في جودة الشعر ، وتدخل في عناصر الحكم عليه ، وكون شعر الصعاليك شعر تجربة حقيقية أمر لا يحتاج الى توضيح فحين نستعرض موضوعات شعرهم وأغراضه نفسها نجد لها موضوعات خاصة بهم من حيث انهم عانوها وصارعوا ظروفها ، قالفقر والجوع والهزال وتوقع الموت ، وقسوة البيئة ، بما فيها من عطش وجوع وخوف ، ومن حر وبرد وما الى ذلك . كل ذلك عاناه الصعاليك معاناة حقيقية ، ولذلك كان شعرهم عنه شعر التعبير عن ظروف وأحداث حقيقية في حياة أصحابها فحين يقول أبو خراش مثلا :

والى لاأوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي (١)

واصفا معالجته للجوع ، وموقفه منه ، فانما يعبر عن تجربة حقيقية عاناهما .

وحين يقول الشنفرى واصفا نعليه الباليتين ، اللتين لم تخصف خروقهما :

قليل جهازي غير نعلين استعقت صدورهما مغمورة لا تخصف (٢)

فانما يصف مشهدا حقيقيا يعاينه ويلابسه .

وحين يقول شبيب بن عمرو واصفا هروبه ونجاته من مطاردة جنود على رضى الله عنه :

ولما ان رايت ابني شهيط بسكة طيرة والباب دوني
تجللت العصا وعلمت اني وهين مخيس ان اذكر كوني (٣)

فانما يصور مشهدا حقيقيا تعرض له .

وحين يقول جحدر بن معاوية واصفا نفسيته وهيمه في سجن الحجاج :

تاوبني فبت لها كنيعا هموم ما تفارقني حواني
هي العواد لا عواد قومي اطلن عيادتي في ذا المكان (٤)

(١) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ وأثوى من الثواء وهو الإقامة والجرم الجسم معنى لم يدنس

عرشى .

(٢) مهذب الأغانى ٩٥/١ .

(٣) حساسة أبي تمام ٢٥٢/١ والصا لرسه ومخيس سجن .

(٤) أمال القائل ٢٧٧/١ .

فانما يصف نفسيته في تجربة حقيقية مر بها وعانها .
وأما عن الصدق في شعرهم فنقول :

ينبغي أولا أن نلقى نظرة على ظروف الصعاليك في حياتهم ، وعلى بيئتهم
أعنى نلقى نظرة على واقع الموضوعات والأغراض التي تعرض لها شعرهم
لنرى هل وصفهم يطابق واقع هذه الأغراض أم يخالفها ، وحينئذ نستطيع أن
نحكم عليهم بالصدق أو عدم الصدق .

وحيث نعود الى حديثنا عن ظروفهم وبيئتهم ، نجد أنها تتلخص في أنهم
كانوا فقراء فقرا أثر في أجسامهم ، وحدد سلوكهم ، ومن هذا التحديد الجأهم
الى سلوك الصعلكة في بيئة رهيبة بكل ما فيها ، وقد تميزوا بصفات من القوة
النفسية والجسدية أعانتهم عليها ، وانهم كانوا في شبه عزلة نفسية وواقعية
عن المجتمع ، وانهم حددوا صلاتهم الاجتماعية على أساس هذه العزلة ، ونظروا
الى الأمور ، وإلى الناس من زاويتهم هم ونفسياتهم ، هذه حقيقة الصعاليك
وهذا واقعهم . وفي مقام البحث عن مدى صدق شعرهم في التعبير عن هذه
الحقيقة ، وفي تصوير هذا الواقع نقول ان شعرهم عبر عن هذه الحقيقة ،
وصور هذا الواقع بكل صدق وأمانة ، فاما عن حقيقتهم ومعيشتهم فقد نقل
لنا شعرهم واقعهم فيها في صدق بالغ ، وأوضح دليل على ذلك أن واقع
الصعاليك في حياتهم لم يكن موضع فخر ولا مباهاة ، بل كان على العكس ،
مبورا مؤلة حزينة ، من الفقر والجوع والهزال ، وتمزق الثياب والتعال ،
والخرق والتوجس ، الى آخر ما مثلنا له كثيرا في موضعه مما سبق ، وليس
من شك في أنه لولا قوة شخصيات الصعاليك لحجل كثير منهم من أن يتحدث
عما من شأنه أن يفض من قدره في مجتمع يشيع فيه التفاهة بكل شيء ،
وبأدنى شيء . ومما لا شك فيه ان صراحتهم هذه في وصف ما يمكن أن يفض
من قدرهم تعتبر ناحية من نواحي قوتهم وشجاعتهم النفسية . فحين يصف
الشنفرى مثلاً حفاء قدميه ، وتمزق ثيابه ، وشعره الضافي الذي مر عليه نحو
حول لم يفصل ولم يفل ولم يقص لا يقول ذلك فخرا ، ولا يقول انه أصبح
بشعره ذا لبد كالأسد ، وانما يقوله واصفا حاله ومعيشته في عزلة الصحراء
دون موارد أو تضليل ، وللناس بعد ذلك أن يروا في ذلك ما يروا ، ولهم
أن يرفعوه في أعينهم أو يخفضوه ، ولكنه لا يعنيه من ذلك شيء وانما يعنيه أن
يكون صادقا مع نفسه ومع غيره ، فيقول بعد قوله انه يحفى ولا يتنعل ، وبعد
وصفه لردائه الأتحمي الممزق :

وشاف اذا هبت له الريح طيرت كائد عن اعطائه ما ترجل
بعيد بمس الدهن والفلي عهد له عبس عاف من الغسل محول (١)

(١) من اللامية : وشاف يعني شعره المتهدل وترجل. تمشط والمبس الوسخ ومحول من
الحول يعني لم يفصل منذ حول .

وهكذا شعرهم عن أنفسهم ومعيتهم وحتى نفسياتهم ومشاعرهم التي كان يمكن أن يخفوها آثروا أن يحدثونا عنها في صدق بالغ ، كما يقول صخر الغي مصورا فزعه حين فر عاديا من أعدائه لم يستطع حتى أن يودع رفيقه من الفزع ، فضلا عن أن يعينه ، فيقول :

وفريت من فزع فلا ابمى ولا ودعت صاحب (١)

وكما قال عبيد بن أيوب مصورا خوفه الذي سيطر على نفسه :

لقد خلت حتى لو تطير حمامة لقلت علوا أو طليعة معشر (٢)

وهكذا نجد الصدق في شعرهم يبلغ أقصى ما يتصوره النقد . وقد يقول قائل : فكيف بحديث الوهم عندهم ؟

ونجيب عن ذلك بأننا تحدثنا حقا عن الوهم في شعرهم ، من حيث أنه ورد في شعرهم وهم لا يعقل أن يكون واقعا ولا صدقا ، لأن موضوعه غير موجود أصلا ، كحديثهم عن الغول والسعال ، في معاشرتهم لها . ولكننا نرى هنا أن هذا الوهم لم يشع في شعرهم إلى درجة أن يكون ظاهرة بل حددنا أننا لا نعلم أن أحدا منهم صدر عنه هذا الوهم إلا شخصين عبيد بن أيوب ، وتابط شرا ، فأما عبيد بن أيوب فقد أكثر حقا من ذكر الوهم في شعره ، وأما تابط شرا فلم يتحدث عن الوهم إلا في حادثة واحدة زعم فيها أنه لقي الغول ، وانتهى أمره معها إلى قتله إياها . ومن الواضح أن انحصار معنى من المعاني في شخصين اثنين من طائفة ، لا يمثل هذه الطائفة ، بل يعتبر شذوذا لا يؤثر على الحكم العام بالنسبة للطائفة ككل ، والشذوذ لا يخلو منه حكم ، كما لا تخلو منه جماعة ، ومعنى هذا أن صدور الوهم الذي لا يتفق مع الصدق والتجربة من هذين الشخصين لا يؤثر على صفة الصدق والتجربة في شعر الصعاليك ، لأن هذا الوهم الذي صدر من عبيد وتابط شرا كان نشدا شديدا في شعر الصعاليك ، فلم يكن في شعرهم ما يماثله ، أو حتى يقرب من اتجاهه .

على أننا حين نعلم الظروف المحيطة بعبيد بن أيوب وتابط شرا ، وتأثير هذه الظروف في نفسيتهما وأعصابهما ، فقد تغير حكمنا على موقفهم من هذا الوهم لنقول إنه حق وصدق ، وليس كذبا واختراعا .

وذلك أن عبيد بن أيوب كما نجد في ترجمته وأخباره (٣) ، كان حين قال شعر الوهم قد خلعه قومه لجنايات جناها ، وطارده السلطان طلبا لعقابه

(١) ديوان الهذليين ٧٨/٢ .

(٢) الحيوان للجاحظ ٢٤١/٥ مع شعر آخر في المعنى نفسه .

(٣) أنظر ترجمته وأخباره ومراجعتها فيما سبق من فصل « الشعراء الصعاليك » .

على هذه الجنائيات ، فاضطر الى اللجوء الى الصحراوات وحيدا فريدا ، يعيناه
أشد الخوف من خلق قومه له ، ومن مطاردة السلطان ، ومن أعدائه أصحاب
الجنائيات التي جتاجها ، ومن الوحوش المحيطة به من كل جانب ، فسيطر عليه
رعب شديد . وخوف مهلك ، وقد عبر هو نفسه في صدق عن مبلغ خوفه في
شعر كثير يقول منه البيت السابق :

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو او طليعة معشر

ويقول منه « وخفت خليل ذا الصفاء ورأيتي » (١) ويقول منه :

اذقني طعم الأمن اوسل حقيقة على وان قامت لفصل بنائيا
خلعت فؤادي فاستنظر فاصبحت ترامي به اليد القفار تراميا (٢)

فهو يصرح اذن بأنه أصبح يرى في كل شيء عدوا ، وفي كل صوت
صبيحة عليه من أعدائه ، وأن الخوف الشديد ملك عليه نفسه وحواشه ومعنى
ذلك ان احساسه وادراكه لما حوله أصبح غير سليم ، بالاضافة الى أساطير
وخرافات عالقة بذهنه من أساطير البيئته عن الفيلان والسعالى والجن ، فتحت
وطأة هذا الخوف الشديد ، من المحتمل أن يكون قد تصور هذه الأساطير
خقائق ماثلة فيما يراه من الظلال والكهوف وأصوات الطيور وأشباح الحيوانات
فى الليل ، وبهذا لا يكون كاذبا فى دعواه عن هذه المخلوقات لانه تحدث
عما خيل اليه انه رآه وأحس به ، ولذلك آثرنا هناك أن نسمى هذا النوع
بالوهم ، لأن صاحبه فى الغلب الظن لم يكن كاذبا ولا مختلعا ، وانما كان
معبورا عما خيل اليه كحقيقة واقعة فى اعتباره .

والجاحظ يؤيد ذلك ، حيث انه بعد أن ساق شعرا كثيرا من شعر الوهم
لعبيد بن أيوب ، لم يتهمة بالكذب والاختلاق ، وانما علل ذلك بقوله « اذا
استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير ، وتفرق ذهنه ،
فراى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير أنه عظيم جليل » (٣)
وأضاف الى هذا التعليل قوله أيضا « ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به
انهم ليس يلقون بهذه الأشعار والأخبار الا اعرابيا مثلهم والا عاميا لم يأخذ
نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٤) ولكن
الدليل الثانى لم يسقه الجاحظ عن عبيد بن أيوب خاصة ، وانما ذكره فى مقام
الوهم فى الشعر من حيث هو ولذلك ذكر شعرا آخر لغير عبيد فيه مثل هذا
الوهم ، كشعر القتال التلابى ، ومهما يكن فالجاحظ فيما يسدو من حديثه

(١) حيوان لمجاحظ ٢٤١/٥ -

(٢) اشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م الغانجى .

(٣) الحيوان للمجاحظ ٢٥٠/٦ .

(٤) المصدر السابق ٢٥١/٦ .

لم يعتبره كذبا ، بل صرح بالنسبة لعبيد بن أيوب وكأنه يقدر ظروفه التي
أشرفنا إليها ، والتي صرح بها الجاسط في الدليل الأول ، إذا استوحش
الإنسان ٠٠ الخ ، صرح بالنسبة لعبيد في أكثر من موضع بأنه تصور حقيقي
كما في عنوان أحد الفصول ، شعر فيما يصوره الفزع ، (١) ثم ساق قول
عبيد السابق ، لقد خفت حتى لو تطير حمامة ٠٠ ، وفي عنوان آخر يقول
« مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن » ، (٢) وفي عنوان آخر يقول « ما يتصوره
الأعراب من عذيف الجنان تقول الغيلان » ، (٣) ومن هذه العناوين تأخذ أن
الجاسط لا يتهم عبيدا بالكذب والاختراع ، وإنما يحمله على أنه تصور حقيقي
ناتج من عامل الفزع وتأثير الأساطير في النفس .

وإذا تأبط شرا ، فانه وإن لم يكن خليعا ، ولم يتعرض لكل ظروف عبيد
ابن أيوب ، فقد عانى ظروف عبيد في وحشة الصحراء ومخاوفها العديدة وخوفه
من أعدائه الكثيرين الذين يتوقع بل يوقن أنهم سيقتلونه كما يقول عن نفسه :

ومن يفتر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٤)

ولكن هذه الظروف لم تبلغ من نفسه ما بلغت من نفس عبيد ، ولذلك
كان حديثه عن الأوهام دون حديث عبيد ، فان تأبط شرا كما قلنا لم يتحدث
من وهم إلا في حادثة واحدة زعم أنه قتل فيها الفول ، وقد قلنا أنه كان يمكن
أن يتصور أنه فعلا قتل وحشا غريبا من وحوش الصحراء طنه غولا ، لولا أنه
تحدث عن تفاصيل لا تترك مجالا للدفاع عنه كقوله عن الفول « وطالبتها
بضعها فالتوت » .

ونعود فنقول ، ان شدوذ شخصين من طائفة بأكملها لا يؤثر على الحكم
الناسم بالنسبة للطائفة ، على أنه يمكن حمل حديثهما في الوهم على أنه صدق
وليس كذبا ، وذلك باعتبار الزاوية التي علل بها الجاسط هذا الوهم ، من
حيث ان الإنسان اذا سيطرت عليه الوحشة وما يحيط بها من عوامل الخوف
والرهبة تمثلت أمامه أشباح وخیالات يظنها مخلوقات حقيقية .

ولكن الشيء الذي ينبغي ألا نغفله أنه حتى مع فرض عدم الصدق الخلقى في
هذا الوهم ، فلا شك أن فيها صورة من الصدق الفني والتجربة الشعرية كما يقرها
النقاد . لأن هذا الوهم يدل أول ما يدل على جو الرهبة والوحشة الذي أحس به
الشاعر وتأثرت به نفسه ومشاعره ، ومن هذه الناحية يعتبر حديث الوهم هذا

(١) الحيوان ٢٤١/٥ .

(٢) الحيوان ١٦٥/٦ .

(٣) الحيوان ٢٥١/٦ .

(٤) حسانة أبي تمام ١٨٩/١ .

تجربة شعرية صادقة من الوجهة الفنية ، بصرف النظر عن الصدق الخلفى الذى يقابل الكذب ، لأن هذا الجو الرهيب المخيف الذى عاش فيه اشاعر هو حقيقته واقعه وكونه عاش فيها وتأثرت بها نفسه يجعلها تجربة حقيقية . ونقله لهذه التجربة يعتبر من الناحية الفنية صدقا فى نقل مشاعر وأحاسيس ، وإلى هذا الحد يسبر شعراء الوهم غير مخلين بالتجربة والصدق ، أما ما بعد ذلك من التفاصيل (١) فهو موضع النظر ، واختلاف النظرة . واذن فشعر الوهم من حيث تصويره لجو رهيب مخيف يملأ النفس بأحاسيس الخوف والتصورات ، يمثل تجربة حقيقية ، ونقل الشاعر لإحساسه بهذا الجو وانفعالاته وإحساسه به فى جملته يعتبر صدقا فنيا ، وهذا القدر يكفينا دليلا على أن شعر الصعاليك كله بما فيه شعر الوهم يمثل تجارب حقيقية عاشها الصعاليك وتأثرت بها نفوسهم ومشاعرهم ، وكانوا صادقين صدقا فنيا بالغا فى نقل صورة تجاربهم حتى كأننا نعيش فى هذه التجارب ونحسها .

ولا نحب أن يصرفنا حديث الوهم عن الطابع العام والغالب على شعر الصعاليك ، فالواقع الذى لا ينازع فيه بين الدارسين لشعر الصعاليك أن شعرهم يمثل تجارب حياتهم الواقعية ، وأنهم قد نقلوا هذه التجارب على حقيقتها ، وكما أحسوا بها . وأن شعرهم بلغ فى الناحيتين أقصى ما يتاح لشعر فى تمثيل الواقع ، وأقصى ما ينتظره النقد من صدق التجربة ، وصدق الشاعر فى نقلها . حيث جعلنا شعر الصعاليك كأننا نرى حياتهم وظروفهم بأعيننا ، ونلمسها بحواسنا كما رأينا فى الحديث عن شعرهم كله فى مختلف الموضوعات والأغراض ، ونقاد العرب يرون فى هذه الصفة ميزة ترتفع بالشعر إلى قمة الجودة ، كما يقول ابن رشيق « وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثل عيانا للسامع ، وأحسنهم وصفا من أتى فى شعره أكثر المعانى التى الموصوف بها مركب فيها ، ثم بأظهرها فيه وأولاهها به ، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته ، وقال بعض المتأخرين أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا » (٢) والعبارة الأخيرة أصدق ما ينطبق على شعر الصعاليك . وإذا أردنا أن نناقش انحصار شعر الصعاليك فى حدود بيئتهم وحياتهم ، نقول أنه لم يكن ينتظر من مثلهم غير ذلك ، لأنهم لم يلحوا ببيئة غير بيئتهم ، ولم توسع آفاقهم ثقافة يطلون منها على مجتمعات أو معلومات غير مجتمعاتهم ومعلومات بيئتهم ، ولا يقلل من قدر شاعر أن تنحصر موضوعاته فى نطاق بيئته ومعلوماته ، وإنما يقلل من قدره كشاعر أن يقصر فى الموضوع من حيث استيفاء معلوماته وتطبيقها وأن يقصر فى قدرته على التصوير نفسه ، بمعنى أن تكون قدرته الشعرية دون الوفاء بالتصوير الجيد لموضوع شعره ، وقد عرف نقاد العرب منذ القديم أن الشاعر لا ينتظر منه أكثر من صور بيئته ومعلوماتها ، كما يقارن ابن رشيق بين شعراء البادية ، وشعراء الحضارة المحدثين

(١) أعنى بالتفاصيل ، تفاصيل ما دار بين الشاعر والمخلوقات الوهمية فيما يصوره الشاعر فى وهم عبيد بن أيوب .

(٢) السبعة لابن رشيق ٢٩٤/٢ - ٢٩٥ .

فيقول « وليس بالمحدث من الحاجة الى أوصاف الابل ونعوتها والقفار ومياهها وحمر الوحش والبقر والظلمان والوعول ، ما بالاعراب وأهل البادية ، والاولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان والكنوس والقناني والاباريق وباقات الزهر ٠٠٠ » (١) والنقاد والمحدثون يهتمون في حديثهم عن التجربة الفنية الحقة بمعنى يعنيها في الحديث عن شعر الصعاليك من حيث التجربة الشعرية ، فالنقاد يرون التجربة الفنية الحقة هي التي يتمثلها الفنان أو الشاعر لنفسه قبل أن يعنى بها إثارة غيره ، وكأنه حين ينسج مشاعره الفنية لا يعنيه أحد ، وإنما تعنيه نفسه ، ولا يقصد الى إثارة مشاعر أحد ، وإنما يقصد أولا الى اشباع شاعريته والى ارضاء مشاعره هو ، فإذا خاطب الناس بعد ذلك بفنه أو شعره ، فهو إنما يخاطبهم ليشاركوه في لذته الفنية ، ومتعته الشعرية ، فالتلعة الفنية واللذة الشعرية يقصد بها نفسه قبل كل شيء ، ويصرف فيها النظر عن كل مخاطب ، فإذا خاطب الناس بفنه أو شعره لم يكن يقصدهم هم في الحقيقة بهذه المخاطبة بمعنى أنه لم ينشئ فنه وشعره من أجلهم وإنما مجرد إشراكهم أو اطلاعهم على متعته الفنية وعلى مشاعره التي نسجها وصورها لنفسه ، وهذا المعنى تترتب عليه آثار كثيرة في منهج كل فنان وشاعر ، والنقاد يعتبرونه من حيث التجربة هو المقياس الحقيقي الذي يتفاوت به الفنانون والشعراء ، فيقولون عن هذا المعنى مثلا « وقد يوجه التعبير عن الشعور الى مخاطب ، ولكن هذا التوجيه لا يقصد منه إثارة شعور مماثل من الغير ، وإنما يقصد به أن يدرك فقط ما يحسه المتكلم » (٢) ويقولون أيضا « أما المرء الذي يعبر عن شعوره بحق فهو الذي يقف من نفسه ومن مستمعيه موقفا واحدا فيوضح شعوره لهؤلاء المستمعين توضيحه لنفسه سواء بسواء ، والأصل اذن هو تعبير المرء لنفسه عن نفسه ثم لمن يفهمه ، وهذا تفريق واضح بين من يعبر عن شعوره ، ومن يثير شعور الآخرين » (٣) .

وحين نعود الى ما قررناه غير مرة ، من أننا نحس دائما كأن شعراء الصعاليك لا يقولون شعرهم للناس ، وإنما يقولونه أولا لأنفسهم ، وأن شعرهم في هذا أشبه بالذكريات الشخصية التي يسجل فيها امرؤ خواطره ومشاعره ومشاهداته لنفسه ، حين نعود الى ذلك نجد أن شعر الصعاليك يمثل التجربة الشعرية في أصدق صور فنية ترجى من شاعر ، وفي أمثل مستوى شعري ينتظره النقاد من الشاعر إزاء التجربة الشعرية .

(١) المدة لابن رشيق ٢/٢٩٥ .

(٢) الأسس الفنية للنقد الأدبي للدكتور عبد الحميد يونس ص ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ .

٧ - الوحدة

من الملامح الواضحة في شعر الصعاليك ، والتي تميزه عن الشعر المعاصر له ، الطابع الخاص بوحدة القصيدة ، فبيئتها نجد الشعر العربي القديم يلتزم ما يسمى النقاد القدامى عمود الشعر ، وعمود الشعر يتفقون في فهمهم له - رغم اختلاف نظرتهم في تفاصيله - على انه التزام الطابع التقليدي المتوارث عن الشعراء القدامى ، سواء من حيث المطلع أو المعاني أو الألفاظ أو النواحي البيانية والبلاغية (١) بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع ومن بينه اشتغال القصيدة على عدة عناصر في أغلب الأحيان ، وفي مقدمة هذه العناصر الغزل في مطلع القصيدة ، ثم وظيف حال الشاعر غالبا ثم الموضوع الأساسي ، وما تستتبعه من عناصر ، وهذا الطابع معروف في الشعر العربي القديم .

نقول بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع نجد شعر الصعاليك يخالفه فيه مخالفة واضحة فبشعر الصعاليك مثلا يبدو ان نجد فيه بدء القصائد بالغزل كطابع تقليدي ، الا اذا كانت القصيدة نفسها غزلا ، فلا تكون حينئذ ذات مطلع ، لأن مطلعها وموضوعها واحد وهو الغزل ولو ذهبنا نستقضي شعر الصعاليك كنه لما وجدنا فيه قصيدتين أو ثلاثة يبدأن بهذا المطلع التقليدي في الشعر القديم ، وحتى بعض هذه القصائد القليلة التي بدأت بالغزل مع اشتغالها على أغراض أخرى ، يحدثنا الرواة بأن الغزل فيها حقيقي وليس مطلعا تقليديا ، كقصيدة عبدة بن الطبيب التي أولها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (٢)

فالرواة يذكرون في منبب هذه القصيدة أن عبده كان قد هاجر لمهاجرة خيلة له - وهي التي يتحدث عنها في القصيدة - فلما آيسته رجع الى البادية فقال هذه القصيدة ، فأول طابع تقليدي كان الشعر القديم يلتزمه وهو استهلال القصيدة بالغزل ، لم يكن شعر الصعاليك اذن يلتزمه .

ثم نذهب الى بقية جواهر الطابع التقليدي ، فنجد شعر الصعاليك لا يلتزمه ايضا ، بل يكاد يعارضه معارضة واضحة ، وذلك أننا نجد شعرهم لا يتجه الى طابع القصائد التي تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة ، وإنما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا لا تعدو تصويره ، أو تصوير جوانبه وملابساته المباشرة ، ولو أخذنا أطول قصيدتين وردا لنا من شعر الصعاليك ، وهما لامية عبدة بن الطبيب ولامية الشنفرى ، لرأينا أنهما مع طولهما ، ومع ما يبدو في

(١) انظر أسس النقد الأدبي عند العرب للدكتور أحمد بدوي ٥٣٥ - ٥٣٩ .

(٢) المفضليات ص ١٣٥ .

بعضهما من معان مختلفة ، يمثلان الوحدة في القصيدة بصورة تخالف الطابع التقليدي في الشعر المعاصر لها .

فأما قصيدة عبدة وهي ذات المطلع السابق ، وتبلغ واحدا وثمانين بيتا ، فالظروف التي أحاطت بإنشاء عبدة لها ، أن زوجه خولة رحلت الى المدائن ، وقد ذكر الرواة كما قلنا انه هاجر وراءها فلما أيسته رجع من المدائن التي شهد فيها وقعة القادسية ، الى باديته في الحجاز ، ثم قال القصيدة ، وحين نستعرض القصيدة نجد أنها على طولها لم نعد وصف الرحلة وسببها ، فتبدا بحنينه الى خولة ثم حلولها المدائن والكوفة ثم يعبر عن يأسه منها ، ونفض يده متخلصا الى حديث رحلته بقوله :

ان التي ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول
بعد عنها ولا تشغلك عن عهل ان الصبابة بعد انسيب تفضيل
بجسرة تعلة القين دوسرة فيها على الاين ارقال وتبغيل (١)

ويتخذ من هذه الأبيات تحللا من حديث خولة ، ومنطلقا لوصف الرحلة وبمقدار طول الرحلة كان وصفه لها أيضا ، فقد وصف من مطاياهم في الرحلة الناقة والفرس وصفا طويلا جميلا ، ووصف معيشتهم وحصولهم على الطعام أثناء الرحلة ، فوصف الصيد الذي يعتمد عليه مسافر الصحراء ، وكان الصيد الذي هز مشاعره صيده ثورا أبيض اللون يخالط قوائمه سواد ، ووصف الصراع مع هذا الثور ، ووصف الثور نفسه وصفا بديما ، كوصفه اياه وهو يعدو من مطاردة الصائد عدوا يثير التراب في كل وجه بكل قوائمه ، وقد نال منه الجهد حتى خرج لسانه مائلا عن شذقه فيقول :

مستقبل الريح يهفو وهو مترك لسانه عن شمال الشدق معدول
يخفي التراب باطلاف ثمانية في أربع مسهن الأرض تحليل (٢)

ثم يصف عبدة ما لقيه من البذخ والترف في بلاد العجم ، مصورا اياه في مجلس شراب بما فيه من بسط وستائر وتمائيل وسقا .

وهكذا نجد القصيدة كلها موضوعا واحدا هو وصف رحلة مقرونة بسببها ، مستعرضة أبرز المشاهد التي أثارت مشاعره في هذه الرحلة .

وأما لامية الشنفرى فهي جاهلية ، وعدتها ثمانية وستون بيتا ، والظروف المحيطة بها ، ان الشنفرى حين قالها لم يكن له وطن ولا اهل كما كان للناس

(١) المفضليات ١٣٦ والجسرة الناقة الصلبة والقين الحداد والعلة سندان الحواد والدوسرة الصلبة الضخمة والاين الأعياء والارقال والتبغيل نوعان من المشي السريع .
(٢) المبتترك المجتهد في المدور ومعدول مائل ويخفي بمعنى يظهر ويثير ، والثمانية لان في كل رجل ظلفين وتحليل من تحليل القسم .

فقد سبى من أهله فى أزد اليمن وهو صغير ، لينقل الى نجد أسيرا فيها ولم يلبث أن أحس الهوان والذل الذى يعيش فيه برارة لم تطقها نفسه ، وقتل ضاعف مسلك بنى سلامان فى اهانتته من احساسه بالذل والهوان ، فامتلات نفسه سخطا على الناس جميعا ، وآثر الصحراء بوحشتها ووحوشها وقسوة حياتها ومخاطرها على حياة الناس .

وحين ننظر الى اللامية نجدها لا تعدو تصوير هذه الظروف ، ولا تطرق أى غرض آخر خارج نطاقها ، فالقصيدة تبدأ باظهار سخطه على الناس ، وتصميمه الجامح على هجرة مجتمعهم كله الى الأبد حيث يقول فى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

ثم يبين الفوم الآخرين الذين آثرهم على الناس الذين هجرهم فاذا هم قائمة من الوحوش الضارية ، يرى فيها الأهل والأنس والفضيلة اللاتي افتقدن فى مجتمع الآدميين ، ثم يصف حياته فى الصحراء ، ومشاهده فيها من الذئاب الجائعة الباحثة عن الطعام مثله ، ومن النحل الحزين الصاحب لسطو آدمى على خلاياه مهدما إياها خلال جمعه العسل ، ويصف مناهج الصحراء ببردها الشديد فى الليل وحرها القانظ فى النهار ، وما يعائيه من عطش وجوع ، ويصف نفسه هو فى هذه الحياة ، فنراه ناحل الجسم يارز العظام ، مهلهل الثياب حافى القدمين ، ضافى الشعر الملبد الذى لم يرجل ولم يغسل منذ أمد بعيد .

وهكذا نجد اللامية لا تعدو قط حدود الظروف التي اقتضتها ، ولا تتعرض قط لغرض أو معنى خارج نطاق موضوعها ، كما لم تتعرض قصيدة عبدة ابن الطيب لغرض أو معنى يشذ عن نطاق موضوعها .

وإذا كانت هاتان القصيدتان وهما أطول ما وصلنا من شعر الصعاليك تمثلان هذه الوحدة الموضوعية التي لم يخل بها نشد فأولى بما دونهما طولا من شعر الصعاليك أن يكون ألزم للوحدة وأحرص عليها ، ولسنا نقول ذلك استنتاجا أو قياسا ، فالواقع أن طابع شعر الصعاليك كله يكاد يكون فريدا فى التزامه الوحدة فى أكمل صورها إذا قيس بالشعر المعاصر له ، وليس معنى ذلك اتهام الشعر المعاصر لشعر الصعاليك بمجافاة الوحدة كما يزعم كثير من النقاد المحدثين الذين أولعوا بترديدهم عبارة الوحدة العضوية ، متخذين منها سلاحا غير لين ولا مرن يحطمون به عن عمد أو عن غير عمد تراثنا العربى القديم .

ولم يصدر أولئك النقاد فى مهاجمتهم للقصيدة العربية فى وحدتها عن الدراسة وللتذوق والانصاف بقدر ما تأثروا ببريق النقد الغربى ومقاييسه

الحرفية الجافة للأدب ، وكان في مقدمه الذين نشروا هذا التشكيك في الشعر العربي حليل مطران (١) ، ثم تتابع من بعده عدد من هؤلاء ، في مقدمتهم أصحاب مدرسة الديوان التي حمل لواها المرحوم عباس العقاد ، ولست أريد ان اخوض في هذا الحديث الا بالقدر الذي يعيننا منه الان ، فاقول : ان هذه الدعوة كانت اترا مباشرا لتأثر هؤلاء الادباء بثقافة الغرب وأسلوب نفسه ، كما يصرحون جميعا بذلك ، وخاصة في مقارنتهم بين الأدب العربي والغربي وحديثهم عن تاريخ الوحدة العضوية في النقد الغربي ، وفي نظرة مجمله الى هذه الدعوة نراها تتضمن أمرين دوى خطورة بالسبب لأدبنا العربي .

١ - لم يراع أصحاب هذه الدعوة طبيعة الادب العربي وتدوقه وطابعه الفكري والخيالي واللغوي الخاص به ، ومهما يكن الأدب انسانيا أو عالميا فلا شك ان لكل أمة طابعها وأسلوبها ومنهجها الادبي الخاص . ولكن أصحاب هذه الدعوة في نشوة تأثرهم بالثقافة الغربية ارادوا ان يطبقوا كل شيء فيها على كل شيء في الثقافة العربية الشرقية دون مراعاة الظروف التاريخية والطبيعية في كل من المجتمعين مع انهم يعترفون ان الوحدة العضوية حتى في النقد الغربي انما نشأت بالنسبة للمسرحيات والملاحم وظلت حتى اليوم ، وأهم مجال لتطبيقها هو المسرحية (٢) كما ان الشعر الغربي يختلف في طابعه عن الشعر العربي ، مما يجعل لتطبيق الوحدة العضوية فيه اثرا ، وكذلك شعر المسرحيات ، والشعر القصصي (٣) في الأدب الغربي ، يتيح للوحدة العضوية ان تراعى فيه كما يتحدثون عنها ، ولكن أدبنا العربي في طابعه وأسلوب اتجاهاته وتكوينه لا يحتمل مثل هذه الدعوة الحرفية الجافة ، وموضع الخطورة في انها صدرت وانتشرت على يد افراد كانت ظروف المجتمع العربي الثقافية ، تجعل منهم قادة ليسوا لامعين فحسب ، بل وفي موضع القدوة التي تتحكم في توجيه الشباب وفي رسم الكثير من الخطوط الثقافية للمجتمع .

٢ - اذا كانت هناك أسباب كثيرة يعلل بها ركود الشعر العربي وضعف مستواه بصفة عامة في الفترة القريية فلاشك ان من بين هذه الأسباب هذه القيود الجافة التي أشاعها بعض نقادنا المحدثين وفي مقدمتها الوحدة العضوية كأصحاب الديوان ومن سار في فلكهم ، فمن اليسير ان نتصور الناشئين من الشعراء أمام دعوة كهذه ممن يعتبرونهم قادة لا يرقى الخطأ أو سوء التوجيه اليهم بين أمرين ، فاما أن يحاولوا النسج على منوال هذه الوحدة العضوية وما صاحبها من قيود وحرفية ، فيأتى شعرهم بعيدا عن روح الشعر العربي وحرية وانطلاقه في أجوائه الفسيحة التي ألفها ، واما أن يؤثروا العافية

(١) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي حلال ٤٠٦ نقلا عن مرجع آخر .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٠١

(٣) انظر المصدر السابق ٤٠٦

فيهجروا الشعر الى شيء آخر وقد كانت النتيجة أن أصيب الشعر العربي المعاصر تحت ضربات هذه الوحدة وقيود النقد الأخرى - بالإضافة الى عوامل أخرى - بضعف وثقل شديد في الحركة والانطلاق وفي مقدمة الذين تأثر شعرهم تأثرا ضاراً بهذه الدعوة ، أصحاب الدعوة نفسها ، فإن منهم من كان يمكن أن يكون شاعراً ذا قدم في الشعر ، وأن يكون شعره أرفع مما كان عليه بكثير ، لولا هذه القيود التي كبله بها باسم الوحدة العضوية وما أحاط بها ، حتى كان كثير منه أقرب الى البحث العلمي منه الى الشعر .

على أننا نلاحظ أن التأثير الشديد بنقد الغرب وأدبه لم يجرف كل الأدباء والنقاد العرب ، فمنهم من استطاع أن يحافظ على تذوقه السليم للأدب العربي منكراً مهاجمة الشعر العربي واتهام قصائده بمخالفاتها للوحدة ، كما صرح الدكتور طه حسين بذلك ، حيث يقول بعد أن عرض اتهام بعد النقاد للقصيدة العربية بالتفكك والاخلال بالوحدة ، مبنياً بقصيدة لبني « وإنما أقف معك عند قصيدة لبني » . وأتحدثك وأسألك أن تبين لي من أين يأتيها الاضطراب والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة إلا من الوزن والقافية . أمامك قصيدة لبني ، فأرني كيف تقدم فيها وتؤخر ؟ وكيف تضع فيها بيتاً مكان بيت دون أن تفسد معناها أفساداً ، وتشويه جمالها تشويهاً . أنها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئاً إلا أفسدت البناء كله ، ونقصته نقضاً . (١) كما أنكروا بعض النقاد أيضاً التسمية بالوحدة العضوية ، والزام شعروا العربي مضموها الذي يريدونه كالدكتور محمد مندور (٢) . ولكننا في الوقت الذي نكبر موقف هذا البعض من الأدباء والنقاد ، من حيث محافظتهم على الذوق العربي في أدبه ، وعدم تخليهم عن مراعاة طبيعة الفارق بين الأدب العربي والغربي في ذوقهما ومنهجهما ، في وقت كان يمكن أن يلتبس لبعض المتأثرين بشقافة الغرب ونقده بعض العذر ، من باب قول ابن خلدون « المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » (٣) في الوقت الذي نكبر فيه موقف أولئك في ذلك الوقت ، نجد من نقادنا المعاصرين من لا يزال يصر على متابعة هذه السبيل التي جنت على شعر أصحابها ، وعلى شعر مجتمعهم أيضاً من حيث المساهمة في أضعافه بل وعلى تراث العرب الشعري كله ، من حيث محاولة هدمه والتشكيك في مستواه وسلامته الفنية ، فلازال في نقادنا المعاصرين من يقول « فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال ، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها » على ما بين أجزائها من تنافر

(١) حديث الأربعاء ص ٣٠

(٢) الشعر المصري بعد شوقي ص ١٠٥ ، ١٠٦ سنة ١٩٥٨ نقلاً عن النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال ٤١٠ وما بعدها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ (هذه العبارة عنوان للفصل) .

يتنافى والوحدة العضوية في معناها الصحيح ، (١) وقائل هذا الكلام لا يكتفى بهدم الشعر القديم وحده ، وإنما يهدم كل ما جراه من الشعر الحديث ، حتى شعر شوقي كنفقه الهادم لسينية شوقي المشهورة ، حيث كان من نقده لها « فهي تسير على طريقة تقليدية محضة » وقوله « فنظام القصيدة تقليدي محض إذا تراءت فيه وحدة نفسية فلا وحدة عضوية له » (٢) ونقد كثير هادم لها من نواح أخرى ولكننا لا يعنيها النقد الموضوعي ، فليس لنا أن ننكر على ناقد اجتهد في النقد الموضوعي ، وليس لنا أن نسيء الظن به وإن أخطأ في هذا ، مادام ملتزماً بالمنهج الموضوعي الذاتي ، مترسماً طريق النقد الذي ينبع من تذوقه واحساسه ، ولكن الذي ننكره أن تجعل من مصطلحات النقد الغربي سيفا على تراثنا العربي وأن تلغي ذوقنا العربي لنضع مكانه ذوقاً واصطلاحاً أجنبياً تحكمه في تراثنا وأدبنا ، وإن نجعل من مجرد الطابع التقليدي في الأدب العربي سبباً في الأدب وحطاً من شأنه ، فلسنا نعيب على هذا الناقد أن ينظر إلى قصيدة شوقي هذه من أي زاوية يريد ، ولكننا ننكر عليه أن يركز حظه من شأنها ومحاولة هدمها على مجرد أنها سارت على الطابع التقليدي في الشعر العربي ، وكان هذا الطابع سبباً يجب أن ينأى عنها كل شعر ، وإن ينفر منها كل شاعر ، وقد يقال أن الطابع التقليدي قيد أثقل شاعرية بعض الشعراء في القديم والحديث ، وقد لا نتشدد في إنكار هذا القول ، ولكننا نتشدد كل التشدة منكرين أن يجعل هذا الطابع علامة على رداءة الشعر وجموده وهوان أمره ، بل ننكر مجرد ادخال هذا الطابع في نقد أي قصيدة ، فلنا أن نجعل حديثنا عنه مستقلاً ، هل أجدي هذا الطابع على الشعر العربي أم لم يجد ؟ ولكن ليس لنا أن نجعله لذاته نقيصة في أي قصيدة فقد تلزم قصيدة هذا الطابع ، ومع ذلك تبلغ قمة الجودة الشعرية ، وقد تجانب قصيدة أخرى هذا الطابع ، ومع ذلك تنزل إلى درك سافل في ميزان الأدب والشعر .

والعجيب أن يرى هذا البعض من النقاد أن هذه الدعوة إلى الوحدة العضوية قد أفادت الشعر المعاصر فائدة « بعيدة المدى » كما يقول « وكان لهذه الدعوة أثر ثوري بعيد المدى في إدراك الشعر ، وفي إدراك القصيدة بوصفها وحدة حية كاملة ، وفي السمو بموضوعها وغاياتها ، وفي صدق صورها وتأزرها جميعاً على الوصول إلى هدفها » (٣) ومعنى ذلك أن القصائد العربية لم تعرف السمو في الموضوع والغايات ، ولم تعرف الصدق والتأزر إلا بفضل هذه الدعوة ، وأنهم بمحاولتهم هدم مثل شعر شوقي ، قد رفعوا ما جاء بعده من الشعر رفعا « بعيد المدى » ولكننا نكتفي في الإجابة عن هذا كله ، بأن نسأل هذا البعض : هل حقاً تؤمنون بأن الشعر العربي كان وضعياً لم يسم

(١) هو الدكتور محمد غنيمي خلال في النقد الأدبي الحديث ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي خلال ٤١٠

الا بالوحدة العضوية الغريبة ؟ وهل حقاً تؤمنون بأن هذه الوحدة قد سميت بالشعر الحديث سموا بعيد المدى ؟ وهل حقاً تؤمنون بأن محاولتكم هدم مثل شعر شوقي ، قد بنت بعد شوقي شعرا خيرا من شعره وأسمى منه ؟

على ان التاثر بالثقافة الغربية وآراء المستشرقين كما لم يجرف كل أدباء ونقاد الجيل الماضى كذلك لم يندفع كل نقاد الجيل المعاصر فى هذا التيار ، بل نرى أن نقدنا يتجه الى الطريق العربى الاصيل (١) وان التاثر بالروح الغربية ونزعة المستشرقين أخذت تتضاءل فى مجتمعنا العربى ، وهذا ولاشك أثر مباشر من آثار استقلال الكيان العربى ، وشعوره بذاته وضعف نزعة التقليد التى عللها ابن خلدون فى نظريته السابقة ، فنجد ناقدا كالدكتور أحمد بدوى يعود الى الروح العربية فى النقد بقوة وعمق ، مبينا كيف ان القصيدة العربية مهما بدت مشتملة على أغراض وعناصر مختلفة ، فان لها أسلوبها فى ربط هذه العناصر واحكام وحدتها ، وان الذوق السليم لابد أن يحس بأن هذه الأغراض عناصر متحدة الغاية والهدف ، محقة للوحدة ، مستعرضا مواقف نقاد العرب القدامى الذين لم يفهم الحرص على الوحدة ، ولكن من زاوية الأفق الواسع ، والذوق العميق للروح العربية ، مشيرا الى اثر المستشرقين فى بث هذا التشكيك فى قيمة الأدب العربى حيث يقول « وهنا يحسن بى أن أشير الى ما شاع على الألسنة ، وما رددته كثير من المستشرقين من اتهام القصيدة العربية بخلوها من صفة الوحدة الفنية » (٢) وقد بين رأيه فى موقف المستشرقين ومن شايعهم من أصحاب الوحدة العضوية فى قوله « هذا الاتهام للقصيدة العربية ولنقاد العرب فيه ظلم بالغ وحيف كبير » (٣) .

والموضوع الذى أثار هذا الجدل حول وحدة القصيدة العربية ، هو ما شاع فى القصائد العربية ، من اشتغالها على أكثر من عنصر ، ومن ذلك استغلالها بالغزل ، ولو لم يكن موضوعها غزلا ، فيصبح المطلع عنصرا مستقلا يضاف الى ما فيها من عناصر أخرى ، وأوضح ما يكون ذلك فى قصائد المدح حيث يغلب اشتغالها على ثلاثة عناصر ، الغزل ، ثم وصف الرحلة الى المدح ثم ما قد يصحب ذلك من حكم أو نحوها وقد بين النقاد القدامى وفى مقدمتهم ابن قتيبة (٤) ثم المنصفون من الذين لم يجرفهم تيار المستشرقين فى الحديث ان ذلك لم يخل بوحدة القصيدة العربية ، وأصبح موقف الذين جرفهم تيار المستشرقين لا يمثل فى جملته نقدا موضوعيا للشعر العربى ، وانما عدا

(١) أنظر آراء واتجاهات للدكتور محمد نابل ٥٢ - ٧٥ .

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٢٢ وما بعدها منها الى مراجع أخرى .

(٣) المرجع السابق ٣٢٣ وما بعدها .

(٤) الشعر والشعراء ٦ .

سافرا وتنكرا شديدا لكل ما يحمل الطابع العربي من الشعر ، ولو بلغ حد الإعجاز الفني ، وكان الطابع العربي لذاته علامة في نظرهم كما قلنا على الرداءة والتفاهة ، ولا أظن ان هذا يصلح لسبيل النقد الموضوعي المنصف .

وكان لزاما انى أتعرض لهذا الحديث الموجز وحدة القصيدة ، لأبين أن الشعر العربي ، بما فيه الشعر المعاصر لشعر الصعاليك لم يخرج عن حدود الوحدة ، سواء فى نظر القدامى من نقاد العرب أم فى نظر الذين ظلوا عريبيى النقد والذوق والنظرة من المحدثين .

وعلى ضوء هذه النقطة ننظر الى شعر الصعاليك فنقول انه مع كون الشعر المعاصر لهم تمثل قصائده الوحدة التى يقتضيها الفن الشعرى ، الا أن شعر الصعاليك كان أبلغ فى تمثيله لهذه الوحدة ، حيا سلك منها منهجا أوضح وأعقب ، وكان له فيها طابع أكثر وضوحا وتميزا .

فقد قلنا انه حتى فى أطول قصيدتين بلغتنا من شعر الصعاليك كانت الوحدة بيئة محكمة فيهما ، وقد كان انتقال عبدة بن الطبيب من حديثه عن امرأته التى كانت سبب رحلته الى وصف الرحلة نفسها ، وكان ربطه بين المعنيين يمثل أبلغ ما يصفه النقاد العرب بحسن التخلص ، وقد تمثل تخلصه هذا البليغ فى الأبيات الثلاثة التى ذكرناها آنفا وصلبها :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ان الصبابة بعد الشيب تضليل

فقد جعل هذا البيت حدا فاصلا بين المعنيين ، ولكنه مهد له بالبيت السابق له ، كما تدرج منه الى المعنى التالى بالبيت اللاحق له ، فأصبح البيتان من حوله كالحبلين اللذين يربطانه بما قبله وما بعده .

ونقول انه اذا كانت القصائد الطويلة فى شعر الصعاليك تمثل الوحدة بهذه الصورة ، فان القصائد العادية والمقطوعات أظهر فى التزامها وحدة كاملة لا يثور حولها جدل ، ولا يستطيع حتى المستشرقون ومن اقتدى بهم من نفادنا الا أن يروا فيها أكمل ما يتحدثون عنه من أنواع الوحدة فى الشعر . لأن شعرهم كما قلنا خلا من التزام المطلق الغزلى ، وكذلك خلا من تعدد العناصر ، فنجد القصيدة أو المقطوعة منصبة على غرض واحد معين ، لا تمهد له فى الدخول اليه ، ولا تتعداه حين تدخل اليه ، ولذلك نجد المعانى التى بغلب أن تكون فى مقام الاستطراد كالحكمة غير شائعة فى شعر الصعاليك ، وقد نقرأ للشاعر القصيدة الكاملة ، بل وعددا من القصائد والمقطوعات فلا نجد فيها بيتا من الحكمة المقصودة ، أو الاستطراد ولو قريبا من المعنى ، ومن أبرز ذلك أن معظم شعر الصعاليك يمثل حوادث حقيقية فى حياتهم ، فنجد شعرهم فى هذه الحوادث مجرد وصف وتعبير عن الشعور ، بصورة مباشرة ليس فيها تمهيد أو استطراد ، وانما يكتفى الشاعر منهم بتصوير الحادث وأقصاه تعقيب

يمثل مشاعره نحو هذا الحادث ، وهذا النوع لا يحتاج الى تمثيل لأنه يمثل معظم شعر الصعاليك كما رأينا في شعر عروة عن قصة احتيال اليهود لسلبه زوجته ، وقصة أصحاب الكنيف ، وقصة غارة السليك على جوف مراد باليمن وقصائد الهذليين ومقطوعاتهم عن أحداث نجاتهم بالعدو ، وصور الصيد وراثهم لبعض رفاقهم وذوى الصلة بهم لكننا نجد حتى القصائد التي لا ترتبط بحادث معين ، لا تخرج قط عن موضوعها أيضا ، ولا تمهد له . فمثلا رائية عروة بن الورد وهي إحدى قصائده غير القصيرة ، إذ تبلغ سبعة وعشرين بيتا ، لا ترتبط بحادث مباشر ، وإنما يتحدث فيها عن اضطرابه الى حياة الصعلكة على ما فيها من أخطار وكل ما يتصل بالقصيدة من سبب أن زوجه كانت تكثر من لومه على المعاطرة بنفسه ، متمنية أن يستكين الى جوارها تاركا حياة التصعلك فيرد عليها بسخرية ثم عن الاصرار على عزمه ، والاستخفاف بتثبيطها قائلا :

أقل على اللوم يا ابنة مندر ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى (١)

ثم يتابع حديثه متصلا بصلب الموضوع ، وسبب اصراره على الصعلكة قائلا :

ذرينى اطوف فى البلاد لعلى اخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٢)

وأبياتا أخرى عما يضطره الى الصعلكة ، مقارنا بين الصعلوك - بمعنى الفقير - الحامل الكسول الذي يرضى لنفسه حياة الكسل والهوان ، والصعلوك الأبى الذي يقتصب عيشه ومنزلته بين الناس اغتصابا ، لأنه لا يرضى لنفسه شيئا مما رضىه زميله الذى اختار طريق الكسل والحمول والهوان مختتما القصيدة بالمنزلة الرضية لديه ، والتي أبلغته اياها صعلكته . وهكذا نجد القصيد غرضا واحدا لا يتشعب ولا يتعدد الجوانب . ونجد الطابع الغالب ، ان لم تكن الصفة الملازمة ، لكل شعر الصعاليك ان تكون القصيدة أو المقطوعة غرضا واحدا لا يتعداه الشاعر .

وهذا هو موضع التميز فى شعر الصعاليك عن غيره من الشعر العربى فبينما نجد الطابع الغالب على الشعر العربى تعدد العناصر فى القصيدة ، نجد شعر الصعاليك يختلف عن ذلك بأن الطابع الغالب عليه ، عدم تعدد العناصر وبينما كان تعدد العناصر فى القصيدة العربية موضوع جدل بين النقاد ، لا يحتمل شعر الصعاليك هذا الجدل ، لالتزام القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا ، وعدم تعدد العناصر فيها ، وبهذا يكون شعر الصعاليك محققا لوحدة

(١) الاصمعات ص ٣٦ .

(٢) أخليك يعنى أقتل فيخلى سبيلك وسوء المحضر يريد ذل الفقر والمراد أغنيك أو تراخى من فقرى .

القصيدية على اكمل وجه فنى ، سواء من وجهة نظر نقاد العرب القدامى ، ومن تابع نظرتهم من النقاد المحدثين ، أم من وجهة نظر النقاد الغربيين ، ممثلة فى آراء المستشرقين ، ومن تابع نظرتهم من نقادنا المحدثين . وسواء نظرنا الى الوحدة ، على أنها وحدة نفسية أو وحدة فنية ، أو وحدة عضوية ، فمن كل هذه الزوايا نجد شعر الصعاليك يحقق الوحدة فى قصائده ومقطوعاته فى اكمل صورها ، وفى طابع يتميز به عن غيره من الشعر العربى .

٨ - علم التزام التصريح

ومن السمات الواضحة فى شعر الصعاليك علم التزام التصريح ، فبينما نجد القصائد العربية يغلب عليها الطابع المعروف بالتصريح ، بمعنى أن يكون مصرعا البيت الأول من القصيدة متفقين فى الكلمة الأخيرة ، التى هى قافية القصيدة ، فالقافية الملتزمة فى اواخر أبيات القصيدة ، نجدها أيضا ملتزمة فى آخر الشطر الأول من البيت الأول .

ولكن شعر الصعاليك يخالف هذا الطابع ، فنجده لا يلتزم التصريح ، بل يغلب عليه كله خلوه من التصريح ، حيث نجد نسبة قليلة منه مصرعة أما الكثرة الغالبة فلا تصريح فيها ، ويمكن أن نفرق فى هذا بين القصائد والمقطوعات .

فأما القصائد التى تعتبر طويلة بالنسبة للمقطوعات القصيرة الكثيرة التى وردت إلينا من شعرهم فنقول ان هذه القصائد هى المقياس الذى ينبغى أن يكون محور الحديث ، لأنها لا يثور حولها الخلاف ، أو لا يقوى الظن بأنها مبتورة المطلع ، بمعنى ان المقطوعات القصيرة يمكن أن يقال انها كانت فى الأصل قصائد مصرعة ، ولكنها بترت ، ولم يصل إلينا منها الا هذا الجزء ، أما القصائد فلا يثور حولها فى جملتها هذا الاحتمال .

والقصائد التى وردت إلينا من شعرهم فيها أيضا هذا الطابع ، وهو غلبة عدم التصريح عليها ، فقليل منها مصرع ، والكثير لا يلتزم التصريح . ومن القليل الذى ورد إلينا مصرعا قصيدة عبدة بن الطبيب التى أولها :

هل جبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١)

وقصيدة عروة بن الورد التى أولها :

أقل على اللوم يا ابنة منذر ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى (٢)

(١) المفضليات ص ٣٦ وعدتها واحد وثلاثون بيتا .

(٢) الاصمعيات ص ٣٦ وعددها سبعة وعشرون بيتا .

- وقصيدة قيس بن الحداية التي أولها :
- أجيدك أن نعم نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع (١)
- وقصيدة الشنفرى التي أولها :
- ألا أم عمرو أجمت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت (٢)
- وقصيدة مالك بن حريم التي أولها :
- جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربيع الشباب فودعا (٣)
- وقصيدة تابط شرا التي أولها :
- يا عبد مالك من شوق وإيراق ومر طيف على الإهوال طراق (٤)
- وأما الكثرة التي وردت إلينا غير مصرعة من شعرهم ، فمنها لامية الشنفرى وأولها :
- أقيموا بنى أمى صلور مطيكم فأنى إل قوم سواكم لأميل (٥)
- ومن الكثرة غير المصرعة أيضا مرثية مالك بن الريب وأولها :
- ألا ليت شعرى هل ابينت لیسلة بجنب الغضا أزجى القلاص التواجيا (٦)
- وقصيدة جحدر بن معاوية التي أولها :
- تاوبنى فبت لها كنيعا هموم ما تفارقنى حوانى (٧)
- وقصيدة تابط شرا التي أولها :
- وقالوا لها لا تنكحيه فانه لأول فصل أن يلاقى مجمعا (٨)
- وقصيدتان أيضا لتابط شرا (٩) ، وقصيدة صخر الغى التي أولها :
- لعمر أبى لقد ساقه المنا إلى جدث يوزى له بالأهاضب (١٠)

-
- (١) الأغاني للأصفهاني ١٤٤/١٤ - ٦١ وعددها أربعة وأربعون بيتا .
- (٢) المفضليات ص ١٠٨ - ٣٦ بيتا .
- (٣) الاسمعيات ص ٥٧ وعددها أربعون بيتا .
- (٤) المفضليات ص ٢٧ وعددها ٢٦ بيتا .
- (٥) سبق نصها بعنوان مستقل - ٦٨ بيتا .
- (٦) سبق نصها (فصل الاختلاف فى شعرهم) وهي ٥٨ بيتا .
- (٧) أمالي القالى ٢٧٧/١ ، ٢٧٨ وهي ٢١ بيتا .
- (٨) حماسة أبى تمام ١٨٩/١ - ١٩١ وهي ١١ بيتا .
- (٩) انظر حماسة أبى تمام ١٧/١ ، ١٨ ، ٢٢/١ - ٢٤ وكل منهما ٩ أبيات .
- (١٠) ديوان الهذليين ٥١/٢ وهي ٢٤ بيتا .

وقصيدة حبيب الأعمى الهذلي التي أولها :

لما رأيت القوم بالعلياء دون قصدي المناصب (١)

وقصيدتان له أيضا بعد هذه القصيدة ، وكذلك معظم قصائد الهذليين كقصيدة أبي خراش الهذلي التي أولها :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٢)

والقصائد التي جاءت مصرعة في شعر الهذليين قليلة معدودة ، أما سائر القصائد فقد جاءت بدون تصريح ، مع أن معظمها واضح أنه لا يترقبه ، والمطلع ينبئ عن أنه المطلع الأصلي للقصيدة ، فقصائد الصعاليك معظمها آذن ورد إلينا بدون تصريح والقلة هي التي نجدها مصرعة .

وأما مقطوعاتهم القصيرة ، فهذه النسبة فيها أشد وأوضح ، فقليل جدا من مقطوعاتهم نجد فيه التصريح ، أما سائرها فبدون تصريح ، بل إن المقطوعات التي وصلتنا مصرعة تكاد تكون معدودة محصورة في بضع مقطوعات ، ومنها مقطوعة لأبي الطمحان القيني أولها :

أرقت وأبتنى الهموم الطوارق ولم يلق ما لا قيت قبل عاشق (٣)

وهي أربعة أبيات بل تجد فيها وصل إلينا من شعر أبي الطمحان بيتين مشهورين ، أولها مصرع ، وهما :

الا علاني قبيل نوح النوائج وقبل نشور النفس بين الجوانح
وقبل غد يا لهف نفسي على غد إذا راح أصعابي ولست برائح (٤)

ولكن هاتين المقطوعتين يبدو منهما بوضوح أنهما بدء مبتور من قصيدتين ، لم يصل إلينا باقيهما ، وهذا الاحتمال يمكن أن يوجه إلى سائر المقطوعات التي بلغتنا من شعرهم ، إلا ما كان أولها بوحى بأنه مطلع ، فنستدل منه على أنه لم يتر من أولها أبيات ، إذا تجاوزنا عن احتمال أن يكون قد بترت من آخرها أبيات ، كمقطوعة عروة بن الورد التي أولها :

أرى أم حسان الغداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف (٥)

وهي أربعة أبيات ، أو كانت الرواية تصرح بأن ما أوردته من شعر ليس مبتور الأول كما فعل الجاحظ في روايته لبعض شعر الصعاليك ، حيث يقول

(١) المصدر السابق ٧٧/٢ وهي ٢٣ بيتا .

(٢) المصدر السابق ١٤٤/٢ وهي ١٥ بيتا .

(٣) مهذب الأغاني ٢٧/١ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) حماسة أبي تمام ٣٣٨/٢ .

سبب تسمية مهلهل أخى كليب ، أن اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وأنه أول من قصد القصيد وأنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويروون أن عنترة « لم يكن يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة (٣) حتى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وأنه لا يقول الشعر » (٤) فقال القصائد بعد ذلك ، وأذن فليس من الصحيح تصور أن الشعر العربي كله قصائد كاملة ، وأن المنظومات لابد أن تكون مبتورة من قصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور أن القصائد العربية تلتزم التصريح ، وننتهى من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبه غير مصرع ، وهذه الأغلبية هي التي تعنيها بعدم التزام التصريح .

خصائص الشعر الجاهلي

ونجد في شعر الصعاليك الجاهليين بعض الخصائص التي يمتاز بها عن شعر صعاليك الاسلام .

وإذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فإن هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وإنما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الخصائص العامة ، ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الاسلام في هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهليين في أن ينوه بزياد الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه .

وهذه الخصائص التي امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام ، وعن غيرهم في بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانيه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعا لذلك

-
- (١) قيل اسمه على مرجحا .
 - (٢) خزانة البغدادي ٢٣/٢
 - (٣) خزانة البغدادي ٨٨/١

فليس معنى تمييز شعر الصعاليك بهذا الطابع أن شعر غيرهم التزم التصريح وانما الواقع أن التصريح غالب مجرد غلبة على القصائد العربية في غير شعر الصعاليك حيث نجد كثيرا من القصائد غير مصرع ، ومنها ميمية حاتم الطائي (١) وعمرية عوف بن الأحوص (٢) ، بل كثير مما جاء أطول من ذلك نجده أيضا غير مصرع ، كقصيدة الحصين بن الحمام الميمية (٣) ، ومثل يائية مزرد بن ضرار الذبياني (٤) ، وعينية متم بن نويرة (٥) ، ورائية المزار بن منقذ (٦) ، وكذلك الأمية كعب بن سعد الغنوي (٧) ، وميمية عمرو بن الأسود (٨) ، ورائية أعشى باهلة (٩) ، وواوية الأسعر الجعفي (١٠) ، وغير ذلك كثير من القصائد جاء غير مصرع ، ولكن هذه القصائد على كثرتها تعتبر قلة إذا قيست بمجموع الشعر كله ، وكذلك الوضع بالنسبة للمقطوعات التي وردت عن غير الصعاليك نجد الكثرة الغالبة فيها جاءت غير مصرعة (١١) .

ومن هذا كله نعلم أن عدم التصريح ليس خاصا بشعر الصعاليك ، فقد ورد عدد غير قليل من القصائد سواء للصعاليك أو غيرهم غير مصرع ، وورد عدد أكثر منه من المقطوعات للصعاليك ولغيرهم أيضا غير مصرع ، ولكن الفارق بين شعر الصعاليك وغيره في هذا فارق النسبة كما قلنا فبينما نجد الأكثرية من شعر الصعاليك جاءت غير مصرعة ، نجد الأكثرية من شعر غيرهم جاءت مصرعا .

على أننا نحسب أن نقول أن احتمال كون المقطوعات بترت من قصائد ، ليس الا مجرد افتراض عقلي ، وليس هناك ما يوجب قيام هذا الاحتمال بالنسبة لشعر الصعاليك ، فالمقطوعات شائعة فيما ورد إلينا من الشعر العربي كله ، سواء في الجاهلية والاسلام (١٢) ، وإن كان ما ورد منها من شعر الجاهلية أكثر مما ورد منها في شعر الاسلام ، ويؤيد هذا ما تنقله الروايات من أن الشعراء لم يلتزموا أو لم تغلب على شعرهم القصائد الكاملة الا قبيل الاسلام أما قبل ذلك ، فكان الشائع لديهم انشاء الأبيات والمقطوعات ، كما يروى في

- (١) خزاعة البغدادي ٢٩١/٢ وهي ٢٨ بيتا .
- (٢) المفضليات ١٧٣ وهي ٢٣ بيتا .
- (٣) المفضليات ٦٤ وهي ٤٢ بيتا .
- (٤) المصدر السابق ص ٧٥ وهي ٤٣ بيتا .
- (٥) المصدر السابق ص ٢٦٥ وهي ٥١ بيتا .
- (٦) المصدر السابق ص ٨٢ وهي ٩٥ بيتا .
- (٧) الاصمعيات ص ٧١ وهي ٢٧ بيتا .
- (٨) المصدر السابق ص ٧٧ وهي ١٧ بيتا .
- (٩) المصدر السابق ص ٨٩ وهي ٣٣ بيتا .
- (١٠) الاصمعيات أيضا ص ١٥٧ وهي ٣٠ بيتا .
- (١١) انظر للمثال المفضليات والاصمعيات .
- (١٢) انظر المصدرين السابقين .

سبب تسمية مهلهل أخى كليب ، أن اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وإنه أول من قصد القصيد وإنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويرون أن عنترة « لم يكن يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة (٣) حتى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وإنه لا يقول الشعر » (٤) فقال القصائد بعد ذلك ، وأذن فليس من الصحيح تصور أن الشعر العربي كله قصائد كاملة ، وأن المنطوعات لابد أن تكون مبتورة من قصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور أن القصائد العربية تلتزم التصريح ، وننتهي من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبه غير مصرع ، وهذه الأغلبية هي التي تعنيها بعدم التزام التصريح .

خصائص شعر الجاهلي

ونجد في شعر الصعاليك الجاهليين بعض الخصائص التي يمتاز بها عن شعر صعاليك الإسلام .

وإذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فإن هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والإسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الإسلام فحسب ، وإنما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الخصائص العامة ، ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الإسلام في هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهليين في أن ينوه بمزاياه الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه .

وهذه الخصائص التي امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الإسلام ، وعن غيرهم في بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق إلى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الإسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانيه المسلمون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعا لذلك

(١) قيل اسمه عدى مرجحا .
(٢) خزائن البغدادي ٢٣/٢
(٣) خزائن البغدادي ٨٨/١

فشدة الجوع التي عاناها صعاليك الجاهلية أكثر من الاسلاميين ، جعلتهم أزم للصحرء ، وأحرص على حياتها طلبا لضحاياهم فى الصعلكة ، وطلبا للصيد ، وكل الوسائل التي تصد عنهم هذا الجوع المهلك ولزومهم للصحرء والجبال نتج عنه مقدرتهم الفائقة على تصوير هذه البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومن مخلوقات فبالإضافة الى انفرادهم بتحديث الجوع ، نجد انهم انفردوا بالقدرة الفائقة على تصوير البيئة بكل ما فيها من مشاهد ومخلوقات ، ونتج عن ملازمتهم للصحرء أيضا دقة الحس ودقة الملاحظة وليس بالغريب أن تكون ملازمة الصحرء مرهفة للحس ، منمية لدقة الملاحظة ، فلو قارنا بين شخص يعيش فى بيئة كثيرة المخلوقات والحركة وشخص يعيش فى بيئة ساكنة قليلة المخلوقات والحركة ، لتبيننا الفارق ، فالشخص الذى يعيش فى البيئة المتحركة كثيرة المخلوقات ، كالمجتمعات مثلا ، لا تجد حواسه الوقت الكافى للتركيز والملاحظة الدقيقة أمام مناظر ومشاهد كثيرة دائمة الحركة . من أناس مختلفين وحيوانات مختلفة ، وطيور متنوعة ، وحركة دائبة ، وأصوات متعددة ، لا يكاد يصره أو حواسه تستقر على شئ حتى تنتقل الى شئ آخر ، فلا تجد فرصة للتركيز على شئ يعينه لفحصه وتمحيصه ، أما الشخص الذى يعيش فى بيئة ساكنة قليلة الحركة كالصحرء ، فقلما تتغير أمامه المشاهد وقلما يسمع الصوت . فبين الفينة والفينة ، قد يرى حيوانا ، فتجد حواسه وقتا كافيا لفحصه بدقة ، ومتابعة حركاته ، وما يصدر عنه من صوت أو مسك لأنه ليس أمام الحواس مشهد آخذ يصرفها عنه ، وكذلك بالنسبة لرؤيتها سحابا أو مطرا أو مشهدا معينا ، أو سماعها صوتا لحيوان أو زعد أو غير ذلك ، ففى كل ذلك تكون الحواس متفرغة كل التفرغ لمتابعة هذا الشئ وملاحظة خصائصه وحركاته ، ولعل هذا أوضح تعليل للقدرة الفائقة الواضحة التي تميز بها شعر الجاهلية فى وصف الطبيعة ومشاهدها وفى دقة الملاحظة العجيبة فى الأشياء والحركات والأصوات الدقيقة التي برغ فيها شعرهم ، ومن هذا نجد أن هذه الأساليب قد أنتجت مزايا معينة فى شعرهم كما سيأتى .

وكذلك نجد أن مما ساهم فى هذه الخصائص ، بعض المزايا التي امتاز بها صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فى صفاتهم الشخصية ، وأبرز هذه المزايا العدو . حيث قلنا ان سرعة العدو كانت شائعة فى صعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، وسرعة العدو وان كانت مرتبطة أيضا بملازمتهم للصحرء الا أنها أنتجت فى شعرهم موضوعات خاصة بالإضافة الى مساهمتها فى الموضوعات التي أثمرتها ملازمة الصحرء ، ومن الموضوعات الخاصة التي أنتجت سرعة العدو شعر العدو نفسه فى تصويره للعداء ، ولطريقة عدوه ، والمواقف التي يتعرض لها ، وكذلك شعر الحيلة ، حيث نجد ما ورد فى شعرهم من الحيل وصورها وأحداثها مرتبطا بالعدو .

وهناك بعض الخصائص التي اتسم بها شعر صعاليك الجاهلية ، قد

تساهم هذه الأسباب فيها أو لا تساهم ، كصنعة الألفاظ وغرابتها في كثير من شعرهم ، وكالاستدراك القصص الذي يبدو في بعض شعرهم . ونعود فنكرر أن المقارنة الرئيسية في هذه المزايا ليست بين شعر الصعاليك وغيره من الشعر كما سبق في المزايا العامة ، وإنما بين شعر صعلاليك الجاهلية ، وصعلاليك الاسلام بصفة خاصة ، إلا ما قد يكون متميزاً عن شعر صعلاليك الاسلام وغيره من الشعر عامة ، فنشير إليه في موضعه .

وأوضح هذه الخصائص ما يأتي :-

١ - انفراده ببعض الموضوعات

يمتاز شعر صعلاليك الجاهلية بأنه طرق موضوعات بدت فيه واضحة ، في حين لم تظهر هذه الموضوعات بهذه الصورة في شعر صعلاليك الاسلام ، وأهم هذه الموضوعات ما يأتي :

١ - الجوع : (١)

قلنا ان الحديث عن الفقر كان شركة بين صعلاليك الجاهلية والاسلام ، وان تفاوتت درجة الحديث عنه ، وكذلك تحول الأجسام وهزالها ، وان اختلفت درجته أيضاً ، ولكن حديث الجوع انفرد به صعلاليك الجاهلية ، كما رأينا من صور الجوع العنيف المضنى الذي صورته الشنفرى وأبو خراش وتأبط شرا ، والسليك بن السلعة (٢) وقد أشرنا الى انفرادهم بحديثه ، وأن سببه اختلاف المستوى الاقتصادي والمعيشي للمجتمع في كل من الجاهلية والاسلام ، واختلاف ما تدره - تبعاً لذلك - أعمال الصعلكة على أصحابها ، ونستطيع أن نقول ان الحديث عن الجوع بهذه الصورة انفرد به صعلاليك الجاهلية عن غيرهم من الشعراء على الإطلاق ، سواء كانوا من الصعلاليك أو غيرهم .

٢ - العدو :

وقلنا أيضاً ان ظاهرة العدو لم توجد في صعلاليك الاسلام ، ولكنها تبدو بوضوح في صعلاليك الجاهلية ، وخاصة الهذليين ، حيث كان معظم هذيل من

(١) انظر فصل الجوع من هذا الكتاب .

(٢) مشهور بلقب عمرو ذي الكلب

العدائين . ومنهم من الشعراء الصعاليك أبو خراش وصخر الفى وحبيب العلم ،
ومن غير الهديين جار هديل عمرو بن عجلان (١) ، والشنفرى وتابط شرا
وعمر بن برفة وحاجز الأزدي ، وقد رأينا شعرهم فى موضعه (٢) ، وأشرنا
الى أن ميزة العدو انفرد بها صعاليك الجاهلية عن الاسلاميين ، وأن كانوا لم
ينفردوا بها عن معاصريهم من الجاهليين .

٣ - الحيلة :

والحيلة مسلك من مسالك الحياة لا ينفرد بها الصعاليك عن غيرهم .
ولكننا حين نقارن بين شعر صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام عنها ، نجد
أن شعر الجاهليين هو الذى اتخذها حديثا ، ومرد ذلك أن شعرهم لم يتحدث
عن الحيلة من الوجهة النظرية أو الخلقية ، وإنما تحدث عنها فى أحداث حقيقية
مرت بهم ، تتلخص فى وقوعهم فى مأزق ، لم يكن فيها مفر من الموت ، ولكن
شيئا واحدا أنجاهم من الموت المحقق هو العدو ، فحدث شعرهم عن الحيلة اذن
ليس حديثا نظريا أو خلقيا ، وإنما ارتبط بأحداث معينة مرتبطة أيضا
بالعدو ، ولذلك نجد الذين تحدثوا عن الحيلة كانوا من العدائين ،
كأبى خراش ، والسليك ، وتابط شرا ، وكان حديثهم عن أحداث معينة استعانوا
فيها بالعدو ، ولم يكن العدو من صفات صعاليك الاسلام ، ولذلك لم تترتب
عليه أحداث الحيل التى ذكرها صعاليك الجاهلية فى شعرهم .

٤ - الطبيعة :

ونعنى بشعر الطبيعة ، شعر البيئة الطبيعية بمشاهدها ومخلوقاتها ، ولبننا
نعنى مجرد ذكر المشاهد والمخلوقات ، فذلك القدر لا يكاد يخلو منه شعر شاعر
فلا يكاد يخلو شاعر من أن يشبه شيئا بالبرق مثلا أو الغمام ، أو الليل أو الشمس
أو بحيوان من حيوانات البيئة الطبيعية فلسنا نعنى ذلك أو نحو ذلك ، وإنما نعنى
اتخاذ المشهد أو المخلوق أو غيرهما من محتويات البيئة الطبيعية غرضا بحيث يبرز
فى صورة واضحة محددة ، وهذا المعنى يمتاز به شعر صعاليك الجاهلية عن
زملائهم الاسلاميين .

وأقوى شعر أبرز لنا صورا تكاد تكون مجسمة واضحة المعالم عن الطبيعة
ومشاهدها شعر الهذليين وشعر الشنفرى ، حيث نجد فى شعرهم هذه الصور

(١) انظر فصل العدو من هذا الكتاب .

(٢) انظر فصل الحيلة .

عن كل شيء في بيئتهم ومشاهدها ، كما رأينا من صور صخر لغى عن الوعول وحياتها وعن حمر الوحش وصراعه معها ، وعن الطيور الجوارح ، وعن الحماة وحواره معها وعن السحاب والمطر (١) وكذلك شعر الاعلم عن السحاب وعن النعام وعن الضباع (٢) وكذلك قصائد أبي خراش وما فيها عن حمر الوحش والجراد والعقاب ، وعن غروب الشمس والظلمة والمطر (٣) وكذلك شعر الشنفرى حائل بصور الطبيعة ومشاهدها وبخاصة اللامية (٤) ، ولكن الذى يلفت النظر أننا نجد أقوى وصف للطبيعة ومشاهدها ومخلوقات ما نجده في شعر العدائين ، ولعل مرد ذلك الى ملازمتهم للصحراء كما قلنا ، وسرعة تنقلهم مما يتيح لهم تعدد المشاهد .

ب - القصص والتصوير

وانما فرقنا بين القصة والصورة في هذا العنوان ، لأننا لا نرى ما يراه بعض الباحثين من أن الصور الشعرية التي وردت في شعرهم تعتبر قصصا ، وأن تمثيل شعرهم لأحداث حياتهم وصلكتهم يعتبر قصصا (٥) ، فقد يكون هذا نوعا من التصوير الفنى ، وقد يكون مبادئ قصص ، ولكننا لا نرى فيه معالم القصة الفنية بمعناها الذى يعرفه الفن والأدب ، فالقصة لها اطار ، ولها خطوط أساسية ، ولا نستطيع أن نطلق اسمها على موضوع أدبى الا اذا استوفى المعالم والخطوط الرئيسية فى مفهومها على الأقل ولذلك آثرنا أن نفرق بين التصوير الأدبى ، والقصة الفنية ، على أن فى شعر الصعاليك ما هو أقرب الى القصة وأوضح فى مفهومها فأولى أن نستشهد به عند حديثنا عن القصة فى شعرهم وعلى أساس هذا التفريق نتحدث عن كل منهما فنقول .

١ - الاسلوب القصصى :

يشيخ بين الباحثين أن أول من استعمل اسلوب القصة امرؤ القيس فى لامبته التى يصور فيها قصته مع عشيقته ، والتى يقول من قصته معها :
نقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرا القيس فانزل
ويرى بعض الباحثين الذين تحدثوا عن عمر بن أبى ربيعة أنه خير من

(١) انظر ديوان الهذليين ٥٢/٢ - ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٧٨/٢ - ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ١١٧/٢ - ٤٥ .

(٤) انظر فصل الطبيعة من هذا الكتاب

(٥) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ - ٢٨٠ .

استعمل القصص في شعره وذلك في رائيته التي تحدث فيها عن قصصه مع
العمشقة التي طلع عليه الصباح عندها فدمشت ، ثم استعانت باختيها ، ثم
أخفينه بينهما حتى خرجن به من الحي ، تكن كالمجن له ، كما قال :

فكان مجنى دون من كنت اتقى ثلاث شخص كاعيان ومصر

والواقع أن الدارس لشعر الصعاليك لا يشك في أن الذين استعملوا القصص
في الشعر العربي ، بل والذين وصلوا إلى مستوى القصص الشعرية الكاملة
بمفهومها الفني في شعرهم ، هم الصعاليك ، وأن هذا النهج هو وجه من الوجوه
من تأسس لكان للقصص في الشعر العربي شأن غير ما كانت عليه .

ونضرب مثالا للمستوى الذي وصلت إليه القصص في شعر الصعاليك ،
بقصة قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية مع ابنة عمه نعم بنت ذؤيب ، كما
سجلها في شعره ، ولكننا لكن نعلم فضله على امرئ القيس في هذا المجال ،
وكذلك سبقه وفصله على عمر بن أبي ربيعة ، نقول أن قصتي امرئ القيس وعمر
ابن أبي ربيعة المشار إليهما ، لا يمثلان قصة فنية ، وإنما يمثلان موقفا أو مشهدا
من قصة ، وإن كان ابن أبي ربيعة أقرب إلى القصص من مشهد امرئ القيس ،
وسواء أكانا مشهدين أم قصتين ، فإن ما ينقصهما من القصص أكثر من هذا ، وهو
النواحي الفنية المعروفة في القصص ، أما قصة قيس بن منقذ ، فقد راعى فيها كل
الخطوط الأساسية للقصص الفنية من نواحيها النفسية ، ومن جوانب الوصف
ومن الحوار ، ومن جو القصص وروحها ، وقد سجل قصته هذه في قصيدة طويلة
نحتزى منها هذه الأبيات التي تمس صلب القصص ، لنرى منها إلى أي حد بلغ
شعر الصعاليك الجاهليين بالقصة (١) :

قد اقتربت لو أن ذلك نافع
نوالا ولكن كل من ضن مانع
فما نولت والله راء وسامع
على عجل أيا من سار راجع
وشحط النوى إلا لذي العهد قاطع
ويسترجع الحي السحاب اللوامع
لتنجو إلا استسلمت وهي ظالع
لها نظر نحوى كنى البث حاشع
فريب فكالوا بل مكانك نافع
ورصفه واش من القوم راصع

أجذك أن نعم نأت أنت جازع
قد اقتربت لو أن في قرب دارها
وقد جاورتنا في شهور كثيرة
وقلت لها في السر بيني وبينها
فقال لقا بعد حول وجبة
وقد يلتقي بعد الشتات أولو النوى
وما أن خدول نازعت جبل حابل
باحسن منها ذات يوم لقيتها
فقلت لأصحابي اصطلوا النار أنها
بكت من حديث بشه وأشاعه

(١) وظروف القصص أن قيسا يحكى ما دار بينه وبينها من حوار وأحداث ورداع في ليلة
سفرة ، واصفا استعداد الحداة ورفقاء في القافلة واعدادهم للرحيل .

ولا تتخالجك الامور النوازع
الا كل سر جاوز انين شائع
حجاب ومن دون الحجاب الاضالع
قليل القل منه قليل ورايع
والا الرواعي غنوة والقناع
لاخبرها كل الذي أنا صانع
اليك ولا منا للفقر راتع
من الحر ذو طمرين في البحر كارع
وعضض مما قد فعلت الأصابع
حزين على أثر الذي أنا وادع
واذراء عيني مثله الدهر شائع
بهم طرق شتي وهن جوامع
بيتونة السفلى وهن سوافع
حذار وقوع البين والبين واقع
ومعري عن الساقين والثوب واسع
فان الهوى يا نعم والعيش جامع
بأهل بين لي متى أنت راجع
اذا أضمرت الأرض ما الله صانع
وأمن بالكحل السحيق المدامع (١)

بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا
فلا يسمعن سرى وسرك ثالث
وكيف يشيع السر منى ودونه
وحب لهذا الربع يمضي أيامه
وما راغنى الا المتأدى الا اظفناوا
فجئت كاتى مستضيف وسائل
فقال ترحح ما بنا كبر حاجة
فما زلت تحت الستر حتى كاتنى
فهزت الى الراس منى تعجبا
فايها منى اتبعت فائنى
بكي من فراق الحى قيس بن منقذ
باربعة تنهل لما تقلدتم
وما خلت بين الحى حتى رايتهم
كان قوادى بين شقين من عصا
يحث بهم حاد سريع نجاؤه
فقلت لها يا نعم حل مخلصنا
فقال وعيناها تفيضان عبرة
فقلت لها تالله يندى مسافر
فشدت على فيها اللثام وأعرضت

فقد مهد فى الابيات الاولى بوصف بطة القصة ، وأخلاقها ، والجو الذى
جرت فيه القصة ثم هيا لجو الوداع ، وما صاحب ذلك من ضجة وصخب ،
ثم تسلله تحت الستر ، وفزعها من هذا المسلك الخطير على سمعتها ، ثم حوار
الوداع بينهما ، واصفا صدق مشاعره وأعماق نفسه ، ثم اللوعة التى اجتاحت
قلبه حين سمع مؤذن الرحيل ، ثم حوار الفراق ، وما تخلل ذلك من وصف لجو
القصة ، وما يحيط بالحدث الاصلى من أحداث فرعية متصلة به ، واصفا فى دقة
كل أطراف القصة وأشخاصها ، حتى حادى القافلة لم ينس أن يصفه بهذا
الوصف الشامل .

يحث بهم حاد سريع نجاؤه ومعري عن الساقين والثوب واسع

ومما لا شك فيه أن امرأ القيس لم يصل فى شعره الى هذا المستوى الفنى
او الى هذا القدر من فنية القصة الشعرية ، وكذلك لا نعلم أن شاعرا فى الجاهلية
بلغ هذا المستوى ، لأنهم لا يذكرون شاعرا اتجه الى أسلوب القصة فى الجاهلية

غير امرئ القيس (١) وإذا كنت لا أستطيع أن أقطع بالشبق الزمنى لأى من
قيس بن منقذ أو امرئ القيس لأن الروايات التاريخية - في مبلغ على - غير
واضحة كل الوضوح في التحديد الزمنى للجاهلية ومراحلها وأجيالها وأشخاصها
أقول إذا كنت لا أستطيع ذلك ، فاني أستطيع أن أقول أن امرأ القيس ليس
هو رائد القصة في الشعر العربى ، ولكن الصعاليك ولو ممثلين في قيس
بن منقذ ، هم رواد القصة بمعناها الفنى كما رأينا في قصيدة قيس الصابغة
التي تمثل قصة كاملة ، ومهما حاول ناقد قصصى أن يقلل من كمالها الفنى ،
فلا بد أن ينقدها على أساس أنها قصة ، لا على أساس أنها صورة أو حدث مفرد أو
مجموعة مشاعر ، أو أى شئ يشكك في مبدأ أنها قصة ، كما يمكن أن يوجه إلى
غيرها مما يوصف بأنه بؤادر قصة أو نحو ذلك . والفارق كبير بين أن ينقد
شئ على أساس أنه قصة ، وأن ينقد على أساس علم الاعتراف بأنه قصة ، ولعل
لا يتجاوز السبيل إذا قلت أن كل ما عدا قصة قيس بن منقذ هذه من شعر
الجاهلية ، يمكن أن يوجه إليه عدم الاعتراف بأنه قصة ، بما فيه حادثة امرئ
القيس التي أشرنا إليها

وإذا كان شعر صعاليك الجاهلية قد وصل إلى هذا المستوى الذى نراه
متكاملا بالنسبة للقصة الشعرية ، فإنه قد وضع أساسا كثيرة عريضة لا يمكن
أن نسميه مبادئ قصص شعري ، وقد وصل بعض هذه النزعة إلى درجة تقرب
جدا من القصة القصيرة بكل مقوماتها الفنية التى يسمح بها الشعر ، ونجد
هذا كثيرا في قصائد شعر الهذليين ، ومنه على سبيل المثال ، وصف صخر
الغى لحمارى وحش ، وصف جسميهما وصفا دقيقا حتى ما تساقط عن جلدتهما
من شعر ، ثم تابع مسيرهما إلى الماء ، وما صاحب ذلك من حذرهما وتوجسهما ،
ثم رمى الصائد نبلة نحوهما ، وخطا الرمية الذى ترتب عليه تحطم النبل ،
وفزع الحمارين من ذلك ، ثم علوهما مرتفعا بأقصى سرعة حتى أثارا أمامهما
الصخور وحولهما الغبار ، وظلا كذلك حتى واجههما الصباح ، وواجههما مع
الصباح الصائدون بخيلهم التى وصفها ، ووصف تمكن الصائدين من اصابتها ،
وهذا الوصف رغم أنه لصورة من مشاهد الطبيعة فى الصحراء ، إلا أنه يصلح
مبدأ للقصة . ويعتبر تقدما كبيرا للدخول فى نطاق القصة الفنية .

والذى يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاها أصيلا بل
ومقصودا أننا نجدهم لم يكتفوا بهذا الوصف الذى يمكن أن يقال عنه أنه تصوير
لمشهد ، يمكن أن نجده فى شعر غيرهم كوصف المعارك والرحلات ومتابعة أحداثها
ونحو ذلك ، بل اتجهوا إلى التخيل فى القصة ، بذكر أحداث أو قصص متخيلة
وذكر الأحداث القصصية بطريق التخيل مهما يكن له من مدلولات ، فإن من بين
هذه المدلولات نزعة القصة ، أعنى الميل إلى القصص ، كالصورة الخيالية التى

(١) أنار للمثال الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ٢٧٩

توهما تأبط شرا في محادثته مع الغول ، ووصفه اياها ، ومطالبته اياها بضعتها (١) . ثم قتله اياها وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيدا لنزعة القصص حيث كان التصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة .

وكذلك خيال صخر الغي في رثاء ابنه تليد ، حيث تخيل أنه لقي بموضع يسمى سبيل حمامة تشببه في حاله ، بفقداء ولدها الوحيد الذي يدعى «ساق حر» وتشببه في حزنها ، لأنها لا تنام كما لا ينام هو عندما ينام الناس ، وقد صور حوارا طريفا بينهما ، فيقول في هذا الخيال :

وما ان صوت نائحة بليـل بسبيل لا تنام مع الهجود (٢)
تجهنا غادين فساءلتنى بواحدنا وأسأل عن تليدى (٣)
فقلت لها قاما ساق حر فبان مع الأوائل من ثمود (٤)
وقالت لن ترى أبدا تليدا بعينك آخر العمر الجديد (٥)
كلانا رد صاحبه يباس وتأنيب ووجدان بعيد (٦)

ومثل هذا النوع الخيال لا أرى له مجالا نسلكه فيه الا القصة ، فهو ليس تصويرا للطبيعة ، ولا وصفا لمشهد من المشاهد ، فليس لنا الا أن نعدده نوعا من القصة القصيرة ، على أننا نجد فيه كل معالم القصة ، من الوصف ، والحوار والتحليل النفسى ، وهو أدل على تأصل الاتجاه القصصى في شعرهم لأن الشاعر فيه متعمد خلق الموضوع ، ومتعمد الباسه الثوب القصصى ، بخلاف ما اذا قص الشاعر حادثة رآها أو عاشها ، لأنه حينئذ يحكى شيئا واقعا ، وهو في هذا وان كان أيضا قاصا ، الا أنه قصص عفوى أو غير مقصود ، بخلاف الخيال المقصود موضوعا وصياغة وقالبا .

وهذه الميزة القصصية لا يمتاز بها شعاليك الجاهلية عن شعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها في جملتها عن الشعراء عامة ، لأنهم فضلا عن تفوقهم الفنى الذى وصلوا اليه في مستوى القصة ، فانهم يمتازون بروح القصة ، والاتجاه اليها اتجاها واصحا ومقصودا في كثير من شعرهم ، وليس امتيازهم في حوادث فردية أو فلتات شاذة .

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٢/١ والضحى الفرج .

(٢) ديوان الهذليين ٦٧/٢ والنائحة الحمامة والهجود النيام .

(٣) تجهنا تواجهننا وتقابلنا .

(٤) بأن هلك .

(٥) الجديد يعنى أن كل يوم يجيء فهو جديد .

(٦) يروى بوجدان شديد .

٢ - التصوير :

قلنا اننا آثرنا فصل التصوير عن القصة ، لأن القصة لها مفهوم فني لا يستطيع أن نطلقه على موضوع الا اذا استوفى الخطوط الرئيسية والأساسية فيه على الأقل ، والتصوير وان كان يسلك مراحل من القصة ، ويقرب من نطاقها الا أننا نقلل من شأن القصة ، ونضعف مفهومها اذا اطلقنا على كل محاولة ، أو سمينا كل مرحلة من مراحلها قصة .

وقد يقال ان الترتيب الفني كان يقضى بالبداية بالتصوير أولا ، ثم بحديث القصة بعد ذلك ، كان يقال انهم سلكوا طريق المدمات ، ثم وصلوا الى مستوى كامل أو قريب من الكمال في القصة ، ولكني آثرت البدء بالقصة رغبة في الإيجاز في توضيح الفارق بين أسلوبهم القصصى والتصويري ، فحينما نبين مستواهم في القصة ، يبدو تبعا لذلك أن كل ما دونه أو سواه من هذا الموضوع هو التصوير ، ونعني بالتصوير الصور الفنية التي رسمها شعرهم ، والتي أشرنا اليها فيما سبق ، وبخاصة في الحديث عن الطبيعة في شعرهم ، حيث صوروا لوحات فنية رائعة من مشاهد الطبيعة ومخلوقاتنا ، ولكون شعر الصعاليك في منهجه كله سلك طريقا منفردا متميزا عن الشعر العربي كله بما سميناه فيما سبق شعر الصراع أو روح الصراع ، وبما بدا فيه من حركة وحيوية يجعلون أشخاصهم محورا لها دائما حتى في شعرهم الاجتماعي كان مجال الحكم والاستنتاج فيه واسعا ، ويمكن أن يكون مجال اختلاف النظرة اليه واسعا ايضا ، لأن شعرهم بهذه المزايا أصبح له أكثر من زاوية ينظر اليه منها ، فمثلا لامية الشنفرى اذا نظرنا اليها باعتبار اجرائها ، نجد أنها تحوى صورا كثيرة لكل حياة الصعلوك وسلاحه ومعيشته وبيئته بمشاهدها ومخلوقاتنا ، واذا نظرنا اليها باعتبار روحها نجد أنها تمثل نفسية الصعلوك في عزلته ونفوره من الناس ، وشعوره بالمطاردة وصراعه الدائم مع كل شيء ، وفي كل وجهة يتجه نحوها ، واذا نظرنا اليها في جملة ما نجد أنها تمثل ما يمكن أن نسميه حقيقة مذكرات شخصية كاملة عن شخصية صاحبها ونفسيته ومشاعره وحياته وبيئته بمشاهدها ومخلوقاتنا ، وصلته بكل شيء ، من الناس والبيئة بما فيها ، وحياته وما يعانيه وفرع هذه الصلة التي تربطه بكل هذه الاشياء ، واذا كان يمكن أن نسمى اللامية في جملة مذكرات شخصية على وجه الحقيقة ، لأنها حقيقة تؤدي ما تؤديه المذكرات الشخصية ، فيمكن أن نسميها مجازا قصة ، باعتبار أنها قصة حياة انسان معين ، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين أن يعتبروها هي وطرأها من شعر الصعاليك أسلوبا قصصيا (١) ولكننا اذا اطلقنا عليها وعلى طرازها أنه قصص مجازا فلا أظن أن بوسعنا من الناحية الفنية أن نسلك هذا النوع في أسلوب القصة كما فعلوا .

(١) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليل ص ٢٧٦ - ٢٨٠ .

ولكن الذى يعنينا ابرازه فى هذا المقام الذى نتحدث فيه عن اتجاههم نحو القصة ، ان شعر صعاليك الجاهلية يمتاز بميزة بارزة فيه ، هى تصوير المشاهد المتحركة ، والواقع ان شيوع التصوير سمة عامة فى شعرهم ، سواء كان للمشاهد الثابتة كتصوير لامية الشنفرى لحياة الذئب ، وصورة من حياة النحل ، وحياة القطا ، وكتصويرها لليلة الباردة بما فيها ، وليوم الحر بما فيه ، وكتصوير شعر الهذليين للسحاب الذى يتبخر للسفن المحملة ، وتصويرهم جميعا للمراقب ، ونحو ذلك مما يكفى فى التمثيل له بالاحالة الى ما سبق من الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، ونعنى بالمشاهد الثابتة فيها المشاهد التى تتخلو من أحداث متتابعة كاحداث القصة ، أو تكون ذات أحداث ضئيلة لا تكفى لأن نسلکہا بها فى مرحلة من مراحل القصة ونعنى بالمشاهد المتحركة ، بمكن ذلك ، وهى المشاهد التى تشتمل على أحداث متحركة متتابعة تمثل صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها ، وهذا النوع غير قليل فى شعر الصعاليك الجاهليين ، بل نجد معظم شعرائهم طرقوه ، وخاصة شعراء هذيل ، كثير مما جاء فى شعر صخر الغنى ، وحبيب الأعمى ، وأبى خراش فى هذه الصور نجد حدثاً أو مشهداً متحركاً ، يتابعه الصعلوك بشعره ، كأنه يقص قصة ، وهى فعلاً صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها تقرب جداً فى بعض الأحيان من نطاق القصة بمعناها الفنى الكامل كما قلنا ، وذلك للصورة الكاملة التى صررها أبو خراش عن قطع حمار الوحش الذى يطلب ذكره من أثله السفاد فى غير موضعه لكونهن حوامل ، ثم سعى القطيع الى المرتفع من الأرض ، ثم اشتداد الحر وطلبه الماء ، ثم احساسه بغيث الشمس وجده فى العدو باحثاً عن الماء قبل حلول الظلام ، ثم ترصد أبى خراش لهذا القطيع ، ثم تسمع القطيع وارهافه آذانه حذر الصائدين ، الى آخر هذا المشهد المتحرك الذى يشبه القصة الفنية (١) وكذلك مشهد الوعل فى شعر صخر الغنى (٢) وهكذا ، وفى هذا النحو الذى نجاه صعاليك الجاهلية بكثرة ووضوح نجد فيه معالم من الأسلوب القصصى ، وانجاها قويا نحو القصة ، كان يمكن أن يشر فى الأدب العربى نوعاً مزدهراً ، لو انه وجد من الشعراء من يتابعه ويتقدم به نحو الكمال ، وقد بلغ من قوة صعاليك الجاهلية فيه ، ووضوح روحهم القصصى فى هذا الشعر ، أن عده بعض الباحثين قصصاً أو أسلوباً قصصياً كما قلنا ، وبلغ من قوة هذا المعنى فى شعرهم أن عد بعض الباحثين شعر الشنفرى « فى المرتبة الأولى من ناحية التمثيل والتصوير » (٣) .

(١) انظر ديوان الهذليين ١١٧/٢ - ١٢٢ وأول الأبيات (أرى الدهر لا يبقى .. الخ)

(٢) المصدر السابق ٥٢/٢ - ٥٥ وأول الأبيات (فعيني لا يبقى على الدهر نادر .. الخ)

(٣) انظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ص ١٢٥ .

ج - اختلاف مستوى الألفاظ وغرابتها

يمتاز شعر صعلاليك الجاهلية عن صعلاليك الاسلام بأنه فى جملته غريب الألفاظ بعيد عن الوضوح فيها ، والواقع أن ألف الألفاظ وغرابتها أمر نسبي فنحن نرى ألفاظ قبيلة غاية فى الغرابة والصعوبة ، وفى الوقت نفسه قد ترى هذه القبيلة ألفاظنا التى نراها نحن سهلة غاية أيضا فى الصعوبة والغرابة لأن الغرابة والصعوبة ليسا فى ذات الألفاظ ، وإنما فى استعمالها وتداولها ، فاللفظ سهل مفهوم المدلول طالما استعملناه وتداولناه ، وهو صعب غريب طالما لم نستعمله ولم نتداوله .

ولكنهم ألفوا أن يجعلوا من لهجة قريش وألفاظها مقياسا للألف والغرابة فى الألفاظ ، ولم يكن علماء اللغة ونقادها ليستطيعوا غير ذلك ، فقريش فى الجاهلية والاسلام مركز الجزيرة ومحورها ، ومصدر الإشعاع الفكرى والدينى فيها ، ولهجتها أوسط اللهجات .

والواقع أن مسألة الألفاظ واللهجات متشعبة واسعة ، تدخل فيها عوامل عديدة ، من حيث التغيرات التى حدثت فيها ، وأبرزها أثر القرآن الكريم ، ثم ما أحدثته الاسلام من كثرة الاحتكاك والاختلاط بين قبائل العرب وأحيائها ثم أثر الفتوحات وما بثته فى العرب من تداخل واختلاط ، ومن رغبة وخصب حياة ، وغير ذلك .

ولكن الذى يعنينا من ذلك كله الآن أمران ، أحدهما أن شعر صعلاليك الجاهلية لم يكن فى مستوى واحد ، من حيث الغرابة والألف ، والأمر الثانى هو أن شعر الصعلاليك الجاهليين فى جملته كان أبعد عن الألف ، وأقرب إلى الغرابة من شعر الاسلاميين منهم .

فأما عن اختلاف مستوى شعر الجاهليين منهم فنقول أننا نلاحظ اختلافا شديدا فى مستوى ألفاظهم من حيث الغرابة والألف ، وأوضح ما تكون المقارنة إذا كانت بين من يعيشون متعاصرين ، وإذا أخذنا شعر شاعرين منهم يعيشون فى جيل واحد كابى خراش وعبيدة بن الطبيب اللذين كان كلاهما من المخضرمين لوحدنا فارقا كبيرا واضحا كل الوضوح ، حيث نجد شعر أبى خراش يمتاز بصعوبة الألفاظ وغرابتها ، بينما شعر عبيدة يمتاز بوضوح الألفاظ وألفها ، وليس ذلك فى مواضع أو قصائد معينة حتى يحتاج للتمثيل وإنما طابع شعر كل منهما كله ، كذلك هناك شخص معاصر لهما ، وإن كان أسبق منهما قليلا ولكن هذا السبق لا ينفى أنه عاصرهما وعاش فى جيلهما شطرا غير قليل من عمره ، وهو عروة بن الورد العبسى الذى تعلم من تاريخه الزمنى أن أحدى نسائه كانت فىمن أجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من يهود خيبر عن

المدينة (١) ، وأبو خراش وعبدية مخضرمان أدركا الاسلام بعد الجاهلية ، ومعنى ذلك أن عروة عاصرها ، ولكننا نجد شعره في الفاظه يختلف عن شعر كل منهما ، فمع أن شعر عبدية بن الطبيب أوضح الفاظا من شعر أبي خراش إلا أن شعر عروة أوضح الفاظا من كليهما ، واننا لنلاحظ في عجب أن شعر عروة لا يشوبه شيء من الغرابة أو صعوبة الألفاظ ، بل إنه أوضح الفاظا من معظم شعر قريش نفسها في الجاهلية .

ولو ذهبنا نعلل ذلك ، لا نستطيع أن نقول أن للصعلة دخلا في هذه الناحية من الألفاظ ، لأنهم جميعا صعاليك ، وفي عصر واحد ، وبيئة الصعلة متقاربة ، ومع ذلك فالفاظهم من حيث الغرابة والالف مختلفة أشد الاختلاف ولا نستطيع أن نقول أن التأثير بلغة قريش له دخل في هذا الاختلاف ، أعني تأثير لهجة قريش في قبائل أولئك الصعاليك لا نستطيع أن نقول ذلك ، لأن الهذليين ومنهم أبو خراش شعرهم أصعب شعر الصعاليك الفاظا وأكثرها غرابة مع أن موطنهم في أقرب مكان من مكة ، وهو بوادي الطائف وما حولها ونجد شاعرا من صعاليك الجاهلية موطنه في أقرب مكان من موطن هذيل ، ومع ذلك فالفاظه في غاية السهولة والالف إذا قيست بالفاظ هذيل ، وهو قيس بن منقذ السلولى الخزاعي (٢) المعروف بادن الحدادية ، كذلك إذا نظرنا الى أثر الحصب والغفر والبادية في الألفاظ لا نستطيع أن نقطع به ، لأن الشنفرى مثلا عاش معظم حياته في نجد ، وهى أكثر خصبا من بادية اليمامة التى عاش فيها عبدية بن الطبيب التميمي (٣) ، ومع ذلك فالفاظ الشنفرى أكثر صعوبة ، وأشد غرابة من الفاظ عبدية .

ولعل أقرب ما نستطيع أن نعلل به هذه الظاهرة ان الألفاظ فى أصلها تتأثر بالبيئة ، بمعنى أن البيئة فى الأصل لها دخل كبير فى تحديد الألفاظ من حيث الصعوبة والالف ، ومن حيث الجرس ، ومن حيث نواحي أخرى لا يقتضى المقام. الافاضة فيها ، فالبيئة هى العامل الأول ، ثم يأتى النظام القبلى بما يتضمنه من انطواء القبيلة على تراثها وتقاليدها اللغوية ، فيحافظ على الطابع اللغوى لها ، ويظل هذا الطابع اللغوى للقبيلة محفوظا طالما ظلت محافظة على طابعها القبلى الذى يتميز بالاعتزاز بالتراث والتقاليد ، والتشبث بكيان القبيلة ، وحمايته من التفكك وحماية أسرارها التى تفصله أو تميزه عن غيره من كيان قبيلة أو مجتمع آخر .

فهذه القبيلة يمكن أن نتصور أنها حتى لو انتقلت الى بيئة مختلفة ،

(١) انظر أغاني الأصفهاني ٧٥/٣ وهى سلمى التى احتال اليهود بستيهم عروة الخمر حتى رهنها وأخذوها .

(٢) انظر خريطة بلاد العرب قبل الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ٩/١ .

(٣) المصدر السابق .

أو مجتمع مغاير ، تظل محافظة على طابعها ، طالما ظلت محافظة على كيانها كقبيلة أو على الأقل يكون تأثير البيئة الجديدة في لغتها بطيئا شديد البطء ، لا يقاس بالسنين ، وإنما يقاس بالقرون .

وتطبيق ذلك أننا يمكن أن نتصور أن قبيلة كهذيل كونت لهجتها في بيئة تقتضي أن تكون لهجتها كذلك ثم ظلت بطابعها القبل تحافظ على هذه اللهجة ، مهما جاورت من لهجات مختلفة ، ومهما تنقلت في بيئات تختلف عن بيئتها التي كونت لهجتها الأولى ، وإذا صح هذا يمكن أن نعلل به اختلاف اللهجة عما تقتضيه البيئة ، بأن هذه اللهجة تكونت في بيئة أخرى ثم انتقلت الى هذا المكان ، أعنى انتقلت القبيلة صاحبة هذه اللهجة الى هذا المكان ، ويؤيد هذا ما هو معروف عن طبيعة التنقل في القبائل العربية وما يتحدث المؤرخون به كثيرا من تنقل قبائلهم بين أماكن كثيرة (١) ، ومن أمثلة هذا ما نراه حتى اليوم في النصف الجنوبي من صعيد مصر ، حيث كثيرا ما نجد منطقتين ، أو قريتين متقاربتين في المكان ، بل أحيانا متلاصقتين ، ومع ذلك فلكل منهما لهجة خاصة متميزة عن الأخرى ، وحين نبحث لا نجد في ظروفهما كلياً أى اختلاف جغرافى أو ثقافى أو اجتماعى ، إلا شيئاً واحداً هو احتفاظ كل منهما بجوانب من الطابع القبل ، يتمثل أبرزها في الاعتزاز بالنسب التاريخى الذى تنتمى اليه هذه المنطقة أو القرية ، والعصبية الجماعية ، التى تجعل من المنطقة أو القرية قوة مترابطة ضد المناطق أو القرى الأخرى . واعتقد أن هذا أيضاً شائع في أرياف الأقطار العربية وبواديها .

وأما عن الأمر الثانى ، وهو اختلاف طابع الألفاظ في شعر صعاليك الجاهلية ، عنه في شعر صعاليك الاسلام ، فنقول ان مما يميز شعر صعاليك الجاهلية في جملته شيوع الألفاظ الصعبة الغريبة فيه ، مما يجعل له مستوى مختلفاً عن شعر صعاليك الاسلام في هذه الناحية ، حيث نجد شعر الأخيرين تغلب عليه السهولة والالف في الفاظه ، وهذا أمر واضح لدارس شعر المجموعتين . بل الغريب أننا نجد فارقا بينا في شعر المخضرمين أنفسهم ، بين ما قالوه في الجاهلية وما قالوه في الاسلام ، وأوضح ما يكون ذلك في شعر أبى خراش الهذلى ، حيث نجد شعره الجاهلى يتسم بغرابة الألفاظ وصعوبتها بينما نرى شعره الاسلامى ينتج بقوة نحو السهولة والالف ، متخلياً عن كثير من طابعه الجاهلى في الغرابة ، ولننظر مثلاً الى قوله في الاسلام :

فليس كمعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكله ليس بقاتل سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل (٢)

(١) انظر تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ٨/١ نقلاً عن مراجع أخرى .

(٢) الكامل للمبرد ٢٦٧/١ ويعنى بالسلاسل تقييد الاسلام لسلوكه وأعماله .

وقوله فى الاسلام أيضا حين هاجر ابنه خراش غازيا فى خلافة عمر
ابن الخطاب ، يعبر فى شعره عن وحدته بعد خراش وشوقه اليه :

الا من مبلغ عنى خراشا وقد يأتيك بالنبا البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا تجهز بالحذاء ولا تزيد (١)
يناديه ليغيقه كليب ولا يأتى لقد سقه الوليد (٢)
فرد اناء لا شئ فيه كأن دموع عينيه الفريد
وأبناتا أخرى من طرازها •

ثم ننظر الى ألفاظه فى الجاهلية فنجد فيها طابعا من الغرابة والصعوبة
يختلف عن طابع ألفاظه الإسلامية اختلافا واضحا فمن ذلك قوله يصف صورة
من أعدوه وفراره من مطاردية :

فعديت شيئا والدريس كأنما يزعزعه ورد من الموم مردم
تذكر ما أين الممر وانى بغرذ الذى يتجى من الموت معصم (٣)
وقوله من وصفه لليلة باردة ممطرة اضطر فيها الى قطع اشواط واسعة فى
وديان فسيحة جاد النشاط والعزيمة ليدرك ثارا ويشرف على غنيمة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلته وهى ساجية تهمل
وشوط فضاح قد شهدت مشايحا لأدرك ذحلا أو أشيف على غنم (٤)

ومن الواضح فى شعر أبى خراش ان ما قاله فى وصف حياة الصعلكة
أصغره ألفاظا ، وأبعده عن السهولة واليسر فى فهمنا له ، ولكن ما قاله فى
الجاهلية كله ، حتى شعره فى الأغراض الاجتماعية كالرثاء ، يختلف أيضا
اختلافا بينا من حيث صعوبة الألفاظ عن شعره فى الاسلام •

وإذا كان شعر الشخص الواحد قد تأثر بالاسلام فى ألفاظه وتعبيره اللغوى
فاولئ أن يكون هذا الفرق أوضح بالنسبة للذين عاشوا حياتهم كلها فى الجاهلية
والذين عاشوا حياتهم كلها فى الاسلام ، أعنى فى المقارنة بين ألفاظ شعر
كل منهما •

(١) اشارة الى قول طرفة بن العبد : سبى لك الأيام ما كنت جاهلا •• ويأتيك بالأخبار
من لم تزود •

(٢) كليب عبد أبى خراش ويغيقه يسقيه اللبن أول الليل • ديوان المهذلين ١٧٠/٢ •
١٧١ والفريد يعنى اللؤلؤ وفى الأغاني ٦٨/٢١ أن عمر حينئذ أمر برد ابنه والا يغزو وحيد
الأبوين الشبيخين الا بعد اذتهما •

(٣) ديوان المهذلين ١٤٤/٢ والدريس الثوب البالى والموم الحمى والمردم الملازم والبيت
الثانى يعنى عدوت مفكرا فى طريقة للهروب متشبها بوسيلة الهرب والفرار •
(٤) المصدر السابق ١٣٠/٢ •

والواقع ان هذا الفارق اللغوى بارز فى المقارنه بين أدب الجاهلية وأدب الاسلام عامة ، ولا نستطيع أن نحصر تعليله فى سبب واحد فرعى ، وإن كانت كل العلل متصله بالاسلام نفسه واهمها القرآن الكريم ، وبالأثار التى تربت على الاسلام من كثرة الاختلاط والتداخل بين أصحاب اللهجات المختلفه ، ومن ظهور لهجة قريش بظهور قريش نفسها فى مقام التوجيه والقدوة ولكن مهما تعددت الأسباب فأننا نعتقد ان السبب الرئيس هو ما أشرنا اليه أنفا ، وهو الكيان القبلى الذى نعتقد أن تفككه أو ضعفه أو تأثره بأى عامل هو فى مقدمة أسباب تأثر لهجة القبيلة أو تحولها ، كما انه يمكن أن نقول ان التأثير الكبير الذى أحدثه الاسلام فى اللهجات العربية ، من حيث تقارب لهجات كثير من أبنائها ، وانطوائها فى لهجة متقاربة تدور حول لهجة قريش ، كان من أهم أسبابه قدرة الاسلام على التأثير الكبير فى الكيان القبلى للقبائل ، حيث صرف معظم أبناء القبائل عن الانزواء فى الكيان القبلى والاعتزاز به وحده ، الى مجتمع أرحب ، هو مجتمع المسلمين عامة ، والى اعتزاز أسمى هو الاعتزاز بالاملام من حيث هو دين ، وبالأمة العربية الاسلامية من حيث هى أمة ، وكان لهذا التغيير آثاره البعيدة المدى ، ومن بين هذا التغيير ، ضعف اعتزاز الفرد بلهجة قبيلته ، وإيثاره لهجة الدين الذى يعتنقه والتبى تتمثل فى لهجة القرآن الكريم ، وإيثاره لهجة الامة التى استبدلها بكثير من اعتزازه القبلى والتبى تتمثل فى لهجة قريش مركز قيادة الأمة الدينى والسياسى .

على اننا فى مقام الحديث عن الألفاظ ، نود أن نشير الى ملاحظة لا تخفى على الدارس لشعر الصعاليك ، وبخاصة الجاهلى ، وهى اننا حين نتتبع شعر كل شاعر منهم ، نشعر ان هناك فارقا وإن كان يتفاوت قوة وضعفا بين شعرهم فى حياة الصعلكة ، أعنى الشعر الذى قالوه فى مجال الصعلكة ، وهو ما سميناه شعر الصراع ، وشعرهم الاجتماعى ، حيث نجد الألفاظ الشعاع فى مجال الصعلكة ، أقرب الى الصعوبة والغرابة ، بينما نجد الألفاظ فى الشعر الاجتماعى لها طابع آخر أقرب الى السهولة والالف ، وكأنه يصور بذلك نفسيته وحياته فى جملتهما فى المجالين ، وأوضح ما يكون ذلك فى شعر الهذليين ، والشنفرى كما نرى فى شعر كل من صخر الغى وأبى خراش فى ديوان الهذليين .

خصائص شعر الإسلاميين

١ - العكوس

ونعنى أيضا فى هذه الخصائص مقابلة شعر الصعاليك الاسلاميين بشعر صعاليك الجاهلية . ومن الواضح ان من هذه الخصائص عكوس الخصائص السابقة

فى شعر صعلاليك الجاهلية ، والتى قلنا انه يتميز فيها عن شعر الاسلاميين منهم ، وأبرز هذه العكوس ما يتعلق بالألفاظ ، وما يتعلق بالتصوير ، فنجد فى الألفاظ فارقا كبيرا ، حيث يغلب على شعر الاسلاميين سهولة الألفاظ والفها ، بينما يغلب على شعر الجاهليين صعوبة الألفاظ وغرابتها ، ولكننا لانفعل هنا فارقا ملحوظا فى شعرهم ، وهو عدم التفاوت البين فى شعر الاسلاميين . فقد قلنا ان شعر صعلاليك الجاهلية متفاوت المستوى من حيث الألفاظ ، فنجد فيه شعرا سهل الألفاظ ميسور الدلالة ، كشعر عروة بن الورد ، بينما نجد آخر صعبا غريب الألفاظ كشعر الهذليين ، ولكن شعر صعلاليك الاسلام لا نجد فيه هذا التفاوت البين ، بمعنى انه وان كان فيه شىء من تفاوت كشأن التفاوت بين شاعر وشاعر دائما ، الا انه تفاوت غير كبير ، ولا يمثل طابعا معيناً ، بل يمكن أن يقال عن شعرهم كله انه يتسم بالسهولة والوضوح ، بالنسبة لشعر صعلاليك الجاهلية .

ومن هذه العكوس أيضا ما يتعلق بالتصوير ، فقد قلنا ان شعر صعلاليك اجاهلية يتميز بشيوع الصور الفنية فيه . بمعنى اننا نجد فيه طابعا يمثل صوراً كاملة عن صاحبه ونفسيته ، أو عن مشاهد الطبيعة ومخلوقاتا ، أو غير ذلك ولكن شعر الاسلاميين من الصعلاليك عكس ذلك ، لا يشيع فيه التصوير وانما يعتمد على المعانى المفردة المتلاحقة ، التى لا ترسم صوراً ولوحات فنية وانما يكتفى فيها غالباً بالمعانى المجردة المرسله ، ولذلك قلنا ان شعر الصعلاليك فى الجاهلية انفرد فيما انفرد به عن شعر الاسلاميين بشعر الطبيعة ، وقلنا اننا لا نعنى بشعر الطبيعة مجرد ذكر الجبال أو الصحراء أو الأمطار أو غير ذلك ، فذلك لا يخلو منه عادة شعر عربى قديم ، وانما نعنى بشعر الطبيعة الشعر الذى يرسم صوراً متكاملة لمشاهد الطبيعة ومخلوقاتا ، ويجعلنا نشعر كأننا نعيش مع هذه اللوحات فننظر اليها ، أو كما يروى ابن رشيق يقلب السمع بصرا (١) . فهذه الميزة بادية فى شعر الصعلاليك الجاهليين ، وخاصة شعر الهذليين والسنفرى ولكن شعر الاسلاميين لا يحمل هذه الميزة بل يندر أن نجد لها فى شعرهم أثراً ، وانما يعتمد دائماً على المعانى المجردة ونعنى بالاسلاميين فى هذا الحديب الذين نشأوا فى الاسلام أما المخضرمون ، فاننا نجد فى بعض شعرهم الاسلامى بقية من روح التصوير ، كالصور التى جاءت فى لامية عبدة بن الطبيب التى قالها بعد القادسية مصوراً فيها رحلة بدوية بمطاباها ، وصانديها وبخاصة صورة الثور الذى صادوه ثم طبعوه ثم قاموا بعد الأكل الى خيل جعلوا من أعرافها مناديل لأيديهم وما علق بها من آثار الأكل (٢) ، ولكننا باستثناء الآثار التى أدخلها الاسلام فى شعر الصعلاليك

(١) انظر العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٩٤ .

(٢) انظر المفضليات ص ١٣٤ - ١٤٥ .

من حيث الروح والألفاظ والموضوعات نرى أن شعر المخضرمين من الصعاليك امتداد لشعرهم في الجاهلية أو بمعنى أوضح نرى شعر المخضرمين من الصعاليك في الإسلام من حيث الصلصلة امتدادا لشعرهم الجاهلي ومنطويا في الحكم العام عليه ، لأن شعرهم الاسلامي يحمل كثيرا من روحهم وذكريات حياتهم في الصلصلة ، لا على انها ذكريات يتمسكون أو يعتزون بها ، وانما لأن نفوسهم انطبعت بصورها واتجاهها الشعري في أغلب انتاجها الاسلامي ، وان كنا نكرر ما قلناه في بد الحديث عن شعر الصعاليك من ان الروايات لم تكن واضحة في تحديد الشعر الذي قاله المخضرمون في الجاهلية ، والذي قالوه في الاسلام .

ومن هذه العكوس أيضا الجوع ، فبينما نجد شعر الجوع واضحا في أشعار صعاليك الجاهلية كما قال الشنفرى « أديم مطال الجوع حتى أميته » (١) وكما قال أبو خراش « واني لأتوى الجوع حتى يملنى » (٢) وكما قال السليك « اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف » (٣) بينما نجد مثل ذلك في شعر الجاهليين من الصعاليك ، لا نجد مثله في شعر الاسلاميين منهم بل لا نجد الجوع نفسه موضوعا لحديثهم وان كانوا قد شاركوا الجاهليين في الحديث عن الفقر .

ومن الفوارق أيضا الروح التي يكتسبها شعر كل منهما ، حيث نجد الظروف المحيطة بالجاهليين منعكسة في شعرهم كما نجد ظروف الاسلاميين وخاصة شدة مطاردة التشريع والولاة لهم ، وشعورهم بالانكار على سلوكهم ونحو ذلك من آثار الاسلام منعكسا في روح شعرهم ، وان لم نستطع تحديد موضعه دائما ، ومثاله اشعار عبيد بن أيوب في الحوف الشديد .

٢ - انفراده ببعض الموضوعات

وكما انفرد شعر صعاليك الجاهلية عن شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات ، كذلك انفرد شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات عن شعر زملائهم الذين سبقوا الاسلام .

واذا كنا في معظم ما سبق اعتبرنا الشعر الاسلامي للمخضرمين امتدادا لجاهليتهم ، ففي هذا الموضع بالذات ، نعتبر شعر المخضرمين - بالنسبة للموضوعات الآتية - من الشعر الاسلامي وليس امتدادا لشعرهم الجاهلي - لأن الموضوعات الآتية - كما سنرى - من الآثار المباشرة للإسلام بصفته ديناً وتشريعاً ، ونحن قلنا ان شعر المخضرمين انما يعتبر امتدادا لشعرهم الجاهلي

(١) من اللامية .

(٢) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ .

(٣) مجمع الأمثال ١١/٢ وأسدف أدخل في السدلة وهي الظلام .

إذا كان متعلقا بالصعلكة ، واستثنينا صراحة ما كان أثرا من آثار الاسلام
المباشرة •

وأهم هذه الموضوعات التي انفرد بها شعر صعاليك الاسلام عن صعاليك
الجاهلية ما يأتي :

١ - الشعور بالذنب :

ومن الواضح أن الشعور بالذنب غير الشعور بالمطاردة الذي تحدثنا عنه
فيما سبق من الموضوعات ، لأن شعور المطاردة معنى عام عانى منه الصعاليك
نتيجة لأن سلوكهم بطبعه عدواني ، ومن شأنه أن يخلق لهم أعداء كثيرين
من الذين يتوقعون أو يخشون هذا السلوك ، ومن الذين أصابهم فعلا هذا
السلوك ، ولكن الشعور بالذنب احساس روحي ديني ، كان نتيجة لمخالطة
الدين الاسلامي نفوس بعض الصعاليك ، وتذوقهم لذة الايمان بالله ، وتأثرهم
بالتشريع وحكمته •

ولكننا قلنا عند الحديث عن صراعهم مع السلطة ، انه نتيجة لكون
الصعلكة متعلقة بأرزاقهم ، وكونها المصدر الأساسي لمعيشتهم ، فلم يكن تقبل
نفوسهم للتوبة عميقا ، وهذا لا ينفي أو لا يتعارض مع اسلامهم ، فمن اليسير
أن نتصور انهم أسلموا ، كما ورد في أخبار الذين تحدثنا عنهم من المخضرمين
ولكنهم مع اسلامهم صارعوا في نفوسهم حنينا ولو خفيا الى الصعلكة التي
أفنوا حياتهم في مزاولتها والتعود على حياتها ، بالإضافة الى سبب مهم ، هو
كونها مصدر معيشتهم ، ولكن هذا الصراع نفسه دليل على احساسهم بالذنب
وقد صوروا هذا الاحساس في شعرهم عن التوبة ، كما سبق في موضوع
صراعهم مع السلطة مما نكتفي بالعودة اليه ، دون حاجة الى التمثيل (١) •

فصعاليك الاسلام اذن شاركوا صعاليك الجاهلية في الشعور بالمطاردة ،
ولكنهم تميزوا عنهم بالشعور بالذنب •

ومن حق السائل أن يسأل : فلماذا لم يبد شعراء صعاليك الجاهلية
احساسا بالذنب ، والصعلكة سلوك اجرامي بطبعه سواء في الجاهلية أو الاسلام؟
ويمكن أن نجيب عن ذلك بأن أساليب الصعلكة أصبحت في الجاهلية جزءا من
الحياة الاجتماعية للقبائل التي كانت حياتها صراعا متبادلا طاحنا ، لا تنقطع
فيه الفزوات والغارات وأساليب التربص ، حتى أصبحت أساليب الصعلكة
شائعة يزاولها كثير من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كما قلنا في مطلع

(١) انظر فصل صراع السلطة من هذا البحث •

البحث ، وحتى أصبح الفارق بين الصعاليك وغيرهم في هذا ، ان الصعاليك يحترفون هذا السلوك ويتفرغون له ، بينما غيرهم يزاوله في بعض الظروف أو تختلط فيه هدف الصعلكة بأهداف عصبية وقبلية كالتأثر والانتقام واطهار لباس ، وان كانت أهداف الصعلكة وهي المغنم دائما في صلب الأهداف ، فالصعلكة في الجاهلية اذن كانت جزءا من حياة اجتماعية غير قومية ، وكونها جزءا من حياة اجتماعية ، ينزع منها الصفة الخلقية التي تشعر صاحبها وتشعر غيره بأن الخروج على المقتضى الخلقى فيها أمر معيب يشعر صاحبه بالذنب ، ويحمل غيره على توجيه تهمة الذنب والسوء اليه ، ولذلك نرى الجاهليين يعيبون أمورا كثيرة ، ويحملون على أصحابها في نقد من وهجاء موجه ، كالبلخل ونكت الجوار ، وخلف الوعد وغير ذلك مما نرى نقده في أشعارهم وأخبارهم ، وكما نرى في انكار الصعاليك أنفسهم لهذه المعايير ، مثل هجاء أبي خراش لغاسل ابن قمينة حين غدر بجاره الحنظلي (١) ، ومثل ما نجده كثيرا في شعر الصعاليك من تمسكهم بالفضائل ، ونعيهم على الخارجين عليها (٢) ، وفي حين نجد الجاهليين بما فيهم الصعاليك ينعون على أمور كثيرة ويعيبونها ، لا نجد هذا النعى موجها الى الصعلكة فلسنا نجد في شعر صعاليك الجاهلية احساسا قط بالذنب نحو الصعلكة ، ولسنا نعلم أن نديا من نوادي الجاهلية التي أقاموها في مكة ، وفي أسواقهم العامة ، قد أنكر الصعلكة أو دعا الى محاربتها ، كما اننا لا نعلم أنه ورد في شعر الجاهليين قط شيء من ذلك ، فليس بغريب اذن ألا يشعر صعاليك الجاهلية بالذنب نحو الصعلكة ، لأنها لم تكن حينذاك ذنبا بالمعنى الذي نفهمه من الذنب .

أما صعاليك الاسلام فقد ووجهوا بعكس ذلك ، ووجهوا بالدين يوضح لهم أن الصعلكة جريمة نكراء ذات عقوبات صارمة (٣) ، ووجهوا بالمجتمع يعلن لهم استنكاره أيضا ، فكان حينئذ احساسهم بالذنب ، وتمثل هذا الاحساس في شعرهم عن التوبة ، وتمثل أيضا في خوف شديد تجاوزوا فيه الخوف المألوف في حياة الصعاليك ، ويتضح هذا الخوف الشديد في شعر عبيد بن أيوب (٤) الذي بلغ به حد الوهم .

ب - صراع الولاة والسجن :

تحدثنا فيما سبق عن صراع الصعاليك الاسلاميين مع الولاة والسجن (٥)

(١) انظر ديوان الهذليين ١٦٤/٢ .

(٢) انظر فصل الخلق الاجتماعى في شعر الصعاليك من هذا البحث (بالفهرس) .

(٣) انظر الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة .

(٤) انظر الحيوان ١٦٥/٦ ، ٢٣٥ .

(٥) انظر فصل صراع السلطة من هذا البحث (بالفهرس) .

ونود أن نقول أيضا أن هذا الصراع بدأ منذ استقرار سلطة الاسلام ، ولذلك نجد بعض المخضرمين كجعفر بن عليه يتعرض لهذا الصراع (١) وبعض الصعاليك تعرض لمطاردة الخلفاء كما سبق في مطاردة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لتسبيب بن عمرو (٢) وكما في أخبار عبيد الله بن الحر مع عمال علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (٣) ثم تتابع أخبارهم مع الولاة والسجون كما تحدثنا في صراعهم مع السلطة ، مصورين هذا الصراع في شعرهم . على أن أهم ما نتج عن احساسهم الذنب ، ومطاردة الولاة ، فقدان الصعاليك الاسلام لجانب غير يسير من العزة الذاتية ، فحين نقارن بين شعرهم وشعر الصعاليك الجاهلية نحس أن هناك فارقا مهما في روح كل منهما ، فبينما نحس في شعر الجاهليين روح الاعتزاز بالنفس مثلا في الاعتزاز بالصعلكة نفسها ، نجد شعر الاسلاميين منهم ، وإن كان لا يفقد روح العزة الفردية ، إلا أن هذه الروح تختلف اختلافا واضحا في درجة الاعتزاز بالنفس ، حيث تضعف درجة الاعتزاز في شعر الاسلاميين ، وتختلف هذه الروح اختلافا أوضح في الاعتزاز بالصعلكة ، حيث نرى الجاهليين على كثرة ما يتحدثون عما يعانونه فيها ، يرتفعون في الاعتزاز بها إلى أقصى ما يستطيعون ، بل يتخذون مما يعانونه فيها عنوانا للعزة والإباء ، كما يقول الشنفرى تعقيبا على معاناته الجوع الشديد .

واستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (٤)

وكما يقول أبو خراش بعد قوله « واني لأتوى الجوع حتى يملنى فيذهب »

مغافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٥)

فبينما نجد الشنفرى وأبا خراش يريان في جوعهما عزة يحرصان عليها،

نجد مالك بن الريب الاسلامي يقول للأمير الذي قال له : فإن أنا أغنيتك ، فهل تكف عما أنت فيه ، يقول له مالك « نعم ، أكف كأحسن ما كف أحد » (٦) غير معتر بالصعلكة ولا متمسك بها ، وكما فعل بكر بن النطاح وأبو الطمحان القيني في ركونهما إلى السادة والأمراء معرضين عن الصعلكة ، في غير توبة عنها ، ولكن التماسا لحياة أيسر وعيش أرغد (٧) .

(١) انظر خزائن البغدادي ٤٦/٢ الشاهد ١١٥ .

(٢) انظر حساسة أبي تمام ٢٥٢/١ .

(٣) انظر خزائن البغدادي ١٩/٢ - ٢٢ .

(٤) من اللامية : سبق نصها (بالفهرس)

(٥) ديوان الهذليين ١٢٧/٢ .

(٦) أمال القالي ١٣٦/٣ .

(٧) انظر مراجع ترجمتهما وأخبارهما فيما سبق (باب الشعراء الصعاليك) .

● أهم المراجع ●

وهناك عدد غير قليل مع المراجع أشرت الى بعضه في المقدمة رأيت
ألا أذكره في هذه القائمة مع اننى استشهدت منه خلال البحث لأن اعتماد
البحث عليه لم يكن قويا ، وقد اكتفيت بالإشارة اليه في موضع الاستشهاد
بالحامش .

وأشير الى أن بعض المراجع قد نقلت عنه من نسختين في طبعتين مختلفتين
أثبت احدهما في القائمة ، والأخرى في موضع الاستشهاد بها في الحامش ،
على أن بعض المراجع ليست لها الا طبعة واحدة لم أر ما يدعو الى تحديد طابعها
أو ناشرها

١ - الأمل لآبى على القالى (مطبعة السعادة)

٢ - الأغاني للأصفهاني (مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨)

٣ - أعجب العجب فى شرح لامية

العرب للزمخشري (مطبعة دار المعارف)

٤ - الأصمعيات للأصمعي

٥ - أسس النقد الأدبي عند العرب

للدكتور أحمد أحمد بنوى

٦ - الأسس الفنية للنقد الأدبي

للدكتور عبد الحميد يونس

٧ - آراء واتجاهات للدكتور محمد

نايل

٨ - البيان والتبيين للجاحظ

٩ - تاريخ الأدب العربى لكارل

بروكلمان (ترجمة الأستاذ

الدكتور النجار)

١٠ - تاريخ الاسلام للدكتور حسن

ابراهيم (الطبعة السابعة)

١١ - تاريخ الامم والملوك للطبرى (مطبعة الاستقامة)

- ١٢ - تاج اللغة وصحاح العربية
للجوهري
- ١٣ - التنبيه على أوهام القائل للبكري
- ١٤ - تفسير الكشف للزمخشري
- ١٥ - جمهرة أشعار العرب للقرشي
- ١٦ - الحيوان للجاحظ
- ١٧ - حديث الأربعة للدكتور طه حسين
- ١٨ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي
للدكتور الحوفي
- ١٩ - ديوان الهذليين للسكري
- ٢٠ - خزنة الأدب للبغدادى
- ٢١ - ديوان الحماسة لأبى تمام
- ٢٢ - ديوان عروة بن الورد
- ٢٣ - ديوان الشنفرى
- ٢٤ - دائرة معارف البستانى
- ٢٥ - دائرة معارف القرن العشرين
- ٢٦ - رسائل الجاحظ للجاحظ
- ٢٧ - السلطة فى المجتمع للدكتور
عبد العزيز عزت
- ٢٨ - شرح التبريزى لحماسة أبى تمام
- ٢٩ - شرح ابن الأنبارى للمفضليات
- ٣٠ - شرح ابن السكيت لديوان عروه
ابن الورد
- ٣١ - الشعر والشعراء لابن قتيبة
- ٣٢ - شرح ديوان الهذليين للسكري
- ٣٣ - شرح القصائد السبع الطوال
الجاهليات لابن الأنبارى
- ٣٤ - الشعراء الصعاليك للدكتور
يوسف خليف
- ٣٥ - الشوامخ للدكتور محمد
صبرى
- (مطبعة السعادة)
- (مطبعة الاستقامة)
- (مطبعة بولاق الأميرية)
- (مطبعة الحلبي)
- (مطبعة نهضة مصر)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار العصور)
- (مطبعة الوهيبية سنة ١٢٩٣)
- (مطبعة السعادة)
- (مخطوط بدار الكتب المصرية)
- (مطبعة الخائكى)
- (تحقيق محمد سعيد الراجعى)
- (مطبعة دار المعارف)
- (المطبعة الوهيبية سنة ١٢٤٣ هـ)
- (مطبعة الحلبي)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)

- ٣٦ - الصراع الادبى بين العرب والعجم
للدكتور محمد نبيه حجاب
- ٣٧ - العقد الفريد لابن عبد ربه
- ٣٨ - العمدة لابن رشيق
- ٣٩ - العالم غير المنظور للدكتور على
عبد الجليل راضى
- ٤٠ - الغيث المسجم فى شرح لامية
العجم لابن ابيك
- ٤١ - فى الادب والنقد للدكتور
محمد مندور
- ٤٢ - القاموس المحيط للفيروز ابادى
- ٤٣ - الكامل للمبرد
- ٤٤ - لسان العرب لابن منظور
- ٤٥ - مجالس ثعلب لابي العباس ثعلب
- ٤٦ - مصادر الشعر الجاهلى للدكتور
ناصر الدين الاسد
- ٤٧ - الفضليات للضبى
- ٤٨ - مقدمة ابن خلدون
- ٤٩ - معاهد التنصيص للعباسى
- ٥٠ - معجم ما استعجم للبكرى
- ٥١ - مجمع الامثال للميدانى
- ٥٢ - مهذب الاغانى للخضرى
- ٥٣ - نهاية الارب فى فنون الادب و
للنويزى
- (المكتبة) (الثقافية ٩٢)
- (المطبعة الازهرية)
- (مطبعة السعادة)
- (مطبعة دار الفكر العربى)
- (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
- (مطبعة الاستقامة)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة دار المعارف)
- (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
- (مطبعة السنة المحمدية)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)
- (مطبعة دار الكتب المصرية)

فهرس

| | |
|----|------------------------------------|
| ٥ | تقديم |
| ١٥ | الباب الأول |
| ١٥ | (الصعلكة) |
| ١٧ | الصعلكة في اللغة |
| ٢٠ | الصعلكة والفاظ أخرى |
| ٢٦ | الصعلكة في العرف العربى |
| ٣٣ | مفهوم الصعلكة |
| ٣٦ | من الصعلوك ؟ |
| ٣٩ | نشأة الصعلكة |
| ٣٩ | أسبابها |
| ٤٢ | عدم وجود دولة |
| ٥٣ | زعامات غير متزنة |
| ٥٥ | عدم التوازن بين الفقر والغنى |
| ٦٣ | طبيعة الأرض والحياة |
| ٦٣ | الأرض |
| ٦٧ | الحياة |
| ٧٢ | عوامل أخرى |
| ٧٢ | عوامل فردية |
| ٧٧ | الوراثة |
| ٨١ | الاستعداد والشذوذ |
| ٨٥ | (الصعلكة في الجاهلية) |

| | |
|-----|--------------------------|
| ٨٥ | (الصعلكة والمجتمع) |
| ٩٠ | أساليب الصعلكة |
| ٩٤ | (الصعلكة في الاسلام) |
| ١٠٧ | (الباب الثاني) |
| ١٠٧ | الشعراء الصعاليك |
| | الجاهليون |
| ١١٢ | الشنفرى |
| ١١٣ | تأبط شرا |
| ١١٤ | السليك بن السلكه |
| ١١٥ | عروة بن الورد |
| ١١٦ | قيس بن منفذ السلولى |
| ١١٦ | مالك بن حريم الهمدانى |
| ١١٧ | صخر الفى الهذلى |
| ١١٨ | عمرو بن براقه الهمدانى |
| ١١٩ | الأعلم الهذلى |
| ١١٩ | عمرو بن عجلان |
| ١٢٠ | حاجز بن عوف الأزدي |
| | (المخضرمون) |
| ١٢١ | عبدة بن الطيب |
| ١٢٣ | أبو خراش الهذلى |
| ١٢٤ | فضالة بن شريك الأسدي |
| ١٢٥ | ابو الطمحان القينى |
| | (الاسلاميون) |
| ١٢٦ | مالك بن الربيع |
| ١٢٧ | بكر بن النطاح |
| ١٢٨ | عبيد بن ايوب العنبرى |
| ١٣٠ | عبيد الله بن الحر الجعفى |
| ١٣١ | الأحمر السعدى |
| ١٣٢ | يزيد بن الصقيل العقيل |
| ١٣٢ | أبو النشاش النهشلى |

| | | |
|-----|-------|--------------------------|
| ١٣٣ | | سعد بن ناشب المازني |
| ١٣٤ | | توبة بن الحمير |
| ١٣٥ | | عبد الله بن سيرة الحرشي |
| ١٣٥ | | شبيب بن عمرو بن كريب |
| ١٣٦ | | فرغان بن الأعراف المري |
| ١٣٧ | | جحدر بن معاوية العكلي |
| ١٣٨ | | الجرفنس اللص |
| | | (الباب الثالث) |
| ١٤١ | | شعر الصعاليك |
| ١٤٣ | | مصادره |
| ١٤٧ | | روايته |
| ١٤٨ | | الاختلاف في الألفاظ |
| ١٥٥ | | الاختلاف في نسبة الشعر |
| ١٦١ | | لامية العرب |
| ١٧٨ | | (منهج شعرهم وموضوعاته) |
| ١٨٤ | | صراع الضياع |
| ١٨٥ | | الفقر وآثاره |
| ١٨٥ | | الفقر |
| ١٩٠ | | آثار الفقر |
| ١٩٠ | | الجوع |
| ١٩٣ | | رنحول الجسم |
| ١٩٦ | | صراع الهوان في المجتمع |
| ٢٠٣ | | (صراع المهنة) |
| ٢١٣ | | أسلحة الصعلكة |
| | | الأسلحة المنظورة |
| ٢١٥ | | أسلحة القتال |
| ٢١٦ | | السيف |
| ٢٢٢ | | السهم |
| ٢٢٦ | | القرس |
| ٢٢٨ | | الرمح |

| | |
|-----|----------------------|
| ٢٣٠ | الدرع والترس |
| ٢٣٢ | العدو |
| ٢٤١ | الاماكن |
| ٢٤٨ | المطايا |
| ٢٥٠ | الخيل |
| ٢٥٤ | الإبل |
| ٢٥٧ | الأسلحة غير المنظورة |
| ٢٥٩ | قوة الارادة |
| ٢٦٢ | الصبر |
| ٢٦٤ | الجرأة |
| ٢٦٧ | الاستهانة بالموث |
| ٢٧٣ | الحذر واليقظة |
| ٢٧٧ | الحيلة |
| ٢٨٢ | (صراع النتائج) |
| ٢٨٣ | للشعور بالمطاردة |
| ٢٩١ | صراع المموم |
| ٢٩٧ | الوحوش |
| ٣٠٤ | الوهم |
| ٣١٠ | صراع السلطة |
| ٣١١ | السلطة التشريعية |
| ٣١٣ | السلطة التنفيذية |
| ٣١٥ | السجن |
| ٣١٧ | الشعر الاجتماعي |
| ٣١٨ | الأغراض التقليدية |
| ٣١٩ | الفخر |
| ٣٢٠ | الاعتزاز بالقبيلة |
| ٣٢١ | الملح |
| ٣٢٥ | الهجاء |
| ٣٢٧ | الرتاء |
| ٣٢٩ | الغزل |

| | |
|-------|------------------------------|
| | (الخلق الاجتماعي للصعاليك) |
| ٣٣٤ | الصلة الشخصية |
| ٣٣٧ | العفة |
| ٣٤١ | الاشتراكية |
| ٣٥٠ | الطبيعة |
| ٣٥٩ | الخصائص العامة |
| ٣٦٠ | تميز روح الشعر |
| ٣٦٢ | الخصائص السلبية |
| ٣٦٣ | شعر الترف |
| ٣٦٨ | الفحش |
| ٣٦٩ | الزهو والخيلاء |
| ٣٧١ | تمثيل الحياة الشخصية |
| ٣٧٦ | الذاتية |
| ٣٧٨ | الواقعية |
| ٣٨٣ | التجربة والصدق |
| ٣٩٢ | الوحدة |
| ٣٠٤ | عدم التزام التصريح |
| ٤٠٦ | (خصائص الشعر الجاهلي) |
| ٤٠٨ | انفراده ببعض الموضوعات |
| ٤٠٨ | الجوع - العدو |
| ٤٠٩ | الحيلة - الطبيعة |
| ٤٠١ | القصص والتصوير |
| ٤١٠ | الأسلوب القصصي |
| ٤١٥ | التصوير |
| ٤١٧ | اختلاف مستوى الألفاظ |
| ٤٢١ | (خصائص شعر الاسلاميين) |
| ٤٢١ | العكوس |
| ٤٢٣ | انفراده ببعض الموضوعات |
| ٤٢٤ | الشعور بالذنب |
| ٤٢٥ | صراع الولاة والسجن |
| ٤٢٧ | أهم المراجع |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٦٠٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٢٦



مطابع الهيئة العامة للكتاب

٦٠٠ قرش